قصص القرآن الكريم

و

سيرة سيد المرسلين

بعيداً عن الإسرائيليات وشطحات بعض المفسرين

د. محمد منير الجنباز

مكتبة التوبة



قصص القرآن الكريم
و
سيرة سيد المرسلين


شبكة
الألوكة
www.alukah.net


بسم الله الرحمن الرحيم


الجديد
NEW & EXCLUSIVE



قصص القرآن الكريم
و
سيرة سيد المرسلين

بعيداً عن الإسرائيليات وشطحات بعض المفسرين

د. محمد منير الجنباز

مكتبة
التوبة





الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

مكتبة الرُّشد
المملكة العربية السعودية - شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠
الرياض ١١٤١٥





تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله... وبعد:

فإن حياة الأنبياء والعظماء المصلحين ومسيرة دربهم تستهوي ذوي الفكر الناهض المتألق وتجعلهم في شغف وتوق للوقوف على تفاصيل كفاحهم والأحداث الجسام التي واجهتهم وكيف تعاملوا معها؛ خصوصاً عملية احتكاك هؤلاء النخبة مع طبقة الحكام المتغطرسين والمتجبرين الذين تسلطوا على الشعوب باستعبادهم واسترقاقهم وتميزهم وتعاليهم على عامة الناس بادعاءات باطلة من الخوارق أو بإضفاء صفات الألوهية على أنفسهم لتبقى لهم السيطرة والعلو وتسخير شعوبهم لمزيد من الخدمة والتفاني لأجل مزيد من شهوات النفس ـ كما في حالة فرعون ـ وغيره من هؤلاء المتجبرين والطغاة الذين حولوا حياة شعوبهم إلى جحيم وحرفوها عن الغاية التي خُلقوا لها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وأنى للمساكين المستضعفين أن يدركوا هذه الغاية في ظل المتكبرين والطغاة الظالمين الذين أحلوا أنفسهم محل الخالق، فكان لا بد بين فترة وأخرى أن يكون هناك رسل يبلغون رسالة ربهم إلى الناس لينقذوهم مما هم فيه من التيه والضياع فكان الصراع بين الخير والشر وكانت هناك ضروب من نزعات النفس الشيطانية التي كانت تتحدى الخير وتعمل على تدميره لتبقى لها الساحة خلواً من كلمة نصح أو نهي أو زجر فتُحكم قانونها الجائر على رقاب الناس فتسري بذلك إرادتها المنحرفة.



لقد سجل القرآن الكريم هذا الصراع بإيراد نماذج من أهل الصدود والانحراف بأسلوبه البديع وقصصه المحكمة التي كشفت عما خبأه التاريخ في أزمنته المختلفة البعيدة نوعاً ما والموغلة في القدم بما يفيد في تقوية الإيمان والصمود على الحق وتمييز الطيب من الخبيث من الأقوال والأفعال والوقوف على أساليب الماكرين الذين يغلفون الكذب والخداع بأغلفة براقة خادعة تخفي حقيقتهم وعظيم خداعهم عن العامة من الناس ليسري باطلهم وفق أهوائهم فيضل الناس ـ بهذا الخداع ـ عن سلوك الطريق السوي وتكون العاقبة الخسران المبين ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

كان دأبي في هذا الكتاب أن أختار من التفاسير أقومها وأدقها في تجلية المعاني وإيراد القصص الذي يطابق النص القرآني ولا يحيد عنه برأي مصادم، فكيف لي على سبيل المثال أن أقبل بقول يحط من قدر طالوت بدعوى الغيرة من داود فنسبوا إليه تدبير المكائد للإيقاع بداود وهو الذي زكَّاه رب العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، لقد انساق عدد من المفسرين ـ على سبيل المثال ـ وراء الإسرائيليات التي تتهم طالوت بكل قبيح وأن هذا الاتهام ـ برأيي ـ نابع من اعتراضها الأول على اختيار الله له، لكي تظهر أن رأيها هو الصواب عندما تنسب إليه التآمر على داود لقتله، وهذا ليس بغريب فقد اتهموا الأنبياء بأقبح من هذا...

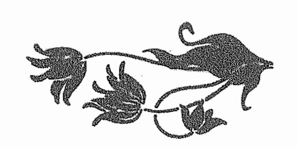
وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب؛ كانت مسيرتنا مع السيرة النبوية حيث راعيت فيها الأسلوب نفسه من حيث الدقة في الخبر وتحري الراجح من الأقوال وترك المرجوح والإضراب عن الخبر الذي لا يصح ويظن الذين ينتحلون الأخبار ويختلقون القصص في هذا المجال أنهم يحسنون صنعاً ـ إن كان هدفهم نبيلاً ـ لكنهم يوغلون في الخطأ بهذا العمل وقد يقعون في الكفر من حيث لا يدرون، لقد زعم أحدهم بأن النبي ﷺ قال لأبي بكر وهو في غار ثور عندما شاهد شدة قلقه من مطاردة قريش لهما: «إذ أتوا من هاهنا خرجنا من هاهنا ـ مشيراً إلى نافذة فتحت لهما إلى شاطئ البحر



مع وجود زورق ينتظرهما ـ» فكأن هذا المنتحل لهذه القصة يعترض على ما أعده الله لهما من النجاة والعناية بهما حسبما يشاء وكيف يشاء، وقد رافق سرد هذه السيرة تحليلات ومواقف أظنها أنها مفيدة للقارئ ومساعدة على التفكير والاستقراء الأفضل للحدث فتكون الفائدة أكثر والدربة على قراءة الأحداث أنضج.

لقد كان العمل ـ ولله الحمد ـ موفقاً وموثقاً يؤسس لمنهج قويم.

د. محمد منير الجنباز




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
حصري
NEW & EXCLUSIVE



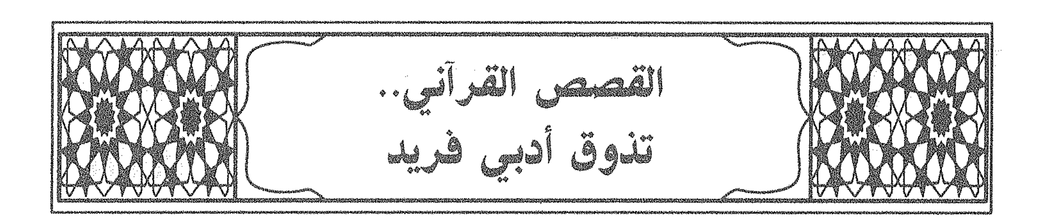
القسم الأول




شبكة
الألوكة
www.alukah.net

الجديد
و
حصري
NEW & EXCLUSIVE





القصص القرآني.. تذوق أدبي فريد

القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان، فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، وهو حجة الرسول وآيته الكبرى، يقوم في الدنيا شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته، مدللاً على صدقه وأمانته، وهو ملاذ الدين الأعلى، يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته، وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه ومعارفه، وهو عماد لغة العرب الأسمى، تدين له اللغة في بقائها وسلامتها، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها، وهو القوة التي غيرت صورة العالم ونقلت حدود الممالك وغيرت مجرى التاريخ، وأنقذت الإنسانية العاثرة (عن مقدمة مناهل العرفان) والقرآن الكريم أرسى أسس التوحيد وعبادة الخالق والتقرب إليه وحده وإخلاص العبادة له، وفيه مجمل الأحكام الشرعية، وأخبار الأمم السالفة وما تعرضت له من امتحان وصبر وبلاء، وذكر الفائزين المرضيين لنيل الدرجات العلى يوم الحساب والساقطين المتردين في النار، وكما ذكر الله الأنبياء والصالحين، ذكر الجبارين والمتكبرين والعتاة الظالمين، فكان القرآن مرآة صادقة تكشف للمسلم السبيل الذي ينبغي له سلوكه إن أراد الفوز والنجاة وأمامه نموذجان من أصحاب الجنة وأصحاب النار،

والعاقل المدرك لحقيقة وجود هذا الخلق يعلم تمام العلم أنهم خلقوا كما قال خالقهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات] فيخصص العاقل أحلى ساعاته للعبادة ويجعل ما يعمله في الدنيا لأجل المعاش يصب في خدمة الآخرة ليكون من الفائزين.

➢ القصة:

القصة هي الحكاية والرواية والخبر، ولكن التعريف الحديث يفرق بين كل نوع من هذه الأنواع الأدبية، فالقصة هي العمل الأدبي الذي استوفى من الخصائص أو العناصر ما يعرف بالحادثة أو الحدث ثم السرد أو نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية، ثم البناء أو اختيار وقائع بذاتها والتأليف بينها بحيث تبدو منحصرة بين النتيجة والهدف مروراً بالمقدمة والوقائع والحوادث المفاجئة والعقدة والتنوير والحل، ثم الشخصية وهي من أهم عناصر القصة ثم الزمان والمكان ثم الفكرة.

وعليه فلا بد للقصة لكي تأخذ شكلها الأدبي أن تتكون من أهم العناصر المذكورة، وهي: الحادثة أي موضوع القصة، ثم الشخصية، ثم العقدة والتنوير والحل مع وحدة الزمان والمكان والمغزى من القصة.

➢ أهمية القصص القرآني:

للقصص القرآني أهمية كبيرة في التعرف على الأمم السابقة والصدام مع الطغاة والمعارضين والذين أطلق عليهم القرآن أحياناً الملأ، أو المتكبرين، والتعرف على دعوة الأنبياء وما عانوه من شعوبهم في الدعوة وما تعرضوا له من الإيذاء والاضطهاد، وعندما يستعرض المسلم تاريخ الأنبياء وسيرتهم يتأسى بهم ويصبر ويعلم أن العقبى للمؤمنين وأن الدين سينتصر وتصبح كلمة الله هي العليا، والقصص القرآني يُعَدُّ دربة لسلوك طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ومفتاح خير يفتح للمسلم الآفاق على نهاية الطريق، وقد كان وسيلة تثبيت للنبي ﷺ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

أغراض القصة:

للقصة القرآنية أغراض مهمة نذكر منها ـ كما ورد في كتاب التصوير الفني في القرآن بتصرف ـ الآتي:

- **إثبات الوحي والرسالة**، حيث ذكر قصص الأمم السالفة، والنبي ﷺ أمي لم يجالس أحبار اليهود ولا رهبان النصارى، وأتى على ذكر من سبق من الأمم، وما حدث بينهم وبين الأنبياء المرسلين، دليل على صدق ما أتى به وأنه وحي من الله.

- **بيان أن الدين الذي دعا له الأنبياء هو من عند الله ويصدر من مشكاة واحدة**، وذلك لوحدة الدعوة إلى الله وتوحيده ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

- **الدين كله موحَّد الأساس، يركز على العقيدة ويدعو إلى الإيمان بالله الواحد** ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٥٠ و٦١] وهكذا دعوة كل الأنبياء.

- **وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وكذلك رد فعل الأقوام متقاربة**، الرفض والإيذاء والوقوف ضد النبي وأتباعه وممارسة التعذيب والتآمر لقتل الأنبياء.

- **بيان الأصل المشترك** بين دعوة إبراهيم عليه صلوات الله ودعوة محمد ﷺ بصفة خاصة وبقية الرسالات بصفة عامة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى].

- **العقبى في الصراع للمسلمين**، ويندحر الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

- **تصديق وعد الله ووعيده**، التبشير والتحذير، والإنذار والتخويف وأنه حقيقة مشاهدة يأتي في الوقت المناسب، كما في قصة لوط لما ظن قومه أنهم سيصلون إلى ضيوفه بقوتهم وضعف لوط أمامهم جاء النصر ﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] وكذلك في بدر حيث نصر الله القلة على الكثرة.

- **بيان نعم الله على أنبيائه وأصفيائه**، من خلال ما يرد في القصة، كقصة يونس وداود وسليمان وما أفاء الله عليهم من النعم ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

- **تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم** منذ قصة امتناع الشيطان عن السجود لآدم ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

- **بيان قدرة الله على الخوارق والمعجزات**، كما في قصة خلق آدم وعيسى عليهما السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وسنستعرض القصص القرآني وفق التسلسل التاريخي غالباً مع دمج القصة الواحدة حيثما وردت في السور، والتعامل مع القصة الطويلة والخبر القصير بالأسلوب نفسه باعتباره قصة كاملة لها سماتها القصصية.



قصة آدم عليه السلام

تبدأ الخليقة البشرية على الأرض بخلق آدم عليه السلام، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يعمر الأرض بالبشر، فخلق آدم، ولم يكن خلق آدم سراً أو أمراً مكتوماً، وإنما لقي إشاعة للخبر وحواراً بين الله وملائكته في شأن هذا المخلوق ووفائه بالالتزام لما خُلق له، ثم أجري لهذا المخلوق حفلاً تكريمياً مهماً حضره كافة ملائكة الله وفيهم إبليس، وكان قمة التكريم لهذا المخلوق أن أمر الله هؤلاء الحضور بالسجود لآدم، فسجد الملائكة كلهم أجمعون طاعة لله إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، والقرآن الكريم يبين تسلسل خلق آم من حين أن كان طيناً، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمٰن] وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**» كما ورد أن الله خلق آدم بيده وشكله على الهيئة التي خلقه عليها فكان نموذجاً فبقي هكذا صلصالاً كالفخار أربعين سنة، فكان إبليس ينقر عليه بيده فيصدر صوتاً كما لو نقر على جرة من الفخار، ثم نفخ الله فيه الروح فسرت في جسمه حتى وصلت رأسه فعطس آدم فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله تبارك وتعالى يرحمك الله، وفي رواية: رحمك ربك يا آدم، وأما عن بدء خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ

﴿٧﴾ [السجدة]. وقد أخبر الله تعالى ملائكته أنه قضى وقدر خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص]، فكان أصل هذا البشر «آدم» حيث شكله الله تعالى بيديه وتركه على باب الجنة صلصالاً كالفخار أربعين سنة، ولما نفخ فيه الروح أمر الملائكة أن يسجدوا له سجود تكريم، كما أخبر الله تعالى ملائكته بمهمة هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، واستفهام الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قياساً منهم على ما كان من أمر الجن حين انفردوا بسكناها فقتل بعضهم بعضاً وسفك بعضهم دماء بعض، والملائكة يتأذون من هذه المناظر كما يتأذون مما يُفعل على الأرض من منكرات، فقد ورد في الأحاديث الشريفة **«أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب أو تمثال أو تصاوير وأنها لا تصحب رفقة معهم كلب أو جرس»**، وتتأذى من أكلة الثوم أو البصل إذا دخلوا المسجد ففي الحديث عند مسلم **«من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»** وتتأذى من **تعري الإنسان** إلا في الخلاء، وطُلب من الإنسان أن يستتر وهو في الحمام وأن **الملائكة الكرام الكاتبين** لا تفارق الإنسان إلا عند الجنابة أو الغائط أو الغسل، فتبتعد عنه، وتتأذى من المنكرات ومجالس اللهو والخنى والمسكرات والموبقات، وهذا ما خَشِيته من هذا المخلوق الجديد لما أخبرها المولى عزَّ وجلَّ أنه سيستخلفه في الأرض، وأما من قال باعتراضهم على الله أو عصيانهم عند سماع خبر إيجاد هذا المخلوق؛ فقوله: «وهْمٌ» وخطأ فهو لم يعرف طبيعة الملائكة، فالله خالقهم قال عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وكما ينزعجون من أخطاء الإنسان؛ يسعدون أيضاً بطاعته وعبادته ومجالس القرآن والذكر والعلم، ويقفون على أبواب المساجد يوم الجمعة يسجلون الحضور حسب تبكيرهم وقدومهم، فإذا صعد الخطيب على المنبر طووا صحفهم وجاؤوا يستمعون الذكر، قال ابن كثير في البداية والنهاية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فأخبرهم بذلك



على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما يتوهمه بعض جهلة المفسرين. وأما جواب الله تعالى لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ليس تبرئة للإنس من سلوك هذا السبيل، وإنما لإعلامهم أن إخبارهم بما أراد هو للعلم لا للمشورة، وأن هذا النوع الذي سيخلف الجان في إعمار هذه الأرض سيكون من نوع مختلف عنكم وعن الجان، فإن كنتم من النوع الصرف الذي يوحد ولا يذنب، فإن المخلوق الجديد سيكون في امتحان عسير يتنازعه طريقان، طريق الخير وطريق الشر، وأيهما غلب عليه سيحتم له المصير الأبدي إما إلى جنة وإما إلى نار، وقولهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ كأنهم يريدون أن ينفردوا بالوجود وأن لا يشاركهم مخلوق في هذا، لا حسداً لأنهم لا يعرفون الحسد، وإنما كي لا يتأذوا من جحود المخلوق وكفره ونكرانه ـ كما ذكرنا ـ ولكي يثبت لهم ربهم أهمية هذا المخلوق زوده بالعقل، وزينه بالعلم، فعلمه أسماء الأشياء الحسية والمعنوية ولغة التخاطب، فكان ناطقاً، وهذا يدل على أن الأشياء خلقت قبله من حيوان وجماد فاحتاج لتعلم أسمائها، وجعلت الأرض مسكناً صالحاً له، حيث ظلت ملايين السنين تتقلب من حال إلى حال وطور إلى طور حتى ناسبت سكناه، وأصبح ما فيها مسخراً له، وقد أخبر الله تعالى عن هذا بقوله: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت] فكان خلقها وتكوينها وخلق ما فيها من أقوات في أربعة أيام من أيام الله التي لا يعلم مداها الزمني وفق سنواتنا إلا الله، وبقية خلق الكون في يومين ليكتمل الخلق للسموات والأرض في ستة أيام، وهكذا خضعت الأرض لهذا التشكيل الرباني لتناسب عيش الإنسان، **ومن هذه الآيات نستنتج أنه لا توجد حياة تناسب الإنسان على الكواكب الأخرى لأنها عدت من بقية الكون التابعة للسموات ولم يشملها ما جرى للأرض**، وأما هذا العدد من الأيام للخلق فتلك حكمة الله، والله



تعالى قادر أن يخلقها بكلمة «كن» ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولعل هذا الحديث يوضح الخلق بكلمة «كن» «**فقد ورد أن الملائكة طلبوا من ربهم الجنة لهم فكان الجواب لن أجعل صالح من خلقت بيدي كمن قلت له كن فيكون**» وهذا يدل على أن خلق آدم الذي استغرق زمناً قبل نفخ الروح فيه ليس كمثل الملائكة الذين خلقوا بكلمة «**كن**»، ولله الأمر من قبل ومن بعد في كيفية خلق عباده كما يشاء بما يريد.

وبعد اكتمال الصورة الإنسانية لآدم عليه السلام، قدمه الله للملائكة وأمرهم بالسجود له، سجود تكريم ورفعة شأن، ولأن الروح التي في الإنسان هي من روح الله، غير أن إبليس لم يستجب لأمر الله في السجود فأبى أن يكون مع الساجدين ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص]، والسجود لآدم من قبل الملائكة هو سجود ينسحب على كافة ذريته، فالعاقل من البشر عندما يستذكر ذلك ينشط في طاعة الله عرفاناً منه لهذا التكريم، قال الله تعالى ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة]، وقال في سورة أخرى يظهر فيها جدال إبليس وتبرير فعلته بعدم السجود: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف]، ولهذه المخالفة من إبليس وإغضابه ربه وعصيانه العلني استحق غضب الله والطرد واللعن والخلود في جهنم، لكن إبليس الذي علم مصيره المحتوم في جهنم لم يشأ أن يدخلها قبل أن يبث كامل شره بين الخلق حتى يدخلها بمرتبة الأذى العليا لذلك تنمر وكشر عن أنيابه وما تأجج في داخله من غضب وحقد فابتدأ عداوته السافرة لآدم، وطلب من ربه أن يؤخره إلى يوم القيامة لكي يقوم بإغوائه وإغواء ذريته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ



لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء]، أرأيتك بمعنى أخبرني، لأحتنكن بمعنى لأستولين عليهم ولأستميلنهم، وقد أورد النص القرآني تبرير إبليس بعدم السجود لآدم فقال تارة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾، وقال: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ لقد قال إبليس كل هذا وهذا دليل حقده وحسده، ومحاولته إيجاد مبرر لفعلته النكراء، وهذا فعل كل حسود وحقود، يصعّد في التسويغ وسوق الحجج كي تقبل منه، لكنه لا بد وأن يقع بذلة لسانه التي أخبرت عن حقده وحسده وجحوده ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

وبدأت العداوة بين إبليس وآدم بشدة، فآدم يتقيه بالاستعانة بالله والبعد عنه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، وإبليس قد توعد آدم وذريته بالويل والثبور وعظائم الأمور، لا يكف عن الإغواء ساعة من زمن خصوصاً لما لعنه الله وطرده من رحمته وعرف مصيره المحتوم في النار، فأصبح محموماً يريد الشر لكل مخلوق، قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر] تأمل هذه المحاورة لكي تتعرف على حقد إبليس على آدم ومن بعده على بنيه، إنه يعلم أنه خسر كل شيء للأبد، وطرد مما كان فيه من نعيم ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ سواء الضمير في منها راجع إلى الجنة أو إلى المكانة التي كان عليها قبل العصيان، فقد تبدل حسنه يوم كان ذا مكانة عالية إلى قبح بعد أن سفُل، فهو أقبح مخلوق في هذا الكون، إنه يستشيط غضباً ولا يبالي بما يفعل، يود لو أن له شيئاً من قوة لدمر



الكون، ولكن هيهات، فهو أضعف من ذبابة أمام صمود المؤمن وتمسكه بتعاليم خالقه، إنه القهر الذي يذله، فلقد أذله آدم الإنسان الذي بدا له ضعيفاً، فحرمه من مجده ومكانته، حيث أظهر كامن حقده وحسده وتكبّره، فليس عنده ـ بعد أن صب الله عليه اللعنة ـ مهادنة أبداً ولا تراجع عن حقده وكراهيته للبشر، لقد أعد لهم الشرور وتفنن في التنويع والتنكيل، ولكن إيذاؤه للإنسان لا يكون إلا بقدر ما يستجيب هذا الإنسان لوسوسته، فاتقاؤه بالتمسك بالدين وما وصانا به الله عزّ وجلّ عن طريق رسله صلوات الله عليهم أجمعين، لذلك عرّفنا الله أن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فمن سلكها وتمسك بها كان مستثنى من الإغواء فلا يصل إليه شر الشيطان ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أما آدم فقد علا ذكره وشاع خبره بين الملأ الأعلى وفاز بالتكريم كما فاز بسكنى الجنة ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] وفي سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فمن أين لآدم الزوجة ونعلم أنه لم يكن معه زوجه عند الأمر بالسجود له، فهذا الخطاب على ما سيكون لأن زوجته معه يحملها أحد أضلاعه، قال في الفتح القدير: «قال لما سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه» وهناك كانت لباساً له وكان لباساً لها، وسكن لها وسكنت له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وفي [الأعراف: ١٨٩] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويمكث آدم وزوجه في الجنة بحياة رغيدة هنيئة طمأنه ربه فيها ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ لكن هذه العيشة الهانئة مشروطة بشرط سهل التنفيذ ليس فيه أي تأثير على مسيرة حياة آدم وزوجه في الجنة ولا يحد من رغباتهما مطلقاً، فهو محظور واحد أمام مباحات لا حد لها، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ شجرة



واحدة هي الممنوعة فقط، وذكر المفسرون أنها الكرم وقالت طائفة منهم الحنطة وقال آخرون النخلة، والتزم آدم وزوجه بهذا الشرط، وعاشا في هناء وصفاء ورغد من العيش، غير أن إبليس الذي هدد وتوعد آدم بأن ينغص عيشه ويسوقه إلى درب الهلاك والعصيان قد مكر وخبأ لآدم الشر والدواهي ليوقعه في المحظور ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾، ومع القسم بأنه ناصح لهما وهو كاذب عاد للخداع وزخرف الكلام ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف] لا يمكننا أن نقول كيف تورط آدم وزوجه من الأكل من الشجرة، وكيف استطاع إبليس بالوسوسة والإغواء الإيقاع بهما، فقد ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**حاجَّ موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم، قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره عليّ قبل أن يخلقني، قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى**» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فهذا أمر قدره الله لأمر يريده وحكمة يعلمها وآدم نفذ ذلك مختاراً فقد تصرف وفق الطبيعة البشرية التي وضعها الله فيه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه] وهو التذكير لما سبق من وصية آدم بعدم الأكل من الشجرة وعدم طاعة الشيطان، لكنه نسي كل هذه الوصايا لما ركّب في الإنسان من طبيعة النسيان، فرغم كل التحذيرات من مكر الشيطان وأنه العدو الأول للإنسان، فقد زلت قدم آدم ووقع في العصيان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾ [طه] وقدم الله تعالى لآدم ما يطمئن باله ويريح خاطره وتفكيره من عناء مستقبله، فكانت الضمانات من العلي القدير بدوام العيشة الهنية إذا ما التزم بالبعد عن الشجرة وعدم الإصغاء إلى وسوسة إبليس ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا



تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ [طه] وهل هناك أهنأ من هذه العيشة وألذها، طعام جاهز يبعد غائلة الجوع وشراب لذيذ متى ما شعر بالعطش، وليس فيها ما يخيف من حر الشمس وقت الضحى فلا شمس أصلاً في الجنة، سعادة ما بعدها سعادة، ثم ماذا كان بعد ذلك؟ لقد تطلع بعد وسوسة الشيطان إلى الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ [طه] والوسوسة هي شيء خفي يدب في النفس ويسيطر عليها ويسيّرها فلا تنفك من إسار هذه الوسوسة إلا بذكر الله، لكن تجمعت على آدم الوسوسة مع قَسَم إبليس له بأنه ناصح وأنه إن أكل من هذه الشجرة فإنه سيكون خالداً مع مُلْك لا يبلى ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾ أي: أوقعهما في التهلكة وأنزل رتبتهما من عليائها وعزتها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وكانا مستورين بهالة من نور لا يرى أحدهما سوءة الآخر ولا حتى سوءته، وسميت السوءة بهذا الاسم لأن ظهورها للآخرين تسوءُهم، ربما كان هذا لباسهم في الجنة «النور» قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وربما كان لباساً من حرير وإستبرق وهو لباس أهل الجنة، فلما ارتكبا الخطيئة بالأكل من الشجرة تعريا بسبب العصيان ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ فارتاعا لهذا التغيير وكان بداية الوقوع في المخالفة، وإشارة إلى ارتكاب الخطأ وأن هالة النور الساترة قد زالت بفعل ما ارتكباه من خطأ وعصيان للأمر الإلهي، وكان بالقرب منهما شجرة تين فطفقا يقطعان من ورقها لكبره ويستتران به، أي يلصقانه فوق العورة ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ عن الأكل منها وعدم الاقتراب منها حتى لا تقعا في المحظور، وفوق هذا حذرهما من الشيطان ومكره وكيده وأنه مسلط عليهما ولا يعصمهما منه إلا الالتجاء إلى الله باتباع ما أمر والبعد عما نهى عنه ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهكذا خرج آدم وزوجه من الجنة بسبب الشهوة والنسيان وإغواء الشيطان، ليعيشا في دار الكدح والعمل والامتحان تتنازعه الأهواء والشهوات ونوازع الخير ونوازع الشر، فأمامه طريقان ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ



﴿١٠﴾ [البلد] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، فيحيا في صراع حقيقي لا هوادة فيه إلى أن ينتهي صراعه بالموت ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة] فتغيرت الدار فلم يعد كل شيء ميسراً لخدمة آدم بلا كدح أو تعب، فلا بد من العمل وبذل الجهد لتحصيل الرزق واستمرار الحياة، وبدأت مسيرة الإنسان فوق الأرض بآدم وحواء، وولدت حواء البنين والبنات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقبل أن نتابع حياة آدم على الأرض لا بد من وقفات:

ـ **ابتداء خلق آدم لم يكن على الأرض**، وإنما كان في الجنة، ففي الحديث الشريف الذي يرويه مسلم عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: **لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك**» أما طينته فهي من الأرض وكما ورد أنها ليست من مكان واحد فتنوعت لذلك أشكال ذرية آدم، وآدم هو أبو البشر ولا يوجد آدم غيره فهو أول من سكن الأرض من البشر وهؤلاء الناس ينتسبون له ويروي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة وقال: **أنا سيد القوم يوم القيامة، هل تدرون يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي**»، ومن حديث طويل عند البخاري ومسلم: «**أن المؤمنين يدخلون الجنة على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء**» فهذا صريح أن آدم هو أبو البشر



فالجنة التي عاش فيها آدم وحواء ـ التي خلقها الله من ضلعه ـ هي الجنة الحقيقية التي وُعد بها المتقون ليحيوا فيها حياة السعادة الأبدية، هي دار الخلود، وليست جنة في الأرض أو على ربوة في الأرض، لأنه لا توجد على الأرض جنة بهذه المواصفات، ولكن هل متّع آدم وزوجه بكل الجنة؟ فجنة الخلد كما ورد هي جنان مساحاتها واسعة جداً، ولعل آدم قد عاش فترة مكثه بالجنة بالقسم المخصص له في الجنة التي سينالها في الآخرة، وهذا ليس ببعيد لأن المسلم يعطى مساحة من الجنة تزيد عن مساحة الأرض أضعافاً، فما بالنا بالأنبياء؟! كما أن الجنة فيها أماكن عامة وأخرى خاصة، كحالة الدنيا التي فيها مساكن خاصة ومساجد وأسواق وحدائق عامة، قال الله تعالى يصف حال المؤمنين في الجنة في جلسة عامة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة]، وفي سورة الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية] وفي الحديث الذي يرويه مسلم عن أنس: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً». وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**» أخرجه البخاري، فهي في مكان عام، وفي الحديث الذي أخرجه مسلم: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة**» وهذه الأنهار كما ورد في الحديث الصحيح أنها تنبع من الفردوس «وتجري في الجنان كافة، وعندما سألت أم حارثة النبي ﷺ عن مصير ابنها الذي استشهد في بدر وهو غلام، قال لها النبي ﷺ: «**يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى**» فهذا مثل عن الأماكن العامة في الجنة، فآدم عندما كان في الجنة لم يسكنها كلها وإنما كان في الجزء المخصص له، خصوصاً



وأن إقامته في الجنة كانت ساعة من نهار، صحيح أنها تعدل من سني الدنيا كما ورد مائة وثلاثين يوماً لكن يبقى الزمن حسب المكان أي بالنسبة لآدم لم يكمل فيها يوماً وهذا يرجح أنه أقام في مكان محدود، فالجنة أوسع من أن يجول فيها كافة وأكبر من أن ينالها شخص واحد، فلو قارنا هذا بقصر كبير في الدنيا فهل بإمكان شخص واحد أن يستعمل كافة غرف القصر ومرافقه أم إنه سيستعمل جزءاً منه؟ وأما ما كان خاصاً، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال: «**بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر قالوا لعمر فذكرت غيرته فوليت مدبراً، فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله**» وفي رواية: «**فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك**» كما أخرج مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم من بعض**» فهذا للمؤمن فكيف تكون المساحة للنبي؟ وأخرج أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «**إنني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، رجل يخرج منها زحفاً فيقال: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب يدخل فيجد الناس قد أخذوا المنازل، قال: فيرجع فيقول يا رب قد أخذ الناس المنازل، قال: فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه، فيقول: نعم، فيقال له: تمنى، فيتمنى، فيقال: إن لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك، قال الراوي، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه**»، وفي رواية: «**عبدي أيرضيك أن أعطيك من الجنة الدنيا ومثلها معها**» هذا الخاص بهذه المساحة لهذا العبد الذي غلبت سيئاته حسناته فعذب بالنار ثم خرج منها، فكيف تكون الجنة التي خصصت لآدم عليه السلام إذاً؟ وماذا يفعل آدم بكل الجنان التي خلقها الله وهي كما رأينا عامة وخاصة، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام**» وفي حديث آخر: «**ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلى الجنة**» وأخرج الترمذي عن أبي سعيد قال: «**إن في الجنة مائة درجة لو أن العالمين**



اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم» فهذه هي جنان الله، فهل استعمل آدم هذه الجنان كلها؟ فعند البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**» فهذه جنة آدم، وكل نبي أو صالح ممن يشملهم هذا الحديث له جنته التي تبدو لأهل الجنة ـ من غير هؤلاء ـ كما يبدو لنا القمر أو الكوكب الدري، وعندئذ نقول إن الله أسكن آدم جنته أي الجنة المخصصة له في الآخرة وهي الجنة الحقيقية وليس جنة في الدنيا أو مكان آخر كما يزعم بعضهم.

ـ ويبقى السؤال إذا كانت جنة آدم هي جنة الخلد فكيف دخل إليها إبليس وهي محرمة على الكافرين؟ فالجواب أن إبليس لما طلب من ربه أن ينظره إلى يوم يبعثون وأن يسلطه على بني آدم، استجاب الله تعالى لطلبه وبدأ الصراع بين إبليس وآدم، وأصبح آدم عرضة لوسوسة إبليس وإغوائه، وآدم لم يكن محمياً من الله إلا بقدر ما يلتزم بتعاليم الله، و لم يكن قد أحاطه بحاجز مادي يمنع إبليس من التأثير فيه، وإلا فكيف يكون الصراع؟ وعندئذ يستحيل على إبليس أن يحقق ما أذن له الله به من الوسوسة والإغواء ويكون حاله كما قال الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

فدفاع الإنسان ضد إبليس هو بوسائله الذاتية التي تستمد العون من الله، وعليه فإبليس له القدرة على النفاذ والاختراق بما أعطاه الله من القدرة على ذلك، ولو لم تكن له هذه المقدرة لكان وعيده للإنسان بلا قيمة، فهناك إذاً الوعيد النافذ وهناك من الإنسان الدفاع النافذ المعتمد على اتباع تعاليم الله ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر] فأية ثغرة عند الإنسان لا يقوم بسدها سيستغلها إبليس للنفاذ منها إلى إيذائه والتأثير عليه، فهي حرب شرسة بكل ما للحرب من



خطط وخدع، والإنسان القوي الذي يغلب إبليس ويهزمه هو المعتمد على الله الحافظ لتعاليمه، فإذا عرفنا هذا فإننا لا نستغرب من إمكانية وصول إبليس إلى آدم في أي مكان كان، نعم فبعد انتهاء الدنيا عندما تقوم الساعة ينتهي معها إبليس وعمله، ويكون قد أنْظِر كما وعده الله وعمل عمله ببني آدم حتى أرضى غروره، لكنه بعد ذلك يهلك في النار بأشد العذاب وليس له ولا لغيره أن يحلم بالجنة أو أن يدلف إلى بابها، **ومن استعراض الآيات التي ذكرت صراع آدم مع إبليس نرى الآتي:**

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: خدعهما.
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.
- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

من هذه الآيات يتبين أن إبليس استعمل الوسوسة مع آدم للإغواء، كما استعمل الحوار، حيث يظن **الذين نفوا** أن تكون جنة آدم هي الجنة الحقيقية؛ لأن إبليس التقى به في الجنة وجعل نفسه محباً لآدم وناصحاً له، مدللاً على صدقه بالأيمان المغلظة وأنه ناصح له ولزوجه، وأن المنع والنهي من الله لكما كي لا تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقالوا: هذا مستحيل على كافر أن يدخل الجنة أو أن يجد ريحها، لذلك فهي غير جنة الرضوان وإلا كيف وصل إلى آدم وكيف التقى به وبزوجه؟

ويقول المثبتون للجنة: بأنها هي جنة الرضوان، لقد وجد إبليس أن التأثير على آدم بالوسوسة عديمة الجدوى، لأن الوسوسة شيء خفي يحدث في النفس فتحولها عن عمل الصواب، وأنها تقوم بعمل منكر فيه مخالفة الفطرة السليمة والتعاليم الدينية التي أمر الله باتباعها عن طريق الرسل والكتب المنزلة عليهم، لذلك فإن القلب النابض الواعي يكتشف هذه



الوسوسة فيتخلص منها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف]، فيعوذون بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف]، وأمام هذا لم يكن أمام إبليس سوى الاحتيال لمقابلة آدم فبالمقابلة يتحقق بها ما لا يتحقق بالوسوسة عن بعد، فسعى لدخول جنة آدم ومكان سكناه، وذكرت التفاسير أن إبليس حاول دخول الجنة فمنعه خزنتها فعاد أدراجه لكنه لم ييأس فهو مسلط على آدم، ثم طلب من الحية أن تدخله على آدم فإن معه نصائح له، فدخل جوفها وكلم آدم من جوفها فلم يحفل به آدم، فخرج من جوفها فمازال يغريه ويقسم له أنه ناصح له، وقال: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾.

أقول: إن ما جرى بين آدم وإبليس من حوار لم يكن عن طريق المقابلة ولا عن طريق دخول إبليس إلى الجنة عن طريق الحية أو غيرها فهذا لم يحصل وليس ثابتاً، وإن الجنة فعلاً محرمة على الكافرين، لذلك كان هذا الحوار بين آدم وإبليس على طريقة الحوار بين المؤمنين الذين في الجنة والكفار الذين في النار الذي صوره لنا القرآن الكريم: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، فكان حواراً لم يدخل أحد الطرفين مكان الآخر، وكذلك ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الآيتان من سورة الأعراف، وهكذا كان الحوار وأهل الجنة في جنتهم وأهل النار في نارهم ومحرم عليهم دخول الجنة، فعلى مثل هذا التصور حصل الحوار بين آدم وإبليس، وحصول الإغواء دليل الضعف البشري أمام شهوة النفس.

وورد في التفسير أن آدم امتنع عن الأكل لكن الحيلة انطلت على حواء فتقدمت وأكلت من الشجرة ثم قالت يا آدم كلْ فإني أكلت فلم يضرني - وهي صادقة - لأن المنع كان مرتبطاً بهما معاً، فلو أكل أحدهما



ولم يأكل الآخر لم تحصل المخالفة لأنها مشروطة بأكلهما معاً، وآيات المنع تنطق بهذا، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]، وفي الأعراف ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾، وخاطبهما إبليس معاً ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وفي سورة طه ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [١٢١]، فلما أكلت حواء من الشجرة وحدها لم يحصل لها التعرية فاطمأنت لهذا وأخبرت آدم أنها أكلت ولم يحدث شيء غير مألوف لها، وبهذا خدع آدم وربما نسي أن المنع كان لكليهما معاً، فإن أكلا معاً وقعت المخالفة، فأكل آدم بعدها، وكان الزلزال فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس، قال: «**قال الله لآدم: ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: يا رب زينته لي حواء، قال: فإني عاقبتها بأن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، وأدميتها في كل شهر مرتين**»، وأخرج البخاري ومسلم والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ـ يفسد ـ ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**» إشارة إلى سبقها آدم الأكل أو طلبها منه حيث قالت له: أكلت ولم يحدث شيء، فشجعته على الأكل، والخيانة هنا ليست الخيانة في العرض وإنما ميل الأنثى لفرض رأيها على زوجها ولو كانت على خطأ، قال ابن حجر: «وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك في طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه» الحديث الأول ليس بالقوي ولو صححه الحاكم، وذكر ابن كثير ما يلي: «**وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حثته على أكلها، والله أعلم**» بيد أن القرآن عاتبهما كليهما وهذا دليل الثنائية المشتركة في المخالفة وآدم باعتباره الأصل فهو المسؤول الأول قبل حواء ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا

عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف].

فالقرآن الكريم لم يتهم حواء ولم يذكر أنها هي البادئة وإنما كان التركيز على ذكر آدم بأنه هو الذي عصى ربه وهو الذي تاب، وزوجته كانت تبعاً له، وهذا يذكرنا بقوامة الرجل على المرأة ومسؤوليته الأولى عن البيت، بينما يذكر القرآن الكريم فعل حمّالة الحطب زوجة أبي لهب لما لها من المشاركة الفاعلة في الإيذاء مع زوجها، ويذم زوجَتَي نوح ولوط لخيانة كل منهما زوجه، ويمدح زوجة فرعون لإيمانها وهي في وسط قوم كفار فلم تتأثر بهم وظلت متمسكة بإيمانها إلى أن قضت نحبها، ولو كانت حواء هي السبب في جر آدم للأكل من الشجرة لذُكرت لأن أمر الإخراج أكثر أهمية مما عملته زوجتا نوح ولوط، إضافة إلى أنه عصيان لأمر الله وانسياق مع متطلبات إبليس اللعين وإخراج مهين لآدم من الجنة، قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٦ ـ ٣٧]، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه].

ـ هناك من يقول بأن آدم سبقه أكثر من آدم وليس هو أول إنسان على الأرض، وذلك مستنداً إلى العثور على عظام بشرية قدر تاريخها بأكثر من مليون سنة.

ـ وهذا خطأ فادح، فنص الآيات صريح بأن آدم النبي هو أول البشر الذين خلقهم الله تعالى، وخلق له زوجه في الجنة ومنهما كان نسل الإنسان، ولا توجد إشارات من قريب أو بعيد لوجود إنسان قبل آدم، وهو حديث عهد بالأرض إذا قيس بغيره من المخلوقات، أما التقديرات الجيولوجية لعمر الإنسان فهي ليست حجة وهي تقريبية وقد تحدث هزات أرضية فتنقل العظام إلى طبقات من الصخور قديمة، لذلك لا يقاس عمر العظام بعمر الطبقات المتشكلة التي تضم العظام، ولو تتبعنا الآثار التي خلفها الإنسان لدلت على زمن وجوده الحقيقي، فالباحثون وجدوا أن الآثار





المصرية هي أقدم شيء خلفه الإنسان، فالإنسان منذ النشأة الأولى ترك شواهد وبصمات تدل على وجوده أينما حل وأينما ارتحل، وهو منذ أن درج على الأرض إنسان ناطق متعلم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وآدم إضافة إلى أنه أبو البشر فهو أيضاً أول الأنبياء، فكان متعلماً ناطقاً له لغته التي يتخاطب بها، عارف بالأسماء ومسمياتها، ومن يظن أن الإنسان الأول على الأرض هو إنسان الكهوف الذي عاش كالحيوان ولم يعرف الحياة المدنية أو لم يعرف النار والصناعات المناسبة له فقد أخطأ كثيراً، أما سكان الكهوف والذين لم يعرفوا اللغة والتخاطب بها والذين عاشوا كالحيوانات يأكلون النيء من اللحم، فهم من الذين شذوا فيما بعد عن المجموعة الإنسانية وتفرقوا في الأرض فأثر فيهم بعدهم بفقدهم مقومات العيش الكريم ونسيان ما كان أسلافهم عليه، فعاشوا عيشة الحيوانات، وأكبر المثل ما نجده في أواسط إفريقيا ومجاهل أستراليا من الأقوام البدائية في كل شيء وحولهم بمسافات ليست بالبعيدة جداً أقوام في قمة التقدم، فلو أن غريباً من الفضاء على ـ سبيل المثال ـ حط بمركبته في وسط إفريقيا وشهد القوم ومعاشهم، ثم عاد إلى موطنه وأخبرهم بما شاهده لقالوا سكان الأرض هم صنف من الحيوانات التي تحيا حياة متخلفة، ولو حط آخر وسط أوروبا أو الولايات المتحدة وشاهد الناس والعلم لقال سكان الأرض في أحسن حال من العلم والمعرفة، وهم على درجة كبيرة من التقدم، فمن كتب عن الإنسان الأول لم يشاهد إلا الأدوات الحجرية، ولكن أنى له أن يشاهد العلم والمعرفة، وقد أخبر الله عن قوة الأقوام الغابرين ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾، ثم ذكر هؤلاء الأقوام: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ أليست سفينة نوح مخترعاً مهماً في ذلك العصر؟ ونوح هو الأب الثاني للبشر بعد الطوفان، والمهم في هذه المناقشة أن البشر منذ سكناهم الأرض كانوا عنصراً ذكياً ناشطاً متعلماً، وسنرى هذا من خلال قصة هابيل وقابيل.

❋ ❋ ❋



حياة آدم على الأرض

ما ذكرناه عن آدم من قبل كان في السماء، علماً بأن طينته من الأرض وهذا إعداد مسبق له من الخالق الخبير العليم، ولو قيل كيف عاش إنسان في السماء؟ نقول عُرِج بالنبي محمد ﷺ حتى وصل إلى سدرة المنتهى تحت عرش الرحمٰن، فهذا الأمر تكفل به الله وهو القادر على كل شيء، وسنبين معيشة آدم منذ لامست قدماه تربة الأرض، وهذا ما سنستخرجه من الأحاديث الشريفة وروايات الصحابة والتابعين ومن عنده علم من أهل الكتاب، فالقرآن الكريم لم يذكر تفاصيل معيشة آدم على الأرض، إنما أعطى القرآن تصوراً عاماً عن الحياة في الدنيا ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة]، ولكن أين هبط آدم وزوجه؟ تعددت الأقوال في هذا، فالمروي عن ابن عباس أنه قال: «أُهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها «دحنا» بين مكة والطائف»، وقال الحسن: «أهبط آدم عليه السلام بالهند وحواء بجدة وإبليس بدست ميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية بأصبهان وروى هذا ابن أبي حاتم أيضاً، وقال السدي: أهبط آدم بالهند، وعن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة «كان ذلك يوم الجمعة، ففي الحديث الذي أخرجه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**» وفي حديث آخر «**وفيه تقوم الساعة**» وعلى أية حال فليس في ما قيل قول مبني على خبر صحيح، وإنما أخبار اعتمدت على مصادر من كتب أهل الكتاب واجتهادات على بعض الآثار، والأحداث كلها تدور في بلاد العرب أو الهند، ولو قيل كيف نزل آدم في مكان قفر صحراوي، فالجواب أن أرض العرب كما ورد في الأحاديث كانت **مروجاً وأنهاراً**، وعليه فقد وصل آدم إلى الأرض والتقى مع حواء

بعد جهد وبحث طويل، والتأم الشمل وبدأ العمل لتأمين الحياة، وكان جبريل معلماً له ولزوجه كلما احتاجا شيئاً علمهما إياه، فعلم حواء أن تنسج من **القطن** ثوباً لها ولآدم على سبيل المثال، وقيل: **كان أول لباس لآدم من شعر الضأن، فنسج آدم له جبة ولحواء درعاً وخماراً** ـ فالخمار للصلاة ولا أظنه للحجاب لأن كل المواليد ذكوراً وإناثاً هم أبناؤها ـ وكان أول طعام له من **القمح** فقد جاءه جبريل عليه السلام بسبع حبات من الحنطة وكانت كبيرة الحجم تتناسب مع حجم آدم، فأخذها آدم وزرعها وبعد النضج حصدها ودرسها ثم طحنها وعجنها وخبزها، فأكل من عمل يده، وكان هذا وفق تعليم جبريل له ومصداقاً لقول الله تعالى له ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، وأصبح كل شيء يريده يحتاج إلى العمل وبذل الجهد، وعلى الأرض أثمر زواجه بحواء، فكانت تلد في كل بطن توأمين؛ صبي وبنت، فولد **قابيل** وأخت له في بطن، ثم ولد **هابيل** وأخت له في بطن، ولما بلغ الأبناء الحلم أمرهم آدم بزواج الولد من البطن الأولى بالبنت من البطن الثانية وهكذا بدأت ذرية آدم بالزيادة، وهو نبي مرسل إلى أبنائه إلى جانب أنه الأب والعامل لتأمين الرزق، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «**قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قال: قلت: يا رسول الله كم المرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً ـ يعني كثيراً طيباً ـ قال: قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم، قال: قلت يا رسول الله، وآدم نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، ثم سوّاه قُبُلاً ـ أي: عياناً**».

❊ ❊ ❊

قابيل وهابيل

ترعرع أبناء آدم وشبوا في رعاية أبيهم، وبلغوا سن البلوغ، ولتحقيق مراد الله في الأرض وما قدره لها من سكنى البشر، فلا بد

من عملية التزاوج بين هؤلاء الأبناء ليستمر النسل بلا انقطاع وما كان حلالاً للضرورة حرّم بالتدريج مع زيادة النسل وتفرعه، ومع ذلك راعى المشرع في الزواج الأول البعد ما أمكن، فقرر أن يتزوج غلام البطن الأولى من جارية البطن الثانية، وغلام البطن الثانية من جارية البطن الأولى، لكن هذه القاعدة لم تعجب قابيل الولد الأكبر، فإنه يريد الزواج من البنت التي كانت معه في بطن واحدة، وقد نصحه والده بالاستجابة لهذا الأمر، ولما عقّ وتمرد على الأمر، أمره والده حلاً لهذا الإشكال أن يقرب كل منهما قرباناً، فامتثلا للأمر، فقرب قابيل حزمة من القمح وكان صاحب زرع، وقرب هابيل كبشاً، فجاءت نار وأخذت الكبش علامة قبول قربان هابيل، غير أن قابيل لم يرض بما حصل فتوعد أخاه بالقتل ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة] وتركهما آدم على هذه الحالة ولبى نداء ربه في زيارة بيت الله الحرام، واستوصى قابيل خيراً بأخيه ريثما يعود، لكن **قابيل** خان العهد والأمانة وترصد لأخيه فأتاه وهو يرعى غنمه على غرّة فشدخ رأسه بحجر فأرداه قتيلاً ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة] ثم احتمله على ظهره ولم يدر ما يفعل به سنة إلى أن شاهد غرابين يقتتلان فقتل أحدهما الآخر فحفر له حفرة ودفنه فيها، وهنا اكتشف قابيل كم عانى من حمل أخيه ميتاً، ثم دفنه ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، وقد ورد أن **هابيل** كان أشد قوة من أخيه لكنه تورع عن قتله وأراده أن يحمل الوزر على فعلته فقال ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة]، وأصبح هابيل أول قتيل على ظهر الأرض من البشر، لهذا لم يعرف قابيل عملية الدفن وكيف تكون فتعلمها من



الغراب، وورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها**».

على مثل هذه القصة يمكننا أن نعد **المرأة** هي السبب، فتارة اتهموها بإغواء آدم بالأكل من الشجرة فأخرجته من الجنة، وهنا كان الجمال الآسر هو السبب في قتل الأخ أخاه، ولكن هناك مسار آخر لهذه القصة بعيداً عن النساء، وهي الحسد على التقوى والتدين، فقد تسابق الأخوان في تقديم القربان إلى الله ليعرف كل منهما منزلته من الله، فقدم كل واحد منهما قرباناً، فهابيل تمتع بالكرم والسخاء فقدم أفضل غنمه وأسمنها وأحسنها؛ كبشاً أقرن، وقابيل قدم حزمة من أردأ زرعه مستهيناً برمزية القربان، فتقبل الله قربان هابيل حيث بعث الله ناراً أخذته وبقي قربان قابيل كما هو دليل عدم الرضا عنه ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فحسد قابيل أخاه كما حسد إبليس آدم فتوعده بالقتل وقتله.

وقد حزن آدم لما عاد من الحجاز على مقتل ابنه كما حزنت حواء، ولم يخفف ألمهما بعد خمس سنين سوى ولادة حواء لغلام نجيب سماه والده شيثاً، أي هبة الله، فخلف هابيل، وروي أن جبريل قال له: هذا هبة الله بدل هابيل، وإليه أوصى آدم بالعلم، وروي عن ابن إسحاق أن آدم لما حضرته الوفاة دعا ابنه شيثاً فعهد إليه عهده وعلمه ساعات الليل والنهار، وأعلمه عبادة الخلق لله في كل ساعة من الليل أو النهار، وأخبره بأمور مغيبة ستحصل، منها الطوفان، فكان وصيَ آدم وخليفته من بعده، وقد أنزل الله عليه خمسين صحيفة، وإليه ينتسب بنو آدم فقد انقطع نسل قابيل وباد وسائر نسل إخوته كما قيل.

* من النص القرآني أن هابيل وقابيل هما من بكور أبناء آدم، وأن من زعم أنهما من أحفاده أو من بني إسرائيل فقد جانب الصواب، فالحديث صحيح صريح عندما حمل وزر القتل ظلماً إلى ابن آدم الأول ـ وقد مر ـ وعليه فصراع الخير والشر والتمرد على التعاليم الشرعية قد ظهر منذ العصر

الأول مع الإنسان، ولم يستثن من هذا القدر ابنا آدم، بل خضعا للامتحان الذي يجري على كل البشر.

❋❋❋

وفاة أبي البشر آدم

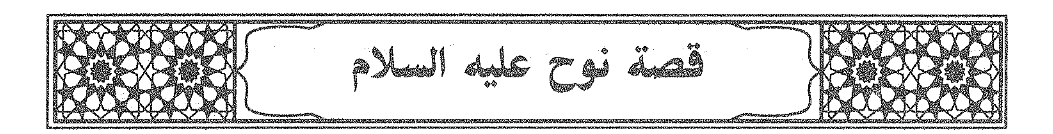
وحضر أجل آدم فتوفاه الله عند تمام الألف سنة كما ورد، وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له، فجلس فعطس فقال: الحمد لله، فقال له ربه: يرحمك ربك، إيت أولئك الملأ من الملائكة فقل لهم السلام عليكم، فأتاهم فقال لهم: السلام عليكم، قالوا له: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال له: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم، ثم قبض له يديه وقال له: خذ واختر، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين، ففتحها له، فإذا فيها صورة آدم وذريته كلهم، فإذا كل رجل مكتوب عنده أجله، وإذا آدم قد كتب له ألف سنة، وإذا قوم عليهم النور، فقال: يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور؟ فقال: هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسِلُ إلى عبادي وإذا فيهم رجل هو أضوؤهم نوراً، ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة، فقال: يا رب ما بال هذا من أضوئهم نوراً ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة؟ فقال: ذاك ما كتب له، فقال: يا رب انقص له من عمري ستين سنة» فقال رسول الله ﷺ: «فلما أسكنه الله الجنة ثم أهبط إلى الأرض كان يعد أيامه، فلما أتاه ملك الموت ليقبضه قال له آدم: عجلت يا ملك الموت، فقال: ما فعلت، فقال: قد بقي من عمري ستون سنة، فقال له ملك الموت: ما بقي من عمرك شيء، قد سألت ربك أن يكتبه لابنك داود، فقال: ما فعلت» فقال رسول الله ﷺ: «فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته، فيومئذ وضع الله الكتاب وأمر بالشهود» وفي رواية «وأقام عليه الملائكة شهوداً فأكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة».



قد ورد في الأثر أن آدم لما توفي غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له، وقالت: **هذه سنة آدم في ولده**» وورد أنه دفن بمكة في غار أبي قبيس وهو غار يقال له غار الكنز.

وتوفيت حواء بعد آدم بسنة، وروي أنها حملت عشرين بطناً وفي كل بطن ذكر وأنثى.





قصة نوح عليه السلام

ذكر القرآن الكريم نبي الله نوحاً عليه السلام في سور عديدة، أسهب في ذكره في بعضها، كسورة **هود والشعراء والصافات ونوح**، وأطنب جداً في بعضها الآخر كسورة **يونس والنجم والقمر والتحريم**، وذكر ذكراً عابراً في سور مثل النساء والأعراف والتوبة وغافر، ومن خلال ربط الآيات بعضها ببعض سيتكون عندنا قصة واضحة عن الفترة التي بعث فيها نوح عليه السلام لدعوة الناس إلى التوحيد بعد أن مالوا عن الطريق الصواب، وأن الناس في عهد نوح قد ابتعدوا عن المسيرة الإيمانية التي جاء بها الأنبياء قبل نوح مثل شيث وإدريس، وقد نشأ من هذا البعد أن اختلطت الأمور على الناس والتبس الحق بالباطل، فوجد الناس أنفسهم ينحدرون إلى الشرك من باب حب الخير وأهل الخير، فانقلب هذا الأمر عند تقادم العهد إلى تعزيز الشرك وتأصيله حتى غدا هو السائد وما سواه دخيل وشاذ مخالف لما عليه الأغلبية لا يُعترف به، فكان التوحيد غريباً ينبغي محاربته وهو مخالف لما وُجد عليه الآباء ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، وقد ورد أن هذه الأسماء هي لأناس صالحين أراد أقوامهم تخليد ذكراهم والاقتداء بهم والسير على نهجهم، فانقلبت هذه المحبة ـ مع تقادم العهد ـ إلى عبادة وتقديس بما ألقاه إليهم الشيطان ـ العدو المتربص بالمؤمنين ـ من أوهام تجاههم، فزين لهم عبادتهم بما أضفاه عليهم من قداسة وخوارق وأن هؤلاء الآلهة مصدر كل خير، فأضحى الشر سائداً وهو الأساس، وكل دعوة مخالفة لهذا الذي

اعتقدوه ينبغي محاربتها بضراوة، وفي كل مجتمع يقوم على مثل هذا الاعتقاد لا بد من وجود منتفعين يجنون الأرباح والجاه، يقفون ضد التغيير المصادم لمصالحهم، ويحرضون العامة والغوغاء ضد النبي المصلح الذي بعث لهدايتهم وإنقاذهم من العمى والضلال والأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى الموصل إلى رضوان الله وجناته، وكان هذا ما واجه نوحاً عليه السلام، فقد بعثه الله إلى قوم ضلوا الطريق واحتاجوا إلى مرشد يسلك بهم الطريق الصواب، فكان قدر نوح أن يكون هو النبي المرسل إليهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ وهكذا تلقى نوح التكليف بالرسالة، وتوجه إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله باذلاً جهده في إقناعهم، لا يريد منهم أجراً على جهده وإنما يسره كل السرور أن يقبل الجميع دعوته وأن يسارعوا إلى نبذ الشرك والاعتصام بحبل الله المتين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ وبذل الحجة والمنطق في الإقناع، وبرهن لهم حقيقة الأصنام، وأن موجد هذا الكون هو الله الواحد الأحد الذي يحيي ويميت، ويهب ويمنع، وهو الغفور لمن أناب وتاب، لكن ماذا كان رد قوم نوح؟ فاسمع لنوح وهو يصفهم باختصار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ يا إلهي كم عانى نوح من قومه ومن صدهم واستكبارهم، لكنه بالتأكيد صبر عليهم، وهذا من صفات الأنبياء، الصبر ثم الصبر ثم الصبر برغم استفزازهم له وسخريتهم به ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ عناد ما بعده عناد، أن يسدوا الآذان عن سماع الحق ويتقنعوا بالثياب، وقد عطلوا حاستي السمع والبصر، فلا يريدون أن يسمعوا أو يروا، وقد نوّع نوح في أساليب دعوته لهم لعله يصل إلى القبول عندهم فيصيخوا إليه بسمعهم ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ ومن التنويع في أسلوب الدعوة تحسين الأحوال في الدنيا والتبشير بعيش رغد وحياة أفضل حيث يفيض الماء ويكثر الولد ﴿فَقُلْتُ

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ ثم وجههم إلى ما خلق الله لهم على الأرض وما سخر لهم في هذا الكون لفائدتهم ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ وبرغم هذه الدلائل الظاهرة والحجج الباهرة أحجم قوم نوح عن اتباع الحق والسير في طريق الهدى واتبعوا كبراءهم غير عابئين بسخط الله وغضبه، وهذا منتهى الجحود والنكران لإنعام المنعم ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ استمرت دعوة نوح لقومه زمناً ليس باليسير، فقد تطاولت به المدة حتى أعذر بشأنهم، وشهدت فترة دعوته أجيالاً وقروناً وكأن الكبار كانوا يوصون الصغار والناشئة بعدم قبول دعوة نوح، فكان الجيل الجديد أشد إنكاراً وعتواً وتفلتاً من آبائهم، وقد شعر نوح بأنه أصبح بينهم غريباً متهماً بالجنون والتخريف وهم الأوفر شباباً والأكثر فهماً بأمور الدنيا ومتطلبات العيش، فلماذا العودة إلى الوراء، وعرف نوح ما يدور في أذهانهم تجاهه وكيدهم له ومكرهم به للخلاص منه ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس] ولكن لا بد لجهد نوح في الدعوة من ثمرة، فآمن معه عدد قليل من قومه، والتزموا بتعاليمه، إلا أن قوتهم لا تزال ضعيفة أمام قوى الشر الطاغية، وبهذا تعالى عليه المتكبرون وأنفوا من الدخول في دينه ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود]، وصعد القوم لهجتهم ضد نوح وأتباعه، وعدّوهم من السفهاء الخارجين على المجتمع، وأنهم كاذبون في دعواهم ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ وربما قاطعوهم اجتماعياً وتكتلوا ضدهم لعزلهم ومنع رافد جديد لهم من قومهم، **قال ابن إسحاق: «أن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»** ومع كل هذه الضغوط من الصادين فإن نوحاً لم ييأس من جدالهم



بالتي هي أحسن، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فلم تهتدوا لهذه الرحمة بسبب صدكم ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ فلن تدركوا هذه الرحمة وأنتم تحملون الكراهية لها، وأنا لن ألزمكم بها ولن تنتفعوا بها إلا بقبولها راضين بها عن حب وقناعة، فأما المتكبرون الذين غلف الران قلوبهم، فلن ينالوها ولن يحظوا برضا الله لهذا الخلق الذميم، فالدعوة مفتوحة للناس جميعاً بلا تفريق بين عظيم وصغير، كل الناس أمام الله سواء، والإيمان يوحد القلوب ويؤاخي بين المؤمنين ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ ما زال الجهل والعمى مسيطراً عليكم، وما زلتم لا تدركون معنى الأخوة في الدين، فاصحوا مما أنتم فيه من العماية والضلال، لكن كل هذه النصائح لم تجد سبيلاً إلى قلوبهم، وجعلوا من الضعفاء المؤمنين مشكلتهم وأصبحت كأنها هي العقبة التي تمنعهم من قبول دعوة نوح عليه السلام وأضحى إيمانهم مرتبطاً بطرد المؤمنين الضعفاء ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء] فكانت إجابة نوح أنه نبي يبلغ الرسالة والأمر لله في القبول وعدمه ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أتظنون الأمر سهلاً وتقيسونه بمقاييسكم الدنيوية حيث تصنفون الناس وفق الغنى والفقر، وتجعلون الناس طبقات، هذا منطقكم، فهذا عمل ضال لا يقبله الله منكم، لأنه قال ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ فعليكم أن تتذكروا هذا القانون وإياكم من تجاوز هذا الحد، وإن دخلتم في الإيمان فلتعلموا أن هذا لصالحكم ولإنقاذكم من النار ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ فلا تظنوا أن عندي الأموال فأمنحكم منها ما تشاؤون فأنا عبد والأمر كله لله، فهو الذي يعطي ويمنع، ويرزق ويغدق أو يمنع ويقتّر ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ كما لا أقول لمن آمن من الفقراء والضعفاء بأنهم سيستمرون على ما هم عليه من

الفقر والضعف إلى أن يتوفاهم الله، فهذا الأمر أيضاً ليس لي، إن أنا إلا عبد مأمور مكلف بالرسالة لأبلغكم إياها فهذه مهمتي، وأما تغير الحال من غنى إلى فقر أو من فقر إلى غنى ومن صحة إلى مرض أو من مرض إلى صحة فكل أحوال الناس وتقلباتها بيد الله، أما اعتراضهم على دخول الفقراء في الدين، فلم يكن إلا نوعاً من الجدال العقيم والحجج الواهية التي يتذرعون بها للمماطلة والتعويق، فهم أصلاً لا يريدون الإيمان ولا يرغبون فيه ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ولم يكن بعد قد أعد للطوفان عدته، وإنما كان التخويف بشكل عام من غضب الله وأخذهم بالسنين ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وهذا استنتاج من سورة نوح ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ فوعدهم بهذه الخيرات إن استغفروا ربهم دليل فقدانها عندهم وحاجتهم لها، وبعد الصد ضاق بهم نوح وشكا حاله إلى ربه بعد صبر طويل وتحمل للأذى قولاً وفعلاً ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء] فالأمر أخذ طابع المواجهة، لأن نوحاً مكلف بالتبليغ وأنى له أن ينتهي؟ والله قد كلفه بالتبليغ، فلا بد من الصبر والمعاناة، وطالت المعاناة مع أولئك المعاندين الأشقياء ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت]، وهل هناك مدة أطول من هذه المدة في الدعوة، فما أصبرك أيها النبي الكريم؟ لقد فسحت المجال لسماع الدعوة لأجيال وأجيال لكي يتفيؤوا ظلالها، ولكن هيهات لمن غلّف الران قلبه وتمكن الشيطان من إساره فأضحى شمساً لا يقبل الهدى ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لقد صبر نوح عليهم كثيراً وجرب دعوته في عدة أجيال منهم فما كان منهم سوى الصد والعناد واتهامه بالجنون، وهنا حق على المعاندين العذاب والاستئصال واستوجبوا عقاب الله ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم



مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ لقد قضى الله فيهم قضاء لا مرد له وكتب عليهم الهلاك غرقاً.

➢ مرحلة صنع السفينة وانتظار ساعة الصفر:

قال ابن إسحاق: حتى إذا تمادوا في المعصية وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله، حتى إن كان منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنوناً، لا يقبلون منه شيئاً، حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله عزَّ وجلَّ حتى قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ فأوحى الله إلى نوح أن ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فأقبل نوح على عمل الفلك، وانشغل عن قومه، فما عاد يكلمهم في شأن الدعوة كما كان شأنه من قبل، ألم يأته اليقين من ربه بأنه لن يؤمن إلا من قد آمن معك، لذلك تركهم وشأنهم وأقبل على العمل بجد ونشاط فأحضر من المواد كل ما يمكن أن يساعد في صنع السفينة، وجعل قومه يمرون به ـ وهو منهمك في العمل ـ فيسخرون منه ويستهزئون به، وقالوا في استهزاء: لقد غير نوح عمله وأصبح بعد النبوة نجاراً، ثم زادوا من السخرية بأن اتهموه بالجنون لأنه يصنع السفينة في مكان بعيد عن البحر، فكان يقول لهم ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ ولما أنجز نوح صنع السفينة بوحي الله وكما علمه الله وأصبحت جاهزة للإبحار، وقد حدد الله لنوح من قبل ساعة البدء في شحن السفينة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ وقصد بالتنور، تنور أهل نوح الذي يخبز فيه، إذا فار



بالماء فهو آية البدء في تحميل السفينة بالحيوانات من كل نوع ذكر وأنثى، إضافة إلى من آمن معه من أهله وغيرهم، وقد اختلف أهل العلم حول عدد الناس الذين كانوا معه، فقال بعضهم: سبعة، نوح وثلاثة من ولده وزوجاتهم، وقال آخرون: إضافة إلى ما ذكر كان معهم ستة نفر من المؤمنين، وورد عن ابن عباس أنهم كانوا ثمانين نفساً، وفي رواية ابن سعد عن ابن عباس قال: حمل نوح في السفينة بنيه سام وحام ويافث وكنائنه ـ نساء بنيه ـ وثلاثة وسبعين من بني شيث ممن آمن به، فكانوا ثمانين في السفينة، وكانت السفينة ثلاث طبقات، طبقة للحيوانات وأخرى للطيور وثالثة للناس، وتخلف عن نوح أحد أبنائه، فلما بدء المطر بالهطول والينابيع بالإنبجاس والماء بالارتفاع شعر الناس بالطوفان ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر] فلجأ ابن نوح ـ يام وقيل وفق رواية أهل الكتاب كنعان ـ العاق الذي كان يخفي الكفر إلى الجبال، ورآه والده فناداه، فكان الجواب الذي فيه المفارقة وعدم الرغبة في أن يكون تحت مظلة والده: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، وقد سجل القرآن هذه المحاورة التي فيها بيان لهفة الوالد على ولده عند اشتداد الموقف ودهم الخطر ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ لكن نوحاً تذكر وعد الله له وهو في غمرة الهلع وهياج الطوفان وتلاطم الأمواج في إنجاء أهله من الهلاك ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾، وقد ورد في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي**» قال رسول الله ﷺ: «**كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ حتى كان آخر زمانه غرس شجرة ـ وقيل:**



شجراً ـ فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعل يعمل سفينة فيمرون فيسألونه فيقول: أعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري! فيقول: سوف تعلمون فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه ـ وكانت تحبه حباً شديداً ـ فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت أعلى الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب به الماء فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي» وهكذا أتى الطوفان على كل شيء حتى غمر الأرض وما عليها وسفينة نوح طافية صامدة ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ لقد صنعت بإحكام من خشب الساج وربطت بالمسامير وطليت بالقار ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر] دسر: مسامير، وكان طولها ألف ومائتين ذراعاً وعرضها ستمائة ذراع، وقيل: طولها ثمانون وعرضها خمسون ذراعاً، واتفقوا على ارتفاعها فقالوا: ثلاثون ذراعاً، لكن قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ تدل على أنها عجيبة من العجائب حجماً وشكلاً وصنعة، ألم يصنعها نوح بوحي من الله وتوجيهه؟ (وجدت آثارها الواضحة على جبل الجودي في تركيا).

واستمر هطول المطر مع انبثاق الينابيع من الأرض أربعين يوماً على أشد ما يكون ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وقد غمر الطوفان الأرض جميعها حتى غمر رؤوس أعلى الجبال وزاد على ذلك، وطافت السفينة الأرض ستة أشهر ونيف وفي هذه المدة قضي على الكفار قضاء مبرماً استجابة لدعوة نوح ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ثم ساق الله السفينة إلى جبل الجودي وتوقفت عنده ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وبدأ الماء في التناقص، فاستردت الأرض ما دفعته وكذلك السماء بالتبخر، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «في أول يوم من ركوب نوح السفينة فصام هو وجميع من معه، وجرت بهم السفينة ستة أشهر، فانتهى إلى المحرم فأرست السفينة على الجودي يوم عاشوراء، فصام

نوح وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكراً لله عزَّ وجلَّ»، وجاء أمر الله ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ وهذا تذكير لنوح ومن معه بما سيمارسونه على الأرض هم ومن يأتي من نسلهم بأن من يحافظ على عقيدته ويبتعد عن الإصغاء إلى وساوس الشيطان بأنه سيفوز برضوان الله، ومن يتبع هواه وشيطانه فسيصيبه عذاب أليم، فهذا مشابه لما قيل لآدم من قبل، كما ورد أنها استقرت على الجودي شهراً، كما روي أن نوحاً عليه السلام أرسل الغراب ليكتشف انحسار الماء فخرج فرأى جيفة فوقع عليها يأكل منها فأبطأ عليه، فأرسل الحمامة فعادت وفي منقارها غصن الزيتون وفي أقدامها أثر الطين فعرف ظهور اليابسة، وأمر بالنزول من السفينة إلى الأرض، وعند سفح الجبل بنى نوح مدينة سماها ثمانين لأن لكل واحد من المؤمنين الثمانين بيتاً، وهي أول تجمع سكاني على الأرض بعد الطوفان ومنها سينتشر البشر فوق الأرض، وفي صحيح ابن حبان عن أبي أمامة أن رجلاً قال: «**يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون»** وذكر أنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة.

على هامش قصة نوح.

- البشر بعد نوح ينتسبون إليه ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

- زوجة نوح ومصيرها.

ذكرت في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾، قيل اسمها: واهلة، كانت تقول لقومه: إنه مجنون، فهذه هي الخيانة، وقد ورد: ما بغت امرأة نبي قط، وعلى هذا فالخيانة في قولها مجنون وإخبار امرأة لوط قومها عن أضيافه وزواره. ولم يرد أن نوحاً قد حملها معه في السفينة وقد غرقت مع

الكافرين، ويشملها قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالهلاك.

ولأهمية قصة نوح في أخذ العظة والعبرة، فقد ذكرت في عدد من الآيات تارة بالإشارة السريعة وأخرى بذكر جانب مما عانى منه مع قومه، ومرة بإجمال لمعظم محاور القصة، كما في سورة «المؤمنون» ومن خلال الشرح السابق فإن ذكر هذه الآيات يجمل القصة بأسلوب مختصر جامع ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون].

➢ كنعان ولد نوح والعتاب:

كان كنعان أصغر ولد نوح ولم يكن نوح يدري أنه كان على دين قومه، ولعله تأثر بوالدته التي كانت تمالئ قوم نوح ضد زوجها وفي العادة فإن أصغر الأولاد يميل مع أمه، وعندما ركب نوح في السفينة وافتقد ابنه وبحث عنه فرآه، فطلب منه أن يأتي معه ويركب في السفينة، فرفض وعاند والده وقال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، وظن الأمر يوماً ممطراً أو عدة أيام ويعود الصحو وينتهي الأمر، لكن والده أفهمه أن هذا الطوفان هو مفاصلة بين الإيمان والكفر ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولما رأى نوح ابنه كنعان يصارع الموج وهو لا شك مغرق لم يستطع تحمل هذا المنظر ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ واستغفر نوح ربه وأناب إليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ

أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

➢ هل غرق كل من في الأرض؟

منطوق الآيات الكريمة ووصف السماء التي جادت بالمطر والأرض التي نبعت بالماء ووصف الموج بأنه كالجبال وبقاء السفينة فترة طويلة فوق الماء فلا ترى اليابسة، ثم رسوها على جبل الجودي بعد انحسار المياه عن القمم العالية أولاً ثم عن بقية المناطق فيما بعد يدل على أن المياه غمرت الدنيا كلها وكانت الأرض المسكونة في زمن نوح لا تعدو منطقة العراق وبلاد الشام ومصر، وهي أرض النبوات، حيث الإنسان كان لا يزال حديث عهد بالأرض، وذكر الجيولوجيون حديثاً أنهم وجدوا مستحاثات بحرية فوق قمم الجبال ويوجد لها نظيرها في أعماق البحار، وهذا يرد على من قال إن الطوفان محلي.





قصة هود عليه السلام

نبي أرسله الله إلى قبيلة عاد، وكانت تسكن في بلاد حضرموت وهي أرض واسعة ما بين البحر جنوباً والجبال شمالاً التي تسمى الأحقاف، وتتخلل الأرض أودية كثيرة منها وادي حضرموت، وبين هود ونوح أربعة أجداد، وقوم هود من العرب وهم عاد الأولى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر]، وفسرت العماد بالعمد الكثير دليل سكنى الخيام، وبالقوة والشدة، وكانوا أهل أنعام كثيرة دليل بداوتهم، وأهل قرى دليل تحضرهم، فهم على هذا قسمان: بدو وحضر ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء] **فماذا فعل قوم عاد؟**

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت]، لقد اغتر القوم بقوتهم ورأوا أن قوتهم لا تقهر، وبهذه القوة يمكنهم أن يتجبروا ويتكبروا وأن يفعلوا ما يحلو لهم فلا يستطيع أحد أن يصدهم عما هم فيه وسيحطمون كل من يقف في طريقهم، وهكذا رأى قوم عاد أنهم فوق كل البشر ونفث الشيطان فيهم نزعة الشر والكبر والغرور، كما اتخذوا الأصنام آلهة لهم يعبدونها من دون الله، وكانت ثلاثة هي: صدّاء وصمود والهباء أو الهناء، وقد ركزت الآيات على صفة القوة التي امتازوا بها ولكن لم يدركوا أنه ما من قوة بشرية إلا ولها حد تقف عنده بالغة ما بلغت، قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾



﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء]، مصانع بمعنى قصور وقيل خزانات مياه أرضية، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، لكن هذه القوة التي فخروا فيها وتكبروا بها على الضعفاء جرتهم إلى عصيان الله والشرك به، لكن الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ اختار من بينهم هوداً نبياً فبعثه إليهم هادياً ومبشراً ونذيراً: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف]، هؤلاء القوم الذين اغتروا بقوتهم المادية والمعنوية ورفعوا عرانينهم في صلف للسماء من يستطيع أن يقنعهم بالرجوع عن غيهم وضلالهم، لهذا كان ردهم على نبيهم هود باستخفاف، وقد ورد أن قوم هود هم أول الأقوام التي ضلت وعبدت الأوثان بعد أن أرسى نوح الإسلام وساد المسلمون فترة طويلة بعد الطوفان حيث اجتث الكفار من على وجه الأرض، فكان هؤلاء الذين ابتدعوا الضلال وشذوا عن الطريق المستقيم، لكن منهج الأنبياء هو الاستمرار بالدعوة وبذل الوسع في ذلك والتنويع بالطرح، وليس من منهجهم الكف بعد الصد، وإنما تكرار المحاولة وعدم اليأس من الأقوام أو الحكم على استجابتهم من خلال الطرح الأول بأن هؤلاء ميؤوس منهم، وأعلمهم بأنه لا يطلب أجراً منهم لهذه المهمة ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود]، وقد ركز هود على أمرين لهما أهمية كبيرة عند قوم هود، هما: القطر المدرار، وبلاد الأحقاف بحاجة ماسة إليه، والقوة التي يتفاخرون بها على الأمم الأخرى، فالمؤمن المستغفر يلقى المدد من ربه بلا شك فيزداد بالإيمان قوة إلى قوته إلى قوة مادية ومعنوية واقتصادية، وهذا أسلوب موفق من هود عليه السلام، فهل اقتنع قوم هود بقوله؟ لقد كان الرد ﴿قَالُوا



﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ رفضوا قوله جملة وتفصيلاً بل طالبوه بالبينة على دعواه، فليس من السهل كما يزعمون أن يتخلوا عن دينهم لمجرد أن يأتي فرد ليبطله فما دليلك على صدق دعواك يا هود؟ لم يكن مع هود سوى الحجة والبرهان بعجز آلهتهم وأنها حجارة لا تضر ولا تنفع، والتذكير بما كان عليه سلفهم نوح وأبناؤه الموحدون وهم قريبو عهد بهم نسبياً، لكن هذا لم يجد نفعاً مع قومه بل زادوا على أن اتهموه بالمس والجنون ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فأعطوا آلهتهم القدرة على الفعل وهذا دليل عدم اقتناعهم بدعوة هود، وإصرارهم على التمسك بآلهتهم التي يجدون فيها القدرة على فعل الخير أو الشر، لكن هوداً عليه السلام تبرأ من قولهم مباشرة كيلا يظنوا أنه جاراهم في قولهم وأنهم اعتقدوا للحظة ما أنه صدّق ما يقولون، فانبرى بشدة للتبرؤ من عقيدتهم فأشهد الله وأشهدهم على موقفه كيلا يزوروا كلامه، وهذا تعليم لنا بأن لا نجاري أهل الأهواء في مثل هذه الأمور ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود] ثم بعد تأكده من صدهم وعنادهم وأنهم صعدوا في التحدي وهددوا بالإيذاء، فإنه لم يبال بهم بل تحداهم ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود] فلم يؤمن مع هود ـ بعد هذا الجهد ـ إلا قليل من المتنورين متحدين كبار القوم، وهنا وصل الحوار إلى طريق مسدودة ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ فالملأ من قوم عاد متمسكون بصلفهم ووثنيتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾، وهكذا أسفر وجه الطغاة على صدّ وعناد وتحد لا يخشى العاقبة، ربما ساعدت على هذا التحدي ما هم عليه من القوة والبطش، وظنوا أن التحدي مع هود وأتباعه الضعاف، ولم يدر بخلدهم أنهم يعاندون الله، وكان بداية عقابهم أخذهم بالسنين، فمنع الله عنهم القطر، وبدأت ينابيعهم غيضاً وبساتينهم يبساً، وأنعامهم هزالاً، واستمروا على هذه



الحال ثلاث سنين حتى اعيوا وأصبحوا ينتظرون المطر بفارغ الصبر، فاغبرت ديارهم وكلحت وجوههم، ومع ذلك لم تلن قلوبهم، وورد في بعض الأخبار أنهم أرسلوا وفداً للاستغاثة بمكة عند الكعبة، لكنهم لَهوا شهراً عند معاوية بن بكر يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ وهما جاريتان اشتهرتا بالغناء ـ ثم انتبهوا إلى قصدهم وأسرعوا إلى أرض الحرم يدعون ويستسقون، فظهرت لهم ثلاث سحائب سوداء وحمراء وبيضاء فاختار داعيهم السوداء لأنها أكثر السحاب ماء، لكنه سمع صوتاً يقول له: اخترت رماداً رمداً لا يبقي من عاد أحداً لا والداً تترك ولا ولداً إلا جعلته همداً.

أقول وهذا الخبر الذي لخصته هو من وضع الرواة ولا يعاصر العهد الذي كان في زمن هود وقد تكون هذه الحادثة في عهد عاد الثانية وهي بعد هود بمئات السنين.

لقد كان العاديون متلهفين للمطر تشرئب أعناقهم كل يوم نحو السماء ينتظرون المطر بلا جدوى حتى دب فيهم اليأس وأيقنوا بزوال مدنيتهم التي بدأت تتآكل، ومع هذه الحال الصعبة والحرجة التي تلين لها القلوب ويراجع فيها المعاند قيمه التي تمسك بها ويوازن بينها وبين ما يدعوه نبي الله ليكون على بينة أكثر، إلا أن العناد استمر والتمسك بالقيم الزائفة ازداد، والتحدي برز على أشده ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فكان جوابه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ رجس بمعنى: عذاب ـ فما هو هذا العذاب؟ لقد تعلقت قلوبهم بالمطر، واشرأبت أعناقهم نحو السماء، فأتاهم العذاب من السماء وكانوا ينتظرون منها الغيث ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وهكذا انصب عليهم العذاب صباً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ وفي سورة «الحاقة» صورة واضحة لما حاق بقوم عاد من عذاب ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ





﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة] فعلى هذا فقد كان الغيم العارض الذي رأوه نذير عاصفة عاتية شديدة البرودة، استمرت سبع ليال أو ثمانية أيام حسوماً، أي متتالية، وذلك إذا بدأنا العد ابتداء باليوم فتليه الليلة وهكذا حتى ننتهي باليوم، فتكون المدة سبع ليال وثمانية أيام، فماذا كانت حالة القوم وهم يتعرضون إلى هذه الريح العاتية، وهل كانت ريحاً فقط لها عصف وعويل؟ فالعواصف القوية عادة يرافقها قصف الرعود وشرر الصواعق لتزيد من الرهبة والخوف ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ لقد أحدثت عندهم صرعاً ودواراً وتغلغلت في أجسامهم حتى تركتها هزيلة خاوية كأنها أعجاز نخل خاوية، وقد ورد في الحديث الذي يرويه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة**» وقيل: إن كل هذا التدمير كان بفتح طاقة للريح لم تزد عن فتحة الخاتم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فما بالك لو فتحت عليهم طاقة أكبر من هذا لكانت اقتلعت الأرض بمن فيها، وقد ورد في التفاسير أن الريح كانت ترفع الشخص من قوم عاد إلى الأعلى في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس وهذا تفسير قوله ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وفي سورة القمر: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ أي: منقطع أو منقلع، و﴿تَنزِعُ﴾ فيها الشدة والقهر، فهي تقتلعهم من أماكنهم بشدة وترمي بهم على أم رؤوسهم فيصبح شكلهم كجذوع النخل المنقلعة من الأرض والمرمية بشكلها المتهالك التي تظهر أن كارثة ما قد اجتاحتها، وورد: أن الله لما أهلكهم أرسل عليهم طيوراً سوداً، فنقلتهم إلى البحر وألقتهم فيه ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾.

- ورد في الآية الكريمة ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣﴾ فالأنعام بالمقصد الخاص تعني الإبل ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] ومعنى عام تعني

الإبل والبقر والغنم والماعز ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة: ١] ومن هذا المعنى العام فإن قوم عاد ملكوا الأنعام التي شملت الأصناف الأربعة.

ـ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾، ذكر أنها اسم قبيلة عاد الأولى التي تنسب إلى الجد إرم، لأن عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام، ووصفت هذه القبيلة بالقوة أو بكثرة الأعمدة وهذا دليل على كثرة البيوت والسكان ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ قيل: مثل قبيلة إرم حيث القوة والشدة وطول القامات، وقيل: مثل مدينة إرم ذات الأعمدة الكثيرة، حتى جاوز الخيال بعضهم فقال: هي مدينة مبنية بالذهب والفضة وحصباؤها من اللؤلؤ وترابها من المسك، وزعم عبدالله بن قلابة ـ زمن معاوية ـ أنه رآها ودخلها، ثم وصفها لمعاوية، ولو دخلها فعلاً لكان من أغنى الأغنياء على ما رأى فيها من الذهب والفضة واللؤلؤ، وقال: هي في أرض عدن، فما الذي جعل معاوية لا يقصدها بعد أن أخبره خبرها؟ ليستفيد من كنوزها في بناء دولته، فهذا زعم باطل إن هو إلا اختلاق.

ـ هل أتى هود قومه بمعجزة؟ لم يذكر القرآن أن هوداً كان معه معجزة ليبرهن على صدق دعواه، وهم قالوا له: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ ولعل سبب ذلك قرب عهدهم بنوح وأن سفينة نوح ما زالت شاهداً على نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥﴾ ولو قيل: إن سفينة نوح استقرت على الجودي وهو جبل في العراق، نقول إن سيطرة قوم عاد امتدت في فترة من التاريخ إلى ما هو أبعد من الجودي زمن شداد وشديد ابنا عاد.

ـ ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣﴾ ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩] من هم رسل عاد؟ لم يذكر القرآن سوى هود، فكذبوه وهذا على اعتبار أن من يكذب رسولاً فكأنما كذب كل الرسل السابق منهم واللاحق، ومن آمن برسول فكأنما آمن بكل الرسل السابق منهم واللاحق، فأمة محمد ﷺ آمنت بمحمد، فهي مؤمنة تبعاً لذلك بكل الرسل السابقين له

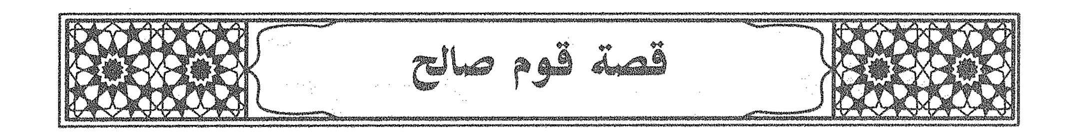


﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ـ قيل: إن يوم النحس الذي عنته الآية ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ [القمر]، هو يوم الأربعاء، وقد رد هذا بعض المفسرين بأن إبادتهم كانت في سبع ليال وثمانية أيام ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾ أي: تشمل كافة أيام الأسبوع، لكن هذا لا يمنع أن العذاب بدأ يوم الأربعاء وانتهى يوم الأربعاء، وقد ورد في أحاديث ليست بالقوية عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: «**يوم الأربعاء يوم نحس مستمر**» وورد عن أنس مرفوعاً: «**أغرق الله فيه فرعون وقومه وأهلك فيه عاداً وثمود**».







قصة قوم صالح

أرسل الله تبارك وتعالى نبيه صالحاً إلى قومه ثمود بعد أن فشت فيهم عبادة الأصنام، بشيراً ونذيراً، وقومه ثمود الذين سكنوا في الحجر بين الحجاز وتبوك، وهم من العرب العاربة، وهم أبناء عمومة مع قوم عاد، ونسب ثمود الذي سميت القبيلة باسمه «**ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح**»، ومر نسب عاد «**عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح**» ونبي الله صالح بُعث بعد هلاك قوم عاد بمدة، بمعنى عدم المعاصرة، ومن استعراض الآيات الكريمة التي ذكرت شيئاً عن حياة قوم عاد، وحياة قوم نوح نلحظ التالي:

ـ كان نمط الحياة متشابهاً، بلد شبه صحراوي، ومجتمع جمع بين الزراعة والرعي، وهو بالتالي بحاجة ماسة إلى المطر، مع نزعة لبناء القصور الفخمة، وورد بشأن عاد ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ وورد بشأن ثمود ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء].

ـ كان للعاديين مدينة شهيرة هي «**إرم ذات العماد**» وللثموديين مدينة «**الحجر**» نحتت قصورها في الجبال ولا تزال آثارها باقية حتى هذه العصور تظهر ما كانت عليه من الرفاهية والنعيم ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ـ لم يكن لقوم ثمود قوة جسمية تماثل ما كانت لقوم عاد، إلا أنها لم تكن ضعيفة وقد عوضوا عن ذلك بالفكر، فالقوة المطلقة لا تبني، لكن مع ارتقاء التفكير تصبح القوة ذات معنى ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وكان لثمود حزب وتكتل يقوده تسعة رهط من كبارهم وأشرارهم، وبه سيطروا على القرار ليكون في صالحهم حسبما يريدون ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

بعد هذه المقارنة ـ والكفر ملة واحدة ـ التي ظهر فيها كثير من التشابه في طرز المعيشة على غير اتفاق مسبق، إنما هذا التوافق مرده القرابة والبيئة المتشابهة ومصالح الملأ وهم كبار القوم، حيث المصالح في المال والجاه والسيطرة لا تكون إلا بتضليل عامة الناس وإبعادهم عن الهدف الأسمى في هذه الحياة، فالقيم والمساواة والعبادة لله الواحد تجعل الجميع أمام هذا المبدأ سواء، لا كبير إلا بالعمل الصالح، أما الذي يريد أن يصعد على أشلاء الآخرين فلا يهمه صلاح الناس بقدر ما يتحقق له العلو في الأرض والمال والجاه، فمثل هؤلاء يقفون دائماً معارضين للدعوة والإصلاح، ولقد هام قوم ثمود بالأصنام وعبدوها من دون الله ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] دعوة من نبيهم صالح لعبادة الله، وفيها تذكير لهم بنعم الله عليهم، فماذا كان الجواب؟ ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ ومع إصرار أصحاب النفوذ على عبادتهم لغير الله كان لا بد من الجدال بالتي هي أحسن وأن يلين لهم في القول ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ قول فيه منتهى العقلانية، أنتم تصرون على منهجكم الخاطئ الذي ورثتموه عن الآباء، لكن ماذا لو تبين لكم أنني على الحق وأنا الآن أتنعم في رحمة الله لاتباعي ما أمر من عبادته وحده، فمن ينصرني لو سلكت مسلككم من الإشراك وأنزل علي غضبه؟ ألا ترون خطأ منهجكم؟ إن جاريتكم فلا تزيدونني غير أن أبوء بالخسران المبين،

فسألوه أن يأتيهم بآية بينة على صدق ما يدعيه، قال لهم: إن كنتم تشكون في صدقي، فسآتيكم بآية بينة ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ فما خبر هذه الناقة؟

أخرج عبدالرزاق في مصنفه، قالت ثمود لصالح: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ [الشعراء] قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح هذه ناقة الله لكم آية «فالناقة خرجت من بطن الصخور بقدرة خالقها لتكون آية بينة لا لبس فيها ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: آية واضحة يبصرها قوم صالح، وهي امتحان لهم لأن من يطلب من نبيه معجزة فعليه أن يؤمن، فما بعد هذا البرهان من برهان وإلا تعرض لغضب الله، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «**يا أيها الناس، لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غبها وتصدر من هذا الفج**» أي كان لها يوم تشرب ماءهم وتعطيهم مقابل ذلك لبنها، وتصوم يوماً وتخلي بينهم وبين مائهم ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾ [الشعراء] تقسيم عادل بينها وبينهم، لا ينبغي التعدي، كما تدل هذه الكمية التي تشربها من الماء على عظمها، فهي على هذا آية مبهرة، وأما عن طعامها فأخبر تعالى بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ من هذه الآية يبدو أن طعامها كان متوفراً في البراري الفسيحة بحيث تسرح بعيداً في أرض الله، فلم يكن لها يوم ترعى فيه، ولهم يوم يرعون فيه، فالمشاركة بالماء فقط، وفي سورة هود ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ويبدو أن الناقة هادئة لا تؤذي أحداً، فالتحذير لهم أن يدعوها ولا يمسوها بسوء، فلم تكن مخيفة

رغم حجمها الخارق إذا ما قيست على ما نشهده من طباع الإبل عندما تهيج وتغضب إذا تعرضت لإيذاء الإنسان، فكم قص علينا البدو قصصاً عن هياج الإبل إذا ما تعرضت لإيذاء الإنسان وردها عليه بعنف قاتل.

وتآمر الرهط المفسدون في الأرض على صالح للتخلص منه ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل] فما الخطة التي بيتها هؤلاء المجرمون للنيل من نبي الله صالح؟ لقد صمم هؤلاء المفسدون في الأرض على قتل الناقة أولاً ثم الهجوم على بيت صالح بعدها للتخلص منه ومن أهله جميعاً، وذلك في مؤامرة سرية لا يعلم بها إلا هؤلاء الرهط، لأنهم أقسموا فيما بينهم أن يبقوا هذا الأمر سراً، وقد بيتوا الشر وحددوا له ساعة متأخرة من الليل يتسورون فيها منزله، ثم يعملون في صالح وأهله السيف فلا يبقوا على أحد منهم كي لا يكون شاهداً على فعلتهم النكراء، فيضيع بذلك غريمه ويتفرق بين هؤلاء دمه، وإذا شك أحد من عشيرة صالح بهم لأنهم هم المعاندون له والرافضون لدعوته يقولون مع القسم والأيمان الكاذبة ما شهدنا مهلك أهله، وهذا شبيه بما حاكه أبو جهل وأشياعه عندما قرروا قتل النبي ﷺ في بيته، والفارق أن مجرمي قريش لن ينكروا قتله وإنما سيعترفون بذلك لأنهم اختاروا من كل قبيلة رجلًا يشارك في هذه الجريمة فيتفرق دمه بين القبائل فلا تستطيع عشيرته الثأر منهم ويرضون بالدية، أما هؤلاء فيريدون هدر دمه مع إصرارهم على إنكار ما فعلوا، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ قال: هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها نبيت صالحاً وأهله ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً وما لنا به من علم» وفي هذا الخبر أن إقدامهم على قتل الناقة سابق قتل صالح، فجعلوه هو التالي، فلا يمكنهم قتل الناقة إلا نهاراً لأنها تبيت في فج لا يمكنهم دخوله، وكان الأسهل عليهم قتلها وهي تشرب الماء مدلية برأسها في البئر ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فبيتوا هذا الغدر، والله رقيب عليهم يعلم مكرهم، فبيت الله لهم مكراً أشد

من مكرهم وهو الإيذان بتدميرهم وحماية صالح من شرهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل] والفاء في ﴿فَٱنظُرْ﴾ للتعقيب وبيان عدم إمهالهم بعد قتل الناقة فلم يستطيعوا تنفيذ بقية خطتهم وهي الغدر بصالح وأهله، ولكن لماذا دمرهم الله تعالى وقومهم أجمعين، وهؤلاء الرهط هم المجرمون دون غيرهم؟

ورد أن «قدار زعيم المجرمين وقاتل الناقة لم يقدم على قتلها حتى أجازه كل رجل وكل امرأة وكل طفل، وروي عن قتادة» أن عاقر الناقة «قدار» قال: لا أقتلها حتى ترضوا كبيركم وصغيركم، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون لها أترضين؟ فتقول: نعم، والصبي حتى رضوا أجمعون» وهذا يعني أن قوم صالح استحقوا العذاب هم والرهط الذي تآمر وقدار الذي باشر القتل ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أعد أسباب قتل الناقة، فكمن لها فرماها بسهم في ساقها ثم أقدم فضرب بالسيف عراقيبها أي ما فوق الخف فهوت على الأرض فعاجلها ونحرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾، وهنا ذكر عقر الناقة بالجمع والفاعل المباشر واحد، وهذا دليل اشتراك الجميع في القصد والتواطؤ على نحرها، فلماذا أوعدهم ربهم أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام؟ وهل عنى بالتمتع الإقامة الطيبة؟ كلا فهم لا يستحقونها، وإنما هذا من باب التبكيت والوعيد كمن يقول لهم ودعوا داركم فلن تبقوا فيها، وهم يستحقون صب العذاب عليهم من ساعتهم؟ لكن في هذا الإمهال مزيد عذاب، لقد قهرهم العذاب في الأيام الثلاثة فذاقوا خلالها الويل، ولو كان مباغتاً لربما كان أسهل عليهم، ففي اليوم الأول انقلبت ألوانهم إلى الصفرة مع ألم وإرهاق، وفي اليوم الثاني اشتدت المعاناة وانقلب اللون إلى حمرة الدم، وفي اليوم الثالث تغيرت ألوانهم إلى السواد الحالك، ثم أخذتهم الصيحة كأشد ما يكون الصوت، فصعقوا في أماكنهم وعلى هيئات أوضاعهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر] والمحتظر: الزرع الذي تسور به الحظيرة يجف مع الأيام ثم يضحي هشيماً، وفي سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ذكرت الرجفة،



وفي سورة القمر ذكرت الصيحة، ولا تناقض بينهما فالثانية تنتج الأولى، فالانفجار يولد هزة قوية ولم ينج سوى المؤمنين من أتباع صالح ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود] لقد نجوا بإيمانهم من عذاب الدنيا المرعب ومن خزي الموقف في الآخرة، وحتى يتبين لنا مدى غضب الله عليهم فقد ورد أن النبي ﷺ عندما مر بالحجر قاصداً تبوك قال: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين**» وعندما عجن الصحابة عجينهم من ماء بئر الحجر أمرهم عليه الصلاة والسلام أن لا يأكلوه فعلفوه للبهائم، فبعد مئات السنين لا تزال منطقة هؤلاء المغضوب عليهم موبوءة لا تسكن، وقد أشار القرآن الكريم إليها مخاطباً نبيه محمداً ﷺ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل] فالبيوت التي نحتوها في الجبال ظلت شاهداً على قوم ثمود الذين بادوا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ واقعين موتى على أم رؤوسهم، وهذا كانت عاقبة الكفر والعناد وقتل ناقة الله التي جاءت آية باهرة مؤيدة لدعوة صالح فلا يكن عند قومه شك بصدق دعوته، ومع ذلك عبّر صالح عن هذا الموقف بأسى بالغ لما آلوا إليه مفضلين طريق الشيطان على هدى الرحمٰن ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].





قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الله ورسوله، نبي مرسل له تاريخ كفاح طويل في الدعوة، لم يخش الطواغيت، بل تحداهم وتحدى عقائدهم وأصنامهم، أتاهم بالحجة والبرهان على عبادة الله الواحد الأحد خالق البشر والأكوان، فأبوا رؤية النور وتحرير أفكارهم من الدنية والصغار والخضوع إلى أصنام نحتوها بأيديهم والعكوف عليها يقدسونها ويقدمون لها القرابين بمهابة وخشوع، وهاله ضعف العقول واختلاطها وعدم التمييز بين الخالق القوي والصنم المصنوع الذي لا يضر ولا ينفع، بل هو مشكّلٌ بأيديهم وفق تصورهم وخيالهم، غير أن الشيطان استحوذ على عقولهم فضلوا الطريق، وقد ساعدهم على هذا الضلال ذوو النفوذ المسيطرين على الجاه والمال والسلطان وهم الذين يهمهم أن يبقى الناس منقادين لهذا الخط مقدسين له لتظل السيطرة لهم على الدوام، وإن أي تصحيح لهذا المسار والاتجاه إلى دعوة إبراهيم عليه السلام سيفقد هؤلاء السيطرة والنفوذ، وهذا لا يرضيهم لذلك فإن كل ما يهمهم هو بقاء الوضع على ما هو عليهم، شعب سادر غارق في الوهم لا يتطلع إلى الحياة السوية التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان، ولا ينظر إلى التحرر من ربقة القيود والأصفاد التي كبّلت عقله وأقعدته رهين إملاءات ذوي النفوذ والسلطان ليستكملوا بناء عروشهم فوق جباه البسطاء من الناس، ويستمر تسخيرهم بلا هوادة باسم الآلهة والتقرب إليها، فأي صحو لهؤلاء البسطاء يعني فقد ميزة العلو والتسخير والنزول من عل لتتحقق المساواة ويعمل الجميع بروح الفريق بلا سيد أو مسود، لأجل



أن لا يصل هؤلاء المنتفعون إلى هذه المرحلة عملوا جهدهم وسخروا قوى شرهم لمنع وصول النور ودعوة الأنبياء التي أتت لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان إلى عبودية الخالق التي يتساوى فيها الجميع في القيمة الإنسانية ويتفاضلون في الطاعة والولاء له جل علاه وبهذا وحده يستحقون السعادة في الدنيا والآخرة.

➢ الدعوة في العراق:

ولد إبراهيم عليه السلام في مدينة «أور» ووالده آزر صانع الأصنام الشهير، وورد أن اسم والده تارخ أو تارح عند المؤرخين، لكن هذا لا يرد صريح النص القرآني ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾، وكانت نشأة إبراهيم عليه السلام نشأة منكرة لعادات قومه منذ صباه، وإن عقله المتنور لم يقبل ما كان عليه قومه من الخضوع لهذه الأصنام، وكان دائم التفكير والتأمل في هذا الكون وخالقه، إنه كون واسع كبير فوق قدرة الإنسان وتخيله،تأمل وفكر وقال: من أجرى هذه الشمس ونور ذاك القمر، ونثر هذه النجوم على صفحة السماء وفيها مجموعات متميزة سابحة لا تود تغيراً أو انفكاكاً؟ هذا الليل بصمته وسكونه ولمع كواكبه ونجومه، وهذا النهار بوضوحه وضياء شمسه وحركته ودأبه ونضرة حياته، وهذه الجبال الرواسي على الأرض، وهذه الأنهار الجارية بعذب المياه، والشجر والطير والسباع، تأملٌ أثقل تفكيره، ولا جواب عند قومه على ما يعتمل في صدر إبراهيم سوى عكوفهم على الأصنام وتقديسها، وأمام هذا الجواب التافه الذي لا يمكنه أن يقف أمام تساؤلات إبراهيم أو أن يصمد إزاء أسرار هذا الكون الرهيب الواسع نفر إبراهيم عن قومه وما هم عليه، وراح في تأملاته ليصل بالفكر النقي إلى الحقيقة التي ارتاح لها فؤاده فأشرق النور فيه وانبعثت فيه حياة جديدة أوصلته إلى أن هذا الكون من صنع إله واحد لا شريك له ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ

لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ لقد بدأ إبراهيم مع قومه بداية عقلانية فيها مبدأ التسليم لما يقولون ثم نقضه بالدليل والبرهان، وقد كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر حيث مثلوا لكل منها شكلاً معيناً من الأصنام، والكواكب التي كانوا يعبدونها هي الكواكب المضيئة السيارة مثل الزهرة وتظهر في أول الليل عند الغروب وكانت المقصد الأول ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ والزهرة شديدة اللمعان متلألئة تغرب بعد غروب الشمس بساعة أو أكثر قليلاً، فقال لهم: تعبدونها على أنها إله، انتظروا وما هي إلا ساعة حتى أفلت وغابت عن الأنظار، فالتفت إلى قومه وقال لا أحب الآفلين، فلو كانت إلهاً لما غابت، وبعد غيابها بقليل ظهر القمر بدراً والقمر يكون مكتملاً في ليالي أربعة عشر وخمسة عشر وستة عشر، ثم فيما بعد من الليالي يبدأ بالتناقص رويداً رويداً، لكن في ليلة أربعة عشر يظهر القمر من الشرق قبل غروب الشمس، وفي ليلة خمسة عشر يظهر القمر بعد الغروب، وفي ليلة ستة عشر يظهر القمر بعد الغروب بأكثر من ساعة، والظاهر أن إبراهيم عليه السلام كان مع قومه في هذه الليلة بحيث ما كادت الزهرة تغيب حتى ظهر القمر من الشرق ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ فأشار إلى القمر بعد أن أسقط بالبرهان كوكب الزهرة، وهكذا ظهر القمر بنوره الوضيء بحيث خفت بالنسبة لضيائه ضوء النجوم، واستمر القمر مبحراً من شرقي السماء إلى غربيها ثم غاب ضوؤه قبل بزوغ الشمس وعم الظلام في الأرض، وبرهن لهم أن من يزول لا يكون إلهاً، فأسقط عبادة القمر، وفي الصباح بزغت الشمس وظهرت عند الأفق الشرقي بحجم كبير مذهل، ثم ارتفعت واشتد ضياؤها، فقال هذه الشمس أكبر وأشد ضوءاً، فلتكن عند زعمكم رباً وانتظروا، وعند الغروب ضعف الضوء ثم هوت للمغيب وعاد الظلام حالكاً، فالقمر ليلة سبعة عشر لن يظهر ليضيء الكون إلا بعد أكثر من ساعتين حيث يتأخر ظهور القمر كل ليلة عن التي قبلها بمقدار أربعة وخمسين دقيقة، وهنا صرخ إبراهيم بأعلى صوته ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ هذه كلها مخلوقات ومن الخطأ الفادح



توجيه العبادة لها وإنما العبادة الخالصة لخالقها خالق هذا الكون وما فيه، والظاهر أن هذه البراهين ذهبت أدراج الرياح لعدم اقتناع العقول المتحجرة بما نقضه من ضعف آلهتهم وتلاشيها، لذلك أخبرهم بأنه مخالف لهم ومفارقهم في العبادة فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام] وفي فترة هدوء وتأمل في هذا الكون البديع وقد تجلت قدرة الخالق فيما خلق قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة] لم يتأخر إبراهيم في القيام بهذا العمل ليرى عياناً قدرة الله على إحياء الموتى، لا لشك في قدرة الله، فقد أوتي إيماناً لا يرقى إليه شك، تزول الأرض والجبال ولا يزول، وذكر أنه أخذ أربعة طيور: طاووس، وديك، وحمامة، وغراب، فذبحهن ومزق لحومهن وخلطها بعضها ببعض، ثم نثرها فوق أربعة جبال ووقف بعيداً فناداهن، وقيل حبس رؤوسها عند قدمه، ثم دعاهن ـ أي قال لها أن تعود كما كانت باسم الله الأعظم ـ فاجتمعت أجزاؤها متناثرة في الفضاء حتى تشكلت كما كانت ولكن بغير رؤوس فاقتربت من إبراهيم وأفرج عن الرؤوس فانطلق كل رأس إلى جسمه المحدد وعادت كما كانت حية تطير، وهنا فإن إبراهيم لعظم ما شاهد انطلق في الدعوة قوياً مطمئن القلب موقناً بنصر الله، وعبارة ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ليس شكاً بإيمان إبراهيم والهمزة هنا ليست للاستفهام الذي يفيد الشك ولكنها استفهام يفيد اليقين، وسماها بعضهم ألف الإيجاب تماماً مثل قول الشاعر مادحاً «ألستم خير من ركب المطايا وأندى العلمين بطول راح» لذلك قال ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم].

من هذه البداية بدأ الصراع العقدي بين إبراهيم وقومه، وعرف عنه مخالفتهم ومفاصلتهم في هذه الناحية، ومع ذلك كان يقوم بواجبه في تبليغ الدعوة وعدم السكوت عما يقترفونه من مخالفات ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا

عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فالله سبحانه وتعالى وهبه النضج العقلي والرشد والإقناع، فانطلق نحو أبيه مخاطباً له برقة ويطرح عليه أسئلة فيها عتاب واستنكار ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] هذه الأصنام أنت تنحتها وتشكلها بيديك، من خشب أو صخر، وأنت تعرف أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تدفع عنها ولا عن غيرها شراً ولا أذى، وقد ألان له القول ورقق العبارة في مخاطبته متخذاً الأبوة مقدمة لخطابه ليكسب عطفه وسرعة الاستجابة لدعوته، مخبراً إياه أنه مكلف من الله تعالى بهذه الدعوة ليوصلهم إلى الصراط السوي وينقذهم من سوء العذاب ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ وكان وقع الكلام على والده قوياً ومزلزلاً لم يكن يستطيع أن يجمع قواه وفكره للرد أو التصدي بل كان يستمع شبه مندهش للنصح ولهذه الأقوال التي لم يكن ليسمعها من قبل خصوصاً من إبراهيم، فما الذي دهاه يشن هذا الهجوم على المقدسات ويعريها ويكشف وهنها؟ واستمر يذكر الأبوة لتحريك وجدان والده ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ وبعد تعرية الأصنام أشار إلى غواية الشيطان وعداوته للإنسان وعصيانه للرحمن، وأن عبادة الأصنام هي طاعة للشيطان وعبادة له لأن مراده إغواء بني آدم وإبعادهم عن رضوان الله وسوقهم زمراً زمراً إلى النار ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ وتابع إبراهيم تصعيد الخطاب شيئاً فشيئاً وفي كل جولة كان يعري الأصنام ويكشف زيفها وبطلان عبادتها، هل اقتنع والده بهذا الخطاب وعدّ وصف الأصنام التي وصفها به إبراهيم صحيحاً، وقرر العودة إلى الرشاد والصواب؟ ما هذه التماثيل التي تحيطونها بهالات التقديس وتتجمعون حولها للعبادة؟ ماذا جلبت لكم من الخير والسعادة حتى تستحق منكم هذا العكوف والتقديس؟ لم يكن عند آزر جواب مقنع وجدال يقارع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، وإنما كان التعصب بادياً في لهجة خطابه ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ كان الرد عنيفاً وغير مبني على جدال منطقي فيه إقناع، بل لعله أراد



أن يسكت ابنه لاعتقاده أنه تطاول على الأصنام مهدداً إياه بالرجم والطرد والمفارقة، لم ييأس إبراهيم من موقف والده، فليست سوى جولة واحدة ستعقبها جولات ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ لذلك أبقى على خيوط الود موصولة مع والده على أمل العودة، لكن هذا الصد لم يثنه عن الاستمرار في دعوته، بأن يتخذ صدود والده ذريعة للكف عن الدعوة، على اعتبار أن أقرب المقربين إليه رفضها فمن باب أولى أنهم سيرفضونها، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل زاد إصراراً على السير بطريق الدعوة إنقاذاً لهؤلاء الجاهلين من النار، فلنتابع هذا الموقف الرائع في الجدل بين إبراهيم عليه السلام وقومه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ سؤال استنكاري ـ وهو يعرف ما هي ـ يريد أن يدخل معهم في حوار من خلال إجابتهم كي يعريها أمامهم من أية هالة قدسية أضفوها عليها، ليظهر بعد ذلك عجزها، فكانت الإجابة ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أهذا ما دعاكم لعبادتها؟ هل فكرتم بما كان عليه آباؤكم من صواب أو خطأ وهل عبدوها لميزة ما؟ أكانت تمنحهم الرزق وتشفيهم من المرض وتسبغ عليهم النعيم والهناء والسرور؟ أجربتم في سنة جدباء أن تستغيثوا بها فساقت لكم الأمطار مدراراً؟ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ ضلال وتيه واضح فما الذي جعلكم تستمرون على هذا الخطأ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ لقد دهشوا لقوله وظنوا أنه يمازحهم، لأن هذا الذي هم عليه من العكوف على التماثيل مقدس لا يجرؤ أحد على الخوض فيه، فكانوا إلى ذلك الوقت مقتنعين بما هم عليه من تقليد الآباء، لكن الرد الجاد من إبراهيم عليه السلام كان مؤكداً على خطئهم وموضحاً لهم الطريق الحق الذي ينبغي أن يسلكوه ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الله هو الذي خلق هذه السمٰوات وهذه الأرض، وليس ـ كما تزعمون ـ هذه الجمادات التي تصنعونها وتضعونها في المعابد، وأنا شاهد على ذلك وعندي البراهين لو شئتم، لقد أرسلني الله إليكم لأبين لكم هذه الحقائق التي غابت عنكم بسبب عمى القلوب، وتقليد الآباء بلا تمييز أو مناقشة

عقلانية بما يفعلونه، وطلبوا منه بيان المزيد عن ربه الذي أرسله إليهم، فقال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] هذه قناعتي وهذا هو ربي الواحد الأحد خالق هذا الكون وخالقي وخالقكم من له هذه الصفات هو الذي يستحق العبادة لا أصنامكم، فعندما سألتكم ما تعبدون؟ كان جوابكم ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ وهنا انبرى لهم معنفاً على سوء جهلهم وعدم تمييزهم بين من يستحق العبادة ومن هو جماد لا يحس ولا ينطق ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ يا خيبة لكم على هذا التفكير وهذه العقول التي هي أدنى مرتبة من الحيوان، ولما تبين له هذا العناد وانغلاق الفهم والإصرار على التمسك بما ورثوه عن الأجداد أراد أن يبرهن بالدليل القاطع على ضعف هذه الأصنام ووهنها أمام قاصديها بالعدوان ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ فتوعد أصنامهم بالكيد لها، ومعنى هذا أنه سيحطمها ويدخل مع قومه في صراع عنيف ومواجهة خطيرة وهو ما زال وحيداً في الميدان، ولكن إيمانه بربه قوي راسخ لا يتزعزع مهما تمادى قومه في الإيذاء، وانتظر فرصة مواتية يغادر فيها قومه المعبد وتحين بفارغ الصبر انفراده بأصنامهم، فجاء عيدهم وهلّت احتفالاتهم به، وفيه يجتمعون في ساحة عامة لإقامة مهرجانهم ثم يختمون عيدهم بتقديم القرابين لآلهتهم فكانت هذه فرصة إبراهيم للكيد من أصناهم مثلما توعدهم به، ولم ينسوا دعوته في العيد ليخرج معهم ويشاركهم أفراحهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات] فتذرع بالمرض كيلا يخرج معهم وذلك لأمرين أولهما: أنه لا يريد مشاركتهم في عيد الضلال، والثاني تنفيذ ما عزم عليه بالكيد للأصنام ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات] يا لها من جرأة فيها قوة وعزم يريد بها أن يصدم هؤلاء السادرين في سباتهم الفكري العميق فلعله يوقظهم ويحدث عندهم صحوة في التفكير فيصلون إلى الحقيقة ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا



لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء] لقد حطمها وفق خطة مدبرة وحكمة بالغة لها ما بعدها، لذلك أبقى على أكبرها حجماً لا لعجز عن تحطيمه، وإنما لاستخدامه ورقة برهان على تسفيه عقولهم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ لقد دخل القوم مبتهجين حاملين القرابين لآلهتهم وهم يتضاحكون ويترنمون بالأهازيج الدينية التي تقربهم من الآلهة وإذا بهم يجدون المعبد على حالة أطارت عقولهم نتيجة الفوضى وتناثر الحطام، وأيقنوا أن أحداً قد عبث بمعبدهم وارتكب بحقه جرماً عظيماً وأنه لمن الظالمين، لكن غرابتهم كانت أشد عندما رأوا كبيرهم سالماً وفي يده أو عنقه الفأس أداة الجريمة التي حطمت الأصنام، ثم بدؤوا يناقشون الأمر ويتساءلون من هو مرتكب الجريمة يا ترى؟ من أقدم على هذا الفعل، ومن له مصلحة في إيذاء الآلهة؟ بالطبع لا يوجد إلا متهم واحد عاب الأصنام وذكرها بسوء وطلب نبذها وتحطيمها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، ومعنى يذكرهم: يعيبهم ويستهزئ بهم ويدعو إلى تحطيمهم ووأدهم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ وعمل هنا نظام الملك على بث عيونه لإحضار إبراهيم ومساءلته عن حادث المعبد، وفي الحال أحضر إبراهيم إلى المعبد وقد تجمع الناس في حشد كبير وهم مترقبون ومتلهفون لمعرفة اليد الآثمة التي امتدت بالعنف إلى آلهتهم، فكنت تراهم ما بين مستنكر وغاضب ومتحمس ينادي بالانتقام من الفاعل ﴿قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ألا ترون الجاني؟ هو هذا الذي لا يزال يمسك بالفأس، كل الأصنام محطمة إلا هو، ولو كان الجاني غير هذا لشمله التحطيم، فاعتذروا من إبراهيم عن شكهم به وقالوا: نعم، هذا كبير الآلهة علينا أن نتجه إليه ونسأله عما حدث، ولما اقتربوا منه صدمهم الواقع هذا جماد لا روح فيه، ولا حس له، ولم يحدث في يوم من الأيام أن تكلمت الأصنام، بل سدنتها هم الذين يتكلمون باسمها ويفرضون الأتاوى والقرابين على الشعب ليقدموها لها بزعمهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا

لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام] فسدنة الأصنام هم الذين كانوا يوهمون الناس بأنها تمنح وترضى وتغضب وتمنع، لكن الحقيقة أمام هذه الحادثة التي هزت كيانهم نطقوا بالحق ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء] وكان ينتظر منهم هذا الاعتراف، وكانت خطته مبنية للوصول إلى هذه الحقيقة لينطقوا بها على ملأ من الناس، لذلك انبرى لهم بقوة مستغلاً هذا التخبط الذي وقعوا فيه ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ألم تعترفوا بأنهم لا ينطقون؟ أليس هذا من صفات الجماد، أين عقولكم لكي تميز، فلماذا تحطون من شأنكم بهذا الاعتقاد الدنيء؟ عليكم أن ترتقوا بالتفكير وهذا يكون بتحرير العقل من أسر هذه الأصنام لتنعموا بقيمة الاعتقاد السليم وعندها ستشعرون بلذة العبادة لله الواحد الأحد، لكن كلمات الحق دائماً تضيع أمام الغوغاء والمتنفذين الذين يحققون مكاسبهم وزعاماتهم من طمس الحقيقة والعمل على توجيه الغوغاء للعبّ من شراب الخبال فيرى الباطل حقاً والحق باطلاً، وهكذا انطلق صوت المنتفعين ومن ورائهم الغوغاء ليطمس صياحهم وضجيجهم كل كلمة حق تقال، فقد عرفوا لعبة الهيمنة ووأد الحق في مهده، فانطلق صوتهم قاطعاً كل حوار ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ وانطلقت هذه الصيحات الرعناء التي خفت معها صوت الحق وضاعت معها خطط إبراهيم في إنقاذ هؤلاء العمي من النار، فكان جزاؤه منهم الإحراق بالنار، ولكن رب إبراهيم القادر على كل شيء لم ينس إبراهيم من رحمته فهو الحامي له فلن يترك إبراهيم ليحرقه أهل الضلال وكانت المعجزة الكبرى أمام الخلق ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ وتتجلى قدرة الله في حماية عبده ونبيه إبراهيم فكانت كلمة «كن» التي حولت ضرام النار إلى برد وسلام، أي برد غير مؤذ، فالله الذي أعطى للنار حرارتها لحاجة أهل الدنيا إليها سلبها هذه القوة لحاجة إبراهيم إليها فكانت عليه برداً وسلاماً، لقد سعى عباد الوثن إلى جمع



الحطب لإحراق الحق انتصاراً للباطل، فشارك في جمعه الكبير والصغير حمية للأصنام وتقرباً منها وانتصاراً لها، وهكذا كان للباطل صولة، أغلبية ساحقة انتصرت للشر ضد نبي مصلح همه إنقاذ الناس مما هم فيه من الضلال ومن عذاب النار، هكذا كان قرار الأغلبية التحريق والتخلص من النبي المصلح، وهل قرار الأغلبية يكون دائماً لصالح الخير؟ إنهم يجهزون على الخير ويعينون قوى البغي والشر، فالمنهج هو الأهم لا قرار الأغلبية ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء] وهل يربح من يكون مصيره إلى النار، ولم يقل الخاسرين، بل جاءت بصيغة المبالغة لأنها خسارة عظمى، فلو خسر الإنسان شيئاً دنيوياً لكان خاسراً أما خسارته الجنة فهو الأخسر، ولما رأى ملك الضلال نمرود الذي أمر بإحراقه أن إبراهيم قد مكث في النار مدة قاربت الشهرين ريث أن خمدت وتكشفت عن روضة كان فيها إبراهيم منعماً فخرج منها سليماً معافى بهت النمرود وقال لإبراهيم: إن إلهك الذي بلغت قدرته وعزته ما أرى لكبير، خبرني ما هو؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهو يقصد الإحياء ابتداء والإماتة التي كتبها على كل إنسان بأجل معلوم، فكان رد نمرود وفق فهمه السقيم ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ فهذا كما ادعى سهل، فأحضر اثنين من السجناء محكوم عليهما بالموت، فقال لأحدهما اذهب فقد عفوت عنك وقدم الآخر فقتله، وفهم إبراهيم مدى جهله في التفكير، فقال للنمرود ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ لم يقل له في الأولى أنت جاهل لا تفقه معنى ما أقول، فكأنه سلّم له في الأولى ثم جره إلى الأمر الأصعب ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ثم كف عن إبراهيم ومنعه الله منه، وغادر إبراهيم العراق ولم يؤمن معه بعد كل هذا الجهد إلا ابن أخيه لوط عليه السلام.

➢ أهم ما ورد في إبراهيم:

أخرج البخاري عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك**



لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقوا الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» فهذا هو مقام والده أضحى مثل ذكر الضباع الملتطخ فألقي في النار.

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت ـ أي داخل الكعبة حين افتتح مكة ـ لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: «**قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط**» أي رأى كما ورد في خبر آخر صورة إبراهيم وإسماعيل على قماش من حرير وقد صوروهما وهما يستقسمان بالأزلام ـ قداح يلقونها فيها رابح وخاسر مثل لعب القمار في العصر الحديث ـ كما يفعل أهل الجاهلية، فأقسم عليه الصلاة والسلام أنهما لم يفعلا ذلك أبداً وهذه الصورة من افتراء الجاهليين عليهما، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

➢ المرحلة الثانية من حياة إبراهيم عليه السلام:

كتب الله على أولى العزم من الرسل الهجرة من بلدانهم التي وقفت بصلف وعناد وعنف أمام انتشار الدعوة، وتحولهم من مرحلة المقاومة السلبية للدعوة إلى مرحلة العدوان والإيذاء البدني أو التصفية الجسدية، وفي هذه المرحلة لا يجد النبي بداً من مغادرة البلد الصاد والمتآمر إلى بلد آخر، فما لم يوفق فيه في مكان قد يجد في مهاجره بيئة مناسبة وشعباً ودوداً متلهفاً لسماع الحق والعمل به، فمنطقة العراق منطقة فرخ بها الشيطان وعشش في القلوب، فجعل أهلها أهلَ تيه وضلال وعقم فكري، فلا يقوى على جمع صفهم على الحق نبي مصلح يهبهم حرية التفكير والاختيار، وإنما يحتاجون إلى جبار قاهر أمثال النمرود لا يكلّ سيفه من بتر الرؤوس، وسجانوه من تكبيل الدعاة والدهاة وملء السجون



والزنازين بالناس قهراً وظلماً وبهذا يساسون، ألم يعجزوا نوحاً عناداً وسخرية وإيذاء بدنياً؟ فكان الغرق مصيرهم، وتجدد الخلق نسلاً مؤمناً طاهراً من نسل نوح، لكن الأرض التي اغتسلت وأسقطت عنها جنابتها من رجسهم عادت تزخر بالضلال، وجاء دور إبراهيم الذي حاول جاهداً إصلاحهم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء]، فكان اعتداؤهم عليه وإلقاؤه في النار ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء]، هو المفاصلة معهم والاستعداد لمغادرة دارهم وتركهم يتخبطون مع شيطانهم الذي أغواهم ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء]، فخرج إبراهيم عليه السلام وليس معه سوى لوط وامرأة إبراهيم سارة وهي ابنة عمه، فانطلق هذا الركب الصغير في عدده، القوي في إيمانه قاصدين بلاد الشام، فكانت محطتهم في حران ومكث فيها فترة ثم غادرها إلى حلب ومنها اتجه جنوباً حتى دخل أرض فلسطين وأقام في الخليل، واتجه لوط بزوجته إلى منطقة سدوم وأقام فيها، وحدث في إحدى السنوات قحط شديد فاتجه بزوجته سارة إلى مصر، ودخل أرض مصر ليمتار الطعام، وكانت سارة على درجة من الحسن والجمال الأخاذ، فوصفت من جواسيس فرعون مصر بهذا الحسن لفرعون، فقال: إلي بها، وكان من عادته إذا أخذ النساء المتزوجات أن يقتل أزواجهن، لذلك قال إبراهيم لسارة إذا سألك من أكون بالنسبة لك فقولي: أخي، فإني أخوك في الإسلام وليس على وجه الأرض هذه غيري وغيرك مسلماً ـ يعني بذلك أرض مصر ـ وهكذا أحضرت إلى الملك، ولما أرادها الملك لجأت إلى الله القوي تستغيثه من هذا الظالم الكافر ونادت «اللّهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر» فضرب الله عليه النوم فغط غطيطاً، ثم صحا، وفي رواية أنه كلما هم بها واقترب منها ليلمسها كانت تتخشب يده، فهي تستجير بالله من هذا العدو الظالم وإبراهيم نبي الله يدعو ويتضرع إلى ربه أن يحفظها، والله

لا يرد مسألة مظلوم فكيف وأن هذا المظلوم نبي وزوجة نبي طاهرة؟! ثم حاول فرعون مرات ثلاث وكل مرة يعد سارة إذا عادت يده سليمة ألا يقربها، ثم أيقن أنها ممنوعة منه، فنادى حاجبه أنك قد أتيتني بشيطان خذوها عني، واعترافاً منه بفضلها وعفافها وهبها جارية وترك لها الخيار أن تقيم في مصر معززة مكرمة، وهكذا فرّج الله كربة إبراهيم في مصر وابتاع من الطعام ما شاء وعاد إلى الأرض المباركة بقافلة من الطعام، وأقام في الأرض المباركة هانئاً يبلغ دعوة الله، ولكن الحياة لا تصفو لأنها دار امتحان ولو سارت كما يحب المرء لما كان فيها امتحان، لكن لا بد من هذا الأمر بين حين وآخر وقد يكون امتحان الأنبياء أشد وأشق من امتحان عامة الناس، فكان عدم إنجاب سارة رغم مرور سنين على زواجها من إبراهيم أمر يبعث على الكدر والتأوه، فسنة الحياة الإنجاب وعدمه استثناء من القاعدة العامة، وهو أليم فلا يكاد يسلّم فيه المرء الأمر لحكمة رب العالمين في هذا الشأن حتى يعاوده الحنين إلى الولد خصوصاً عندما يرى الكثرة الغالبة من البشر تنجب، ويُطرب الزوجين أن ينادوا من أطفالهما بأبي وأمي، كان هذا حال إبراهيم وسارة، ولما أهدى الفرعون سارة جارية «هاجر» أهدتها سارة تكرماً منها إلى إبراهيم ليتسرى بها فحملت منه وولدت إسماعيل، وكان فرح إبراهيم لا يوصف وشاركته سارةُ الفرحَ إلى حين، وتعلق قلب إبراهيم بالولد وأمِّهِ مما أضرم نار الغيرة في قلب سارة، ثم دب الخلاف بين الضرائر في بيت النبوة وتفاقم حتى شغل إبراهيمَ عن المهمة الأسمى في الدعوة والتبليغ.

➢ مرحلة الدعوة في الحجاز:

فكان الأمر الإلهي بإبعاد هاجر وابنها إلى واد غير ذي زرع في حرم الله الآمن بمكة المكرمة ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم]، ولما أوصل إبراهيم عليه



السلام هاجر وابنها إسماعيل إلى ذلك المكان القفر ـ وإسماعيل لما يزل رضيعاً ـ ترك عندهم ما حمله من طعام وشراب، فلما ولى ظهره يريد العودة إلى فلسطين، أمسكت هاجر بطرف ثوبه متعلقة به وقالت: يا إبراهيم أين تذهب عنا؟ إلى من تتركنا في هذه الأرض وليس عندنا من الزاد الكثير، فلم يجبها إبراهيم، وألحت بالسؤال وهي لا تزال ممسكة بطرف ثوبه، فلما رأته لا يجيب، قالت: آلله أمرك بهذا قال: نعم، قالت: فإذاً لا يضيعنا وخلّت ثيابه وقفل راجعاً، ولله في خلقه شؤون، فهذا الخلاف بين سارة وهاجر ألم تكن فيه مصلحة لم تدركها كلتاهما في حينها؟ ولقد شاء الله أن يعمر بيته وأن يجلّي مكانه للناس ويرشدهم إلى سكنى حرمه، فكانت هاجر وابنها إسماعيل بذرة الخير فيه.

مكثت هاجر وطفلها الوليد في هذه الأرض القفر تحرسهما عناية الله، ولكن لا بد للإنسان في هذه الحياة من المكابدة، بهذا أخبرنا الله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ ليس هناك استثناء من هذه القاعدة لأحد، ونفد الماء والزاد، ها هوذا الصغير يطلب الماء باكياً وقد بلغ به العطش مبلغه، حر شديد ولا ماء لهذه الكبد الحرّى يطفئ جذوتها ويخمد لهيبها، والصغير يعلو بكاءه لقد جف الماء في العروق، وهو غض الإهاب لا يحتمل العطش، ونهضت هاجر تسعى ولهى تدفعها غريزة الأمومة للبحث عن ماء يروي ظمأ الصغير، وهي تدرك أنها في أرض جافة لا ماء فيها ولا حياة، فالأيام المعدودة التي قضتها في هذا الخلاء لم تر فيه أي مخلوق، لا طيراً يطير ولا وحشاً يسير، وراحت تصعد جبل الصفا تطل من فوقه فلم تر أحداً، وهبطت إلى الوادي وسعت فيه تريد الجانب الآخر المقابل فصعدت المروة ونظرت من فوقه شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، ولكن دون جدوى وبكاء الصغير يشتد ويزداد، وقلب الأم يتقطع عند سماع البكاء والصرخات، فعلت ذلك سبع مرات وقد أعياها البحث وأجهدها الرَّمَل، وفجأة هدأ بكاء الطفل وسكن المكان فعادت تستوضح الأمر، فكانت المفاجأة، لقد انبجس الماء غزيراً عند قدمي الطفل، وكانت المفاجأة، فأسرعت هاجر تجمع الماء بكفيها خشية تفرقه وحوطت عين الماء بالتراب لتحجزه، فسقت الطفل

وجمعت ما أمكن جمعه في السقاء الذي كان خاوياً قبل قليل، ولكن جود المولى عظيم لم يكن الماء فورة مؤقتة، ولكنه سري دائم الجريان، ففي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «**رحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً**» وفي رواية: «**لو تركتها لكانت عيناً سائحة تجري إلى يوم القيامة**» ألم تقل لإبراهيم: **فإذن لن يضيعنا الله**، لقد أتاها الغوث من الله فحفظها وابنها من الضياع، وهكذا انقلب المكان إلى أنس بعد وحشة والله القائل ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ أتت الطيور ونبت الشجر، فأقبلت إحدى القبائل من جرهم وسكنت المكان محتفظين بحق هاجر في الماء ومنذ ذلك اليوم وزمزم حتى الآن تروي العطاش وقد باركها الله تعالى، ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه عن جابر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ماء زمزم لما شرب له**» والحديث ليس بالقوي، ونشأ إسماعيل بينهم وتعلم لغتهم حتى بزهم فصاحة، وكان إبراهيم يزور زوجه وولده ليطمئن عليهما وقيل كانت وسيلته البراق ينتقل عليه بين فلسطين ومكة، وجاء الابتلاء الثاني، لهذه العائلة الصغيرة الصابرة، برؤيا رآها إبراهيم أن الله أمره بذبح ولده، يقال: إن سبب هذا الابتلاء أن إبراهيم عليه السلام عندما رزق ـ على كبر ـ بولده إسماعيل أعطاه جل اهتمامه له ولأمه، ولربما أخذ من وقت الدعوة نصيباً ما كان ينبغي أن يكون، فكان الابتلاء الشديد لإبراهيم بولده، بإبعاده عنه وأمه إلى أرض قفر، بينهما مئات الأميال، وما إن استقر إسماعيل وشعر بنوع من الأمان في الحجاز بجوار جرهم حتى جاء الامتحان الثاني، وهو الأشد، فيؤمر الوالد بذبح ولده فلذة كبده بيده ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات]، ويخبر الوالد ابنه بهذا الأمر الإلهي ليرى ما يقول، والولد في سن تقرب من الرشد وهو يدرك تماماً أن والده نبي لا ينطق عن الهوى، والأمر أمر الله، أليس يؤمن أن الله قد خلقه وهو بالتالي يؤمن أن مرده إلى الله، وهذا الأمر أمره والخالق يتصرف بعبيده كما شاء وبما شاء لا مرد لحكمه ولا اعتراض على قضائه، ولقد ورث الإيمان منذ صغره ورضعه من

ثديي أمه الطائعة لله الراضية التي سبقته بالقول «فإذن لن يضيعنا» وإسماعيل وإن كان لم يلتق بوالده إلا نذراً يسيراً وهو بذلك لم يتلق عنه هذا الفيض الإيماني بعد، ولكن للأم دور في تحبيب الولد بوالده وغرس القيم والمثل فيه، وقص أخبار الوالد التي تنير الطريق أمام الولد فتتكون لديه تصورات وقناعات بما عليه الوالد من الفضيلة والمهام التي اقتضت هذا البعد، ويكفيها أن تغرس فيه أنه نبيّ مرسل؛ يؤدي واجباته لله الذي خلقه وكلفه بهذه المهمة الشريفة، ثم تنشّئة وفق منهج والده مساراً لا يحيد عنه، فكان هذا الجواب من الولد للوالد مطمئناً إلى أن باكورة ذريته مطيع مؤمن مستسلم لأمر الله، وقاد الوالد ولده إلى الأرض الخلاء لينفذ به أمر الله ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ فاستسلم الولد لما أراد الوالد، والوالد لما أمره الله فأضجعه للذبح جاعلاً وجهه تجاه الأرض كي لا تقع العين بالعين فيرق له ويفتر عن تنفيذ الأمر الرباني، وباشر الذبح وآلة الذبح عاطلة لا تعمل وهو يجرب ويحاول، وجاءه الأمر من ربه ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات].

➢ إضاءات حول قصة الذبيح إسماعيل:

- هناك من قال بأن الذبيح هو إسحاق، وفي هذا تعد وافتراء وتزوير للتاريخ وَلَيّ للنص القرآني واجتهاد زائف في غير موضع الاجتهاد ونقص في المعرفة وهوى في النفس وقلة دراية بمرمى النصوص وضعف في الفهم وسقم ما بعده سقم، وهناك من الدلائل القاطعة ما تقطع كل الحجج الواهية التي أدلى بها من قال إنه إسحاق، لا أقول هذا انحيازاً لإسماعيل لأنه جدنا أو تعصباً له، فإسحاق نبي الله نؤمن به ولو كان هو المعني لسلمنا بهذا طاعة لله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ وإن إسحاق نفسه لا يرضى أن ينسب له هذا زوراً وبهتاناً وقد روج اليهود لهذه الفرية بأدلة واهية انطلت على من لا علم له بخبثهم، وقد حصل تزوير مماثل عندما ادعوا أن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قد منحهم الإقامة في القدس عندما تسلم



مفاتيحها وكتبوا في الوثيقة أسماء الشهود على ذلك ومنهم سعد بن معاذ، ولما طالبوا الخليفة العباسي بتنفيذها شك في الأمر وأرسل إلى أحد المحدثين فكشف زيفها لأن سعد بن معاذ قد استشهد في غزوة الخندق ـ أي قبل ولاية عمر ـ.

ـ بعد قصة الذبح مباشرة في سورة الصافات والانتهاء منها وفوز إبراهيم بالامتحان وبرضا الله تعالى، بَشّره الله تعالى بإسحاق، فهل يعقل أن تذكر القصة وتفاصيلها وطواعية الولد لوالده وإسحاق لم يخلق بعد، بينما الذي كان مولوداً قبل إسحاق بأربعة عشر عاماً هو إسماعيل ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فلما هان الولد عند إبراهيم أمام أمر الله وفاز بالامتحان الصعب استحق من الله تعالى ولداً آخر وذرية طاهرة ترث النبوة حتى النبي الخاتم محمد ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

ـ وردت البشارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، هذه البشارة قبل أن يولد إسحاق ولو أن الذبيح إسحاق والله قد بشره بأن إسحاق سيزوج ويأتيه ولد يسميه يعقوب، فبهذه البشارة كان على إبراهيم ألا يخاف من ذبح ولده لأنه بهذه البشارة يعلم أنها لن تتم، فكيف يرزق إسحاق بيعقوب إذا تم الذبح؟ والقرآن محكم ليس فيه عبث، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ـ أحداث الذبح كانت كلها في مكة موطن إسماعيل ولم يعهد عن إسحاق أنه قدم الحجاز إلا حاجاً كما أخبر النبي ﷺ في حديث عام بأن الأنبياء كلهم حجوا البيت، وليس سند هذا الخبر بالقوي.

ـ ذكر الله تبارك وتعالى صفة إسماعيل بأنه حليم، وهذه خصوصية لهذا الموقف ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات]، لكن هذه الأمنية لإبراهيم ادخرها الله له في إسحاق ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات].



➢ المزيد من قصة الذبيح إسماعيل والحوار مع أبيه:

قال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: إن إبراهيم حين أُمر بذبح ابنه قال له: يا بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب لأهلك، فلما توجها إلى الشعب اعترضه عدو الله إبليس في صورة رجل ليصده عن تنفيذ أمر الله، فقال أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، فقال: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فأنت تريد ذبحه، فعرفه إبراهيم، فقال: إليك عني أي عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي فيه، فلما يئس عدو الله من إبراهيم اعترض إسماعيل ـ وكان يمشي وراء إبراهيم ـ فقال: يا غلام أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: يحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا ذبحك، قال: لم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه، فسمعاً وطاعة، فلما امتنع منه الغلام ذهب إلى هاجر أم إسماعيل وهي في منزلها، فقال لها: يا أم إسماعيل، هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل؟ قالت: ذهب به ليحتطب لنا من هذا الشعب، قال: ما ذهب إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: إن كان الله أمره بذلك فتسليماً لأمر الله، فرجع عدو الله بغيظه لم يصب من آل إبراهيم شيئاً مما أراد، فكيف ينال منهم والله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب ـ وهو فيما يزعمون شعب ثبير ـ قال له: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك، قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، ثم قال إسماعيل: يا أبت إن أردت ذبحي فاشدد وثاقي لا يصبْكَ مني شيء فينقص أجري، فإن الموت شديد، وإني لا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه، واشحذ شفرتك حتى تجهز علي فتريحني، وإذا أنت أضجعتني لتذبحني فكبني لوجهي على جبيني ولا تضجعني لشقي فإني أخشى إن نظرت في وجهي أن تدركك رقة تحول بينك وبين أمر الله فيّ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فإنه عسى هذا أسلى لها عني، فافعل، فقال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني

على أمر الله، فربطه كما أشار إسماعيل فأوثقه، ثم شحذ شفرته وتله للجبين واتقى النظر في وجهه، ثم أدخل الشفرة لحلقه فقلبها الله لقفاها في يده، ثم اجتذبها إليه ليفرغ منه، فنودي: أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا، هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه.

* قيل إن الكبش الذي فدي به إسماعيل هو الكبش الذي قدمه هابيل قرباناً.

البشارة بإسحاق:

سارة الزوجة المحببة إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، خرجت معه مؤمنة مهاجرة، وكانت رفيقة دربه في الهجرة إلى الشام، كما رافقته في رحلته إلى مصر، صانها الله تعالى كريمة عفيفة من جبار مصر لدينها وعبادتها وحبها لله تعالى، فعادت من مصر ومعها هدية من جبارها لما رآه من عفتها ورباطة جأشها، وأنها محروسة من قوة كبيرة خفية حالت بينه وبينها فلم يستطع مسها بأذى، وكانت رضي الله عنها عقيماً وهذا امتحان لها من الله ووضعها أمام اختبار صعب خصوصاً وأن جاريتها هاجر التي أهدتها إلى زوجها إبراهيم قد ولدت إسماعيل، فحرك هذا شجونها ونمّى فيها شهوة الولد، وكل أنثى مفطورة على أن تكون أماً، لذلك لا عيب فيمن تشتهي الولد وتطلبه من ربها صابرة محتسبة، وتتخذ الأسباب بالدعاء والالتجاء إلى الله الذي يملك أن يهبها الولد، وأن تسعى أيضاً إلى اتخاذ العلاج الذي شرعه الله سبباً في الإنجاب، فلا ضير في هذا ولا حرج لأنها رغبة فطرية في المرأة، ولا يأس مع الحياة، وبعد أربع عشرة سنة من مولد إسماعيل، وبلوغ سارة سن اليأس، وربما نسيان الولد والالتفات إلى مزيد من العبادة لختام حياة يعمرها الإيمان ويرضى عنها ربها الرحمٰن، لكن كانت المفاجأة ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾، وهكذا جاءت البشرى لسارة



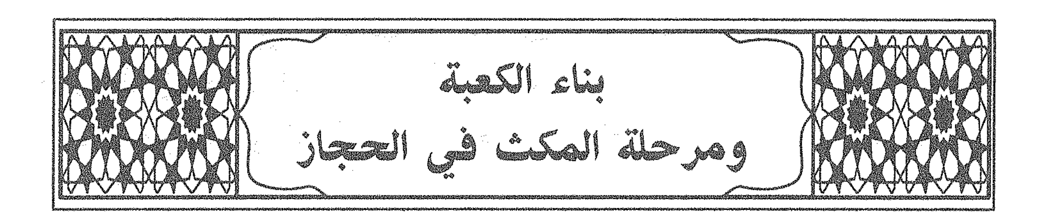
بأنها ستنجب إسحاق وسيكون لإسحاق ولد اسمه يعقوب، هكذا أخبرت الملائكة إبراهيم عن أمر ربهم حين زاروه وهم أضياف على صورة بَشَرٍ، وكانوا في طريقهم إلى لوط، لكن لِمَ الاستعجال في البشارة بيعقوب؟ وسارة يكفيها إسحاق وهي التي انتظرت هذه الساعة سنين طويلة، وأظنها لا تتطلع لأبعد من ذلك، لكن هناك سر في البشارة بيعقوب، وفيها تقديم الطمأنينة لإبراهيم عليه السلام باستمرار الذرية، وأن المواليد الذين يولدون على شكل إعجاز رباني وعلى غير ما أودعه الله من قوانين في هذا الكون سينتهي الإعجاز عندهم، بمعنى أنهم لا ينجبون،لكن هذه المعجزة ستتخطى القوانين أيضاً فطمأن الله بأن إسحاق سينجب، وسيرزق بالولد، وهذا إعجاز في إعجاز، حيث إن سارة قد ولدته وفق إعجاز خارق للعادة، فمثيلاتها لا ينجبون وفق قانون الله في الأرض، لذلك عجبت من هذه البشارة ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود]، فالرجل لا يقف إنجابه عند سن معينة حتى ولو كان شيخاً، أما المرأة فنعم، إذا انقطع الحيض وكانت من قبل تنجب توقف الإنجاب، لذلك تزوج إبراهيم بعد سارة وبعد هاجر بامرأتين «قنطورا» وأنجبت: مدن ـ مدين ـ يقسان ـ سوح ـ زمران ـ أسبق ـ و «حجور» وأنجبت: كيسان ـ شورخ ـ أميم ـ لوطان ـ نافس.

وعوداً إلى إسحاق فقد كانت البشارة مزدوجة، بشارة بإسحاق وأن إسحاق سينجب يعقوب، وعلى هامش القصة فإن **الاستنساخ للنعجة دوللي** كما ورد عن الذين مارسوه في هذا العصر تم ـ كما زعموا ـ من تلقيح خلايا أنثوية لم تستعمل فيها البويضة ولا الحيوان المنوي وهو إنجاب على غير القوانين المتبعة التي أظهرها الله لنا في الأرض، وهذا الإنجاب ـ باعتقادي ـ سينقرض ولن يكون له نسل كما حصل للذين مسخهم الله من بني إسرائيل قردة وخنازير عبرة لما أحدثوه من مخالفات وكفر عظيم ثم انقرضوا.

لقد نالت سارة الصابرة ما تمنت وآبت بالرحمة والرضوان من الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ

حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود] وفي سورة الذاريات أظهرت وقع الخبر على سارة وقد جللها الخجل والدهشة بأن تنجب وهي في سن متقدمة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] كانت سارة تقف خلف ستر وهي تساعد إبراهيم في خدمة ضيوفه ظناً من إبراهيم وسارة أنهم ضيوف من البشر لأنهم أتوا في هيئة البشر، ولما قدم لهم الطعام وهو عجل سمين مشوي اعتذروا عن الأكل وأخبروه بحقيقتهم ثم بشروه بغلام عليم من سارة، فسمعت سارة ما قالوه وضربت وجهها خجلاً وقالت عجوز عقيم، أي أتلد وهي عجوز وعقيم، فذكروها بأن هذا أمر الله وهو الحكيم العليم، وهي تعلم قدرة الله تعالى فلا شيء يعجزه والأمر كله بيده، فعادت جنسياً مثل الشواب فحاضت ومن ثم حملت، فكانت ولادة إسحاق.





بناء الكعبة ومرحلة المكث في الحجاز

الكعبة بيت الله جعلها قبلة للمسلمين يتجهون إليها في صلواتهم، وهي بمكة المكرمة وقد جعل الله لبيته حرماً آمناً حده بحدود من حولها، وجعل لهذا الحرم محظورات لا ينبغي فعلها، منها: منع الظلم والإلحاد والصيد وقطع الشجر وقتل دوابها وهوامها ما عدا الحية والعقرب والفأر والحدأة والكلب العقور، وسميت هذه بالفواسق الخمسة، وقد أمر الله نبيه إبراهيم أن يبني الكعبة على أساسها السابق، حيث يعتقد عدد من المؤرخين أن الكعبة كانت قبل إبراهيم وقد تهدمت بفعل الطوفان وانطمس مكانها وبقيت هكذا حتى عهد إبراهيم، بينما يعتقد مؤرخون آخرون أن إبراهيم عليه السلام بناها ابتداء، وقد مر أن آدم حج البيت وفي غيابه قتل قابيل هابيل، كما ورد عن ابن عباس قال: «حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال: **«يا أبا بكر أي واد هذا؟»** قال: هذا وادي عسفان، قال: **«لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات - نياق - لهم حمر خطمهم الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق»** والحديث ضعفه ابن كثير وقال فيه غرابة، وقال في تاريخه «البداية والنهاية»: وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل، وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها، فأما إن ردها الحق تعالى فهي مردودة بلا شك، وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وعلى هذا سيقتصر حديث بناء البيت ابتداء من عهد إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج]، فكانت البداية أن هدى الله إبراهيم إلى مكان البيت المحدد بأركانه الأربع، وقد ورد في الأخبار عن السدي لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه بعث الله ريحاً يقال لها الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس، هذا على رواية أن إبراهيم بنى الكعبة على أساس البيت القديم، وأما أن يكون إبراهيم قد بناها ابتداء فيحتمل أن هذه الريح قد خططت له المكان والأساس الذي أراده الله تماماً دون زيادة ولا نقصان، وورد أن الله بعث له جبريل عليه السلام فدله على مكان البيت وما ينبغي عليه عمله، وبعد أن عرف مكان البيت باشر بحفر الأساس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة] فقد شارك إسماعيل أباه في البناء ونقل الحجارة وكان عملاً شاقاً، لكن يهون كل شيء أمام تلبية إرادة الرحمٰن، لقد شرف الله إبراهيم وابنه إسماعيل في تكليفهما بهذا البناء، وخصهما به دون غيرهما حتى إن إبراهيم لم يستعن بأحد غير ابنه إسماعيل، لأن الله تبارك وتعالى أراد أن لا يبني بيته إلا طاهر اليد والقلب، ولولا ذلك لاستأجر إبراهيم من يقوم له بهذا العمل، لكن شرف البناء وقدسيته يحتاج لطهر الباني ونظافته القلبية من الشرك ونظافته البدنية من الأقذار، وهذا متوفر في نبي الله إبراهيم وفي ابنه إسماعيل، ولقد عرفت قريش هذه القدسية للكعبة فلما أرادوا تجديد بنيانها قالوا لا تدخلوا فيها إلا مالاً من كسب طيب، ومن هذا المنطلق أيضاً كان العهد لهما بصون هذا البيت من كل أشكال الشرك ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وباشر إبراهيم البناء وإسماعيل يحضر الحجارة المناسبة يناولها والده حتى إذا كان عند الركن من الكعبة قال إبراهيم: يا

بني أبغني حجراً كما آمرك، فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجد أباه قد وضع الحجر الأسود في مكانه فقال إسماعيل يا أبت من جاءك بهذا الحجر؟ قال من هو أنشط منك جاءني به جبريل من السماء، وورد أن الحجر كان كأنه الياقوتة البيضاء نزل مع آدم من الجنة فسودته خطايا بني آدم فهو اليوم أسود، ولما ارتفع البنيان وضع إبراهيم حجراً يقوم عليه ليرتفع كي يكمل البناء، فسمي هذا الحجر مقام إبراهيم، وعليه آثار قدمي إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] ومعنى مثابة: حب العودة إليه، فزائره مهما مكث عنده ثم عاد إلى دياره فإنه يشتاق للعودة إليه، لكن لو نظرنا إلى مقام إبراهيم فإنه لم يكن مرتفعاً فهل كان يكفي أن يصعد عليه إبراهيم فيبلغ أعلى الكعبة؟ هناك احتمالات ثلاث:

- إما أن إبراهيم كان طويل القامة وبهذا لا يحتاج ليصل إلى أعلى البناء إلا إلى هذا القدر من الارتفاع، وأخرج البخاري عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني الليلة آتيان، فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً، وإنه إبراهيم ﷺ**» فهذا الحديث يشهد بطول إبراهيم عليه السلام.

- أو أن بناء الكعبة لم يكن مرتفعاً كما هو اليوم.

- أو أن هذا الحجر كان بمثابة معجزة سخرها الله تعالى لإبراهيم بحيث ترتفع وتنخفض وتتحرك حول الكعبة حسب حاجة إبراهيم عليه السلام. وهذا ما أرجحه لأن ذكر الحجر أو المقام في القرآن كان بمعرض المدح والأهمية والاحتفاظ بهذا الأثر ووضعه في المكان الذي يليق به، ولو لم يكن له هذه الميزة فلمَ يذكر بهذا الاهتمام؟ خصوصاً وأن آثار قدمي إبراهيم فيه واضحة، ولو وقف الإنسان حافياً سنين طويلة لما أثر هذا في الصخر، فإن من تمام الإعجاز أن يخلد ذكر إبراهيم بأثر قدميه في الصخر ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ والصلاة المقصودة ركعتي الطواف، بحيث لو انتهى الطائف من طوافه توجه خلف المقام وجعله بينه وبين الكعبة وصلى لله ركعتين، وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال

للنبي ﷺ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فوافق هذا الرأي ما أراده الله فنزلت هذه الآية.

وبعد إتمام بناء الكعبة من قبل إبراهيم وإسماعيل وهما يعملان بجد ونشاط بإقبال منقطع النظير وحب لعملهما واغتباط في نيل هذا الشرف العظيم، وكان دليل فرحتهما التهليل والتسبيح والدعاء بتقبل هذا العمل ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ ولما أنجزا هذا العمل الرائع وانفتحت لهما أبواب الرحمة لرضا الله تعالى بما فعلا، أرادا اهتبال هذه الفرصة من الفيض الرباني فتابعا الدعاء ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة] إشفاقاً منهما على أهل هذه الديار التي شرفها الله ببيته الكريم ليكونوا من المؤمنين، فيجتمع لهم شرف الإيمان وشرف المكان، ثم أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام أن يظهر للناس هذا البيت ويدعوهم إليه ليعرفوا بيت الله وكعبته ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾ [الحج]، ويروى أن إبراهيم قال: وما يبلغ صوتي؟ قال تعالى: أذّنْ وعليّ البلاغ، فصعد إبراهيم جبل أبي قبيس ونادى: يا أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً وأوجب عليكم الحج إليه فأجيبوا ربكم، وكان في كل نداء يتجه إلى جهة من الجهات الأربع، فأجيب من كل من كُتب له الحج إلى يوم القيامة «**لبيك اللّهم لبيك**» وحج إبراهيم عليه السلام بالناس الحجة الأولى لكي يعلمهم كيفية الحج، وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ [النحل].



إبراهيم الرحمة المهداة

وصف الله تعالى إبراهيم بأجمل وصف بحيث تتجلى من خلاله شخصية إبراهيم الدؤوبة المحبوبة السالكة طرق الخير والمحبة، فهو الحامد الشاكر لله أنى حل وكيف ارتحل، كان أمة قانتاً لله حنيفاً مسلماً تنطق بذلك جوارحه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل]، ووصفه الله بالحلم والأناة وأنه أواه كثير الاستغفار والدعاء ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود]، وقد سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الأوّاه؟ قال: «**الخاشع المتضرع الدعاء**»، لقد عاش فترة في مكة ورأى حال البلاد من ضنك الحياة وشظف العيش فما كان منه إلا أن أطلق دعوة من قلب مشفق لمكة كي يعمها الله بالخير ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة] فأراده بلد خير متكامل بالمؤمنين والأرزاق، وشملت دعوته الرحمة بهم والرأفة بأن يرسل فيهم رسولاً منهم ليعلمهم ما جهلوه من أمور دينهم ليضمن لهم حياة أخروية سعيدة ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] وكان كثير الوصايا لأولاده وأحفاده بالتوحيد والاستقامة على المنهج القويم ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]، وورد أنه عليه السلام لما عاد من مصر إلى فلسطين نزل في موضع سبع، فحفر فيها بئراً كانت غزيرة طيبة الماء ـ **سميت بعد ذلك بئر سبع** ـ واتخذ فيها غنماً وعم خيره على أهل المنطقة فاستقوا منها وعاشوا مدة إقامته بينهم في نعيم، ونشر دعوته هناك، لكن أهل سبع

خالفوه واظهروا له العداء ففارقهم إلى مكان قريب من القدس، فلما فارقهم جف البئر فتبع أهلها إبراهيم فاعتذروا له وطلبوا منه العودة فلم يرض أن يعود لبلدة أخرج منها، فذكروا له جفاف البئر، فأشفق عليهم وأعطاهم بضع عنزات وقال لهم: لترد العنزات إلى البئر فإنه سيعود، وهكذا عادت المياه العذبة إلى البئر وهذا مثال رحمته بالناس، لقد كان هاجس إبراهيم الكبير الذي كان يأخذ عليه تفكيره هو في كيفية هداية والده إلى الإسلام لقد بذل له كل نصح ونوّع في الأسلوب في إلانة القول له تارة والتخويف من عذاب الله تارة أخرى والجدال بالتي هي أحسن والعقلانية في البرهان والنقاش، لكنه أبى ذلك وأصر على عبادة أصنامه، ومع ذلك أصر إبراهيم على الدعاء له بالمغفرة والهداية، وكما ورد على لسان نوح عندما أوذي وعن نبينا عليه الصلاة والسلام كذلك «**اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» وكان هذا حال إبراهيم مع أبيه إلى أن مات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾، فكان في حياته يطمع في إيمانه ويستغفر له لأن الأمل والرجاء موجود ـ وهذا ما كان عليه محمد ﷺ مع عمه أبي طالب ـ فلما مات على شركه تبين له أنه مصر على الكفر ومعاداة الله فتبرأ منه وقطع الاستغفار عنه.

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان أشبه الناس بإبراهيم، وروي أيضاً عن أبي هريرة أن إبراهيم عليه السلام **اختتن** بالقدوم وهو ابن ثمانين سنة» وروي أيضاً عن أبي هريرة أن إبراهيم لم يكذب سوى ثلاث كذبات، ثنتين منهن لله، قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ والثالثة قوله لجبار مصر عندما سأله عن سارة قال: هي «أختي» وهو يعني في الإسلام، ولو قال زوجتي لقتله.



إسماعيل عليه السلام

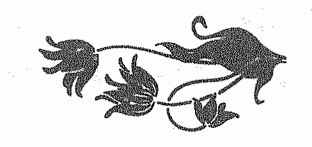
بكر إبراهيم وابنه من هاجر، تركه إبراهيم مع أمه في واد غير ذي زرع وهو لا يزال رضيعاً، وترك عند أمه جراباً من تمر وسقاء ماء وعاد إلى فلسطين، كان ذلك عن أمر الله، فلما اطمأنت هاجر إلى أن هذا المنفى هو إرادة ربانية، قالت: فإذاً لن يضيّعنا الله، فلما فنيَ الزاد ونضب الماء وعطش الولد وجفّ عند هاجر الضرع قامت تبحث عن الماء هائمة على وجهها مضطربة تعلو جبل الصفا وتنظر فلا تجد شيئاً وتهبط الوادي وهي تتلفت يميناً وشمالاً ثم تصعد جبل المروة وتتطلع بعيداً بعيداً، فترجع من هذا وذاك صفر اليدين، وكررت هذا المشهد سبع مرات ثم أحست بصوت خافت منبعث من بعيد فقالت لنفسها صه تريد أن تسمع بوضوح، فإذا بجبريل عليه السلام يضرب الأرض قرب قدمي ولدها إسماعيل فينبجس الماء وتسرع إلى الماء تحبسه وتملأ السقاء وتنعم بماء زمزم المبارك، ويشب إسماعيل قوياً حليماً مطيعاً لوالديه بالرغم من قلة زيارات والده إبراهيم له، ثم يخضع إسماعيل لأقسى امتحان يتعرض له فتى في مثل سنه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ وكان جواب الابن البار ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ فنجح في الامتحان صابراً وفداه الله بذبح ثمين، لذلك اكتسب صفة الصبر ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء]، ولما اشتد عوده ساعد والده في بناء الكعبة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ عاش بين قبيلة جرهم التي نزلت بجوارهم وشب قوياً فصيحاً بينهم فزوجوه منهم، ثم توفيت والدته وهو في ريعان شبابه وفتوته، وزاره والده قادماً من فلسطين لكنه لم يره فسأل زوجته عنه فقالت هو في الصيد، فسألها عن أحوالهما - وهي لا تعرف أنه والد إسماعيل - فقالت نحن في أسوأ حال ونعيش في ضنك وفاقة، ولم تحمد الله على نعمه فعرف من كلامها جهلها ولا ينبغي أن تكون زوجة نبي، فقال لها إن حضر أقرئيه السلام وقولي له يغير عتبة بيته، وعاد إسماعيل من رحلته محملاً بالصيد،

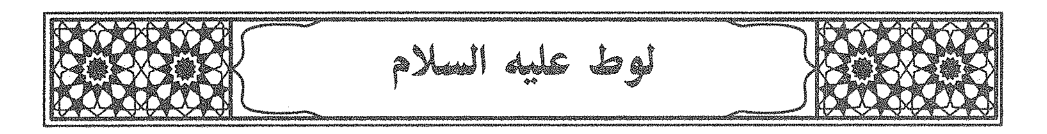


فقال لزوجته: أمر بكم أحد؟ قالت نعم شيخ كبير جليل مهاب، قال إسماعيل: أقال لك شيئاً؟ قالت: نعم، يسلم عليك ويأمرك بتغيير عتبة بيتك، فقال: هذا أبي وقد أمرني بأن أطلقك، ثم غاب إبراهيم عليه السلام ما شاء الله له أن يغيب، وعاد إلى الحجاز يفقد ابنه، فحضر ولم يجده فسأل زوجته، فقالت: هو في الصيد، فسألها عن أحوالهما، فقالت نحن بخير والحمد لله وتغمرنا نعم الله، ثم قالت انزل ضيفاً علينا فلا يلبث إسماعيل أن يحضر، فقال: أقرئيه السلام وقولي له يثبت عتبة بيته، وحضر بعد مدة إسماعيل وسألها إن كان قد حضر أحد في غيابه فذكرت له حضور شيخ مهيب، فقال: هل قال شيئاً قالت: نعم يسلم عليك ويطلب منك تثبيت عتبة بيتك، قال لها: هذا أبي وقد أمرني بأن أتمسك بك، وعاشت معه تتحمل مسؤولية البيت في صبر واقتدار، وحق لها بهذه الأخلاق أن تكون زوجة نبي، فقد نبئ إسماعيل عليه السلام وهو في الأربعين، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ فكان رسولاً إلى قومه من العرب، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة، فهم أهله وعشيرته والأمر عام غير مقتصر على الأهل، وقد سار في قومه سيرة فيها الحب والرحمة فاكتسب محبتهم وعاش بينهم مكرماً مبجلاً ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص] وأما شريعته فهي شريعة إبراهيم دين الحنيفية السمحاء ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] فهذه الآية تظهر أن المُنْزَل إلى إبراهيم وأبنائه وأسباطه واحد، علماً بأن الدين المنزل على كل الأنبياء واحد أيضاً، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣] أما دعوة إسماعيل فإن القرآن قد ذكرها مقتضبة، ربما لأنها فعلاً دعوة إبراهيم نفسها فهي استمرار لها، وكما مر سابقاً فإن إبراهيم أقام مدة في الحجاز يبني البيت ويعلم الناس الحج ومن لبى نداء الحج الذي نادى به إبراهيم فإنه ولا شك حج وفق شريعة إبراهيم، وعلى هذا فرسالة إسماعيل هي امتداد لرسالة



والده، لذلك كان العرب يقولون نحن على دين الحنيفية ثم دخلها لطول الفترة بين الرسل التحريف كما حدث لغيرها من الرسالات في الأمم الأخرى، لكن تطالعنا السيرة أن نفراً من العرب استمروا على المنهج الصحيح لا يسجدون للأصنام ولا يقدسونها وينبذون ما انغمست فيه قريش من الوثنية، وكان من هؤلاء: ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقالوا فيما بينهم: تعلمون والله ما قومكم على شيء، أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نُطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! وذكر في السيرة أيضاً أن إسماعيل خلف اثني عشر رجلاً أكبرهم نابت وهو الجد التاسع لعدنان ومن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل، وذكر أهل التواريخ أن إسماعيل عاش مائة وثلاثين سنة والله أعلم، وورد أنه أول من استأنس الخيل في بلاد العرب فأصبحت مطية الإنسان السريعة في الصيد والحرب والكر والفر، وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون ـ يتبارون برمي السهام على أهداف نصبوها ـ فقال رسول الله ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**»، ارموا وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكم لا ترمون؟**» فقالوا: يا رسول الله نرمي وأنت معهم؟ قال: «**ارموا وأنا معكم كلكم**» وهذا الحديث يشهد على مهارة إسماعيل في الرمي وأن النبي ﷺ أراد أن يحيي عندهم هذه الخصلة والمهارة في الرمي لأنها مهمة في الحرب، وكان النبي ﷺ يشجع على الرمي، وورد في ذلك أحاديث كثيرة، منها: ما أخرجه البخاري عن عبدالرحمٰن بن أبي حسين، أن النبي ﷺ قال: «**ارموا واركبوا ولأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق**».





لوط عليه السلام

نبي الله لوط هو ابن أخ إبراهيم، الوحيد الذي آمن معه من الرجال، وهاجر معه بعد أن اشتد أذى النمرود في العراق ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ واستقر مع عمه إبراهيم في فلسطين ولما نبئ أمره الله تعالى بالتوجه إلى ديار سدوم القريبة من الجهة الشمالية للبحر الميت، وقد سميت «المؤتفكة» لما حصل لها من إنزال عقوبة الله بها ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ فسميت بهذا الاسم لانقلاب أعلاها إلى أسفلها، لذلك سمي الأفاك: المرتد المنقلب رأساً على عقب، وعليه فإن لوط عليه السلام أرسل إلى هؤلاء القوم ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الشعراء]، فهل كان لوط أخوهم حقاً؟ ونعلم أنه هاجر إلى ديارهم من العراق، لكن السياق القرآني في سورة الشعراء ذكر معاناة الأنبياء مع أقوامهم بدءاً من ونوح، وجعل كل نبي أخاً لقومه، فكانت المؤاخاة متنوعة، بعضها: مؤاخاة النسب حقاً، وبعضها مؤاخاة الإنسانية، وبعضها مؤاخاة اللفظ الدارج في لغة العرب، حيث ينادى الرجل عادة «يا أخا العرب» خاطب قومه بأرق عبارة ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أن تعملوا ما يقيكم من غضب الله فلا تعتدوا على المحرمات، واعلموا أني لكم ناصح أمين لا أغشكم أبداً، فأطيعوني فيما أدعوكم إليه ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فلا أطلب منكم على نصحي لكم أجراً، فالله تعالى أرسلني إليكم لهدايتكم لتعبدوه وحده وتلتزموا بتعاليمه فهذا لأجلكم

ولفك رقابكم من النار، والله تعالى هو الذي يجزيني أجري ثواباً من عنده، والله عنده حسن الثواب، فقالوا: أفصح ماذا تريد منا؟ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ وقد نوع لهم في الخطاب للكف عما هم فيه فأصموا آذانهم وكان في كل مرة يذكرهم فيها، يقولون له ما طلبك؟ وهم يعرفون ما يريده منهم، لكن كانوا يحبون الجدال لعلهم يظفرون منه بتجاوز هذا الطلب أو أن يغفل عنه مرة، إنهم يريدون بكثرة الجدال أن ينسوه الأمر الذي جاء من أجله أو يحولوه عن طلبه هذا، فهم منغمسون فيه ومدمنون عليه، وقد تعارفوا فيما بينهم على هذا المنكر، فلا ينكر بعضهم على بعض في مقارفته بالرغم من شناعته وبشاعته ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل] فقد كان يبصر بعضهم بعضاً وهم يمارسون الفاحشة بلا حياء ولا خجل، لقد جعلوا القبيح حسناً والحسن قبيحاً وعمموه فيما بينهم ومنعوا أي شخص يفوه بإنكاره، كحال دول الغرب اليوم الذين أحلوا الزنا ومنعوا النكير بشأنه وعدّوه حرية شخصية كما تعارفوا بأن مصطلح الزنا ـ المومس ـ يكون للمرأة التي تمتهنه وتأخذ أجراً عليه، أما التي تزني باسم الحب فهذا الطهر والعفاف بعينه، وتخلوا عن أية تعليمات دينية كانوا عليها وصمت عن النصح رجال دينهم بل إنهم وافقوهم وآكلوهم وشاربوهم، وهكذا حولوا مفهوم الأشياء بالتواطؤ الجماعي، فالحل ما أحلوه والحرام ـ إن وجد عندهم ـ ما حرموه، إباحية ما بعدها إباحية حتى وجد من بعض المسلمين الذين انسلخوا عن القيم من يروج لأفكارهم وأخلاقهم، والمولى تعالى ما منع المنكرات المؤذية للإنسان في بدنه وفكره إلا لأجل سلامته ونقاوته وعمران الكون ونظامه، ثم إنه فتح لهم أبواباً من طرق الحلال أكثر وأنقى مما منع، فقد أحل لهم الزواج الذي يصرف طاقة الشهوة والجنس، ويكون من ثماره تتابع النسل لاستمرار الحياة ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء] تحبون العدوان على الآخرين، وذلك لأنهم كانوا

يفعلون هذا مع الغرباء على وجه الخصوص وأنها سابقة خطيرة لم تفشو إلا عندهم ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ ولم يكن إتيان الرجال شهوة من دون النساء جريمتهم الوحيدة بل كانوا أهل شر مستطير، يقطعون الطريق ويخطفون الذكور مع فوضى عارمة من اللعب بالحمام والصفير والشتائم وسوء الأخلاق، ولم يقتنعوا بنصح لوط لهم، بل أصروا على ضلالهم وعدّوا فكر لوط شاذاً ومحبطاً لمشاريعهم، وأنه خارج عن الإجماع فلا ينبغي أن يساكنهم في بلدهم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء] إن لوطاً لم يكن ينتصر لأمر شخصي فدعوته أمر من الله للاتجاه في هذا السبيل، وعليه فإن موقف لوط ثابت بل ويسعى بكل ما أوتي من قوة وجهد أن يثنيهم عما هم فيه من الغي والضلال، فجوابه على تهديدهم أنه غير موافق على عملهم الشائن، فهو قالٍ ومبغض له بشدة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]، وهنا اتخذوا القرار بطرده وأهله ومن على طريقته غير مبالين بما توعدهم من عذاب الله وغضبه، فإذا نزل بهم فسيكون أليماً شديداً، لكنهم تحدوه أن يصيبهم بأي مكروه، وظنوا أن الإلانة القول لهم، وأمره لهم بالمعروف أنه ضعيف أو كاذب يهددهم بما لا يقدر عليه، فتحدوه أن يأتيهم بالعذاب أو أن تصيبهم نقمة من الله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ فلجأ إلى الله يستنصره عليهم وأن ينجيه من خطرهم وشرهم، فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء] لقد استجاب الله دعاء لوط في هؤلاء الأشرار، لقد بذل معهم كل جهد ممكن ليصلحهم، لكن قلوب أهل سدوم غلفها الران الذي لا ينفذ من خلاله النور، فأصروا على اتباع طريق الضلال، وجاءت الفرصة الأخيرة والاختبار الصعب، فإما هداية وعفو عما سلف، وإما دمار مهلك ﴿وَلَمَّا

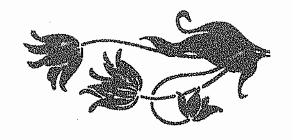


جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ وزار لوط زوّار غرباء على هيئة شباب في منتهى الجمال، فاغتم لوط لأجلهم وضاق صدره، وخشي عليهم من قومه السفهاء الذين سيقبضون عليهم ويمارسون معهم الفاحشة، وتمنى أن لا يراهم قومه، لكن أخبار الضيوف وصلت إلى قوم لوط، سربته لهم زوجة لوط، فأتوا مسرعين يقرعون باب لوط، ويطلبون منه في سفاهة أن يسلمهم ضيوفه، ولكي ينقذ ضيوفه عرض عليهم الزواج من بناته، يا قوم إن كنتم تريدون الاستمتاع فاستمتعوا بما أحل الله لكم بالزواج من النساء لا بإتيان الرجال، فشهوتكم مقلوبة خالفتم في ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، فأنتم من الشواذ ولا حياة للشواذ فوق هذه الأرض، ولما تمادوا في الطلب والهجوم على دار لوط، وضعف عن حماية ضيوفه أمام العدد المهاجم الذي يريد كل منهم أن يفوز بالغنيمة، صاح بهم لوط ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ لقد عدم الرشد عندهم أمام شبق الشهوة الفاجرة وسيطرتها على نفوسهم المريضة ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ إصرار عجيب على المنكر بلا خجل ولا حياء وأي حياء يرجى من هؤلاء، فقال لوط مظهراً ضعفه البدني وتمنى أن يعطى من القوة ما يردعهم فيها ويؤدبهم ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ذكر القوة المحضة له وذكر العشيرة المناصرة وهي عنده مفتقدة، لقد أتاهم مهاجراً من العراق مع عمه إبراهيم، ودخل بلدتهم وحيداً، والذين آمنوا بدعوته قلة، ذكر العصبة المناصرة لو كانت له عصبة، ومن هذا الموقف الصعب والتجاذب معهم نسي أن الركن الشديد بل والأشد هو الله، ومع ذلك لم ينسه ربه من النصرة لأن عمله كان في سبيل الله متحملاً دعوة هؤلاء الغلاظ الذين جعلوا من المنكر شرعة لهم، لقد عرف أن هذا سيصدر منهم لذلك قال ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ صعب ودعا أن يمضي على خير، ولما اشتدت المدافعة مع القوم الظالمين وأرهقوه وبلغ منه الجهد مبلغه، ولم يستمعوا للتخويف من بطش الله، أظهر جبريل

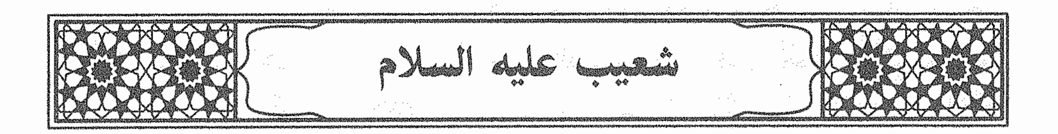
عليه السلام - وكان من هؤلاء الضيوف - طرفاً من جناحه فأغشاهم وأعمى أبصارهم لبعض الوقت فانسحبوا وهم يتوعدونه الصبح ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر]، تماروا: تجادلوا بصدق ما أنذرهم به لوط وخوفهم من حدوثه، فكانوا بين مكذب يحث على الإجرام ومتحد للوط بأن يأتيهم ما يعدهم به من العذاب، وبعد طمس العيون لهؤلاء السفهاء، انتبه لوط إلى حقيقة أضيافه ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت] فأخبروه أنهم ملائكة أرسلهم الله لمساعدته والقضاء على هذه الأمة الفاسدة ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الحجر]، وهكذا توافدت رسل الله من الملائكة إلى لوط للانتقام وهم يحملون نذر عذابهم، ومع ذلك فقوم لوط ماضون في غيهم وعنادهم والسير في طريق الرذيلة، فجاء هؤلاء الملائكة وهم مأمورون بتدميرهم، وقد مروا في طريقهم على إبراهيم فأخبروه بذلك ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر]، فهذا أمر الله ولا مرد لأمر الله تعالى لأنه حكم بذلك ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود]، وكان هؤلاء الملائكة قد مروا على إبراهيم فبشروه بإسحاق ولا حظ صلوات الله عليه أن لهم مهمة أخرى ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر]، فخشي إبراهيم عليه السلام أن يكون التدمير شاملاً فقال: إن فيها مؤمنين، فقالوا نحن أعلم بمن فيها ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ

بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات] فما كان فيها إلا لوط وابنتاه، فحق على قومه العذاب ونجى الله لوطاً وابنتيه، أما زوجته فقد سمعت قوة الدمار فالتفتت خلفها فرأت تدمير بلدتهم ورجمهم بالحجارة فصاحت وا قوماه فأصابها حجر كما أصابهم وهلكوا جميعاً، فعاد لوط إلى ديار إبراهيم ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء]، وجعل الله ديارهم عبرة لمن اعتبر شاهدة مدى الزمن على إهلاك هؤلاء الفاسدين فقطع من الأرض شرورهم، وبعد عهود خاطب الله قريشاً ليعتبروا بما جرى لقوم لوط ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات]، ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر]، فبلدتهم على طريق التجارة إلى الشام وهي شاهد قائم ولوحة طبيعية حفظت ما وقع من العقاب لمن أراد أن يعتبر ويشهد ما يؤول إليه مصير هؤلاء العصاة المكذبين للرسل.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي».**







شعيب عليه السلام

خطيب الأنبياء، عربي بليغ فصيح، ينتسب إلى مدين بن مديان بن إبراهيم، أرسله الله نبياً إلى قومه أصحاب الأيكة، والأيكة شجرة كبيرة ملتفة كانوا يعبدونها فعُرفوا بها، أما مكانهم فكانوا قريباً من منطقة معان جنوب الأردن، وقد وجد في تلك المنطقة آثار مشابهة لآثار الحجر وهم قوم صالح لكنها أكثر فناً وأجود صنعة فهي لا شك لأمة أرقى منهم وأحدث، وكان قوم شعيب يسكنون في مكان له موقع تجاري مهم، ومنه جنوا أرباحاً كبيرة وأضحوا تجاراً بين الجزيرة ومصر، وأصبح عندهم نهم للربح وجشع في البيع والشراء، وتسابقوا في تكوين الثروة غير عابئين بالطرق المشروعة لجمعها، ولما تمادى غيهم وجمعوا بين الفساد العقدي والفساد الاجتماعي بحيث لا تستقيم مع هذه الأمور حياة الجماعة وانتظامها وتختل الموازين وتسود الفوضى، وكما قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا حياة إذا جهالهم سادوا

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل على فترات رسلاً إلى الأقوام الذين بعدوا عن الطريق السوي ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ لقد قدس قوم شعيب الأيكة وغشوا في السلع ولعبوا بالموازين والمكاييل فكان لا بد من إنذارهم للإقلاع عما يفعلونه قبل صب العذاب عليهم صباً ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ



مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود] فكان المرسل إليهم شعيباً وذكرهم بما يجب فعله ليعودوا إلى جادة الصواب، عبادة الله وحده وعدم إنقاص الكيل والميزان، وقال لهم: لا حاجة لكم إلى التطفيف والإنقاص فأنتم بخير ومالُكم وفير فلماذا تفعلون هذا؟ وهل هناك عاقل يحب أن يكثر ماله من الغش والحرام، ولماذا المال الكثير فوق الحاجة، فالإنسان ليس له من المال إلا ما أكل فأفنى ولبس فأبلى والزائد عن هذا ليس له وإنما هو لورثته، وعلى الجاني المحاسبة إن كان من طريق مشروع أو من الغش والسرقة، فماذا كان جواب قومه؟ إن الذين استمرؤوا أكل المال الحرام وفتحت بطونهم للجشع قلما يصغون للنصائح، بل يعدونها تدخلاً من الناصح فيما لا يعنيه، وفضولاً ليس له من دافع سوى الحسد، ولما رأى الإعراض أعاد عليهم النصح بأسلوب آخر فيه تذكيرهم بأنهم قومه ولهم عليه واجب النصح ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود]، فإفسادهم لم يكن في بلدهم فقد شمل بلداناً أخرى لأنهم كانوا يتعاملون بهذه الأخلاق مع المارين والمسافرين والتجار من البلدان الأخرى، فكانوا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين]، ويحسبون هذا التلاعب من باب البراعة في التجارة والحنكة، ولم يدروا أن الحنكة التجارية هي في الصدق وسلامة البضاعة ودقة المكيال والميزان، فلا بركة للمال إلا بهذا ولا ينمو المال من السحت والحرام إلا ليحرق أصحابه ويزيد من عبء حملهم الثقيل يوم القيامة.

أخرج الترمذي عن عبيدالله بن رفاعة عن أبيه عن جده أنه خرج مع النبي ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون، فقال: **يا معشر التجار فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال: إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق**» وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة**» أخرجه ابن ماجه.



لكن الذين يجمعون من المال ولا يشبعون كأنهم الهيم العطشى لا يصغون لمثل هذه النصائح التي تصادم نهمهم وأطماعهم؛ وجوابهم في كل العهود واحد ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود] هذا مبدأ الحرية المطلقة الفاشلة التي يتصرف فيها الفرد وفق هواه ومصلحته من غير مراعاة لما ينتج عن هذا التصرف من أضرار على قومه وبلاده، ويلاحظ من رد قوم شعيب عليه السخرية والتعالي في كلامهم، أصلاتك تأمرك بتقديم هذه النصائح؟ وتظن نفسك أنك وحدك في هذا المجتمع الحليم الرشيد، عندنا الكبار والعقول وأهل الحلم وأهل الحل والعقد ولو كنا على خطأ من أمرنا لوجهونا إلى الصواب وهم أقدر منك على ذلك، وهكذا فهذه لغة كل عصر عندما يتعامل الناس وفق منهج معين وفيه مخالفات من أكل الربا كما في البنوك الربوية وفيه ضياع لحقوق قطاع كبير من الناس وفيه إتلاف لأموال الأمة فإذا كان النظام يجيز هذا في البلد فهو النظام الحق طالما أن كبار القوم قد أقروه، هذه لغة المنافع لعصبة من الناس، فإذا أراد أن يقوّمها مصلح استصغروه وسخروا منه، ولكن رسل الله الذين كلّفوا بالدعوة لهم صفة الجدال بالحق وعدم الانكفاء حسرة على ما يرونه من سفاهة السفهاء وصد الأشقياء من الصدمة الأولى لأن الله اختارهم من أهل الصبر والتحمل والقدرة على تنويع أسلوب الدعوة، فكان جوابه لهم يحرك العقل ويستثيره ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ أرأيتم إن كنت على حجة واضحة لاشك في صحتها ورزقني الله مالاً حلالاً من كسب حلال أترون أني أشوبه بالمال الحرام وأخلطه به، لماذا أفعل هذا؟ إن فعلت هذا أكون جاهلاً بعيداً عن التفكير السليم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فهل تظنون أني أنهاكم عن شيء ثم أفعله وأرتكبه؟ معاذ الله فأنا أشد منكم تطبيقاً لما أقول فالحلال حلال لي ولكم والحرام حرام علي وعليكم، بهذا البيان الرائع وختامه الرشيق بعبارات لم يُسبق إليها من قبل ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ لذلك ضمنها الخطباء



خطبهم فيما بعد، ثم تابع شعيب توجيه كلامه ليحدث عندهم قدراً من الاستجابة ومكاناً في أفئدتهم لوقع كلامه عندما هز مشاعرهم بذكر الأمم البائدة التي تعرضت لغضب الله ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود] فبعد أن مر على ذكر ما أصاب الأمم البعيدة العهد لم ينس ما حل بجيرانهم قوم لوط ولما يمض عليهم زمن بعيد، ثم ندبهم إلى التوبة والاستغفار لأن الله غفور رحيم ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود] فهل نفع معهم هذا التذكير وهل وجدت خطب شعيب البليغة وعظاته المؤثرة طريقها إلى القلوب؟ فتابوا وآبوا وعادوا إلى طريق الرشاد، لقد عادوا مرة أخرى للرد الساخر وتقمصوا دور ذوي البله المصطنع ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود] فشفعوا السخرية بالتهديد برجمه بالحجارة ولكن الذي منعهم من رجمه رهطه، أي إن شعيباً لم يكن غريباً في قومه بل إن له عشيرة تمنعه منهم، ألم يقل لوط من قبله ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ أي: عشيرة تمنعه، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله عزَّ وجلَّ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه**» ولكن شعيباً لم يعبأ بهذا التهديد بل مرره كأن لم يسمعه وتابع جداله معهم بالتي هي أحسن ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود] لكن شعيباً كان أكثر حظاً من لوط، فقد آمن معه عدد من ذوي العقول الناضجة بالرغم من تهديد المتنفذين ووعيدهم بالنكال، فكان مما نهاهم عنه شعيب ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ [الأعراف]، وضاع التذكير بنعم الله في خضم الغوغائية المتسلطة التي تملك التجارة والمال ولها المصلحة الأولى

في إبعاد الأمة عن الطريق السوي، والإيمان الذي يسكن القلوب كفيل بإحداث تغيير في الأخلاق والسلوك والأخذ بهذه القلوب إلى المثالية والإصلاح، وبالتالي فإن كل الأخطاء الأخلاقية لن تحل إلا بالإيمان والمؤمن لن يتحرك إلا ضمن شرع الله وفي رضاء الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، فلا غش ولا إنقاص في الكيل أو الميزان، ولقد دافع أصحاب المصالح عن مكاسبهم غير المشروعة بكل ما أوتوا من قوة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف]، وهنا قرر المفسدون في الأرض إخراج شعيب والذين آمنوا معه إن استمروا في دعوتهم ولم يتراجعوا عنها لأن الاستمرار في الدعوة معناه ازدياد الداخلين في الإسلام وخلخلة النسبة المرتفعة للأغلبية الضالة، فإذا كان التهديد السابق بالرجم والتصفية الجسدية وأخذهم رهط شعيب بالحسبان قد أوقف تنفيذ التهديد والتصفية الجسدية له، فقد هددوه في هذه المرة إما الإبعاد أو التخلي عن الإيمان والأفكار المناهضة لإرادة الأغلبية الضالة، ولعل قبول أحد هذين الخيارين لا يثير عليهم رهط شعيب، لكن شعيباً ليس بالضعيف الذي تهزه التهديدات فقد وهب نفسه للدعوة في سبيل الله، فإن من الخطأ الظن بأن يتراجع صاحب الحق عن حقه مهما كانت الصعاب، من يدعي الحق ثم يتراجع عنه أو عن بعضه فإنه كاذب في دعواه ويتخذها سلماً للوصول لهوى في نفسه ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف] ومرة أخرى يختم خطابه بأسلوب بياني رائع كأنما يخط لمن بعده نهجاً جديداً في الخطاب الدعوي ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ولما لم يجد منهم إلا الصد ومحاولة طرده هو ومن آمن معه من ديارهم، قال لهم: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، وهنا تركهم يتحملون مسؤولية ضلالهم وأنه تكلم بما فيه الكفاية، فابقوا كما



أنتم وسأبقى كما أنا أقوم بدعوتي، وسوف نرى من يأتيه العذاب الذي يخزيه ويظهر كذبه، لكن قوم شعيب ساروا على منهج من كان قبلهم من أهل الضلال فاستعجلوا العذاب ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ وقد اختاروا عذاباً كسفاً وهم يظنون استحالة هذا النوع من العذاب لأنهم لم يروه في حياتهم لكن رب العالمين سيحقق لهم ما طلبوه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء] فقد جاءهم يوم حار لم يطيقوه ثم ظهرت في السماء غمامة ظللت أرضهم فخرجوا جميعاً لفيئها فانقلبت لهيباً أحرقهم كأنها غبار بركاني خرج من فوهة بركان فغطى تجمعهم وإذا بهم أشلاء محترقة تخرج رائحة الشواء من أجسامهم المنتنة ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف]، ونجى الله شعيباً والقلة المؤمنة، ونظر إليهم وهم يتقلبون في العذاب غير آسف لما حصل لهم، وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]، وقد ورد تعذيبهم وأخذهم بيوم الظلة، كما ورد بالرجفة، وهذا ما دعا بعض المفسرين إلى القول بأنه أرسل إلى أمتين؛ مدين وأصحاب الأيكة، فمنهم من عذبه الله بيوم الظلة ومنهم من عذبه بالرجفة، والصحيح أنهم أمة واحدة نسبوا مرة إلى المكان «أصحاب الأيكة» شجرة كبيرة قدسوها واستظلوا تحتها، وتارة نسبوا إلى رأس القبيلة «مدين» أما العذاب فهو نوع واحد، فالظلة أي الرماد البركاني الحارق لا يخرج إلا إذا ثار البركان ثورة عنيفة وقذف هذه الظلة، لذلك كانت الرجفة من ثورة البركان ثم تحريقهم بهذه السحابة التي خرجت من جوف البركان.

وقد ورد في قصة موسى عندما توجه تلقاء مدين أنه التقى بشعيب وهو شيخ كبير له ابنتان تزوج موسى إحداهما، ولكن أشك في أن يكون الذي التقاه موسى شعيباً، فلم يذكر موسى شيئاً عن دعوته خلال إقامته عنده عشر سنين، كما أن حالة ابنتيه ووقوفهما حتى يصدر الرعاء فيسقين أغنامهما ولا يساعدهما أحد إكراماً لوالدهما النبي شعيب شيء غريب وغير معقول

والقول بأنه أخو شعيب أو من أحفاده وكان على دينه هو أقرب للصواب لأن شعيباً قد مات قبل عهد موسى بسنين طويلة، ولا يعقل أن تكون نهاية شعيب المكوث في البيت منزوياً وتخدمه ابنتاه ويعيش على الرعي عيشة البداوة وهو الذي كان يجادل قومه ويأمرهم وينهاهم.

وادعى بعض المفسرين أن شعيباً كان أعمى، وهذا لا سند له ومخالف لسنة الله في أنبيائه أنهم من خيرة الناس خلقاً وبياناً وفصاحة وصبراً وحلماً وسلامة بدنية وعقلية، وإن أي نقص بدني في الرسل سيعرضهم إلى نقد المخالفين وهجومهم واتخاذهم مثلاً على ضعف خالقهم الذي أرسلهم وهم بهذه العلة، وسيشتدون عليهم بالنقد، ألا ترى أن الله حين بعث طالوت لبني إسرائيل وكانوا مؤمنين لم يرضوا به لعلة فقره، ولولا أن زاده بسطة في العلم والجسم وأيده بالمعجزات لما قبلوه. وفي روضة المحبين عن علي رضي الله عنه قال: «لما كان الجمال من حيث هو محبباً للنفوس معظماً في القلوب لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة حسن الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت».





يوسف بن يعقوب بن إسحاق

يوسف بن يعقوب النبي الذي أوتي حظاً من الجمال الندي والذكاء الوقاد منذ الصغر وكان محبوب والده والأثير لديه، تبدأ قصته في القرآن الكريم بالرؤيا العظيمة التي قصها على والده ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ وقد كان أخوة يوسف أحد عشر والشمس أمه فقد كانت رائعة الجمال والقمر أبوه وهو حفيد إبراهيم الخليل المحبوب الذي له ضياء القلب وإشراقة الوجه، وفي هذه الرؤيا اصطفاء من الله تعالى ليوسف وتفضيله على كافة إخوته بل على أمه وأبيه ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فالوالد بالطبع يحب لابنه أكثر مما يحبه لنفسه والأمر هذا سيسره كثيراً لكنه خاف غيرة الأخوة والكيد ليوسف لنيله هذه المكانة ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ لقد عرف يعقوب عليه السلام أنه سيكون للشيطان دور في هذا الحدث، وأن الفتنة بين الأخوة ويوسف ستقع، ربما لأنه لاحظ شيئاً من الحسد بدأ يدب في أبنائه العشرة من إخوة يوسف لأبيه، لقد استأثر يوسف بنصيب كبير من حب والده، فكان قرة عينه وسلوة أحزانه وإيناس روحه، وفي هذه المناسبة فهناك قاعدة أخذت من هذه القصة وما قبلها قصة إبراهيم مع إسماعيل وما بعدها قصص كثيرة أن أنبياء الله وأولياءه وعباده المقربين إن شغلوا طرفة عين عن ذكر ربهم وتعلق القلب بحب الولد أو البلد أو أي شيء آخر زيادة عن المألوف فإن هؤلاء الأنبياء والمقربين يصيبهم ابتلاء من الله تعالى فيمن أحبوا بما أراده الله

وقدره وبما أراد أن يحدث من أمر نتيجة هذا الابتلاء، ففي ابتلاء إبراهيم بإسماعيل كان التوجه إلى تلك البقاع المهجورة في مكة وإبعاده عن ابنه إسماعيل فترة ليست بالقصيرة ثم التعريف بتلك البقاع وقصة الذبح وبناء الكعبة ثم الدعوة إلى الحج وما فيه من نسك مثل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار رمز الحرب على الشيطان، والنحر تقرباً إلى الله، فعمرت تلك الديار وتوجه الناس طاعة لله لأداء نسك الحج، وفي ابتلاء يعقوب بيوسف، كان الإبعاد الطويل الذي أضر بيعقوب حزناً وألماً وذهاب بصر، وكان من وراء ذلك فتح مصر لبني يعقوب وعشيرته وسكنى هذه البلاد ذات الجنات والأنهار.

وتعد رؤيا يوسف بداية لتطمينه بأن الله سيجتبيه ويختاره نبياً، وقد أمده منذ الصبا بمعرفة تأويل الرؤيا ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ والاجتباء: الاصطفاء والاختيار للنبوة، وهذا كائن له عند الأربعين وتمام النعمة على يوسف حين يجمع الله له الملك مع النبوة بعد رحلة الامتحان الطويلة الشاقة وتبين صبره وجلده وقوة إيمانه ليفوز بهذا الامتحان عن مقدرة وجدارة ـ والله عالم بذلك ـ لكن لا بد لهذا من المسيرة أن تكون عبر حقبة شاقة من حياته، فهؤلاء أخوة يوسف يلاحظون المحبة التي يخص بها والدهم يوسف وأخاه بنيامين وأمهما راحيل الجميلة المحبوبة ليعقوب، ولربما زاد حب يعقوب ليوسف بعد الرؤيا فلاحظ ذلك بقية الأبناء ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وقد عنوا بعصبة أي جماعة لنا قوة يعتز بنا أبونا لأننا نمنعه من عدوه عند الشدة، وربما عنوا بذلك جميع أبنائه أنهم عصبة كالحلقة لا يعرف طرفاها وبهذا تتساوى كافة عناصرها فلا مجال لتفاوت المحبة فلماذا يفعل والدنا هذا؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إن فعله هذا خطأ كبير وهو بعيد عن الرشد في معاملة الأولاد، وما حيلتنا إن استأثر يوسف بقلب الوالد، أ نتركه يفوز به دوننا؟ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ليس لنا سوى التخلص من يوسف بالقتل أو بإلقائه في أرض قفر بعيدة لا يمكنه العودة

منها إلى أبينا فنتركه لقدره إن عاش عاش بعيداً، وإن هلك هلك وحيداً، فلعل هذا الرأي هو من تدبير أخيهم الكبير، وقالوا إن أبعدتم يوسف عن أبيه إلى الأبد ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ عند ذلك تصلح أمورنا ويلتفت إلينا أبونا ويهتم لأمرنا فقد تخلصنا ممن كان آسراً لقلبه وحبه، وبعد هذه الفعلة نتوب إلى الله ونستغفره وهو الغفور الرحيم، لكن هناك رأي آخر من أوسطهم الذي لم يرد الهلاك ليوسف وإنما الإبعاد عن أبيهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ فإن كنتم لا بد تريدون إبعاده فالرأي أن تلقوه في بئر بعيدة تكون على طريق سفر فلعل بعض المسافرين يلتقطه فيأخذه رقيقاً وبذلك يبتعد عنا، فاتفقوا على هذا الرأي لأنه يحقق ما يريدون مع وجود ثغرات في هذه الخطة، فالخلاف بينهم يكشف ما تواطؤوا عليه فتفشل خطتهم في الإبعاد، وهكذا انتصر الرأي الذي لا يحبذ القتل والدماء حقيقة، بل جعلوه في الخطة خطة الدم الكاذب، وقد كانوا من قبل يخرجون للنزهات في البر ويبتعدون أياماً وكانت هذه عادة الحضر بأن يتروضوا في البراري لأيام ليشتد عودهم ويتعودوا المخاطر ومواجهة الصعاب فلا يخيفهم وحش كاسر ولا عدو غادر وكانوا إذا أرادوا الخروج طلبوا يوسف ليخرج معهم فلا يأذن في ذلك والده وهذه عادة الأب مع الابن المدلل يخشى عليه من النسمة فيقيه بهدب العين،ومن السقطة فيحميه بالقلب واليدين، ومن الجوع فيطعمه الفؤاد إذا أراد، وإن مرض كانت الروح بلسماً لشفائه والصدر دفئاً لأحشائه، فلما دبروا مكراً وأرادوا بيوسف شراً ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ وهنا أفصح يعقوب عن سبب المنع ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ فكان سبب المنع أمران:

ـ أنه لا يطيق مفارقته والبعد عن نظره فهو موله به.

ـ والثاني خشيته من غفلة إخوته عنه، وبالتالي سينفرد الذئب به ويأكله.



هذه هي حجته في حبسه عنده، وهذا كله من فرط الحب، ويعقوب نبي الله لم يغب عن اعتقاده يوماً بأن الله هو الحافظ وهو الذي يحيي ويميت، ولكن هناك شيء أسر قلبه تجاه يوسف فكان دائم الخوف عليه، ويعقوب إنسان وهذه نقطة ضعف على ما يبدو عنده وألح الأخوة على أبيهم على غير مألوف العادة ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لضعفاء عاجزون وأنت تعرف أننا نملك الشجاعة والقوة وخبرنا البراري، أيعقل ونحن عصبة قوية أن نخشى الذئاب، ولعل والدهم بخشيته على ابنه من الذئاب قد سهل مهمتهم في الكذب والتلفيق، فقد فتح لهم بابا لم يكن قد خطر ببالهم باتهام الذئب وتحميله وزر دمه، فهل كان عنده علم مسبق عن طريق الوحي بأنهم سيدعون بأن الذئب أكله؟ أم إنه ذكر الذئب مصادفة عن غير معرفة بنواياهم! لقد اقتنع يعقوب بحرص أبنائه على حماية يوسف والمحافظة عليه وأنهم يقصدون أن يستبق معهم وينشط ويتعود حياة البر وعيشة الصحراء ليشتد ويقوى ويمتلك الجرأة والشجاعة فوافق على ذهابه معهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلما ابتعدوا وهم يتريضون وصلوا إلى بئر بعيدة قبضوا على يوسف وهم مجمعون على إلقائه في البئر، وشعر يوسف بغدرهم فاستسلم لقضاء الله فيما عزموا عليه وهو مدرك تماماً ما رآه في الحلم أنه كائن وسيحصل يوماً ما، وزاد من هذا اليقين أن الله تعالى قد أوحى إليه وحي يقين في القلب أنه سيخبرهم يوم يأتوه ساجدين له سجود تكريم واحترام، وسوف يعاتبهم عتاباً يخجلهم ويذل موقفهم ويكشف ما اقترفوه بحق يوسف أمام أبيهم، فدلوه في البئر وتركوه لمصيره بعد أن نزعوا قميصه، ثم قفلوا راجعين إلى أبيهم باكين مع حبك كذبة تنطلي على أبيهم ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ والدموع دائماً مؤثرة في الآخرين، فما كان ليعقوب إلا تصديق أبنائه على مضض وهو مدرك أنهم فعلوا مع ابنه أمراً ما، فقد ظهر تصنّع تصديقهم على ملامح يعقوب وقرأه بالطبع أبناؤه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا



﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ لم يكن ليصدق ما زعموا من قصة الذئب، وقد كانوا يتحدون أن يأكله الذئب أو أن يقترب منه لأنهم عصبة متمرسون على مقارعة الذئاب، ولكي يثبتوا لأبيهم صدق دعواهم ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ على أنه شاهد إثبات لما حدث ليوسف بأن الذئب قد أكله، ولم يبق منه سوى قميصه، أيعقل هذا؟ ويعقوب ينظر إلى أولاده بحزن وأسى وهو يأسف على تربيته لهم وملامح وجوههم تظهر كذب دعواهم ألم يعلموا أن أباهم نبي؟ وأنه حتى وإن لم يكشف له الوحي ما صنعوا بيوسف، فإنه مؤمن ذو فراسة ينظر بنور الله ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ لم يسلم يعقوب عليه السلام بما زعمه أبناؤه المتآمرون، لقد أتوه بأمر جلل، لذلك تذرع بالصبر واستعان على ذلك بالله لأنه تجاه هذا الأمر ضعيف، وأنى له الصبر في فقد حبيبه يوسف إن لم يعنه ربه على ذلك؟

وينتقل المشهد إلى يوسف وما سيحل به في الجب ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ وذكرنا أن الجب الذي ألقي فيه يوسف كان على طريق المسافرين من أرض مدين إلى مصر عبر فلسطين أو العائدين من مصر إلى مدين وكانت هذه السيارة ـ القافلة ـ متوجهة إلى مصر فتوقفت قرب الجب تستريح من عناء السفر وترتوي من ماء هذا الجب، فأرسلوا السقاء القائم على تزويد القافلة بالماء وملء ما معهم من أوعية جلدية يحملون فيها الماء لاجتياز صحراء سيناء، فألقى هذا السقّاء دلوه في البئر ليغرف الماء فتعلق به يوسف وجذب السقّاءُ الدلو الذي أحس بثقله، ولكنه بذل الجهد فأصعده ولما نظر في الدلو صاح من هول المفاجأة ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ أن يُخرج أحدهم غلاماً بدل الماء يعد هذا ربحاً وافراً لذلك أطلق صيحة الفرح هذه، فقد كان الرقيق تجارة رائجة رابحة ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فقد أخرجوه وأخفوه عن العيون ليكون لهم رقيقاً يتجرون به، ولكن كل هذا الذي يحصل ليوسف يجري بتقدير الله وهو عالم به، وهو الحافظ له ولعل هذا هو إنقاذ يوسف من نقمة إخوته مع الحفاظ على وحدة بيت يعقوب، فقد أخرجه الله من بينهم إلى حين ريثما يهدأ طغيان إخوته

ويعودونْ إلى اتزانهم ورشدهم متغلبين على شيطانهم الذي سيطر على عقولهم، ووافقوه وساروا في طريق الشر ولكن إلى حين، أليسوا هم أبناء نبي؟ وهم باقون على الإسلام برغم ما فعلوه فلم يخرجوا من ملة الإسلام ولكن في الإنسان ثغرات لا يزال يهجم من خلالها الشيطان، ولا معصوم إلا من عصمه الله وابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون، فكانت حكمة الله في هذا المسار الذي يحفظ ليعقوب كافة أبنائه في إطار من الإيمان بحيث لا يفجع بفقد أحد، وإن كان هذا على حساب حزن يعقوب العارم وقلقه على ولده يوسف إلى حد فقدان البصر وتشرد يوسف وعبوديته، لكن لكل شيء في الحياة ثمن يدفع لقاء درس مستفاد، ألم تكن هذه السياحة ليوسف نوعاً من التغيير في طريقة الحياة المحدودة بين أهله؟ فاطلع على حياة جديدة في بلد كبير مثل مصر في ظل حماية من عزيزها ورفاهية في العيش برغم رقّهِ الذي كان فيه، ولعل هذا الرق كان نوعاً من الحماية ليوسف وتمكينه من الاطلاع على ما يجري عند عِلْية القوم وملوك البلد، ولولا هذا لما انطلق يوسف في الخبرة والمعرفة، ولا نريد الاستطراد أكثر من هذا ونستبق الأحداث فإن القصة انطلقت متتالية كحبات العقد التي كانت مسلوكة في نظام فانقطع ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وشروه من الأضداد أي بمعنى باعوه بثمن بخس قليل لا يتناسب مع قيمة يوسف لو عرفوه، هذا من وجه، وقد يكون هذا الثمن لا يتناسب مع فرحة السقاء عندما استخرجه من البئر، وربما كان ثمن البيع زهيداً لأن السيارة التي أخذته رقيقاً إنما أخذته بغير حق ودائماً يباع الغرض المسروق بثمن بخس بخلاف المملوك بحق، فالسارق حتى ولو سرق ذهباً وجوهراً لا يستطيع بيعها بالثمن المناسب لها فيما لو كانت ملكه حقيقة، لذلك دائماً تباع بثمن بخس، ولا أدري كيف فسر المفسرون بأن إخوته هم الذين باعوه بثمن بخس، فسياق القصة يأبى هذا، إخوته رموه في الجب ومضوا إلى أبيهم يخبرونه بأن الذئب قد أكله، ولو علموا بأمر السيارة التي أخذته إلى مصر لعرفوه ولو ظناً عندما التقوه في مصر وهو عزيزها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ

وَلَدًاۚ﴾ لقد كان المشتري رجل مهم عزيز مصر واسمه «قطفير» وكان عقيماً لم يرزق بالذرية لذلك أوصى زوجته «زليخا» بأن تحسن إليه وتكرمه ولا تعامله معاملة الرقيق فقد توسم فيه الخير، ورأى فيه سيما أصل طيب ولسبب لم يدركه بيع رقيقاً، وهذا من نعم المولى على يوسف، قدر عليه الرق ولكن لم ينزله إلى مهانة الرقيق، فهذا السيد عزيز مصر يوصي زوجته بإكرامه لأنه سيتبناه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ فكونه عند العزيز هو بداية التمكين له في الأرض وعلى يوسف أن يثبت جدارته في التقرب إلى العزيز واكتساب الخبرة السياسية من خلال مركز العزيز مع نسيان أنه مؤمن موحد صلته الأولى مع الله مراقبة وعبادة وذكراً، فقد زوده الله بسلاح سلمي قوي وهو هدايته إلى تأويل الرؤى بشفافية عالية تكاد لا تخرم أو تخطئ، والله حافظه وراعيه وأكثر الناس لا يدركون هذا لبعدهم عن الإيمان وقلة منهم يعرفون هذا وعلى رأسهم والده يعقوب، وعاش فترة صباه اليانعة في بحبوحة من العيش مدللاً من زليخا وزوجها، وبدأت فتوته تظهر وعذاراه يظهران وشارباه يخطان والفتى في مثل هذا السن يتألق نضارة وجمالاً فكيف بيوسف الذي أوتي شطر الحسن، فقد كان آية في الجمال يأسر قلوب الصبايا وتشتاقه الكواعب ولا تمل أنسه أو النظر إليه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وبلوغ الأشد يكون عادة بعد البلوغ إلى سن الثلاثين، وعندما وصل إلى هذا السن تفتق حكمة وعلماً وبياناً أعجب سيده وقدمه معه في المناسبات فتعرف على شخصيات المجتمع في مصر، ولكن هذه النضارة والشخصية الخلابة كانت تأسر أقرب الناس إليه «زليخا» وتلهب فيها المشاعر حباً آسراً ليوسف من نوع العشق والهيام، فتضرم في قلبها الغرام الذي أخذ عليها لبها وتفكيرها فلا يكاد يفارقها ليل نهار ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ ويبدو أن الغرام قد أخذ منذ فترة مأخذه في قلبها وملك عليها عقلها ونفسها وهي تكتمه وتخفيه إلى أن فاض بها فلم يعد يحتمله قلب، ولا تطيقه نفس، فجاش بقوته، وعصف في النفس بعنفوانه، فأرادت أن

تملأ النفس بالهوى وقد فرغت منذ فترة لشيخوخة قطفير وفتور لهيب الحب في فؤاده الذي استكان، فخططت ودبرت للخلوة وقطاف اللذة فتزينت بأحلى زينة وضمخت جسدها وشعرها بفاتن العطر حتى غدت أنفاسها عبيراً، ولبست شفيف الثياب فأبان عن جمال خلاب، لقد أعملت كل ما أتقنته من فن التجمل حتى خيل لها أنها في يوم زفاف حقيقي وعرس خيالي وجلسة مخملية بنتها في مخيلتها الحالمة تتناسب مع مكانتها سيدة لمجتمعها فلا تريد لذة السوقة المبتذلة الساقطة، وهي مع كل هذه الأناقة جميلة فاتنة بفطرتها التي خلقت عليها من غير تجمل ولا زينة، فنادت يوسف العفيف وهي تعرف فيه هذه العفة، فقد عاش معها زمناً ولكنها الفتنة وإبليس وإغراء الجنس الذي يحسه كل شاب فطرة تدغدغ نفسه، وتهيج شهوته، وقد يسرت له كل أمر، فهي الطالبة الراغبة، وليس هو المحاول الذي قد يجد الصد أو التعنيف إن كان البادئ المباشر، وزيادة في الإغراء وتوقع الاستجابة وضعته تحت الأمر الواقع بأن غلقت عليه الأبواب، وأظهرت شفيف الثياب، وخلعت بعضاً منها وقالت هيت لك، أنت في مأمن وخلوة لا رقيب فيها، وأنا الراغبة فيك فتعال، ألست شاباً وهذا ما يطمح إليه الشباب، وأنا امرأة العزيز ذات الكبرياء، لست واحدة من تلكم الساقطات بائعات الهوى، لقد هئت لك وتهيأت لك، قال بلغة المؤمن بربه القالي للرذيلة وخيانة من آواه وعطف عليه واستأمنه على عرضه وشرفه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إنك تدعينني لإثم ورذيلة لا تنبغي لي ولا لك، أنت زوجة سيدي الذي أحسن إلي وآواني وأكرمني، ولك أنت أيضاً شرف المشاركة في تربيتي، عشت هنا معكم كأنني واحد منكم، فهذه خيانة لا تنبغي لمثلي ولا تليق بي، لا بل حتى ولو كانت التي تدعينني إلى هذه الفاحشة ليست لها صلة قرابة بسيدي فلن أقبل دعوتها لفعل الفاحشة، فأغضب بفعلتي هذه ربي بارئي وخالقي، فأبوء بإثم الزنا، ليست هذه أخلاقي وليس هذا ما أخذته عن والدي، واعلمي يا عزيزتي أن الظالم لا يفلح أبداً، لا.. وألف لا، لكن من عاشت على حلم بالوصال من هذا الفتى الندي الفاتن، لا يمكن لها أن تقنع بمحاضرة تهدم لها ما بنته

في الخيال وعلقت عليه الآمال، فما في فكرها غير قابل للإصغاء والنصائح لأنها عندما خططت لهذا الأمر رمت خلف ظهرها كل القيم، لذلك لم تستمع إليه وقدمت له مزيداً من الإغراء والإصرار على نيل اللذة التي خططت لها ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ ووصل الأمر في الإغراء ذروته فكان الهم منها ومنه في إرادة ذلك الفعل، وهذه خطوة من يوسف الشاب قربته من الاستجابة بعد الرفض فهو بشر له طاقة في تحمل الصد والمقاومة لها حد تهوي بعدها المقاومة ولهذا منع الإسلام الخلوة بالمرأة فالخلوة الطويلة تضعف المقاومة وتفسح المجال للشيطان ليتحرك بفاعلية أكثر للإغراء والإغواء، وبعدها تأسره الشهوة المغروسة في النفس فطرياً، وعندها يصل حد التمنع إلى نهايته ويعجز الإنسان عن كبح الشهوة أو السيطرة عليها ويفلت منه زمام المقاومة مهما أوتي من مقومات الصد، فإنه في نهاية المطاف لا بد من العناية الربانية التي تحول بينه وبين ما ضعف عن مواجهته، فقد أراه الله برهان التقى وصورة والده يعقوب فنزعت من نفسه سيطرة الهوى، وصحا من خدر الجنس وطغيان الشهوة، ولقد أعجبني قول لأبي عبيدة في غريب القرآن أن في هذه العبارة تقديم وتأخير بمعنى **همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها** ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لقد أعده الله تعالى للنبوة، والأنبياء أطهر أهل الأرض على الأرض وصفوة خلقه نزاهة وعفافاً والموقف الذي تعرض له يوسف كان صعباً وامتحاناً قاسياً وقى الله منه يوسف وأخرجه طاهراً نظيفاً عفيفاً، فانتفض بعد تذكر وصحا بعد خدر الهيام، ورنا بنظره نحو الباب فابتدر إليه يطلب النجاة من هذا الموقف العصيب ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ لقد تنمرت وخرجت عن دلها وسقطت هالة حسنها فإذا هي لبؤة ذات مخالب وأنياب تجيد الفتك والخمش فانقضت عليه مسرعة من الخلف تجذبه كي لا يهرب وكلاهما يريد الباب، هو يستبق إليه للنجاة من هذه الكاسرة المتنمرة وهي تستبق إليه لتقف دونه حائلاً فلا يخرج منه إلا بعد تحقيق منيتها فأمسكت قميص يوسف فقطعته ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ﴾ يا للهول لهذه المفاجأة، فهذا هو



العزيز عند الباب قد سمع المدافعة، وكان قدومه غير متوقع منها، لكن كان بالنسبة ليوسف أمل النجاة من براثنها، وهو الذي يحسم هذا الصراع الغاضب، لكن لما سقط في يد زليخا بحضور سيدها ابتدرت بلغة المظلوم المعتدى عليه ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا فإن كيد النساء عظيم، تظهر بعد التنمر ضعفها وتنهلّ سريعاً دموعها فتضحي بطرفة عين مظلومة معتدى عليها تطلب النصير، لقد خلبت لب زوجها بهذا الظهور البريء الضعيف المعتدى على شرفها وطلبت من زوجها أن يزجه في السجن بعد التنكيل به، وكان من أكبر الكبائر أن يعتدي عبد على سيدته جنسياً وهذا أيضاً في الإسلام، فالمملوك يعد واحداً من أهل البيت وسيدته لا تحتجب منه، لذلك وجهت له هذه التهمة الخطيرة ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ وتابعت لكي توحي له بالعقاب الذي ينبغي أن يكون ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ونطق المظلوم لأنه لو سكت على التهمة للزمته وقامت عليه الحجة ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ هي المعتدية علي، وهي التي أعدت لهذا الأمر عدته من مكانٍ وزينةٍ وإغراء وصرف للخدم، ولما كثر الجدل وحار العزيز من يصدق، أيصدق زوجته التي يحبها ولكنه يعرف مشكلتها ودافعها للوقوع في هذه الخطيئة، فهو مقصر جنسياً معها فلم تنل منه منذ زمن ما تنال الزوجة من زوجها ليروي فيها ثائرتها الجنسية، وكل هذه الرفاهية التي تعيشها في ظلال العزيز لم تحقق لها السعادة الكاملة لأنها لم تكتمل في شقها الأقوى المفقود، وإشغال المرأة بنشاطات اجتماعية وسهرات ترفيهية وإضفاء الألقاب التي ترضي غرور المرأة كأن تكون السيدة الأولى في مجتمعها لن يقنعها للتخلي عن إرواء غريزتها إلا إلى حين، كل هذا كان يجول في خاطر العزيز الذي يعرف تماماً السبب الذي دفع زليخا إلى التفكير بهذا الأمر وسلوك درب الخطيئة، وهو تجاه الطرف الآخر المتهم بالاعتداء يعرف تماماً براءته وأنه لا يمكن أن يصدر عنه هذا السوء وقد عايشه نظيفاً عفيفاً طاهراً قانتاً لله عابداً يشع من جبينه ضياء النبوة وإشراقة الوجدان، ولكن ماذا يفعل بعد صبر زوجته عليه وكتمها ضعفه الجنسي كل هذه المدة والذي ينبغي أن يبقى سراً مدى الحياة وأن لا



يُكشف ما دام حياً، فهو بحق العزيز كبير وخطير، وعليه يجب عليه أن يميل لرأي الزوجة بلا تردد وإن جار وخالف ضميره، وبالرغم من تدخل طرف حصيف ثالث كان من أهلها نطق حينها بالحق وفق منطق معقول ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أمر فيه منتهى الذكاء والحكم بالقرينة ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فقد عرف براءة يوسف وأن التدبير كان تدبيرها بلا أدنى شك في ذلك، فهن صاحبات تدبير المكائد، ولا يجيد ذلك إلا النساء، وإذا ما فشلن فإن الدموع حاضرة وتصنع المقهورة الضعيفة ماثلة، لا أقول كلهن، ولكن من سلك سلوك امرأة العزيز في التدبير والتخطيط فإنهن لا يعدمن مثل هذا التصرف في كل زمان ومكان فذلك كيدهن وتلك فطرتهن ويحمي الله من ذلك المسلمة التقية العفيفة التي تبتغي على صبرها وتصونها من الفاحشة أجر الله وثوابه ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهنا لجأ إلى أخلاق يوسف وما تمتع به من طيب الخصال والأخلاق إلى أن يصفح ويكتم هذا الأمر فلا يخرجه خارج بيت العزيز كي يشيع الأمر ويلوكه الناس، تزيّداً ومبالغة، فيخرج عن قصد المحاولة إلى أكذوبة الممارسة، وفيه ما فيه على سمعة العزيز تجاه المجتمع، كما قال لها بأن تندم وتكفّر بالتوبة ما حاولته وبأن لا تعود ثانية، وقيل هذه النصيحة انطلقت من الشاهد الذي هو من أهلها حفاظاً على سمعة زليخا قريبته ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ وبالرغم من التكتيم عما حدث فإن ما يجري في البيوت الكبيرة ودور المسؤولين لا تبقى طي الكتمان فلا بد من تسربها لأنها دائماً محط أنظار كثير من الناس وتسلط عليها الأضواء ليصنع من حركاتها الخبر وتكون للعامة ملح التندر والسهر «**قال الملك وفعل الملك وقالت زوجة الملك وابنة الملك الوحيدة المدللة وكل حكايا الناس عن الملك وحاشية الملك**» وشاع خبر امرأة العزيز في عشقها لفتاها أي مملوكها، وقالوا قد شغفها حباً،



وهذه العبارة تمثل قمة البلاغة في التعبير عن تملك الحب في القلوب بأنه دخل في شغاف القلب وغلب عليه، فهذه لوعة الحب وإذا وصل الحال بالمرأة إلى هذا الحد فقد خضعت المرأة بلا إرادة لهذا العشق الذي لا فكاك منه فلا ترى الحبيب إلا من خلاله ولا تسعد إلا به حتى ولو اكتوت بناره التي تراها برداً وسلاماً، وذُكر أن من نشر الخبر نسوة ممن كن يعملن داخل القصر وهن «**امرأة ساقي العزيز وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه وامرأة خبازه**» فكن خمسة نسوة خرج السر من عندهن وشاع في المدينة، وقد خطّأها الجميع ولم يعذرنها ولا أظن أنهن كن سيتصرفن خلاف ما تصرفت لو كن في مثل حالها، والنساء أكثر من يعرف هذا، لكن أردن التشهير ونيل الحكمة والشرف من الحط بها وبما فعلت، لكأن لسان حالهن يقول: لا تستأهل هذا العز ونحن من يستأهله فلسنا مثلها تعشق فتاها الكنعاني يا ويح ما فعلت ويا سوء ما اقترفت ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ولما شاع الخبر وبدأت القالة ضدها واغتبْنها أشد الغيبة، لم تردّ القول بالقول أو تنفي ما قيل بل أرادت أن تثبت لهن بالممارسة العملية دون أن يدرين ما ترمي إليه، فدعتهن إلى حفلة وزادت عدد المدعوات حتى بلغن أربعين، ثم أعدت لهن متكأ ليجلسن جلسات الأكابر المترفات وأعدت طعاماً وفاكهة لا يصلح تناولها إلا باتخاذ السكين للقطع، ولما اطمأنت إلى أنهن أخذن أماكنهن قالت: اخرج عليهن، وقد ألبسته فاخر الثياب والحلل البهية الفاتنة فكان فتنة للنساء اللاتي يعشقن بفطرتهن جمال الرجال ويذبن هوى وشغفاً في افتتان ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وكانت المفاجأة الكبرى، هذا الفتى الذي تكلمن عنه يخرج الآن كأجمل ما يكون عليه الرجال، فلما رأينه أكبرنه وأعظمن شأنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق وعرفن من سيما يوسف أنه عريق المحتد من أصل طيب رفيع وليس مكانه أن يكون رقيقاً فهذا الجمال لاشك ملائكي، فقد نزهن الله عن الشريك (**حاشا لله**) ما هذا بشراً! ولهول الدهشة قطعن أيديهن أي جرحنها دون شعور بما يفعلن فلم يحسسن بألم



الجراح، فقد خلب اللب بجماله وفتنت العقول بطلعته الوضاءة، فعذرن زليخا أن وقعت في غرامه وهي التي تراه كل يوم ويجاورها في أكلها وشربها ومنامها أليس غلامها القائم على خدمتها!؟ فقد غلبها حبه.

وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «**مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل من هذا؟ فقال: يوسف، فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: كالقمر ليلة البدر**».

فهل ستتخلى زليخا عن يوسف ـ وهو الذي شغفها حباً ـ بعد هذا؟ لقد تمسكت بموقفها أكثر من ذي قبل وأعلنت بلا خفاء أنها تحبه وما زال طلبها قائم ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وكأن هذه الحفلة قد أعطتها المبرر لما أقدمت عليه، فازدادت جرأتها على التصريح بطلب الفاحشة، وقد ضربت بالقيم والمثل السائدة في مجتمعها عرض الحائط، إنها لا ترى سوى الاستئثار بيوسف والاستمتاع به، لذلك التفتت إلى النسوة اللاتي قطعن أيديهن قائلة: **فذلكن الذي لمتنني فيه**، أألام بعشقه؟ ولم تقل: أهذا وهو قريب منها مُشاهَد غير غائب فأشارت إليه باسم الإشارة للبعيد رفعاً لقدره وشأنه وأنها عشقت فتى يستحق هذا العشق وأنه بالرغم مما حدث من ممانعة لما دعوته إلي وتكبر على طلبي فإنه ما زال في شغاف قلبي يأسره بقوة لا فكاك عنها إلا بأن يستجيب لي، نعم أقول الآن بمنتهى الصراحة أنا الذي راودته عن نفسه فاستعصم وامتنع وأبى أشد الإباء، وبعد افتتانكن به علق قلبي به أكثر وأكثر وإن لم يفعل ما آمره به لأنكلن به فينقلب حبي بغضاً يخالطه الانتقام لكبريائي الذي جرحه، لأسجننه وليكونن في هذا السجن ذليلاً صاغراً بعد أن كان في بيتي عزيزاً منعماً، وهكذا أعادت عليه طلب مواقعتها مع تقديم إغراءات في رفع لمنزلة ليكون وجيهاً من وجهاء بلدها، وقد خيرته بين الأمرين، فقال ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ﴾ لقد فضل السجن على ارتكاب الإثم وهو هنا أقوى إرادة وتمنعاً مما كان عليه يوم خلت به وقالت هئت لك، فلما مر ذلك الامتحان الصعب بسلام كان ما بعده أسهل، فليس ما يأتي من كلام في الحب



والعشق بعد الصدمة الأولى يثمر مع يوسف، فقد سبق أن قلاه عند قمة الإغراء وهاهو ذا يختار السجن بل ويقول ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ لكأنه يستجير بالسجن تخلصاً من إغراء زليخا وهروباً من ملاحقتها له، وهو يدرك وحشة السجن وظلمته لكنه فضله على فعل الفاحشة، أو قل فضل سجن الجسد على سجن النفس، فلو طاوعها لكان سجن نفسه عندها وأصبح رهين هذه المرأة التي لا تعرف إلا إرواء ما تأجج عندها من عرام الجنس، ثم شكا أمره إلى الله وطلب عونه ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وهنا لم يذكر زليخا بضمير المفرد ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ فهل تحول اللاتي قطعن أيديهن كلهن إلى راغبات فيه طالبات منه اللذة والهوى؟ روي أن كل واحدة من النسوة طلبت منه معاشرتها وقالت مالك وزليخا أنا أجمل منها، فعلى هذه الرواية يصح شكواه منهن جميعاً، وروي أن النسوة قالوا له أطع سيدتك، وعلى هذا تصح شكواه منهن، ويصح أيضاً أنه عدّ زليخا نموذجاً لكل النساء فكانت شكواه منها تمثل الشكوى من جميع النسوة، لقد طلب المعونة من الله بأن يصرف عنه كيد زليخا ومن آزرها من النسوة وإلا يصبو إليهن أي يمل إليهن وينساق في طريقهن وهذا ما لا يريده، ويطلب من الله العصمة ليبقى نزيهاً طاهراً فلا يهمه غربة السجن ولا ظلماته حباً لله وطاعة له ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ وجاء عون الله يوسفَ، فلم يتخل عن عبده وهو معه ولن يجعل لإبليس وأعوانه عليه سلطانا، وعملت زليخا بعد هذا الصد من يوسف عملها في الكيد له، وانقلب عشقها له بغضاً وزفراتٍ غضبى كالنار تود لو تصليه بها، ثم أقنعت زوجها بسجنه متظلمة باكية شاكية فقد أصبحت ـ بسبب تعرضه لها بالسوء كما ادعت ـ يلوكها كل لسان ولن يسكت صوت الناس الغمازين واللمازين لها إلا بالتخلص من يوسف وتغييبه في السجن ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾ فكل الدلالات تظهر عفة يوسف وبراءته وزوجها يعرف ذلك ولكن لا يرد لها طلباً فهو المقصر معها جنسياً وبهذه العلة أصبح مطواعاً لها، وأرى أنه طاوعها على سجن يوسف ليكسب من هذا السجن أمرين، **الأول**: تنفيذ



رغبتها، **والثاني**: إبعاد يوسف عنها لعلها تنساه، فهو يدرك أنها هي التي تسعى وراءه وتراوده عن نفسه، وأظن أنه لم يخف عليه أمر النسوة واجتماعهن وفشو أمرهن وهو الذي له منصب كبير يستوجب أن يكون له عيون تنقل له الأخبار وهذا سمة لكل صاحب منصب خطير، وبهذا يكون العزيز قد رأى أنه من مصلحة الجميع تغييب يوسف في السجن حتى حين، واستعمال كلمة حين تؤيد هذا الاتجاه لأنها كلمة تتسع وتضيق وهي لا تحدد مقدار الزمن، وهذا يعني لحين نسيان أمره من قبل زليخا وينقطع فيه كلام الناس، فقد تطول المدة وقد تقصر، وقد وردت «حين» في القرآن بمعنى أربعين سنة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ ووردت بمعنى الدهر بطوله ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] ـ ووردت بأنها تساوي سنة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ووردت بأنها تساوي يوماً ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ وكانت تجربة قاسية لنبي في السجن، لكن ترافق دخول يوسف السجن مع اثنين من خدم الملك صاحب خبزه وصاحب شرابه، وقد نمي إلى الملك أنهما أرادا دس السم في طعامه وشرابه فزجهما في السجن ليرى فيهما رأيه، وربما كان ممن آنسا يوسف بوجودهما كي لا يستوحش من ظلمات السجن، وكان يوسف كثير الذكر لوالده ولمعتقده ودينه ويدعو إليه، وكان يعطي الأمل للمسجونين أن مع الصبر الفرج ونيل الثواب والأجر فكانوا يقولون له: ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك، ويقال إن رئيس السجانين قد أحبه ورق لحاله وقال له: لو استطعت خليت سبيلك، وما بمقدوري هو أن أحسن جوارك ومعاملتك وخيره في أي بيوت السجن يحب أن يقيم فليقم، وكان يفسر لنزلاء السجن الأحلام مدة إقامته، فسر حلمْ الفتيين اللذين دخلا السجن معه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فقص كل واحد منهما حلمه الذي رآه وانتظرا التفسير ثقة منهما بيوسف وخلقه ودينه، فقال يوسف بلغة الواثق من تفسير الحلم بالاعتماد على الله تعالى الذي أعطاه هذه الميزة وعلمه تفسير الأحلام، ثم قدم لهما مقدمة تعريفية

مختصرة عن الإيمان وأن الله تعالى آتاه تفسير الأحلام وأوحى إليه بالنبوة ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ فالإنباء عن المغيبات لم يكن ليوسف قبل هذا ولكن بعد دخوله السجن ذكر النبوة والإنباء وأن الله علمه ذلك بكشف هذه المغيبات له، فقد أخبر السجينين بأن أي طعام يأتيهما إلى السجن فإنه يستطيع بإذن الله أن يخبرهما بنوع الطعام قبل أن يصل إليهما، وهذا ليس من الرجم بالغيب أو السحر إنه مؤكد لأن الله أخبره به وأطلعه عليه وهذا العلم هو من الآيات المؤيدة لنبوة يوسف عليه السلام، ثم أخبرهما بأنه ينتمي إلى ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولا ينتمي إلى هؤلاء الذين يعيش بينهم لأنهم قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، حتى حينما أصبح عزيز مصر فيما بعد عمل بجد وأمانة لصالح أهل مصر لكنه لم يفلح معهم في نشر دعوة التوحيد حيث أصروا على دينهم وقد أكد القرآن ذلك في سورة «غافر» ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ فهذه الآية أعطت موجزاً عن دعوة يوسف في مصر التي لا نعرف عنها الكثير، ونعود إلى السجينين، وتركيز يوسف على تعليمهما التوحيد ونبذ عبادة الأصنام ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وهنا مال إلى المنطق في عرض دين التوحيد والمقارنة بين اتخاذ أرباب متفرقين من الأصنام التي صنعها البشر بأيديهم بأشكال مختلفة وتصورات خيالية خاطئة بعيدة عن الواقع وقد منحها الإنسان بنفسه أسماء وألقاباً، فهل يمكن لهذه المصنوعة الحقيرة أن تكون أرباباً صانعة خالقة؟ لا يقول بهذا إلا ضعيف العقل والتفكير نزل بفكره إلى درجة منحطة أدنى من الحيوانات، فاعلما أن الحكم لله لا لغيره فهو الذي أمرنا بعبادته وحده لأنه دين الله القيم، والناس بغفلتهم منشغلون عنه لاهون، قد غشهم ما عند المعابد الوثنية من هينمات

الكهان وزخرفات الرسامين والنحاتين الذين خدعوا الناس بهذه البهرجات والطقوس، فمالوا إليها وخدعوا بحقيقتها، وكان هذا الدرس لهما لأنه عَلِم من الرؤيا التي قصّاها عليه أن أحدهما هالك، فأراد أن يفيده في آخرته ليسلم وهذا من الرحمة التي غرسها الله في الأنبياء، وبعد هذا الدرس الجلي عن التوحيد التفت إلى تفسير رؤيا صاحبيه في السجن ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ وهكذا أبلغ كلاً منهما عن تفسير حلمه بمنتهى الصراحة ولم يخف شيئاً من التفسير بل قال للذي سينجو إنك ناج وستعود لتكون ساقي الملك، وقال للذي سيهلك إنك هالك وستصلب حتى الموت وستأتي الطيور الجارحة لتأكل من رأسك، وأن هذا الأمر قد قدره الله وحكم به فهو مقضي واقع لا محالة، وجاء العفو من الملك للساقي وأذن له بالعودة إلى عمله، فخرج من السجن فرحاً مغتبطاً وأوصاه يوسف أن يرفع قضيته إلى الملك ويخبره بأن يوسف سجين مظلوم، فوعده الساقي بإخبار الملك بأمره، واقتيد الخباز إلى خشبة الصلب فصلب وأكلت الطير من رأسه، ومضت عدة سنين غرق فيها الساقي بنعيم الملِك وأبهة القصر فنسي السجن وأيام السجن، ونسي ما وعد به يوسف وكان ذلك النسيان من عمل الشيطان وذلك للكيد ليوسف العابد الموحد فإن الشيطان عدو الناس وعدو المؤمنين بشكل أخص، فطال سجن يوسف لهذا النسيان بضع سنين، والبضع ما بين الثلاث والتسع، وروي أنه مكث سبع سنين، ولم يذكر الساقي يوسف إلا عندما رأى الملك رؤيا هالته وألحت عليه فاهتم لها وطلب من يعبر له هذه الرؤيا، وكلما أتوه بمعبّر عجز عن فهمها حتى قالوا له أضغاث أحلام لا تفسير لها، أي إن ما رأيت هو أخلاط وأباطيل وربما كانت من حديث النفس وأحلام اليقظة ووسوسة الشيطان وهذه الأنواع من الأحلام لا تفسير لها عندنا، لكن الملك كان مهتماً لتفسير هذا الحلم وكان يراوده كثيراً ويود لو أفلح أحد في تفسيره، لقد شغل به كثيراً حتى أثر على مزاجه، فلم يعد يطلب الشراب كما كان، وهنا فطن الساقي إلى أمر يوسف وقدرته على تأويل الرؤيا، وعلي أن أخبر الملك بأمر يوسف ﴿وَقَالَ

﴿ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ أرسلوني إلى يوسف في السجن فهو العالم بتأويل الرؤى، وسر الملك لهذا الخبر المبشر بتأويل رؤياه، فأذن له، وانطلق سريعاً إلى السجن ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ وذلك من فرحة الساقي لأنه ذكر يوسف بعد نسيان، فكان هذا النعت ليوسف بالصدّيقية بمثابة اعتذار له عن النسيان، ولأنه سيحظى عند الملك وترتقي مكانته إن عاد له بتفسير الحلم ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فما كان من يوسف إلا أن أجاب هذا الساقي لصحبة السجن ولم يخيب أمله أو يشرط له شروطاً تعجيزية أو مكاسب شخصية، لأنه يعدّ تأويل الرؤى لمن سأله التعبير واجبة الأداء وبلا مقابل، لذلك أسرع إلى الإجابة، فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وقد زاد على التأويل علماً مستنبطاً زيادة في توفية الرؤيا حقها، وإيحاء لهم أنه يؤولها بالوحي لا بالاجتهاد الشخصي وذلك لبيان أمور لم تكن في الرؤيا لصالح الرؤيا وكمال الصورة لأحداث هذا الحلم، ومنها:

- تزرعون سبع سنين دأباً، وهذا تعليم بالعمل الجاد وعدم التراخي في العمل لما يرونه من وفرة المحاصيل، فإن لها ما بعدها من السنين العجاف.

- فذروه في سنبله، وهذا تعليم كيلا يسوّس في مدة التخزين الطويلة فيما لو درسوه.

- البشارة بالعام الثامن بأنه عام خير وبركة على غير أعوام الخصب الأخرى لأن الناس فيه سيكونون في بحبوحة ورغد فيغاثون بالماء، فيزرعون ويحصدون غلالهم ويعصرون عنبهم وزيتونهم وسمسمهم، ويكون هذا العام كأحسن الأعوام خصباً ووفرة نماء.

وما إن وصل هذا التأويل إلى الملك حتى سري عنه وزال عن كاهله حمل ثقيل وعبء أطَّ له ظهره وما شعر بالراحة وهدوء البال إلا بعد سماع



هذا التأويل، لذلك نادى بملء صوته ائتوني به ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ مخاطباً أعوانه المقربين والساقي معاً لكي يخرجوه بأمر الملك ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ رسول الملك الذي هو الساقي لأنه هو الواسطة بينهما، جاء يحمل البشارة ليوسف بالعفو عنه والبشر والسرور على مُحياه، ألم يبشره يوسف برضا الملك عنه وعودته إلى السقاية واسترداد مركزه الذي أحبه وقربه من الملك، فجاءه بالبشارة مكفراً عن نسيانه ومغتبطاً برؤيته يخرج من السجن ليتنسم عبير الحرية، لكن يوسف كان له رأي آخر وهو مظلوم متهم بالتحرش الجنسي بزوجة العزيز، إنه لا يهتم بالحرية ـ مع أنها غالية ومطلب كل إنسان ـ إلا أن براءته والاعتراف من المسؤولين عن زجه في السجن ظلماً دون ذنب جناه، بل كان على هؤلاء المسؤولين أن يكرموه لعفته ونزاهته، فالبراءة مما اتهم به هي الأهم من الخروج من السجن، ولو تنازل عنها لكانت وصمة لا تمحى أبد الدهر، إنه يعرف براءة نفسه، ولكن من يقنع الناس ببراءته وهو النبي الداعية إلى الإيمان وإلى الطهر والعفاف؟ أقلها أن يقول الجاهلون لولا أنه ارتكب ما يدعو إلى العقاب لما عوقب، وهل يصلح لإصلاح الناس نبي متهم؟ وبماذا يختلف عن بغض قياديي اليوم من ذوي التاريخ الملوث الذين يتصدرون للقيادة حتى وإن كان سجله ملوثاً؟ قد تكون أبواق دعايتهم تعمل لحين ما على تطهيرهم، لكن يوسف ليس أمامه إلا ما أشيع بين الناس ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وعلى هذا الجواب ربما يكون قد أطفأ البسمة على شفتي الساقي، ولسان حال يوسف يقول: إذا كنت أنت قد تعجلت في الخروج وفرحت بالعفو فلم تُخف بالغ سرورك، لهذا لم تسأل الملك لِمَ اتهمك وزجك في السجن طالما أنك بريء، فأنت لا تهمك سمعتك، فأنا نبي ابن نبي سمعتي مهمة، ولا بد من البراءة والاعتذار وإعطائي المكانة التي أستحقها، وعاد الساقي وصحبه إلى الملك يحملون له هذا النبأ لن يخرج يوسف إلا بتبرئته مما نسب إليه، وذكر أمر النسوة ولم يذكر صاحبة المشكلة، قيل: لأنها من الأسرة المالكة كي لا يسيء إليها فيتأثر الملك بذلك، ولكن أرى أنه ذكر النسوة لأنهن الأقدر على قول الحق ولأنهن

سمعن من امرأة العزيز اعترافها بأنها هي التي راودته عن نفسه ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وما كان يظن عودة زليخا إلى رشدها، لذلك استبعدها من المساءلة، ولأن الملك متمسك بقدوم يوسف إليه ليكرمه على تأويله، جمع النسوة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ وهكذا صدقت النساء وزكين يوسف وهذه التزكية تظهر كذب زليخا وتهمتها الباطلة له، لذلك ما كان منها إلا أن سارعت وفاهت بالحقيقة، وربما عمم حين سأل كيلا يجرح شعور زليخا من باب إياك أعني واسمعي يا جارة ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وأخيراً نطقت بالحق وبرّأت يوسف مما اتهمته ووصفته بالصدق، وهذا تحول خطير في موقفها، فما الذي طرأ عليها؟ لعله عامل السن وتقدمها في العمر قد كبح من عنفوان جماحها وفتّ من دفق شهوتها فعادت لتعمل العقل بدل العاطفة ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر ووضح ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ اعتراف صريح أرادت به تطهير نفسها من الذنب، وبه برّأت يوسف منه أمام الناس وهذا ما كان يريده ويستعين بالله على نيله، حقاً لقد صبر ودفع ثمن الصبر والحصول على هذه البراءة التأخر في الخروج من السجن، وكان ربما لن يخرج منه لو تراجع الملك عن طلبه لسبب ما، وأردفت زليخا بعد هذا الاعتراف بكلام قد يرقق قلب يوسف عليها فلا توصد الباب للأبد ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهنا وقف يوسف بعزة المسلم القوي في دينه وإيمانه ليقول بعدما بلغته هذه البراءة ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾، وهذا خطاب للعزيز زوج زليخا بأن يوسف لم يخن العزيز في غيابه وأنه حافظ على طهر بيته، ويرجع هذا إلى أن يوسف مؤمن ينتسب إلى بيت النبوة الطاهر وأنه نبي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو رد للجميل والمعاملة الطيبة والعز الذي لقيه من العزيز، فقد أبى عليه هذا الكرم وهذه المعاملة أن يكون ذئباً غادراً لا ينفع معه الجميل، ثم أردف يوسف يقول ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ كدت أن أضعف للإغراء وأنا في عنفوان شبابي والنفس تستجيب للشهوات فهي أمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ فقد كبح جماح



نفسي وعصمني بفضله ورحمته بي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهكذا أظهر عجزه أمام الإغراء وأن الله تعالى شمله برحمته فعصمه وحماه، وهذه دعوة غير مباشرة للإيمان بالله الواحد القادر، وقيل هذا الكلام لزليخا بأنها اتهمت نفسها بالمراودة، وهذا توجيه جيد، وقيل هذا قول العزيز جواباً على كلام يوسف الذي بيّن أنه لم يخنه بالغيب، فاتهم العزيز نفسه بأنه شك في صدق يوسف ولام النفس الأمارة بالسوء، وبعد تصفية القلوب لكافة المعنيين والخروج من هذا الاجتماع ببراءة يوسف، ورأى الملك تزكية يوسف من الذين اتهموه سابقاً، فأضاف هذا رصيداً ليوسف عند الملك عما كان كوّنه عنه من حدة في الذكاء وأمانة نادرة في هذا المجتمع المادي الذي عزت فيه مثل هذه الصفات، فأراد أن يستفيد من هذه الطاقة الشبابية المتوقدة في يوسف، فقال ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ وهرع المبشرون إلى يوسف بقرار الملك في طلبه ليكون مستشاره الخاص، ولبى يوسف هذه المرة دعوة الملك فاغتسل ولبس أفضل الثياب ووضع الطيب ثم انتقل إلى الملك، فقربه الملك منه وأجلسه قريباً على سريره، وبعد الترحيب ورؤية يوسف بهذا البهاء والرزانة، قال له الملك إني أحب أن أسمع منك تأويل رؤياي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ عن الرؤيا بأروع بيان وأفصح عبارة خلبت لب الملك وتمسك بيوسف أكثر ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فلما طمأنه برفع مكانته وأعطاه الأمان والتمكين، اختار يوسف أهم منصب يقدم فيه خدمات جليلة للناس لعلمه بما سيحصل في أعوام المجاعة ليقود الدولة في هذه المرحلة الحساسة فلا يعطي المجال للمحتكرين والانتهازيين الذين يستغلون مثل هذه الأزمات للإثراء على حساب حاجة الناس للأقوات، ويشرف على التوزيع المتكافئ من الغلال، وفي مثل هذه الأزمات يخسر الفقراء ويكونون هم الضحية الأولى، لذلك أراد أن يقف إلى صفهم ويعمل جهده لحمايتهم من المجاعة القادمة، وفي هذه المكانة فرصة مواتية للدعوة إلى الله التي كلف بها يوسف، فقال للملك ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ بمثابة وزير المالية والزراعة والتموين، فوافق الملك على هذا الطلب وعينه كما طلب ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ وبهذا المنصب

قوي مركز يوسف عليه السلام، وأصبحت مصر تحت تصرفه في أمورها كلها، وقيل حتى الملك كان يصدر عن رأيه ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا الإنعام والإحسان من الله تعالى الذي خص به يوسف ورفع مكانته في الدنيا وبوأه هذه المنزلة مع أنه غريب مملوك، فالله سبحانه وتعالى حفه بالعناية والرعاية في كافة أحواله إلى أن أوصله إلى سلم المجد، فهذا في الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وجاءت سنوات الخصب ترفل بهية بالخضرة والنضرة والعطاء السخي، وكانت تجمع بإشراف يوسف وتخزن في مخازن الطعام التي استحدثت للتصدي لسنوات الجفاف، وقد جد العاملون والزراع في العمل وهم في كل عام يشهدون صحة تفسير الحلم فيرونه تباعاً حسب ما أخبر به يوسف إلى أن مرت هذه السنوات رخية هنيئة تمتع الناس بها وجمعوا مما فاض استعداداً للآتي، ثم أقبلت السنين العجاف، شحٌّ في المياه وندرة للمطر وغبار وأتربة ورياح سموم لا تبقي على نبت أخضر إلا جعلته هشيماً تذروه هنا وهناك وتقضي عليه وتحيله هباء منثوراً، وأمام هذه الشدة والبلوى العامة التي شملت مع مصر ما جاورها من البلدان اضطر ساكنو الشام وفلسطين للقدوم إلى مصر لشراء القمح والشعير، وقد علموا بوفرة الخير فيها، فهم لم يتخذوا من الإجراءات ما اتخذته مصر لذلك حلت عندهم المجاعة ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ فكيف عرفهم وهم لم يعرفوه؟ فقد فارقهم كباراً وشباباً وملامح الكبير تغيرها بطيء مع الحفاظ على السمة العامة، أما الصغير فإن ملامحه سريعة التغير وتختلف عما كانت عليه في صباه، وربما هم عرّفوا عن أنفسهم لما سجلوا أسماءهم لكي يعطوا من الغلال، فلم يكن الأمر فوضى في إعطاء الميرة بل كانت وفق سجلات مضبوطة بمكيال محدد كيلا تُستنزف كمية المخزون سريعاً، فلا تكفيهم عندئذ لمؤونة السنوات السبع العجاف ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: قضى حاجتهم وأعطاهم من القمح ما يستحقون من غير أن يشعروا بأنه يوسف، ولم يخطر حتى ببالهم أن يكون يوسف قد وصل إلى هذه المرتبة، وفي ظنهم أنه إن نجا من الموت في البئر فلا يتعدى حاله أن يعيش رقيقاً

في أحد البيوت، وفي أثناء تزويدهم بالميرة، سألهم من يكونون إمعاناً منه في تضليلهم عن حقيقته وإبعادهم حتى عن التفكير في أمره، فقالوا: نحن قوم من أهل الشام فقد أصابنا الجدب فجئنا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيوناً ـ جواسيس ـ تنظرون عورة بلادي، قالوا: معاذ الله، نحنُ إخوة بنو أب واحد، وأبونا شيخ صدّيق نبي اسمه يعقوب، فقال يوسف: كم أنتم؟ قالوا: أحد عشر وكنا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه، هو باق عنده يتسلى به، فقال يوسف: من يشهد أن الذي تقولون حق؟ قالوا: إننا ببلاد لا يعرفنا بها أحد فيشهد لنا، ولما عرف هذه الأخبار ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي: في المرة القادمة إن أردتم أن تأتوا لتمتاروا من بلادنا فلا تأتوا إلا ومعكم أخوكم من أبيكم لأعلم صدقكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ فلا تحاولوا القدوم إلينا ثانية لأنكم لن تنالوا ما نلتموه مني الآن، لذلك إن لم يكن معكم فابقوا في بلادكم ولا تأتوا إلينا ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ سنحاول بذل الجهد في إقناع والده لكي يرسله معنا، وقالوا هذا، ولم يقولوا سنأتي به معنا لأنهم يعلمون أنه لا يمكن أن يرسله معهم لما فعلوه بيوسف من قبل، فهو منذ ذلك الحين وهو يقف منهم موقف الشك تجاه ائتمانهم على أخيهم من أبيهم، ولو كان يأتمنهم عليه لأرسله معهم ابتداء، لقد فهم يوسف من قولهم ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أنهم سيحاولون وقد يخفقون لأن أباهم لن يرسله معهم ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فوجد أن يلجأ إلى هذا التصرف ليضمن عودتهم، فإنهم لا يقبلون الصدقة، ومعنى رد بضاعتهم مع إعطائهم الطعام يعني أنه تصدق عليهم، وربما ظنوا أنه نسي أن يأخذ ثمن طعامه، فعادت بضاعتهم معهم، والأمناء لا يجيزون هذا، فعليهم رد الثمن مهما بلغت بهم المشقة، وعليه فقد كان لزاماً على إخوة يوسف ـ في الحالين ـ العودة في العام القادم ليسددوا ثمن الطعام الذي أخذوه ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ وقد عاد الركب إلى الشام، وقصوا على أبيهم خبرهم مع العزيز في

مصر وإنزالهم المنزلة الحسنة خصوصاً لما علم أنهم من بيت النبوة، وقالوا لقد طلب منا في المرة القادمة أن نحضر معنا أخاً من أبينا، ولما سمع يعقوب بهذا الطلب الغريب، ظن أنها خدعة جديدة من أبنائه للإيقاع بأخيهم «بنيامين» كما أوقعوا بيوسف من قبل، فلم يعرهم اهتماماً لهذا الأمر، فأردفوا متابعين القول ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ إن لم ترسله معنا فقد أنذرنا العزيز بأنه لن يبيعنا الطعام، فقد أنذرنا بمنع الكيل لنا وما ندري ما حجته، بعد إكرامنا غاية الإكرام ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ تجربتي معكم مريرة ومواثيقكم خادعة، أتذكرون ماذا قلتم يوم أمنتكم على يوسف وماذا كانت النتيجة، لكن الله معي وهو الحافظ سبحانه وإرادته فوق كل إرادة، ولا راد لقضائه إن أراد شيئاً، فالتوكل عليه هو الذي ينفعني، وهو أرحم الراحمين بعباده، وبعد هذه الموافقة المبدئية حدث ما قوى موقفهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي: شيء نبغي من هذا الملك وقد صنع معنا كل معروف، فانظر هذه بضاعتنا قد ردها فهل نستطيع بعد هذا التخلف وعدم العودة أن نأكل الطعام ولم ندفع الثمن، لا بد من العودة لدفع الثمن والوفاء بما وعدناه وإلا منعنا الكيل وهذه السنة كما يبدو قحط قد استشرت فيها المجاعة وقلة الأرزاق فإن عدنا إلى مصر أعدنا بضاعتنا، فكيف رد إليهم بضاعتهم دون أن يعلموا بها إلا بعد أن وصلوا وفتحوا متاعهم؟ أكانت بضاعتهم دقيقة الحجم لا يشعرون بها إن أعيدت لهم خفية؟ وقد علمنا من المفسرين أنها كانت جلوداً، فهناك أحد احتمالين؛ إما أنها كانت قطعاً ذهبية أو فضية فإذا أعيدت ووضعت ضمن أكياس القمح ففي هذه الحالة لا يشعرون بها إذا دسها عليهم، وإذا كانت جلوداً كما ذكر المفسرون فمعنى هذا أن مع إخوة يوسف عبيداً أو حمّالين يقودون الإبل وأخوة يوسف راكبون على حيوانات أخرى كالخيل أو البغال وفي هذه الحالة يمكن أن تدس البضاعة في رحالهم دون أن يعلموا بها ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ فإن أخانا في

عهدنا وذمتنا وبذهابه معنا سنزيد حمولة بعير لأن عزيز مصر يعطي لكل فرد حمولة بعير، فقال يعقوب: وما قيمة حمل البعير أمام المخاطرة بإرسال بنيامين معكم ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أنا في غنى عنه وفي راحة بال ما دام ولدي مقيم معي، ثم فكر يعقوب في الأمر ووجد نفسه أمام خيار صعب، فالمجاعة قد تهلك الجميع ولا تموين إلا من مصر، فشرط على أبنائه شرطاً فيه راحة لنفسه وإن كان يعلم أن المقادير تجري بأمر الله وقضائه، ولكي يأمن في هذا الشرط عدم غدرهم بأخيهم أو خيانته ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ والموثق: هو العهد والأيمان المغلظة بأن يحلفوا بالله ويشهدوه على ما يقولون، وجعل لهم استثناء لعلمه بضعف الإنسان أمام الظروف القاهرة وما لا حيلة لهم بدفعه ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أن تغلبوا بما لا تطيقون دفعه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ بأن حلفوا له واحداً واحداً وأشهد الله عليهم ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ثم لزيادة الحرص على سلامتهم وكيلا ترمقهم عين حاسد، فهم عصبة، أحد عشر رجلاً لأب واحد وهذا نادر أن يكون في ذلك الزمان، زد على ذلك طلعتهم وكأنهم أقمار وسط الدجى لا يكاد الرائي يراهم فيحسر عنهم بصره ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي: حين وصولهم أرض مصر، وكان لمصر أربعة أبواب وفق الجهات، فتفرقوا ودخلوا من تلكم الأبواب طاعة لأبيهم وأخذاً بالأسباب، ألم يعوذ نبينا محمد ﷺ الحسن والحسين «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامّة ومن كل شيطان وهامة**» وأردف يعقوب ليفهمهم الأخذ بالأسباب وعدم تعلقه بالسبب لأن إرادة الله تعالى هي النافذة ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أنا أرشدكم إلى العمل مع التوكل على الله والنتائج بيد الله وهذا ما يطلب من المؤمن عملٌ وتوكل وترك النتيجة لله فإن وافقت ما أراده العبد حمد الله على هذا التوفيق وإن كانت الأخرى صبر وهو واثق بحكمة الله وعدله؛ مؤمن بقضاء الله وقدره ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لقد عملوا بنصيحة والدهم، فهل أغنى عنهم ما كان ينتظرهم بتقدير الله؟

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي شفقته عليهم والحرص على سلامتهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيعقوب نبي مرسل يوحى إليه وهو بهذا يعلم أن قضاء الله نافذ لا محالة وأن الحذر لا يدفع القدر، ولكن لا بد من اتخاذ الأسباب، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال: «**ما من أحد إلا كتب مقعده من النار أو الجنة**»، قالوا: ألا نتكل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ ووصل الأخوة جميعاً إلى باب يوسف وقد وفوا بوعدهم وأحضروا معهم أخاهم بنيامين، وقد سر يوسف كثيراً لما رآهم وكتم حب أخيه في نفسه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ فكيف فعل هذا؟ ألم ينتبه إلى ذلك بقية الأخوة؟ قال المفسرون: صنع لهم طعاماً ثم أنزلهم في غرف تَسَعُ الواحدة لاثنين وبقي لبنيامين غرفة وحده، وهنا دخل إليه يوسف ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فالله قد فرج همنا ووسع علينا وأصبحنا في أحسن حال، لقد ولت أيام الشقاء وحسد الأخوة، ولكن لا تخبرهم بما حصل الآن واكتم حديثنا، ودبر أمراً لاستحواذ أخيه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فالسقاية مكيال لكيل الحبوب، وهي أشبه بالصاع، وفي مصر كان يكال بمكيال موحد منعاً للغش وهو صواع الملك له علامات مميزة ومفضض وهو ذو قيمة مادية ومعنوية، والرحل بمثابة الكيس اليوم وهو خاص بالإبل ملائم لحمولتها، فأمر غلمانه بأن يجهزوهم بكافة طلباتهم كأحسن ما يكون الجهاز وأن يجعلوا مكيال الحبوب في رحل بنيامين، ولما فعلوا ما أمرهم به يوسف، خرجت العير باتجاه الشام، وصبر عليهم يوسف بعضاً من الوقت ثم أرسل خيالة في طلبهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ونزلت هذه العبارة على إخوة يوسف كالصاعقة إن آخر ما توقعوه من العزيز أن يرميهم بهذه التهمة، لذلك كان جوابهم ردة فعل لما سمعوه تحمل الغضب والتشنج، فمثلهم من أبناء الأنبياء لا يرمون بهذه التهمة ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ إنهم في أشد العجب لما حصل، فأوقف إخوة يوسف قافلتهم والتفتوا إلى المؤذن ومن معه متسائلين، ماذا تفقدون؟ ﴿قَالُوا۟



نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ أخبروهم بالسرقة التي ادعوها وجعلوا لمن يكشف عن السارق جائزة مغرية مؤداة مقدارها حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ أي: كافل وضامن لإعطاء هذه الجائزة لمن أدلى بما يفيد كشف السارق، ورأى إخوة يوسف أن الأمر جد لا هزل، فقال كبيرهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ قال هذا لأنه متأكد من نظافة أيديهم ولم يخالجهم أدنى شك في كون الصواع ليس عندهم، والحلف بـ«تالله» فيه معنى التعجب مما اتهموا به، فرد رسل يوسف بلغة الواثق من تهمة إخوة يوسف ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾ فأتى الجواب بلغة التهديد، وكأنهم يعلمون أن صواع الملك عندهم بلا أدنى شك، وهنا ارتبك إخوة يوسف في الرد ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي: يجازى بما هو مقرر في شرعنا الذي ندين به، وتم هذا الجدال قبل وصول يوسف حيث جاء على أثرهم وأعطاهم الأمر بالتفتيش ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ وفي هذا الصنيع بعد عن إثارة الشك فيه، ونظر يوسف إلى إخوته نظرة ريبة وعتب وهو يظهر السقاية لهم وكأنه يقول لهم: أبعد الكرم والتقدير وزعمكم أنكم أبناء نبي تسرقون صواع الملك؟ وفهموا من تلكم النظرة ما أراد أن يكلمهم به يوسف، فقال كبيرهم يتكلم نيابة عنهم وكأنهم كلهم قالوا هذا ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا﴾ عبارة تظهر ما يخفيه أبناء يعقوب لأخويهم من أبيهم، فمازال القلب يحمل تجاههم حسداً، وكان الأجدر أن يدافعوا عنه بكلام يبرر وجود هذا الصواع في رحل بنيامين بوصفه بالأمين وأن أمراً ما دبر لهذا الغلام، لكن أبى البغض إلا أن يظهر في هذه الساعة الحرجة، ولكن ما قصة ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ وهذا اتهام ليوسف، ذكر أهل التفسير أن عمة يوسف الكبرى ربت يوسف في بيتها لحبها له، ولما كبر طلبه أبوه منها فامتنعت وبعد إلحاح يعقوب ردته إليه وحزمته بمنطقة كانت لإسحاق واتهمته بسرقتها لتأخذه وفق شريعتهم عبداً فيبقى مقيماً معها، وقيل سرق صنماً من ذهب كان لجده أبي أمه وحطمه عملاً بتغيير المنكر،

وقيل: لم يسرق ولكن تهمة منهم جديدة، فأسر يوسف في نفسه قولهم هذا ولم يبد لهم كذبهم لأنه كان لا يريد كشف أمره بعد وإلا لرد عليهم افتراءهم هذا، وأضاف هذا الذنب ليكون مع ما اقترفوه من ذنوب، ثم قال في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: أنتم مكان الشر ومنكم خرج الشر وتأصل في قلوبكم، ثم قال لهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ذكرتم شيئاً الله أعلم بصحته والمهم عندي أن السقاية وجدت في رحل بنيامين وسنأخذه رقيقاً بها، وهنا عادوا إلى تذكر ميثاقهم مع والدهم بأن يحافظوا على أخيهم فاستخدموا لغة تستدر عطف يوسف عليهم ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ولعلها لحظة صدق منهم بعد الموقف الصعب لأخيهم بنيامين وأنه لن يعود معهم وسيتركونه في بلاد بعيدة عنهم، وأن أباهم إذا ما وصله النبأ سيكون له وقع أليم عليه، وتقدموا كلهم باذلين أنفسهم ليفدوا به أخاهم، ولكن يوسف الذي خطط لإبقاء أخيه عنده لم يرض بأي منهم ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ هذا من الإجحاف في أن يسرق ثم نتركه ونأخذ غيره بجريرته ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ فهذا عين الظلم لو فعلنا هذا، ونحن قد وطدنا أحكامنا على العدل والعدل أن نأخذ بنيامين فمن رحله أخرجنا صواع الملك، وذهبت كل جهودهم الرامية لاستنقاذ أخيهم من هذا المأزق الذي وضع فيه أدراج الرياح ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فلما يئسوا من الجدال مع يوسف بعد بذل الجهد في استنقاذه وصمم على تنفيذ الحكم بتهمة السرقة وقاده الحرس إلى مصيره أسقط في أيديهم وعلاهم الهم والحزن، وانتحوا جانباً يناقشون ما جد من أمرهم بعد هذا الحدث ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ ذكرهم أخوهم الأكبر بالموثق الذي التزموا به لوالدهم، فكيف سنقابله وبأي وجه، واليوم نخبره بما حدث صدقاً وما أظن أنه سيصدقنا، وكأننا مسلطون على أولاده ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي: فرطتم بالعهد الذي قطعتموه لأبيكم بأن تحافظوا على يوسف، والآن نحن لم نفرط بالعهد ولكن من يقنع أباكم بأننا التزمنا بعهدنا، وما حصل لا يد لنا فيه؟ إن المواجهة مع أبيكم صعبة



ولن أحتمل أن أرى وقع هذا الخبر على أبيكم ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ سأبقى في هذا المكان النائي تنهشني الغربة وهي أهون علي من المواجهة، يكفي ما سببناه لأبينا من آلام وهموم ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أنتم واجهوا أباكم وأخبروه بما رأيتم، وعاد الإخوة وليس معهم بنيامين ولا أخوهم الكبير، ولما وصلوا ديارهم دخلوا على أبيهم وأخبروه الخبر، ولو نعلم أنه سيسرق ما أخذناه معنا ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ فعندما أعطيناك موثقنا لم نكن نعلم ما خبّأ لنا القدر وأن بنيامين سيرتكب هذه المخالفة، ولما وجدوا ملامح عدم التصديق لروايتهم على وجه أبيهم أردفوا قائلين ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ على تقدير مضاف محذوف أي: اسأل أهل القرية، وأصحاب العير، كما أخبروهم عن أخيهم الكبير وأنه لن يبرح مصر حتى يأذن له بالعودة أو الحكم فيه بأن يرسله لقتال العدو حتى يستشهد، ولما قدموا هذه البراهين وكان أقربها أن يسأل يعقوب أصحاب القافلة العائدة عما شاهدوه، لكنه اكتفى بتنهيدة كبيرة وزفرة حزينة فيها معنى الرجاء والأمل ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ والصبر الجميل هو من يكتم ما به من حزن فلا يبوح به لأحد وإنما البوح وتفويض الأمر القلبي لله تعالى، فما من أحد سواه قادر على جبر ما أصاب يعقوب ورد أبنائه إليه سالمين ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾ وعسى في القرآن تفيد التحقيق، فكان هذا رجاء يعقوب وتعلق قلبه بالله وأن قلبه الشفيف لم يكن موقناً بفقد أبنائه يوسف وبنيامين وبكره «روبيل» الذي تخلف في مصر خوف مواجهة والده فيما حصل لبنيامين، لذلك كان قلبه المتعلق بالله يشعره باجتماع شمل الجميع وأنهم سيأتونه في الوقت المناسب ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالله عليم بما هم عليه وأين مكانهم ولحكمة هو يعلمها جل شأنه وعظمت قدرته جرت الأمور على ما جرت عليه، وهنا بدأت تتكشف ليعقوب الأمور بعدما تغيبت عنه لفترة ما ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ ثم ابتعد عن أولاده متذكراً يوسف وأيام صباه والسنين التي مرت وفلذة كبده بعيد عنه وهو لا يطيق عن بعده صبراً

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ وبلغ الحزن منه مبلغه في قوله ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾، وقد أودى الحزن بسواد عينيه ففقد البصر، فلم كل هذا الحزن على يوسف وعنده من اليقين أنه حي، ألا يملك مزيداً من الصبر بلا شائبة الحزن أم ترى اختلط عليه الأمر؟ إنه نبي الله وكان حزنه الكبير على البعد والفراق الطويل وعلى عيش يوسف في بيئة ملحدة، فخشي من طول المقام ليوسف أن يتأثر بها، وتبعه أولاده يواسونه وهو بحالته المحزنة، فلما سمعوا ذكره ليوسف ولم تنسه إياه السنون، خافوا غطرفته وذهاب عقله لما يعانيه من كبت الحزن، وكان من الغرابة أن يذكر فقد يوسف الذي طواه الزمن من سنين، وأن لا يذكر فقد بنيامين وهو لا يزال حديث الساعة، ولم يدركوا أن مصيبة اليوم نبشت من الذاكرة مصيبة الماضي فأججت عرام الفقد ومواجع الفراق، فقالوا له مشفقين لما وصل إليه حاله ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ فقالوا يمين الله لا زلت تذكر يوسف فلم تنسه، إلى متى يا والدنا؟ إلى أن تشرف على الهلاك ويهزل جسمك وتعتريك الأمراض البدنية والعقلية! نخشى عليك يا أبانا أن تهيم على وجهك من هذا الذي يعتريك فتكون من الهالكين، لكن يعقوب كان أكثر صموداً منهم وأشدهم رباطة جأش، وهذا لا يمنعه من بث شكواه وحزنه إلى ربه وفي ذلك سلوان له وبرهان على صادق العبودية والالتجاء إلى الله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ أتشكون في نبوتي وصلتي بربي، إن ربي لم يتخل عني فأنا أعلم منه عن طريق الوحي ما لا تعلمونه أنتم، وأعلم أن ما أصاب أسرتي هو امتحان وابتلاء، وأنا صابر محتسب ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ وبعد أن تجلى له الأمر ووضح دعا أبناءه للبحث عن أخويهم يوسف وبنيامين، وقد أسقط ذكر ولده الأكبر روبيل لأنه اختار البعد اختياراً وربما يكون قد رجع إلى أبيه بعد أن بلغه خبر بنيامين وكان تغيبه لكي لا يرى أثر وقع الخبر على أبيه، لذلك طلب منهم البحث عن يوسف وبنيامين وشدد على عدم اليأس والقنوط، فاليأس يبعث في النفس الغم



والهم، كما أن التفاؤل يبعث في النفس الراحة والسكينة، وروح الله رحمته بالعبد وتفريج همه ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واليأس ليس من صفات المؤمنين، لذلك نشط الأبناء وجمعوا على عجل ما عندهم من بضاعة ومال وقرروا السفر إلى مصر، وفي مصر كانت تبدو عليهم علامات التعب والإرهاق وما قاسوه من همّ أبيهم وفقد أخيهم فالحالة في البيت اليعقوبي لم تكن على ما يرام فانعكس هذا سلباً على الجميع ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وقد عرض أبناء يعقوب معاناتهم على يوسف لما لمسوه منه من طيب وخلق رفيع، وشكوا إليه فاقتهم وحاجتهم وأن ما جلبوه من بضاعة لمبادلتها لشراء الطعام هي بضاعة ليست لها الجودة السابقة، وهذا كل ما يملكونه، وكان طلبهم أن يعطيهم من الرزق كالمرة السابقة دون النظر إلى ما قدموه من بضاعة قليلة أو رديئة، وقد رق يوسف لمنظر إخوته وكاد يفصح عن نفسه لولا أن تماسك ليعرف المزيد من أخبار أبيه، وأما قولهم ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ﴾ فقد أشكل هذا الطلب على المفسرين، بأن يطلب أبناء يعقوب الصدقة، والمعلوم أن الأنبياء وآلهم لا تحل لهم الصدقة وتحل لهم الهدية، فكان جواب بعضهم بأن هذا في شرعنا، وربما هو غير موجود في شريعة يعقوب، وقيل عنوا بعبارة ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ﴾ أن يرد عليهم أخاهم بنيامين من أسره وعبوديته، فقد تعب أباهم لفقده وأتعبهم معه، وهنا أظهر يوسف شخصيته فقد انتهى الدور الذي خطط له، والاستمرار فيه سيجعل النهاية كارثية وقد وصل إلى ما يريد ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ووقع هذا السؤال عليهم وقع الصاعقة، استفهام توبيخي وتقريعي، لأنهم يعلمون ما فعلوه بيوسف، وأنهم هم أسباب هذه الهموم، وهنا رجعوا إلى أنفسهم ودققوا النظر في ملامح يوسف ثم عادوا إلى ذاكرتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾ ووقفوا ينتظرون الجواب وهم في حيرة من أمرهم، بين قلب واجف وآخر راج، فخوفهم أن يكون يوسف وهو في هذا السلطان فينتقم منهم باقتدار، وراج أن يكون هو فيعود للبيت اليعقوبي صفاؤه وبهاؤه ويلتئم الشمل مع



إمكانية الاستفادة من مركز يوسف ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ وهنا أخذ الخوف منهم كل مأخذ وجاءهم ما كانوا يخشونه، وتابع يوسف تذكيرهم ما نسوه من وجوب تعميق الإيمان والتقوى والتوكل على الله ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فالتعجل وسلوك الطرق الملتوية لتحقيق المنافع عاقبته الخسران والضياع ومقت الله وغضبه، وهنا عرفوا فضل يوسف عليهم وأن كل ما فعلوه لقلب الموازين لصالحهم باء بالفشل ولم يصح إلا الصحيح وإلا الذي كتبه الله من خير ليوسف رغم كل الكيد ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ ولما قرأ في وجوه الإخوة أثر الندم لما فعلوه به، وهم بالتالي أولاد نبي موحدون لم يتخلوا عن الإيمان وإن كانوا قد وقعوا في المعصية في حال التخلص من يوسف إلا أن يوسف مؤمن بأن ما حدث مكتوب وأن الحكمة منه عند الله، لذلك طمأن إخوته كي يريح بالهم ويبعد عنهم دوامة الصراع النفسي ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ عفو ممن يملك القدرة على العقاب، فهم أخوته، فإذا كان الأنبياء يعفون عن خصومهم الغرباء، وهو من شيمهم، فهل تراهم ينتقمون من إخوتهم؟ وهذا ما يميزهم عن بقية الناس قلوب رحيمة وصدور رحبة فسيحة هم المثل والقدوة وهم الرحمة المهداة للأمة ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ ورأى يوسف أنه باستبقاء بنيامين عنده قد تسبب في ذهاب بصر أبيه، وكان يرجو من الله تعالى أن يجد الوسيلة في مداواته ليرتد إليه بصره، وأتاه جبريل فأخبره بالوسيلة المناسبة، لقد كان مع يوسف قميص إبراهيم وهو حرير من الجنة ألبسه الله إبراهيم حين ألقي في النار فحماه الله بقدرته من لهيبها، ثم تداوله أبناؤه من بعده فآل إلى يعقوب الذي أعطاه يوسف، فأخبر جبريل يوسف بأن يرسله إلى يعقوب وأن يلقوه على وجهه فيرتد بصيراً، وكان هذا بداية الانفراج عن هذه الأسرة الكريمة ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ لذلك أحب يوسف أن يلقى أباه ـ كما تركه ـ مبصراً ليرى ما حل عليه من النعيم، ثم طلب أن يأتوه بأهله أجمعين ليعيشوا معززين مكرمين مع يوسف ما تبقى من السنين العجاف



فيأمنوا بالعيش في مصر شر القحط والمجاعة، ولما انطلق الأبناء إلى الشام ومعهم قميص يوسف ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ فهاجت ريح من مصر إلى الشام وهم مازالوا في أول الطريق فوصلت يعقوب، فقال لمن حوله: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تسفهوا قولي أو تتهموني بذهاب العقل، وهذه معجزة لنبي الله يعقوب أن تصله ريح قميص يوسف وهو على بعد بضع مئات من الأميال، وكانت هذه الريح من باب الطمأنينة ليعقوب بأن ابنه على قيد الحياة ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ ومع هذه المقدمة من يعقوب فإنه لم يسلم من اتهامهم، وأنه قد عاد إلى زعمه السابق في تكرار ذكر يوسف، وأنه لا يزال حياً يرزق فهذه نوبات تعاوده بين حين وآخر فهو يرددها ولا يكاد ينساها، واليوم وقد تقدمت به السن يخرج علينا ببدعة جديدة إنه يجد ريح يوسف، لكن يعقوب أصر على زعمه وقال لهم: لن يطول بكم الوقت حتى تعلموا حقيقة ما أقول ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ وقصد بالبشير حامل القميص وأحد أبناء يعقوب «يهوذا» وكان قد حمل من قبل قميص الدم فأحزن والده فأحب أن يحمل قميص البشارة ليفرحه، فألقاه على وجه والده فارتد بإذن الله بصيراً ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ولم ينس يعقوب في غمرة فرحه وعودة بصره أن يذكرهم بأنه كان في كامل قواه يحرسه الله لأنه نبيه فلم يخبرهم إلا بالوحي وأنه لم يكن يهذي كما ظنوا وإنما كان كلامه إضاءات وإشارات لما سيحصل مستقبلاً، وقد تحقق ما كان يخبرهم به من أن يوسف حي يرزق ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ ولما وقف يعقوب على الحقيقة الجلية بشأن يوسف التي ذكرها له إخوته العائدون تواً من عنده، وقف هؤلاء الأخوة موقفاً لا يحسدون عليه من حيث الخجل مما فعلوا، وأنهم كانوا عصبة فاسدة متآمرة على أخيهم المسكين يوسف لمجرد حب أبيه له لصغر سنه، وقد باؤوا بالفشل والخزي فلم يعد أمامهم سوى التوبة والندم على ما بدر منهم وأن يعاهدوا أباهم على الاستقامة والبعد عن عمل كل قبيح فهم أبناء نبي رباهم يعقوب على القيم النبيلة وأن ما وقعوا فيه من

الغدر والكراهية والحقد لا يليق بهم، فقد أغواهم الشيطان في فترة ضعف وغضب، واليوم بعد هذا الدرس الصعب الأليم؛ يعودون نادمين وقد أعلنوا عن خطئهم ورغبتهم في العودة إلى متابعة حياتهم بقلب طاهر نظيف لا يعرف الكراهية والحقد، وإنما يحمل في أعماقه نصاعة الحب الذي يؤهلهم للقيام بدورهم المهم في هذه الحياة وهو الدعوة إلى الله، فطلبوا من والدهم الرضا عنهم والاستغفار لهم، ليبدؤوا حياة جديدة يملؤها الإيمان والحب وصفاء القلب ونقاؤه من درن الأخطاء ووساوس الشيطان، فما كان من الأب الشفيق على أبنائه إلا أن وعدهم بالاستغفار ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ واستعمل حرف الاستقبال ﴿سَوْفَ﴾ الذي يفيد التريث والتأخير، قال المفسرون أخره إلى آخر الليل ليكون أدعى للإجابة، وأقول: أخره إلى ما بعد الالتقاء بيوسف عندها سيكون استغفاره أكثر رقة وشفقة ونسياناً لما فعلوه بيوسف، فإذا ما رأى نعم الله على يوسف طابت نفسه عليهم وزال ما كان يحمله من كره وشك، وانطلق يعقوب وزوجه وأبناؤه وكل أفراد بيته واتجهوا إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ وهذا السياق القرآني يدل على أن يوسف تلقاهم في الضواحي في خيمة ملكية أعدها لاستقبالهم ومعنى ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ انزلوا فيها أو أقيموا فيها، وجرى استقبال مناسب ليعقوب أمام وجهاء مصر فتشرفوا بالسلام على نبي الله متبركين به ويوسف في غاية السرور بلقيا والديه وهو يقول: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أجلس أبويه معه على سرير الملك، وجلس الإخوة أمامه، ثم سجد الجميع ليوسف سجود تحية وكان هذا جائزاً في شرعهم، لم يخف يوسف الحلم الذي كان رآه في صغره وقصه حينها على أبيه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ وذلك عندما قال ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ فقد تحققت رؤياه بعد هذه المدة الطويلة، ثم قال ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ومنَّ الله علي فأخرجني من السجن وكثير من السجناء في ذلك الوقت يضرب عليهم النسيان في السجن فلا يفطن



لإخراجهم أحد خصوصاً إذا كانوا غرباء مثل يوسف، فكانت رؤيا الملك سبباً لإخراج يوسف من السجن معززاً مكرماً فارتقى بسببها أعلى الدرجات ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فكان يعدد آلاء الله ونعمه متجاوزاً عدداً من النعم المهمة، فلم يذكر نجاته من الجب خشية جرح شعور إخوته، ولم يذكر نجاته سليماً من إغراء زوجة العزيز كي لا تعود من جديد على ألسنة الناس بعد نسيانها، وإثارتها من جديد يسيء إلى زوجة العزيز؛ ويوسف قد صفح عنها بعد اعترافها بالحق وتبرئته، وبعد عودة المياه إلى مجاريها واستقرار البيت اليعقوبي عاش يوسف ومن أتى من أهله في مصر عيشة هانئة، وقد روي أن يعقوب أقام في مصر حوالي عقدين كانت سني خير وبركة ثم حضرته الوفاة فماذا قال لأبنائه ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ وهكذا ذكر أبناءه بكلمة التوحيد قبل أن يلقى ربه فمات وهو يرمقهم بعين الرضا، ثم حمل إلى فلسطين بناء على وصيته ودفن قرب قبر أبيه إسحاق، وعاش يوسف في مصر ما شاء الله له أن يعيش وقيل: عاش بعد وفاة والده ثلاثاً وعشرين سنة، تاقت نفسه بعدها إلى العيش الدائم في رحاب جنات الرحمٰن وأن الملك مهما طال في الدنيا فهو زائل، فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ فاستجاب الله ليوسف دعاءه، فتوفي وقد بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، ولحب المصريين له جعلوه في صندوق من مرمر ودفنوه في أعلى النيل لتعم البركة هذا النهر، وسيمر معنا كيف أعادته الملائكة إلى فلسطين في عهد طالوت.

تعد قصة يوسف قمة في القصة الطويلة وقد حوت على كافة عناصرها وهي الوحيدة التي ذكرت في القرآن كاملة في سورة واحدة.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: «من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**»،

قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: «**فعن معادن العرب تسألونني؟ الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»، وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته**» وفي هذا القول لنا وقفة:

- صحيح إن دعوة الأنبياء واحدة في الأصول مع الاختلاف في بعض الفروع.

- الأنبياء خلاصة البشر وأفضل خلق الله، لكن بينهم أيضاً فروق فهم ليسوا نسخة واحدة مكررة، فسيرتهم تظهر ذلك، حتى الأخوان موسى وهارون كانا بين ليّن وشَديد، وجاء الحديث الصحيح للنبي ﷺ: «**ولو لبثت في السجن...**» ليؤكد هذا، فالنبي ﷺ انطلق في هذا من بيئته العربية التي تهتم بالعفو والصفح ونسيان الماضي عندما يشرق لها الحاضر، وكذلك بمبدأ أنه ما كان يغضب إلا لله وأما ما كان شخصياً فقد كان يسامح فيه، فهذا ابن عمه وأخوه في الرضاعة سفيان بن الحارث قد وقف معادياً له وهاجياً سنين طويلة وقبل فتح مكة قرر الدخول في الإسلام فلم يقبله بادئ الأمر عقاباً له على موقفه الذي تخطى المعقول، وعندما قبله وعفا عنه لم يطلب منه أن يعتذر عن ما قاله بقصيدة أو سواها.

- وقد ورث العرب المسلمون هذه الميزة، وهي ميزة الصحراء التي لا تقبل سواها.

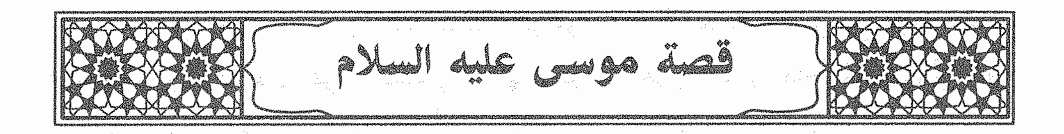
- بينما نجد قرار يوسف بعدم الخروج من السجن إلا بعد التبرئة، وهذا أيضاً يظهر مدى بيئته التي لا تقبل الصفح إلا بإجراءات معينة وأمام الشهود دون الالتفات إلى مدة هذه الإجراءات طالت أو قصرت، ألم يقل يعقوب لأبنائه عندما قالوا له ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ طاولهم وهم أبناؤه.

- هذا اجتهاد في تفسير الموقفين وكلاهما صواب.

وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**».

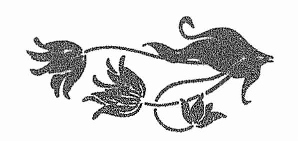
لم يرد في قصة يوسف كلمة «فرعون» لقباً لملك مصر بل ورد كلمة «ملك»، وذلك لأن قوماً يسمون الهكسوس غزو مصر فاحتلوها وأبعدوا الفراعنة عن الحكم، وقيل: أبعدوهم نحو الصعيد، أما هم فقد حكموا منطقة الشمال لذلك لم تكن ألقابهم «فرعون» وإنما كان لقب الحاكم منهم «الملك» وهذه الفترة استمرت مائتي سنة، وكان ضمن هذه الفترة حياة يوسف في مصر ثم استرد الفراعنة ملكهم من الهكسوس.

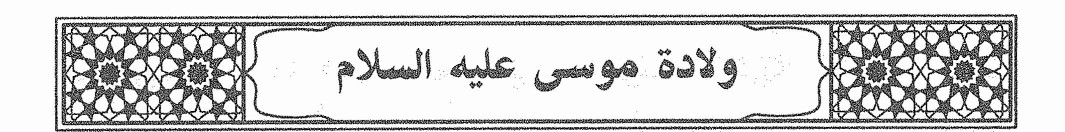




قصة موسى عليه السلام

ذكر متتبعو القصص القرآني أن نبي الله موسى كان أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، وله حياة حافلة منذ الولادة حتى الوفاة، وإذا كانت قد ذكرت ولادة عيسى لإعجازها فإن ولادة موسى ذكرت لنجاتها من بطش فرعون، ولقد ابتلي العصر الذي بعث فيه موسى بفرعون الطاغية الذي اشتهر عصره بالظلم والعسف والإجرام وعدم احترام آدمية الإنسان فكان مفسداً في الأرض إفساداً لم يسبق إليه أحد من الفراعنة الذين سبقوه، وقد مر شيئاً من سيرة الملك المعاصر ليوسف ورأينا إلحاحه في تفسير الحلم الذي جر خيراً على شعب مصر وعين رجلاً صالحاً في وظيفة كبرى وأطلق يده بعد أن تأكد من صلاحه وسيرته الحسنة بين الناس، ولزم تعاليم يوسف في توزيع الطعام وقت المجاعة فلم يكن سيئ السيرة في قومه رغم كفره، فشتان بين الحاكمين.





ولادة موسى عليه السلام

◄ المولد والنشأة:

ضمت أرض الكنانة عنصرين من الناس، **الأقباط**: وهم سكان مصر الأصليين، **بنو إسرائيل**: وهم أبناء يعقوب الذين وفدوا مع يوسف عليه السلام، وكسب أبناء يعقوب وأحفاده ود الأقباط وأحبوهم لحبهم يوسف، فعاشوا فترة معهم في وئام، وعمل الإسرائيليون بقطاع الزراعة والخدمات بينما كان الأقباط هم الملاّك والأسياد، واعتمد الأقباط في معيشتهم وكسب ثروتهم على جهد الإسرائيليين، فما عادوا يتقنون عملاً منتجاً ولو تخلى عنهم بنو إسرائيل لماتوا جوعاً ولتعطلت أعمالهم، ومن هذا المنطلق شددوا عليهم في العمل وأبقوهم رهن الخدمة وعاشوا أسوأ أيامهم في عهد الطاغية فرعون الذي عاصره موسى، فكان جباراً في الأرض عاتياً أذل بني إسرائيل وجعلهم أشبه بالأسرى الذين لا يستطيعون مغادرة البلاد ولا حتى الأرض التي يعملون فيها، وفي غمرة الصراع مع بني إسرائيل والإيغال في ذلهم ومعاملتهم معاملة العبيد ظهرت منهم معارضة فقضى عليها الفرعون، ثم رأى رؤيا فسرها له المنجمون أن ذهاب ملكه سيكون على يد رجل من بني إسرائيل، فأهمه هذا الأمر وبدأ يدبر الكيد لبني إسرائيل لكي لا تقع هذه الكارثة، فأمر بتقتيل ذكور بني إسرائيل والإبقاء على نسائهم، واستمر الأمر فترة وهو ينشر الجواسيس والعيون لإخباره عن كل مولود جديد فيحضر الذباحون ـ وهي فرقة للموت شكلها فرعون ـ فيقتلعوا الوليد في أحضان أمه

فيذبحونه ويمضون، قسوة ما بعدها قسوة، وبدأ نسل بني إسرائيل يميل للانقراض، وضعفت أعمال الخدمة وضج المنتفعون من خدمة بني إسرائيل لنضوب اليد العاملة وقالوا للفرعون إن استمر الوضع على هذه الوتيرة فسيفنى القوم ويعم في الديار الخراب، فاتفقوا مع الفرعون على أن يقتل سنة ويعفو سنة ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة]، وقد ركزت سورة القصص على قصة موسى منذ البداية وستكون المحور الرئيس في قصة موسى ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص]، فأخبر القرآن الكريم ما كان يفعله فرعون، من تقسيم شعبه إلى طوائف وطبقات سخرهم لخدمته، وكانت الطائفة المهانة عنده هم بنو إسرائيل، وفي سنة تقتيل البنين ولد موسى، فخافت عليه أمه وحارت في أمرها كيف لها أن تخفيه عن جواسيس فرعون وتنقذه من الذبح... فكان الإيحاء الإلٰهي الذي رسم لها طريقة نجاته... ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص] والإيحاء هنا بمعنى الإلهام وما يشعر به القلب من إحساس يسيطر عليه ليتصرف وفقه، فكان الإلهام أن ترضعه بعد ولادته ثم تضعه في صندوق ثم تلقيه في اليم والمقصود به نهر النيل، وطمأنها الوحي بأن لا تخاف ولا تحزن فلن يضيع موسى بل سيرده عليها وأنه سيكون نبياً مرسلاً، ففي هذا الإيحاء منتهى التطمين لها مع البشارة بما يتبع النبوة من العزة والتمكين لقومه بعد ضعف، وقد فعلت بدافع هذا الإيحاء ما طلب منها ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وجرى هذا الصندوق في النيل مع جريانه وطاف بقصر فرعون فالتقطه أعوان فرعون وأحضروا الصندوق إلى فرعون وفتحوه فإذا غلام رضيع هادئ يمص أصبعه يتلهى بها، من رآه أحبه وانشرح له صدره إلا فرعون الذي عُرف بقسوة الطبع وشراسة النفس فأظلم فؤاده وعشش هوى البغي والظلم في فكره، فلا يعرف





الحب إلى قلبه سبيلاً، وقد توجس منه خيفة ودعا إلى قتله، لكن امرأته على عكس من هذا الطاغية شفيفة القلب رهيفة الإحساس، أودعت في الفؤاد حباً ونوراً وحنواً كبيراً ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ فتمسكت به وضمته إلى صدرها فأنس بها وكان فرعون عقيماً فأطمعته بتربيته واتخاذه ولداً ينفعهما وما زالت به حتى تركه وكف عن قتله، وروي أنه قال: ينفعكِ أنتِ أما أنا فلا أريده، وقد نفعها الله به فآمنت، أما فرعون الذي أباه فلم ينتفع به بل كان هلاكه على يديه كما سنرى، وجرت مقادير الله بحكمته البالغة ليبرهن للطاغية أنه مهما اتخذ من حيطة وحذر فإن أمر الله نافذ لا محالة، وأن من كان يحذر منه يتربى الآن في بيته هادئاً مستقراً لا يعيش مهدداً، بخلاف ما لو خبأته أمه في مغارة أو مكان منقطع فإنها لا تبرح خائفة وجلة عليه فتكون لهذا الخوف أيام طويلة، والساعة عند الخائف تمر بطيئة فيحسبها يوماً واليوم يظنه بطوله شهراً، فلا يستقر عيش أو هناء لخائف ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ ولما قرر هؤلاء الطغاة قتل الأولاد حفاظاً على الملك والمنافع من الضياع نسوا بأن هناك رباً خالقاً لا يعجزه شيء في الوصول إلى المجرمين وعقابهم، لقد أخطؤوا التفكير وضلوا الطريق، واستعملوا أقسى أنواع التنكيل بالناس لرؤيا مزعومة، فإذا كان كذلك وقد صدقوا قول المنجمين وهو الخوف على ملكهم من إسرائيلي يقوضه؛ إذاً فلتكن الرؤيا بهذا المنحى، وسيكون ذلك الإسرائيلي هو موسى الذي سيتربى في قصر الفرعون وتناله الرعاية منه ومن زوجه، أيظنون أن ما ابتدعوه من إجرام سيصلون به إلى بغيتهم؟ عليهم أن يعرفوا أن للكون رباً ينظمه، ولو كانوا حريصين على دوام الملك فإن دوامه بالعدل، فالعدل أساس الملك، وعوداً إلى أم موسى الولهى على طفلها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ الإنسان يبقى إنساناً وتعتريه حالات ضعف عند المواقف الحاسمة التي تبدو له غاية في السوء والكدر، ألم يكن يعقوب نبياً والحلم الذي رواه له يوسف كان إشارة إلى أنه سيأتي يوم يسجد له أبوه

وأمه وإخوته، وفقد يوسف قبل هذا وادعى إخوته أن الذئب قد أكله، ثم ما كان من يعقوب إلا أن حزن عليه حزناً أفقده بصره وهو يعلم أن تفسير الحلم آت فلم هذا الحزن وكأن يوسف قد فُقِد إلى الأبد وأضحى حقيقة في ظن يعقوب، أما كان الأجدر أن لا يبالي لأنه ضامن بالرؤيا ووحي النبوة أن يوسف حي وسيكون له شأن؟! ليس لهذا من تفسير إلا الضعف الإنساني، فما بالنا بأم موسى وهي لم تصل إلى درجة النبوة؟ لقد ألهمت إلهاماً لذلك حُق لها أن يداخلها القلق والخوف على مصير موسى، ولم تستطع نسيانه ولو للحظة واحدة فقد تفرغ فؤادها من كل شيء شاغل إلا من التفكير بموسى، ولقد كادت أن تتكلم وتظهر ما فعلت من إلقاء موسى في اليم ووصوله إلى قصر فرعون وأنه ابنها، لكن الله صبّرها وسكّن قلبها بالطمأنينة فلم تتكلم ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ أي: تتبعي أثره وأخباره كي لا يفوتنا شيء من العلم عنه، وانطلقت الأخت الذكية «كلثم» حذرة تتابع أخباره ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ومع أنه في قصر فرعون المنيع فقد استطاعت أن تعرف شيئاً عنه بطريقة ما بحيث اقتربت من موقع الحدث وأدى انشغالهم بما هم فيه إلى عدم الشعور بوجودها وأنها تتابعه وتراقبه ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ وكان سبب انشغالهم أنه بكى من الجوع فأتي له من القصر بمرضع فرفض ثديها رغم جوعه، وأتي له بأخرى فأبى أن يتقبل الثدي، فقد ألهمه الله نفرة الثدي وكأنه يأبى أن تكون له أم ثانية من الرضاعة، وأمام حيرة امرأة فرعون فيما تقدمه لهذا الرضيع برزت أخت موسى منقذة ومعها الحل لهذا الإشكال ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وجاءهم العجب من قولها وكأنها واثقة من أنه سيقبل ثدي من سترشدهم إليها، فقالوا ومن تكون هذه المرضع؟ قالت أمي، فقيل لها: وهل لأمك لبن؟ قالت: نعم لبن أخي هارون المولود منذ سنة، عند ذلك رافقوها إلى بيت أم موسى فأعطته الثدي فقبله، وكانت الفرحة كبيرة عند زوجة فرعون فقد ضمنت له المرضع وبالتالي ستربيه لتتخذه ولداً، وهذه الأخت الذكية ستكون في الآخرة زوجة نبينا محمد ﷺ، ففي الحديث «أن النبي ﷺ قال لخديجة: **أما شعرت أن الله زوجني مريم**



بنت عمران وكلثم أخت موسى وامرأة فرعون؟ قالت: هنيئاً لك يا رسول الله» الحديث ليس بالقوي، وبالمقابل فقد رده الله تعالى إلى أمه سريعاً كما وعدها، فلم تؤرقها المعاناة طويلاً بل كان الفرج عاجلاً فقرت بذلك عينُها بعودته ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ وأم موسى امرأة صالحة مؤمنة رسخ إيمانها أكثر، وازداد ثباتاً ويقيناً، وهي ترى رأي العين وليدها موسى يعود إليها سليماً معافا، ألقته في اليم رضيعاً وهو في صندوق واليم متلاطم الموج هائج، فأتي به بعد سويعات لتضمه إلى صدرها ويعود إلى حضنها تغذيه وهي آمنة من بطش فرعون به، ومن ذا الذي يلقي رضيعاً في اليم ثم يعود إليه ولم يمس بأي سوء، إنها عناية الله وحكمته، ولهذا الحدث ما بعده ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالعناية الإلهية تحيط موسى حتى يبلغ الكتاب أجله، ومرت السنين وموسى ينعم بالرعاية من امرأة فرعون «آسية» أما فرعون فكان في ريبة وشك من هذا الفتى الذي تربى في بيته، فلم يبد نحوه ارتياحاً قط، فعندما داعبه مرة وهو صغير أمسك موسى بلحيته بقوة ونزع منها شيئاً فغضب فرعون وقال: هذا هو الذي أخشاه وأرى أنه هو الذي سيهدد ملكي، وطلب الذباحين لقتله فتوسلت إليه زوجه بالإبقاء عليه لأنه لا يعقل ولا يميز، وبرهنت على ذلك بأن وضعت بين يديه جواهر وجمر فأمسك جمرة ورفعها إلى فيه فأمسكت به ونزعتها منه وقيل هذه الجمرة أضرت بلسان موسى ونطقه، وترعرع موسى فتًى يافعاً قوي البنية في بيت فرعون ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: تجاوز الطفولة إلى مرحلة الفتوة والشباب، وتفتقت هذه السن عن علم وفهم وحكمة آتاها الله موسى فزينته وأضفت عليه هيبة ووقاراً ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لقاء إحسانهم وتصديقهم ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وذكر أن المدينة هي «منْف» أكبر مدينة في ذلك الوقت، وكان قد ذكر له أن فرعون ركب إليها فتبعه ـ وكان يخرج في موكبه باعتباره تربى في قصره وهذا الظهور أفاد بني إسرائيل حيث حماهم وخفف عنهم الظلم لا لأنه إسرائيلي فلم يكن فرعون متأكداً من ذلك وإنما لأن امرأة منهم أرضعته فهم



على هذا أخواله ـ وكان دخوله لها نصف النهار وفيه تغلق الأسواق حتى العصر، فالطرقات خالية من المارة إلا ما ندر، والناس في غداء أو قيلولة، وفي هذا الجو الهادئ الذي سكن فيه الناس وتكاد تسمع فيه الهمس أو حفيف الشجر وخرير الماء إذا به يفاجأ بارتفاع صوت شجار بين رجلين ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من شيعته أي: إسرائيلي، فقد بدأ موسى يذم فرعون وأعماله وينتقد كفره وضلاله، وهو عارف أنه من بني إسرائيل وأن القبط ظلموهم، فهذا إسرائيلي الآن يتعارك مع قبطي، وموسى معروف للإسرائيليين أنه نصيرهم لذلك عندما شاهد موسى استنصر به ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فأسرع موسى لمساعدة الإسرائيلي على أنه مظلوم والقبطي دائماً هو الظالم ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ووكز موسى القبطي أي سدد له لكمة فقتله بهذه اللكمة وموسى لم يشأ هذا وإنما ظن أنها لن تؤدي به إلى الموت، لذلك سارع إلى الاعتراف بخطأ ما فعله ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ونسب هذا التسرع إلى إغواء الشيطان وأنه عدو ظاهر العداوة، وندم على ما فعل ثم انتحى جانباً وهو في غاية الأسى والحزن ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ فعاد موسى بعد هذا وهو مقر بالذنب معذب به، ودخلت نفسه الراحة لهذه التوبة وهو يشعر من الأعماق أن الله قد غفر له خطأه الذي ارتكبه من قتل للنفس بلا قصد، ثم وعد ربه لقاء هذه التوبه ألا يعود لهذا التسرع ثانية ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾، وأن القوة التي منحتني إياها يا الله وأنعمت بها علي فلن أضعها إلا في سبيلك ولن أكون عوناً أو مسانداً للمجرمين الذين يفسدون في الأرض ويثيرون الفتنة هنا وهناك ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وهكذا ينقلب من يبتلى بالقتل ممن لا يمارسه أو يقصده، فالإنسان الذي يرتكب القتل الخطأ عن غير قصد أو الذي يقتل للمرة الأولى غير محترف للقتل يصاب بالخوف والقلق، وتعتريه الهواجس والأحلام المفزعة والكوابيس الثقيلة المزعجة، إنها النفس الإنسانية التي خلقها الله وسواها بيده ونفخ فيها من روحه فقتلها وإزهاقها مخيف ومفزع، لكن هناك من تبلد



إحساسه في هذه الناحية وأوتي مكراً شيطانياً يقتل بلا وجل أو خوف من حساب يوم القيامة وعقابه الأليم ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ وفي اليوم التالي يستنجد به الإسرائيلي مرة أخرى، وكان موسى قد تاب وندم يوم نصره لأن نصرته أدت إلى إزهاق نفس لم تكن فعلت ما تستحق عليه الموت، لذلك نظر موسى إلى هذا المستصرخ للنجدة وقال له إنك بيّن الضلال والإغواء، وكان كلام موسى بمثابة توبيخ للإسرائيلي، ومع ذلك فقد انساق موسى وراء العاطفة في نصرة الإسرائيلي لاقتناعه بأن الحق معه فهو مظلوم غالباً والقبطي ظالم غالباً عانى منه الإسرائيليون العسف زمناً ليس باليسير ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وبهذا الالتباس أراد رب العالمين أن لا ينساق موسى وراء هذا الغوي مرة ثانية فيستدرجه ثانية للقتل، فكشف ـ ما كان منه بالأمس حين استنصره ـ قتل القبطي، لكنه ظن الآن أن موسى سيبطش به بدل البطش بالقبطي، فأطلق صيحة الخوف ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وتلقفها القبطي وأسرع يخبر قومه بأن قتيل الأمس الذي جهلنا قاتله تبين أن موسى هو القاتل، ووصل الخبر إلى فرعون فأمر الذباحين بقتل موسى، وقد كان ينتظر مثل هذه الفرصة ليتخلص من موسى فلم يكن يرتاح له في يوم من الأيام، وبدأت حملة البحث عن موسى والله تعالى ناصر نبيه ومؤيد له، نعم لقد عصمه في المرة الثانية من البطش بالقبطي لأن تكرار القتل يصبح عادة تتأصل عند القاتل بالممارسة، وعملاً غير مستهجن عنده، وقد برأ الله منه الأنبياء لأنهم رحمة مهداة للناس، وطبيعتهم التي كونهم الله وفقها لا تنسجم مع القسوة، فأبعده بحكمته عن ارتكاب القتل ـ وإن كان فيه انكشاف أمره ـ لكن هيأ الله له بالمقابل من ينقل له خبر التآمر على حياته فينجو من نقمة فرعون ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾، وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون وهو ذو عقل راشد بما آتاه الله من الإيمان خلافاً لبقية قومه الذين ضلوا وما اهتدوا، فأخبر موسى بجلية الأمر الذي

عزم عليه كبار القوم وعلى رأسهم فرعون، وهذا الأمر خطير لا يحتاج إلى مزيد وقت للتفكير، لذلك نصح موسى بالخروج من المدينة والهجرة إلى بلد آخر، وعدم البقاء تحت سلطة فرعون مهدَّداً في كل لحظة، فالهجرة ضرورية لإيجاد الملاذ الآمن صوناً للنفس والدين والعرض والمال ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، ولم يكن موسى ليضيع الوقت بالتفكير بالخروج أو عدمه، فما إن أنهى المبلغ لموسى خبر الملأ حتى خرج من مدينة منْف سراعاً ومن مصر كلها، لأن القتلة كانوا قد انتشروا في المدينة بحثاً عنه، وكل لحظة تأخير له تدنيهم منه، وهو مترقب في أية لحظة أن يدركوه، فخرج ولم يكن مستعداً لهذا السفر، لكنه معتمد على الله، خرج داعياً ربه متضرعاً إليه خائفاً من التيه والضياع ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا تعليم للمستضعفين في بلدانهم بأن يعلموا أن في الهجرة ملاذاً آمناً وإن كان فيها مشقة وبعد عن الأهل والوطن، وأن عليهم الاتكال على الله والتضرع إليه دائماً، وأن يذكروه ليخفف عنهم بعد المشقة وألم الغربة ومفارقة الأهل ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ وكانت وجهته بلاد مدين ما بين الحجاز وفلسطين وهي بلد شعيب من قبل، وكانت غير خاضعة لفرعون، تعيش حياة بدوية وتمر فيها القوافل التجارية، ولكن بلوغها فيه كثير من المشقة وبعد الطريق، ودونها الفيافي والقفار مع قلة الزاد والماء، فالطريق صحراوية إلا من محطات فيها الماء والطعام كما تحتاج للرفقة والدليل، فلا يقطعها إلا الخِرّيت المغامر.

انطلق موسى متوكلاً على الله وهو يدعوه ويتضرع إليه ويطلب منه الهداية والتوفيق وأن يرشده لأقصر الطرق وأيسرها للوصول إلى مدين، وعانى في الطريق مشقة وجوعاً حتى أكل من نبات الأرض وورق الشجر يسد به جوعه خشية الهلاك إلى أن وصل إلى بئر الماء الذي بأرض مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وبعد جهد مضن بلغ الماء والموطن الجديد، فشرب وجلس في ظل شجرة يريح جسمه من عناء السفر، ويتأمل جماعات الرعاة وهم يسقون أغنامهم ومواشيهم، ثم لفت نظره وجود امرأتين تزودان أغنامهما عن التقدم للسقاية ﴿وَوَجَدَ مِن



دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ وموسى من عرف بنصرة الضعيف، فقد لفت نظره هذا الموقف أناس يسقون مواشيهم بحماس ونشاط ولا يقدّرون ضعف المرأة، وكأنما يستعرضون قوتهم وغلظتهم أمامها، يسقون أغنامهم ومواشيهم الكثيرة ويضنون بإفساح المجال لهاتين الفتاتين ـ اللتين لا سند لهما ـ لسقاية أغنامهما القليلة، رآهما تقفان بعيداً وهما تبعدان أغنامهما عن الاقتراب من الماء رغم دافع العطش الغريزي عند الحيوان للتقدم نحو الماء ولكن تتجنبان بطش السفهاء الذين يتعالون على الضعفاء بقوتهم الغاشمة، فاقترب موسى من الفتاتين وسألهما عن شأنهما وهذا الوقوف الوجل، فأخبرتاه بمعاناتهما اليومية في السقاية وعدم الاقتراب من الماء حتى يفرغ الجميع من سقاية مواشيهم، فهما امرأتان لا تملكان القوة للسقاية وأبوهما شيخ كبير، بالتالي عائلة مستضعفة تعيش وسط قوم لا يعترفون إلا بالقوة، وهنا أخذت موسى عزة الإيمان وتقدم إلى حجر البئر فرفعه بقوة وأنزل الدلاء واغترف الماء الصافي إلى الحياض ولم يشأ أن تشرب أغنامهما من سؤر الغنم التي قبلهم وفضلتهم المتبقية، وروي أنه قال لهما: هل من ماء غير هذا؟ قالتا بئر هناك قريبة غطيت بحجر لا يطيق رفعها النفر من الناس، فذهب إليها ورفع الحجر ودلى الدلو فغرف الماء وسقى لهما، وقيل كان الرعاء يغطون البئر بحجر كبير لا يطيق رفعه إلا عدد من الرجال، فإذا سقوا غطوه وانصرفوا فتسقي الفتاتان أغنامهما من فضلة ما تبقى من الماء، فلما سقى موسى لهما عادتا إلى أبيهما مبكرتين ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ وهكذا فإن الأنبياء لا يغيب عن لسانهم وفكرهم ذكر الله تعالى خصوصاً عندما يحسون السند والدعم الرباني خشية أن تتسرب وساوس الشيطان إلى النفوس ويظن النبي أن ما فعله قوة منه، كما يفعل كثير ممن أنعم الله عليهم بالقوة فينسبها إلى ذاته، وينسى يوماً أنه إن مرض وأقعده المرض لاحتاج إلى من يساعده، ولبدت له حينذاك حقيقة قوته، لكن الأنبياء ـ وهم الصنف المتميز والخلاصة الوضيئة من البشر وهم أعبد الناس ـ يقدمون لنا النموذج القدوة، وبالرغم من معاناة موسى ومشقة

سفره ووهنه وجوعه لم ينس ذكر الله وتسبيحه والالتجاء إليه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذه صورة لطبيعة المرأة المتدينة عندما تضطر إلى محادثة الرجل الغريب تأتي على استحياء، خجلة وجلة تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، تستر وجهها حياء وخجلاً وهو الذي يُظهر أثر الحياء احمراراً وتوردا، وقفت هذه الفتاة على استحياء وهي تطلب من موسى الحضور، فإن والدها يدعوه ليجزيه أجر السقيا، وهو في الحقيقة يود التعرف إليه، والأنبياء لا يأخذون على فعل المعروف أجراً، فلبى موسى الدعوة وانطلق مع الفتاة، ومشت الفتاة أمامه وكانت الريح من خلفها تدفع ثوبها فتجسد عجيزتها، فلم يستطع رؤية هذا المشهد فناداها لتكون من خلفه ويكون هو أمامها وأن ترمي بحصاة عن يمينه إن كان سيسير باتجاه اليمين وعن يساره إن كان سيسير باتجاه اليسار، وهكذا إلى أن وصل بيت الشيخ، فسلم ودخل البيت ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سأله الشيخ عن حاله ولم قصد مدين؟ فقص عليه خبره بالتفصيل وما كان من أمر فرعون وطلبه ليقتله، وهنا طمأنه الشيخ بأنه نجا من سلطة فرعون لأن مدين لا تخضع لحكمه، فمن هو هذا الشيخ والد الفتاتين يا ترى؟ قالوا: شعيب، وقالوا: أخو شعيب، وأقول هو رجل صالح يعيش في مدين على دين شعيب وربما ربطته بشعيب قرابة ما، أما كونه شعيباً فهذا بعيد، فشعيب نبي مرسل أدى رسالته وانتقل إلى ربه ولا يعقل أن ينتهي الأمر بشعيب ليكون على هذا النمط من العيش، صاحب غنم أو بدوي يعيش وسط قوم لا يراعون له أي تقدير، بنتاه ترعيان الغنم ثم يحصل لهما منتهى الذل عند السقاية، فهل وصلت حالة النبي إلى هذه المذلة؟ كما وأن مدة مكث موسى عنده لم يذكر له دعوه أو قياماً بتبليغ، فهل كان في هذه الفترة متقاعداً؟ والأنبياء تبقى مسؤوليتهم في الدعوة من يوم يبعثون إلى أن يموتوا، أما قوله لموسى ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا ليس فيه دلالة على نبوته، فأي إنسان مؤمن يقول مثل هذا حين يخبره شخص ما أن طاغية لاحقه ليقتله فنجاه الله منه، يقول مثلاً: الحمد لله كتب الله لك السلامة من بطش هذا



الظالم.. ثم إن شعيباً قضى قبل ذلك بوقت طويل، فاختيار الرجل الصالح هو الأنسب ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ لقد وجدت هذه الفتاة الفرصة سانحة لكي ترتاح من عناء الرعي وسقاية الغنم في وجود هذا الشخص النزيه القوي الأمين فاقترحت هذا على أبيها، وكان هذا نابع من المعاناة في عملها وتوقها لتكون ربة بيت، وانتبه الوالد لهذا الاقتراح الذي لم يكن ليفكر فيه لكن صاحبة الحاجة نبهته لذلك، ثم أراد الوالد الرزين أن يعرف مدى صدق الكلمات التي وصفت بها موسى، فقال لها: وما أدراك بقوته؟ قالت: رفع الحجر الثقيل عن البئر عند السقيا لنا، قال وما أدراك بأمانته وهو حديث عهد عندنا؟ فأخبرته عن كيفية قدومهما عندما استدعته وأنه سار أمامها، فاطمأن الشيخ الصالح أكثر على أمانة موسى وتدينه وأنه خير من يقوم له بالعمل ويخالطه وهو في غاية الاطمئنان على بنتيه، ومع ذلك أراد أن يحصنه بالزواج ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ وهكذا كان الاقتراح من البنت الذكية، وكانت الاستجابة من الوالد بشروطه الحكيمة، فهو بهذا العرض سيحقق عدة أمور:

- تزويج إحدى ابنتيه.
- وتكليف رجل قوي وأمين برعاية أغنامه بأجر مدفوع وهو مهر ابنته.
- وإحصان من يعمل عنده.

ويبدو أن حال الرجل الصالح مستور، فهو ليس من أهل الثراء، وفي هذه الزيجة جعل المهر لقاء خدمة يقدمها موسى، وبهذا تجاوز الشيخ مشكلة الأجر، وكان هذا الإجراء بالنسبة لموسى أمراً عادلاً وفر لموسى - الذي لا يملك المال - المأوى والغذاء والزوجة التي يسكن إليها وهو الذي ذلل لموسى وحشة الغربة وقدم له خدمة جليلة يحتاجها كل غريب، فأصبح كأنه من القوم بهذه المصاهرة، فاستلم موسى عمله وقام به خير قيام ولما خيره في المدة التي يخدم فيها عنده وفاه أعلى الأجلين أي خدم عشر سنين ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكان الترغيب بادياً في لغة الرجل الصالح وترك له الخيار في المدة لذلك قال

موسى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ وقد جعلا الله عليهما وكيلاً وكفيلاً، وعمل موسى راعياً لأغنام الرجل الصالح ومرت الأيام والسنين سراعاً ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ وحانت رحلة العودة إلى مصر فحمل زوجه «صفورا» وانطلق باتجاه مصر وكان الجو بارداً حيث انسدل الليل وسكن الخلق ولف الصحراءَ جو بارد ازداد شدة مع انتصاف الليل فاحتاج موسى وأهله إلى نار للتدفئة، فأخذ يتلفت يميناً وشمالاً عله يرى قافلة أو سيارة أو بيوت بدو قد أوقدوا ناراً ليصطلي عندهم، فأبصر عند جانب الطور الأيمن ناراً فأحس بالفرج ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وانطلق موسى إلى مكان النار ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ فكان ما رأى من النار نوراً استجره إلى هذا المكان المبارك ليكون على انفراد ويسمع ما يلقى إليه وهو بتمام الوعي والإصغاء، ناداه ربه في تلك البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى وأن بمعنى أي المفسرة ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالنداء كان من رب الخلق أجمعين وعلى موسى أن يصغي ويعي ما يلقى إليه، إنها الرسالة والنبوة ومن هنا بدأ تحمل مسؤولية الدعوة والتبليغ لقد اختاره الله نبياً مرسلاً وأمده بما يؤيده من المعجزات والحماية لشخصه من المعاندين والمجادلين ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ وكان بيد موسى عصا يتخذها في سفره للدفاع عن نفسه من وحش أو عدو غادر، وقد طلب منه ربه أن يلقي هذه العصا، فألقاها وإذا بها تهتز كأنها جان أي أفعى ضخمة خاف منها موسى فالتف إلى الخلف ليبعد عنها وأطلق ساقيه للريح دون أن يلتفت، فناداه ربه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ عندما ولى مدبراً ناداه للعودة، أقبل ولا تخف ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ أنت الآن في مرحلة الإعداد وأمام رب العالمين فهو الحامي لك المتكفل بحفظك فإذا كان هذا الوعد من الله تعالى فلم الخوف؟ ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ

سُوٓءٍ﴾ والمعجزة الثانية التي زود بها موسى هي اليد، يضعها في جيبه ثم يخرجها فتصبح بيضاء مضيئة سليمة من غير مرض، فلا يظن أحد أنه قد أصابها مرض البهاق أو البرص، ثم إذا أعادها إلى جيبه وأخرجها تعود كما كانت ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ أي: أعد يدك إن خفت من الإضاءة مرة أخرى إلى جيبك فتعود كما كان لونها طبيعية بلون بشرتك ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ فهذا تكليف واضح من رب العالمين لموسى بالنبوة مع تزويده بآيتين عظيمتين العصا التي تنقلب أفعى ويده السمراء التي تضيء كالشمس، أرسله بالتحديد إلى دعوة فرعون وملئه إلى الإيمان، وقصد بالملأ الحاشية من ذوي النفوذ والرأي والمشورة المحيطين بفرعون، وكان هذا التكليف مخيفاً بالنسبة لموسى فقد عاد بذاكرته إلى الوراء عشر سنين يوم قتل نفساً بالخطأ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ وهذه الحادثة التي حصلت بالخطأ لا تزال تحفر في ذاكرة موسى وتقض من مضجعه وتؤرقه لأنه ما كان ينوي ـ حين وكز القبطي ـ قتله ولا قصد ذلك وأن القتل عمل فظيع تمنى ألا يكون بل بهذا التذكر عدّه نقطة سوداء في تاريخه، وعندما يطلب الناس منه يوم القيامة أن يشفع لهم في الموقف لأنه كليم الله يعتذر ذاكراً قتل النفس ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ وطلب موسى من ربه أن يشرك معه أخاه هارون لأنه لا يزال خائفاً من فرعون وزكى موسى أخاه هارون بأنه أفصح لساناً منه فيكون معه سنداً وعضداً يساعده في هذه المهمة ويحمل عنه شيئاً من الجدال المتوقع مع فرعون وملئه، ولكي تطمئن نفس موسى ويقبل على التكليف بقوة وحماسة لبى له ربه طلبه ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وأضاف لموسى دعماً آخر ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ وكان هذا غاية الدعم لموسى من ربه، تأمين الحماية والقوة والغلبة لموسى ومن يتبعه، وبهذا سيلجم فرعون ويقيد قدرته فلا يأتي بما يؤذي موسى وهارون، وهنا انطلق موسى دون تردد ودخل مصر وذهب إلى أخيه هارون ليبشره بالنبوة، وقد كان جبريل قد



سبقه، فانضم هارون إلى موسى وقصدا فرعون لدعوته إلى الله ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ وهذا الرد دائماً يصدر عن الطغاة، فهم لا يتقبلون الإصلاح ولا الهدى للطريق السوي، يريدون أن يكون العالم وفق مشيئتهم، وما يحلو لهم أن يفعلوه، أما الدعوة للإصلاح والعودة إلى الفطرة السوية من حيث العبودية لله الخالق، فهذا أمر تجاوزوه وعطلوا في داخلهم إشراقة الفطرة، فليس عندهم إلا التعالي والظلم والغطرسة واستعباد الناس ليكونوا فوق الناس وقد سخروا كل مكر وخديعة ومال وأتباع ممالئين ليصلوا إلى هذه الدرجة من العلو، لذلك لم يكن متوقعاً له أن يستجيب لدعوة موسى، وهذا ما خشي منه موسى عند التكليف، الرفض والصد والعجب والكبر، ودعم جحوده جلساؤه فقالوا ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وبهذا يعدون ما أتى به موسى بدعة واختلاقاً للتغيير والانتقام من فرعون، ولهذا الموقف من الموالين لفرعون ازداد فرعون كبراً وغطرسة ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ وهكذا أعلن على الملأ ألوهيته بلا حياء ولا خجل، ونسي إنسانيته وأنه مخلوق ضعيف لا يثبت على حال من التغيرات التي تأتيه ما بين صحة ونشاط ومرض وضعف ويسر وعسر وسرور وحزن وانفتاح نفس تارة وانقباضها أحياناً أخرى فأنى له هذا الادعاء فلو ادعى أموراً هي في نطاق حدود البشر لكان مقبولاً ولكن رفع نفسه الضعيفة إلى مقام الألوهية إن هذا لمنتهى الجهل وضعف العقل واختلال الفكر، ثم خلط الأمر بالسخرية والبرهان المضلل فقال ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وختم كلامه مسبقاً بتكذيب موسى، فلمَ إذن كل هذا التعب في بناء الصرح وهو يحكم مسبقاً على موسى بالكذب؟ باب من التضليل وخداع من يستمع إلى موسى لينفضوا من حوله وللملأ عنده ليبقوا على ولائهم لفرعون، فأنى له أن يرى إلٰه موسى حتى ولو اخترق السماء ولكن ليقول لضعاف التفكير ها قد ارتفعنا في السماء فأين إلٰه موسى؟ لا نراه إذن فهو غير موجود، وتعطي عبارة ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ دلالة على ظلم فرعون وتسخيره الناس للعمل



لصالحه، وتدل على أن أبنية مصر كانت من القرميد لندرة الحجارة أو بعدها عن مكان المدن وأنه من قديم الزمان كان هناك استنزاف للطمي الزراعي وتخريب للأرض الزراعية وعدم تقدير لقيمة هذا الطين، هذه هي المرحلة الأولى من دعوة موسى وبداية الصراع مع فرعون اخترتها من سورة القصص علماً بأن هذه البداية أيضاً قد ذكرت في سورة طه.

➢ التشابه بين سورة طه وسورة القصص:

بدأت قصة موسى في سورة طه من حين عودته من مدين مع زوجه ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠﴾ وسورة القصص بدأت من الولادة وهذا ما جعلني أبدأ بها القصة، ثم قال ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ وقد أفادت هذه الآية زيادة في وصف موسى، حيث أمر بخلع نعليه وعدد المفسرون السبب بأنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ أي كانا نجسين، وقد خلع النبي ﷺ نعليه وهو في الصلاة لإخبار الوحي بوجود نجاسة فيهما، وقيل: خلعهما أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب، وقيل تفريغ القلب من الأهل والمال، وفي سورة القصص لم يرد هذا الوصف، كما بيّن هنا اسم الوادي، فاتضح المكان بلا لبس باجتماع الوصفين في السورتين، وفي هذه السورة أيضاً الأمر بالاستماع لما يوحى وفيه الأمر بالعبادة وإقام الصلاة وأن الساعة قريبة وفيها يكون الحساب والجزاء وأنها أمر أكيد فلا يصدنك عن هذا الإيمان من لا يؤمن به، ويتشابه المشهد في شأن المعجزات مع تفاصيل في كل سورة تكمل الأخرى ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨﴾ فهنا ملاطفة لموسى قبل إظهار الآية في العصا حيث سأله ما يمسك بيمينه فأجاب موسى جواباً مستفيضاً أكثر مما يطلب منه، فلو قال عصا لكفاه ولكنها الرهبة التي جعلته يجيب عنها وعن استعمالاتها، وفي القصص أمر بلا مقدمات بإلقاء العصا وكانت المفاجأة المذهلة و الخوف والهروب.



➢ تحليل الموقف:

لم أقرأ لأي من المفسرين مناقشة الأمرين المختلفين لموسى من ربه في إلقاء العصا عند بدء التكليف بالرسالة وعدّوهما موقفاً واحداً، علماً بأن الأمر بإلقاء العصا كان في موقفين لنستعرض الآيات التي ذكرت بهذا الشأن:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه].

ما ورد في سورتي النمل والقصص بشأن إلقاء العصا متشابهاً، وما ورد في سورة «طه» مختلف عنهما، فهل قال الله لموسى ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً، وفي اللحظة نفسها قال الله له: وما تلك بيمينك يا موسى، وبعد الجواب من موسى، قال له ربه ألقها يا موسى، فهل خوطب موسى في الموقف الواحد بخطابين معاً مختلفين في لغة الخطاب؟ إن التوفيق بين الخطابين ـ والله أعلم ـ يكون في الآتي:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ وفي سورة النمل ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ زيادة شرح للأولى بأنه آمن وأنه من المرسلين، من هذه الآية يتبين أن موسى كان خائفاً عند الوهلة الأولى لذلك لما رأى العصا قد انقلبت أفعى ولى مدبراً ولم يلتفت فناداه ربه وطمأنه بأنك آمن وأنه لا يخاف لديه المرسلون، فعاد موسى أدراجه إلى المكان الذي ألقى فيه العصا، فرأى عصاه فحملها من جديد، ولكي يدخل الله إليه الطمأنينة سأله ثانية ﴿وَمَا



تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وهنا اطمأن موسى وهدأ روعه فأجاب بإسهاب عكس هذه الطمأنينة ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ هنا لم يهرب كما في المرة الأولى لأنه اعتاد هذا المنظر، وإنما أمره بأخذها وهي على هيئة الأفعى، لأنه في المرة الأولى أخذها بعد أن عادت عصا تدريباً له على أخذها وهي بهذه الهيئة ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: عندما تلتقطها وهي أفعى تسعى ستعود عصاً. وبعد هذا التدريب اعتاد موسى على إلقائها وأخذها بلا خوف ولا تردد.

أما الآيات التي فيها تكرار يعود بفائدة معنى أو شرح مفصل فهي تختلف عن هذه الآيات التي مرت ونمثل لها بضرب البحر بالعصا: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه] ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]، فهنا الأمر واحد والزيادة في الوصف الذي يوضح الصورة ويزيد في معانيها الحسية والنفسية.

⮘ المواجهة مع فرعون:

بعد أن أكرم الله عبده موسى بالرسالة وطلب موسى من ربه أن يشرك معه أخاه هارون في هذا الأمر استجاب الله لموسى وزوده بآيتين عظيمتين العصا التي تنقلب أفعى كبيرة واليد التي تنقلب بيضاء مضيئة، ثم زوده بعد ذلك بسبع آيات أخر كما ورد في سورة النمل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ ويروى أن موسى عندما دخل مصر بعد عودته من مدين ذهب إلى أمه وكان حنينه إليها كبيراً ولما تم اللقاء بشر أخاه هارون بالرسالة وطلب منه الذهاب معه إلى فرعون فقصدا قصره وطلبا مقابلته ولما لم يؤذن لهما طرقا باب القصر بعنف لينتبه فرعون، ولما سأل عن الأمر قيل له موسى ومعه أخوه يودان مقابلته لأمر عظيم، فسمح لهما بالدخول ومن هنا بدأت الدعوة، ففي المقابلة الأولى كما مر قال لهم ما علمت لكم من إله غيري، ثم لما ألحا



عليه في قبول الدعوة مع تقديم البراهين اتهمهما بالسحر، وأن ما أظهره من العصا واليد هو من باب السحر فكان أن أشار عليه مستشاروه بأن يبارزهما بالسحر.

١ ـ اللقاء الأول:

لقاء موسى وهارون بفرعون وقد ذكر تفصيله في سورة الشعراء ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء] فالبداية كانت من سيناء حيث تكليف موسى بالرسالة ثم تزويده بالمعجزات ليذهب إلى القوم الظالمين فرعون وملئه الذين أسرفوا بغياً وعدواناً على الناس ويدعوهم إلى الإيمان وترك ما هم عليه من الظلم، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: يكفيهم هذا التمادي، وهو حض بمعنى التهديد، الذي سيعقبه بطش وانتقام، كما تقول للمشاكس: ألا ترعوي، أي عد إلى رشدك، يكفيك تمرداً، وكان الخوف ظاهراً في جواب موسى، وقد ذكر الأسباب، خوفه من تكذيبهم له، والرهبة من الموقف أمام الطاغية فرعون بأن لا ينطلق لسانه في الكلام، وأراد معه أخاه هارون لأنه يثق به ليحمل معه عبء الدعوة، والسبب الثالث ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء] فإنه لا يزال يذكر ذلك القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه ثم هرب إلى مدين من الذباحين الذين كانوا يطلبونه فكيف يظهر أمامهم الآن؟ إنهم إن رأوه سيقتلونه بلا شك، لكن الحامي هو الله فهو الذي حماه من قبل وهو الذي يحميه الآن، فكان الجواب من رب العالمين ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ لن يصلوا إليك كل ما تفكر فيه لن يكون وعليك أن تذهب مع أخيك إلى فرعون وتلقي عليه الدعوة وأنا معكم أحميكم وأستمع لما يجيب به، وقولوا له ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن لم يستمع قولكما ويؤمن فليكن طلبكم الثاني ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لكي نعود بهم إلى الأرض المباركة ونخلصهم من هيمنتك وظلمك، فماذا كان جواب فرعون؟ الصد في الحالين عدم الإيمان وقوله لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ



لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ثم عاد بذاكرته إلى السنين التي خلت ليذكر موسى بفضله عليه وتربيته له ثلاثين سنة، وهذا من باب الترغيب ليكون إلى جانبه، ثم ذكره ـ بما كان موسى يخشاه ـ بقتل القبطي وهذا من باب الترهيب أي نستطيع أن نأخذك بهذه الجريرة ونقتلك بها إن لم تكف عن دعوتك هذه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ولما ذكّره بفضل فرعون عليه في الحالين اتهمه بالكفر وجحود فضل فرعون عليه، فماذا كان جواب موسى؟ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ هي فترة شباب وإعداد ولم يكن قد أتاه العلم والرسالة فضلاً عن عدم القصد في القتل أو الإيذاء وإنما دفع الشر دفعاً فقدر المولى علي هذا، لذلك خفت ألا تفهموا قصدي وتوقعوا بي العقوبة على ظاهر الأمر ففررت منكم وتغيبت هذه المدة فكان فضل الله علي عظيم فشملني بالرعاية والتكريم وجعلني من المرسلين ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ أرأيت نعمة الله علي وفضله على عباده، كنت خائفاً منكم فأمنني ربي وحماني، بل وزادني من فضله أن جعلني مرسلاً وبعث بي إليك لأبلغك رسالته لعلك تؤمن وتقلع عما أنت فيه من الضلال والادعاء الكاذب، ثم تمن علي بأنك ربيتني في قصرك وكنت أنت السبب في نكبة بني إسرائيل لأنك جعلتهم عبيداً لك ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ وبعد الخوض في استعراض الماضي والحديث عنه عاد فرعون ليسأل عن الدعوة التي أتى بها موسى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وفكره في غاية الضمور والقصور كأنه صدق ما كان يزعمه وأن فكره في خلو تماماً من وجود خالق لهذا العالم بما فيه، ولعله كان يسأل استخفافاً بموسى، ولكن موسى كان جاداً فأجابه ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، إن كنتم بما أقول موقنين ومصدقين فآمنوا، لكن فرعون بعيد كل البعد عن التصديق بما يقوله موسى علواً واستكباراً لذلك كان جوابه النهائي ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: اسمعوا ما يقول من التخريف والهذيان، يقول كلاماً بعيداً عن الواقع، أهناك رب

غيري؟! قال موسى مقاطعاً ومبيناً مزيداً من صفات الله القوي العزيز ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ إذا كان فرعون يدعي الربوبية الآن فمن رب آبائكم الأولين وفرعون لم يكن في ذلك الوقت؟ ففي هذا القول تسفيه لفرعون وإسقاط لدعواه، لذلك لم يتمالك أن سفه موسى واتهمه بالجنون لأنه قرب الحقيقة إلى أذهان المستمعين وخشي فرعون مزيداً من الجدال مع موسى الذي سينتهي بلا شك بانتصار موسى ودحض كل مزاعم فرعون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا أسهل اتهام، يطلقه الطغاة دائماً على الأنبياء والمصلحين، ولكن موسى تابع ذكر صفات الخالق متخطياً مزاعم فرعون ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وهكذا بدأ موسى من المجمل إلى المفصل كي يلامس الحديث شغاف القلوب فترق وتعي وتدرك الحقيقة التي كان فرعون يخفيها عن الناس ويلبّس عليهم الأمر فلا يفكرون إلا بما يمليه عليهم من التفكير ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨]، وعندما بدأت الحجة القوية من موسى تأخذ طريقها إلى القلوب انتفض فرعون بشدة وقرر ألا تراجع عن موقفه وأنه هو الله ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فهدد موسى بالسجن وأظهر له العداوة وعدم الإصغاء إليه، لكن موسى لم ييأس وقال لفرعون تدعي هذا الادعاء حتى لو جئتك ببرهان على بطلانه ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ولما رأى إصرار موسى على موقفه وأنه ماض بالدعوة منهجاً لا محيد عنه عاد يجاريه ظاهراً مع إضمار عدم الاقتناع ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهنا بدأ في إظهار المعجزات التي زوده الله بها وهي برهان قوي على صدقه ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ولكن من غلف قلبه الران لا يمكن أن يصله النور خصوصاً إذا تواطأ العدد الكبير من أهل المصالح التي يجنونها من مواقعهم القريبة من الحاكم الطاغية ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فقد أوحى لبطانته بأن هذا ساحر فرددوا قول فرعون ثم أشركهم في القرار فكان قرارهم محاولة إنقاذ هيبة فرعون فالساحر بزعمهم لا يحارب إلا



بسلاح مماثل وهكذا أشاروا بجمع كافة السحرة في البلاد ليشتركوا في دحض سحر موسى حسب زعمهم.

٢ ـ يوم الزينة:

لقد وردت هذه القصة في سورة الأعراف ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ كانت الدعوة لفرعون بالإيمان ولكنه لما أصر على كفره وعناده ترك وشأنه على أن يسمح بخروج بني إسرائيل من مصر ليعودوا إلى الأرض المقدسة حيث كان إسحاق ويعقوب، وسبب طلب هذا الخروج ظلم فرعون لهم وتسخيرهم بالقوة لعمل السخرة في مصر من زراعة وما يتبعها وبناء حتى عندما قال لوزيره هامان ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ كان العمال الذين يبنون له الصرح من بني إسرائيل المسخرين المظلومين، كان موسى يطلب خروج بني إسرائيل معه فحول فرعون وأعوانه هذا الطلب إلى إخراج أهل مصر الذين يؤمنون به من إسرائيليين وأقباط وذلك لتنفير الناس من موسى ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه] وفي سورة الشعراء ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وبهذه الفرية جعل أهل مصر في مواجهة موسى فأصموا آذانهم عن سماع الحق واتهموه بالسحر، وهنا أراد فرعون أن يسجل نصراً على موسى فأخذ برأي مستشاريه ﴿قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ فراقت الفكرة لفرعون وبدأ يجمع كبار السحرة وكانوا في مصر بأعداد كبيرة وهم منتشرون في كل أرجائها ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ

ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾﴾ [الشعراء] وكان هذا اليوم هو يوم عيد لهم ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾﴾ فكان يوم الزينة وهو عيد معروف في مصر يتزين فيه الناس بأحلى زينة لهم ويخرجون إلى مكان جعلوه لاجتماعهم، وأراد موسى أن يكون الاجتماع تاريخي يشهده معظم الناس في وضح النهار، ولما حضر السحرة أوصاهم فرعون ليشد من أزرهم ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه]، ومع ذلك أتوا ليبرزوا مقدرتهم وقوتهم السحرية الخارقة وينالوا مكافأة كبيرة من فرعون ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ طلبوا الأجر ووعدهم الأجر وزيادة وذلك بأن يتخذهم جلساءه وأصفياءه، فلما أتوا واصطفوا وكان عددهم كبيراً بالآلاف وقيل أقل من ذلك والمختار أنهم اثنان وسبعون ساحراً أكبرهم: ساتور وعادور وحطحط ومصفى، ولما رآهم موسى ورأى استعدادهم القوي وقد أحضروا كل شيء للغلبة قال لهم ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، ولما سمعوا من موسى هذا الكلام قالوا: ما هذا بقول شاعر، ثم خيروا موسى بين أن يلقي هو أولاً أو أن يبدؤوا قبله ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه]، وهذا فيه تقدير لموسى وتأدب معه حيث خيروه ثقة منهم وأنهم قد أعدوا كل شيء للغلبة فلا يضرهم إن تقدموا أو تأخروا فالأمر عندهم سيان ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ وفي سورة «الأعراف» ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ ورأى الناس كما رأى موسى وفرعون ما هالهم من الأفاعي والحيات التي خرجت من الحبال والعصي واستكبر فرعون وانتشى زهواً وظن أن الغلبة له حيث قارن ما رأى في السابق من حية موسى فرأى حيات السحرة أنها ضخمة ومرعبة، حتى إن موسى نفسه خاف منها ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ وهكذا أحس موسى بالخوف لكن ربه معه فلم الخوف؟ وجاءت



الطمأنينة من رب العالمين ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ المؤيد من الله وأن ما شاهدته هو سحر لا حقيقة سيزول أمام الحق وسيكشف الله زيفه وخداعه للبصر بأن هذه الحيات ما هي إلا حبال وعصي لم تخرج عن حقيقتها وما يراه الناس صورة خادعة للعين وهذا هو عمل السحر ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ إن عصاك يا موسى معجزة من رب العالمين فلا يثبت السحر أمامها ومهما بلغ الساحر من العلم فإنه ضعيف لن يفلح أمام الحقيقة وفي سورة الأعراف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ كانت المفاجأة الكبرى تُلقى عصا موسى فتنقلب ثعباناً أضخم مما على الساحة فتأتي لهذه المئات من الثعابين فتبتلعها جميعها ثم تعود عصا يمسكها موسى، يا إلهي أين الثعابين التي كانت بضخامتها كالجبال دخلت في جوف أفعى موسى ثم عادت عصا صغيرة يمسكها موسى أين تلاشت الأفاعي؟ هذا المنظر أمام الملأ من الناس في يوم الزينة أظهر صدق موسى وصدق دعوته وأنه يريد بالناس الخير، أما فرعون فقد صغر في هذا اليوم وضعفت هيبته وظهر للملأ كذبه فيما كان يدعيه من الألوهية، وجاءت الصدمة الكبرى لفرعون عندما أعلن السحرة إسلامهم لما رأوا هذه المعجزة الباهرة وأنها ليست سحراً ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ وهكذا خر السحرة معاً أمام الناس سجداً لله معلنين إيمانهم وتخليهم عن السحر فاغتاظ فرعون لما رأى من إيمان السحرة ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ لماذا قال هذا هل كان يود أن يأذن لهم بإعلان إيمانهم بعد التشاور معه؟ أم هذا الكلام لخداع الناس ليكون عقابهم من أجل التسرع وعدم أخذ الإذن منه، ثم اتهمهم فوق هذا بالتواطؤ مع موسى وعدّه كبيرَ السحرة، وذلك أن موسى التقى مع كبير السحرة **فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به هو الحق؟ قال: نعم، ثم قال كبير السحرة: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك**



ولأشهدن أنك على حق، لذلك قال فرعون ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ ثم توعدهم بالصلب في جذوع النخل وقد ذكر النخل لارتفاعه عن بقية الشجر وكثرته وإيذاء جذوعه لأجساد المصلوبين لأنها ليست ملساء كالشجر، وجذوعها كالسكاكين في ظهور المصلوبين، وكذلك كثرة عدد السحرة الذين آمنوا بحيث يصعب عمل صلبان لهم بالسرعة المطلوبة، والجزاء السريع الذي اتخذه بحقهم تنفيساً لغضبه وردعاً لمن يفكر في الإيمان واتباع موسى عليه السلام، ولن يكتفي بالصلب بل سينكل بهم من قطع الأيدي والأرجل ليذيقهم أشد العذاب تنفيذاً لوعيده ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وهو يظن أن هذا هو أقسى ما يستطيع فعله، لكن ما ينتظره في الآخرة من العذاب هو فوق ما يظن ويتخيل، وكان الرد من السحرة المؤمنين ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ قال ابن عباس: حين قالوا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء.

ولكن ماذا فعل الناس الذين شاهدوا هزيمة فرعون وإيمان السحرة ـ خصوصاً المقربون منهم ـ بعد أن رأوا الآيات الباهرات الدالة على صدق موسى؟ كانوا المحرضين لفرعون على الانتقام من موسى لتبقى لهم مصالحهم وامتيازاتهم ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فكان منهم التحريض على العناد والضلال والانتقام من موسى وقومه بشراسة وعنف منقطع النظير، فتوالت لأجل هذا الآيات والمعجزات المؤيدة لموسى والمنكلة بفرعون وقومه.

٣ ـ مرحلة التخويف بالمعجزات:

بعد المباراة المشهودة التي باء فيها فرعون بالفشل الذريع والخزي والخسران، فقتّل السحرة وصلبهم على جذوع النخل ليكونوا عبرة لمن يتفوه



بالإيمان بما جاء به موسى عليه السلام، وقد حرضه خاصته ليقوم بعمل عنيف ضد موسى وأتباعه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فعاد فرعون لأسلوبه القديم بقتل الأطفال وترك البنات والتنكيل ببني إسرائيل، ولما رأى موسى عودة هذه الجرائم لم يكن بوسعه إلا طلب المزيد من الصبر من قومه ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ مع تقرير واقع معاش بأنه لا يدوم شيء في هذه الدنيا فهي متقلبة وهي ملك لله يهبها لمن يشاء من عباده واعلموا أن العاقبة دوماً للمتقين مع العلم أن عمر الأمم لا يقاس بعمر الأفراد والتغيير قد يستغرق أجيالاً وقد يحدث في بضع سنين، لكنَّ صبر بني إسرائيل قصير متعجل يحبون النصر العاجل وهم على غير استعداد لأن يروا أبناءهم يقتلون، لذلك شكوا من هذا الإيذاء ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف]، فالحالة واضحة كالشمس إيذاء من قبل أن يأتي موسى برسالته وهاهم اليوم ينكل بهم في ظل وجود موسى ودعوته، فماذا استفادوا؟ بمعنى أنهم لو خنعوا لفرعون لسلموا أو لقل تعذيبهم وإيذاؤهم، هذا ما قصدوه وهو قصور في النظر ووهن في القوة وخور وضعف أمام الشر، فلو أن كل شعب مال لهذا القول من الخنوع لساد الظلم ولما تحررت الشعوب من الاستعباد ولكن لكل شيء ثمن، فثمن الحرية الدماء، والقتل في هذا السبيل شهادة، وكان رد موسى عليهم ليزيل خوفهم بالوعد بإهلاك عدوهم والنصر على الظلم والكفر، والاستخلاف في الأرض طبقاً لسنن الله في هذا الكون ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥] وهنا نشط موسى بالدعاء ومناجاة الخالق العظيم ليحد من قوة فرعون وجبروته ويسلبه ما عنده من قوة مادية ومعنوية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ



﴿ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس]، وبدأت بعد هذا محنة فرعون وقومه في أخذهم بالشدة والآيات المنهكة لقاء عنادهم واستكبارهم في الأرض ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف] فكان مما عوقبوا به الأخذ بالسنين أي بالقحط والجفاف والجدب، وهي كالسنين السبع العجاف التي مرت في عهد يوسف، ولكن شتان بين هذه وتلك، فسني يوسف كانوا قد استعدوا لها وخزنوا طعامهم لتجاوزها بسلام، ولكنّ هذه السنين كانت مفاجئة لفرعون وقومه وموجهة لإذلالهم، ويتبع الجدبَ بالطبع نقصُ الثمرات، قد تثمر الشجرة ولكن انعدام الماء يضعف الثمر ويجعله يتساقط قبل اكتمال النضج، وعليه فالسنين العجاف مرهقة للناس يتبعها نقص في الأرزاق والأموال مع غلاء في الأسعار ويتعرض الناس للأمراض نتيجة قلة الماء وتكثر الحشرات والآفات وتضعف الحيوانات فلا تجد ما تأكله فيصيبها الهزال وبالجملة فإن العقاب بالسنين أمر مجهد خصوصاً إذا استمر الجفاف عدداً من السنين ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ فهذا العقاب المجهد المقلق للناس وهو بالطبع غير العقاب المستأصل، يكون عادة إنذاراً للردع والزجر والعودة إلى الحق فهو للتذكر والإقلاع عن الخطأ، ولكن هل تذكر آل فرعون أن هذا الجدب إنذار لهم ليرعووا ويتركوا ما هم عليه من الضلال؟ أبداً لقد رفعوا عقيرتهم بالعناد وأظهروا الصدود والتحدي لموسى ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف]، مازالوا يتهمون موسى بالسحر وأنهم لن يؤمنوا بما جاء به موسى مهما فعل وقدم من الآيات والمعجزات، ولكن هل يثبتون على هذا التحدي؟ إن الله القوي المتعال الذي أرسل موسى وأيده بكل أسباب التفوق على فرعون ليقضي على ظاهرة الظلم والإفساد في الأرض لن يدع هذه الطغمة تتحكم بمصير العباد وتفعل ما يحلو لها وفق هواها المدمر للنظام الذي أراد الله أن يسود، فلما أظهروا العناد وانقطع الأمل منهم توالت عليهم المصائب ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ لم تكن دفعة



واحدة وإنما أتت تباعاً كلما تخلصوا من آفة دهتهم داهية أخرى، بعد الجفاف أتاهم الطوفان، فحاجتهم إلى الماء كانت ماسة ولكن ليس إلى حد الفيضانات المدمرة فهي على هذه الحالة أكثر ضرراً وإيذاء من الجفاف وكلٌ سيئ، والطوفان يأخذ الناس والأرزاق ويجرف التربة ويخرب المنازل على رؤوس أهلها، وما إن انتهى الطوفان وكادوا يهلكون جميعهم أتوا إلى موسى وطلبوا منه أن يدعو ربه لكشف هذا البلاء، ففعل ولكن القوم لم يقلعوا عن ظلمهم وعنادهم وكفرهم، وكان بعد الطوفان الجراد الذي أتلف محصولاتهم الزراعية وفيه من الضرر ما يفوق الاحتمال، تعب وكد وفلاحة وزراعة ونماء للمحصول ثم قبل الحصاد تأتيه أرتال الجراد فتجعله أثراً بعد عين، وفي كل بلاء ينزل يهرعون لموسى بدعاء ربه لكشف الضر عنهم فيفعل، وينكشف عنهم الضر ويلمسونه ويرونه رأي العين، ثم يعودون لما كانوا عليه من التكذيب، وهكذا حتى امتحنوا بتسع آيات بينات متواليات، وهي: «**العصا واليد والسنين أي الجدب ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم**» وأعطوا فرصاً كثيرة للإيمان وترك ما هم عليه، ولهذه الآيات القاهرة لهم تفصيل عند المفسرين وقد بينا بعضها ولا تسل عن القمل إذا فشا في المجتمع فإنه يضعف الجسم والذاكرة ويقلق الشخص المصاب به ويسبب له حكة في الجسم والرأس، والضفادع لا تسل عن إزعاجها ونقيقها الذي يُذهب النوم ويسبب الصداع فضلاً عن أذاها في تلويث المياه إذا كثرت ويسبب هذا الماء إذا ما شُرب داء الاستسقاء، والدم المخالط لكل شيء دون أن يدروا ما مصدره إنه مخيف يلوث ثيابهم وأطعمتهم وأشربتهم وفرشهم، أيحتمل هذا؟ لقد كان البلاء كبيراً ولكن الاستجابة لنداء الحق كان وعوداً كاذبة خالطها الاستهزاء والسخرية. لكن الران قد غلّف قلوبهم وأصبح حاجزاً يصد النور فلا يهتدون ولا يجدون إلى الإيمان سبيلاً وقد لعب بهم الشيطان فأبعدهم عن الإيمان بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب فضلوا ضلالاً بعيداً، وقد وصفهم الله تعالى بأصدق وصف ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ثم أخذوا يعزفون على نغمة إطلاق سراح بني إسرائيل إن رُفع عنهم العذاب ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ

عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف] والرجز بمعنى العذاب وهو يشمل هنا كل معجزة تصيبهم، أي إن أصابهم الجدب طلبوا كشف هذا الرجز عنهم وإن أصابهم الدم طلبوا كشف هذا الرجز عنهم وهكذا، وفي الآية تصريح منهم بأن الحق قد ظهر لهم وتبينوه، فقولهم هذا ينطوي على اعتراف بنبوة موسى وأن إلهه قادر على كل شيء وأن موسى حبيب الله قد استودعه علماً ومعرفة كما اعترفوا باضطهاد بني إسرائيل، ومع هذه المعرفة التي صرحوا بها وأظهرت أنهم على علم ودراية بأمر موسى ورسالته وقربه من ربه أبوا أن يؤمنوا، ولعل مرد ذلك إلى الصلف والاستكبار ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النمل] ألم يكن النبي موسى من بني إسرائيل الشعب المضطهد عندهم والأجير المسخر لخدمتهم؟ فهو التابع وهم المتبوعون ولا يصح في عرفهم أن يصبح المتبوع تابعاً حتى أبد الآبدين ولكن الله الذي خلق البشر كلهم من نفس واحدة له مشيئة في الاستخلاف لا تتناسب مع عقلية فرعون وأتباعه ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص] وأن قانونه في الأرض: أن الذي يُعطى القوة ولا يؤتمن على استعمالها في الإصلاح وإعمار الأرض بالسلم والتوحيد والمحبة وعدم سفك الدماء، والذي يستعمل قوته الغاشمة في التدمير والإيذاء فإن الله تعالى لا بد مستبدله عاجلاً أو آجلاً، والذي يعطى القوة ويفسد في الأرض يكون قد دق إسفيناً في نعشه وعجل بانتهاء أمره وشرذمته وتقزيمه، والتاريخ شاهد على مضاء هذه السنة الإلهية، ولذلك فإن مقولة: «**العدل أساس الملك**» لها دلالتها في قانون الله في الأرض ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام]، ولكن فرعون ظن نفسه وقومه مخلدين في الأرض ونسي من سبقهم من الأمم والملوك الذين غبروا ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف]، لقد أعطوا عهودهم لموسى بالإيمان وإرسال بني إسرائيل معه وهم على نية نقض العهود وقد ظنوا أن بإمكانهم خداع موسى

ونسوا أن الله يعلم سرهم وجهرهم وأنه لا يخفى عليه أمرهم وما بيتوه، لذلك لم يكن كشف الرجز عنهم تاماً وإنما لأجل وقته رب العالمين ليسجل عليهم إضاعة فرصة أخرى منحت لهم للأوبة وليضم نكثهم للعهود إلى سجل أعمالهم المهين ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر بما أعده لهم من الغرق مع فرعون، وقد ذكرت الآيات التسع في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ فقد كانت كما ذكرنا آيات بينات فيها إيذاء فرعون وقومه، وكانت هذه الآيات ترهق قوم فرعون ولا تزول عنهم إلا بجنوح فرعون وقومه إلى الحق ووعدهم موسى بذلك، فكان موسى يدعو ربه لكشف الرجز عنهم، لكنهم سرعان ما ينقضون عهدهم فتأتيهم مصيبة أخرى وهكذا إلى أن استنفذوا فرص العفو كلها، فقد كانوا يدندنون وفق نغمة واحدة: بأن ما أتى به موسى هو سحر بيّن ظاهر ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]، ولقد كان الخوف من فرعون شديداً حتى بالنسبة لبني إسرائيل وكان الواجب عليهم ألا يعبؤوا بفرعون وتهديده وأن يعلنوا إيمانهم بموسى ويكون مَثَلَهم السحرة المؤمنون، لكن الخوف سيطر على كثير منهم وربما تريثوا ليروا نتيجة الصراع بين موسى وفرعون ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس]، فكان تأخرهم في اتباع موسى الخوف من أن يفتنهم فرعون بتسليط العذاب عليهم، وقد آثروا السلامة من بطش فرعون وأعوانه، ولكن موسى أراد منهم المفاصلة والوقوف معه بوضوح ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ فكان جواب المخلصين من قومه الذين آمنوا إعلان المفاصلة والوقوف مع موسى بلا خوف من فرعون ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ والفتنة التي عنوها هنا هي تعرضهم للتعذيب من قبل فرعون والضعف أمام تحمل التعذيب وبالتالي الارتداد وهذا ما كانوا



يخشونه فإذا ما ارتدوا كانوا نموذجاً للضعف وعدم رسوخ الإيمان ومثلاً يتخذون للتراجع عن المبدأ، لذلك طلبوا من ربهم التثبيت وعدم امتحانهم بالشدة التي توقعهم في الارتداد، ومن هذا نعلم أن فرعون وأتباعه قد نشطوا ضد المؤمنين ولم ينفع فيهم النصح ولا الآيات، فما جزاؤهم الذي أعده الله لهم بعد هذا الجبروت؟

٤ ـ الغرق:

ذكر عدد من المفسرين أن خروج موسى ببني إسرائيل كان بعد يوم الزينة لما ورد في سورة طه، فبعد إيمان السحرة وما تم بينهم وبين فرعون من جدال وتمسكهم برأيهم صلبهم فرعون، ثم جاءت هذه الآيات ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ وكذلك في سورة الشعراء فقد ورد بعد جدال فرعون مع السحرة ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وهناك دلائل إلى أن الخروج كان بعد الآيات التسع والنصح المستمر وأن فرعون الذي كان يعد ولا يفي ثم أراد التخلص من موسى ومن معه، فقد ورد بعد ذكر الآيات التسع في سورة الإسراء ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء]، وفي سورة يونس ورد أيضاً بعد الجدال بين موسى وفرعون وطلب موسى من ربه أن يشدد عليهم الوطأة ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ وقد ورد عن ابن عباس أن موسى مكث في آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات والجراد والقمل والضفادع، وأنا أميل لهذا الرأي أن هجرة موسى كانت بعد أن توالت الآيات القاهرة لهم لذلك أراد فرعون أن يرد عليهم تجاهها بقسوة فجمع لهم الجموع ليستأصلهم ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الشعراء] فمبادرة الشر كانت من فرعون لقد أراد أن يحدث سبقاً في الانقضاض على موسى وأتباعه وعدهم شرذمة قليلة يمكن القضاء عليها بسهولة ودون كبير عناء لأنه



حشد من الجنود أضعاف أعداد خصمه، فكان عدد أتباع موسى ستمائة وسبعين ألفاً، وكانت مقدمة جيش فرعون سبعمائة ألف، لكن الله كان له بالمرصاد، فأوحى إلى موسى كاشفاً له غدر فرعون وتدبيره، وبدأ فرعون يصف موسى قومه بعبارات تدل على الحقد والحنق وأنه يوم مرت عليه أحداث الآيات المرهقة كان الغضب من موسى قد بلغ منه الذروة، وفي قرارة نفسه كان يتمنى لو تخلص منه بلا إبطاء، لكن الله تعالى مانع موسى من فرعون كما وعد ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فقال فرعون لجنوده وهو يحط من قوة موسى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فجد الجنود في طلبهم وطمعوا بإبادتهم إرضاء لفرعون،وكان موسى قد أعد لأمر الهجرة عدته استعداداً للإذن من الله تعالى في المغادرة، فكان منها التميز في السكنى عن القبط ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بحيث اتفقوا على علامة سرية تميز بيت الإسرائيلي عن القبطي لكي يسهل تبليغهم الأوامر إضافة إلى جعلها للصلاة والعبادة والدعاء لأنهم لا يستطيعون المجاهرة بالعبادة وبناء المساجد خشية من فرعون ولتفريج همهم ففي الصلاة التذلل لله والاتصال معه والقرب منه وفيها سرعة الاستجابة من الله، وعند الخروج للتجمع كانت لهم إشارة توضع على الباب فيعرف أن أهل هذا البيت قد خرجوا، ومنها طلب موسى من قومه أن يستعير نساؤهم من نساء القبط ما عندهم من زينة وحلي ذهبية أو فضية ليوهموهم أنهم أخذوها للتزين للعيد وأنهم ماكثون في البلد غير مغادرين له لما يعرفون أن بني إسرائيل كانوا يؤتمنون على رد العارية، ولو كانوا غير ذلك لكان طلب الحلي منهم مدعاة إلى الشك بهربهم، كما طلبوا من فرعون السماح لهم للاحتفال بعيد لهم فأذن وهو كاره لذلك، لكن إذنه - في الحقيقة - كان مكراً منه لكي يجعلهم تحت نظره ومراقبة عيونه،ومنها طلب موسى من قومه أن إذا جاء الإذن بالهجرة فليتركوا بيوتهم مضاءة كي لا ينتبه جيرانهم من القبط فيشوا بهم وأن يكونوا جاهزين للمغادرة والانطلاق فور التبليغ بلا معوقات، وهو ما يشبه الاستنفار العام في أيامنا



هذه، هذا ما بلغ به قوم موسى آخذين بالأسباب، والله سبحانه يدبر لهم أمر النجاة والخلاص من فرعون، فأوقع بينهم في ليلة الخروج معوقات كثيرة شغلهم بها، فقد استجيبت فيهم دعوة موسى بحرمانهم من مقومات شدتهم وبأسهم من الزينة والأموال ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فأشغلهم الله بطمسها حجارة على صورتها، وجاء الإذن من رب العالمين ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ والسرى: السير في الليل، ولقد ورد الأمر ليلاً في سورة الدخان ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فاندفع بنو إسرائيل تحت جنح الظلام من بيوتهم فكان كلامهم الهمس والتخاطب بخفيض الصوت ومنعوا من المناداة بعضهم لبعض، بيد أن عيون فرعون التقطت هذه الإشارات والهمسات فأخبروا فرعون، ولما وصله الخبر طار صوابه لقوة تدبيرهم ومكنة أمرهم وما استعملوه من الخداع والتمويه، وقال: **أبَقَ عبيدي** - هربوا - الويل لهم مني، فأرسل على وجه السرعة يستدعي جنوده من مدن مصر ليحشد ما استطاع من قوة ضاربة يؤدب بها بني إسرائيل، فكان حشده - كما ذكر ابن كثير - ألف ألف وستمائة ألف أي بحساب اليوم مليون وستمائة ألف، وكان عدد المهاجرين مع موسى ستمائة ألف سوى النساء والأطفال والشيوخ، وهم من ذرية يعقوب الذي دخل مصر بدعوة من ابنه يوسف عزيز مصر واستقر هؤلاء فيها وكانوا بادئ الأمر في حياة كريمة ثم لما طال عليهم العهد اضطهدوا خصوصاً في عهد هذا الفرعون فأرسل الله موسى لإخراجهم من مصر إلى فلسطين وكانت مدة إقامتهم إلى يوم الخروج مع موسى أربعمائة وستاً وعشرين سنة شمسية، وسار موسى بقومه ليلاً باتجاه سيناء في غير طريق القوافل، وبعد سفر مضن وجهد أيام في الطريق كانت المفاجأة المرعبة لبني إسرائيل، إنه البحر فماذا هم صانعون؟ وها هوذا فرعون يطلع بجنوده مع الصباح وإشراقة شمس ذلك اليوم فهو يحيط بهم من ورائهم والبحر من أمامهم، فكان الخوف وكانت الندامة من الغالبية العظمى على خروجهم مع موسى، وقد شق عنان السماء بكاء الأطفال واستغاثة النساء وبلغت القلوب الحناجر وشخص أمامهم الموت الكئيب في



هذا المنقطع من الأرض، وأقبل فرعون بجنوده فوق ظهور الخيل المطهمة تثب فوق الأرض وثباً كأن لم يهد قواها طول الطريق وحر الشمس وقفر المكان، وتخيل بنو إسرائيل مصارعهم على يد فرعون في هذا المكان وتمنوا أن لو خدموا عنده عبيداً مدى الدهر ولا أن يلقوا هذا المصير، ولكنهم ويا للأسف لم يفهموا سر الحياة وقيمة الإنسان الحر وأن الدنيا دول، ونسوا الأمر الأهم أن الله الذي أمر موسى بالهجرة من أرض مصر ضمن له ولقومه النجاة من فرعون، إن هذا المكان قد أعده الله تعالى لمصارع الطغاة وستكتب فيه نهاية القصة الفرعونية وهل يلتهم مثل هذه الجموع سوى بحر زاخر لا يشتكي ضيق المكان ولا ثقل الوجبة وعرام النهمة ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] وكان قوم موسى مشاة يحملون أمتعتهم على دواب الحمل من الحمير والبغال فلم يكن يسمح لهم فرعون بامتلاك الخيل ولا أدوات القتال، وكان مع موسى الأطفال والنساء والشيوخ وليس مع الرجال المقاتلين سوى العصي والحجارة، وكانت ستحدث مجزرة يفنى فيها بنو إسرائيل لولا العناية الإلهية، وفي اللحظة الحاسمة التي ظن فيها فرعون أنه نائل مراده وأن بني إسرائيل في قبضته لا مفر، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق اثنا عشر طريقاً وفق عدد الأسباط أو القبائل التي هي من أبناء يعقوب لكل منهم طريق ليكون مرورهم وجوازهم سهلاً كما في العيون التي فجرها الله لهم لاحقاً ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ ولقد استجر فرعون ومن معه لحتفهم في هذا البحر - وأعتقد أنه البحيرات المرة وهي إحدى البحيرات الكبيرة التي تشكل قناة السويس الآن وهذا هو الطريق المتجه شرقاً إلى سيناء - ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: قربناهم من قوم موسى حتى خيل إليهم أنهم سيقبضون عليهم فطمعوا فيهم واستحثوا خيلهم لإدراكهم فلم ينتبهوا إلى حقيقة المعجزة بانفلاق البحر بأن ولوجها خطر عليهم بل أقحموا خيلهم وراءهم دون ترو ولا تفكير في الأمر، وكان موسى يريد أن يضرب البحر ثانية ليعود كما كان قبل أن يدخل

فرعون في أثرهم، ولو فعل ذلك لما وقع فرعون في مصيدة الغرق لذلك نبه الله موسى بأن يترك البحر بطرقاته كي يجوز عليه فرعون فلا خوف منه ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ساكناً كما هو بممراته الاثني عشر كي يغري سكونه فرعون فيقدم على مطاردة بني إسرائيل، ودخل فرعون وجنوده هذه الممرات فلما أن استوعبت جيشه كاملاً كان في الطرف الآخر آخر مجموعة تخرج منه من بني إسرائيل إلى البر ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ هنا أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فعاد متلاطم الأمواج وقد ابتلع فرعون وجنوده في مشهد سر أهل الإيمان وشفى غيظهم مما كان يفعل بهم فرعون وأتباعه من القهر والظلم والعبودية ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وعادت الصحوة لفرعون وقد غشيه الماء وأيقن الهلاك فأدرك أن موسى كان على حق وهو من قبل لا شك مدرك إلا أن سلطان الملك والجاه قد غلبا عليه، وقد ذكر القرآن لنا آخر لقطة من حياة فرعون وما اعتمل في نفسه ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

➢ نهاية الظلم:

لقد اقتحم فرعون بفرسه الطريق الذي شقه الله لموسى في البحر ولما خرج موسى بقومه إلى الشاطئ الشرقي أطبق الله البحر على فرعون وجنوده فكانوا من المغرقين، وتركز الصورة على فرعون لتظهر لنا ما كان فيه وهو يصارع الموت وقد أيقن الغرق، لقد خارت قواه وتلفت حوله ليرى جنده الذين كانوا يحفون به وينصرونه فإذا به يراهم في حالة أسوأ من حالته، إنهم في حالة هلع وصراخ كلهم يصارعون الموت ثم يهوون إلى القاع لقد أثقلهم الحديد فما استطاعوا النجاة، لقد أضحى وحيداً بلا سند ولا قوة، أين



الملك والأبهة والسلطان؟! لقد ذهب كل هذا في غمضة عين وهو الآن كالريشة في بحر متلاطم، لقد خلع من فكره عظمة الملك وترفع السلطان ونسي كل العز الذي رآه بهذه اللحظات الحالكة كأنه لم يعش بين الرياش وفاخر الأثاث والإحاطة بالأتباع والجنود لحظة واحدة إنه رهين الحالة القاتلة رهين الغرق، ضعف ما بعده ضعف،فعاد سريعاً إلى ما خبأته الذاكرة من دعوة موسى وأنها الحق، لكنه كان قد عاند وكابر، والآن حصحص الحق وينبغي أن تظهر الحقيقة وألا تضيع في خضم العناد فصرخ بأعلى صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الآن أيها الطاغية.. أيها الفرعون.. ولو قلتها قبل ذلك لكان لك شأن آخر ولمصر وللمنطقة بأسرها، كان إيماناً غير مكتمل كان عند لفظ الأنفاس.. عند الغرغرة، فلم يقبل منه ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ الآن وبعد سنين طويلة من الصد والجدال والتكبر والغطرسة والتقتيل والصلب تعلنها عند رؤية الموت وقد اعترفت بالضعف الإنساني وأنه لا حول له ولا قوة، وأن الله جلت قدرته هو القوي الخالق هو المعبود بحق لا سواه خالق كل شيء له الأمر وإليه المرجع، ثم كان القول الفصل ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] وطفت جثة فرعون فوق الماء وجرفتها الأمواج نحو الساحل ورأى المستضعفون جثة فرعون وهو ذليل صاغر، هذا في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]. فهو الزعيم عليهم حين كان ملكاً وسيكون زعيمهم يرد بهم النار يوم القيامة فتعساً لهذا الزعيم وتعساً لأتباعه المضللين.. وهكذا مصير أتباع كل زعيم ضال.

ولعل الحكمة الإلهية في إهلاكه غرقاً هو وجنوده بعيداً عن بلده ومركز حكمه كما حدث للأقوام الأخرى، وذلك لما للحضارة الفرعونية من درجة رفيعة من الإتقان التي تبعث على التأمل في هؤلاء الأقوام ومدى تقدمهم العلمي لتبقى شاهدة لمن بعدهم على عظمة أولئك القوم وما كان

من مجريات تاريخية على هذه الأرض وليثبت قول الله فيهم حين خاطب من جاؤوا بعدهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر] فاندثروا وبقيت آثارهم شاهدة عليهم.

➢ ما بعد العبور:

للإنسان الحق في أن يحاول تصور البحر الذي عبره بنو إسرائيل، فإذا كانت البلدة التي خرج منها بنو إسرائيل هي منف أي قريبة من القاهرة ثم خرج المهاجرون الفارون من فرعون باتجاه الشرق فما البحر الذي سيصادفهم؟ قد يكون نهر النيل وهذا يصح إذا كانت البلدة غربيه، وعبر القرآن عنه بالبحر لسعته عرضاً وكان قد عبر عنه في بداية قصة موسى باليم، وإذا ما اتجهنا شرقاً من القاهرة باتجاه سيناء فلا يصادفنا بحر وإنما بحيرات وقد تكون إحداها المقصودة (**البحيرات المرة**) وهي عميقة ولسعتها تبدو كالبحر وحالياً متصلة بقناة السويس وتمخر فيها أكبر السفن، وقد يكون خليج السويس في جزئه الشمالي إلا أن الطريق إليه من الغرب جبلي صعب وشاق، فخليج السويس تحفه من جهتيه الشرقية والغربية جبال يصعب اختراقها للوصول إلى الشاطئ، والله أعلم.

المهم أن موسى عبر بقومه سالمين جميعاً إلى سيناء، وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياة موسى وقومه، وينبغي عبور سيناء للوصول إلى الأرض المقدسة، والأرض المقدسة لم تكن خلواً من السكان بل كان فيها العماليق وهم القوم الجبارون وهذا يعني أن صراعاً جديداً سيخوضه موسى وأتباعه وقد يكون أشد من صراعهم مع فرعون، وإزاء هذا يجب أن يعبئ موسى أتباعه تعبئة إيمانية قوية ليتمكنوا من مواجهة هؤلاء القوم ومن أجل هذا فقد خضعوا لامتحانات في العقيدة والصبر وقوة التمسك بالدين، قد يكون صراعهم مع فرعون قد أخذ طابع القومية عند بعضهم فتعصبوا لموسى لأنه منهم ووقفوا معه ضد فرعون إلا قلة منهم كانوا يدورون مع مصلحتهم في تولي فرعون وملئه أمثال قارون، لكن الغالبية كانت مع موسى حمية

لذلك كانوا يترددون في الولاء ولا يصبرون على التحدي ويؤثرون حياة الذل عند فرعون على حياة التحرر من العبودية التي تكلفهم المقاومة وبذل الدم والنفس، وقد بين الله تعالى حالهم هذه ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف] وعليه فإن قلة منهم كانوا متمسكين بالعقيدة وناضلوا من أجلها لينعموا بعبادة الله الواحد وتحكيم شريعته القويمة العادلة ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس] ـ وكان الآخرون لهم تبع يحتاجون إلى فترة من التوجيه والتعليم ليسلكوا طريق الهدى عن علم وقناعة لا عن تبعية وتقليد، وكان الامتحان الأول لهم.

◄ الامتحان الأول:

رأى بنو إسرائيل المعجزة الكبرى عياناً وممارسة،رأوا انفلاق البحر ثم مروا بالطريق اليبس وكان اثني عشر طريقاً، مروا وهم يرون بعضهم بعضاً لم يضع منهم أحد أو يغرق أحد، ورأوا فرعون مع جنده يغرقون فلم ينج منهم أحد ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فهذه معجزة ظاهرة ظهرت جلية للجميع، لم تحصل بتدبير أحد من البشر وكل ما صنعه موسى أنه ضرب بأمر ربه البحر فانفلق ثم لما عبروا إلى شاطئ الأمان وكان فرعون وجنوده لا يزالون في الطريق اليابس ضرب موسى البحر بعصاه بأمر ربه فأطبق البحر على فرعون وجنوده فغرقوا جميعاً وبنو إسرائيل مع نبيهم موسى يشهدون هذه المعجزة الخالدة وقد شفى الله صدورهم التي امتلأت غيظاً من فرعون الظالم لهم، وبعد أن ودعوا هذه المعجزة وقد امتلؤوا عزة وإيماناً تابعوا السير إلى الأرض المقدسة مروا على قوم من عبدة الأصنام لهم طقوس وترتيل فأعجبوا بما رأوا وكان الواجب عليهم الاستنكار والإشفاق على هؤلاء الضائعين التائهين ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف] لقد

وصفهم موسى بالجهل وعدم الوقوف على حقيقة التوحيد والتفرغ لطلب العلم، وقد يعذر هؤلاء بسبب تسلط فرعون وأتباعه على المؤمنين فوقعوا في هذا الخطأ الكبير، ومن هذا الطلب يتبين الهوة الكبيرة بين المتعلمين والجاهلين بين من آمنوا بالله الواحد ومن لا يزالون متأثرين بالفكر السائد عند الوثنيين وما كان يبثه فرعون ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وأصبح من الواجب تعليم هؤلاء التوحيد وأن هؤلاء القوم الذين يعكفون على الأصنام كفار غير موحدين مصيرهم إلى النار كان هذا جواب موسى على تساؤلهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف]، ومتبر بمعنى: هالك ومقضي عليه، وأنهم منغمسون في الباطل وهم لهذا ضالون لا يقتدى بأفعالهم، ثم كان تصعيد الزجر من موسى لأتباعه وبيان الحق الواجب اتباعه ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ وذكرهم بما كان قريباً حيث أنقذهم من بطش فرعون وظلمه ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف]، وهكذا مر الابتلاء الأول وأخذ بنو إسرائيل درساً في الإيمان، وهذا يحصل في كل مجتمع عندما يتلقون دعوة الأنبياء فيكونون أصنافاً، صنف يلازم النبي ويحرصون على التلقي منه وهم الصفوة كما في الحواريين أتباع عيسى والمهاجرين والأنصار أتباع محمد ﷺ، وصنف وسط يجمعون بين التلقي والعمل وهم لا بأس بهم ولكن قد يخدعون عندما يدعوهم داع ضال إنما يؤوبون إلى الحق مع دعوة الداعية المخلص، وصنف من ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف، فهؤلاء لم يتعلموا العلم الذي يحصنهم من نزغات الشيطان وهم سريعو التقلب وفيهم تظهر الفتن والانحرافات، لقد قالوا لنبينا اجعل لنا ذات أنواط شجرة يتبركون بها ويعلق الجاهليون عليها سلاحهم - فشابهوا بني إسرائيل ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وكذلك الردة التي حصلت بعد وفاة النبي ﷺ، وكانت دعوة موسى إلى ذلك الوقت لا تزال تؤكد على التوحيد لبناء العقل الطاهر والفكر النظيف، كدعوة النبي ﷺ في مكة ومن أتى من

الأنبياء قبله ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وبعد الهجرة إلى سيناء مع هذه الجموع الغفيرة من بني إسرائيل احتاج الأمر إلى تأسيس مجتمع له عقيدة وشريعة تنظم حياته في بيئته الجديدة وفكر راشد يشد من قوتهم وعزيمتهم على الصمود أمام الخصوم من غير المؤمنين، ويربطهم برباط الأخوة ويفتح لهم طريق العمل الصالح، ويعرفهم بالثواب والعقاب وما يرضي الله وما يسخطه، وأن مرضاته موصلة إلى الجنة ومخالفته مفضية إلى النار، وقد اختار الله جلت قدرته طريقة الوحي إلى موسى بأن جعله كليمه، يكلمه الله فيسمع كلام ربه ويعمل بما أمر به ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وكانت هذه المواعدة من الله تعالى لموسى بأن يكون على جبل الطور بسيناء ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه: ٨٠] ليتلقى من ربه التوراة كاملة وفيها التشريع الذي ينظم حياة بني إسرائيل، وقد ذكر أن الثلاثين يوماً هي شهر ذي القعدة وتمام العشرة من أيام ذي الحجة وكان الكلام في نهايتها من رب العزة والجلال لموسى أي - وفق هذا القول - في يوم النحر، وقد ورد في سورة البقرة ذكر الليالي الأربعين مجملة ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة] وذهب موسى إلى الموعد ومكث هناك ثلاثين يوماً يتعبد ربه ويصوم فتغيرت رائحة فمه - خلوف فم الصائم - فاستاك فأمره الله بصوم عشرة أيام أخر لكي يكلمه وعليه أثر العبادة وهي خلوف فم الصائم عند ذلك كلمه ربه فحصل عند موسى شوق عارم دفعه أن يطلب من ربه رؤيته ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ فكان البيان بعدم قدرة موسى أو أي مخلوق على رؤية الله في الدنيا، فطبيعة الإنسان الدنيوي لا تحتمل ذلك وكان البرهان المقنع من رب العالمين، بأن ينظر موسى إلى الجبل الضخم من الصخر الأصم في شموخه وتحديه لعوامل الزمن والشمس والريح والمطر فقد



تجلى الله للجبل فكانت النتيجة تصدع الجبل وتهشمه إلى ذرات رملية وقد ورد في الحديث الذي رواه أنس وصححه الحاكم أن النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال هكذا وأشار بأصبعيه ووضع إبهامه على أنملة الخنصر، بمعنى أن التجلي كان بهذا المقدار فكان هذا الاندكاك من الجبل فكيف بالتجلي الكامل؟! لأضحت الأرض هشيماً أوَ يطيق مثل هذا الإنسان؟ فسبحان من دلنا على وجوده بصفاته وبديع خلقه، وأما موسى فقد خر صعقاً من رؤية الجبل وهو يندك وينهار وأغشي عليه مدة ثم أفاق وقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ من بني قومه وإلا سبقه مؤمنون كثر، وكانت توبته عن جراءته في هذا الطلب وأنه تمنى ألا يكون قد طلب الرؤية، وقد ذكر العلماء أن الرؤية ستكون في الآخرة، وأن أهل الجنة سيرون ربهم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى الجنة ونعيمها، والزيادة هي رؤية الله تعالى، وفي الحديث عن جرير بن عبدالله قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال: **إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا**» أخرجه البخاري ومعنى لا تضامون: لا تشكّون ولا يشتبه عليكم وعنى بالصلاتين الفجر والعصر.

وبعد الإفاقة جدد الله تعالى لموسى الاصطفاء والنبوة واختصه بكلامه دون واسطة مناً منه وفضلاً ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف] فقد كان التكليف من قبل في إرساله وأخيه إلى فرعون ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وهنا على جبل الطور ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ كان الاصطفاء والتكليف نبياً على بني إسرائيل وهو بمثابة تجديد العهد له ورضا عنه ليبدأ رسالته بقوة، ثم أيده بالتوراة كتاباً منزلاً من عند الله فيه تفصيل الأحكام ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ وقد نزلت التوراة على موسى دفعة واحدة في ألواح نفيسة من زمردة خضراء أو ياقوتة



حمراء وقيل عددها سبعة، فهي كلام رب العالمين الخالد لا تنمحي مدى الدهر ولا تبلى مع الزمن فيها هدى ونور وتفصيل كل شيء من الأحكام وأمور الحياة، لذلك وردت في الآية كلمة «شيء» مرتين للتأكيد على شمولية التوراة للأحكام وأمور الحياة، وقد أمِر موسى أن يتمسك بدعوته بقوة لأنه على الحق وألا يستمع للمعارضين وأهل الزيغ والانحراف، كما أوصاهم ربهم بأن يأخذوا بأحسنها، وهل في التوراة أحسن وأقل حسناً؟ كلام الله كله حسن ولكن المعنى أن يعملوا بصريحها ومُحكمها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] ثم قال ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ بمعنى أنه سيصف لهم النار التي هي دارهم ومستقرهم كأنهم يرونها رأي عين، ولقد تغيب موسى عن قومه أربعين ليلة وهذه مدة طويلة، صحيح أن هارون كان معهم، ولكنه وصف بأنه كان ليناً رفيقاً بقومه متأنياً أضف إلى أن القرار كان بيد موسى أما هارون فكان بمثابة النائب له ولهذا كان موسى قلقاً على مصير قومه متشوقاً للعودة السريعة إليهم كأنما أحس بأن أمراً ما قد وقع عندهم وهو نبي يملك القلب الشفيف والرؤية البعيدة وهو الخبير بما عليه قومه، ثم زال الشك باليقين فقد أخبره ربه وهو في الطور ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ والآية تفيد بأن المواعدة كانت لموسى ولعدد من قومه المخلصين المختارين ولكن شوق موسى لهذا اللقاء جعله يتعجل ويخلف المختارين من قومه وراءه، وقد عوتب من ربه عن فعلته هذه فالله تعالى أراد أن يشهد عدد من خيرة بني إسرائيل هذا اللقاء لتقوية موقف موسى أمام قومه كي لا يتشكك أحد بصدق دعوته، تماماً كما كان يشهد الصحابة نزول الوحي على نبينا محمد ﷺ فوصفوه كما رأوه، وكان موسى حركياً دائباً غير متقاعس لذلك لم يبطئ في التلبية فسبق قومه ابتغاء مرضاة الله وخشية التأخير، وقد أزعجه بعد ذلك خبر فتنة قومه فحمل الألواح وعاد إلى قومه ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا



يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وهذا ما كان يحذر من حدوثه موسى بل لم يكن يتوقع مثل هذا الانحدار الخطير في العقيدة بعد كل ما رأوه من المعجزات والآيات التي ترسخ العقيدة في القلوب، رجع وهم يعبدون عجلاً من ذهب، وقد خدعوا بما له من خوار، ولكن ليس في هذا عذر لهم، كيف يعبدونه وقد صنعوه بأيديهم وهو من حليهم ولذلك عنفهم المولى ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؟ وهذا يدل على ضعف في التفكير وانحدار في العلم إلى حد الأمية، يعيشون جهلاً مطبقاً، فما ميزتهم على غيرهم من الأمم التي تعبد الأصنام؟ وبنو إسرائيل يقودهم نبي ويحيا بين ظهرانيهم ثم ينحدرون هذا الانحدار في العقل والتفكير، وأولئك الأمم الذين شاهدوهم يعكفون على أصنام لهم قد ضلوا وتاه تفكيرهم لبعدهم عن تعاليم الأنبياء وبنو إسرائيل ضلوا بعد غياب أربعين يوماً لنبيهم فأحدثوا بعده من الضلال ما فاق غيرهم من عبدة الأصنام فكيف يؤتمنون على الشريعة بعد موسى عندما يتوفاه الله، ولهذا فلا غرابة إن قيل عنهم فيما بعد بأنهم حرفوا التوراة، لكن العقلاء منهم الذين انجرفوا مع التيار الطاغي ندموا على ما وقع منهم ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وهذا تعبير قرآني جميل «**سقط في أيديهم**» فسر بالندامة والتحير، وقيل هو أشد الندامة والحسرة، فإن من يبلغ هذه الدرجة من الندامة على ما فعل من تقصير فإنه يلجأ إلى عض يده بشدة وقد لا يشعر بما يفعل لشدة انفعال النفس في التأثر من الخطأ الذي وقع فيه، إن هذا التعبير القرآني البديع يبدي لنا حال ذوي النهى النفسية الذين آبوا وتابوا مما وقع منهم وهو فظيع شنيع ما كان أن يحصل، لكن الشيطان له فعله وعمله في فتنة القلوب والنفوس والعاقل من يتخلص من حبائله ويعلن توبته وعودته الحميدة إلى الله فلا يقف عند العصيان وباب الله واسع فتحه على مصراعيه للتائبين، لذلك أتبعوا توبتهم وندامتهم بأن دلفوا إلى رحمة الله خاضعين خاشعين ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ فقد عرفوا الطريق فعادوا وقد خلعوا ما كانوا عليه من التيه والضلال ولبسوا ثوب التوبة



والعبودية لله مخلصين له ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ عاد وقد تملكه الغضب واشتد به حتى بدا في ملامح وجهه واحمرار عينيه، فلم يسلم على قومه، ولم يهش أو يبش كعادة من يغيب ثم يعود، بل بادرهم بالسخط والتعنيف ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ وبئس كلمة تستعمل للذم، لقد تركتكم على خير حال فما إن غبت عنكم انحرفتم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ تعجلتم سخط ربكم وغضبه، قبل أن تأتيكم تعليماته لتبسط لكم الشريعة وتبين لكم أسس التوحيد، لقد تصرفتم التصرف الخاطئ الذي تلامون عليه، ألم يكن فيكم صبر حتى أعود إليكم ومعي ما أنزل إلي ربي من الشريعة الغراء لنتبعها على هدى وعلم؟ قال هذا وهو في غاية الغضب ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه]، فكان عليه السلام ذا رأي حصيف وعقل كبير تصرف بحكمة إلى أن يرى موسى فيهم رأيه، وحين أشرف موسى على قومه ورآهم عاكفين على العجل يعبدونه امتلأ غيظاً واشتد أسفاً فألقى الألواح من يده ومال إلى هارون ـ وكان قد اعتزل القوم بعد أن تهددوه ـ وكأنه أراد أن يحمله مسؤولية ما حدث من انحراف، لأنه كان المؤتمن عليهم في غيابه وعليه ألا يدعهم ينحرفون، فصب جام غضبه عليه وأمسك برأسه يجره إليه وبلحيته تارة، وهذا تصرف الغاضب ـ ولم يكن موسى يغضب لأذية مسته في شخصه وإنما غضبه لهذا الانحراف العقدي وهكذا الأنبياء ـ ولكن الأخ الهادئ هارون شرح له الموقف وأعلمه أنه لم يكن ليرضى عما فعلوه وأنه حاول منعهم من ذلك لكنهم استضعفوه ووصل الأمر بهم إلى تهديده بالقتل إن وقف حائلاً دون رغبتهم، فلم تكن عندهم له مهابة كمهابة موسى القوي، وأثرت كلمات هارون بموسى، فقد بذل أخوه جهده ومن الخطأ أن يعامله معاملة الظالمين المخطئين أو أن يظن أنه جاراهم في عبادة العجل ـ معاذ الله ـ أن يكون فعل هذا ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم



بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه]، لقد اعتزلهم في هذه الفترة، كما بين له أن النزاع بين الأخوين يشمت بهما الأعداء الذين يتمنون هذا الخصام لأنهم بالطبع ضد الدعوة وإلا لما فتنوا بني إسرائيل بالعجل الذي صاغوه، وهنا رجع موسى إلى نفسه بعد الغضبة الفولاذية ورأى أن الأمر قد حدث وعليه رأب الصدع والعودة ببني إسرائيل إلى جادة الحق ومحاسبة من تسبب في هذا الشرخ الكبير ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ لقد كان نبينا محمد ﷺ أكثر الناس حلماً وكان يغضب إذا انتهك حد من حدود الله، وهكذا الأنبياء، وعلينا أن نعرف أن عبارة ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ رماها من الغضب دون شعور منه لأن ما شاهد أمامه من الارتداد وعبادة العجل لم يكن ليحتمله موسى ولم يقصد عدم الاهتمام بقدسيتها فهي كلام رب العالمين وحاشا لموسى أن يصدر منه هذا وأن يفضي غضبه إلى انتهاك المقدسات وهو الحريص على حمايتها واحترامها، فما مصير المتسببين في هذه الفتنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ وغضب الله معناه النار والعذاب في الآخرة، وهذا لمن عبدوه متعلقين به ومعتقدين ألوهيته، أما الذين تابوا وأنابوا فمغفرة الله واسعة ورحمته كبيرة لذلك أتبع الآية السابقة بما يفيد عفوه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف]، كما توعدهم الله بالذلة والصغار في الحياة الدنيا، فهذا جزاء الذين يفترون الكذب على الله ويقلبون الحقائق ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ وهنا لم ينسب الغضب لموسى بل استعار للغضب محرك آخر وأخرج موسى من دائرة الغضب المباشر، وهذه استعارة مكنية، ولكن الملفت هنا أنه لما أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة، وكانت لما أحضرها حافلة بالمعطيات من كل شيء فماذا حصل؟ إن إلقاء الألواح ساعة الغضب حطم بعضها فنسخ الله جزءاً كبيراً منها، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**أعطي موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها**



تبيان لكل شيء وموعظة ولما جاء فرأى بني إسرائيل عكوفاً على العجل رمى التوراة من يده فتحطمت وأقبل على هارون فأخذ برأسه فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع، وفي رواية سعيد بن جبير قال: «كانت الألواح من زمرد فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى والرحمة» وبعد هدوء موسى واسترجاعه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: ٨٦]، لقد ذكرهم بوعد الله لهم بالجنة إذا التزموا طاعته وتوحيده، وقال هل أنساكم طول العهد ما التزمتم به من الطاعة وهذا عهد؟ وموعود الله لكم قائم في حال التزامكم، فلم أخلفتم ما عاهدتموني عليه من الإقامة أثناء غيابي على الطاعة فنقضتم عهدكم، فعدت لأراكم تعبدون العجل ما أكثر تقلبكم وما أضعف نفوسكم لقد انحطت من عالٍ وفارقها شموخ العزة بالإيمان، لكن قومه سارعوا إلى تبرير فعلتهم ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ فكان ما حصل بغير إرادتنا حيث قادنا إلى ذلك أمر ظنناه من الدين ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ خرجنا من مصر ومعنا الحلي من الذهب الذي استعرناه من المصريين ورأينا أن هذا لا يحل لنا وهو وزر نحمله فقذفناه في النار تخلصاً منها، وهذا ما قاله لنا السامري بأن موسى تأخر عنكم واحتُبِس لأجل ما عندكم من الحلي، فجمناه ودفعناه إليه وقد وافق كرهنا للحلي ومحاولتنا التخلص منها هوى في نفس السامري فاستغل هذا الكره لما خطط له من الخبث فأخذ الحلي وقذفها في النار أمامنا ثم أخرج لنا عجلاً جسداً له خوار فقال: هذا إلهكم و إله موسى ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه]، وانطلت الحيلة على هؤلاء الجاهلين وخدعوا بخواره وهم حديثو عهد بالتدين وظنوا أن هذا من لوازمه، كما يفعل جهلة اليوم عندما يتمسحون بالأضرحة ويظنون فيها التقرب إلى الله وينسون العبادة الحقة من الصلاة وقصد الدعاء والتضرع لله وحده، فكثير منهم يترك اللب ويتبع القشور ويعتقدون فيها الأصل وهو جهل وبعد عن تلقي العلم الصحيح ﴿فَنَسِيَ﴾ لقد اتهم السامري موسى بأنه نسي مكان إلهه فراح يبحث عنه بينما هو مقيم بين

ظهرانيهم، وهنا التفت موسى إلى السامري بعدما لزمته الحجة وأشارت إليه أصابع الاتهام فهو الضال المضل الذي لعب بالعقول وفتن الألباب ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ ما الذي حملك على ما صنعت مخالفاً عقيدة التوحيد، كان فتى أوتي حظاً من الذكاء تبع موسى وهو من قوم يعبدون البقر، فظل هذا الأمر يلازمه ولم يتخلص منه فوجد فرصته بغياب موسى ليستجر بني إسرائيل إلى عبادة آلهة قومه الذين يقطنون في منطقة السامرة ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ رأى جبريل على فرسه التي وطئت بحافرها الأرض فتركت أثراً لهذا الحافر وهي من العالم العلوي ووقع حافرها على الأرض فيه سر الحياة فأخذ هذا الأثر وألقاه على العجل الذي صاغه من الذهب فدب به نوع من الحياة، ومن ذلك أنه أظهر صوتاً يشبه خوار البقر، ثم أردف قائلاً هكذا زينت لي نفسي هذا الفعل ففعلته، اعتراف فيه استهتار بالقيم يتكلم وكأنه ليس من أتباع موسى، فما كان من موسى إلا أن دعا عليه دعوة فريدة من نوعها يستحقها جزاء ما اقترفت يداه من تضليل المؤمنين ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا يقرب أحداً ولا أحد يقربه وهو نفي عن القوم لخطره ودرء فتنته وزجراً لغيره، فقد خلق الله فيه خاصية المباعدة، فهرب من الناس وهام في البراري مع الوحوش وكفى الله المؤمنين شره في الدنيا وله في الآخرة حساب عسير ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧] وبعد أن عرّفه قدر نفسه وأنه خرج مغضوباً عليه ثم بين له قدر هذا الله المصنوع وأنه لا يدفع عن نفسه ضراً ولا يجلب خيراً فحطمه وحرقه حتى أذابه قطعة واحدة ثم دقه قطعاً صغيرة ونسفه في البحر نسفاً، وبدأ التركيز أكثر على التوحيد ليصون به قومه من الانزلاق في مهاوي الشرك وسوء الاعتقاد ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه]، وعاد موسى إلى قومه بعد طرد السامري، وتلقينهم التوحيد ليبلغهم بأن الله قد عفا عنهم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة]، ولكن استثنى من العفو عدداً ممن



كانوا السبب في عبادة العجل حيث تقرر أن يطهروا أنفسهم بالقتل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة] فكيف تم هذا التطهير؟

وقد روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال موسى لقومه ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾، قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه عزَّ وجلَّ أن يقتلوا أنفسهم، وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، وجُعل للقاتل توبة وللمقتول شهادة، وتعددت الروايات مع اتفاق على أن القتلى سبعون ألفاً وأن الله تعالى قد تاب على الجميع.

➢ بنو إسرائيل لا يزالون في سيناء:

وتوالت الأحداث على بني إسرائيل في سيناء، فقد اصطحب موسى معه سبعين رجلاً من خيار قومه إلى جبل الطور ليعتذروا عن بني إسرائيل وما كان منهم من عبادة العجل وليسمعوا ويشاهدوا موسى وهو يكلمه ربه، وقال لهم موسى: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، وتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه، فقالوا لموسى: اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل غشّى الجبلَ عمود من الغمام، وقال موسى لمن معه ادنوا، ولما دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً لله فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم موسى،غير أنهم شكّوا بما حدث فطلبوا رؤية الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: علانية هكذا جهاراً نهاراً وهذا الطلب فيه جراءة على الله وقلة تأدب، فكان الرد عليهم حاسماً قاهراً ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] فماتوا

واحداً إثر واحد، فكان ينظر بعضهم إلى بعض وهم يموتون، وفي هذا ألم وتعذيب لهم وردع لمن خلفهم من التمادي في الضلال، ولما رأى موسى هؤلاء النخبة من قومه وقد حلت بهم مصيبة الموت، قام يبكي ويدعو ربه ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟ فاستجاب الله لتضرع موسى ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وهناك رواية ثانية عن عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم أن موسى عاد إلى قومه ومعه الألواح، قال لهم: إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه، فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا ويقول هذا كتابي فخذوه فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون، ثم أحياهم الله من بعد موتهم.

وهذه الرواية جيدة، فالعقاب كان لهذا التمادي في الباطل وطلب الرؤية بوقاحة واستهتار وإملاء لما سيكون عليه ظهور الرب كما يطلبون، ولكن أين طلبهم هذا من طلب موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ طلب محبة وشوق وخضوع لله لذلك كان الرد رفيقاً بموسى لا صاعقاً مميتاً.

➢ التيه:

وبعد ما مر بهم من الآيات عند جبل الطور وقويت نفوسهم وعقيدتهم كانت الخطوة التالية وهي الانتقال من سيناء إلى فلسطين وسكنى الأرض المقدسة، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى قوة وجرأة وتضحية، ففي الأرض المقدسة قوم من الجبارين الأقوياء وليس من السهل قهرهم.

كانت كبرى مدنهم أريحا، فقصدها موسى بمن معه من قومه، ولما اقتربوا منها أرسل موسى اثني عشر نقيباً من جميع أسباط بني إسرائيل ليأتوه بخبر الجبارين القاطنين أريحا، ويقال: أن أحد الجبارين وكان حطاباً يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب رآهم فقبض عليهم وحملهم كأنهم لعب صغيرة

وأخذهم إلى زوجته وقال لها: يريدون أن يقاتلونا ما أصنع بهم؟ هل أطحنهم برجلي، فقالت له: لا، بل أطلق سراحهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبي الله، ولكن اكتموهم وأخبروا نبي الله وهو الذي يرى رأيه، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق ليكتموه، ثم رجعوا فنكث عشرة منهم العهد وأخبر كل واحد منهم ذويه وعشيرته، ما عدا اثنان حافظا على العهد وهما يوشع بن نون وكالوب بن يوقنا فأخبرا موسى وهارون الخبر، وشجعا على غزو الجبارين، وهذا الخبر ذكر مجملاً في القرآن ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ولعل الذين جبنوا عن لقاء الجبارين وقتالهم بالغوا في وصف قوتهم ليعطوا لأنفسهم العذر المسوغ في عدم قتالهم ووصفوا حبة الرمانة التي يأكلها أحد الجبارين إذا فرغت يجلس فيها خمسة من بني إسرائيل وأن عنقود العنب عندهم يحتاج لخمسة من بني إسرائيل ليحملوه، وبهذا بثوا الرعب في قومهم، لكن موسى كان يصر على دخولهم مدينة أريحا تلبية لأمر الله، فبث فيهم الحماسة والقوة وذكرهم بنعم الله عليهم وانه ناصرهم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وهذا التذكير لم ينفع معهم وغلب جبنهم على النظر في عاقبة أمرهم، فعدم مطاوعة موسى في الجهاد هو إغضاب لله وعصيان لأوامره، بينما الإقدام في هذا الأمر يحقق لهم طاعة الله، ونصراً على الأعداء، وحسن الآخرة، ثم أعاد موسى عليهم الطلب ثانية في دخول مدينة الجبارين ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ لقد وعدكم الله الأرض المقدسة وهذا بابها من أريحا، والله كتبها لكم وما عليكم إلا العمل لنيلها وستنالونها إن شاء الله، فإذا تراجعتم وخفتم وانقلبتم على أدباركم فستكونون من الخاسرين والخسارة كبيرة خسارة التأييد من الله القوي العزيز وخسارة الأرض المقدسة وخسارة خيرات البلد ألا ترون أننا الآن في صحراء قاحلة؟! فماذا كان جواب الأغلبية؟ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ



وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ [المائدة]، هكذا يريدونها جاهزة خاوية من أبنائها وساكنيها، ومن هو الذي يترك وطنه إلا مضطراً أشد الاضطرار، فإن لم تكن هناك قوة ترهبه فلن يخرج من وطنه، ولكن أهل الجد والاجتهاد والتضحية والفداء لهم قول مختلف عن أقوال الجبناء الذين أحبوا عيش الذل والخنوع وكرهوا العزة التي لا تأتي إلا بالجهاد والتضحية والدماء والشهداء ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]، وهما من ذكرناهما آنفاً يوشع وكالوب، الفتح لا يكون بالأماني وإنما بالعمل ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ عليكم تلبية دعوة موسى بدخول الأرض المقدسة، وإلا لن تتمكنوا من دخولها، وكان الرفض من الغالبية ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ موقف لا رجعة فيه وتصميم أكيد لن ندخلها ما داموا فيها، أصابهم الضعف والخور وأثر فيهم الوصف المرعب للجبارين فهزموا نفسياً، ومهما بث فيهم من الحماسة وتقوية الروح المعنوية فإنهم مهزومون، ولذا فلن يفلح هؤلاء - حتى وإن تشجعوا - في اقتحام البلدة أو إحراز نصر على أعدائهم، لقد شعروا بالدونية والصغار، ولا بد من مرور أجيال سواهم يربون على الحمية والتضحية وبذل النفس في سبيل الله لكي يفلحوا في إحراز النصر على الجبارين وتحرير الأرض، ولما امتنعوا عن تنفيذ الأمر بدخول المدينة رفع موسى شكواه إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة] وبهذا فإن موسى عليه السلام بيّن تمرد بني إسرائيل على الأمر وأنه وأخاه سينفذان ما يطلب منهما، لقد دب الرعب في هذا الجيل وأصبح عندهم عقدة العماليق الذين لا يقهرون، ونسوا أن الله خالقهم وخالق العماليق وهو الذي يأمرهم بدخول المدينة، ولما كان منهم هذا الخوف وهو غير مبرر كتب عليهم التيه إلى أمد ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أربعون سنة من التيه والضياع كانت عقاباً لهم على جبنهم ورعبهم من العماليق،



وفي هذه السنين سيتغير جيل الخائفين وسينشأ جيل أقوى قلباً وصموداً، جيل يخرج من الصحراء القاسية ومن الترحال والتنقل والبعد عن المدنية الزائفة، لا تخيفه الأهوال، يقتحم المخاطر بجدارة مع رسوخ في العقيدة وتمسك بها.

➢ الحياة في التيه:

لم يكن عقابهم في التيه بقصد إبادتهم وإنما طبقاً لقانون الله في الأرض ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، فجيل الهزيمة سيدفع ثمن جبنه تيهاً وتشريداً ولكن سيخرج منهم الجيل الجديد الصلب، ولأجل هذا كان العقاب إجهاداً مع عدم استئصال، ولذلك سخر لهم ما يبقي على حياتهم، فالصحراء أرض قاحلة مع جفاف وحر في الصيف وبرد في الشتاء وندرة في الماء، فكان الماء المطلب الأساس عند بني إسرائيل، وهو في الصحراء مثار خلاف وقتال وصراع، ولكي لا يحصل هذا في بني إسرائيل فتتفرق كلمتهم فيزدادون ضياعاً إلى ضياعهم، كان الحل الأمثل إفراد كل عشيرة بمورد ماء مستقل ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة]، فكان لكل عشيرة عين ماء تخصهم، وبقي بعد الماء الطعام وما توفره الصحراء من طعام قليل وسكان الصحراء يأكلون مما تنتجه إبلهم وأغنامهم ولكن أنى لهم هذا وقد أتوا مع موسى من مصر بلد الزراعة والخضراوات؟! كما أخرج الله لهم الماء من الصخر ضمن لهم الطعام ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فالمن حلو المذاق يأتيهم من السماء كمثل الثلج حين هطوله ثم ينعقد كالصمغ فيأخذون حاجتهم ويذيبونه في الماء ويشربون شراباً لذيذاً، والسلوى طائر وسط بين الحمامة والعصفور لذيذ الطعم يأتي إليهم فيمسكون منها حاجتهم ولا يدخرون وبما أنهم ليسوا من سكان الصحراء ولم يجربوا شظف العيش فيها فكان لا بد لهم من بعض الرفاهية ريثما يتأقلمون،



فظلل الله عليهم بالغمام فكان يمنحهم البرد في الصيف والدفء في الشتاء، ثم جاء:

➢ الامتحان الثاني:

وهو دخول بلدة دون قتال - قيل إنها بيت المقدس وقيل أريحا - ولكن بوضعية السجود والذكر والدعاء ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ولكن بني إسرائيل لم يأخذوا الأمر بالجد، فغيروا وضع الدخول وحرفوا الذكر إلى استهزاء ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فكان الأمر أن يدخلوا سجداً باتجاه القبلة، وأن يقولوا حطة - دعاء بلغتهم بحط الخطايا - فزحفوا على مقعدتهم مولين أدبارهم للقبلة وهم يقولون كما ورد في الصحيحين: «حبة في شعرة» ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، والرجز العذاب وعادوا إلى عيش الصحراء والتيه في سيناء.

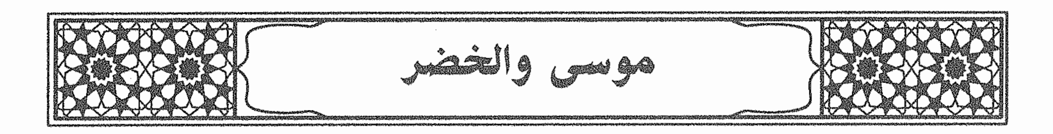
➢ تبديل الطعام:

واستمر عيش بني إسرائيل في التيه يأكلون المن والسلوى ويشربون من الماء القراح يظلهم الغمام من حر الشمس ولهيب الصحراء صيفاً ومن قرّها ولَسْعة بردها شتاء، والحكم عليهم في التيه أربعون سنة، وربما كانت القرية لو دخلوها كما أمروا ملاذاً لهم من عيش التيه إلى حين ولكن أنى لهم هذا وهم كلما عُفي عنهم من معصية وقعوا في غيرها، ومضت سنوات على إقامتهم في التيه ثم ملوا طعامهم من المن والسلوى فراحوا إلى موسى يشكون ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ لقد اشتهوا أكل الفقراء والمزارعين وملوا حياة الرفاهية، صحيح إنهم طلبوا استبدال الأعلى بالأدنى لكن هذا له دلالة مهمة على تحول بني إسرائيل إلى حياة الشظف وخشونة العيش وهو المبتغى من



هذه التربية، فثباتهم على المن والسلوى والحصول عليهما بلا تعب ولا كد معناه المراوحة في المكان والتعود على العيش الهنيء والسكون وقلة الحركة، لكن طلبهم الأكل مما تخرج الأرض أمر يبعث على التفاؤل في تحسن الحال وتقدمها وأنها في الطريق إلى مقارعة الأهوال ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.





موسى والخضر

ورد أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟

قال موسى: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، فهو الذي علمه وزوده به، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ ثم أوحي إلى موسى أنه يوجد من هو أعلم منك، وفي رواية «**إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك فقال موسى: أي رب فأين؟ قال الله تعالى: بمجمع البحرين، قال موسى: أي رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به، قال له: تأخذ حوتاً ـ سمكة ـ ميتاً فتجعله في مكتل وسر فحيثما فقدت الحوت فثم**»، وفي رواية: «**فحيث تنفخ فيه الروح**» أي حين تعود له الحياة فستجده هناك.

وكان التصوير القرآني لهذه القصة رائعاً فيه يظهر جهد موسى وجده في البحث عن هذا العبد العالم الذي قيل إنه الخضر عليه السلام، وهو نازل هناك في مجمع البحرين، فأين مكان مجمع البحرين يا ترى؟ إن منزل موسى عليه السلام كان في الطور تارة وفي صحراء التيه تارة أخرى متنقلاً في سيناء، فالمكان لا يبعد عنها فإما أن يكون عند الرأس المسمى الآن رأس محمد حيث التقاء خليج السويس مع خليج العقبة وهذا الراجح عندي وهو قريب من الطور لا يحتاج الوصول إليه من قبل موسى إلى سفر طويل، وقد يكون التقاء فرع نهر النيل (دمياط) مع البحر المتوسط كما ورد في سورة الرحمـٰن ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ۝٢٠﴾ عنى

بالبحرين الماء المالح مع الماء العذب، والمكان ليس بعيداً عن سيناء أيضاً، والآن بعد هذه الاستطرادة نرجع إلى الآيات القرآنية التي صورت هذا اللقاء التاريخي والتعليمي بين موسى والخضر، فقد استعد موسى عليه السلام لهذه الرحلة وأخذ معه فتاه يوشع، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ يبدو من هذه الآية التصميم والجد من موسى في طلب الخضر، إنه يقول لفتاه يوشع: لا أزال أجد وأدأب ولو طال بي المسير ولن أتراجع عن مقصدي إلى أن أبلغ مجمع البحرين ولو اقتضى أن أسير حقباً من الدهر حتى أبلغه، تصميم قوي وتوق للقاء ذلك العالم، يريد أن يعرف مدى تفوقه ومن أين له هذا العلم، شيء ما في داخله يدفعه للتعرف على هذا العالم العابد، سار مجداً حتى أرهق فتاه وكان مكلفاً بحمل الحوت في المكتل، ولعل الجو كان حاراً على ساحل البحر إن كان في المكان الذي ذكرناه - جنوب سيناء - وتتابع الآيات القرآنية وصف الرحلة ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ لقد وصلا إلى المكان المحدد لكنهما ناما من التعب وفي أثناء النوم دبت الحياة في الحوت فانطلق من المكتل إلى البحر وغاص فيه، فلما أفاقا تابعا طريقهما دون الالتفات إلى الحوت نسياناً له، وسارا حتى بلغ منهما الجهد مبلغه فجلسا يستريحان وهنا طلب موسى الغداء الذي كان في المكتل مع الحوت، فكان جواب يوشع ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ وقد ذكر أن موسى قد أوكل أمر الحوت إلى فتاه يوشع بأن يخبره إذا دبت به الحياة، فكان جواب يوشع هذا أمر سهل، لكنه نسيه في الوقت الذي كان ينبغي أن يتيقظ فيه، ومع ذلك قال أتذكر الصخرة التي استرحنا عندها فقد كان من أمر الحوت أن اتخذ سبيله في البحر سرباً وإني في منتهى العجب مما حصل وما أنسانيه أن أذكره لك إلا الشيطان، وفي رواية الطبري «**رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سرباً**» فلم يناقش موسى فتاه يوشع عن هذا النسيان الذي كلفهما مسيرة نصف يوم، لكنه سارع من الفرح



ليقول له: هذا الذي كنا نريده، فعادا أدراجهما يقصان أثر أقدامهما لكي يرجعا إلى المكان نفسه فهناك عند الصخرة مكان الموعد مع الخضر، عادا على الأثر وقد نسيا من الفرح ما كان اعتراهما من التعب وعند الصخرة كان اللقاء، وكان أثر انطلاق الحوت من المكتل إلى البحر ظاهراً فقد ترك في البحر سرباً مثل الطاق كأنما حفر في صخر، فقد جمد الماء على هيئته حين دخل فيه الحوت علامة واضحة على المكان لا لبس فيها، وحان منهما التفاتة فإذا رجل عند الصخرة مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر: وأنى يكون هذا السلام بهذه الأرض!؟ تعجباً منه لذكر السلام في أرض خلت منها هذه العبارة فعرف أن الذي ألقى عليه السلام غريب، قال: أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا، لقد وصف الله الخضر بالعلم ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ قيل: الرحمة: النبوة، والعلم: أطلعه الله على بعض المغيبات وهو ما سنجده في سياق القصة.

قال الخضر رداً على طلب موسى ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم، لكن موسى عليه السلام الذي تجشم مشقة السفر كان متلهفاً للتعلم ومتابعة الخضر والتتلمذ عليه، لهذا سيكون المتعلمَ المطيع لمعلمه الصابر على تحصيل العلم، فكان رده ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ وهنا شرط الخضر على موسى ألا يكلمه في أي أمر يراه أو أن يستفسر عنه وإنما ينتظر مبادرة الخضر لبيان الأمر من تلقاء نفسه ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وانطلق موسى مع الخضر على هذا الشرط، ولكن كما وُصف موسى بأنه ذو صراحة وحدة ولا يقبل أن يرى ما يخل ثم يدعه دون اعتراض أو استيضاح مما سيجعل هذه الصحبة هشة وقد تنهار في أية لحظة بالمفارقة ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ وبينما كانا على الساحل طلب الخضر من إحدى السفن نقلهما إلى مكان على الشاطئ الآخر فعرف ربانُ السفينة الخضرَ ولم يأخذ منه أجراً، ولما ركبا وأبحرت السفينة قام



الخضر إلى أحد ألواحها فنزعه فأحدث فيها خرقاً وعيباً أعطبها وعرضها للغرق، رأى موسى هذه المخالفة الخطرة فاعترض على ما فعله الخضر ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتريد بهذا الخرق أن تغرق ركابها لقد فعلت أمراً عظيماً فيه العجب وله خطره وضرره البالغ، أهذا جزاء ربان السفينة الذي نقلنا بلا نول؟ فعاد الخضر بتذكير موسى بالشرط بينهما ولم يزد على ذلك ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ فاعتذر موسى عن خرق الشرط وتعجله في النكير على ما فعله الخضر ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ كان ذلك نسياناً مني للشرط بيننا لهول ما رأيت وأرجو أن تعاملني باليسر، أي فخذني بالمسامحة لتعجلي ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ غلام صغير يلعب مع الغلمان ينقض عليه الخضر فيقتله بقطع رأسه، منظر كاد يطير له عقل موسى، وكان أشد إثارة لموسى من أمر السفينة وما أحدث فيها، ماذا فعل هذا الغلام حتى يقتل؟ أين أنا أبين قوم لا تحكمهم شريعة ولا منطق سليم ما هذا الذي أراه؟ لقد فقد السيطرة على ضبط نفسه إنكاراً لما رأى واستهجاناً لهذه الفعلة ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ فالمعروف في شريعة موسى أن النفس بالنفس، وهذا الغلام صغير بريئ لم يرتكب جريمة القتل فهو كالزهرة المتفتحة الزكية الطاهرة من ارتكاب الآثام فلم يقتل بهذا الشكل، فلم يحتمل موسى الصمت، بل لقد شدد في المعاتبة للخضر ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ فكان التذكير من الخضر بالشرط السالف والصبر على ما يرى وألا يسأل، وهذه المرة شدد الخضر في العتاب وقلة الصبر ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ فزاد حرف الخطاب «لك» وكان الاعتذار من موسى وفيه وضع لنفسه حداً نهائياً إن سأل مرة ثالثة تكون المفارقة ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ ففي العادة المتعارف عليها أن الفرص لا تزيد عن ثلاث، وهنا حسمها موسى من نفسه لعلمه بها فوضعها حداً لعدم صبره ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قرية صغيرة من قرى جنوب سيناء عرفت بالبخل أبى عليهم البخل أن يضيفوا هذين الصالحين بوجبة

طعام فخرجا منها جائعين ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ لكن الخضر وجد جداراً آيلاً للسقوط فشمر عن ساعد الجد وقوم بناءه، وهنا لم يستطع موسى عليه السلام أن يصمت تجاه هذا الموقف ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فلعل الجوع الشديد وبخل القرية دفعاه للاعتراض، فقد تمنى لو طلب أجراً أقله إطعامهما، فكانت هذه الثالثة ولا عود بعد الثالثة، فقال الخضر: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فأعلن المفارقة وأن الدرس التعليمي قد انتهى، ولكن لم يشأ الأستاذ أن يترك تلميذه بعد هذه المشقة ـ التي تكبدها ليتلقى عنه العلم ـ أن يخرج دون فائدة وإلا فما معنى هذا الدرس؟ أن يرى موسى ثلاثة أحداث جسام مستنكرة وقد حدثت ممن زكاه ربه بأن آتاه الرحمة والعلم! ثم يعود إلى دياره دون أن يفهم مدلول هذه الألغاز لذلك استدرك الخضر بعد أن ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ يجب أن تخرج بفائدة سفرك هذا إلي ولكيلا تعود أدراجك كما أتيت، فكان حل هذه الألغاز الثلاثة ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ فالسر أن السفينة قد عطلت لكي لا تتجاوز بعيداً في البحر فهنا الملك القرصان الذي يصادر السفن الجيدة ويستولي عليها وأصحاب هذه السفينة فقراء مساكين لا يحتملون مصادرة سفينتهم لفقرهم وقد تجوع عائلاتهم لهذه المصادرة، وربما يقتل هذا الملك الضال من في السفينة جميعاً، ألا يكون الخضر قد كافأ هؤلاء المساكين الطيبين الذين لم يأخذوا منهما أجراً رغم فقرهم؟ فكان أن حمى سفينتهم من المصادرة، يا له من سر عظيم من كان يدرك أن وراء إعطاب السفينة وإحداث ضرر قليل فيها من أجل تجنيب أصحابها الضرر الأكبر ولولا أن أطلع الله الخضر على ما كان سيحدث فجلى له ما غيب عن الآخرين لوقع المحظور، وأمام دهشة موسى مما أعطاه الله للخضر حل له لغز الحادثة الثانية ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ إذاً هكذا كان شأن هذا الغلام! فلم يكن نفساً زكية، وإنما مليء كفراً وحقداً، ولأن أبويه صالحان فقد عوضهما الله ابناً خيراً منه

عابداً باراً، ثم بين له حل اللغز الثالث ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وأصابت موسى الدهشة والعجب فكل سر أغرب من الآخر ولم يكن يخطر بباله أن يكون في هذه القرية رجل صالح وغلامان على طريقته سخر الله لهما الخضر ليحمي إرثهما من أبيهما الصالح في قرية ليست صالحة، وربما تمنى موسى بعد هذا التفسير ألا يكون استعجل ليرى مزيداً من العجائب، وعند الخضر لا شك مهام كثيرة أخرى سيقوم بها من هذا القبيل ولكن ليس مع موسى، فودعه لشأنه بعد أن قال له ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ كله بإيحاء من الله فليس هذا العلم الذي أعطانيه ربي هو من ذاتي فالفضل فيه راجع إلى الله، واعلم أن ما أعطاك الله إياه ليس عندي منه شيء وما أعطاني الله ليس عندك منه شيء فكل منا قد خصه الله بعلم.

وردت في هذه القصة أخبار منها:

ـ عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لقص الله علينا من خبره، ولكن** ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾».

ـ ذكر أن الخضر عبد لا تراه الأعين إلا من أراد الله أن يريه إياه، فلم يره من القوم إلا موسى.

أقول لو كان هذا صحيحاً فكيف ركبا في السفينة وورد أن ربان السفينة عرفه فلم يأخذ منه أجراً، وكذلك طلبهما الضيافة معاً من القرية فأبوا ضيافتهما.

ـ ورد بشأن الكنز أنه أحل لمن كان قبلنا وحرم على أمة محمد للآية ٣٤ من سورة «التوبة» ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والآية ٣٥.



ـ ورد في التفاسير عن مكان مجمع البحرين «بحر فارس» والروم» وقيل: «بحر الأردن وبحر القلزم» وقيل: مجمع البحرين «عند طنجة» فأما بحر فارس والروم فهذا بعيد حيث لا يوجد مجمع للبحرين بينهما ويدل هذا على عدم العلم بالجغرافيا لمن قال بهذا القول، وبحر الأردن وبحر القلزم، عنى بذلك البحر الميت والبحر الأحمر، وكذلك لا التقاء بينهما إلا عبر وادي عربة وهذا جائز، وأما عند طنجة فالالتقاء جيد بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، لكن كم المسافة بين سيناء وذلك الموضع وهذا يحتاج إلى شهور من السفر، وقد جرب موسى غياب أربعين يوماً عن قومه فعاد وقد عبدوا العجل فهل سيكرر الغياب الطويل ثانية؟ لقد احتاج موسى إلى يوم واحد للوصول إلى مجمع البحرين، فلم يأكلا من الحوت إلا وجبة واحدة وعندها كانا عند الصخرة ووجود الصخرة يدل على أن المكان هو الذي ذكرناه سابقاً «**عند رأس محمد**» حيث التقاء خليج السويس مع خليج العقبة مع البحر الأحمر، وقد ورد في الأخبار أن الملك الذي كان يصادر السفن هو «هرد بن برد» وهذا اسم عربي دليل حدوث القصة في المكان الذي حددناه، واسم الولد المقتول «جيسور».
الآيات من سورة الكهف [٦٠ ـ ٨٢].







بقرة بني إسرائيل

من القصص المثيرة للانتباه قصة البقرة، وقد وردت في القرآن الكريم في أطول سورة فيه وسميت السورة باسمها، وهي إضافة إلى كونها قصة تصف جانباً من واقع بني إسرائيل في حب المال إلا أنها أيضاً تكشف طبيعة المجتمع الإسرائيلي في الجدال العقيم، لنستعرض الآيات الكريمة التي تعرضت لهذه القصة.

بدأت القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ فلماذا هذا الأمر؟ ورد أن رجلاً كان في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم إليه ليلاً فقتله وطرح جثته في مجمع الطرق، وقيل على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله، فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى موسى عليه السلام، فقال موسى: أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه، فسأل الله عزَّ وجلَّ في ذلك فقال له بلّغهم بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فكيف وقع هذا الأمر عليهم؟ ولما داخلتهم الغرابة وعرتهم الدهشة، أخبرهم موسى عليه السلام أنهم إن أرادوا ظهور الحقيقة فعليهم تنفيذ الأمر الرباني، فانطلقوا إلى السوق لشراء بقرة وذبحها، وفي السوق حاروا في شكل البقرة المطلوبة ومواصفاتها، فعادوا إلى موسى يستوضحون ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ ما مواصفاتها الرئيسة ﴿قَالَ



إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ فكانت المواصفات من حيث السن، فهي ليست كبيرة وليست صغيرة بل هي عوان أي بينهما، أي الأمر أن تكون ذات سن وسط وهذا المطلب الرئيسي يكفي تحققه لاختيار البقرة المطلوبة، لكن بني إسرائيل اختلفوا في اختيار اللون فرجعوا إلى موسى يستفسرون ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فحدد الله لهم اللون وأصبح عندهم معطيات في السن واللون واقتربت الصورة أكثر وضوحاً ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ فليس لهم إلا البحث عنها في السوق أو تعميم هذه الأوصاف على الناس ليرشدوهم إليها، واستمر البحث، لكنّ بني إسرائيل طلبوا مزيداً من الأوصاف ليأتوا بها كما يحددها المولى تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وهنا ذكروا المشيئة معتمدين في البحث عنها على ربهم فهدوا إليها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فإذا بها بقرة مرفهة مدللة لا تعمل في حرث ولا في سقاية كالتي تشد على دواليب الماء ليس فيها عيب أو أثر خدوش أو إصابة كالتي تظهر على الأبقار العاملة في الحراثة وسقاية الماء أو الركوب وجر العربات فهي سليمة، وبعد البحث وجدوا هذه البقرة.

ورد في الأخبار أن مالك هذه البقرة يتيم الأب وكان والده قد ترك له بقرة ترعى في أجم وقال رب إني أستودعكها ولدي حتى يكبر، وتوفي الرجل الصالح وحفظ الله البقرة للولد وعندما بلغ الرشد أخبرته والدته بأن له بقرة في مكان كذا وطلبت منه أن يحضرها، فذهب وأحضرها، أراد بيعها على شرط موافقة والدته على الثمن، ونزل بها السوق وكان بنو إسرائيل يبحثون عنها فوجدوها مطابقة للأوصاف فدفعوا ثمنها أولاً كما هو واقع السوق لكن الفتى طلب المزيد وكلما زادوا في السعر طلب أكثر وعلم أنها مهمة فتمسك بها إلى أن دفعوا ملء جلدها ذهباً، فكانت معجزة حيث ضرب بجزء منها قتيل بني إسرائيل فأحياه الله ونطق باسم القاتل وكان ابن أخيه الذي تباكى عليه، وكانت نعمة على اليتيم فأغناه الله، وقد ذكر أن مالك البقرة امرأة وقيل رجل صالح ولب القصة كما ذكرت.



قارون وطغيان المال

كان قارون من قوم موسى ومن أبناء عمومته، لكنه نحى منحى آخر مغايراً لما كان عليه بنو إسرائيل، فكان ممالئاً لفرعون ومناصراً له بل وعيناً له على بني قومه لذلك حظي من قبل فرعون بالتكريم وإطلاق يده في العمل وجني ما يشاء من الأموال، كان يحاول أن يكون في الظاهر مع موسى ولكنه كان كارهاً له، وكان مع فرعون قلباً وقالباً لذلك قُرن اسمه مع فرعون وهامان فكانوا الثلاثي المغضوب الذين ذكروا في سورتين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر] ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت]، وسنستعرض ما ورد بالتفصيل بشأنه في سورة القصص، قال الله تعالى مخبراً عن قارون وثروته وغناه وكفره ونهايته: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ فكيف كان بغيه على قومه؟ قيل بالكبر والعلو وكثرة المال، ولكن الشيء الأهم من هذا والذي يحط من قدر الرجل هو الانضمام إلى عدوهم واتخاذهم سلماً يصعد عليهم ويحطمهم ليربح ويجني من وراء ذلك المكاسب، وهذا يؤكده قول من قال: إنه كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم، وقد جمع ثروته الضخمة من هذا العمل، وقيل كان يعمل بالكيمياء فجمع ثروته منها، ولكن هذا بعيد، والأول أقرب للصواب وقد جمع الله هؤلاء الثلاثة «فرعون وهامان وقارون» في آية واحدة لعملهم معاً في البغي والكفر والإجرام، لقد أقام قارون في مصر وفيها جمع



هذه الثروة، وقد حسد موسى على نبوته لأنه كان قريبه وربما كان أكبر سناً منه، حيث ورد أنه كان ابن عم موسى وهذا قول أكثر أهل العلم ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن إسحاق: كان عم موسى، و كان يسمى النور لحسن صورته، وقيل ابن خالة موسى، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ وقد قيل في حقيقة ثروته أقوال كثيرة، لكن ما أراه أنه خدم فرعون فنال منه المكافآت والأعطيات على جمع الضرائب من بني إسرائيل، والمال يجلب المال حتى ملك الكنوز التي لها أبواب ومغاليق يحتاج حملها إلى العصبة من الرجال الأقوياء الأشداء وقد اختلف في عدد العصبة والذي يناسب روح الخبر أن العدد يزيد على العشرة، وأما من فسر المفاتح بالخزائن فقد أبعد عن القصد لأن المفتاح معروف لفتح الأقفال ومن ذكر آية ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بأنها الخزائن فقد أبعد أيضاً لأن هذه الخزائن ليست سائبة وإنما لها مغاليق والمغلاق له مفتاح ومفاتح الغيب علم لا يعلمه إلا الله فهو الذي استأثر بهذا العلم ومفاتيحه معه فلا يقل أحد إني أعلمها فذلك مستحيل وهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]، وقد يكون المفتاح أداة أو آلة، وقد يكون معنوياً، رمزاً أو كلمة أو عبارة وفي هذا المعنى أخرج البخاري أنه قيل: «لوهب بن منبه أليس «**لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟**» قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك «وقصد هنا تتمتها «**محمد رسول الله**» والعمل بما قررته الشريعة، كما أخرج الترمذي وأحمد وأبو داود وغيرهم أن النبي ﷺ قال: «**مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم**» وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مفتاح الجنة الصلاة ومفتاح الصلاة الوضوء**» وعن أبي الدرداء قال: أوصاني خليلي ﷺ «**لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر**» أخرجه ابن ماجه، وفي العصر الحديث فإن المفتاح له معان متعددة، منها المفتاح الأداة الذي نحمله لفتح الأقفال، والمفتاح رمز رقمي أو بالحروف كمفتاح الشيفرة أو مفتاح



خط الهاتف الدولي والمحلي وهكذا، ولنعد إلى قصة قارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ والفرح هنا ليس بمعنى السرور، وإنما عنى بالفرح البطر والتعالي والكبر، وهذه من الأمور المنهي عنها، وفي الحديث الشريف الذي يرويه أبو هريرة «قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار»** أخرجه أبو داود، لقد بلغ الكبر والبطر عند قارون مبلغه فلم تعد تسعه أرض من تعاليه على الناس وبذخه والظهور بمظهر التميز واختراع أنواع الزينة والحلي والتجمل بها مع ملابس حريرية ذات ألوان مبهرة وتزيين لمراكبه بالسروج وأنواع اللجم المفضضة، فنسي بهذا آخرته التي لم يحسب لها أي حساب ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وهذا أفضل من التكبر والفرح والتعالي على عباد الله، أي اطلب رضاء الله بالعمل الصالح الموصل للآخرة بسلام، وأما الدنيا فلا مانع أن تأخذ منها حاجتك التي تقوي إيمانك وتزودك بالحسنات لترقى بها إلى عالم الصالحين ومنازل الأخيار ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ وعليك أن تذكر إحسان الله وفضله عليك إذ جعلك في هذا النعيم ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فالله سبحانه وتعالى استخلف آدم وذريته على هذه الأرض لإعمارها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، وعليه فإن الله لا يحب المفسدين المخربين لما خلق الله في الكون من جمال ومواد لا تحصى لخدمته وليسخرها بمعرفته وما فيها من خواص لتذلل له سبل الحياة، فالساعين لإفساد نظام الكون والعبث بقوانين الله في الأرض وسفك الدماء، هم من أكثر الناس بعداً عن رحمته وهم المغضوبون والمحرومون من جنته، فكان جواب قارون على النصح والإرشاد والعقلانية التكبر والتعالي ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ لقد نسب ما يرفل فيه من النعيم إلى شخصه وعلمه وجهده وكأن له من الأمر شيئاً، وأن من يمرض ويضعف ويهرم وينام ويتعب ويموت، هو مخلوق بادي الضعف، عبد تابع ليس له من الأمر شيء حتى وإن ملك

القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فهي لا تدفع عنه ألم ضرس ولا داء خطيراً ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام: ٤٦] ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ وهذا الخطاب له لأنه كما ذكر أنه كان متعلماً دارساً له اطلاع على تواريخ الأمم وما حدث لها من عقوبات لقاء الجحود والكفر، هو من قوم موسى سمع ما تناقله الرواة عن قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، وهذه الآية تدل على أن **هلاك قارون** في مصر كان قبل هلاك فرعون وإلا لكان ذكّره بمصيره كما ذكّر قوم شعيب بهلاك جيرانهم قوم لوط ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] ثم ختمت الآية بقاعدة عامة ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فلقد سُجل المجرمون في قائمة أهل النار «وليس بعد الكفر ذنب» فهؤلاء العتاة لا يطهرهم إلا النار لكثرة جرائمهم فعن أي شيء يسألون وكل جريمة مما اقترفوه تودي بهم إلى النار، وقد ارتسم على جباههم سمات الشر وأتوا سود الوجوه زرق العيون، وهذا قارون واحد منهم وسيأتي بعده ألوف بل وملايين من هذا الصنف الذي شط به البعد عن الأهلية والإنسانية؛ بل وقد يصدر عن الحيوان المفترس أحياناً ما يدل على وجود نقطة مضيئة بخلاف السجل المعتم المدلهم الطويل لعتاة المجرمين فليس فيه بارقة من ضياء، ولكن قارون ظل يحمل في أعماقه الكبر والتعالي والاعتداد بثروته التي يشمخ بها على الناس ويجعلها واسطته لتسليط الأضواء عليه لكي يلهج الناس بذكره ويبقى حديث المجالس، فلا يذكرون سواه، يتحدثون عن ثروته وبغاله وزينته ورفاهيته وجواريه، ويطغى الحديث عنه على كل حديث آخر ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ﴾ وقد وصفت هذه الزينة وصفاً حلق الخيال فيها إلى أقصى غاياته وتصوراته، فذكر من الذهب والفضة والمجوهرات والملابس والحرير الآلاف المؤلفة، وكأن كل شيء منها في العالم كان قد جعل في حيازة قارون، ومع كل هذا فقد وجد في هذه الدنيا من هو أكثر غنى من قارون ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ فلم يكن في زينته سبقاً في الزمن ولا الأغنى من الناس، وإنما كان



هذا مثلاً وأنموذجاً في بني إسرائيل ظهر فيهم للعبرة، فقد وصل إلى منتهى الآمال في الغنى والثروة أو كاد ولكن في هذه الدنيا لا يبقى الغني على غناه ولا الفقير المحروم على فقره وحرمانه فتغير الأحوال وعدم ثباتها من صفات هذه الدنيا فلا يغتر بها مغرور ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾، مثل هؤلاء المتمنين هم الكثرة الغالبة في كل مجتمع وعصر، ينظرون إلى الآخرين نظرة محدودة سطحية ليس فيها تعمق وتفكر، يحسبون كل غني محظوظاً وكل ذي سلطان سعيداً، وقد تكون الدنيا منتهى سعادتهم ولكن ما بال الآخرة ينساها هؤلاء، فهي الدار الباقية وفيها النعيم الدائم الذي لا يعادله نعيم في الدنيا مهما علا وارتقى وبلغ الأوج وما هو ببالغه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار، فيقال اغمسوه في النار غمسة، فيغمس فيها ثم يقال: أي فلان هل أصابك نعيم قط؟ فيقول: لا ما أصابني نعيم قط، ويؤتى بأشد المؤمنين ضراً وبلاء فيقال: اغمسوه غمسة في الجنة فيغمس فيها غمسة، فيقال له: أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء؟ فيقول: ما أصابني قط ضر ولا بلاء**» أخرجه ابن ماجه.

فلا يغتر أحد بالدنيا ومظاهرها وما عليه بعض ذوي الثراء الفاحش ممن يسمون مليونير وملياردير فالعبرة للعمل الصالح الموصل في نهاية هذه الدنيا إلى جنان الله ونعيمها فالدنيا عرض زائل مع ما فيها من شقاء أو سعادة، وقال المتمنون السطحيون الذين يحلمون أن يكونوا مثل قارون ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هكذا الحظ وإلا فلا، لسان حال السطحيين الذين لا ينظرون إلى الدنيا إلا من زاوية المال التي تعمي الأبصار عن الآخرة التي ينبغي أن لا تغيب عن كل ذي عينين، فما معنى الموت الذي يعمل عمله في الناس فليس فيه استثناء ولا تجاوز وإنما هو طريق الجميع «**كفى بالموت واعظاً لك يا عمر**» فهل تمنى المؤمنون أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون؟ لم يفكروا بقارون ولا بثروته، بل إنهم رثوا لحال قارون وما سيواجهه من مصير أسود ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ هذا هو موقف أهل الإيمان،

نظرة تعفف ذاتية ونصح للآخرين الذين ينخدعون بالمظاهر وتنبيه لهم بأن هذا الذي ترونه متبر زائل لا يساوي عند الله جناح بعوضة، وهو استدراج لقارون وأمثاله وأي استدراج، إنه من النوع القاتل المهلك الذي يغري صاحبه فيخرجه من حالة العقل المتزن المفكر إلى جنوح الفكر وهلوسة التصور، وضبابية الرؤيا، وإلى حالة من الاعتقاد بأنه فوق الإنسان وقدراته وأنه صانع هذا الثراء بعلمه وعبقريته، فهو يستطيع فعل أي شيء خارق، وهو لم يصل إلى هذا الحد إلا بذكائه الخارق الذي يفوق كل ذكاء بشري أو ما فوق البشري، حتى إذا وصل إلى هذه الطريق ولم يعد بمقدوره العودة إلى طبيعته الإنسانية جرده الله من كل شيء ونتفه وهو في عليائه وتركه مقصوص الجناحين ليهوى من حالق محطماً ذليلاً ضعيفاً وقد كتب عليه الشقاء الأبدي ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فكان جزاء التعالي والكبر الهوي والخسف لأسفل سافلين ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ فبعد النهاية الحتمية لقارون حيث الخسف وابتلاع الأرض له أمام جمع من الناس وهو يصرخ ويستغيث ولكن ليس من مغيث، الأمر أمر الله وليس من مغيث سواه، وفي قصة نهاية قارون حيث حفر بيده قبره ورد ما يلي: «أن قارون قد حقد على موسى لنبوته ومحبة بني إسرائيل له، فأراد أن يدبر مكيدة لموسى، فاستأجر بغياً وأغراها بالمال على أن تقول إن موسى زنى بها واتفق معها على أن تأتي في جمع من الناس يكون فيه موسى، ثم جاء قارون إلى موسى وقال له: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال موسى: نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا ـ ذاكراً أساسيات الشريعة، فقال قارون: يا موسى ما حد من سرق؟ قال: تقطع يده، فإن كنت أنت؟ قال: نعم، قال: فما حد من زنى؟ قال: أن يرجم، قال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم، قال: فإنك قد فعلت، قال موسى: ويلك! بمن؟ قال قارون: بفلانة، فدعاها موسى فقال: أنشدك بالله أنا فعلت بك ما يقولون؟ قالت: لا، وكذبوا ولكن جعلوا لي جعلاً ـ أجراً ـ على أن أقذفك بنفسي، فوثب موسى فخر ساجداً وهو يبكي،

فأوحى إليه ربه ما يبكيك يا موسى، قال: يا رب عدوك لي مؤذ أراد فضيحتي، يا رب سلطني عليه، فقال:ارفع رأسك فقد أمرت الأرض أن تطيعك، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فاضطربت الأرض فأخذت قارون ومن معه حتى بلغوا الكعبين، فقال قارون: يا موسى ارحمني، قال: يا أرض خذيهم، فاضطربت داره وساخت، وخسف بقارون وأصحابه إلى ركبهم وهو يتضرع إلى موسى، وموسى يقول للأرض خذيهم، فخسف به وبداره وأصحابه.

قيل: عاتبه ربه، قال: يا موسى ما أفظك، أما وعزتي وجلالي لو إياي نادى لأجبته، ولكن إرادة الله اقتضت عقاب قارون بالخسف فهو يتدهده في الأرض.

وردت هذه القصة في التفاسير بروايات متقاربة ولكن يعوزها الدقة في اختيار الكلمات، وعلى سبيل المثال (ناشد موسى البغي بالتوراة) وهذه العبارة تدل على أن القصة حصلت في سيناء لأن التوراة نزلت في سيناء، ولو أنه ناشدها بالصحف لكان أولى لأن الصحف نزلت على موسى في مصر وهي مرحلة أولية تتناسب مع دعوة موسى في مصر ثم تبعها في سيناء نزول التوراة كاملة، والآية فخسفنا به وبداره الأرض تدل على الإقامة في مدن وهذا يعني أنها حصلت في مصر، فالذي لا يعنيه المكان من المفسرين سرد القصة كما سمعها دون تدقيق سواء أورد فيها ما يدل على حدوثها في سيناء تارة أو في مصر تارة أخرى دون التنبيه لورود الأمرين معاً.

وهناك دلائل ترجح حدوثها في مصر أكثر من حدوثها في سيناء، منها:

ـ آية ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ وهي تدل على أنه هلك قبل فرعون، ولو هلك هو بعده لذكره به، على نهج ما ذكر به قوم شعيب ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

ـ أنه لم يرد في العبور أن قارون عبر ببغاله وذهبه، كما لم يرد له ذكر عندما صنع السامري العجل من الذهب ولكان الأولى أن يأخذ من ذهب قارون.

- لا يعقل أن يخرج قارون من مصر مع بني إسرائيل - وهو عين فرعون على قومه - دون أن يخبر فرعون بأمرهم، ونعلم أنهم خرجوا سراً.

- يوجد في مصر بركة ناتجة عن خسف سميت باسم قارون وهي المكان الذي كان يعيش فيه، فهي شاهد قوي.

- إن هذه الكنوز وما فيها لا تتحقق إلا في بلد مستقر وبنو إسرائيل زمن موسى لم يستقروا.

- ذكر في القرآن الثالوث البغيض معاً في آيتين «فرعون وهامان وقارون» دليل عملهم المشترك ضد موسى وقومه.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وصحا من تمنوا مكان قارون من أحلام اليقظة بعد ما رأوا الخسف عياناً، فقالوا والدهشة المشوبة بالخوف تتملكهم فأقروا أن الأمر كله بيد الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء ولا يعني كثرة الغنى لشخص ما أنه مقرب من الله محبوب ولا التقتير على شخص ما أنه مبعد من الله غير محبوب، فالإيمان والعمل الصالح الذي يختم به العبد آخرته هو الذي يقرر مصيره في الآخرة وأن القاعدة في هذه الدنيا: أن الكافر خاسر لن يرى الفلاح.

مثال ما ذكره أهل التفسير والسير نصاً:

ورد في كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني ما يلي:

«وقد أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: كان موسى يقول لبني إسرائيل إن الله يأمركم بكذا حتى دخل عليهم في أموالهم - أخذ منهم الزكاة - فشق ذلك على قارون، فقال لبني إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رجم، فتعالوا نجعل لبغي شيئاً حتى تقول إن موسى فعل بها فيرجم فنستريح منه، ففعلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن

كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، فقالوا قد زنيت، فجزع، فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذي **فلق البحر** لبني إسرائيل إلا صدقتِ، فأقرت بالحق فخر موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: إني أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت، فأمرها فخسفت بقارون ومن معه، وكان من قصة قارون أنه حصل أموالاً عظيمة جداً حتى قيل: كانت مفاتيح خزائنه من جلود تحمل على أربعين بغلاً وكان يسكن **تنيس**، فحكي أن عبدالعزيز الحروري ظفر ببعض كنوز قارون وهو أمير على **تنيس**.

تعليقي على النص: ورد أن موسى استحلف المرأة بالذي فلق البحر لبني إسرائيل، ثم ورد أن قارون كان يسكن في تنيس. ومن المعلوم أن تنيس في مصر وهي بالفعل مسكن قارون وكانت عاصمة الفراعنة أو من كبرى مدنهم، فبها خسفت الأرض، وهذا يدل أن قارون قد هلك قبل عبور بني إسرائيل البحر، فكيف يسأل موسى المرأة بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وهذا حدث في خروج بني إسرائيل النهائي من مصر.

من هذا التناقض يتبين أن المفسرين كانوا يجمعون المادة دون تمحيص حيث لم يكن يعنيهم سوى القصة دون النظر إلى مكان الحدث.

❊ ❊ ❊

وفاة موسى عليه السلام

ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عزَّ وجلَّ فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «**فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الكثيب الأحمر**».

يدل هذا الحديث على أن موسى لم يدخل الأرض المقدسة، وهناك أسئلة ترد، إذا كان موسى قد قضى في التيه أربعين سنة يتنقل مع قومه من مكان إلى آخر في هذه الصحراء، وقد حدثت في هذه الفترة أحداث، منها:

ـ قصة البقرة، حيث قتل ثري إسرائيلي معه القناطير من الذهب وقد اشتريت البقرة من ماله بملء جلدها ذهباً، فمن أين جمعوا هذا الذهب إذا كانوا في التيه وربهم يطعمهم المن والسلوى تعويضاً لهم عن التيه، علماً بأن الذهب الذي صنعوا منه العجل قد نسفه موسى في البحر ولم يُبقِ منه شيئاً.

ـ عندما سأل بنو إسرائيل موسى أنهم ملوا أكل المن والسلوى ويريدون البقل والفوم والعدس والبصل، كان الجواب ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ فأين نزلوا؟

ـ حين أمِر بنو إسرائيل بدخول البلدة ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ فهل دخلوا هذه البلدة أم حرموا منها لتبديلهم غير الذي قيل لهم؟ وما اسم هذه القرية؟

فقد ذكر عند أغلب المفسرين وأهل السير وأهل الكتاب أن موسى أمضى معظم السنوات الأربعين في التيه وتوفي قبل انقضائها فلم يستقر بمكان وكانت سيناء والنقب متنقلهم يعيشون عيشة البدو الرحل تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالآية تفيد حرمانهم من دخول الأرض المقدسة أربعين سنة، لكن ليس معناه ألا يسكنوا في أماكن أخرى ضمن دائرة سيناء والنقب، فمن المعلوم أن الأديان لا تكون بدوية، وإنما تحتاج إلى مكان حضري مستقر وهي سنة الله في الأرض والأنبياء جميعهم كانوا في تجمعات حضرية وليس موسى استثناء، وعليه فلا بد أنه استقر في مواضع في سيناء عند العيون التي انفجر منها اثنتا عشرة عيناً أو في الطور وربما في أريحا لأن المقصود بدخول البلدة المقدسة بيت المقدس وعليه فأريحا خارجة عن القدسية، والمعنى أن بني إسرائيل قد تاهوا في الأرض سنين عديدة وأكلوا من المن والسلوى ثم لما

تاقت نفوسهم للتغيير وطلبوا الخضار أمروا بالتمصر أي الاستقرار واتخاذ بلدة يقيمون فيها وبعد الإقامة حرموا من نعمة المن والسلوى ووكلوا إلى أنفسهم وجدهم وكدهم ومنها عملوا وكسبوا وجمعوا الأموال وحدثت عندهم المشكلات الاجتماعية التي كان يحكم فيها موسى بما يجده في التوراة، ومنها مشكلة القتيل الذي احتاج إلى بقرة وكان ثمن البقرة كما ورد ملء جلدها ذهباً. هذا رأي.

والرأي الآخر، أن موسى عاش إلى ما بعد انقضاء الأربعين وفتح أريحا أو بيت المقدس وكان على مقدمة جيشه يوشع بن نون، ثم حكم فترة من الزمن حصلت فيها تلك الأحداث ومنها قصة البقرة. وبهذا قال بعض المفسرين وأهل السير ومنهم ابن إسحاق لكن رد عليه بأن هارون مات في التيه قبل موسى بسنتين وكذلك موسى، وفي الحديث الصحيح أنه طلب من ربه أن يقربه إلى بيت المقدس، كما ذكر أهل الكتاب أن الذي خرج بهم من التيه هو يوشع بن نون، ويبقى أن الذي اخترناه من تأسيس مدناً في التيه أو مدينة كبيرة هو الراجح لكي تكون القصص التي حدثت والأموال التي جمعت واكتنزها الأغنياء لها المكان المناسب والحرف المناسبة كالتجارة والصناعة ولا تقوم مثل هذه الحرف إلا في تجمعات حضرية.

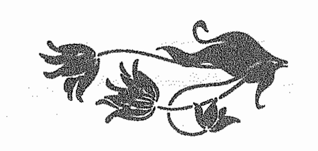


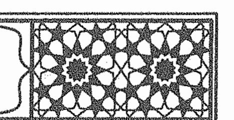
ما ورد من صفات موسى

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة ـ عيب في الخصيتين ـ وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا عن موسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على حجر كبير ساتر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإذا**

بالحجر يعدو بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر - هنا أداة النداء محذوفة أي ثوبي يا حجر - حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرّأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب]، وعن أبي هريرة، قال: «استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين - في قسم يقسم به - فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش - آخذ بقوة - بجانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله» وهذه ميزة كبيرة لموسى، وفي رواية ابن الفضل: «لا تفضلوا بين أنبياء الله».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي ﷺ يوماً، فقال: عرضت علي الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل: هذا موسى في قومه».





قصة داود عليه السلام

➢ طالوت وظهور داود:

نقل ابن كثير في تاريخه عن ابن جرير ما يلي: ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وسلط عليهم بدلاً من الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً، وكانوا إذا قاتلوا أحداً يكون معهم **تابوت الميثاق** «وكان يحتوي على صور الأنبياء أنزله الله على آدم، وفيه نعلا موسى وعصاه وعمامة هارون وقفيز من المن ورضاض من الألواح وطست من ذهب كان يغسل به صدور الأنبياء» فكانوا يُنصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له **أشمويل** فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء، وذكر أن مدة ما بينه وبين يوشع أربعمائة وستون سنة، وقد ذكر القرآن الكريم حالتهم هذه في سورة البقرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا

﴿قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ آية واضحة صريحة تصور الحالة التي وصل إليها بنو إسرائيل، والتفكك الظاهر والحماسة الهوائية التي تعلو وتشتد عند الكلام والخطب ولكن عند العمل ووضعِهم على المحك الأساس في البذل والدفاع عن المقدسات كانوا يتراجعون، فهم قوالون لا فعالون، ألم يقولوا لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة، ولما قضى جيل الهزيمة نحبه وحل محله جيل الشباب انطلقوا مع يوشع بعزيمة ماضية فدخلوا الأرض المقدسة، وبعد فترة هانوا وعادوا لطبيعتهم من جديد طبيعة الذل والمهانة والركون إلى الدنيا، وعندما فقدوا التابوت ضجوا لما حصل لهم من الذل فعادوا إلى رشدهم وطلبوا العون من الله فأرسل الله إليهم نبياً «أشمويل» ليبصرهم في أمرهم وما هم فيه من التيه والوسيلة التي فيها يخرجون من هذا المأزق والذل والهوان، فبادروا إلى نبيهم وطلبوا منه تعيين ملك عليهم يقودهم إلى النصر واسترداد التابوت وقال لهم: إذا فرض عليكم القتال أخشى أن تخلفوا العهد فتجبنوا عن القتال، فعاهدوه على المضي مع الملك في القتال لأنهم قد جرحوا كرامتهم وأخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم، لكن عندما كتب عليهم القتال فعلاً تراجع قسم كبير منهم وفقدوا حماستهم للجهاد، ويمضي القرآن يصور لنا القلة القليلة التي صممت على القتال، فماذا كان موقفهم إزاء اختيار نبيهم ملكاً يقودهم؟ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ فهذا اختيار الله لهم والله عالم بما يناسبهم وهذا من قبيل رحمتهم ومعاضدتهم لينقذهم من الوضع الذي هم فيه، فهو سبحانه أعلم بما ينفعهم وقد خفف عنهم مشقة الاختيار التي ربما لا تكون في صالحهم فاختار لهم ملكاً يقودهم إلى النصر، لكنهم رغم هذه المعاضدة لهم من الله لم ينسوا غطرستهم وجدالهم ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ كيف يصبح ملكاً علينا ولماذا وما الميزة التي أهلته لهذا المنصب؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ وكانت نظرتهم القاصرة إلى الملك أن يكون ذا مال وغنى وثراء، وهل يجلب الغنى والثراء النصر؟ فكان الرد على نظرتهم المحدودة ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي

﴿ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ تأكيد على اختيار الله له من أجل هذه المهمة، ومن ميزاته العلم وقوة الجسم، فهذه الصفات هي التي تنفع الحاكم ونظام الحكم، فالعلم للتعامل على أساسه مع الناس فلا تضيع الحقوق لأن الجهل يعد صفة ذميمة من شأنها تضييع الحقوق، والقوة مهمة جداً في قيادة الحرب والصمود أمام الأعداء ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ فلله الحق في أن يختار من يشاء للملك لأنه العليم بالناس وما مدى مقدرتهم وما جبلوا عليه، ثم أخبرهم نبيهم عن صفات أخرى لهذا الملك القائد يزوده الله بها ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ فقد سخر له عدداً من الملائكة فاستردوا الصندوق من العماليق وأعادوه جهاراً نهاراً محمولاً بين السماء والأرض والناس ينظرون إليه حتى وضعوه عند طالوت، عند ذلك فرح بنو إسرائيل واعترفوا بزعامة طالوت عليهم وأيقنوا بالنصر، وقال النسابون إن طالوت من سبط بنيامين بن يعقوب وقد كانت معارضتهم له لهذا، لأن المتبع عندهم أن الذي يتولى الحرب يجب أن يكون من سبط يهوذا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وقد رأوا هذه الآية واطمأنوا لها وعقدوا العزم على السير خلف طالوت وقتال الجبارين ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ ويصور القرآن الكريم خروج طالوت بجنوده الذين جمعهم من بني إسرائيل لقتال العدو وقد زادوا على خمسين ألفاً، ثم وقف فيهم خطيباً لكي يمتحن إرادتهم وصمودهم ومقدار صبرهم على لقاء العدو، وأخبرهم أن الله سيبتليهم بنهر يعبرونه وهم عطشى وعليم ألا يشربوا منه لامتحان صبرهم على الشدة والبلاء، والذي سيشرب من هذا النهر سوف يرسب في الامتحان وبالتالي سيحرم من المشاركة في الجهاد، والذي يصبر ولا يشرب فسيمضي مع طالوت لجهاد الأعداء واغتفر لمن يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه، فماذا كان مقدار الصبر عندهم؟ ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ إن من لا يصبر على العطش لهو أكثر فقداً للصبر على ما هو أشد

كبذل النفس، وكان نتيجة الامتحان أن سقط فيه الأغلبية فردهم طالوت وبقي معه القلة المخلصة التي اكتفت بالغرفة من الماء فكفتهم وبارك الله لهم فيها فلم يظمؤوا وكان عددهم **ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً** ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ واجتاز النهر مع القلة المؤمنة وهو يرى فيهم الكفاية للصبر الذي أبدوه، ولكن هذه القلة على الرغم من صبرها وأنها وهبت نفسها لله وهي تطلب الشهادة، فقد بدر منهم ما يفل العزم أيضاً عندما تقابلوا مع جيش العدو ورأوا كثرته عدة ورجالاً ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وهنا تكلمت الصفوة من المجاهدين بأن الغلبة ليست بكثرة السلاح والرجال وإنما بالإيمان وتأييد الله للمجاهدين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين أي الموقنون بالحساب والآخرة وأن مردهم إلى الله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا هو أصل الاعتقاد بالله؛ التوكل والظن الحسن بالله وأن كل شيء بيده ينصر من يشاء ويؤيد من يشاء ويبقى الصبر في المعارك أساساً قوياً، ويعني الثبات مهما اشتد الخطب في المعركة واستحر القتل فإن الصبر مهم وقلة الصبر تعني الهزيمة والصبر حتى النهاية يعني النصر، وقد كان المسلمون يقولون في معاركهم: النصر لأصبر الفريقين ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ هذا هو موقف الثبات الذي لا تزعزعه الخطوب، موقف المؤمنين المتوكلين الذين يقرنون التوكل بالعمل فهم إلى جانب مباشرتهم للقتال لم ينسوا الاعتماد على الله والدعاء لاستجلاب النصر والاستعانة بالقوي القادر على دحر الأعداء، وهذا تعليم لكل مجاهد بأن لا يكون اعتماده على القوة الذاتية أو العدد أو العدة وإنما عليه أن يعد العدة حسب قدرته واستطاعته ثم يجعل توكله على الله، وأن يدعوه ساعة اللقاء ويتضرع إليه لكي يثبت أقدامه في حومة الوغى ومعترك الأبطال والدعاء إلى النزال، وأن ينصره على الأعداء، ما أجملها من كلمات وما أبلغها من عبارات ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ لكأن الصبر مختزن بخزائن الرحمٰن مثل الماء ثم يفرغه الله على

المجاهدين فيغتسل منه كل مجاهد ويُصبَغ به فما أحلاه من تشبيه ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فثبات الأقدام مهم في المعركة وعدم ثباتها معناه الفرار، ثم طلب النصر من العلي القدير صراحة لأنهم بحاجة ماسة إلى النصر، والهزيمة تعني تغلب أهل الكفر على أهل الإيمان وسيطرتهم على مقدرات البلاد وعيثهم فيها الفساد، ولكن إرادة الله مع المؤمنين ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ كان هزيمة منكرة للعدو قتل فيه طاغيتهم جالوت ذلك الجبار المخيف الذي سيطر بالعنف والقوة الغاشمة التي يستخدمها دون رحمة بأعدائه، ولكن الله تعالى سخر داود الفتى الشاب الذي كان في جيش طالوت وكان يحمل مقلاعاً فأطلق منه حجراً أصابت مقتلاً من جالوت فكانت نهايته ونهاية جيشه وسيطرتهم على جزء كبير من الأرض المقدسة، وهكذا عاد جيش طالوت ظافراً وعادت أيام بني إسرائيل للعلو والإقبال بعد فترة إدبار طويلة.

➢ ما روي عن طالوت:

ورد عن السدي أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً، وسمع داود طالوت وهو يحرض بني إسرائيل على القتال وقتل جالوت وجنوده ويعد بأن من يقتل جالوت فسيزوجه من ابنته ويشركه في ملكه، وكان داود يرمي بالمقلاع رمياً عظيماً، وبينما هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذني فإنك بي تقتل جالوت فأخذه، ثم حجر آخر ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة في مخلاته فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى المبارزة، فتقدم إليه داود فقال جالوت: ارجع فإني أكره قتلك فقال داود: لكني أحب قتلك وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في المقلاع ثم أدارها فصارت حجراً واحداً ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً فوفى له طالوت وزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه.

➢ ما قيل عن الزيغ الذي آل إليه طالوت:

ذكر المؤرخون نقلاً عن الروايات الإسرائيلية أن طالوت قد حسد داود وأراد قتله أو التخلص منه وأنه قتل كثيراً من علماء بني إسرائيل حتى

استأصلهم وطغى وبغى ثم عاد إلى نفسه وطلب التوبة، فأشار عليه نبي ذلك الوقت بأن يجاهد الكفار حتى يستشهد ففعل.

أشك في هذه الرواية فبنو إسرائيل اتهموا أنبياء الله بأكثر من هذا واتهام طالوت أسهل عليهم، ولا يعقل أن يصدر هذا من طالوت، فالله اختاره وجعله ملهماً فهو القائل لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ فهذا نوع من الإلهام أو الوحي المشابه لما أوحى الله به لأم موسى، فالله الذي زكاه وأيده بالمعجزات ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ثم بعد هذا يظهره الإسرائيليون بمظهر الطاغية الناقم وهم بهذا لا ينتقدون طالوت وإنما ينتقدون حكمة الله في اختياره، وكأنهم بهذا يقولون هذا الذي اخترته لنا على كره منا وزكيته، لقد كان رأينا فيه أصوب وكنا نتوقع منه هذا الارتداد، هكذا قاتلهم الله يريدون تشويه سمعة من زكاه الله عناداً وكفراً بالله، وأن تفكيرهم ومصالحهم هي الأهم وهي التي تصلح للحياة، فشريعتهم قانونهم الذي يؤمن مصالحهم وكفى.



أخبار داود عليه السلام

انتقل الملك إلى داود بعد مقتل طالوت وبنيه، وجمع الله لداود النبوة مع الملك، فأقبل الناس على داود يعلنون الطاعة، ولما اجتمع بنو إسرائيل على داود أنزل الله عليه الزبور كتاباً فيه تجديد للشريعة التي أتى بها موسى عليه السلام، وعلمه الله صنعة الدروع من الحديد وألانه له إما بتشكيله كما يريد معجزة له، وإما باستخدام وسيلة لإلانته كالنار التي تستخدم لهذا الغرض حتى اليوم، وكان داود حسن الصوت يتلو الزبور تلاوة رائعة بصوت يخشع له من يسمعه، حتى إن الجبال والطير تسبح معه أثناء التلاوة انفعالاً وخشوعاً ولذة عبادة وتسبيح، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص]، وهنا وصف دقيق لداود، من حيث حبه للعمل، ويده يدٌ صَناع، تعمل لكسب الرزق وحب

الإنتاج بما يفيد وإن أفضل رزق العبد من كسب يده، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**خُفف عن داود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده**» وفي سورة سبأ وردت هذه المعاني بأسلوب آخر اهتماماً وتوجيهاً وبياناً لما كان عليه داود عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ]، فالله أعطى داود هذه الميزة مناً منه وفضلاً، حيث أمر الجبال والطير أن تردد معه ما يتلوه من الزبور تهجداً وتسبيحاً، وفي الآية حث لداود وتشجيع له بأن الله معه في طلبه الرزق من خلال عمل الدروع وإحكام صنعتها ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ أي: اجعل الأمر في الصناعة محسوباً في غاية الدقة وحسن الصناعة فلا إفراط ولا تفريط، وهو ما نعرفه في صناعة اليوم المتقنة بحيث توضع كل قطعة في مكانها الصحيح حسب غرضها والجهد الذي تتحمله فيأتي كل شيء بشكل موزون، وهذا ما عنته الآية الكريمة ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ أي: اجعل القطعة الثقيلة القوية في المكان الذي يتعرض فيه المقاتل للإصابة الأكثر والأقوى والقطع الأقل قوة في المكان الذي يقل فيه التعرض للإصابة، وهذا أصبح قاعدة لصانعي الدروع فيما بعد فالرأس والعنق والصدر والعضدان أماكن تحتاج للحماية القوية بخلاف الظهر فقلما يتعرض للإصابة إلا إذا كان المقاتل فاراً وموليًا الدبر، فلو وضعت القطع على الدرع في كل الأماكن بشكل متشابه وموحد لثقل الدرع كثيراً إن كانت من النوع الثقيل ولضعف الدرع عن تأدية الحماية إن كانت من النوع الخفيف، فالله مَنَّ عليه وعلمه هذه الصنعة مع إتقانها ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء] وكان داود من العباد الزهاد رغم نعيم الملك ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ فكانت الجبال تسبح الله معه وذلك لحسن صوته وكان تسبيحه مساء وصباحاً ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ وكانت الطير تجتمع لهذا الصوت الحسن وتردد معه التسبيح، وذكر «الطبري» أن الله أمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح ولم يعط الله ـ فيما يذكرون ـ أحداً من خلقه مثل

صوته، كان إذا قرأ الزبور ترنو له الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها وإنها لمصيخة تسمع لصوته «أي من شدة انجذابها للصوت تستسلم لمن يأخذ بأعناقها ولا تقاوم، وكان داود شديد الاجتهاد دائب العبادة كثير البكاء، ولذلك كان الصحابة إذا أرادوا الانقطاع للعبادة من صلاة وصوم أوصاهم النبي ﷺ أن تكون عبادتهم مشابهة لما انتهجه داود فلا يزيدون عنه، لأنهم ربما لا يطيقون أن يفعلوا أكثر منه، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري أن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «أُخبر رسول الله ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت، فقال له رسول الله ﷺ: **أنت الذي تقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت؟** قلت: قد قلته، قال: **إنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر وقم ونم وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر**، فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله، قال: **فصم يوماً وأفطر يومين**، قال قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: **فصم يوماً وأفطر يوماً وذلك صيام داود وهو أعدل الصيام**، قلت: إني أطيق أفضل منه يا رسول الله، فقال: **لا أفضل من ذلك**» وأخرج البخاري عن عبدالله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: **أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**» هذا في النفل، أما الفرض فكما فرضه الله من صلاة أو صيام ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ بتأييده بالمعجزات الظاهرة الباهرة والقوة التي يتمتع بها والملك بما فيه من الجنود، ولهذا كان ملكه قوياً مستقراً يخشاه الأعداء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ ومن تمام نعم الله عليه أنه ملك نبي حكيم وقوله في المسائل التي تعرض عليه هو القول الفصل الصائب، وروي أن داود عليه السلام كان قد جعل له ثلاثة أيام؛ يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه للعبادة ويوم يخلو فيه لنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وقيل: له أربعة أيام: يوم لعبادته، ويوم لنسائه، ويوم يقضي فيه بين الناس ويوم لبني إسرائيل، وهكذا كان دهره، ولما أوتي من العلم والحكمة كان يعرف الفضل لمن سبقه من الأنبياء والمرسلين وكان يتمنى أن يمتحن بمثل ما امتحنوا به لينال مثل أجورهم،

ولكن الله تعالي كما ذكر في القرآن الكريم ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ومع ذلك يروي أهل السير أن داود طلب من ربه أن يمتحن لترتفع درجته، ومن خلال إيراد هذه القصة الطريفة يتبين لنا مدى الامتحان الذي خضع له داود، قال داود: يا رب ابتلني بمثل ما ابتليتهم به، وأعطني مثل ما أعطيتهم، قال: فأوحى الله إليه إنك مبتلى فاحترس، قال: فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل بصورة حمامة من ذهب حتى وقعت عند رجليه وهو قائم يصلي، قال: فمد يده ليأخذها فتنحت فتبعها، فتباعدت حتى وقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر أين تقع فيتبع أثرها، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فألقت شعرها فاستترت به، قال: فزاده ذلك فيها رغبة، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجاً، وأن زوجها بمسلحة كذا وكذا، فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث أهريا ـ اسم زوجها وكان في الجيش ـ إلى عدو كذا وكذا، فبعثه ففُتِح له، وكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، أشد منهم بأساً فبعثه ففتح عليه أيضاً، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه، فقتل في المرة الثالثة، قال: فتزوج داود امرأته فلما دخل عليها لم تلبث عنده إلا يسيراً حتى بعث الله ملكين في صورة أنسيين فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس أن يدخلا ـ فكان في يوم عبادته ـ فتسورا عليه المحراب، قال: فما شعر وهو يصلي إلا وهما جالسان بين يديه، ففزع منهما، فقالا: لا تخف إنما نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ فكيف يشطط وهو النبي الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب وفي حكمه وقضائه العدل والإنصاف؟ فقال: قصا علي قصتكما، قال أحدهما ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائة، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال داود: وهو كاره! قال: إذاً لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد ذلك ضربنا منك هذا وهذا ـ الأنف

والجبهة ـ فقال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأهريا ـ وذكر أن اسمه أوريا ـ إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته، قال: فنظر فلم ير شيئاً، فعرف ما قد وقع فيه وما ابتلي به، قال: فخر ساجداً فبكى، قال: فمكث يبكي ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، ثم يقع ساجداً يبكي، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه، وكان يقول في دعائه: «**رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلوف من بعده**» فأوحى الله إليه بعد أربعين يوماً، يا داود ارفع رأسك فقد غفرت لك، فقال يا رب كيف أعلم أنك قد غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء ـ وهو يعلم أن لأهريا حق شخصي لا يسقط ـ إذا جاء أهريا يوم القيامة آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دماً في قبل عرشك يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني! قال: فأوحى الله إليه إذا كان ذلك دعوت أهريا فأستوهبك منه فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنة، قال: يا رب الآن علمت أنك قد غفرت لي، قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه حتى قبض» وصور القرآن هذه الحادثة عن داود بأسلوب بديع مختصر ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص]، هذه الرواية هي من أفضل ما روي في هذه القصة عن داود وهي تنسجم مع مدلول الآيات لكن ورد أيضاً كلام فيها أنها ضعيفة وقال الألباني: والظاهر أنها من الإسرائيليات التي نقلها أهل الكتاب الذين لا يعتقدون العصمة للأنبياء. وبررها علماء آخرون أنها ابتلاء لداود ثم تاب فتاب الله عليه، وقال آخرون: ليس للقصة صحة وإنما أن داود تعجل فأصدر حكمه على صاحب التسع وتسعين نعجة قبل أن يسأله منساقاً إلى كلامه الأول وكان عليه أن يستمع من الخصمين. غير أن القصة تظهر سماعه من الخصمين. والله أعلم. وبعد قبول الله جلت قدرته توبة داود التي

يستحقها لإخلاصه فيها وبذل العزم على ألا يعود، جاءه الأمر الفصل من ربه ليلتزم تعاليم الله ويبتعد عن هوى النفس فإن هوى النفس يوقع في التهلكة ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

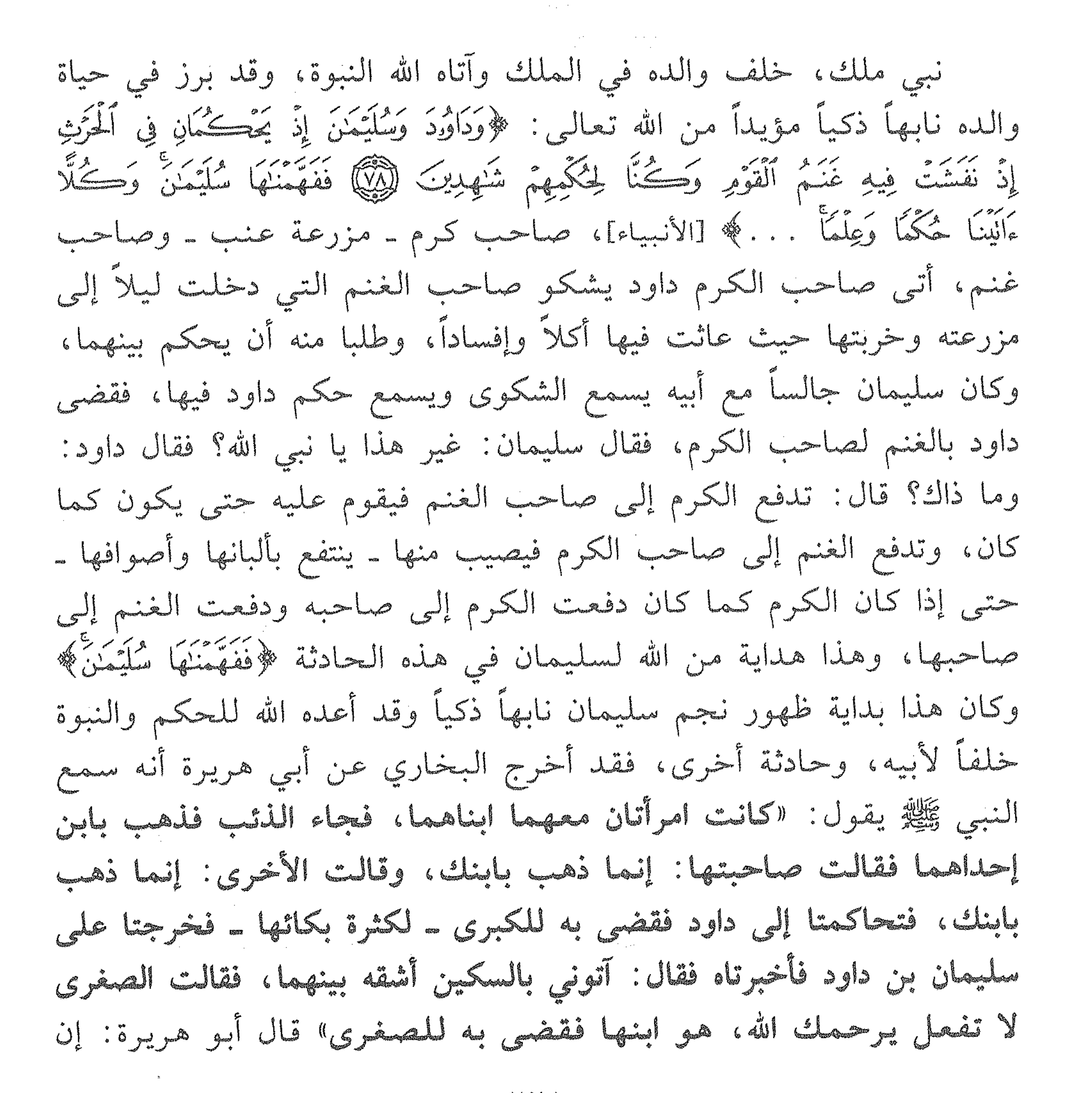
❋ ❋ ❋

وفاة داود عليه السلام

ورد في قصة آدم أنه استقل عمر داود فوهبه من عمره أربعين سنة، فكان عمر داود مائة سنة، وورد أن داود كان فيه غيرة شديدة على حريمه فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل أحد على أهله حتى يرجع، قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتفضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجّاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت مرحباً بأمر الله ثم مكث حتى قبضت روحه، فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس - وكان القيظ شديداً - فقال سليمان للطير أظلي على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض - وقيل كتمت من شدة تلاصقها الريح فضاقت أنفاس الناس - فقال سليمان للطير اقبضي جناحاً، قال أبو هريرة راوي الحديث: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله بيده، وغلبت عليه يومئذ المضرحية - أي غلبت على التظليل الصقور الطوال الأجنحة وهي التي تسمى المضرحية.

وقيل مات داود فجأة وهذا لا ينافي ما ورد آنفاً حيث قبض روحه وسط الدار من غير سابق إنذار ولا مرض. وروى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: «**لقد قبض داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا**» أقول لأن سليمان ابنه حكم بعده مباشرة على منهج أبيه وكان أيضاً قوياً مؤيداً.

سليمان بن داود



نبي ملك، خلف والده في الملك وآتاه الله النبوة، وقد برز في حياة والده نابهاً ذكياً مؤيداً من الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ . . .﴾ [الأنبياء]، صاحب كرم ـ مزرعة عنب ـ وصاحب غنم، أتى صاحب الكرم داود يشكو صاحب الغنم التي دخلت ليلاً إلى مزرعته وخربتها حيث عاثت فيها أكلاً وإفساداً، وطلبا منه أن يحكم بينهما، وكان سليمان جالساً مع أبيه يسمع الشكوى ويسمع حكم داود فيها، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله؟ فقال داود: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يكون كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ـ ينتفع بألبانها وأصوافها ـ حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها، وهذا هداية من الله لسليمان في هذه الحادثة ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ وكان هذا بداية ظهور نجم سليمان نابهاً ذكياً وقد أعده الله للحكم والنبوة خلفاً لأبيه، وحادثة أخرى، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى ـ لكثرة بكائها ـ فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: آتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها فقضى به للصغرى**» قال أبو هريرة: إن

سمعت بالسكين إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المدية. فسكوت الكبرى عن ذبحه بالسكين دل على أنه ليس ابنها، فأعطاه للصغرى.

من هاتين القصتين يتبين لنا مقدار الفهم والذكاء الذي يتمتع بهما سليمان عليه السلام، ومن الآية الكريمة ندرك التأييد الإلهي لسليمان ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ ليتابع خط والده صعداً من أجل بناء دولة قوية مؤيدة بقدرات خارقة منحها الله لسليمان وأيده بكل عناصر القوة لإرساء السلام والأمن في الأرض المقدسة ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ وهذا بيان وإعلان من سليمان لشعبه بأنه خليفة داود وأن الله تعالى أعطاه ميزة ما كانت لأحد غيره، فقد علمه الله منطق الطير ولغته والتفاهم معه أي لغة متبادلة بينه وبين الطيور كافة، وأن الله تعالى أعطاه كل شيء بمعنى كل ما يحتاجه الملك من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا فضل من الله بيّن ظاهر منّ الله به على سليمان، وقد أراد سليمان أن يحشد أمام الناس قوة جيشه ليؤكد لهم مدى القوة التي وهبها الله له ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ويعد هذا عرضاً عسكرياً لجنود سليمان يمرون أفواجاً أفواجاً من الإنس أولاً ثم تبعهم الجن ثم الطير وهي تحلق فوق سليمان تظله من حر الشمس تمر فوجاً إثر فوج على حسب أنواعها كأنها في هذه الأيام الطائرات التي تشارك في العرض العسكري، قاذفات ومقاتلات وسمتيات وناقلات جنود ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يتدافعون فيحجز أولهم آخرهم ليسيروا بانتظام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وصف دقيق لتحرك هذا الجيش العجيب الغريب في جيوش ذلك الزمان وهو معجز أيد الله به سليمان عليه السلام الذي يجمع بين الجن والإنس والطير وقوى أخرى معه، ولما مروا على واد النمل ـ قيل في الطائف وقيل في الشام ـ والظاهر أن بهذا الوادي تجمعات للنمل كانت قد انتشرت فيه بحرية وهي

آمنة بأن أحداً لن يمر من هنا إذا بالحرس من النمل يرصدون قدوم جيش سليمان تجاههم فأسرعت النملة المسؤولة عن الحراسة والمراقبة بإنذار بني جنسها لدخول المساكن خشية أن يدوسهن سليمان وجنوده عن غير قصد منهم ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وهذا اعتذار لطيف من النملة «جرسى» عن سليمان بأن ما يحصل منهم إن داسوا النمل فهو عن غير قصد فالجيش ماض في هذا الطريق وعلى النمل إخلاء المكان ريث مرور الجيش، لذلك تبسم سليمان من قولها ضاحكاً لفصاحتها، وما كان من سليمان إلا أن أتبع هذه النعمة على ما آتاه الله بالحمد والشكر ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كان عليه السلام دائم الذكر والشكر والله تعالى قال ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وكان ملكه في ازدياد امتد على بلدان كثيرة مجاورة للأرض المقدسة، ساعده في سعة هذا الملك ما سخره الله له من الريح التي كانت تحمله وتحمل جنده معه لغزو أي بلد يريد ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ وقد ضرب الله مثلاً لامتداد هذا الملك بقصته مع بلقيس ملكة اليمن.

❊ ❊ ❊

بلقيس والمعجزة الكبرى

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ كان الطير في خدمة سليمان ومن هؤلاء الطيور الهدهد وكان مكلفاً في البحث عن الماء وهذه ميزة أعطاها الله للهدهد فإنه يحلق فوق الأرض فيرى الماء الباطني فيدلهم على مكانه فيحفرون ويستخرجون الماء، وقد احتاج سليمان إلى الماء للصلاة وهو في البر بمنقطع من الأرض فطلب الهدهد ليبحث له عن الماء فلم يجده وتهدده لهذا الغياب خصوصاً إن كان غير مبرر ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال المفسرون عن هذا العذاب الشديد بأنه

سيأمر بنتف ريشه وتركه في الشمس وهذا بالنسبة للهدهد مؤلم جداً، وعلى الهدهد أن يبرر هذا الغياب بما هو مقنع لسليمان عليه السلام، وحضر الهدهد الغائب يخفق قلبه من الإعياء وكأنه كان في سفر بعيد ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وسأله سليمان عن سبب غيابه ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فسبحان الله كل هذه الإمكانات لسليمان فقد غاب عنه ما كان يحدث في اليمن جناح الوطن الأيمن، سليمان ينشر التوحيد وأولئك كانوا في شرك ظاهر، قل أيها الهدهد ماذا رأيت؟ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ لقد أتى بنبأ واف صادق جمع عنه معلومات مهمة تفيد في تكوين رأي متكامل حول هذا البلد، بأن هناك دولة سبأ في اليمن تحكم من قبل امرأة قوية ـ بلقيس ـ مطاعة في قومها وأوتيت من كل شيء من القوة والسلطان والجيش، ودليل قوتها وفرض نظامها أن لها عرشاً عظيماً من حيث الحجم والصنعة والترف في تزيينه بالجواهر واللآلئ والذهب والفضة، وغالباً فإن هذا يدل على رسوخ الدولة وقوتها وحضارتها، ولكن ما هو غير مقبول من أهل هذه الدولة أنهم كانوا يسجدون للشمس من دون الله، وهذا ما أزعج الهدهد فعاد لاهثاً عجلاً ليخبر سليمان بالأمر لأنه يعرف أن هذا لا يرضيه ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وهنا سكن عن سليمان الغضب تجاهه لكنه تأجج لِما سمعه عن دولة سبأ ومقدار هذا الانحراف الخطير عن المنهج الحق، وسجودهم للشمس من دون الله وسيطرة الشيطان على عقولهم وأفهامهم، فقال مستنكراً عليهم فعلهم: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وقرئ **﴿ما يخفون وما يعلنون﴾** كان الواجب عليهم أن يدركوا من خلال العقل والتفكير بهذا الكون وما فيه ليصلوا إلى عبادة الله المستحق للعبادة حقاً، والخبأ ما هو مخبوء ومخزون من مطر وعشب ونبات وكنوز، وهم على هذه الدرجة من العيش كان عليهم أن يدركوا الخالق القدير من آثار نعمه، أما عبادة الشمس فهذا فعل من لفهم الجهل وأطبق عليهم العمى والضلال ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ

﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وبعد سماع أقوال الهدهد أراد أن يتحقق من أقوال الهدهد أكان صادقاً أم كان ملفقاً لهذه القصة ومخترعاً لها ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ من بدأ المهمة فعليه أن يكملها، لذلك اختاره سليمان ليكون سفيره إلى قوم سبأ وأوصاه بأن يلقي إليهم كتابه ثم ينتظر رد فعلهم وتصرفهم إزاء هذا الكتاب، فألقاه إلى بلقيس والكتاب ممهور بالخاتم وهو في فخامته ملوكي يستدعي النظر فيه والرد عليه، والتزم الهدهد بتوجيهات سليمان ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ لقد عرفت بلقيس أن ما ألقي إليها هو كتاب كريم من ملك له شأنه وقوته، ويبدو هذا في شكل الخطاب ومضمونه، فلأول مرة تسمع بالتسمية وفيها قوة، لم يدع سليمان لنفسه، وإنما بدأ بذكر الله الرحمٰن الرحيم، ثم دعاهم إلى أن يأتوه مسلمين أي مستسلمين مذعنين لله بالإسلام وله بالطاعة والولاء، استمع الهدهد إلى عرض الملكة لفحوى الخطاب بموضوعية وطلبت من مجلس الأعيان والقادة إبداء الرأي ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ في هذا الأمر الخطير لم تشأ أن تنفرد بالقرار وإنما أشركت فيه أهل الرأي لكي يتحملوا معها المسؤولية، فكان جوابهم ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ كان في ردهم كياسة وحسن تصرف فقد عرضوا ما عندهم من قوة وجيش وشجاعة وعدم الخوف من دخول الحرب، فهم على جاهزية عالية من الاستعداد وهذا ما يخصهم، وأما القول الفصل فقد جعلوه في يدها وهم لا يخالفون لها أمراً فيما تتخذه من قرار، وهنا لم تشأ أن تورط قومها بحرب غير محسوبة فهي لا تعرف قوة خصمها وتخشى الزلة، لذلك لجأت إلى الدبلوماسية بعد أن قررت قاعدة مهمة في الحرب ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وبعد أن مهدت بما ستقوم به من مبادرة دبلوماسية تعرف فيها عدوها بشكل أوضح وتكسب الوقت لمزيد من الاستعداد، ولكي يكون في مبادرتها إقناع لقادتها أفصحت عما اعتزمت القيام به ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ

يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وقالت لمستشاريها: إن كان ملكاً فستعجبه الهدية ويقبلها منا ويكف عنا شره وإن كان نبياً فلن يقبلها، ولن يقبل منا إلا أن نتابعه على دينه، وغادر الرسل محملين بالهدايا، وأخبارهم قد وصلت سليمان قبل أن يتحركوا فالهدهد نقل له كامل التفاصيل، وجاء الوفد يحمل إلى سليمان الهدايا الفاخرة من نفيس الجوهر واللؤلؤ والذهب، قال للوفد ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ قال سليمان مخاطباً رئيس الوفد بعد أن مثل بين يديه: إن ما آتاني الله خير مما آتاكم، فانظر إلى قوتنا وآثار نعم الله علينا وعلى بلادنا وما عندنا من الجنود والأموال ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وعاد الوفد إلى بلقيس وقصوا عليها خبر سليمان ونبوته وما عنده من قوة وسلطان مؤيد من الله، فتأكدت أنه نبي لا تغريه الدنيا ولا المال، فأرسلت إليه بأنها قادمة مع وفد رفيع المستوى من رجال الدولة والمستشارين، وفي اليمن أنابت مكانها على المملكة وغلقت الأبواب على عرش ملكها ريثما تعود ووكلت به حراسة قوية وانطلقت إلى الأرض المقدسة تقابل سليمان الحكيم، ورصد سليمان قدومها وتتبع منازلها يوماً بيوم فكان الجن يأتوه بهذه الأخبار حتى إذا اقتربت من بلاده ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وكانت فكرة منه قوية يريد بها إحداث المفاجأة التي تثبت لها قوته وسلطانه وأنه نبي مرسل أعطاه الله من كل شيء فلا يقهره عدو، فاختار أخذ عرشها لضخامته وعظمه ولأنها وكلت به من يحفظه لها حتى تعود، فأخذه بهذه الطريقة وتركيبه في مملكته وهو على حاله دون تغيير به أو مساس بأركانه معجزة خارقة، وفيه من المفاجأة لها ما يجعلها تستسلم وتسلم هي ومن معها بلا تردد، وبوجود عرشها في بلده يجعلها تعيش أجواء بلدها فترة إقامتها عند سليمان فكأنها في بيتها ودارها ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾﴾ قوة خارقة مع تعهد بالحفاظ عليه كما هو، ولكن سليمان يريد إحضاره بسرعة أكبر ليعرف مدى جاهزية من يخدمه وسرعة إنجازهم للأعمال الخطيرة ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ وهـذا فـي سرعـة البـرق فـلا يتـصـور الإنسان سرعة تفوق ذلك، فأذن له ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾ فلم يحضره بهذه السرعة عفريت وإنما أحضره رجل مؤمن هو آصف بن برخيا كان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئـل بـه أعـطـى ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ وهنا أمر بإجراء بعض التغيير على عرشها غير المخل بشكله العام يريد بذلك امتحان ذكائها وقوة ملاحظتها ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ تـرى هـل نـجـحـت فـي الامتحان فطنةً وذكاء؟ وإلا لما كانت ملكة مطاعة في قومها، فمنذ ورد عليها كتاب سليمان تصرفت تصرف العاقل الحكيم، ولكن ما شأن عبادتها للشمس أليس من يفعل هذا يكون في درجة منحطة من سمو التفكير ورقي الروح وانـطـلاقـة الـعـقـل؟! ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ وقد منعها اعتقادها السابق وهو عبادتها للشمس من الاهتداء للإسلام لأنها ولدت في بيئة كافرة أباً وعشيرة، واليوم رأت البرهان والنور والضياء والمعجزات الباهرة التي لا تتحقق إلا بقوة قاهرة غالبة من خالق هذا الكون لذلك أقبلت على الإيمان وتركت ما كانت تعبد من دون الله، وأعلـنـت إسلامـهـا ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ كـان بناء في غاية العجب والابتكار والفن الحالـم فكانت مقدمته من زجاج تشف عن مياه تسبح فيها الحيتان لذلك لم تتمالك عندما وضعت رجلها على الزجاج إلا أن رفعت ثوبها خشية البلل، فأغضى سليمان الطرف وبادر ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ أي: لا تخافي البلل فهذا صرح أملس من الزجاج شفاف وكان هذا أيضاً من الأمور المبهرة لبلقيس لذلك لم تتمالك من شدة إعجابها ويقينها أنها بحضرة نبي مؤيد من الله إلا أنها أفصحت عن خطأ ما كانت عليه فأعلنت إسلامها ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهـذا غـايـة فـي

الاعتراف بالخطأ والتكفير عما فات بإعلانها الإسلام قناعة وعقيدة راسخة بددت ظلام السنين التي عاشتها مع شعبها وهي تظن أنها على طريق سوي، وهكذا دخلت اليمن في حظيرة الإسلام وشملتها دعوة التوحيد. الآيات من سورة النمل: ١٦ ـ ٤٤.

➢ حول ما ورد في هذه القصة

ـ تكلم المفسرون كلاماً كثيراً عن الريح التي حملت سليمان، ومنهم من قال بساط الريح، والأولى أن يقال كما وردت في النص: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ﴾ تأتي الريح وفق طلب سليمان فتحمل ما يأمرها أن تحمله وتمضي بالحمولة حيث أمرت، وأن غدوة منها في قطع المسافة تساوي سفر شهر على الإبل وكذلك الروحة، فالغُدُوّ: ما بين الصباح إلى الزوال، والرّوَاح: ما بين الزوال إلى الغروب.

ـ تكلم بعض المفسرين عن النملة التي حذرت قومها من جنود سليمان، فقالوا: اسمها خرسا، وقيل حرس، وقيل كانت رئيستهم وقيل كانت عرجاء وقيل كانت بحجم الذئب، وشطح الخيال بهم بعيداً وقد أخذنا من أخبارها قدر ما يفيد.

ـ قيل عن بلقيس: كان أحد أبويها من الجن، وهذا لا يصح، فإذا اختلف الجنسان فلا حمل من معاشرة أحدهما الآخر، وقد يحدث إذا تقارب الجنس كالحمار والحصان ينتجان البغل والبغل لا يخلّف بعضه من بعض، وكالذئب والكلب، ولكن هناك بول شاسع بين الإنس والجن ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وقيل: كانت كثيرة الشعر في جسمها ولهذا موه لها الصرح لتكشف عن ساقيها ويرى صدق ما أخبر عنه، ومر في الصحيح أنه غض بصره عندما كشفت عن ساقيها، وقيل طلب من أهل الصناعة أن يصنعوا له ما يزيل الشعر فصنعوا له «النورة» وهي مادة قلوية تعمل على إتلاف الشعر وقد طورت مع الزمن وهي في عصرنا تباع تحت مسميات عديدة لإزالة الشعر، وورد بخبر لا بأس به أن النبي ﷺ اطلى بالنورة وأخرج أحمد عن عائشة قالت: «اطلى رسول الله ﷺ بالنورة فلما

فرغ منها قال: «**يا معشر المسلمين عليكم بالنورة فإنها طلية وطهور وإن الله يذهب بها عنكم أوساخكم وأشعاركم**».

ـ كما قيل بأن سليمان تزوجها، وقيل بأنه زوجها أحد أهل الشرف في قومها «ذا تبع» ملك همدان وأعادهما إلى اليمن وجعله ملكاً على اليمن وكلف أمير جن اليمن ليأتمر بأمره فساعده وصنع له الصنائع في اليمن وبقي كذلك حتى وفاة سليمان.

❋ ❋ ❋

فتنة سليمان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ وكان أشق امتحان خضع له سليمان، وقد روي أنه غزا عدواً في إحدى جزائر البحر فقتل ذلك الملك وأسر منهم أسرى وكان من بين الأسرى ابنة ذلك الملك وكانت جميلة رائعة الجمال واسمها «جرادة» فاختصها سليمان لنفسه وتزوجها بعد أن عرض عليها الإسلام وقد قبلته على كره منها، ثم احتالت على سليمان بأن أظهرت نفسها حزينة، فقال لها: ما يحزنك؟ قالت: أذكر والدي وما كنت عليه عنده من العز والدلال، قال: وقد أبدلك الله خيراً منه ومن ملكه وأنت على الإيمان، قالت صحيح ولكني لا أستطيع نسيانه، فلو أمرت الجن أن يصوروه لي فيكون لي سلوى، فأمر الرسامين منهم فصوروا لها مثل أبيها وألبسته مثل ثيابه التي كان يلبسها، فكانت تسجد له مع غلمانها وتعبده على عادتهم الوثنية في غياب سليمان، وسليمان لا يدري ولم يكتشف أمرها إلا آصف بن برخيا بعد أربعين يوماً من عبادتها له، فأخبر سليمان فعاقبها وحطم الصنم، وخرج إلى البرية تائباً مما وقع يعبدالله ويستغفر لذنبه، ولهذا الخلل الذي حصل عنده عاقبه الله بسلب ملكه أربعين يوماً، فقد كان من عادته إذا دخل الخلاء نزع خاتمه الذي فيه ملكه وقوته وأودعه عند زوجته الأمينة، فأتى مارد من الشياطين بصورة سليمان منتحلاً شخصه ـ لأمر يريده الله ـ وطلب منها الخاتم فأعطته

إياه، ولما خرج سليمان من قضاء حاجته وطلب الخاتم أنكرته الأمينة وقالت أخذه سليمان، فعرف أنه فتن فاختفى عن الأنظار وعمل حمالاً على شاطئ البحر يحمل السمك للبيوت، وجلس الشيطان المارد على كرسي سليمان ومارس الحكم من خلاله وكانت أحكامه مغايرة لما كان عليه سليمان حتى أنكره الناس وتجمع كبارهم لإخراجه فهرب وألقى الخاتم في البحر فابتلعه حوت، وقع بأيدي الصيادين، ولما نقل سليمان الحيتان إلى أحد الأشخاص أعطاه أجراً واحداً منها ولما أراد شواءه شق بطنه لتنظيفه فوجد الخاتم فيه فلبسه وعاد له ملكه وطلب المارد حتى ألقي القبض عليه فحبسه في صندوق من الرصاص وألقي في البحر، وهنا طلب سليمان من ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ فأعطي ما سأل وعاد له ملكه أقوى مما كان.

تعليق: هذه القصة وردت عن روايات أهل الكتاب بأساليب متعددة اخترنا منها هذا الذي أوردناه، لكن ربط قوة سليمان بهذا الخاتم أمر غير معقول ولو كان الأمر كذلك لكان ذهب ملكه عندما كان يخلعه لقضاء الحاجة. فحكمه مؤيد من الله فهو ملك نبي فوثق الله له الملك والنبوة بتأييد من عنده وبجنود سخرهم له فأطاعوه بلا تمرد أو عصيان، وكانوا من الجن والإنس والطير والحيوان كل له عمله ووظيفته، ولكن فتنة سليمان التي ذكرها الله لعلها كانت من أجل الزواج من المرأة المجوسية التي عبدت الصنم في بيته فكان أن سلبه الله الملك لأيام فامتنعت الملائكة من دخول بيته بشأن الصنم وفقد التأييد إلى أن انتبه للتقصير وأزال الصنم فعاد له ملكه.

❋ ❋ ❋

سليمان.. القوة والترف

غاية القوة أن يعطى إنسان قدرات هائلة يمنحها الله له بتسخير قوى ظاهرة من البشر وأخرى خفية من الجن ووسيلة نقل خيالية لم ينتج البشر مثلها أو قريباً منها إلا في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين

حيث الطائرة «إيرباص» وهي طائرة ضخمة قد تحمل ألف راكب وفيها أسواق، هذا أقصى ما وصل إليه عالم الطيران اليوم. فقد سخر الله الريح لسليمان يحمل عليه ما يشاء من جنود وعتاد ويجري بإذن الله رخاء أي بسرعة معتدلة تعادل اليوم سرعة الطائرات النفاثة التجارية تقريباً، ولن أعتمد النقل عن الإسرائيليات وإنما أنقل نص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ إضافة إلى الريح التي أعطيت له ومعجزة لم يحصل عليها نبي من قبل ولا من بعد فقد سخر الله له عيناً تجري من النحاس المذاب ليعمل عنده العاملون أصنافاً من القدور والتحف والإنجازات الكثيرة من النحاس، وقد كلف الجن بالعمل دون توقف مع التهديد للمخالف بأنه سيذوق عذاب السعير ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] - كانت هذه صنعة الجن له، صناعات ثقيلة لا يقدر عليها البشر، وكان نحت التماثيل في شريعته جائزاً أو لعلها ليست من ذوات الأرواح، وفسرت المحاريب بالأبنية الكبيرة المرتفعة، والجفان بالأحواض الكبيرة التي يخزن فيها المياه، والقدور الراسيات الثابتات التي يصعد إليها بالسلالم، ولعل كل ما ذكر من أجل تغذية الجيوش الجرارة التي بحاجة إلى مثل هذه الأواني للطبخ، وبالطبع عليها الجن الذين يقومون بمثل هذه الأعمال الشاقة، وكل ذلك من باب إعداد العدة للجهاد في سبيل الله لذلك أتبعت بالأمر بالعمل بطاعة الله وشكره وهذه من صفات آل داود الشكر للمنعم على نعمه، وفي سورة ص ذكر لنعم أخرى أنعمها الله على سليمان ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ وكان مما آتاه الله الخيل الأصيلة وقد وصفت بالصافنات الجياد، فالخيل الأصيلة تقف على ثلاثة أرجل والرابعة ترفعها قليلاً وتركز على الأرض طرف حافرها، والجياد الأصيلة المعروفة النسب فهي سريعة لا

تسبق، ومع هذه الصفات العالية لخيل سليمان التي فتنته فأحبها واستوقفته كثيراً ليتمتع بجمالها، وهو مأخوذ بهذا الشغف بجمالها فقد صلى الظهر ثم راح يستعرضها إعداداً لها للجهاد، وكانت ألف فرس فما كاد ينتهي من رؤية معظمها حتى غربت الشمس وهو لا يشعر بذلك حيث فتن بمنظرها، ففاتته صلاة العصر، فاهتم للأمر وعلته كربة فظيعة إذ كيف ينسى الواجب تجاه ربه من أجل الانشغال برؤية الخيل وهو ليس بالأمر المهم، وكان بإمكانه التأجيل أو المتابعة بعد أداء الصلاة، ولكي يبطل هذه العادة راح إلى الخيل يجندلها بسيفه مسحاً بالسوق والأعناق، وكان هذا بمثابة الذبح لها فوزع لحمها على الفقراء فعوضه الله عنها بالريح التي تحمله وجنده أنى شاء، وعنى بالخير: الخيل الجياد.

ووصل منتهى مد سليمان بالقوة من رب العالمين أنه دعا أن يهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فاستجيب له، وكان من هذا المدد له الريح التي ذكرناها وتسخير الجن والشياطين وهم أعتى من الجن ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ فقد ذلل له الجن والشياطين يبنون له ما يأمرهم به على أحسن حال وبديع صنع ويستخرجون له كنوز البحار ليرصع به البناء والقصور فكان ملكه أبهة وعظمة، فليس هذا من باب الإسراف وإنما يدل على عظمة الخالق الذي أعد للمؤمنين جناناً تفوق ما صنعه سليمان، لذلك كافأه على هذه الأعمال التي أبرزت قدرة الله القادر بأن ﴿لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

➢ حبه للجهاد:

كان له من النساء مائه وقيل أكثر وقيل أقل إضافة إلى الجواري، وقد حدث نفسه مرة أنه سيطوف على نسائه المائة فيلدن له مائة فارس يجعلهم في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، وقد ورد هذا الخبر في حديث لأبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على**

مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله وفي رواية: ـ **ونسي أن يقول إن شاء الله ـ فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن إلا امرأة ولدت نصف إنسان** ـ وفي رواية: **ساقطاً أحد شقيه»** فقال رسول الله ﷺ: «**لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عزَّ وجلَّ»** يتبين من هذا الخبر حب سليمان عليه السلام للجهاد في سبيل الله فأراد أن يمده بأبنائه طمعاً بمزيد من الثواب وذلك لما أعد الله للمجاهدين في سبيله من الثواب الكبير، وقد استعمل الريح لنقل جنوده فغزا أقواماً عن يمينه وعن شماله وفي جزر البحر ويعتقد أنها قبرص وكريت، فكان عهده عهد جهاد مسخراً ما أعطاه الله من قوة في هذا السبيل.



بناء بيت المقدس

روي أنه لما عاد إلى سليمان ملكه بعد أربعين يوماً من سلبه الملك من قبل الشيطان «صخر» الذي احتال على أخذ الخاتم، قرر سليمان عليه السلام أن يبني المسجد الأقصى، وكان مكانه قد حدده داود عليه السلام، وذلك أن الناس في زمانه قد أصابهم طاعون جارف، فخرج بهم داود إلى موضع بيت المقدس وكان يرى الملائكة تعرج منه إلى السماء فلهذا قصده ليدعو فيه، فلما وقف موضع الصخرة دعا الله تعالى في كشف الطاعون عنهم فاستجاب له ورفع الطاعون، فاتخذ ذلك الموضع مسجداً، وروي أنه شرع في بنائه لإحدى عشرة سنة من ملكه وتوفي قبل أن يُتم بناءه، وأوصى إلى سليمان بإتمامه، وفي رواية أخرى أن سليمان هو الذي ابتدأ بعمارة المسجد، فبناه بالرخام وزخرفه بالذهب ورصعه بالجواهر، وقوي على ذلك بالجن والشياطين حتى غدا آية في الفن والجمال، وقد وقعت إشكالية عند عدد من المؤرخين بسبب الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض

أول؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قال: قلت ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلّه، فإن الفضل فيه** «**أي الصلاة في وقتها أينما كنت ففيها الفضل**»، وفي رواية الأعمش: «**فإن الأرض كلها مسجد**» من هذا الحديث كان للمؤرخين في بناء المسجد الأقصى أقوال: أفضلها أن أول من بناه هو النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو الصحيح وهذا ما يؤيده الحديث السابق، وأما فعل سليمان أو داود فكان من باب التجديد، ولا يخفى أن ما آتاه الله لسليمان من الإمكانات وتسخير الجن له يعد ما بناه هو البناء الأكمل والأجمل لذلك نسب إليه لذلك أشكل على بعض المؤرخين فقالوا: أول من بناه سليمان، وقد روي في بنائه من قبل سليمان الكثير وذلك من حيث الفخامة والإتقان والزخرفة والترصيع بالجواهر والتذهيب والنحاسيات والفضيات التي استخدمت في تزيينه، وروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عزَّ وجلَّ خلالاً ثلاثاً فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون الثالثة لنا: سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها**».

❊ ❊ ❊

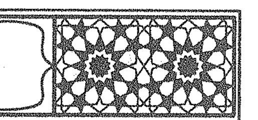
وفاة سليمان

كان من عادة سليمان إذا صلى الفجر أن يرى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت، فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: الخرنوبة، فقال لها: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، يعني بيت المقدس، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب البيت،

فقلعها ثم قال: اللّٰهم عمِّ على الجن موتي حتى يعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب، وكان يقيم في بيت المقدس للعبادة لمدد متطاولة، وبينما كان قائماً يصلي متوكئاً على عصاه أتاه أجله فمات، ولم تعلم الشياطين بموته مدة سنة حتى أكلت الأرضة عصاه فانكسرت فسقط على الأرض وهنا علمت الجن بموته، فلماذا كان الجن يتلهفون لموته؟ كان سليمان يشغلهم في أقسى الأعمال وأشقها يعملون بلا هوادة ومن يتمرد على العمل فإن سليمان يوقع به أشد العقوبات، فقد كانوا يعملون له كارهين عن غير رضا فقد سخرهم الله له فسيطر عليهم، لذلك ورد في القرآن حسرتهم أنهم لم يعلموا بوفاته إلا بعد حين ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ ولقد ورد في سورة البقرة ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ اتهم في مرحلة من المراحل أن سليمان يستعمل السحر في إدارة مملكته وقهر خصومه وسيطرته على الجن والشياطين، وذلك كما روي أن سليمان عليه السلام قد اكتشف أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع ـ يسترقون السمع ـ فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فيحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف وتمثل الشيطان صورة إنسان ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً، قالوا نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له: فادن، فقال: لا

ولكنني ههنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، فلما جاء الإسلام وذكر نبوة سليمان عارضته اليهود فأنزل الله تبرئة سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٢].





أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام نبي من أنبياء الله ينتسب إلى إبراهيم عليه السلام، نبي كان مجال دعوته في منطقة **البثنية** بين دمشق وأذرعات، أو ما يعرف الآن بمنطقة حوران، ومن نسبه يتبين أنه كان في الفترة بين يوسف وموسى وقيل عاصر يعقوب، كان دينه التوحيد والإصلاح بين الناس، وإذا أراد حاجة سجد لله ثم طلبها.

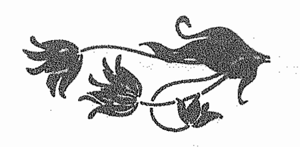
كان أيوب ذا مال من الأغنام والأراضي الزراعية والخدم والعبيد الذين يعملون فيها، ومع هذا الثراء فقد كان يتفانى في عبادة الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء]، وعليه فإن أيوب نبي من أنبياء الله موحى إليه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام] من هاتين الآيتين نجد أن أيوب قد ذكر في جملة الأنبياء بلا تفصيل لدعوته وقومه الذين عاش معهم، غير أن هناك آيات ذكرت أيوب في معرض الصبر على البلاء، فقد أخذت جانباً مهماً من حياته الشخصية مثلاً على صبر الأنبياء، ولعل هذا هو الأبرز في حياته، قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهذا بعد ثلاث عشرة سنة من الصبر على البلاء، فخرجت الشكوى من أيوب وهي أنة مريض أو مكلوم أوذي ضرراً بما لا يستطيع تحمله بشر، فما كان له إلا

الالتجاء إلى ربه بآهة محزون وتضرع مستجير ورجاء كَلٍّ، وهذه الأنات لا تخرج عادة من النبي إلا بعد مزيد صبر وقوة تحمل فإذا ما بلغ الأمر حداً لا يطاق من التحمل والصبر وبلغ «**الحزام الطبيين**» فإن النفس لا تفتأ تجيش بما في داخلها وتلجأ بقوة إلى بارئها فلا تجد في الكون إلا هو، وسع كرسيه السمٰوات والأرض فتفيض تعبيراً بالدموع والأنات شعوراً منها بالضعف والذل إلى الخالق لنيل الرحمة، فإذا أعلن الإنسان عن ضعفه أمام خالقه وأوكل أمره إليه حيث لا ينفعه شيء سواه، فلا الأصدقاء ولا المقربين ولا الدواء له نفعه، فكل شيء من هؤلاء قد أعلن عن ضعفه وامتنع عن إحداث الأثر الشافي في جسم ذلك العليل المتهاوي ضعفاً والذي يئن ألماً وتوجعاً وليس من سكن له إلا الله البارئ الشافي فقد انقطع رجاؤه من كل مخلوق إلا إلى الله رب العالمين، لقد عملت زوجته الشريفة التي هي من معدن الطيبة والنبوة خادمة في البيوت كي تطعمه ولما خشي أولئك الذين تعمل عندهم من نقل العدوى إليهم بسبب احتكاكها بأيوب منعوها من العمل، فلم تجد معها ما تشتري به الطعام لأيوب، فباعت إحدى ضفائرها وأحضرت له طعاماً طيباً، فحلف ألا يأكل منه حتى تخبره من أين حصلت على الطعام فكشفت عن رأسها وأشارت إلى مكان ضفيرتها فاشتد حزنه وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ رب العالمين الذي وهب الحياة للخلق جميعاً محسنهم ومسيئهم، فهل يتخلى عن أنبيائه وعباده الصالحين القانتين اللائذين العائذين به؟ حاشا وكلا ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس] لقد استجاب الله لدعاء أيوب وكشف عنه الضر وعوضه عن الصبر بأن أعاد له عزه وغناه وأهله ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤] لقد برهن أيوب على صبره ونجح في الامتحان ففاز وعلت مكانته عند ربه وارتقت درجته فكان في فترة البلاء مثال العابد الطائع الذي اتهم نفسه بالتقصير تجاه ربه فزاد من العبادة والتسبيح والتقرب إلى الله، وفي سورة «ص: ٤١» - تبين الآية أن ما شكاه أيوب كان من كيد الشيطان له بالتعب والإرهاق ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ

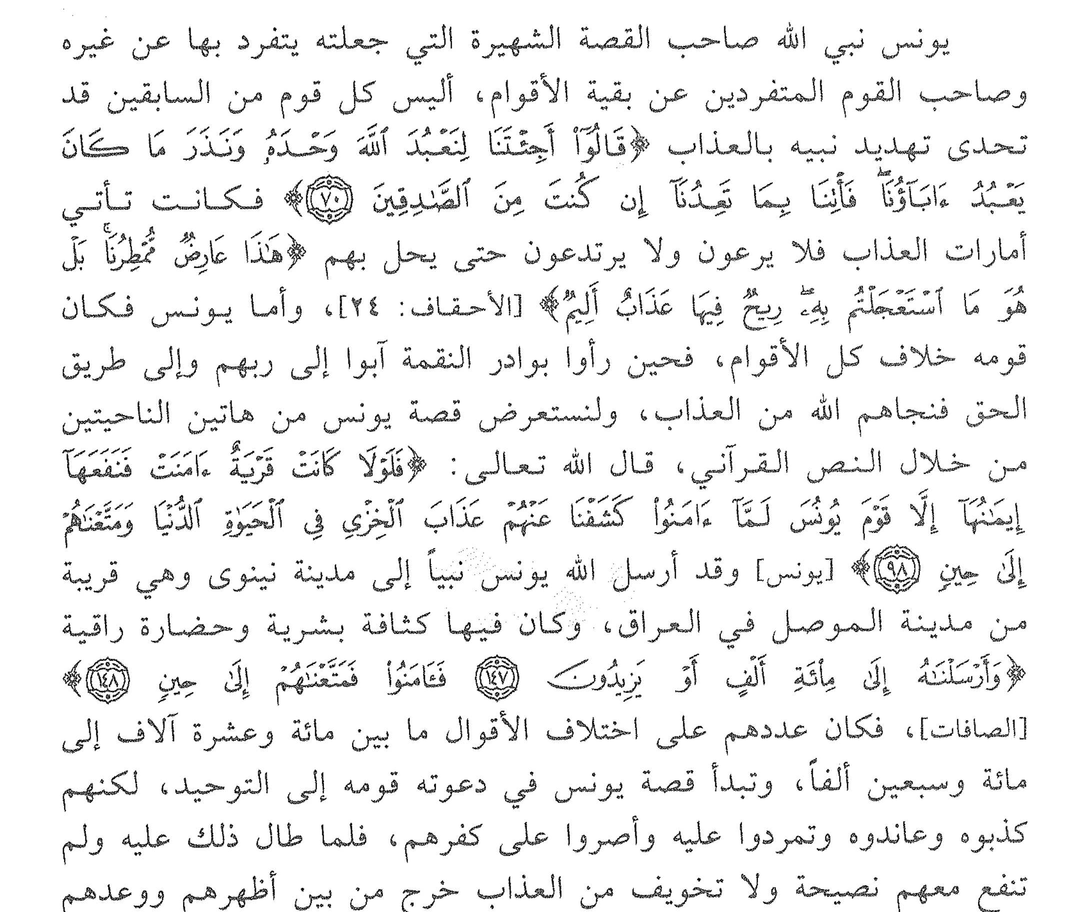
رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ وهذا ما جعل بعض المفسرين يقولون: إن إبليس لعنه الله استرق السمع لملائكة السماء فسمعهم يثنون على أيوب ويمتدحون عبادته وكثرة تسبيحه وذكره لله، فحسده اللعين على هذه المكانة والمنزلة التي وصل إليها، فطلب من ربه أن يسلطه عليه ليفتنه فكان له ما أراد، فالله الخبير العليم بعبده أيوب كان يعلم أن أيوب سينجح في الامتحان وأن إبليس سيبوء بالفشل ليريه نموذجاً من المؤمنين الذين يثبتون على الإيمان لقوة اليقين عندهم، فلا تثنيهم العقبات ولا تقلبات ظروف الدهر، فهم في طريق الإيمان ماضون، وهكذا بدأ إبليس يتفنن في إيذاء أيوب، فسلطه الله على ماله فأفناه فما كان من أيوب إلا الصبر والإقبال على العبادة، ثم تسلط على ولده، فبادوا، فصبر أيوب، ثم تسلط على جسد أيوب ونفخ في منخره فأوذي وأنتن جسمه حتى أخرجه قومه من بلدهم خشية العدوى، ولم يصبر معه سوى زوجته فقامت على خدمته، وكان قد آمن معه ثلاثة نفر فلما رأوه على هذه الحال بدأ الشك يأخذ مأخذه عندهم، وقال بعض الناس: لو كان لرب هذا فيه حاجة ما صنع به ما صنع، وأيوب صابر شاكر، لكنه خشي أن يكون فتنة يظن الناس في دينه السوء وفي غيره من الشرك الخير وهنا لجأ إلى الله بالدعاء خشية فتنة الناس أن يقيسوا حاله بالمقياس الدنيوي الخاطئ فاستجاب الله دعاءه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ أي: اضرب الأرض برجلك فيتفجر ينبوع حار فاغتسل بمائه فتشفى به القروح ففعل، ويتفجر آخر بارداً فاشرب فتشفى به الباطنة، ففعل ذلك فشفي مما كان فيه من علل بإذن الله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ فقد أعاد الله أولاده على أحسن صورة ثم وعده المزيد منهم فكان له ذلك، وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد ـ رف جراد ـ من ذهب فجعل يحثي ـ يلتقط ـ في ثوبه فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك**» وروي أنه كان له أندران ـ مخزنان ـ أحدهما للقمح وآخر للشعير، فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح ذهباً حتى فاض وفي أندر الشعير

فضة حتى فاض، وأنه أعاد زوجته إلى شبابها فولدت له ستاً وعشرين ولداً ذكراً، ولكن ما قصة زوجته الوفية التي لازمته وهو في أشد حالات المرض؟ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ قيل عن زوجته: إنها جاءته بزيادة عما كانت تجلبه له من الخبز فشك أن تكون باعت للحاجة عرضها، وقيل أقنعها الشيطان أن يذبح أيوب سخلة ـ أنثى الماعز وهي صغيرة ـ تقرباً إليه ليشفى، وهذا فعل الجهلاء الذين يستبطئون المرض فيحاولون فعل أي شيء ولو فيه مخالفة شرعية طلباً للشفاء ونسوا بأن الشافي هو الله، وقيل: باعت ذؤابتيها ـ ضفائر شعرها ـ برغيفين مضطرة لكي تأتيه بالطعام، وكان أيوب يتعلق بهما إذا أراد القيام، وقيل: أتاها إبليس في هيئة طبيب فقال: أنا أشفيه إذا اعترف بأني أنا الذي شفيته ولا أريد أجراً غير هذا، لأجل واحدة من هذه الأمور أو أكثر حلف إن شفاه الله أن يضربها مائة جلدة، ولكن الله علم إخلاصها وأنها لا تستحق هذه المعاملة فجعله يبر بيمينه بأن يحمل حزمة فيها مائة من الأعواد والحشائش ويضربها بها، وقد امتدح الله أيوب بأنه أواب رجاع إلى الله تعالى.

توفي أيوب بعد عمر مديد بلغ ثلاثاً وتسعين سنة، وكان معاصراً لنبي الله يعقوب، وقيل كان بعد شعيب، وقيل بعد سليمان.



النبي يونس



يونس نبي الله صاحب القصة الشهيرة التي جعلته يتفرد بها عن غيره وصاحب القوم المتفردين عن بقية الأقوام، أليس كل قوم من السابقين قد تحدى تهديد نبيه بالعذاب ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ فكانت تأتي أمارات العذاب فلا يرعون ولا يرتدعون حتى يحل بهم ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وأما يونس فكان قومه خلاف كل الأقوام، فحين رأوا بوادر النقمة آبوا إلى ربهم وإلى طريق الحق فنجاهم الله من العذاب، ولنستعرض قصة يونس من هاتين الناحيتين من خلال النص القرآني، قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس] وقد أرسل الله يونس نبياً إلى مدينة نينوى وهي قريبة من مدينة الموصل في العراق، وكان فيها كثافة بشرية وحضارة راقية ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات]، فكان عددهم على اختلاف الأقوال ما بين مائة وعشرة آلاف إلى مائة وسبعين ألفاً، وتبدأ قصة يونس في دعوته قومه إلى التوحيد، لكنهم كذبوه وعاندوه وتمردوا عليه وأصروا على كفرهم، فلما طال ذلك عليه ولم تنفع معهم نصيحة ولا تخويف من العذاب خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث، فتعجل وخرج من قريتهم غاضباً خشية أن يصيبه العذاب.

قال ابن مسعود: فلما خرج يونس من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح - ملابس من شعر غليظة - وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله عزَّ وجلَّ وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت - الرغاء صوت الإبل - الإبل وفصلانها - الفصيل ولد الناقة - وخارت البقر - الخوار صوت البقرة - وأولادها وثغت - الثغاء صوت الشاة - الأغنام وحملانها، فكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم - بحوله وقوته ورأفته ورحمته - عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها وهذا يدل على الامتناع وعدم وجود مثل هذه القرية من قبل ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهذه ميزة لقوم يونس أنهم آمنوا أجمعين لكن يونس لم يدر بهم بل غادرهم وهام على وجهه تاركهم لمصيرهم، فركب سفينة في نهر الفرات نازلة باتجاه البحر محاولاً الابتعاد عنهم إلى أقصى الحدود ومصمماً على مفارقتهم الأبدية دليل الصد والجدال العقيم الذي تلقاه منهم والقلوب القاسية التي صدت النور وأبت الانفتاح له، فقد غلفها ران صلد مصاحباً لفكر متحجر رافض للتغيير ومقيم على تراث الأجداد المنغلق، ألم يقل من كان قبلهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فكان هذا حالهم ومن أجل تيئيس يونس من إصلاحهم واستجابتهم لدعوته تكتلوا ضده وكلموه بصوت واحد لغته الامتناع والإباء عن تلبية دعوته، فما نفع معهم تخويف ولا ترغيب أو ترهيب فانطلق مغاضباً لهم هاجراً بلدتهم فقادته قدماه إلى سفينة البؤس والشقاء والابتلاء المخيف، فما كادت تنتهي من النهر لتدخل البحر وتركب موجه في رحلة على شواطئ الخليج حتى ثار البحر هائجاً على غير عادة منه في مثل هذا الوقت، ونادى منادي الربان أن ألقوا ما معكم من حمولة فالأمر خطير فقد ثقلت السفينة حتى غشيها الماء

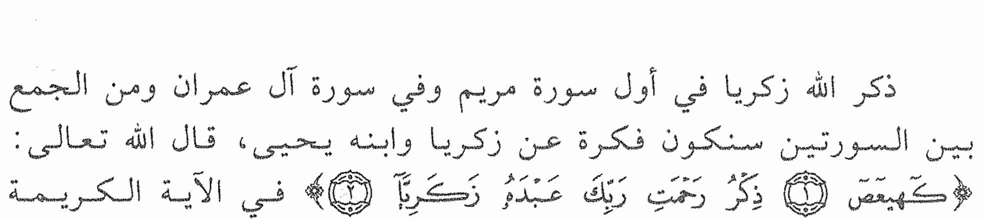
من شدة الموج فزادها ثقلاً إلى ثقلها، وألقى الركاب ما معهم من حمولة مستغنين عن المال فداء للروح، وألقيت الأحمال كلها والخطر لا يزال محدقاً بالسفينة والأمواج العاتية تتقاذفها ذات اليمين وذات الشمال، ويونس في عالم آخر سارح في فكره بالقوم الذين غادرهم متوعداً إياهم بالعذاب، ترى ماذا حل بهم؟ وهل هياج البحر هذا مقدمة لذلك العذاب الموعود لا بد واصل إليهم مدوياً مزمجراً مهلكاً، كل الركاب مرتبكون مابين مهموم ومحزون أو عامل باذل جهده لدفع الخطر بما يستطيع ولكن الحيلة في مثل هذه الظروف ضئيلة، سفينة أضحت رغم ثقلها كالريشة في مهب الريح وأي حيلة من هؤلاء الركاب للسيطرة عليها ليست بذات نفع، ومالهم إلا الالتجاء إلى الله وحده فبيده وحده إنقاذهم وأحس يونس بالخطر المحدق وانتبه من سرحان التفكير إذ طرق سمعه صوت الربان وهو يقول: جاء دور تخفيف الحمل من البشر، ولكن لا بد من إجراء القرعة ليتحقق العدل، يا الله ماذا حل بالسفينة؟ وفي هذه الأثناء كانت القرعة تجري والرجل الذي وقعت عليه القرعة كان يونس، أنت أيها الغريب اختارتك السماء لتلقى في البحر تخفيفاً للحمولة، وانطلقت كلمة من أحد المسافرين لا تلقوا هذا الغريب الطيب إني أشفق عليه، وأيده آخرون، فأعاد الربان القرعة فوقعت على يونس، وأعيدت للمرة الثالثة والنتيجة كما هي واضطر الربان أمام هذا الحظ العاثر لهذا الغريب أن يلقوه في البحر ويلقوا معه نحسه لكأن البحر لم يهج إلا لأجل هذا المصير الذي ينتظر يونس ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ تصوير قرآني رائع، بكلمات ذات دلالات بلاغية نزلت في مكانها المناسب فأنتجت عبارات عالية المعاني والبيان فيها الصورة المتحركة المعبرة، فكلمة «أبق» استعمالها العربي الغالب للعبد الهارب من مولاه، فكأنه هرب من المكان الذي كلفه فيه ربه ليقوم بالدعوة صابراً محتسباً، لذلك ورد أن البحر لما هاج بهذه الشدة غير المعهودة قال أصحاب السفينة: هناك عبد أبق من سيده ستظهره القرعة، فوقعت القرعة على يونس فألقي في البحر جزاء لهروبه من سيده، والفلك المشحون عبارة وصفت بها من قبل سفينة نوح،

دليلاً على حملها من كل صنف من البشر والدواب والبضائع، والمساهمة تقال عادة لمن يدخل في القرعة وقد غلب فيها حيث وقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهذا مبالغة في البلع لأنه بالنسبة للحوت لقمة صغيرة لا يحتاج لقضمه وتجزئته، وهو مليم: فقد أتى يونس أمراً يلام عليه من حيث هروبه دون إذن من ربه وربما هو قد لام نفسه ووبخها لما فعل فلقي هذه المشقة وهذا المصير، وروي أن الله تعالى منع الحوت من أكله أو كسر عظمه، أوحى إليه - كما أوحى إلى النحل - أن هذا ليس برزق لك، فكان الحوت بمثابة المستودع ليونس لذلك لما شعر يونس وهو في جوف الحوت أنه يتحرك ويتنفس استذكر ربه فسبح الله ومجده ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ وهنا تكمن قيمة التسبيح والتهليل وذكر الله حيث يغفل اليوم كثير من المسلمين عن الذكر والتسبيح والتعرف إلى الله في الرخاء لكي يتعرف عليهم في الشدة، وقد وصفت حالة يونس في سورة الأنبياء وهو في أحلك أيامه وأشدها خطورة ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وهو يونس عليه السلام، والنون هو اسم الحوت فعرف بصاحب الحوت الذي خرج مغادراً قومه دون إذن من ربه وكان خروجه غضباً لله وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله، فقد برم بقومه لطول ما ذكرهم به فلم يتذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وغاضبهم تاركاً قريتهم وهاجراً لهم وظن أن ذلك يسوغ، فعاتبه ربه عتاباً شديداً، تارة بقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وتارة ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ وتارة ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ لكن يونس أدرك خطورة فعلته ومقدار امتحانه الشديد فنادى وهو في جوف الحوت حيث حالك الظلمة مضافاً إليها ظلمة البحر وظلمة الليل بنداء مؤثر يظهر الضعف البشري والحاجة التي لا غنى عنها لأي مخلوق إلى رحمة الله ولطفه بعباده ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إقراره على نفسه بالظلم كان باباً ولج منه لشاطئ النجاة ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ تعليم لنا ولكل مخطئ أن يعلن عن هذا فيحصل على الاستجابة وتفريج ما

عليه من الهموم، قال الحسن: ما نجاه الله إلا إقراره على نفسه بالظلم، وعن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجيب له**» وقال أيضاً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى، قلت: يا رسول الله هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه**» ولما دعا يونس بهذا الدعاء نجاه الله من بطن الحوت فلفظه ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ وكان النبذ على شاطئ رملي لا ظل فيه ولا ماء، مكان قاحل تلفحه الشمس وعليك أن تتصور سواحل الكويت أو البصرة جفافاً وحراً وقد لفظه الحوت بعد أن أمضى في بطنه يوماً على بعض الأقوال وأياماً مابين السبعة والأربعين يوماً، لكن الأقوى أن الأمر لم يطل في بطن الحوت لأن الفاء تفيد التعقيب ومن حالته التي كان عليها عندما خرج من بطن الحوت هي بالطبع أكثر من يوم لأن الأذى قد نال من جسمه أي بدأ لعاب الحوت وإفرازاته الهضمية تؤثر في جلده فخرج في مرحلة ما قبل الهضم ولذلك سخر الله له شجرة من يقطين لتداوي جسمه ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح! قال: نعم، قالوا فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾**» وروي عن أبي هريرة قال: طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا يا أبا هريرة وما

اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء ـ وهو القرع ـ قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو قال من هشاش الأرض، قال: فتفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت،قال ابن مسعود: ﴿فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وحكمة إنبات شجرة اليقطين: أنها مناسبة لمن يكون حاله مثل حال يونس،فورقها كبير ناعم يصلح فراشاً وغطاء وهو لطيف في غاية النعومة لا يقربه الذباب وهذا أمر مهم فلو وقع الذباب على جسم يونس وهو في حالة من الرقة والحساسية لآلمه وأزعجه وربما يتمكن من إحداث قروح فيه تسبب له مضاعفات خطيرة وألماً لا يطاق، زد على ذلك أنه طعام يؤكل نيئاً ومطبوخاً، ولقد تجلت حكمة الله بهذا الصنع.

لقد امتدح النبي ﷺ يونس بن متى، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**» وقد ذكر النبي ﷺ يونس عندما ذهب للدعوة في الطائف وآذاه يومذاك أهلها فلجأ إلى حائط فجاءه عداس بقطف عنب ليأكله بناء على طلب سيديه ابني ربيعة عتبة وشيبة، فسأله النبي ﷺ: **من أي البلاد أنت**؟ فقال: من نينوى، فقال عليه الصلاة والسلام: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**» فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي**» فانكب على يديه ورجليه يقبلها ـ وتمام الخبر في السيرة ـ وبعد أن شفي يونس عليه السلام مما أصابه من الحوت بسبب إقامته في بطنه أرسله الله مجدداً إلى قومه الذين غادرهم وهم مسلمون على أحسن حال، فأقام بينهم نبياً مرشداً وموجهاً حيناً من الزمن، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [نون] والاجتباء: النبوة، فقد عاد إلى قومه نبياً، واستمرت دعوته فترة طويلة من الزمن إلى أن توفاه الله، ثم أصاب نينوى ما يصيب الأمم من تغيرات على مدى الزمن.



زكريا ويحيى

ذكر الله زكريا في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران ومن الجمع بين السورتين سنكون فكرة عن زكريا وابنه يحيى، قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ في الآية الكريمة وجهان وكلاهما جيد:

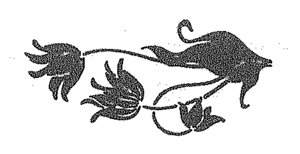
إما أن يكون «**رحمة ربك**» صفة لزكريا بمعنى أن زكريا بدل أو عطف بيان، ويكون المعنى أن الله تعالى يبين لنا في هذا الكتاب الكريم ذكر عبده زكريا بشيء من التفصيل في الجانب الذي أراد الله أن يبرزه في حياة هذا النبي لتتم الفائدة والعبرة منها لمحمد ﷺ وأمته على مدى الدهر وقد عودنا القرآن الكريم في سيرة كل نبي أنه يختار منها الجانب الأهم دون التطرق إلى مسيرة النبي كاملة خلال مسيرة حياته ودعوته في قومه،فهناك ولا شك أمور متشابهة في حياة الأنبياء وذكرها كلها سيكون من باب التكرار وفي واحدة منها تتحقق الفائدة وذلك لأن القصد من ذكر سير الأنبياء وقصها على النبي ﷺ ليثبته ويقوي بها فؤاده ويعلمه عن أشهر ما مر به كل نبي من المحن والابتلاء مع قومه أو بما امتحن به في نفسه وأهله وإظهار حالته التي عاش عليها ومدى صبره وعزمه وتوكله، ولذلك تنوعت قصص الأنبياء وتباينت أخبارهم وفي كل منها دروس مستفادة وعبر في مسيرة الحياة.

وإما رحمة ربك بعبده زكريا على تقدير حذف حرف الجر وانتصاب عبدَه بنزع الخافض، ورحمة الله بعبده زكريا باستجابة دعائه ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ فقد نادى ربه ودعاه بصوت خفي لا جهر فيه وذلك

ليكون سراً بينه وبين ربه، فهناك نداء القلوب خفقاً لخالقها وهناك نداء العيون فيضاً من الدموع وهملانها في موقف الخشية والرهبة من الخالق العظيم، وهناك نداء الجلود قشعريرة وانكماشاً تعبيراً عن الخضوع والذلة لله المعبود، فما أحسن النداء الخفي في هدأة الليل والناس نيام والمستغيث بالله قائم يتضرع وينادي الله وهو السميع العليم، فلا يريد بندائه أن يوقظ الليل من سكونه كأنما يريد الانفراد بربه والتضرع له ليكون أبلغ في الخشوع وأجمع لاستحضار القلب وثبات الجنان فينطلق اللسان بالذكر والشكر ما لا ينطلق في الجهر والإعلان ويكون الاتصال بالله قوياً والإجابة حاضرة لا تبطئ، وقد لا يريد الداعي إظهار ما يريد من ربه على الملأ إما حياء وإما رهبة من الناس وخشية من ظالم أمعن في الظلم فما كان لردعه إلا سهام الليل تنطلق من واله حزين تناجي نصير الضعفاء والمساكين في ساعة غفل فيها الناس واستسلمت للنوم أجفانهم إلا ذلك المقهور المظلوم فإن ألمه صحو وجرحه ثرثار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ فماذا كان فحوى دعائه؟ كان دعاء يشخص حالته وما وصل إليها وهذا ما جعله يخفي الدعاء ويسره، يشكو مما وصل إليه من أنه تقدم في العمر، فقد رق جلده ووهن عزمه ودق عظمه واشتعل شيب رأسه بياضاً وهذا دليل كبر السن، ثم يتبع شكواه بحسن ظنه بالله وتعوده على كرم الله ومنّه عليه بالاستجابة، بأنه كان مستجاب الدعاء وهذا ما تعود عليه من ربه، فلم يرد الله دعاءه في يوم من الأيام، بل كان بدعائه هنيئاً سعيداً، ويتابع زكريا الإفصاح عن مكنون دعائه الخفي ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ فقد خاف ذوي قرباه الذين يحق لهم أن يرثوه، فلماذا الخوف من الأقرباء ألم يكونوا على مستوى المسؤولية؟ إن زكريا أكثر معرفة وخبرة بأمرهم فلعلهم كانوا ممن لا يؤتمنون على الدعوة وعلى إرث زكريا، إنه بالطبع غير خائف لو كانوا سيرثون ماله، فهو ليس من ذوي الأموال وإنما الخوف على تضييع الأمانة التي سيتركها لهم أمانة العلم والدعوة إلى الله، قيل: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب ولياً يقوم به بعد

موته، فكان إذاً لب الدعاء الخفي لزكريا: أنه يطلب من الله ولداً يخلفه ويشكو أن امرأته كانت عاقراً لذلك يحار في كيفية المخرج من هذا الهم فأوكل الأمر إلى الله القادر، والظاهر أن الذي شجعه على هذا الطلب ما رآه عياناً من أمر مريم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران] لقد شاهد عياناً ما كان يأتي مريم من الرزق وهو بلا شك من الله الرزاق ذي القوة المتين، ولِمَ لا يلجأ إلى الله في طلب الوريث؟ فالذي جعل الطعام يفيض في محراب مريم بأشكاله المتنوعة قادر على منح زكريا هذا الوريث لذلك لهج لسانه في الدعاء وفي هذه المرة طلب «ذرية طيبة» والله هو المانح ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ وأكّد زكريا على ما يريده من الوريث، وريث نبوة وعلم لا وريث مال وعقار لأنه ذكر في معرض دعائه آل يعقوب وهم الذين وضع الله فيهم النبوة تسلسلاً حتى زكريا، ولم ينس هذا الوريث من الدعاء له ليكون صالحاً ينال رضاك يا رب، ويفوز أيضاً برضا الوالدين فيكون في الحالين مرضياً، سبحانك ربي ما أسرع ما تستجيب لعبادك الصالحين عندما يحتاجون لعاجل رحمتك وجميل فرجك ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ إنها بشارة وأية بشارة يسأل الله فيأتيه الجواب الشافي والرد المبهج ألا ينبغي أن تكون بشارة رائعة تعلو بالنفس إلى قمة بهجتها وسمو تطلعها يا لزكريا من عبد محبوب نَعِمَ بالرضا والقبول من ربه يهبه الولد كما طلب وزاد تمييزه باسم فريد لم يسم به أحد من قبل فالله العالم بالأسماء من حين أن خلق الخلق اختار له اسماً فريداً يعرف به هو ولا يشاركه أحد فيه فإذا قيل: يحيى فهو يحيى بن زكريا لا سواه علم متميز لا لبس فيه مع سمي آخر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ عاد من صدمة البشارة التي تلقاها وما رافق ذلك من فرح في النفس وبهجة عارمة ليسأل سؤال مستعلم مستوضح ـ وهو يعلم

أن الله لا يعجزه شيء ـ لأن في هذه البشارة معجزة وخرقاً للعادة والقانون الذي وضعه الله في الأرض، فهناك وفق القانون الدنيوي عقبتان أمام إنجاز البشارة: امرأة عاقر، وبلوغ سن كبير قد يتعذر عليه ممارسة الجنس مع زوجه أو في تولد الحيوانات المنوية في هذه المرحلة العمرية المتقدمة جداً، ولكن الله الذي بشر بيحيى بيده مقاليد الأمور إذا قال للشيء كن فيكون ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ فكان الجواب من الله العلي القدير مؤكداً ما أراده الله وقدره وأنه أمر هين على الله وكان خلق الإنسان من قبل ـ الذي أنت منه ـ من العدم فلم يكن شيئاً وبقدرتي أنا الخالق العظيم كان، فكيف والأمر الآن؟ فإيجاد الولد بطريق التوالد المعتاد من التقاء النطفة بالبويضة أهون وأسهل، ولكي يطمئن قلب زكريا ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ ولقد فسر هذا بما جاء في سورة آل عمران ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ فسوف تمر عليك ثلاثة أيام بلياليها تمتنع فيها عن الكلام دون علة الخرس، فيربط الله على لسانك فلا تستطيع الكلام باستثناء التسبيح، لذلك أُمر بالتسبيح صباح مساء، وقال ابن عباس: اعتقل لسانه من غير مرض، وأن لغة المخاطبة مع قومه ستكون بالإشارة فيستعمل للمخاطبة مع المؤمنين الذين يكلمونه إشارة الخُرْس في هذه الأيام الثلاثة ريثما تنقضي وبعدها تنحل عقدة لسانه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ وهكذا ظهرت عليه علائم الآية فمنعه الله من الكلام رغم محاولته الكلام، لذلك لما خرج على قومه من المحراب وسألوه لم يستطع الإجابة فأشار لهم باليد بأن يسبحوا الله بكرة وعشياً، وقيل كتب لهم هذا الأمر كتابة، وتحققت البشارة وأقبل يحيى إلى الدنيا وريث حق شرعي لوالده في النبوة والحكمة والدعوة إلى الله.

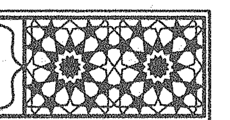


نهاية زكريا

كان زكريا من أحبار بني إسرائيل وكان له الشرف في كفالة مريم، فقد نذرت أمها أن تهب حمل بطنها للخدمة في المعبد فكانت المولودة أنثى ومع ذلك وهبتها للمعبد كي تتربى فيه وكان والدها عمران قد توفي وهي حامل وكان كبيرَ الأحبار وإمامَهم في الصلاة، وهنا تطوع زكريا بكفالتها وتربيتها لأنه زوج خالتها، وأبى عليه زملاؤه فكل يريد أن يكفلها تقرباً إلى الله وعرفاناً بفضل حبرهم عمران، فاقترعوا فيما بينهم بأن يلقوا أقلامهم في نهر الأردن فالذي يثبت ولا يجرفه التيار يضحي كفيلها وهكذا جرف التيار المائي كل الأقلام ما عدا قلم زكريا فتمت له كفالتها فضمها إلى خالتها لتربيتها والخالة كما قال عليه الصلاة والسلام بمنزلة الأم، وكان زكريا كبير الأحبار وإمامهم ونبيهم، وقد ورد في خبر أن زكريا كان يعمل بالنجارة لكسب قوت يومه، وربما هذا في فترة شبابه، أما وفاته فكان فيها غرابة وعبرة، وقد ذكر أنه كان يصلي في المحراب وإلى جانبه ابنه يحيى يصلي أيضاً ثم أتى الزبانية بأمر من الحاكم يطلبون يحيى لقتله فقتلوه وأبوه في صلاته لم يقطعها وحملوا رأسه إلى الحاكم، فما أمسوا حتى خسف الله بهم فقال مناصرو الملك: قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فطلبوا زكريا ليقتلوه فهرب منهم فانصدعت شجرة ونادته ليختبئ في جوفها ففعل لكن طرف ردائه ظل خارج الشجرة فعرفوه وقيل دلهم عليه إبليس اللعين ثم أتوا بالمنشار فنشروه مع الشجرة فقطعوه نصفين، فانظر إلى حكمة الله تعالى: **إن صح هذا الخبر**، أن زكريا طلب من ربه من يرثه ولو

ترك الأمر لله لكان أجدى، فاستجاب الله لطلبه ورزقه ولداً ذكياً محفوظاً نبياً ثم شهد مصرعه ومات قبله فلم تتم الوراثة كما طلبها زكريا بل لقد رأى ولده فلذة كبده يقتل أمام ناظريه أليس هذا قاسياً على قلب الوالد؟ لكنها حكمة الله، وهناك رواية أن مريم لما ولدت عيسى عليه السلام اتهمها بنو إسرائيل بالزنى واتهموا زكريا بأنه الفاعل لأنه بنظرهم الوحيد الذي كان يدخل عليها، فاتفقوا على قتله فهرب منهم واختبأ في الشجرة، وعلى هذا القول يكون قد مات قبل ابنه يحيى.

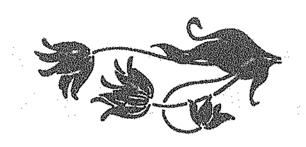




يحيى بن زكريا عليه السلام

مر رغبة زكريا في الولد فدعا ربه كما ورد في سورتي «آل عمران ومريم» ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وفي سورة «مريم» ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ وفي سورة الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فكانت الاستجابة لهذا النبي الكريم من رب العالمين سريعة وفيها أصلح الله له زوجه وكانت عاقراً فعادت تحيض وتستعد للإنجاب ونتيجة لذلك كان المولود يحيى، وقد ذكر الله تعالى صفات يحيى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران] فهو وريثه في العلم والدعوة، ونبياً متبوعاً حيث لا يتّبع إلا السيد وجعله حصوراً لا يأتي النساء وليس في حاجة إليهن وفي هذا تقوية له ورفعه فوق شبه التهمة من هذه الناحية، فكان نموذج النبي العابد المهتم بالآخرة بلا شواغل من الدنيا لأن شواغلها عادة تأتي من الأسرة والأبناء، وهذا يذكّر بقول النبي ﷺ عندما كان يضم إلى صدره الحسن والحسين ابنا فاطمة رضي الله عنهم: «**إن الولد مبخلة مجبنة**» أخرجه ابن ماجه، أي من يكون له أولاد فإنه ينشغل بهما فلا يقدم على الاقتحام والمخاطرة أو الإنفاق وإنما لأجلهم يمسك، وهكذا حمل عبء الدعوة مع والده وهو لا يزال صغيراً وكونه نبياً من

الصالحين أنه لا يحمل ذنباً، وعن عبدالله بن عمرو قال: ما أحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا ثم تلا هذه الآية ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ أي: ابن ثلاث سنين، وقيل ابن سبعة، والكتاب هو التوراة وهو أصل الدين لبني إسرائيل من لدن موسى وقد أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة وعزيمة لا تردد فيها، وقد آتاه الله الفهم الواسع للكتاب وأحكامه ملكة وهبه الله إياها وهذه معجزة له تحببه إلى الناس الذين يفتنون بمثل هذا النبوغ المبكر ويجلونه، تذكر الآيات بقية ما منحه الله من الصفات ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم] فقد أعطي الأمان والسلام في المواقف الثلاثة المهمة للإنسان.



نبذة من حياة يحيى عليه السلام

كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة ـ تجوزاً لأن أم يحيى خالة مريم ـ وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه، أينما جنهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أستطيع إلا أن أغضب، قال: لا تقتن مالاً، قال: أما هذه فعسى.

وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي، قال: فجمع بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً فإن مَثَلَ ذلك مَثَلَ من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك**

وأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره أعداؤه فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وآمركم بذكر الله عزَّ وجلَّ كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزَّ وجلَّ، قال: وقال رسول الله ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن، بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم، قال: يا رسول الله وإن صلى وصام ! قال: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، أدعو المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عزَّ وجلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ».

وذكر أن يحيى بن زكريا عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى؟! وروي أن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً فكان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم، وطلب زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية، فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه، فقال: يا بني أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين؟ فقال له: ابك يا بني فبكيا جميعاً، وذكر أن كثرة البكاء أثر في خديه من كثرة الدموع.

نبئ يحيى وهو ابن ثلاثين سنة وكان يكبر عيسى بستة أشهر، وقد اختار يحيى الشام للدعوة فيها وكان عيسى في فلسطين، وقيل التقيا عند نهر الأردن، وقيل إن تعليمات في الشريعة بلغها عيسى للحواريين ليبلغوها للناس كما بلغها ليحيى ليبلغها في منطقته وكان منها منع نكاح ابنة الأخ، وكان الملك **هيرودوس** بالشام فأراد أن يتزوج ببعض محارمه أو ممن لا

يحل له تزوجها فسأل يحيى فنهاه عنها وقال لا تحل لك، وعلمت أم البنت بذلك فأضمرت الشر ليحيى لأنه سيحرم ابنتها من أبهة الملك ونعيمه، فقالت لابنتها إذا دخلت عند الملك فاسقه خمراً حتى السكر ثم اطلبي منه قتل يحيى، ففعلت فامتنع أول الأمر ثم لبى طلبها وقتله وقدم رأسه لها في طست ولما أصبح كان دمه يغلي ففاض من الطست ثم سقط على الأرض وهو في شدة غليانه فوضع فوقه التراب فلم يسكن، وهم في خضم هذا الحدث بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل غزاهم ونكل فيهم حتى قتل منهم سبعين ألفاً فسكن الدم، ورويت القصة بغير هذا السياق، لكن كلها حول هذه المرأة تدندن، وقيل كان هذا ببيت المقدس لكن الصواب في دمشق، وروي عن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير، وفي رواية كأنما قتل الساعة، وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة، والله أعلم.



عيسى ابن مريم عليه السلام

سنتعرض لسيرة عيسى عليه السلام من خلال استعراض الآيات الواردة في سورتي آل عمران ومريم، وتبدأ القصة من ولادة مريم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ الاصطفاء بمعنى الاختيار والصفوة وقد بدأ بآدم وهو أبو البشر، ثم اصطفى من ولد آدم نوحاً ثم اصطفى من ولد نوح إبراهيم واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق، واستمرت النبوة في ولد إسحاق حتى عيسى ابن مريم عليه السلام ووالد مريم عمران الذي يرجع نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام وكان خاتم الأنبياء محمد ﷺ من ولد إسماعيل ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ فقد نذرت مولودها عتيقاً خالصاً لخدمة بيت المقدس متفرغاً من شواغل الدنيا ورجت من ربها أن يتقبل ذلك منها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ وكان في نيتها أن حملها سيكون غلاماً لأنه الأقدر على الخدمة فلا يعتريه ما يعتري البنات من حيض وحجاب يمنعها من المخالطة للرجال وهذا ما درج عليه من يهب أو يحرر للخدمة في المسجد، ومع ذلك وفت بنذرها وسمت المولودة مريم وقامت هي بالأمر لأن زوجها عمران قد توفي قبل أن تضع المولودة، وقد عوذتها بالله هي وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله لها ذلك، وقد ورد في الحديث الصحيح «**ما من مولود إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل**

صارخاً إلا مريم وابنها» ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وقبلها الله من أمها وكان علامة ذلك أنه أنبتها نباتاً حسناً فكانت تنمو نمواً مختلفاً عن أقرانها جسماً وعقلاً وخلقاً، فلما كملت أتت بها إلى الأحبار وقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا في كفالتها لأنها بنت إمامهم، فقال زكريا أنا أحق بكفالتها لأن خالتها تحتي والخالة كالأم، فقالوا: لا حتى نقترع، وكانوا تسعة وعشرين حبراً، فانطلقوا إلى نهر الأردن وألقوا فيه أقلامهم على أن من يثبت قلمه في الماء يكون كفيلها وهذا ما ذكرته الآية ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، وكانت النتيجة أن الماء قد جرف الأقلام ما عدا قلم زكريا فتم له كفالتها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ولما كفلها كانت المعجزة فلقد تكفل الله لها الرزق، فكان كلما جاء زكريا يتفقدها ليرى حاجتها يجد عندها رزقاً وكما ذكر المفسرون كان يجد أمراً غريباً، يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء لتتحقق المعجزة فلا يظنن ظان أن أحداً يأتيها بالطعام، فلما استبانت المعجزة لزكريا تجاه مريم ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وكانت الاستجابة لدعائه فرزق بيحيى، وأما مريم فكان لها شأن آخر فلم تكن العناية بها من رب العالمين إلا لإعدادها لأمر مهم ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فقد أخبرها جبريل بكيفية ما بأن الله اختارها لطهرها وعفافها وفضلها على نساء زمانها فهي أفضلهن منزلة وتديناً وقرباً من ربها، ولذلك كان حثها على زيادة الطاعة والسجود والركوع أي زيادة التقرب إلى الله بالصلاة والتسبيح، ثم كانت المفاجأة المدهشة لمريم ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فكانت البشارة لمريم بهذا التغير الجديد مفاجأة مذهلة، لذلك كان وقع البشارة

عندها في فتور وتساؤل وحساب دقيق لوضعها بين قومها ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وفي سورة مريم ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ سؤال وجيه رغم أنها صبية صغيرة لم تكن قد جربت هذا الأمر بزواج وإنما هي تعلم أنه لا يكون حمل إلا بممارسة جنسية فكيف يكون هذا وهي تخشى بعد سمعتها الطيبة وتصونها وعفافها أن تتهم بالزنى، وألسنة السوء جاهزة للانطلاق والخوض في عرضها فكان الهم مسيطراً عليها، فهي ليست بذات زوج وليست من البغايا، وكان من تدينها أن اعتزلت أهلها واتخذت مكاناً شرقياً حيث أصبحت في سن البلوغ وجاءها الحيض ففي هذا المكان تخلع ثيابها للتطهر وهو بعيد عن أعين الناس وحركة مرورهم صوناً لعرضها وتفرغاً للعبادة ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم] فبعد هذا الحرص والتدين تحمل غلاماً ! ماذا يقول قومها عنها؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، ومن أجل هذا الأمر ليتم ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فتملكها خوف شديد لذلك لجأت إلى الله واستعاذت به ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ إن كنت من أهل التقوى فتنتهي عني وتتركني لشأني، هو كذلك ولكنه عبد مأمور جاء لينفذ ما أمر به ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم] فالنقاش في هذا الأمر لا يجدي فقد تقرر هذا من قبل قيام السموات والأرض وأما الخوف من قيل وقال فإن الله تكفل به وأعد لاسكات ألسنة السوء معجزات تظهر لكل ذي عينين، لذلك أراده الله معجزة بذاته ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره فجرى فيه القضاء وكتب له الوجود ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ كانت الولادة في مدينة بيت لحم، كما ورد أن حملها كان ككل النساء تسعة أشهر ولا اعتداد لقول من قال: تسع ساعات، لذلك كان

لا بد لها من الابتعاد عن مجتمعها لأن الحمل مع الوقت سيظهر بكبر البطن وفي العادة فإنه لا يخفى أمر المرأة الحامل على الآخرين، وذكر أن أول من لاحظ عليها الحمل ابن خالها يوسف النجار وكان يخدم معها في المسجد فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول!؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذَكر؟ قالت: نعم، إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها: فأخبريني خبرك، فقالت: إن الله بشرني ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وكذلك فإن يوسف النجار رغم تدينه لم يسلم من التهمة بالخلوة بمريم، وذكر أن خالتها لما زارتها قالت لها: إني حامل، وقالت مريم لها: وأنا حامل ولما ضمتها إلى صدرها قالت: أشعر أن الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، وهذا تفسير قول يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لأن المسيح كلمة الله، والسجود هنا في ديانة من كان قبلنا للتعظيم وليس للعبادة، وبالرغم من التطمين الذي قيل لمريم بأن لا تخاف وأن الله معها إلا أنها ظلت وجلة خائفة جللها الهم وخامرها الخوف، فأحزانها بادية قلقة، وخطواتها متعثرة وأفكارها مضطربة مما سينتظرها، لأن ما سيحصل لها بعد الإنجاب هو خلاف المعهود، وهي منزهة العرض حافظة الفرج والشرف وكان أكثر ما يقلقها نظرات الآخرين المريبة ولمزات الأخريات، لذلك تمنّت الموت وأن لا تكون قد وجدت على ظهر هذه الأرض أو أن تكون نسياً منسياً لم تخلق بعد، أو متاعاً متروكاً لا يأبه له أحد، وكانت في هذه اللحظة الحرجة بحاجة إلى التثبيت وبث الثقة في النفس وأن الله هو الذي سخرها لهذا الأمر العظيم وجعلها محضناً لميلاد النبوة المعجز، فكان هذا التثبيت من جبريل الذي كان يراقب ما يعتورها ويدرك جيشان خواطرها وما يعتمل

فكرها من خيالات مخيفة تراودها بعد الولادة واستهلال الولد ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ كان يريدها أن لا تكون بائسة تنظر للأمر وكأنه خطيئة وإنما يريد لها ولادة ميسرة تلتفت فيها إلى نفسها من حيث إعطاؤها الاهتمام الكافي من الغذاء والماء وأن تقر عيناً بهذا المولود الذي سيكسبها شرفاً أبدياً وأن ترفع بذلك رأساً وتَشْرُف عزاً، فلتلتفت الآن إلى غذائها الذي وفره الله لها وهو المناسب لحالة الولادة، نخلة تحمل الرطب وجدول ماء زلال قراح، وقد حار المفسرون من أين للنخلة هذا الرطب والولادة كانت في الشتاء، ولا بد لهذه الولادة المعجزة أن يرافقها آيات معجزة كوجود هذا الرطب في مثل هذا الوقت فهو لها غذاء طبيعي لا يحتاج لإجراء تحضير له، وهو أيضاً توجيه لمن بعدها من النساء إلى أهمية هذا الغذاء للائي يلدن، ومع ذلك لم يلغ دور العمل للإنسان ليحصل على المنفعة ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ ثم زودها بالرد الوافي الشافي إن سئلت عن المولود، وستسأل ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ وكان الصوم عن الكلام في شريعتهم مشروع ومعمول به، وبعد الولادة الميسرة والتزود بما وصاها به جبريل عقدت العزم وتوكلت على الله فحملته عائدة إلى دارها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ حملته جهاراً نهاراً ليشهده الناس وهذا هو المقصد لكي يتعرف عليه الناس منذ ولادته وكان بإمكانها إخفاءه ولكن الله يريد هذا، فوقعوا بها واتهموها كما توقعت، فهذا الفعل بحقها ـ كما قالوا ـ ذنب كبير لا يغتفر، ثم ذكّروها بأهلها وما كانوا عليه من الدين والأخلاق ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أنت من دوحة عظيمة وعائلة كريمة لم تقترف الإثم في حياتها وأنت بفعلك هذا تشوهين تاريخ هذه الأسرة القويم، ونداؤهم لها بأخت هارون لا يستوجب أن يكون لها أخ اسمه هارون، ولكن نسبوها لرمز الشرف فقد كان اسم هارون عندهم يعني السمو الروحي والديني فكثرت التسمية به، لأن أمها

يوم نذرت ولداً للخدمة في المسجد لم يكن عندها ولد فولدت مريم ولو كان عندها ولد لوهبته للخدمة، وبعد هذا التقريع والتبكيت ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ لقد أفهمتهم أنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام، فانتبهوا إليه ما بين منكر لما أشارت إليه وغير مصدق أنها تعني ما تقول، فكيف يكلّمون صبياً مازال في المهد وعمره لا يزيد عن أربعين يوماً، ولكن بهذا التوجه تحقق الأمر الثاني وهو أن ينتبهوا ويقروا بأنه طفل في المهد جرت العادة أنه لا يتكلم، فسايروها على غير اقتناع منهم وسألوه من أنت؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ سألوه من أنت فأفاض بالجواب الشامل الوافي ولم يذكر أباً لأن الله خلقه من غير أب، ذكر أمه وحسب ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ فكل إنسان مطلوب منه بر الوالدين وهو فقط مطلوب منه بر الوالدة لأنه لا والد له، فقد أعطاهم تصوراً من بداية حياته ووظيفته في الدنيا وعمله خلال فترة حياته وطبيعة نفسه الرضية المتواضعة إلى أن يتوفاه الله. وذكر أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها، كما روي أنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى هذا المولود، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم؟ فذكروا له عن ظهور النجم ودلالة ذلك على ميلاد عظيم في هذه الديار، فسأل عن ذلك الوقت ومن ولد فيه، فقالوا ولد عيسى ابن مريم ببيت لحم واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وسألهم عن سبب اختيار هذه الهدايا، فقالوا: الذهب سيد المتاع والمولود سيد أهل زمانه، وأما المر فهو دواء يجبر فيه الجرح والكسر، وكذلك هذا المولود يشفي به الله كل سقيم، وأما اللبان فإن دخانه ينال السماء ولا ينالها دخان غيره وكذلك هذا المولود يرفعه الله إلى السماء، ولما سمع منهم قيمة هذا المولود حسده وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه، فلما وصلوا

إلى مريم بالهدايا ورجعوا، فقيل لها إن رسل ملك الشام جاؤوا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت فيها اثنتي عشرة سنة.

ورد أن النصارى يتجهون إلى الشرق في صلاتهم إكراماً لهؤلاء الذين أتوا بالهدايا من الشرق.

❋ ❋ ❋

فترة حياته قبل التكليف بالرسالة والبدء في الدعوة

ورد عند كتاب السير أن لمريم ابن عم اسمه يوسف النجار وقيل ابن خالها وهو الأرجح ـ كان يعمل معها في خدمة المسجد في النظافة وتأمين المياه والفرش والصيانة ـ فلما رأى حالها وحال مولودها وهو يعرف طهارتها وتقواها من خلال العمل معها في المسجد؛ قرر أن يساعدها ويبعدها عن أعين بني إسرائيل حفاظاً عليها وعلى ابنها من مكرهم فأحضر حماراً له فأركبها وابنها واتجه بهما إلى مصر وهذا وجه من أوجه تفسير الآية ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ وقيل بيت المقدس وقيل دمشق، وروي أن مريم مكثت في مصر اثنتي عشرة سنة حتى شب ولدها عيسى، وكانت تلتقط السنابل من الأرض بعد الحصاد فتجمع ما يتركه الناس استقلالاً له وتطعمه ولدها، وورد أنها نزلت في دار دهقان خصص غرفاً ضيافة للمساكين يقيمون فيها ما شاؤوا، وقد كان له خزنة في الحائط سرقت فحزن عليها، وحزنت مريم لحزنه، فقال عيسى لأمه: يا أمة أتريدين أن أدله على ماله؟ قالت نعم يا بني، قال: قولي له أن يجمع مساكين الدار، فقالت للدهقان، فجمعهم، فقال هذا المقعد وهذا الأعمى، لقد حمل الأعمى المقعد على عاتقه فوصل إلى الخزانة فسرقها، فكانت السرقة نتيجة التعاون بين الأعمى القوي والمقعد الذي يبصر ولعاهتيهما لم يكونا موضع شك من الدهقان أو أي أحد غيره، فأسقط في أيديهما وأعادا المال المسروق، فقال الدهقان يا مريم خذي نصف المال، فقالت: إني لم

أخلق لذلك، قال: فأعطيه ابنك، قالت: هو أعظم مني شأناً، وزار الدهقان قوم من الشام ولم يكن قد استعد لشرابهم، فدخل عيسى بيته وفيه جرار فارغة فأمرَّ يده عليها فامتلأت شراباً، ولما ظهر أمره في مصر وهو في هذه السن خافت أمه عليه فأوحى الله إلى أمه أن عودي به إلى الشام، وفي الشام مر بعدد من الأعمال، فقد روي أنه عمل قصاراً ـ صباغاً ـ للثياب، وأعطاه رب عمله مجموعة من الثياب ليصبغها وقد وضع خيطاً ملوناً على كل ثوب لكي يصبغ بمثل لون الخيط وأوصاه بإنجاز العمل، ثم انصرف رب العمل لحاجة له، وروي أن عيسى عليه السلام رماها كلها في مصبغة واحدة فيها لون واحد وتركها إلى أن عاد رب عمله، فقال له: صبغت الأثواب كما قلت لك؟ قال: نعم وها هي في المصبغة، فقال: كلها بلون واحد! لقد خربت الثياب على أصحابها وكاد أن يتكلم كلاماً لا يليق بحق عيسى، فقال: عيسى: لا تعجل، أخرجْها من المصبغة، فأخرجها فوجد ألوانها كما أراد وكل ثوب وفق علامته، وكان عيسى يلعب مع الصبيان فكان يقول لهم تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم، فيخبره فيذهب الغلام إلى أمه فيقول لها أطعميني ما خبأت لي، فتقول وأي شيء خبأت لك؟ فيقول كذا وكذا بما أخبره به عيسى، فتعجب أمه وتقول من أخبرك؟ فيقول: عيسى، فخاف الناس على أولادهم أن يفسدهم عليهم فمنعوهم من مخالطة عيسى، وكان يروي العجائب في صباه وفشا ذلك في بني إسرائيل حتى هموا بإيذائه فخافت عليه أمه فأخفته عن العيون، وهكذا عاش عيسى في فترة شبابه حياة حرجة إلى أن بعث.



رسالة عيسى عليه السلام

أجمع المفسرون أن عيسى عليه السلام نبئ وهو في سن الثلاثين، وقام بالأمر مدة ثلاث سنين حيث تعرضت حياته للخطر وسعى بنو إسرائيل لقتله فرفعه الله إليه، وقد زوده الله تبارك وتعالى بآيات إعجازية مؤيدة له

ولدعوته وكانت خارقة تناسب ما كان في عصره من حضارة وتقدم وهذه الآيات تتفوق عليها بالطبع، فقد بدأت الآيات المعجزة بالكلام وهو في المهد، ثم توقفت هذه الآية وكانت آيات في فترة صباه، منها إخبار الناس عن أمور غيبية وجهت إليه الأنظار وعرضته للخطر فاضطرت والدته إلى إخفائه عن العيون درءاً لهذا الخطر، وكانت المعجزات التي زوده الله بها فترة النبوة مهمة جداً منها كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران] عَمَلُ طير من الطين ثم النفخ فيه ليكون طيراً بلحم ودم وريش وحياة كاملة عمل يذكر الناس بخلق آدم من الطين ابتداء بلا أب أو أم وكذلك هذه الطيور التي تخلق بإذن الله ابتداء كخلقها الأول على غير ما عرفه الناس من البيضة، جملة من الآيات المعجزة التي أيد الله بها عيسى هي على درجة كبيرة من الأهمية والنفع للناس في مجتمعه، ويبدو أن الزمنى من الناس وأهل العاهات قد كثروا في مجتمعه وأصبحوا بحاجة ماسة إلى العلاج ولكن دون جدوى لعجز الطب المتقدم عن شفاء هذه الأمراض، ولخطورة هؤلاء المرضى فقد ملهم الناس وهجروهم وأبعدوهم خشية العدوى، فلم يخالطوهم أو يؤاكلوهم أو يشاربوهم، وكان من أخطر هذه الأمراض الأكمه وهو الذي فقد سمعه وبصره ومسحت معالم وجهه وكذلك الأبرص الذي اشتد بياض جلده ورشحت منه مياه منتنة وقروح لا تلتئم، وذكر أيضاً الجذام وهو مرض معد يفتك بالإنسان فتتآكل أعضاؤه من الأطراف زاحفة نحو الجسم حتى تقضي عليه، وقد وفد أهل العاهات على عيسى بأعداد كبيرة فكان يداويهم ويمسح عليهم فيتم لهم البرء والشفاء بإذن الله، وكان من لا يستطيع القدوم إليه يذهب هو إليهم ويمسحهم، وكان كل هؤلاء يصبحون من أتباعه، مما أغاظ أهل المصالح الدنيوية من الأحبار حيث تعطلت مصالحهم وما كانوا يجنونه من مناصبهم الدينية، وأما إحياؤه للموتى

فكان بأعداد محدودة حسب الحاجة لإحياء هذا الميت فمنهم من كان إحياؤه لفترة محدودة لسؤاله عن أمر ما ثم يموت ومنهم ما يطول به العمر لسنوات، فعلى سبيل المثال طلب منه الحواريون أن يحيي لهم سام بن نوح ليسألوه عن السفينة وشكلها، فأتى قبره فأحياه لهم بإذن الله وسألوه ما خطر لهم من أسئلة حول السفينة حتى إذا ما كونوا فكرة تامة عنها قالوا لعيسى عليه السلام دعه ليأتي معنا، فقال: كيف يأتي معكم من لا رزق له؟ وروي أن امرأة كانت تبكي عند قبر بكاء شديداً، فسألها عيسى عما يبكيها فقالت: ماتت ابنة لي ولم يكن لي ولد غيرها وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحيها الله لي فأنظر إليها فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم، فصلى عيسى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمٰن فاخرجي، فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عني؟ فقالت: لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكاً فركب خلقي، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجعت إلي روحي، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عينيّ ـ أهداب ـ مخافة القيامة، ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين، يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، يا روح الله وكلمته سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون علي كرب الموت، فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً. هذا نموذج ممن أحياهم بإذن الله لفترة قصيرة.

وأما نموذج من أحياه بإذن الله كان صديق عيسى عازر، فقد مرض فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازر يموت، فسار إليه وبينهما ثلاثة أيام، فوصل إليه وقد مات منذ ثلاثة أيام، فأتى قبره فدعا له فعاش وبقي حتى ولد له، وأحيا بإذن الله امرأة وعاشت وولد لها.

معجزات خارقة أيد الله بها عبده عيسى، وذكر ابن كثيراً تعليقاً طريفاً

على هذه المعجزات قال: «كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء فبعث بالآيات التي بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا ما عينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخوارق على يديه تصديقاً له أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا، وهكذا عيسى ابن مريم بُعث في زمن الطبائعية الحكماء فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره هذا مما يعلمه كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران] وقد بين لهم أنه لم يكن بدعاً فهو على شريعة موسى مصدقاً بالتوراة فقد علمه الله إياها وعلمه أحكامها وزاد عليها للتجديد كتاب الإنجيل، كما بعثه الله لتخفيف بعض الأحكام التي كان بنو إسرائيل قد ألزموا بها أنفسهم، وهذا يدل على أن عيسى قد أرسل إليهم رحمة وإنقاذاً لحالهم المتردي ديناً وخلقاً، فقد سرى الكفر والإلحاد بين الناس وابتعدوا عن منهج الدين الحق وكان رأس هذا الانحراف الكهنة ورجال الدين الذين مالوا بالدين حسب الهوى والمصلحة الخاصة بهم ليقيموا لهم كياناً مسيطراً على الحياة في بني إسرائيل فكان لا بد ـ وفق سنة الله ـ من منقذ ومخلص ومسدد للنهج ومصحح للمسار، وكان عيسى هو النبي المختار لهذا الأمر بما آتاه الله من الآيات المعجزة من حيث طريقة خلقه المتفردة ومعجزاته التي لا يتردد من يراها من الإيمان الراسخ والتسليم لله طاعة وخضوعاً ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران] كان المتنفذون الخادعون للشعب ما تزال لهم الكلمة في مجتمعهم لسيطرتهم على سبل المعيشة والنفوذ الاقتصادي والمالي والسيطرة السياسية، وقد بثوا

الدعايات ضد عيسى، فلم يقروا يوماً بولادته بلا أب بهذه المعجزة الخالدة وكلامه في المهد ولقد أكثر اليهود القول فيه وفي أمه وكانوا يسمونه ابن البغية ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ ويروى أن إبليس اللعين عرض لعيسى ابن مريم فقال له: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كُتب لك، فارق بذروة هذا الجبل فتردى منه فانظر هل تعيش أم لا، فقال عيسى: أما علمت أن الله تعالى قال: «**لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت**» وروي أنه قال: «**إن العبد لا يبتلي - يختبر - ربه ولكن الله يبتلي عبده**» وفي رواية أخرى أن عيسى عليه السلام كان يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس فقال أنت الذي يزعم أن كل شيء بقضاء وقدر، قال عيسى: نعم، قال فألق نفسك من هذا الجبل وقل قُدّر علي، فقال: يا لعين، الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عزَّ وجلَّ.

❊ ❊ ❊

الحواريون

هم النخبة من أتباع عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ والحواريون مفردها حواري وحواري الرجل: صفوته وخلاصته، وهو النصير، والحور في الأصل البياض، ويعني بياض الثياب أو من يعمل في تبييض الثياب وهم القصارون، وقد مر من قبل أن عيسى عليه السلام عمل في صباه عند أحدهم ولما بدأ عيسى دعوته انضم إليه هذا القصار وأهل مهنته وهم الحواريون، وورد أن عيسى عليه السلام كان يطعم الحواريين ويعطي كل واحد منهم طعاماً مختلفاً عن الآخر فاستمروا كذلك فترة ثم قالوا: أي الطعام أطيب؟ قصدوا بذلك الطعام الذي كان يوزعه عليهم، فقال عيسى: ما كان من كسب اليد، فانتبهوا لما هم فيه من البطالة، فعملوا قصارين. والله أعلم.

وأصبح الحواريون من خاصة عيسى وأتباعه المقربين والملازمين له الذين يتلقون عنه العلم ويرسلهم نيابة عنه للدعوة وتعليم الشريعة للمؤمنين، وقد ذكروا في القرآن الكريم في أكثر من موضع فعندما دعا عيسى بني إسرائيل للإيمان وشعر بعدم استجابتهم وغدرهم، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

* * *

المائدة

وعلى الرغم من أن الحواريين يمثلون الصفوة لكن كان لهم أحياناً طلبات طلبوها من عيسى فيها غرابة، ومثلهم كان ينبغي أن لا تكون هذه طلباتهم ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ هذا طلب عجيب غريب وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فيه غرابة أكثر فهل ما زالوا مترددين في الإيمان والتسليم؟ حتى قالوا: ربك، ولو أن إيمانهم كان قوياً لقالوا: ربنا، كما أن طرح السؤال وفق هذه الصيغة فيه نوع من الشك بقدرة ربهم، ولو كانوا تمنوا لكان أجدى لهم، فإبراهيم قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، ولم يقل: أتستطيع أن تحيي الموتى؟ وكان هذا ديدنهم من قبل مع موسى ولكن عيسى استهجن منهم هذا الطلب فلا يطلبه مؤمن راسخ الإيمان، ألم يقل مؤمنوهم لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ ولِمَ هذا الطلب؟ ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ إذاً ما زال في النفس شيء من دعوة عيسى رغم الآيات الباهرة الواضحة في شفاء المرضى وذوي العاهات المزمنة وإحياء

الموتى .. فلمَ هذه المائدة هل سيكون إنزالها أقوى معجزة في اعتقادهم من إحياء الموتى؟ وقيل: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة كره ذلك منهم، فقال اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم وإنما هلكت ثمود من حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها، فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك قالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وأمام هذا الإصرار لم يجد عيسى بداً من دعاء الله لتلبية طلبهم لتكون آية عظيمة جاعلاً منها مناسبة دينية على مدى الزمان، قالوا: فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله فلما قضى صلاته قام مستقبلاً القبلة وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ووضع اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعا الله ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ وجاء تلبية طلبهم مشروطاً بتحذير قوي لأنها معجزة ظاهرة مشهودة جاءت وفق طلبهم ولكي لا تكون طلباتهم متكررة لمجرد التشهي نريد كذا ونريد كذا بلا ضابط أو التزام وكل واحد يطلب ما يتخيل ويشتهي ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ قال: فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم وعيسى يبكي خوفاً من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين، وهو يدعو الله في مكانه ويقول: اللّهم اجعلها رحمة لهم ولا تجعلها عذاباً، ثم ذكر أنها كانت مغطاة بمنديل وطلبوا من عيسى كشفه فكشفه فإذا عليها حوت كبير مشوي ويحدق به البقول من كل صنف مع خل وملح وخبز وزيتون وخمس رمانات وبضع تمرات، ثم قالوا لعيسى ابدأ الأكل لنأكل

بعدك ـ كأنهم خافوا ـ فقال معاذ الله أن أبدأ، ليبدأ من سألها فهو أولى وهنا امتنعوا عن الأكل فدعا عيسى الفقراء والمرضى ومن به عاهة فأكلوا منها فشفوا جميعاً، واستمرت تنزل أربعين يوماً وقت ارتفاع النهار، ثم بدأ الناس يشككون في أمرها وقذف الشيطان وساوسه في القلوب حتى مرجوا في أمرها، فرفعها الله وعذب المكذبين بأن مسخهم خنازير.

هذا ما كان في التفاسير، ولكن سياق الآيات لا يوحي بذلك فالذين طلبوها هم من الحواريين خلصاء عيسى عليه السلام ومن غير المعقول بعد تعهدهم عيسى بالتصديق بها وأنها ستكون آية يرون فيها قدرة الله تأتيهم عياناً من السماء ألا يكونوا قد أكلوا منها ومعنى عدم أكلهم منها هلاكهم ولم نسمع بأن الحواريين كانوا أهل شقاق وتكذيب بل هم مضرب المثل بالطاعة والتقوى والتدين وتزكيهم آيات كثيرة في القرآن، والآية لا تدل على أنهم عذبوا وإنما شرطت أن من يكفر بعد مشاهدة الآية يعذب ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة] وورد في حديث ليس بالقوي «**أنهم أمروا حين أنزلت المائدة ألا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير**».

هناك من قال إن المائدة لم تنزل، فعندما علموا الشرط توقفوا عن طلب نزولها وقالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل وقيل: إن المائدة لم تذكر في كتبهم، لكن رأي جمهور العلماء المسلمين أنها نزلت، وتعد مثل هذه الآيات آيات امتحان واستدراج، وقد روي أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة «فاختار عليه الصلاة والسلام باب الرحمة والتوبة».

أقول فيما ورد بشأن المائدة، حيث ورد «أن الذين طلبوها امتنعوا عن الأكل منها وكذلك عيسى» وإني أشك في هذا القول فالحواريون هم صفوة

أتباع عيسى عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وهل يمتنع مؤمن عن طعام قدمه الله لهم بعد أن طلبوه؟ ولماذا يمتنع عيسى أيضاً عن هذا الطعام؟ فإن مما يقبله العقل أن يُقبل عيسى وحواريوه على الأكل منها؛ شاكرين الله على ما أنعم عليهم؛ متبركين بهذا الطعام الرباني المنزل من السماء، متنعمين بلذته فهو شفاء للأسقام، وعافية للأبدان، ولا يمتنع عن الأكل منها إلا مكابر غير معترف بهذه المنحة الربانية، والمعجزة الخالدة.

***

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ لقد بدأ المعادون للدعوة في الكيد لها وعيسى ما يزال بين أظهرهم يدعوهم إلى الله، فقد استغلوا ما آتاه الله لعيسى من الخوارق المؤيدة لدعوته، فلَبّسوا الأمر على الناس بقولهم هذا إله ولو لم يكن كذلك لما أحيا الموتى ويشكل من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، وهكذا، كما ورد أنه كان يمشي فوق الماء، فقد قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين، قالوا فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت قال فامشوا إذاً، قال فمشوا معه في الموج فغرقوا، فقال لهم عيسى: ما لكم؟ قالوا: خفنا الموج، قال: ألا خفتم رب الموج، قال فأخرجهم ثم ضرب بيده الأرض فقبض بها ثم بسطها فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى حصى - تراب - فقال: أيهما أحلى في قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب، قال: فإنهما عندي سواء.

وفي رواية قال إبليس لعيسى: إنه لا ينبغي أن تكون عبداً، إن غضبك ليس بغضب عبد فإني أدعوك لأمر هو لك، آمر الشياطين فليطيعوك فإذا

رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك أما إني لا أقول أن تكون إلهاً ليس معه إله، ولكن الله يكون إلهاً في السماء وتكون أنت إلهاً في الأرض، فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ثم ضربه أخرى فأقبل إبليس يهوي، فمر بعيسى وهو يقول: يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً، ثم لم يعد إليه بعد ذلك.

إن إبليس حاول جاهداً إغواء عيسى وصرفه عن التوحيد بأن زين له أنه الإله، ولكن عيسى النبي العابد الموحد زجره وأعانه الله عليه بالملائكة، ولما يئس من إغواء عيسى مال إلى الناس ليبث فيهم هذا الاعتقاد المنحرف، فلما كان عيسى عليه السلام يداوي المرضى بالدعاء ومسحه عليهم بيده المباركة حضر إبليس في هيئة رجل وسيم ثري ومعه بعض أعوانه، فبدأ يتكلم ويخبر الناس بالأعاجيب فلما التفت الناس إليه قال: إن شأن هذا الرجل لعجيب، تكلم في المهد وأحيا الموتى وأنبأ عن الغيب وشفى المريض، فهذا الله، قال صاحبه: جهلت أيها الشيخ وبئس ما قلت لا ينبغي لله أن يتجلى للعباد ولا يسكن الأرحام ولا تسعه أجواف النساء، ولكنه ابن الله، وقال الثالث: بئس ما قلتما كلاكما قد أخطأ وجهل ليس ينبغي لله أن يتخذ ولداً، ولكنه إله معه، ثم غابوا بعد أن بثوا هذه السموم وبلبلة أفكار الدهماء من الناس والمغرضين وعيسى لا يزال مقيماً بينهم، فكيف بعد أن غادرهم؟ لذلك كان رد عيسى عليه السلام ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ فليس من حقي أن أقول مثل هذا الكلام لأن الرسالة التي كلفتني بإبلاغها لم تتضمن هذا الكلام وأنا التزمت بنص الرسالة ودعوتهم إلى توحيدك وعبادتك وحدك لا شريك لك، ومع ذلك ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي

﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة]، ومعنى توفيتني في هذه الآية: قبضتني إليك بالرفع إلى السماء، فعيسى لم يترك وراءه في الدنيا إلا دعوة الحق والخير دعوة كل الأنبياء من لدن آدم وحتى محمد عليه الصلاة والسلام، ألم يأت مبشراً برسولنا الكريم ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦﴾ [الصف] فكانت رسالته مكملة لرسالة موسى وعلى خطها وخطاها مع بعض التعديلات التي كتبت على بني إسرائيل بسبب تعنتهم وتشددهم وسؤالهم الأنبياء عن أشياء سكت الشارع الحكيم عنها وأرادوا هم معرفتها مفصلة بكل تفصيلاتها دون الاعتماد على الأساسيات وترك المسألة لاجتهاد المجتهدين، ومثال ذلك ما طلبوه من مواصفات البقرة الدقيقة التي أمروا بذبحها وقد كانت تجزؤهم أيّة بقرة، وكان من نتائج ذلك أن حددت لهم بقرة بصفات لا تشتبه مع غيرها فامتنع الاختيار فدفعوا الثمن باهظاً، فكان مسير عيسى على مسار الرسل السابقين توحيداً وعبادة؛ متواصلاً مع الرسالة الخاتمة التي بشر بها وبرسولها محمد ﷺ.

فكيف انقلب المتنفذون في بني إسرائيل على عيسى وقرروا قتله؟

لقد أصبح بنو إسرائيل مضرب المثل في قتل الأنبياء وتعذيبهم وتصفيتهم جسدياً، وكانوا في عهد عيسى قد بلغوا القمة في هذا الشأن دون خوف من وازع أو ضمير، وقتل يحيى وزكريا ليس ببعيد ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، ولهذا ليس غريباً عليهم أن يجمعوا أمرهم على قتل عيسى ويزهقوا روح هذا النبي الطاهرة، لقد جهد ما وسعه الجهد في أن يحمل همومهم وأن يكون معهم ينصحهم ويأخذ بأيديهم إلى السعادة في الدارين، فهو لم يطلب منهم مالاً ولا أجراً، كان يلبس الصوف والشعر وتكفيه اللقمة واللقمتان، ولم يكن جباراً ولا طاغية، لكن لسانه لسان

الحق وقوله الحكمة وميزانه العدل، وليس الذي حرك عليه رؤوس الكفر هذا التواضع وإنما جرأة في الحق ونهي عن المنكر، ولو أمسك لسانه عن الحق واقتنى الغلمان والجواري وكنز الذهب والفضة لكان عندهم مقرباً وطاعته واجبة، فهذا مقياسهم في المسالمة والمحاربة، وقد قيل في سبب طلب اليهود عيسى ليقتلوه، أن مجموعة من اليهود الأفاكين تلقوا عيسى في بعض الطرقات وانهالوا عليه شتماً وقذفاً لأمه، وقالوا: هذا الساحر ابن الفاعلة - يعنون الزانية - فسمع قذفهم له وحاول الصبر والتريث ومقابلة الإساءة بالصفح لعل هذه الأخلاق تردهم وتزجرهم لكنهم زادوا في التمادي والإيذاء، فدعا عليهم فاستجاب الله دعاءه ومسخهم خنازير، فلما رأى ذلك المتنفذون من الكهنة أجمعوا أمرهم على قتله وإلا حل بالجميع السخط والمسخ، واستقر أمرهم على ذلك وطلبوا المرتزقة من القتلة الذين لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً ولا طفلاً ولا امرأة وإنما معبودهم المال وبالمال ينفذون ما يطلب منهم مهما كان العمل قذراً ودوناً أو مستهجناً، فقام هؤلاء السفلة يطلبون عيسى في كل مكان يغلب على ظنهم أنه فيه، ومع القتلة رأس الكهنة ليكون الموت تحت إشرافه، ولما وجدوه قال لهم: يا بني إسرائيل إن الله يبغضكم، فتبعوه للإمساك به فأخذه جبريل وأدخله بيتاً فيه روزنة - طاقة علوية - في السقف ومنها رفعه الله إلى السماء، وتبعه رجل منهم - قطيبانوس - ليقتله فألقى الله عليه شبه المسيح ولما دخل البقية لم يجدوا إلا هذا فأخذوه فقتلوه وصلبوه وكان يصرخ بأنه ليس عيسى فلم يلتفتوا إلى دعواه، وقد وردت روايات أخرى في هذه الحادثة، منها: أن الله أعلمه بأنه خارج من الدنيا فجزع من الموت فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة، فلما اجتمعوا عشاهم وقام يخدمهم، فلما فرغوا أخذ يغسل أيديهم بيده ويمسحها بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال: من يرد علي الليلة شيئاً مما أصنع فليس مني، فأقروه حتى فرغ من ذلك - تركوه يقوم بخدمتهم - ثم قال: أمّا ما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة فلا

يتعاظم بعضكم على بعض، وأمّا حاجتي التي أستعينكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء أخذهم النوم حتى ما يستطيعون الدعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله ما تصبرون لي ليلة! قالوا: والله ما ندري ما لنا كنا نسمر فنكثر السمر وما نقدر عليه الليلة، وكلما أردنا الدعاء حيل بيننا وبينه، فقال: يُذهب بالراعي ويتفرق الغنم، وجعل ينعى نفسه، ثم قال: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني، فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه - أي يبحثون عن عيسى لقتله - فأخذوا أحد الحواريين - شمعون - وقالوا: هذا صاحبه، فأنكر، وقال: ما أنا بصاحبه، فتركوه، ثم أخذه آخرون - ممن يطلبون عيسى لقتله - فجحد أنه من أصحابه، ثم سمع صوت الديك فبكى - لأن ما قاله عيسى لهم قد تحقق - فهذا الذي كفر به - ثم أتاهم من الصباح أحد الحواريين فقال: ما تجعلون لي إن أنا دللتكم عليه؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلهم عليه - فهذا الذي باعه - ولكن الله ألقى عليه شبه عيسى فقبضوا عليه وأوثقوه وقتلوه ثم صلبوه.

أقول إنه يظهر في ثنايا هذه القصة تلفيق ظاهر، فليس عيسى الذي يجزع من الموت، فقد عاش متقشفاً لا زوج له ولا ولد ورأى كثيراً من خزي بني إسرائيل فلمَ الخوف من الموت وما عند الله له أفضل وأحسن فليس عنده من مظاهر الدنيا ما يغريه للتمسك بها، ولو أراد ذلك لطلب من ربه أن يزيد في أجله ولا حاجة ليلجأ إلى أصحابه ليتوسطوا له عند ربه بأن يزيد في أجله وهو يعلم أن أحد أصحابه سيبيعه والآخر سيرتد جاحداً أبمثل هؤلاء يرجو شفاعتهم عند ربه؟ ثم إن قصة هذين الخائنين من أصحابه فيها لا تصح فالحواريون قد مدحهم الله وجعلهم صفوة الأتباع وهم اثنا عشر حوارياً وضرب بهم المثل في التضحية ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران]، فلمَ يشوهون سمعتهم بالخيانة؟ وهذا من تلفيق

اليهود كيلا يقال في المتدينين خير وليبقى المتدينون موضع شك وتهمة، ولقد اتهموا الأنبياء من قبل بكل قبيح ولذلك فإن هذه القصة ملفقة لا ترقى إلى الصحة والتصديق.

❊ ❊ ❊

حقيقة النهاية للمسيح

قال الله تعالى في سورة النساء ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥]، وفي سورة المائدة ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فهذه الآيات كلها تدل على الآتي:

- نفي القتل والصلب عن عيسى عليه السلام.

- فالذي جرى في ظاهر الأمر من حيث القتل والصلب على الشبيه والله قادر على ذلك وهو الذي يقول هذا في كتابه العزيز.

- من شهد حادثة القتل والصلب الذي وقع على الشبيه التبس عليه الأمر فلم يفرق بين الأصل والشبيه وكان في غالب ظنه أنه عيسى.

- فاليقين لمن كان حاضراً الحادثة لو دقق في الأمر واستعاد ما قاله الشبيه حين قال: أنا لست عيسى، ولكن لم يسمعوا له لأن الصورة واحدة، ولأنهم كانوا في هيجان لا يسكنه إلا القتل والانتقام.

- ثبوت الرفع إلى السماء بنص الكتاب ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

- وعبارة ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ لها معان وينبغي أخذ المعنى الذي يوافق

سياق الآية في سورة النساء لأن القرآن يؤيد بعضه بعضاً ومن معاني متوفيك: النوم ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فكلمة يتوفى أعطت في هذه الآية معنيين، الموت الحقيقي، والنوم، فالنائم بحكم المتوفى الذي حجزت روحه عن جسمه فإذا لم يكن مع الميتين ترسل إليه روحه فيصحو من النوم، وورد عن ابن عباس قال: «للإنسان نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامه ويدع الروح في جوفه تتقلب وتعيش، فإن كان ممن قضى عليه الموت قبض الروح فمات، وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه» وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠] وأما الوفاة بمعنى الموت فقد ورد فيها عدد من الآيات منها ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وبمعنى توفية الحق ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة]، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل].

- وعليه قال أهل التفسير إن الله ضرب النوم على عيسى عليه السلام ثم رفعه إلى السماء.

- كف الله أيدي الذين كفروا عن عيسى وحماه من شرهم فرفعه الله تعالى إلى السماء وهو في السماء الأولى وهذا ما ذكره النبي ﷺ في حديث الإسراء والمعراج فقد رأى عيسى عليه السلام ومعه يحيى بن زكريا.

❃ ❃ ❃

عظمة الحوار

لنعد إلى الآيات من سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ تهمة افتراها أهل الكفر والضلال على عيسى عليه السلام بأن قال لهم: اتخذوني وأمي إلهين، والله تعالى هو الحكم العدل وأمامه يقف الخصوم ويدلي كل بما عنده، وبناء على ما ادعاه أهل الضلال يقف عيسى عليه السلام للسؤال ويعطى فرصة الدفاع عن نفسه، ولا ينبغي له السكوت بأن يقول: أنت يا رب عالم بما فعلت وبما تكلمت وليس عندي ما أقول، وإنما عليه أن يدفع التهمة بتقديم براءته ورد التهمة بالحجة الدامغة، لذلك أجاب عيسى ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا القول ليس من حقي أن أدعيه فأنا عبدك ورسولك وكذلك أمي العابدة الناسكة المعترفة بألوهيتك، ولم يكن ضمن دعوتي أن أدعي ما افتراه هؤلاء الخصوم أهل الأهواء والمصالح، ما أنا إلا عبد مأمور قلت ما كلفت به ولم أتجاوز الرسالة التي أمرت بأن أبلغها ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وبعد تقديم ما عنده من أدلة منطقية جعل الله شهيداً وهو الحكم العدل، ومع ذلك فهناك شهود أقوالهم معتبرة وذات قيمة لا يستهان بها وهم مثال الصدق وتأدية الشهادة على وجهها الحق، إنهم المسلمون أتباع الرسالة الخاتمة، أتباع محمد ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وتأتي هذه الشهادة من أمة محمد ﷺ تعزيزاً لموقف عيسى عليه السلام وتصديقاً لأقواله؛ بأنه أدى الرسالة كما أمره الله، فهم شهود عدول ونبيهم محمد ﷺ يزكي شهادتهم، وهذا مثل يحتذى في الدنيا بضرورة الحوار وإعطاء الفرصة للمتهم بأن يظهر براءته بما يجد من وسيلة لذلك.

➢ ماذا قالوا عن نهاية المسيح؟

قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم] وقصد بالأحزاب اليهود والنصارى، وقالت اليهود: هو ساحر ولم يعترفوا بنبوته كما اتهموه بأنه ابن يوسف النجار وما إلى ذلك من التهم، أما النصارى فقد اختلفوا على ثلاثة أقوال، فقسم منهم قالوا: كان فينا عبد الله ورسوله فرفعه الله إلى السماء وهم طائفة على الحق، وقسم قالوا: هو الله، وقسم قالوا: هو ابن الله، وقد تكلم القرآن عن هذه الطوائف، وبيّن الأقوال الضالة، وتوعدهم بالعذاب الأليم، وحذّر أن مثل هؤلاء لا نصير لهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران] لقد كفر أصحاب هذا الاعتقاد بقولهم: إن عيسى هو الله، مع بيان أن دعوة عيسى عليه السلام هي دعوة توحيد لله الخالق العظيم وعدم الشرك به أو إشراك أحد معه، وأن من يعتقد عقيدة الشرك فقد حرم الله عليه الجنة وأن النار مثواه خالداً فيها ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ تخطئة أخرى لفئة أخرى ضلت القصد وتاهت عن الطريق المستقيم وألغت العقل والتفكير السوي واتخذت من عقيدة التثليث منهجاً لها وهذا بعيد عن التفرد الإلهي والتصرف في الكون بلا منازع وهي صفة الخالق التي ينبغي أن لا تكون إلا له، وكيف تكون له وحده وقد جعلوه ثالث ثلاثة، ولهذا تلقوا الوعيد الشديد والعذاب الأليم إن أصروا على هذه العقيدة، وأما من اشتبه عليه الأمر من طريقة خلق عيسى بلا أب فعليه أن لا يأخذه تفكيره إلى التصور الخاطئ بأن يوصله بالله بنسب أو قرابة، فهذا لا ينبغي أبداً، فالله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ وإنما ليتذكر كيفية خلق آدم بلا أب أو أم ومع ذلك لم ينسب أحد آدم إلى صلة قرابة أو نسب مع الله رغم أن معجزة خلقه وتكوينه أكبر من معجزة خلق عيسى وتكوينه وكلاهما هين

علـى الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] فلماذا الخطأ بشأن عيسى ألأن الشيطان لبّس الأمر على مريديه فغالوا فيه بغير الحق فحرفهم عن الطريق السوي ومال بهم إلى الضلال والتيه؟ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران] فهذا القول الحق الذي ينبغي أن يقال عن عيسى عليه السلام ولا ينبغي الغلو في القول والافتراء، قد يكون أمر الرفع قد اشتبه على النصارى ورأوا المقتول أو المصلوب شبه عيسى، لكن غاب عنهم قول هذا الشبيه لهم وهو يتقدم إلى الموت بأنه ليس عيسى وأنه هو الذي دلهم عليه فلم يصدقوه، وقد رآه وسمعه بعض الحواريين وعرفوا أن المصلوب ليس هو بدليل افتقاد أهل الشبيه لولدهم فلم يرجع إليهم، كما يروى أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيكم يحب أن يلقى عليه شبهي وهو مقتول؟ فقال رجل منهم: أنا يا روح الله، فألقي عليه شبهه فقتل وصلب، وهذا هو الراجح من الأقوال، وبهذا قالت الفرقة الناجية منهم: بأنه عبد الله ورسوله رفع إلى السماء، ولو أن الأمر فيه التباس لما قالت هذه الفرقة هذا القول فمن أين أخذت العلم لو كان أمره معمى على الجميع؟ ولهذا جاء النداء من الله تعالى لأهل الكتاب بالعودة إلى الصواب وتصحيح ما أدخله عليهم المغرضون من أهل الزيغ والضلال الذين اتبعوا أهواءهم بتلبيس الشيطان عليها ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ ويلاحظ أنه في كل مرة يذكر فيها المسيح في القرآن الكريم يذكر باسمه الكامل ليمنع اللبس والتأويل بأن المقصود هو عيسى ابن مريم نصاً، فلا يستطيع بعض المغرضين وأهل الزيغ أن ينفذوا من خلال النص لتحقيق مآربهم في الإضلال، مثلما أولوا في سورة يوسف ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ فقالوا: إن اسم أخو يوسف نكتل، ونكتل: فعل مضارع مجزوم بفعل الطلب أرسل، وكذلك عندما ذكرت قصة موسى

مع الخضر قالوا ليس المقصود بموسى النبي، علماً بأن موسى لم يذكر في القرآن الكريم إلا باسمه العلمي «موسى» أما عيسى فقد ذكر عند المواقف الحساسة باسمه كاملاً لمنع التأويل والتدليس.

وتتابع الآيات ذكر عبودية عيسى لله ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: والملائكة المقربون لن يستنكفوا فالكل عبيد مهما آتاهم الله من القوة وأحدث على أيديهم المعجزات، فهم أولاً وأخيراً عبيد فبأمر الله يعطون القوة وبأمره يسلبونها ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء]، وفي الصحيحين عن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

❋ ❋ ❋

أقوال مختارة لعيسى ابن مريم

ورد أن عيسى عليه السلام نبّئ وهو ابن ثلاثين عاماً ورفع وهو ابن ثلاثة وثلاثين، وقد نعت النبي ﷺ عيسى حيث رآه ليلة أسري به وعرج به إلى السماء، قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**ليلة أسري بي لقيت موسى قال فنعته فإذا رجل حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني الحمام، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به**» وكانت مدة الدعوة ثلاث سنين، وأنها دعوة توحيد وسلام وكانت في منطقة القدس وبيت لحم، وأن

عيسى لم يخض من أجل هذه الدعوة حروباً مع العدو المعاند رغم شراسة الممانعة والتعذيب وملاحقة عيسى لقتله، وها هم عندما قبضوا على الشبيه لم يرحموه بل قتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى، وبناء على هذا فهم قتلة الأنبياء والصالحين والدعاة.

وروي أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً يسرق، فقال: يا فلان أسرقت، فقال: لا والذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني» وهذا من حسن سجية عيسى وقبول أعذار الناس، وقال للحواريين: «يا معشر الحواريين لا تُحدثوا بالحِكَم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» وقال: «الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فردوا علمه إلى الله عزَّ وجلَّ» وقال: «لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير» وقال لأصحابه: «أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم» وقيل له: من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير» وقال مخاطباً علماء السوء «يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها» وقال لهم أيضاً: «يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه».

➢ الحواريون يبلغون الدعوة:

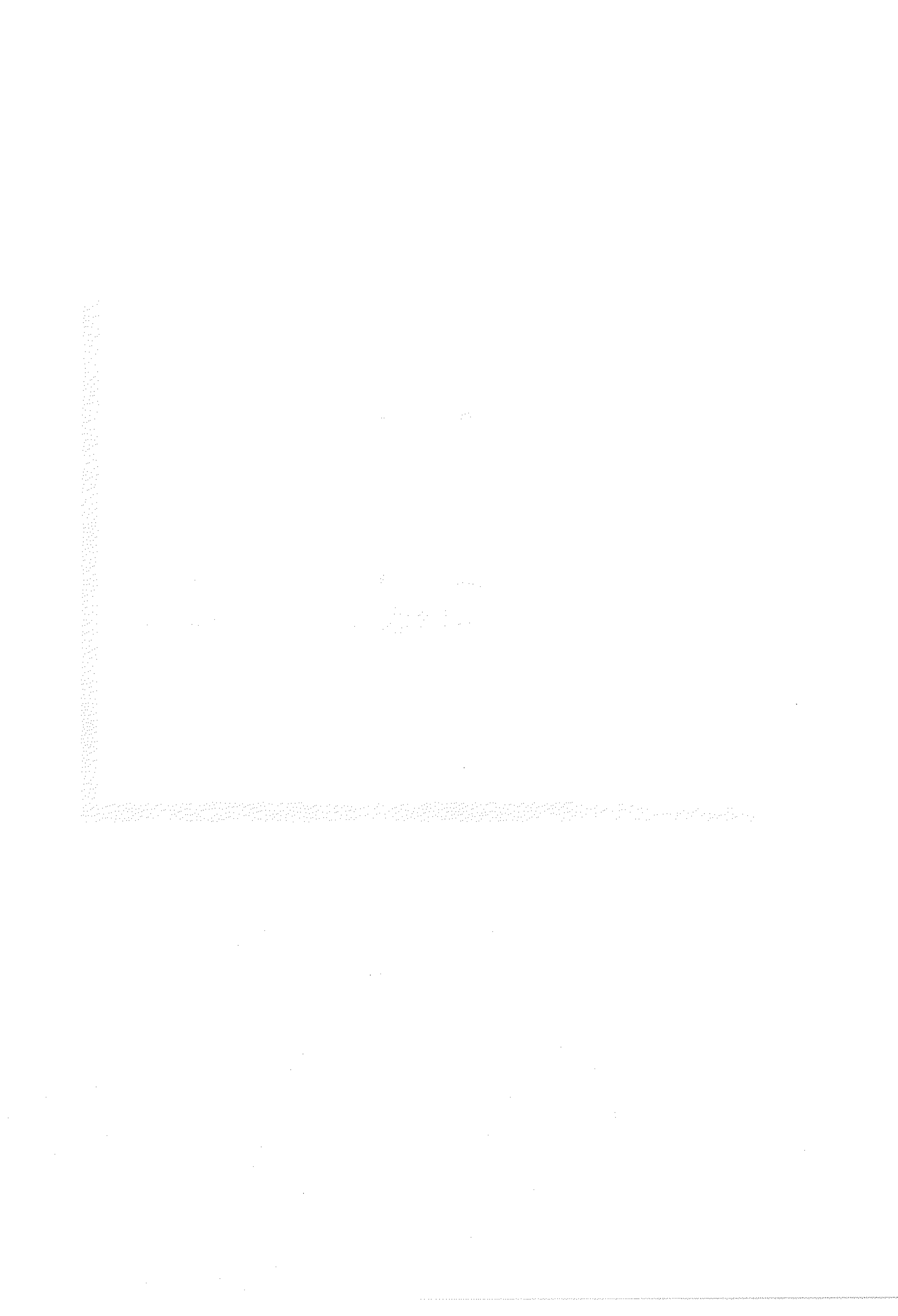
لم تكن المدة التي دعا فيها عيسى بني إسرائيل بالطويلة ـ ثلاث سنين ـ ولم يتمكن من توسيع دائرة دعوته إلى البلدان المجاورة للقدس فعاجله الكهنة من بني إسرائيل بالتكتل ضده وشكلوا فرقة لقتله والتخلص منه وكانوا يريدون بهذا وأد دعوته في المهد قبل أن تنتشر وترى النور، ولكن الله تعالى قيض لدعوته الحواريين وكانوا اثني عشر حوارياً اجتمع بهم عيسى

قبل أن يرفعه الله وأوصاهم بنشر الدعوة والتفرق في البلاد ودعا لهم بأن تكون لغة كل واحد منهم مثل لغة القوم الذين يدعوهم، وروى ابن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعَيّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب، فذكروا أنه أصبح كل واحد منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. لكن الأناجيل التي نقلها الحواريون عن عيسى وهي أربعة بينها تفاوت كبير مما أحدث بلبلة بين الأقاليم، ولما دخلها التحريف بعد مضي الوقت ظهرت الفرق النصرانية المتفاوتة في الاعتقاد، لقد اضطهد اليهود الحواريين وأتباع المسيح وعاملوهم بمنتهى القسوة والشدة والتنكيل، وكاد أن يقضى عليهم لولا أن تبنى ديانتهم أحد الملوك ـ قسطنطين ـ فعمل على حماية المسيحية ونشر معتقداتها ولكن وفق طريقته ومبلغ علمه واعتقاده.



قصص للعبرة لغير الأنبياء

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه].



أ. قصة أهل الكهف

ورد في سورة الكهف عدة قصص فيها العظة والعبرة والموقف الإيماني وما غبر من أحداث التاريخ والأمم الماضية، وذكرها في القرآن الكريم دليل أهميتها لتكون مثلاً ونموذجاً لأحداث كانت تجري عبر حياة الأمم ومسيرتهم التاريخية عبر الزمن، وقد ورد أن ورود هذه القصص في سورة الكهف أن اليهود في المدينة زودوا كفار قريش بعدد من الأسئلة ليطرحوها على رسول الله ﷺ ليتأكدوا من صدق نبوته، قالوا: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرُوا رأيكم فيه، **سلوه عن فتية** ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ إنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن **رجل طوّاف** قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبوءة؟ وسلوه عن **الروح** ما هي؟ وأتى الوفد من قريش مكة، فسألوا رسول الله ﷺ هذه الأسئلة، فقال لهم: «**أخبركم بما سألتم غداً**» ولم يستثن ـ أي لم يقل إن شاء الله ـ فمكث رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً لا يُحدِث الله إليه وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عزَّ وجلَّ بسورة أصحاب الكهف، فبعد المقدمة بدأ ذكر أصحاب الكهف من الآية التاسعة ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ خطاب للنبي ﷺ بأن أصحاب الكهف لم يكونوا وحدهم

من آيات الله العجب، بل إن كل آياته عجب، فيها العبرة والحكمة والعظة فيها شد العزيمة لأهل الإيمان وفيها التثبيت لأهل الحق فلا يستذلون للباطل والعقيدة الوثنية الضالة، فالعزة لأهل الإيمان والنصر لهم والخاتمة لهم، فمن هم أصحاب الكهف؟ فتية من المؤمنين تأذوا من مجتمعهم الوثني ومن إكراه الناس على عبادة الأوثان والشرك بالله من قبل ملك طاغية زين الشيطان له هذا الفعل المنكر، ولكن فئة من الشباب المتنور الذي عرف الحق وتعلق قلبه بالله الواحد الخالق الرازق، وقد رسخ الإيمان في قلوبهم فغدا أثبت من الجبال، وأما زمن هؤلاء الأصحاب فهو لا شك ضمن الفترة التي ابتعد الناس فيها عن شريعة التوراة الصحيحة من بعد داود وسليمان، حيث مرت فترة تشرذم وقيام ممالك انحرف معظمها عن الطريق السوي وعبد بنو إسرائيل الوثن فقد ذكر أن أبيّا أحد ملوك بني إسرائيل كان يعبد الأوثان ولما مات ملكَ من بعده ابنه أسا فأعاد التوحيد، فاعترض قومه على العودة إلى الدين الحق فوسطوا أمه وكانت تقدس الأصنام، فتحملت لهم أن تكلمه وتصرفه إلى عبادة أصنام والده، فبينما الملك قاعد وعنده أشراف قومه ورؤوسهم، إذ أقبلت، فقالت: لست ابني إن لم تجبني إلى ما أدعوك إليه وتضع طاعتك في يدي حتى تفعل ما آمرك به وتجيبني إلى أمر إن أطعتني فيه رشدت وأخذت بحظك وإن عصيتني فحظك بخست ونفسك ظلمت، إنه بلغني يا بني أنك بدأت قومك بالعظيم، دعوتهم إلى مخالفة دينهم والكفر بآلهتهم والتحول عما كان عليه آباؤهم.. وهكذا نرى في هذا الخطاب خبيئة نفسها المنطوية على تقديس الأصنام والاندفاع بشدة لنصرتها وحث ابنها على الامتثال لها طاعة لأوثانها، لكن الولد أبى ذلك وأمر بإخراجها والحجر عليها، أوردت هذا النموذج لتبيان ما حدث لبني إسرائيل من الانتكاسة الدينية والردة إلى عبادة الوثن، ورد في العهد القديم أن العبرانيين انصرفوا عن عبادة إلٰههم إله موسى لعبادة آلهة آخرى «البعليم والعشتاروت» وظلوا كذلك إلى أن ردهم صموئيل إلى عبادة الرب الأوحد. وفي فترة من هذه الفترات ظهر الشبان المؤمنون الذين أبوا الانصياع إلى العبودية للصنم وتمسكوا بمنهج النبوة، واتعدوا فيما بينهم أن يهجروا قومهم

ويلجؤوا إلى أحد الكهوف لكي يروا أمرهم على روية ويفكروا فيما يفعلونه للنجاة من الردة القسرية التي يحملهم عليها الملك الضال ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ والكهف في اللغة نفق واسع داخل الجبل وهو أكبر من الغار، وقد اختلف في مكان هذا الكهف الذي أوى إليه هؤلاء الفتية، قيل: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ فلما وصل هؤلاء الفتية المؤمنون إلى الكهف وكان في نيتهم أن يمكثوا فيه ليالي معدودة ليقرروا البقاء في هذا البلد أو الهجرة إلى غيره فراراً بدينهم، ولكن عين الله التي تحرسهم وترعاهم جعلت منهم آية باهرة وحديثاً يروى، فقد ضرب الله عليهم النوم، وكان التعبير القرآني غاية في البلاغة ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ وهذا يعني النوم الثقيل فقد ضرب الله على آذانهم حجاباً ثقيلاً وعازلاً يمنع وصول الأصوات إليها لكي يناموا سنين طويلة ذوات العدد، فلما وصف السنين بالعدد دل على الكثرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ وبعد النوم الطويل على غير المألوف أيقظهم الله تعالى لكي يتبين الناس هذه المعجزة ومن الذي أحصى بشكل صحيح مدة مكثهم في الكهف فيروي هذه المعجزة على جليّتها وأنها استغرقت سنين، وقد اختلف في الحزبين اللذين اختلفا في إحصاء المدة، والظاهر أن اختفاء هؤلاء الفتية ـ وهم أبناء الأكابر في بلدهم ـ قد أحدث ضجة وتساؤلاً عن سبب اختفائهم ففتشوا عنهم في كل مكان فلم يعثروا لهم على أثر، وهنا أرخ الناس بيوم اختفائهم في سنة كذا من حكم ملكهم فلان .. وهكذا دخل هؤلاء الفتية التاريخ، والفئة الثانية هي التي اكتشفتهم وقدرت مدة مكثهم في الكهف وفق ما رأت من هيئتهم وحالهم،ومع ذلك فالقول الفصل لا من الفريق الأول ولا من الفريق الثاني وإنما هو بيان من الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ بدأ التعريف بهم وتزكيتهم لإيمانهم بربهم وتمسكهم بشرعه الحنيف فقد ازدادوا هدى أي علماً يقينياً بشريعتهم وأحكامها الهادية التي تزيد المؤمن إيماناً ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

وفوق الإيمان الذي اتصفوا به برباطة الجأش وقوة العزيمة على تحمل فراق الأهل والوطن، فقد آتاهم الله الصبر وقوة الإرادة لكي يتخذوا مثل هذا القرار بهجر بلد الشر على الرغم مما فيه من مكابدة الحنين إلى الوطن وما فيه من أهل وذكريات، فقدموا سلامة العقيدة ومحبة الله على كل شيء سواه، ثم ذكروا عقيدة قومهم الضالة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ فقد اتخذ ملكهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله وانساق معهم القوم غير مستنكرين، والحق ليس معهم، هلا أتوا بدليل قوي على صحة ما يعبدون؟ إنهم يفترون على الله الكذب ويدعون التقرب إليه بهذه العبادة الضالة والخضوع للأصنام وهم كاذبون يعبدون أهواءهم وشيطانهم الذي أضلهم عن سواء السبيل وعن عبادة الله الواحد ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ والظاهر أن القوم كانوا على عبادة الله الواحد فرأى الملك دقيانوس أن يضيف عبادة غير الله كالأصنام وهذا ما جعلهم مشركين غير موحدين تنبغي مفارقتهم، ولقد هدى الله الفتية إلى التفكير السوي وألقى في قلوبهم التوجه إلى الكهف تخفياً فيه، وأنه سيمدهم بعونه وما يلزمهم من غذاء وماء، لذلك حبب إليهم الاعتزال والمفارقة وعدم السكنى معهم في مكان واحد؛ لأنهم بهذا سوف يؤثرون على عقيدتهم ويضغطون عليهم بشتى الوسائل حتى يردوهم عن دينهم، لأنهم فعلوا هذا مع غيرهم ولم يبق إلا هؤلاء الفتية جذوة متوقدة بالإيمان يقاومون الشر ولكن إلى متى؟ فالقوة غاشمة قاهرة وليس لهم إلا الهجرة ومفارقة الشر كي لا يسقطوا فيه، وإن الكهف هو المخبأ الوحيد لهم وفيه سيجدون الملاذ الآمن تحفهم رعاية الله وهكذا اتفقوا على الاختباء فيه فتسللوا إليه خفية، وقد روي أنهم دخلوا الكهف فرأوا عنده عين ماء جارية وثماراً فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء فلما جنهم الليل ضرب الله على آذانهم النوم، فناموا ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ ولهذا الكهف مواصفات جغرافية فلكية فالشمس عند مطلعها صباحاً لا تدخل كهفهم

مباشرة بل تميل عنه قليلاً إلى اليمين، وعند الغروب لا تقترب منهم أيضاً بل تتركهم وتتجاوزهم، والمعنى أنه لا تصيبهم شمس الشروق ولا شمس الغروب، ففي أي اتجاه كانت فتحة الغار؟ فهي في الغالب منفتحة على الجنوب مع ميل نحو الغرب، فعند الشروق في فصل الشتاء تشرق الشمس موازية لهذه الفتحة وبالتالي فلا تدخل أشعتها في الغار وعند الغروب تكون الشمس قد تجاوزت مواجهة الغار بانحرافها قبيل الغروب شمالاً وهذا ما عنته الآية بكلمة ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ فإذا كان هذا في فصل الشتاء ففي الصيف يكون فم الكهف أكثر بعداً عن الشمس حيث تميل الشمس في هذا الفصل نحو الشمال وبالتالي تمر من وراء فتحة الكهف، وقيل فتحة الكهف نحو الشمال وهذا يعني عكس التحليل السابق، ففي فصل الصيف يحدث التزاور والقرض وفي فصل الشتاء لا يرى الكهف الشمس والتحليل الأول ألطف يستفيدون من شمس الشتاء ولا يؤذون بشمس الصيف. ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ وبالرغم من عدم دخول الشمس فم الكهف فإن مكان إقامة الفتية كان في فجوة في داخله وبالتالي فمن غير الممكن أن تصلهم الأشعة مباشرة فهم في ظلمة، وهذا الذي اختاره الفتية من أجل التعمية على من يطلبهم فلا يمكن رؤيتهم، وهذا الاختيار كان هداية من الله لهم حيث شرح صدرهم له وكانوا هم يقصدون التخفي عن عدوهم الضال فإذا طلبهم فلا يستطيع رؤيتهم، ولكن الله تعالى هو العالم بمصيرهم والمقدر لجعلهم آية ومعجزة فكان المكان بهذه المواصفات يخضع إلى التهوية الباردة التي تبقى طول أيام السنة فأصبح مكانهم أشبه بالثلاجة الباردة الجافة التي تحفظ الأجسام من التفسخ ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ وعند النظر إليهم تحسبهم أيقاظاً لأن العلامة التي تميز النائم عن الصاحي غير متحققة مع هؤلاء الفتية وهي إغماض العينين، فالعيون مفتحة، فهم صاحون نائمون، يتقلبون كما يتقلب النائم وإلا لأكلت الأرض من أجسامهم فهذه حكمة الله فيهم أن ضرب عليهم النوم الطويل ولكن جعلهم في هذه المدة يتقلبون كما يتقلب النائم ذات اليمين وذات

الشمال، فأرواحهم ترسل إلى أجسامهم بين فترة وأخرى، فهي ليست من الأرواح التي قضى عليها الموت فأمسكت أرواحهم عنهم ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢] وكان لكلب أصحاب الكهف ذكر فقد عومل معاملتهم وذكر كأنه واحد منهم، وكعادة كلب الحراسة يبقى خارج البيت في الفناء ويجلس جلسة المستريح اليقظان وعيناه باتجاه المدخل، وكانت هذه حاله عندما دخل الفتية الكهف ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ﴾ صورة رائعة من الواقع المشاهد لعادة كلاب الحراسة، وقد تكلم في الكلب أكان لأحدهم فتبعه أم كان عابر سبيل؟ وقيل لما خرجوا ليلاً مروا على راع عنده كلب فنبحهم فهربوا منه كيلا يُعلم عنهم فتبعهم ولما أووا إلى الكهف انتظر في الخارج على الحالة التي وصفه الله بها وهو ينتظر خروجهم، فأصابه ما أصابهم، وقيل جعله الله ينتظر في الخارج فلم يدخل معهم الفجوة لئلا يمنع بوجوده دخول الملائكة، فالملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة أو كلب، وذكر أن اسم الكلب «حمران» وقيل: «قطمورا» ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قيل: الخطاب للنبي ﷺ وقيل: لمن يراهم من الناس على مختلف العصور، فالخوف من رؤيتهم يكمن في مظهرهم حيث الشعر الطويل والأظافر الطويلة، وقيل: لمهابة النظر إليهم لأنهم محل المعجزة الدالة على قدرة الله تعالى في إبقائهم على قيد الحياة طول هذه المدة ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ﴾ وبعد النوم الطويل هبوا جميعاً من رقادهم وجلسوا يتكلمون، وتساءلوا عن مدة مكثهم في الكهف فقالوا أول الأمر يوماً أو بعض يوم ولعلهم في الوهلة الأولى لم يتبينوا أشكالهم للعتمة التي كانوا فيها فقالوا يوماً أو بعض يوم هكذا يظن النائم لأنه لا يشعر بكر الدهر لانعدام الزمن عنده، ولكن حين بدأت أعينهم تتآلف مع الرؤية وتبينت حالتهم من حيث طول الشعر والأظافر والهيئة الغريبة التي كانوا عليها ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ولما اشتبهت عليهم المدة تركوا تقديرها لله، وشعروا بالجوع فقد عادت إليهم متطلبات الحياة من طعام وشراب، لذلك

عمدوا إلى اختيار أحدهم لتأمين الطعام لهم ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ لقد جمعوا له ما عندهم من دراهم - فضية - ليشتري لهم الطعام مع التوصية بأن يختار الطعام الحلال فهم عندما قاموا بالمفاصلة بينهم وبين قومهم لأنهم أشركوا بالله فما عادت ذبائحهم بالحلال، ولذلك كان على مبعوثهم أن يبذل الجهد لاختيار الطعام الحلال من غير الذبائح وربما قصدوا السمك فهو الوحيد من اللحم الذي يمكن أكله في ديار المشركين ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ وكان الوصية الثانية بأن يتلطف في الشراء دون مساومة أو مجادلة فليختصر من الكلام مع الباعة ما أمكن حتى لا يتبينوا أمره فكثرة الكلام والجدال معهم قد يكشف المستور، وعاقبة ذلك أليمة علينا جميعاً ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ فإذا ما اكتشفوا أمرنا قبضوا علينا وأعادونا قسراً إلى ملتهم الضالة وفي هذا الخسران المبين الذي لا يجبر مدى الدهر لأن مصير الكفار الذين يموتون على كفرهم إلى النار خالدين فيها أبد الآبدين فأين الفلاح بعد هذا؟ إنه الخسران الأبدي،وربما أخذونا وقتلونا أو رجمونا حتى الموت وفي كلا الحالين فإن اكتشاف أمرنا سيجلب لنا الأذى والضرر فاحرص على التستر والتخفي، لذلك كان حرصهم على عدم انكشاف أمرهم أبلغ من حرصهم على تأمين الطعام، ولكن هم يخططون من واقع مشكلتهم والله له الأمر الفصل فالأمور تجري وفق مشيئته عزَّ وجلَّ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ وهذا الإيقاظ لأهل الكهف بداية التعريف بهم وإظهار أمرهم لكي تتبدى المعجزة للناس، لقد كشف الله أمرهم من حيث الشكل والهيئة ومن حيث العملة التي قدمها موفدهم لشراء الطعام، فالعملة قد تبدلت وتغيرت وهي تثبت وقت دخولهم الكهف فقد سُكّت في عهد ملك مضى وغبر، وتجمهر الناس حول المخلوق الغريب وانهالت عليه الأسئلة ووصل أمره إلى الحاكم وكانت المفاجأة الكبرى للناس إنهم الفتية الذين

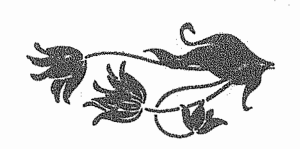
هربوا من ظلم الملك «دقيانوس» الطاغية الجبار المشرك، وقد تغير الحال الآن وأصبح الناس على دين صحيح فاهتموا لأمر الفتية وانطلقوا إلى الغار ليروا بقية الفتية ولما دخل موفدهم ليخبرهم بما حصل معه وأن هذا الزمن قد تقدم أكثر من ثلاثمائة عام وأن الناس ليسوا ممن يعرفونهم فالعصر ليس عصرهم والأهل ليسوا أهلهم فلا حبيب ولا قريب ولا صديق ولا نسيب، فقالوا بصوت واحد: كم لبثنا؟ ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ فشهقوا لطول هذه المدة التي مكثوها عجباً واستغراباً وعرفوا أن مكانهم الصحيح ليس مع أهل هذا الزمن،لقد عرفوا الحكمة وعرفوا صدق موقفهم وأن الله ناصر أولياءه فلا يخش من كان مع الله أبداً، مكثوا ثلاثمائة سنة وفق الحساب الشمسي وثلاثمائة وتسع سنين وفق الحساب القمري نياماً ثم أعادهم الله إلى الحياة من جديد فكانوا مثلاً لمن رآهم في الصبر والإيمان وعبرة لمن خلفهم للثبات على المبدأ، لكن لم يجرؤ أحد على الدخول إلى الفجوة التي كانوا فيها وانتظروا خروجهم، فلم يخرجوا لقد أماتهم الله الموتة الحقيقية، وهنا بنى عليهم أهل بلدهم جداراً يمنع الوصول إليهم ليرقدوا في مثواهم الأخير ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ لقد وقع الجدال في حقيقة عددهم لأن من اكتشفهم لم يجرؤوا على الدخول إلى مكانهم الذي ناموا فيه وإنما لمحوهم من بعيد من خلال العتمة فلم يتبينوا عددهم فصار العدد خرصاً وتخميناً وليس مؤكداً، ومنهم من اعتمد على رواية من ذكرهم يوم غابوا، فلم يثبتوا رقماً صحيحاً، والقرآن كما نرى ركز على العدد الفردي لهم لكنه عدّ الثلاثة والخمسة من باب الرجم بالغيب وسكت عن السبعة ولعله هو الصواب والله أعلم، ولما اختلفوا في كيفية تكريمهم، قال المتنفذون في البلد وهم على غير فقه ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ من باب التكريم والحب لهم.

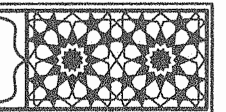
ذكر المفسرون أن مكان الكهف كان في مدينة **الرقيم** وهو في منطقة أيلة في الأردن وقيل في **نينوى** في العراق وقيل في **البلقاء** وقيل في **أفسوس**

بتركيا اليوم، وعندي أن مدينتهم لم تجاوز الأردن ـ أي البلقاء ـ ولم يذكر التاريخ أن بلاد أفسوس قد ظهر فيها النبوات، وقيل إن زمان أصحاب الكهف كان بعد المسيح عيسى وهذا خطأ، فلو رجعنا إلى أصل الخبر لرأينا أن اليهود هم الذين ذكروهم وقالوا: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر فلا يدرى ما صنعوا؟ فهم من اليهود وعلى دينهم وإلا لما ذكروهم، فاليهود لا شأن لهم بدين عيسى ولا يعترفون به أصلاً، لذلك فهم أبعد الناس عن ذكر معجزة تخصه، فالقصة وحوادثها لا تخرج عن نطاق بني إسرائيل حيث تعددت فيهم النبوات واستمرت من النبي إسحاق إلى عيسى ابن مريم، وكانت ضمن مناطق الأرض المقدسة إلا ما حصل في فترات داود وسليمان، قال ابن كثير: واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى.

أقول: ولو كان الاضطهاد بعد المسيح في فترة الاضطهاد الديني للنصارى لكان ظهورهم في منتصف القرن الرابع الميلادي أو في نهايته، وفي هذه الفترة لم يكن في عرف النصارى مسمى المسجد على أماكن العبادة عندهم وإنما كان هذا المصطلح في العصور السابقة للمسيح.

ورد في القرآن الكريم إماتة الله لعزير مائة عام ثم بعثه ولما سأله كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم، وكذلك بالنسبة لأهل الكهف الذين لبثوا ثلاثمائة سنة ولما أفاقوا سألوا بعضهم بعضاً فكان الجواب يوماً أو بعض يوم، وفي سورة المؤمنون ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ ومن هذا نستنتج أن زمن الفترة وانتظار القيامة بالنسبة للأموات سريع أي لا يحسون بطول الانتظار فالذي أماته الله مائة عام والذي أماتهم الله ثلاثمائة عام والذين أماتهم الله حتى قيام الساعة كان جوابهم واحد، وعلى هذا فالوقت بالنسبة لمن مات قبل ألوف السنين ومن مات حديثاً واحد «فقد تساوى في الثرى راحل غداً وماض من ألوف السنين».





ب ـ ذو القرنين

وردت قصته أيضاً في سورة الكهف، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ وكان السؤال الثاني عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبوءة، فكان الجواب بأن هذا الرجل هو ذو القرنين، وقد أفاضت الآيات في وصفه وذكر أعماله الخارقة حتى التبس على عدد من المؤرخين حقيقته الدعوية فذكروه مع الأنبياء، وورد عن علي رضي الله عنه قال: «لم يكن نبياً ولا رسولاً ولا مَلَكاً، ولكن كان عبداً صالحاً» وقال ابن عباس: كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصوراً وكان الخضر وزيره، وذكر أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل، وورد أن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد، ووفق ما ذكره القرآن عنه، فإن الله تعالى قد أثنى عليه بالعدل وأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وملك الأقاليم وقهر أهلها وسار فيهم سيرة حسنة وأنه كان من الملوك العادلين، لكن اختلفوا في اسمه ومن أي البلاد هو، فقيل هو الإسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا بأسرها باني الإسكندرية، أقول وهذا خطأ كبير لأن الإسكندر هذا لم يكن من أهل التوحيد بل كان وثنياً ووصل إلى المشرق حتى الهند ولكنه لم يصل في فتوحاته إلى أقصى المغرب، والخلاف في تحديد اسمه ونسبه ومسقط رأسه كبير حتى إن الفخر الرازي جزم بأنه الإسكندر المقدوني وهذا خطأ فادح وشتان بين مؤمن مؤيّد من الله ووثني اتخذ من مبدأ الفلاسفة ديناً له لما فيه

من الخلط الكبير في العقيدة، ومع ذلك فإنه لم يرو عنه أنه في غزواته قد وصل إلى يأجوج ومأجوج وبنى عليهم السد كما ذكر القرآن، فالقرآن جلّى لنا كثيراً من أخباره مما يعطينا تصوراً وافياً عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ لقد أعطاه الله قوة كبيرة بدنية في جسمه وفكراً مستنيراً وأمده بجيش قوي كبير، والتمكين في الأرض يعني بسط السيطرة والقوة والغلبة على العدو وتسخير خيرات الأرض وما فيها لصالحه وتذليل طرقاتها ومياهها وبحارها له فلا يستعصي عليه شيء فيها، والسبب: بمعنى الطريق الموصل إلى الغاية المرجوة، ولقد أخذ في كل الأسباب التي سخرها الله له لذلك طاف العالم فاتحاً ومرشداً ومصلحاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وقد اتجه إلى أقصى الغرب وهناك وجد الشمس تغرب في عين ماء حارة وربما عنى بالحمأ: الطين الأسود الناتج عن تحلل الصخور البركانية، وأما الشمس حقيقة فهي في السماء ولا تغرب على الحقيقة في شيء على الأرض وإنما هذا الغروب هو حسب رؤية الرائي لها، وإلا فإن قطر الشمس أكبر من قطر الأرض بمائة وتسع مرات فكيف تغرب الشمس في عين حمئة من عيون الأرض؟ فهذا لا ينبغي إلا أن يكون بحسب رؤية الرائي لها كما لو رأيناها تغرب خلف الجبل أو في البحر ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ فانطلق إلى المكان عند العين الحمئة الحارة فوجد عندها قوماً يقيمون حولها ولعلهم من خلال البيئة التي تضمهم نتوقع أنهم كانوا أهل زراعة وفلاحة ومن ذوي البلاد الحارة التي لا يحتاجون فيها إلى ملابس غليظة تقيهم البرد ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ وهؤلاء القوم لم يكونوا على دين حق لذلك خيره الله بين أن يأخذهم بالقتل والعذاب وبين أن يدعوهم بالحسنى إلى الإسلام ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ وهذا بعد دعوته إلى الحق وبيان الطريق السوي وعبادة الله الخالق الواحد، فإذا أبى المدعو من تلبية الدعوة يكون قد ظلم نفسه بالبقاء على الشرك ورفضه الإيمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ واستحق العذاب من قبل ذي القرنين ويكون قد أعذر

في ذلك ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ وهذا سيكون يوم القيامة حيث يهوي الملحدون والمشركون في النار ويكون عذابهم أليماً شديداً ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أما الذين آمنوا واتبعوا طريق الهدى فهم بحق الراشدون العاملون في الخير والإصلاح والإعمار فلا يقترفون منكراً ولا يصرون على معصية فلهم الجنة في الآخرة جزاء لما قدموا، ولهم في الدنيا التيسير والعيش الهنيء والمعاملة الحسنة من قبل ذي القرنين، فهم الذين يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] في الخير والتقوى والعمل الصالح، فيجعل الأرض مهداً وسلاماً فلا يقترف فيها المنكرات ولا القتل أو التدمير والتخريب، طائع لله عزَّ وجلَّ عامل بتعاليمه التي تقضي بالمحبة والسلام ونشر الخير والمودة وصلة الأرحام ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ فغادرهم في اتجاه آخر وإلى جهة أخرى بعد أن أصلحها واطمأن على نشر الإسلام فيها متخذاً ما سخر الله له من الأسباب في الخير وتعميمه فوق الأرض ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ فعاد أدراجه من جهة الغرب ليطلع على أحوال الناس في الشرق ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وجد القوم عراة لا يلبسون ما يسترهم وهذا دليل على بدائيتهم الموغلة في الجهل فهم والبهائم سواء فلا يملكون أدنى حضارة ولا شيئاً من المعرفة وإلا لكان لهم من الشمس ستراً ولو بما يجدونه من المواد المتوفرة لديهم من ورق وعشب، فهم أشبه الناس بأقزام إفريقيا في الغابات وشعب أسترالية البدائي فقد وجدوا على هذه الحالة عند اكتشاف بلدانهم ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ فكان عنده علم بمن في المغرب كما عنده علم بمن في المشرق ويكون بهذا قد طاف المشرق والمغرب ووضع للجميع القوانين العادلة والدعوة الراشدة للالتزام بها فمن أخذ بها عامله المعاملة الحسنة ومن أبى وتنكر كان العقاب رادعاً له، وبهذا جدد الدعوة في كافة المعمورة وعمم الإسلام وبلغ كافة الخلق بما أعطاه الله من المُكْنة وتسخير الأسباب له ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ فقد حاد عن الشرق وعن الغرب ليرى أطراف الأرض الأخرى فيذرعها بتطوافه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

﴿بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ أي: أشد تخلفاً من سابقيهم والظاهر أنهم من أمة المغول، فكلامهم في مراحل تكوينه الأول فلا يجيدون الكلام إلا فيما بينهم، أما لغة غيرهم فمن المحال فهمها، ومهما قربت لهم اللغة وذللتها للفهم فإنها تستعصي عليهم، لكن ذا القرنين بما آتاه الله من الأسباب استطاع التفاهم معهم واستمع إلى مطالبهم وما يحسن حالهم، فكان طلبهم الذي ألحوا عليه هو الشكوى من جيرانهم الذين آذوهم ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ وكان هؤلاء الجيران من قوم يأجوج ومأجوج، فهل كانوا قبيلتين؟ أم قبيلة واحدة، فقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجبل والديلم، وقيل: قبيلة واحدة حملت هذا الاسم لأنهم ينتسبون إلى يافث بن نوح، فما حقيقة إفسادهم؟ قيل: كانوا يخرجون إلى أرض القوم المجاورين لهم في الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه، وقيل كانوا يأكلون البشر، وقيل: كانوا يمارسون القتل والظلم والتعدي على جيرانهم، وهذا الذي ذكر عنهم يجعلهم مبالغين في الشر وتجنبهم أولى، لذلك طلبوا من ذي القرنين أن يعطوه مالاً ليقيم سداً حاجزاً بينهم وبين يأجوج ومأجوج، أقول إذا كان معهم المال فَلِمَ لم يقيموا هم السد؟ لعل هناك صعوبات تعترضهم، منها: عدم وجود الخبرة في بناء السد، وربما كان خصومهم لا يمكنونهم من إقامته، فيحتاج إلى قوة كبيرة تحميه، ولهذا بذلوا له المال ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ وهنا نسب القوة لله والعون على هذا العمل منه جلت قدرته، فالله أعطاني القوة ومكنني من تنفيذ أشق الأعمال فذلك خير منه ومنّ ومع ذلك فلا بد لكم من بذل الجهد والعمل لكي تعملوا معي بقوة وجد، فالسد لصالحكم وعليكم أن تبذلوا الجهد لإقامته لكي تشعروا بقيمة العمل وأن البناء لا يأتي من فراغ أو كسل وإنما يأتي بالكد والجد، وهكذا استعان ذو القرنين بالله أولاً ثم بمشاركة أصحاب المنفعة فخطط مع من معه من أهل الخبرة والهندسة لإقامة سد قوي عجيب الصنعة لا مثيل له قبل ولا من بعد، ووزع العمل

كل في قدرته وتخصصه ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ قطع الحديد الضخمة والكتل الكبيرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ صف القطع بعضها قرب بعض مابين الجبلين كما يصف البناء من اللبن أو الحجارة طبقة فوق طبقة إلى أن ارتفع البناء من قطع الحديد ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ والنفخ يعني صنع الكير من الجلد فإذا سحبوه امتلأ هواء وإذا ضغطوه أخرج الهواء بقوة فيعين في إشعال النار بقوة، وكذلك أتوه بالفحم الذي وضع بعناية محسوبة مع الحديد وبين قطعه فأشعلوها ناراً حامية جعلت الحديد يذوب وينصهر فيلتصق بعضه ببعض ليكون كتلة واحدة، وهم على هذه الحال من المرحلة الأولى إذا به قد أعد المرحلة الثانية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ فكان أن سكب فوقه النحاس المذاب إمعاناً في القوة والتماسك، ولكي لا يصيبه الصدأ ومثل هذا السد يصور لنا قوة منفذه، وارتقاء علمه فعادة ما تبنى السدود بالحجارة لحجز المياه وهذا السد بني بالحديد والنحاس، ومن المعلوم أن الفحم المحترق مع الحديد يعطي الحديد صلابة وقوة، ومن هذين العنصرين يصنع الفولاذ، لذلك عقّبَ بعد الانتهاء والفراغ منه ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ إذاً كان هذا السد لأغراض خاصة غير حجز المياه، فقد قطع عليهم طريق غزو جيرانهم وكان ناعماً أملس شديد الارتفاع لا يستطيعون ارتقاءه فهذا صعب والأصعب من ذلك أنهم لا يستطيعون نقبه وهذا بادياً من كلمتي «**اسطاعوا واستطاعوا**» فزيادة المبنى في الكلمة يدل على زيادة المعنى ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ رحمة لأولئك الجيران المتشكين وللأمم المجاورة بحيث كف أذى هؤلاء الأشرار عنهم وجعلهم يعيشون بأمان، ولكن إلى أجل، فإذا انقضى هذا الأجل فإن السد سينصدع ويتداعى فينفتح الطريق ليأجوج ومأجوج في آخر الدهر لينطلقوا من محبسهم وإسارهم للتخريب الذي فطروا عليه والأذية التي لا تقف أمامها قوة كالتي كانت لذي القرنين حين كف أذاهم عن الجيران بل وعن العالم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] فهذا الحجز وراء السد سيكون محضن تكاثر وتفريخ فإذا ما أتيح لهم الخروج فسوف يتدفقون أفواجاً لا عد لها ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ وهذا دليل تكاثرهم المفرط.

وقد ورد في كتب الجغرافيا للجغرافيين المسلمين نصاً يفيد بأن ذا القرنين عندما وصل إلى المغرب شكا له أهل الأندلس من هجمات المغاربة وطلبوا منه عمل حاجز بينهما، فجمع المهندسين وقاسوا منسوب ماء البحر المحيط ـ المحيط الأطلسي ـ وماء بحر الروم ـ البحر المتوسط ـ فكانت النسبة في مستوى الماءين متقاربة، فأمر بشق قناة بين البحر والمحيط فكان مضيق جبل طارق وتم الفصل بين المغاربة وأهل الأندلس، ويقال إن البحر المحيط غمر مناطق كثيرة ومدناً كانت على شاطئ البحر المتوسط لأن منسوبه كان أعلى. السور من الكهف ٨٣ ـ ٩٨.

وأخرج البخاري معلقاً أن رجلاً أتي النبي ﷺ فقال: رأيتُ السد، قال: «**وكيف رأيته؟**» قال: مثل البُرُد المحبرة ـ أي المخططة ـ فقال: «**رأيته هكذا!**» وأخرج ابن جرير عن قتادة أن رجلاً قال: «يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «**انعته لي**»، قال: كالبرد المحبرة طريقة سوداء وطريقة حمراء، قال: «**قد رأيتَه**» أي وافقه على الوصف، والبرد: مفردها بردة وهي العباءة، وهذا يعني أنه كما وصف مؤلف من طبقة حديد حتى إذا صهرت بالفحم وضع فوقها طبقة من النحاس المذاب وهكذا طبقة من الحديد ثم فوقها أخرى من النحاس إلى أن بلغ قمم الجبلين ارتفاعاً ليسد ما بينهما.

وقد اطلعت على كتب حديثة ذكرت قصة ذي القرنين، أحدها أن الكاتب قد ذكر غرائب لا تصح وعد ذلك فتحاً في الكشف عن أمور خفيت على من كان قبلنا من المفسرين، وسافر ليقف على مكان مغرب الشمس ومشرق الشمس ونسي أن مغرب الشمس نسبي بسبب كروية الأرض وأن للشمس مشرقين ومغربين رئيسين ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن]

فالشمس تتحرك ما بين المدارين؛ مدار الجدي ومدار السرطان فعندما تصل إلى مدار الجدي وهذا في فصل الشتاء في ٢٣ كانون الأول ـ ديسمبر ـ وهو الانقلاب الشتوي حيث يكون النهار في نصف الأرض الشمالي قصيراً ويكون مشرقها ومغربها في أقصى بعد لها جهة الجنوب الشرقي، وفي فصل الصيف في ٢١ حزيران ـ يونيو ـ تصل إلى مدار السرطان وهو أقصى بعد لها جهة الشمال الشرقي ويكون النهار في نصف الأرض الشمالي طويلاً فهذان هما المشرقان والمغربان، ولها مشارق ومغارب بعدد أيام السنة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج] وحركة الشمس ما بين المدارين يكون لها في كل يوم مشرق ومغرب بعدد أيام السنة، وكل موقع على الأرض له هذه المشارق وهذه المغارب، لذلك من الخطأ أن نقول بأن ذا القرنين قد بلغ مشرق الشمس الحقيقي أو مغربها الحقيقي والنص القرآني يعني الاتجاه غرباً والإيغال في ذلك والاتجاه شرقاً والإيغال في ذلك كما نتعت في هذه الأيام دول أوربا وأمريكا فنقول: الدول الغربية ونقول عن الصين واليابان وكوريا الدول الشرقية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وهي الشام ومصر كما قال أغلب المفسرين.

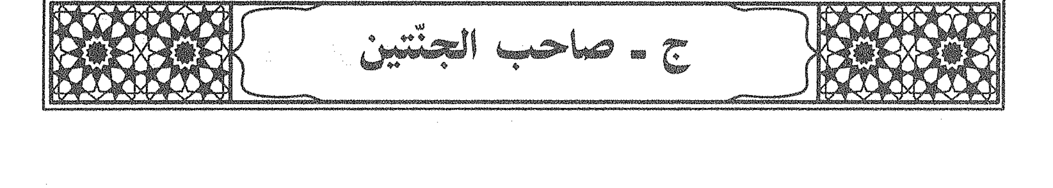
ثم وقع الكاتب في خطأ أكبر عندما قال بأن ذا القرنين هو أخناتون وعده ابن فرعون الهالك في زمن موسى وأنه هو مؤمن آل فرعون وأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً فعده موحداً، وهذا خطأ كبير فهو وحد الآلهة بإله واحد وجعله الشمس وهذه وثنية كما زعم أنه لما فرض على المصريين هذه العبادة تكتل ضده الكهنة فخاف أن يغلبوه فهرب مع بعض أتباعه وركب البحر الأحمر وانطلق إلى مشرق الشمس... وهكذا يبدأ قصة ذي القرنين، هذا الملك الضعيف الذي هرب من الكهنة خرج ليصلح أمماً أخرى ويبني سد يأجوج ومأجوج وهم الجبابرة فقهرهم وردهم وراء الجبال وبنى السد، كما يؤكد أن سور الصين هو السد رغم عدم مطابقة وصفه مع وصف القرآن.

إن ذا القرنين هو المؤمن القوي المؤيد من الله وصفات أخناتون بعيدة كل البعد عنه.

وآخر أيضاً يعد كورش ملك الفرس هو ذو القرنين وكورش من عباد النار، وذكر أن السد الذي بناه هو في جبال القوقاز لوجود كتل مذابة من الحديد والنحاس متناثرة تدل على أن السد كان في هذا المكان، ولكن أين يأجوج ومأجوج الذين هم من كل حدب ينسلون؟ وإذا كان يظن أنهم هم المغول فإن هجومهم على العالم الإسلامي لم يكن من هذا المكان.

إن القرآن الكريم كتاب عظة وعبرة فذكر ما يناسب المقام من القصص وأخبار السابقين وليس هو كتاب تاريخ ومن العبث أن ننزله وفق التاريخ الماضي القديم لأن التاريخ نفسه ظني لا يقيني وفجواته الزمنية كثيرة والمسلم لا يلتفت إلى الوراء إلا بمقدار ما يستفيد في آخرته تأسياً وعملاً بما عمله الصالحون.





ج ـ صاحب الجنّتين

سورة الكهف غنية بالقصص والعبر، ومنها قصة صاحب الجنتين، قصة فيها صراع بين الإيمان والكفر بين التسليم لله تعالى فهو المقدر الرزاق الوهاب وبين المعترض المعاند، بين من يعتقد أن العطاء والمنع من الله تعالى ومن يعتقد أن ما يأتي من رزق وولد هو بالجهد والعمل وليس بالتوكل على الله والرجاء منه، صراع بين من يعتقد باليوم الآخر والحساب وبين من يعتقد بأن الدنيا للأقوى وليس فيها آخرة ولا حساب، وكان بينهما نوع من التحدي؛ وأن المستكبر منهما يراهن على صدق زعمه، وقد صور القرآن هذا الجدال أصدق تصوير، وأظهر خبيئات النفس لكل منهما وانتصار كل منهما لمذهبه ومعتقده، قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ صورة رائعة لرجلين يتلاحيان، أحدهما يملك جنتين من أعناب قد حفت بأشجار النخيل ومابين شجر الأعناب والنخيل استغلت مساحاتها لأنواع أخرى من الزروع، وهذا ما نشاهده في مزارع كثيرة في المدينة المنورة والرياض والقصيم حيث المزرعة مشابهة لهذا الوصف مع زراعة أصناف الخضراوات والبرسيم في الفراغات بين أشجار النخيل والأعناب، هذا النمط يكثر في المناطق الحارة التي تحتاج إلى ظل أشجار النخيل لتعيش تحتها الخضراوات، فالنخيل يظلل على الأعناب والأعناب تظلل على الخضراوات، فهذه هي المزرعة المثالية في تلك المناطق،ورد أنها كانت في منطقة القدس «في اللد» ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ وزاد من الوصف

لهاتين الجنتين أنهما جادتا بالعطاء والثمار على أحسن ما يكون هذا العطاء ولم تقصرا في الجود والثمر الشهي الناضج، كل في وقته وأوانه من التمور والأعناب والخضراوات، فجادتا بالعطاء الرخي الوفير، فقد توفر لهما الماء، وهو عصب الزراعة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ فالجنتان على هذا الوصف نموذجيتان متكاملتان لا ينقصهما شيء من حيث الأخذ بالأسباب الدنيوية ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ وكان ناتج هاتين الجنتين من الثمار والغلال كبيراً يدران عليه دخلاً من الخيرات والمال جعلاه في هناء وبحبوحة من العيش، ومن مبدأ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ فإن صاحب الجنتين بدأ يُدِلّ ويفخر بغناه ووفرة ماله وأولاده وحسن جنتيه على صاحبه الفقير، ومن هذا الفخر والافتتان بجنتيه؛ يتبين أن الفقير كان فقير المال والأولاد، فليس له عزوة أو قبيلة قوية بخلاف الغني المشمَخِرّ الشامخ بما عنده من مال وجاه وتعلق قلبه بما ملك ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ ومعه صاحبه الفقير وهو يريه عظمة هذه الجنة وما فيها من نضرة وخضرة وتنسيق وثمار وخضار، وهي في أبهى حلة وأينع ثمرة، تتمايس أشجارها النضرة عند هبات النسيم وتتبارى أطيارها في الغناء والنشيد طرباً لسكناها وافتتاناً بزهورها وأشجارها، فقد اتخذت على أغصانها وأفنانها وكثافة أيكها أوكاراً آمنة وأعشاشاً فارهة، فعظمة المكان يعكس على ساكنيه أبهة الرياش وسيما الدلال، وكأن زميله الفقير ـ الذي آتاه الله إيماناً صادقاً ومعتقداً راسخاً ورضا بما وهبه الله من رزق ـ قد نصحه بألا يفاخر بها كثيراً وأن يتواضع لله الذي منحه إياها وأعانه على تثميرها وتحسينها، فقد يذهب عدم الشكر بما فيها بطرفة عين، بأن يسلط الله عليها جائحة أو آفة أو جفافاً لماء، لكن ما فيها من حسن وجمال جعل صاحبها يتمادى في الغي ويحسب أن نضارها لن يبيد أبداً ونسي أو غفل عن قانون الله في الكون أنه لا شيء يبقى على ما كان؛ حياة وفتوة وشباباً وكهولة وهرماً وفناء، قانون يطال الجميع، لقد أودى به افتتانه بجنتيه إلى أن وقف على باب الكفر بما قال، ثم زاد في الغي أكثر فدخل في الكفر من أوسع أبوابه ﴿وَمَآ أَظُنُّ

ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فأنكر يوم البعث والمعاد يوم الحساب وعرض الأعمال ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ ثم قال من باب الاستهزاء لا اليقين رداً على زميله الفقير ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ حتى وإن سلم بوجود يوم الحساب، فإنه إذا رد إليه سيجد خيراً من هذه الجنة فهو منعم في كافة الأحوال وزميله بائس في كافة الأحوال، وهذا مقياس الضالين المخدوعين بزخرف الدنيا وأنها ابتسمت لهم استدراجاً فغرتهم بهذا الاستدراج وأنستهم المنعم المانح للخير ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ] ألم يقل العاص بن وائل السهمي أنه إن رد إلى ربه فسيؤتيه المال والولد ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم]، وروي أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبونه بدين، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به، وهذا مَثَل لمنكري البعث ـ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ فعندما أنكر البعث وبدأ يتكلم كلاماً يهوي به في النار بدأ نصحه وتنبيهه عن المنزلق الذي يهوي به وهو الكفر بالخالق العظيم فقد حوله المال والغنى والاغترار بما أوتي من النعم إلى الجحود وإنكار يوم الحساب وهذا نموذج لأرباب الثراء الذين جنوا مالهم بالطرق الملتوية، فندما يشكوهم المظلوم ويقول لهم: هناك يوم ستحاسبون فيه على ظلمكم لنا، فيكون الجواب منهم: إلى أن يأتي ذلك اليوم، باستخفاف وعدم مبالاة كأنهم يشكون في مجيئه، إن هذا الصاحب الفقير القانع بعطاء الله له كان وفياً لصاحبه الغني فلم يتركه على ضلاله بدافع الحقد عليه وإنما رأى أن مسؤولية المؤمن الدعوة والتوعية وبيان الحق، لذلك ذكره بأن الله خلقه ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ أهكذا يكون تصرفك تجاه الخالق بالجحود والنكران؟ ثم بين له موقفه من ربه وقوة الإيمان التي تملأ قلبه، لأنه لا ينظر إلى الحياة من منظور المادة والغنى، وإنما من منظور

الإيمان الذي يعلو كل شيء عند المؤمن لأن الحياة عنده مرحلة عابرة ودار عمل صالح وجد يدخر للآخرة، فقال له ليعلمه الموقف الإيماني ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ أما أنا فأقول إن الله ربي واحد لا شريك له فقد نور الله بصيرتي وهداني إلى توحيده، أما أنت فكان ينبغي أن يكون لك موقف فيه اعتراف بمن أولاك النعم ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فكان ينبغي عليك كلما دخلت جنتك وحدت الله وهللت وسبحت وقلت ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ اتقاء شر الحاسدين فهو الحافظ لهذه النعم، لكن ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ فلا تشمخ علي ولا تعيرني بقلة مالي وولدي، فكان عليك لما أنت فيه من النعم التي فقت بها غيرك أن تحمد الله وتؤدي شكر هذه النعم لا أن تتفاخر بما عندك وتتعالى على عباد الله، ألا تعلم أن الذي أعطاك هذه النعم قادر على سلبها منك وإعطائها غيرك، وأنا أرجو من ربي أن يعطيني خيراً مما أعطاك ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ من المال والولد والثواب، وأن يعاقبك على الجحود ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ وهناك قراءة بالتثنية ﴿عَلَيْهِمَا﴾ فما هو الحسبان الذي توقعه الرجل المؤمن؟ فُسر بمعاني متعددة، والموافق للنص أنه الصواعق المتدافعة أو البَرَد الذي يحطم الزروع، أو الحصى والحجارة أو أية جائحة تنزل من السماء كالجراد مثلاً. وأما الصعيد الزلق: الأرض الجرداء التي لا نبات فيها تزلق الأقدام فيها لانعدام النبات، فكأنه يقول له: ألا تخشى أيها الجاحد للنعم أن يُذهب الله عنك ما أنت فيه من خير فأنت تفخر بهاتين الجنتين كأنهما من صنعك وتنسى الخالق الواهب؛ ألا تخشى من أن يرسل عليهما جوائح مهلكة ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ أو أن يغور ماء النهر الذي يسقي أرضك فلا يصل إليها فتموت عطشاً وما أسرع ما يموت الزرع والخضار من العطش، يصيبه الجفاف وحر الشمس فيصبح هشيماً تذروه الرياح.

إنك بجحودك ونكرانك لفضل ربك لا تستحق هذه النعمة، فهاتان الجنتان بالنسبة لك كانتا امتحاناً وابتلاء ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ لقد سقطت

في الامتحان أيها المسكين فانظر إلى عقاب الله الأليم ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ تدمير الثمر أبلغ في النكاية، حتى إذا ما استعد لجني الثمر بعد انتظار لم يطعمه فقد أحيط به ودمر الثمر والشجر والزرع وغار الماء وغدت جنتاه خراباً بلقعاً لا زرع فيها ولا حياة، ولما رآها قد انقلبت بهذه السرعة كاد يذهب عقله ويجن، وكما قال الشاعر:

مابين غمضة عين وانتباهتها   يغير الله من حال إلى حال

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ فما كان منه بعد هول ما حدث إلا أن أخذ يقلب كفيه دليل الإفلاس والعجز والاستسلام، فأسقط في يده وليس له من حول ولا قوة،ذهبت وذهب معها كل ماله الذي أنفقه عليها، يا لها من خسارة مضاعفة، أمهله الله حتى إذا ظن أن الربح سيأتيه مضاعفاً جاءها الدمار فأخذ كل شيء، فأصبحت خاوية على عروشها، جذوع النخيل وجذوع الأعناب محطمة مكسرة كأن لهباً قد مسها فتركها حطباً لا حياة فيه، وهنا صحا من هول الصدمة وأفاق مما كان فيه من ضلال فندم بعد أن رأى آية ربه في جنته التي انقلبت خراباً بين عشية وضحاها، وقال ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ فندم أشد الندم ولعله عاد إلى ربه وعمل بنصح صاحبه فاستنقذ نفسه من العذاب بعد هذه التجربة في حياته ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ فمن يجرؤ على نصرته إذا حاق به عذاب الله أو نزلت به قارعة، فأين ماله وولده ومكاثرته بهما؟ لن ينتصر أبداً من حادّ الله وستكون نهايته أليمة في الدنيا والآخرة. الآيات من سورة الكهف ٦٢ ـ ٤٣.



د ـ أصحاب الجنة

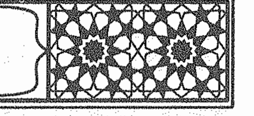
بستان جميل جمع كل أصناف الزروع والثمار نما وأينع ثمره، وقد نماه رجل صالح عرف ما حقه فأداه، أطعم من بستانه الفقير واليتيم والأرملة والمسكين، كانوا في كل فترة نضج وحصاد يتفاءلون ويستبشرون برزق كريم يأتيهم من بستان هذا الرجل الصالح، وكان ظنهم لا يخيب، فكان يختار لهم من طيب الثمار ما يملأ لهم أوعيتهم فيعودون إلى أسرهم محملين بالثمر فرحين بإطعام ما يعيلون من الأبناء، والله تعالى يبارك لصاحب هذا البستان ويزيده من نعيمه، يحفظ عليه بستانه من الآفات ويحفظ عليه الماء لريها، لقد سمعنا بالحديث الشريف الذي يروي لنا الصوت القائل اسق حديقة فلان، لسحابة في الجو فتنحى ذلك السحاب وأفرغ ماءه في حرة وجرى الماء، ولما تتبع الذي سمع الصوت مجراه وجد رجلاً يسقي حديقته فسأله عن اسمه فوافق ما سمع ولما سأله ماذا تصنع بمحصول الحديقة؟ أخبره أنه يقسم محصوله أثلاثاً، ثلثاً للصدقة وثلثاً له ولأولاده وثلثاً يعيده في الأرض بذاراً ليزرعها من جديد (الحديث في صحيح مسلم) عاش هذا الرجل الصالح وهو على هذا المنوال إلى أن توفاه الله وورث أبناؤه البستان، ولم يكن الأولاد كلهم على منهج أبيهم، فقد تنوعت آراؤهم واختلفت ما بين محب للسير على منهج الوالد ومعارض بشدة ذلك المنهج، وقاد أولئك المعارضين أكبرهم وكانوا بعيدين عن التقوى وغير ملتزمين بما عليهم من حق السائل والمحروم، معللين المنع بكثرة الولد وقلة المحصول وأنها أصبحت لا تسد حاجتهم، وكان صوت المحافظين ـ وهو أوسطهم ـ لا

يقوى على المعارضة فانتصر قول الممانعين، ولقد صور القرآن حالة أولئك الأخوة وتصرفهم الذي يدل على إقدامهم على عمل غير لائق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ كان حال قريش حيث جاءهم رسول منهم فكذبوه، فامتحنهم الله بالقحط والجوع كحال هؤلاء الأبناء أصحاب الجنة وما جرى بينهم، ولعل قريشاً كانت تعرف خبر هؤلاء الأبناء فقد ورد أن جنتهم كانت قرب صنعاء وقيل هم من ثقيف كانوا باليمن فوصل خبرهم إلى قريش عن طريق جيرانهم الثقيفيين، فقد اتفقوا وأقسموا على أن يخرفوا ثمرها في الصباح الباكر قبل أن ينتبه إليهم الفقراء ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ لم يقولوا عند القسم إن شاء الله لأنهم كانوا عازمين على تنفيذ ما خططوا له دون تراجع ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ خططوا لحرمان المساكين من حقهم الذي جعله الله في مال الأغنياء، والله تعالى مراقب أفعالهم ومطلع على ما في قلوبهم، فبادلهم لقاء شحهم وبخلهم بأن سلط عليهم جائحة أتتهم تحت جنح الظلام، كانت أحلامهم وهم نائمون ينتظرون الصباح بما خططوا له من حيلة للتهرب من الفقراء، وكانوا يحلمون بكيفية جني المحصول بسرعة فائقة فلا يطلع النهار إلا وقد انتهوا منه فإذا ما أتى المساكين ليطلبوا صدقتهم وجدوا الأشجار خاوية لا ثمر فيها فيخيب أملهم ويرجعون كما أتوا خفافاً ليس معهم من الطعام لأولادهم شيئاً، فكان كبيرهم الذي خطط لهذا المنع يقهقه في نومه كلما مر الحلم بخاطره وهو يرى الفقراء يعودون بخفي حنين، ولكن الله يسمع ويرى وأمره الأمر وتدبيره التدبير، فكما خططوا لإحداث مفاجأة للفقراء غير مسبوقة، فقد دبر الله لهم أمراً غير معهود لهم، لقد أحالها الله تحت جنح الظلام خراباً يباباً كأنما عبث بها الشقاء، أو جاس بها جيش من الأعداء؛ فأحالها أرضاً مواتاً ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: سوداء كالليل المظلم، وقيل احترقت فتحولت فحماً ورماداً، وأتى الصباح ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: أيقظ بعضهم بعضاً عند الصباح لكي يسرعوا خفافاً إلى بستانهم ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ تصوير بليغ لحالهم وهم يستيقظون ويتنادون فيما بينهم للذهاب إلى بستانهم للصرام وجني المحصول

بحذر كأنما يقومون بفعل شيء غير مستحب ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ومشوا غاية الحذر والتستر والانسلال بعيداً عن أعين الرقباء من الفقراء، مشوا باتجاه البستان بلا ضجة حتى إن كلامهم فيما بينهم كان خافت الصوت زيادة في الحذر والتخفي ممن؟ ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ فكل هذه السرية في الخروج إلى البستان كان من أجل أن يمنعوا المساكين من دخول بستانهم وأخذ الصدقة المعهودة كما كانت في أيام والدهم ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ لقد أحكموا الخطة ضد المساكين واطمأنوا إلى دقة تنفيذها من قبل الجميع، فوزعوا المهمات وأخذ كل واحد منهم مهمته وحفظ الدور المطلوب منه، ثم انطلقوا إلى الجنة فلما وصلوا أنكروا ما رأت أعينهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ لما رأوها في حالتها المحترقة لم يعرفوها لأنهم تركوها قبل يوم سليمة خضراء تزدهي بنضرتها، فقالوا: ليست هي، قد ضللنا الطريق فتعالوا نبحث عن مزرعتنا، لكنهم في الوقت نفسه ليسوا بغرباء عن المكان فهم يعرفونه تمام المعرفة ولكنهم يحاولون التخفيف من الصدمة وعدم تصديق ما رأوه، فإن الذي رأوه مخيف لقد عوقبوا بذهاب ثمارها وزروعها ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إن المؤكد لنا أننا حرمنا من جَنَى جنتنا وخيرها وثمارها بسبب ما عزمنا عليه من حرمان الفقراء من نصيبهم منها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وعنى هنا بالأوسط صاحب الرأي الصائب الذي نصحهم بالسير على منهج أبيهم، لقد قلت لكم اتقوا الله وسبحوه ولا تقدموا على فعل الشر، مثلما يحصل بين الناس في أحيان كثيرة حين ينوي إنسان فعل الظلم، فيقول له المصلحون: قل لا إله إلا الله ويكررونها لكي يذكروه بالله فلا يقدم على الظلم، وهكذا فعل أوسطهم، وقيل: لما أقسموا ليصرمنها مصبحين طلب منهم أن يستثنوا بقول إن شاء، فلو فعلوا لما حصل هذا لجنتهم وهذا ضعيف بل لا يجوز الاستثناء عند نية الشر، أي لا يصح أن يقول سأسرق غداً إن شاء الله ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ذهبت السكرة وعادت الفكرة كما يقال، كان لا بد لهم من صدمة توقظهم مما هم فيه من ضلال فكان احتراق الجنة، لذلك ـ وهم أبناء الرجل الصالح ـ عادوا إلى المسار الصحيح فسبحوا الله

واستغفروه واتهموا أنفسهم بالتقصير وظلم الفقراء بمنعهم حقهم، والفشل عادة يجعل الشركاء في خلاف وتلاوم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ فأصبح كل منهم يلوم الآخر بإظهار ما اقترح من سداد الرأي مقابل المقترح الفاشل من المتنفذين الذين تسببوا في هذه الكارثة ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾ اعتراف آخر وندامة أخرى وأمل بالتوبة ورجاء ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ وانقلبت توبتهم إلى الرجاء من ربهم ليعوضهم عن هذه الخسارة وأنهم سيسيرون على منهج والدهم من حفظ لحق السائل والمحروم وأنهم راغبون طالبون العفو والخير من ربهم مستسلمين لمشيئته سبحانه، وبعد هذا الإعلان والتوبة فإن الله بالناس غفور رحيم، وهو الجواد الكريم فقد عوضهم خيراً مما ذهب، وبعد هذه القصة التي عرضت لتتذكر قريش وتعتبر ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٣٣﴾ هذا نموذج من عقاب من يريد الإفساد في الأرض وفي الآخرة ينتظره عذاب أشد وأنكى فليتنبه للعاقبة من يريد السير في طريق الضلال.





هـ - لقمان الحكيم

الحكمة والفصاحة والتدين والتقوى والخشية والخوف والرجاء صفات أخذ لقمان منها بحظ وافر وذلك بتوفيق الله له، فقد أعطاه الله الحكمة فنورت قلبه فنطق منها درراً ووصايا سجلت له بمداد من الذهب لقيمتها الدينية والتربوية والخلقية، وعليه فكلماتنا أقل من أن تصل إلى شموخ حكمته بجلاء الصورة ورواء المعنى، ولقد كان للقمان حيزاً مشرقاً في القرآن الكريم عرفنا على جوانب مهمة من شخصية لقمان ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] فالحكمة منّ من الله على لقمان، وقد فسرت عند ورودها في القرآن في غير هذا المكان بالنبوة ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وهي هنا تعني النبوة، وفي قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] هي في هذه الآية عامة تشمل الرسالة وغير الرسالة، إذ الغالب في معنى الحكمة أنها: العلم والإصابة في القول، وقيل الفهم، وقيل العقل والخشية والورع، وأصل الحكمة: ما يمنع من السفه، وحكمة لقمان من هذا النوع، وقد من الله عليه بهذا الفضل العظيم، لذلك كان على لقمان أن يشكر الله على هذه النعمة، وأن ثواب الشكر راجع إليه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فالشكر على النعم يحفظها بل ويزيدها، وقد كان داود وسليمان عليهما السلام من عباد الله الشاكرين فكانت النعم تزداد عليهما ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ

عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقد روي عن بعض الصالحين الشاكرين أنه كان هو وأسرته لا يتركون كسرة خبز إلا أخذوها وأماطوا عنها الأذى وأكلوها وشكروا الله عليها فأوحي إلى نبي ذلك الزمان يأمره أن كلْ خبزاً يابساً، وذلك لما له من كِسَرٍ كثيرة من الخبز تتناثر هنا وهناك، وكان هذا امتحاناً لذلك الرجل الصالح، فعمل لنفسه ولأولاده مزودة يضعونها عند أفواههم فإذا ما تناثر الخبز سقط كله فيها ثم جُمع وأكل مع الشكر والحمد فنجح هذا العبد الصالح في الامتحان وزاده الله من فضله، لقد كان لقمان العبد الصالح الشاكر لله، وقد أرانا الله بعض حكمته في توجيه النصح لولده ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ تتجلى عند لقمان قيمة التربية الراشدة ودور البيت في تأسيسها، فبدأ بالأمر المهم في حياة الإنسان على الأرض وفي الآخرة أيضاً، وهو الإيمان بالله وحده وعدم الشرك به، فإن أخطر أمر في حياة الإنسان هو العقيدة، فإذا صلحت صلح سائر عمله ونجا من النار أو الخلود فيها، ففي الحديث الذي يرويه معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار**» أخرجه البخاري، وفي الحديث الذي يرويه أبو هريرة: «أن النبي ﷺ أعطاه نعليه وقال: **اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة**» أخرجه مسلم، لقد كانت نصيحة لقمان لابنه بعدم الشرك بالله، وأفهمه أن الشرك ظلم عظيم، لذلك كان مثال الولد الطائع المحب لوالده والمتلقي العلم عنه بحب وشغف، ومع ذلك فالأب الحكيم الخبير في التربية زاده من جرعات الإيمان ما جعله يتلقى ما يلقيه إليه والده بإصغاء وانتباه حيث انتقل إليه من الإيمان بالله تعالى إيماناً غيبياً إلى دلائل عظمة الله التي تشعر الإنسان المتفكر بوجوده ومعاينته في القلب كأنما يرى رأي عين ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ يركز لقمان ببلاغته وحكمته على صفات الخالق وقدرته التي لا تحد بحدود وهي قدرة مطلقة، وبالرغم من سعة هذا الكون وما فيه من

عجيب الخلق فإن كل شيء في حساب والله تعالى أحصاه جليله ودقيقه حتى حبة الخردل المنتهية في الصغر بالنسبة للعين المجردة بلا واسطة من مكبر أو مجهر علماً بأن هناك دقائق أصغر منها لكنها لا ترى بالعين المجردة فإن الله لم يذكرها وهي ما سمي حديثاً بالذرة والإلكترونات والنيترونات، هذه الحبة من الخردل أو غيرها فإن كانت ظاهرة أو مخبأة في جوف صخرة أو في السماء أو في أي مكان في الأرض فإن الله بها عليم لا تفوته ولا تغيب عنه، وكما ذكر: إن الله يعلم دبيب النملة السوداء في سراديب الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وبعد غرس الإيمان بالله في قلب ابنه توجه إلى إقامة شعائر الدين ومن أهمها الصلاة ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ الصلاة عماد الدين فمن ضيعها فما لسواها أضيع، ومن ترك الصلاة فقد كفر، وأول ما يعرض من عمل المسلم الصلاة، فإذا صلحت صلح سائر عمله، لذلك فإن لقمان قد عزز الإيمان في قلب ابنه ثم أتبعه بأداء الطاعة لله والبرهان على تحقق عبودية العبد لله وذلك بإقام الصلاة، ثم تتحقق قوة العقيدة عند المسلم عندما ينقلب إلى داعية للحق، فيتعرف على الأحكام الشرعية ثم يدعو إلى الله على بصيرة، فيأمر بالمعروف، مثل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخير والإصلاح بين الناس وقول الحق، والنهي عن المنكر وهو فعل القبائح وعلى رأسها الكفر والفواحش وأكل أموال الناس والربا والظلم والتعدي على الجار، ومن المعلوم أن الثبات على المبدأ وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ذلك يحتاج إلى الصبر، الصبر على الناس لكي يستجيبوا، والصبر على أذاهم، لأن ما من أحد دعا إلى الفضائل والالتزام بها إلا عودي وأوذي، والصبر من صفات أولي العزم ولا يستطيعه أي إنسان، واستمر في نصح ابنه، فبعد أن اطمأن على إيمانه وأدائه للواجبات، أعطاه جرعات أخرى من سمات الرجل المؤمن الصالح وصفاته البارزة التي ينبغي أن يتحلى بها ولكن للأسف يغفل عنها كثير من الناس ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وهذه من صفات المتكبرين الجبارين الذين إذا ما نجحوا في عمل مهم بدا عليهم الكبر والتعالي

فشمخوا في أنوفهم وأمالوا رقابهم لكي يرتفع خدهم إلى الأعلى دليل الكبر وادعاء العظمة، والعظمة والكبرياء لله، ففي الحديث القدسي الذي أخرجه أبو داود عن أبي هريرة: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار**» وعند فتح مكة دخلها رسول الله ﷺ وقد أحنى رأسه تواضعاً حتى إن لحيته لتمس رحله، فكانت وصية لقمان لابنه بالتواضع والبعد عن الكبر وتصعير الخد ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وخصلة أخرى ذميمة لا تليق بالمؤمن، أن يمشي المرء بين الناس في خيلاء وتجبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فهذه الصفات يبغضها الله، وقد ورد في سورة الإسراء ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ وفيها برهان حسي على أن المتكبر مهما مشى عجباً وتيهاً فإن شموخه لن يوصله إلى قمم الجبال، كما ولن يستطيع خرق الأرض ليبلغ آخرها، فهو في مكانه الذي هو فيه، وما زين له التعالي إلا خيالات الكبر ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ القصد: يعني الاعتدال، فالمشي المحبب ليس بالخيلاء ولا بالتراخي الذي فيه تسحيب القدمين دليل العجز والخور وتقليد المتماوتين الذين يظنون أنهم بفعلهم هذا يتقربون إلى الله، وقد كان عمر رضي الله عنه لا يعجبه هذا المشي من بعض الناس فيخفقهم بالدرة لكي يعدلوا من مشيتهم، لأن هذه المشية تعلم على الانكسار والذل وتميت في القلب عزة المسلم، فالقصد في المشي يكون بالاعتدال مع السكينة والوقار، وقد وصف علي رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: «لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين ـ لم يكونا غليظين ـ ضخم الرأس ضخم الكراديس ـ رؤوس العظام ـ طويل المسربة ـ الشعر ما بين الصدر إلى السرة ـ إذا مشى كأنما تكفأ تكفؤاً ـ تمايل إلى الأمام ـ كأنما ينحط من صبب ـ ينحدر انحداراً ـ لم أر قبله ولا بعده» رواه الترمذي ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وغض الصوت خفضه باعتدال، وقوة الصوت ليست حسنة في كل الأوقات، فالجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع، كما أن الخطيب يحتاج إلى رفع الصوت والتوازن حسب الحاجة مطلوب ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فلا ينبغي التشبه فيها من حيث رفع الصوت بلا

سبب كما تفعل الحمير إذ تفاجئ الناس بنهيقها المنكر وصوتها النشاز، وقال قتادة: صوت الحمير: أوله زفير وآخره شهيق، حقاً إن لقمان لحكيم ووصاياه لابنه تجعله ولداً مهذباً محبوباً يتحلى بالأدب الجم والذوق الرفيع، ولما زود ابنه بهذه النصائح البالغة الأهمية في حياة الإنسان المتفردة في الخلق والآداب، ذكّره الله تعالى بحقوق الوالدين ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الوصية من الله تعالى وقد أعقبت هذه الوصية ما دار بين لقمان وابنه، وأخذ الابن بدعوة والده له طاعة لله ولوالده، والوصية من الله تعالى للأولاد بالإحسان للوالدين، خص الأم بمزيد إحسان لأنها العنصر الأضعف والأكثر تحملاً لتربية الطفل منذ النشأة والتكوين في رحمها إلى مرحلة الولادة والإرضاع، لذلك جاء هذا التذكير بهذا الجهد وهذا التحمل وهذه المشقة في عملية الإنجاب وتربية الأطفال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ فأصابها الضعف والتعب لهذا الحمل وهي في الأصل ضعيفة بخلاف الرجل الأقوى منها بنية واحتمالاً، والحمل مع ذلك محبب إليها، ثم يأتيها الوهن الثاني أثناء الولادة وما أشقها على المرأة! ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فبعد الولادة يأتي الإرضاع لتغذية الوليد، ويحتاج المولود إلى ثدي أمه ليشتد عوده ويعتمد على الطعام إلى سنتين، عندها يضحي المولود فطيماً وقد فصل عن ثدي أمه، بخلاف المخلوقات الأخرى من الحيوان، فإن فترة الرضاع عندهم أقل منها عند الإنسان ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ يحتاج إلى عناية من الأبوين لفترة طويلة، ولذا كان للأبوين دور كبير في تربية الأبناء وجهد مضن يستحقون عليه من الأبناء البر والطاعة والشكر والرحمة بهما عند الكبر ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ جعل الله تعالى الشكر للوالدين مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدها وجوباً، فمصير الإنسان ونهايته سيؤول إلى الله حيث الحساب والثواب والعقاب فإن أحسن زاده الله ثواباً على إحسانه وإن أساء كان العقاب والخسران على ما ضيع من حقهما، ومع هذا الحق الكبير الذي أعطاه الله للأبوين في برهما وطاعتهما إلا أنه قاصر على الطاعة فيما يرضي الله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾

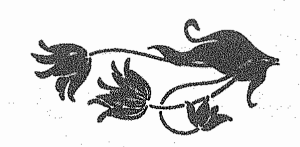
لأن حق الله مقدم والإيمان أمر مصيري يتوقف عليه مصير الإنسان بين جنة أبدية للمؤمن أو نار أبدية للكافر وبما أنه كذلك فكان الخيار فيه للفرد دون تدخل من الأبوين أو غيرهما في تقرير هذا الأمر وعصيانهما فيه من غير إيذاء لهما لا يؤثر على برهما، وقيل إن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فعندما أسلم علمت به أمه فأرادته أن يرتد فامتنع، فامتنعت أمه عن الطعام والشراب وأقسمت ألا تذوق طعاماً وشراباً إلا إذا رجع عن دينه أو تموت، فقال لها: تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ في حالة بقاء الأبوين على الكفر يبقى برهما ومصاحبتهما بالمعروف في فترة الحياة الدنيا، وإذا ماتا على الكفر فقد انقطع ما بينه وبينهما، وبالتالي فلا يشملهما الحديث الشريف «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» فإن هذه الأعمال الخيرية لا تفيده، فأصل الإيمان معدوم ولا ينفع معه العمل الصالح ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أمر من الله للمسلم بأن يسلك سبيل الصالحين المنيبين إلى الله الراجعين إليه قلباً وعقيدة وطوع نفس، مستسلمين لأحكامه عاملين بما أمر به، تاركين ما نهى عنه، متمسكين بحبله المتين وشرعه القويم، فالمرجع والمآل إلى الله ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمٰن] وما على الإنسان إلا التفكير الجاد بهذا الكون وخالقه العظيم والانضواء تحت لواء الطاعة والتسليم والإيمان بوحدانية الله وأنه لا شريك له والعمل بمقتضى شرعه الحنيف ليكون من الفائزين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعد من الله حق بيوم المعاد والحساب، وقد أعطى نماذج من هذا المعاد في قصة أهل الكهف وعودهم للحياة وإحياء عيسى عليه السلام للموتى وفي زمن موسى حين ضرب المقتول بلحم البقرة فقام ونطق باسم قاتله، وإحياء الأرض بعد موتها بالعشب والزرع، فقد عرفنا على قدرته بما نشاهده من خلقه، ولذا فإن حياة

الإنسان على هذه الأرض محدودة بزمن لا يتجاوزه، قَدّره الله ووعد أمة محمد بقربه ولا شك في وعده.

ذكر أن لقمان كان حبشياً، وقيل نوبياً، وعن ابن عباس أنه كان عبداً حبشياً نجاراً، وذكر أن لقمان عاصر داود، وكان داعية قبل نبوءة داود وقيل قاضياً، فلما نبئ داود توقف لقمان لأن الأصل في هذا الأمر النبوة، وعلى هذا فلم يكن نبياً كما ذكر بعضهم وقد ورد في الحديث: «**خير السودان أربعة: لقمان وبلال والنجاشي ومهجع**».

الآيات من سورة لقمان ١٢ ـ ١٩.



و ـ أصحاب الأخدود

وردت الإشارة إلى هذه القصة في سورة البروج، حيث ورد (قتل أصحاب الأخدود) فمن هم أصحاب الأخدود؟ ذكر أن أحد ملوك اليمن كان يدعي الألوهية وكان يخدمه في دعواه ساحر كبير يقوم بخداع الناس ليظهر لهم خوارق للملك، وحدث أن قال الساحر للملك: إني كبرت، فاختر غلاماً ذكياً أعلمه السحر ليقوم مقامي في خدمتك، فاختار الملك غلاماً بارع الذكاء ثم دفعه إلى الساحر وبدأ تعليمه السحر، وفي أحد الأيام خرج الغلام إلى أطراف البلدة فوجد كهفاً فدفعه فضوله إلى دخول الكهف فسمع صوتاً يناجي ويتعبد الله الواحد الأحد بكلمات استرعت انتباهه فاقترب أكثر فإذا رجل مهيب جالس يتلو هذه الأدعية، فاقترب منه الغلام وسأله من يناجي؟ فقال العابد إنه يناجي الله الواحد خالق هذا الكون وخالق الناس، فقال الغلام: والملك! قال العابد: إنه مخلوق مثلي ومثلك كلنا من خلق الله الواحد القوي الأبدي الحي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، وما الملك إلا مخلوق يكبر ويهرم ويموت، سر الغلام لكلام العابد وطلب المزيد فقد أعجبه كلامه ودخل شغاف قلبه، وقال: كيف لي أن أتعلم علمك هذا؟ قال تأتي إلي في أي وقت تشاء ولكن دون أن تخبر أحداً عني، فالملك ظالم يقتل كل من يحمل هذه العقيدة، فوعده الغلام بكتمان الأمر وانصرف على أن يعود فيما بعد، فكان الغلام يزور العابد قبل ذهابه إلى الملك وكان إذا تأخر عن الموعد يزجره الساحر، فيتعلل بأن أهله أخروه، وأحياناً يزور العابد قبل عودته إلى البيت فإذا سأله أهله عن سبب تأخره تعلل بأن الساحر

أخره، واستمر الغلام على هذه الحال فترة وتعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، ثم إنه في عبوره الطريق مرة رأى جمهرة من الناس في حالة اضطراب وخوف، فلما سأل عن السبب ذكروا له أن أفعى كبيرة مخيفة قد اعترضت الطريق فمنعت الناس من العبور، فتقدم إليها وقال الآن أختبر الأفضل لي؛ الساحر أم العابد، فقال: اللَّهم إن كان العابد على حق فاقتل هذه الأفعى، ثم رماها بحجر فقتلها وسر الناس وقالوا هذا الغلام أنقذنا من الأفعى، وعاد الغلام إلى العابد وقص عليه خبر الأفعى، فقال له: بني أنت أفضل مني وإنك ستبتلى فاصبر ولا تدل علي، ثم إنه أصبح يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ودخل ديوان الملك فالتقاه جليس الملك ـ وكان أعمى ـ وقال له: لقد بلغ من علمك أنك قتلت الأفعى فهل لعيني من شفاء عندك؟ قال نعم إذا آمنت بالله الواحد دعوته ورجوته شفاءك، فقال: أفعل، فدعا الله باسمه الأعظم فشفي الأعمى وأبصر، ودخل الأعمى إلى الملك مبصراً فقال له ها قد عدت مبصراً! فكيف عاد بصرك؟ قال: ربي رد علي بصري،قال: أنا، قال: لا، ربي وربك الله، قال: ألك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فأمر بتعذيبه، ولم يزل يعذبه ليعرف من أين له هذه الأفكار الدخيلة على بلده؟ فاعترف تحت التعذيب بما عليه الغلام، وأحضِر الغلام وامتدحه الملك أولاً، وقال له: لقد بلغ من علمك ما بلغ حتى شفيت الأعمى والأبرص، قال: لم أفعل ذلك وإنما الله تعالى هو الشافي، فغضب الملك وأمر بتعذيب الغلام، فاعترف على الراهب، فأتي به وعذب بشتى ألوان العذاب لأن الملك عدّه رأس الفتنة، فثبت على دينه فأحضر الملك المنشار فأمر بشقه نصفين، وعاد إلى الغلام يغريه بتغيير رأيه وأن يعمل لحساب الملك فامتنع فأمر الملك بإلقائه من أعلى الجبل ليقتله، فعندما أخذ إلى الجبل دعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين فاهتز الجبل وسقط الجنود وسلم الفتى، وعاد إلى الملك يطلب منه الإيمان بالله وترك ما هو فيه من الباطل، لكن الملك أصر على الكفر وأمسك الغلام وطلب إلقاءه في البحر ليموت غرقاً، ونجاه الله من الغرق، فعاد إلى الملك، فقال الغلام لن تستطيع قتلي إلا إذا عملت بما

أقوله لك، فتلهف الملك لقوله وأصغى إليه، فقال: تجمع أهل البلد كلهم في ساحة عامة وتصلبني ثم تأخذ سهماً من كنانتي وتصوبه نحوي وتقول: باسم الله رب الغلام فتقتلني.

فرح الملك الطاغية لاقتراح الغلام، ثم نفذه أمام حشد من الناس، وأخذ سهماً من كنانة الغلام، وقال باسم الله رب الغلام، فجاء السهم في صدغ الغلام ومات شهيداً رحمه الله لكنه ترك خلفه شعباً مؤمناً قال بصوت واحد آمنا برب هذا الغلام وعلموا أن الملك الذي استعان برب الغلام لم يكن إلهاً كما يدعي وهكذا قامت ثورة ضد الطاغية فما كان من الملك الطاغية إلا أن حفر خندقاً وملأه ناراً أحرق به المعارضين المؤمنين الكافرين بربوبيته الكاذبة، ومما يروى أيضاً أن امرأة كانت تحمل ولدها الرضيع ممن آمنت بالله ترددت في قذف نفسها في الخندق وكادت أن ترتد خشية على رضيعها فأنطقه الله وقال لها أنت على حق يا أماه فثبتت وألقت نفسها مع رضيعها في الخندق.

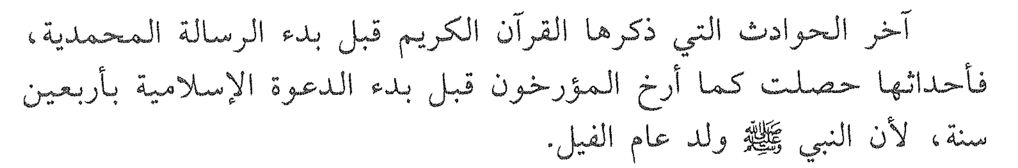
لنستعرض بعد هذه المقدمة الشارحة آيات سورة البروج، قال الله تعالى بعد القسم الرباني العظيم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ فهذا أول ذكر لهم في القرآن الكريم وقد ذكروا بعد قسم مغلظ من الله تعالى، أقسم **بالسماء ذات البروج**: وهي السماء الدنيا التي لها اثنا عشر برجاً بعدد شهور السنة وهي مجموعات من النجوم لكل مجموعة شكل مميز يحصى بها الشهور الشمسية، وأسماؤها معروفة ـ برج الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ـ **واليوم الموعود**: وهو يوم القيامة الذي لا شك في مجيئه، وأقسم بالشاهد والمشهود وهما يومان؛ يوم الجمعة ويوم عرفات، بأن أصحاب الأخدود قد قتلوا بغير ذنب جنوه إلا أن قالوا ربنا الله، وإذا كان المعني بأن أصحاب الأخدود هم الملك الطاغية وأعوانه الذي حفروا الأخدود فتكون قتل بمعنى: لعن وطرد من رحمة الله ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ وهنا وصف للنار التي زيد ضرامها من الحطب وأشباهه وألقيت في الأخدود ثم طرح فيه

المؤمنون ليموتوا حرقاً وهذا منتهى الظلم الذي مارسه هذا الطاغية ليوحي إلى الناس أنه إلٰه يحرق خصومه وغير المؤمنين به في النار ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ أي: هؤلاء الزبانية كانوا يتحلقون حول النار ويعرض عليهم المؤمنون فإذا تمسكوا بدينهم ألقوهم في الأخدود، وإذا ما ضعفوا وارتدوا تركوهم، وهكذا عرض أهل البلد التي جرت فيها هذه الواقعة وهي نجران، فكان أن أحدث الطاغية فيها مقتلة عظيمة أوردها القرآن الكريم لعظمها وأهميتها وذكر بها أهل مكة ليريهم الله مثلاً للمؤمنين الصابرين وآخر للطغاة المجرمين الذين سيشقون خالدين في النار ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ وأن الملك الطاغية وأعوانه شهود على فعلهم القبيح بالتحريق ولن يستطيعوا إنكار ما فعلوه يوم الحساب ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ لم يرتكبوا إثماً ولم يقوموا بعمل إجرامي، إن كل ما فعلوه هو الإيمان بالله العزيز الحميد، هذا هو ذنبهم وهذه هي جنايتهم، قاتل الله أهل الباطل، يغضون الطرف عن فاعلي المنكرات والقبائح والمجرمين والسفاحين، ولا يتحملون أن يروا في مجتمعهم أهل الخير والبر والرحمة والطهر والعفاف، فيعملون على تعذيبهم وقتلهم وتصفيتهم جسدياً بكل وسائل البطش والإرهاب لتسلم لهم كراسي الحكم بالدجل والزور وادعاء الربوبية، إن وجود مثل هذه العقول النيرة لا تناسبهم وتكشف زيفهم ودجلهم وتفضح باطلهم، يريدون شعباً لا يرون إلا ما يريهم ملوكهم، كما قال فرعون لشعبه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وكان سبيل رشاده أن قادهم إلى جهنم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ [هود] ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ تذكير بقدرة الله تعالى وأنه خالق كل شيء مالك السمٰوات والأرض فالكل خاضع لمشيئته وإرادته، فلن يعجزه أحد في الأرض هربا ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾ وهم الملك الطاغية وأعوانه الذين وقفوا على شفير الخندق وكانوا يعملون على إغواء الناس بردهم عن دينهم ليكونوا على دين الملك الضال، فهؤلاء الفاتنون الفاسدون إن لم يؤمنوا ويتوبوا

فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق جزاء بمثل ما عذبوا به المؤمنين، وشتان بين حريق جهنم وحريقهم في الدنيا، فأقوى نار في الدنيا لا تبلغ إلا جزءاً من سبعين جزء من نار جهنم، وهذا الخطاب وإن كان خاصاً بأصحاب الأخدود إلا أنه عام يشمل كل طاغية، وكل من فتن المؤمنين عن دينهم الحق في كل عصر وزمان.

ذكر أن صاحب الأخدود كان يدعي الألوهية، وأن عقيدة الغلام كان على دين موسى، كما ورد في رواية أخرى أنه كان صراعاً بين اليهودية والنصرانية، فكان الأخدود لتحريق النصارى وهذه الحادثة مهدت للغزو الحبشي.





آخر الحوادث التي ذكرها القرآن الكريم قبل بدء الرسالة المحمدية، فأحداثها حصلت كما أرخ المؤرخون قبل بدء الدعوة الإسلامية بأربعين سنة، لأن النبي ﷺ ولد عام الفيل.

مقدمة تاريخية: أدى عمل ذو نواس الطاغية بالمؤمنين من أهل نجران إلى أن خرج من اليمن رجل اسمه دوس ذو ثعلبان وقد نجا من الأخدود وتوجه إلى قيصر الروم في الشام وأخبره خبر ذي نواس وطلب منه نصرة أهل اليمن والثأر من ذي نواس، فقال ملك الروم: طلبك حق ونصرة واجبة ولكن بعدت المسافة بيننا وبينكم، ثم كتب إلى ملك الحبشة كتاباً طلب منه نصرة دوس والثأر من ذي نواس، فلبى ملك الحبشة وأرسل جيشاً عبر البحر قوامه سبعون ألفاً، وعلى رأسه قائده أرياط ومعه أبرهة، فالتقى بجيش ذي نواس وهزموه وغرق ذو نواس في البحر ودخلت جيوش الحبشة أرض اليمن وعملت على نشر الديانة النصرانية، وبعد فترة اختلف أرياط مع أبرهة، فقتل أبرهة أرياط وشج أرياط أبرهة عند عينه وحاجبه وفمه في مبارزة بينهما، ومن هنا سمي أبرهة الأشرم، وأراد أبرهة أن يظهر دين النصرانية في اليمن فبنى كنيسة كبيرة جعلها آية في الفن والجمال واستعان بما في قصور بلقيس من رخام وأحجار فخمة في بنائها، وطعم أبوابها بالذهب ورسم الصلبان بالذهب والفضة، ولما انتهى منها، كتب أبرهة إلى النجاشي ملك الحبشة كتاباً يقول فيه: إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب، فلما سمع أحد

العرب وهو من كنانة بهذا أخذته العزة فدخل الكنيسة وتغوط فيها احتقاراً لها إذا ما قورنت بالكعبة، وهنا بلغ ما صنع هذا العربي أبرهة فغضب وأقسم أن يهدم الكعبة، وأعد جيشه وانطلق باتجاه مكة، وتجمعت عدد من القبائل في الطريق وأرادت قتال أبرهة وصده عن البيت وبذلت الجهد لكنها هزمت أمام جيوش أبرهة وكان معه الفيل الذي يقدمه في القتال أمام الجيش فتنفر منه الخيل، وظل يتقدم ويقضي على كل مقاومة حتى اقترب من مكة، وكانت مقدمة لجيش أبرهة قد أغارت على إبل أهل مكة وساقتها إلى أبرهة، وكان منها مائتا بعير لعبد المطلب، وهنا خرج عبد المطلب للقاء أبرهة ولما سمح له بمقابلة معه سأله أبرهة عن طلبه ـ وكان يظن أنه سيكلمه بشأن العودة عن هدم الكعبة ـ فقال عبد المطلب: إن جنودك أخذوا مائتي بعير من إبلي وطلب ردها، فقال له أبرهة تسألني إبلاً وتترك الأمر الأهم الذي أتيت من أجله، فرد عبد المطلب: أما الإبل فأبلي وأما البيت فله رب يحميه، واسترد عبد المطلب إبله واستمر أبرهة في إعداد الجيش لدخول مكة، حيث قدم من جهة الطائف ونزل في وادي محسر ما بين منى ومزدلفة، وأما عبد المطلب، فقد أمر أهل مكة التفرق في الشعاب والجبال وأمسك هو بحلقة باب الكعبة ودعا ربه أن لا يغلبن صليبهم أبداً محالك أي قوتك، وانطلق مع قومه إلى أحد الشعاب بعيداً عن التصدي للجيش، وفي هذه الأثناء برك الفيل في مكانه ولم يتقدم باتجاه مكة، وحركوه وضربوه فلم يجد نفعاً، ثم وجهوه في غير وجهة مكة فقام وهرول وفي هذه الأثناء أرسل الله طيراً من جهة البحر غطى بأعداده السماء وقد حمل كل طير منها ثلاث حصوات بمنقاره ومخالبه فألقاها على جيش أبرهة فدمره تدميراً، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذه الحادثة التي رآها أهل مكة رأي عين فدلت على قدرة الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾ وهم جيش أبرهة ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ②﴾ فقد جعل الله كيدهم ومكرهم لا يصل إلى مكة فقد حرسها الله ورد عليهم بتدميرهم ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③﴾ طيوراً غريبة تحمل حجارة حامية فكانت تغير عليهم جماعات إثر جماعات وموجات إثر موجات كما يفعل الطيران الحربي في حروب

هذه الأيام ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤﴾ حجارة طبخت بنار جهنم كتب عليها أسماء القوم الذين سيقتلون بها، وهي عندما تصيب الفرد تؤلمه وتحرق أمعاءه فيتلظى ألماً ويسقط ميتاً متهالكاً أو أشلاء ممزقة ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ مثل الزرع وأوراق الشجر الذي تأكله الدواب فتقضمه قضماً وتترك منه بقايا متناثرة، وذكر أن الحصاة كانت تقع على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه وتبقى عظاماً خاوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم.

فكانت هذه السورة المختصرة أبلغ وصف لما حصل لأصحاب الفيل.



ح - أصحاب القرية

وردت قصة أصحاب القرية في سورة يس والقرية هي أنطاكية، والدعاة المبشرون هم رسل عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ خطاب للنبي ﷺ بأن يتمثل بهؤلاء الرسل الذين أتوا هذه القرية للدعوة فيها وهداية أهلها إلى التوحيد فكان مصيرهم التكذيب وأسوأ مما رأيت من قريش من العداوة والتكذيب وهذا الخطاب تسلية للنبي ﷺ وضرب الأمثال له للصبر والتأسي وأنه ليس أول داعية يجد هذا الصد والجحود من الناس، فليس الأمر سهل مع المعاندين وأهل المصالح الخاصة الذين عشش الشيطان في عقولهم وسكن قلوبهم واستغلوا عمى القلوب ليحققوا زعامة مصطنعة تحقق لهم مكاسب مادية فهؤلاء لا يمكن أن يستجيبوا للدعوة بل هم عقبة أمام الدعوة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ كانا رسولين من قبل عيسى عليه السلام، والضمير راجع إلى الله، فالله هو المرسل لهما لأن عيسى أرسلهما بوحي من الله فكان أصل الإرسال من الله تعالى، والرسولان هما كما ورد: يوحنا وشمعون، فما كان مصيرهما؟ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ كذبهما أهل أنطاكية، بل وضربوهما وسجنوهما، ولكي تصل الدعوة إلى الناس بعد سجن الرسولين وكتم صوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: أردفهما الله بثالث وزوده بأسلوب في الدعوة مغايراً عن الرسولين السابقين بما يتناسب مع ظرف البلد، فاستمرت مسيرة التبليغ بهذا التعزيز ولم تنقطع واسم الثالث بولس ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فكما بلغهما الرسولان من قبل بأنهما مرسلان، قال الثالث: إني إليكم

مرسل، فكانت لغة الثلاثة واحدة لأهل القرية، فكان جواب القرية على هؤلاء الرسل، أو بالأحرى المتنفذون في القرية وهم الملأ ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فكان الصد الأول بأنكم بشر مثلنا فمن أين لكم هذه الميزة علينا بأنكم رسل الله؟ وكأن هؤلاء المتنفذين يريدون منهم أن يكونوا ملائكة أو من نوع آخر مختلفين عنهم وهذا تفكير خاطئ، وقد قال غيرهم من الأمم مثل هذا الكلام تشابهت قلوبهم ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ وهكذا كذبوا الرسل عن غير علم ومعرفة وإنما أوحى لهم شيطانهم بهذا، مع أنهم قدموا البراهين الصادقة على دعوتهم وأنهم لا يطلبون منهم أجراً على ذلك، فكان جواب الرسل ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ⑯﴾ رداً على تكذيبهم بأنهم أشهدوا الله على ما يقولون ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ⑰﴾ نحن كلفنا بالبلاغ فقبلنا هذا التكليف لأنه من الله، فعلينا أن نبلغكم هذه الدعوة وننذركم ونحذركم بأن ما أنتم عليه من الكفر يودي بكم إلى النار ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑱﴾ فكان الرد سفهاً وتهديداً بالرجم أو التعذيب، وحذروهم من الإقامة بينهم لأنهم تطيروا منهم وتشاءموا من مقامهم في بلدهم وعليهم أن يخرجوا من ديارهم، فكان الرد من الرسل ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ إن حل فيكم الشؤم فليس منا وإنما هو منكم بسبب ما تحملون من فكر إلحادي وضلال بعيد عن التوحيد ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أكل هذا الإدعاء بالتطير والتهديد بالرجم والتعذيب لأننا دعوناكم إلى الله وذكرناكم بوجوب الإيمان وأن المؤمن سينال كل الخير في الدنيا والجنان في الآخرة وإن أردتم العيش في الظلام مع الكفر فإن أيامكم ستكون مثل ظلام ليلكم وأن مردكم بعد ذلك إلى النار، وبإعراضكم تعدون من المسرفين المفرطين بحق أنفسكم فلم تراعوا لها حقوقاً أو صوناً من الأذى والتعذيب، وفي خضم النقاش والجدال بين الحق والباطل دخل مؤمن ليصبحوا أربعة من المؤمنين ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ

﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ ورد أن اسم هذا الرجل المؤمن هو حبيب النجار، فقد أتى مسرعاً ليقدم نصحه إلى أهل القرية ـ أنطاكية ـ بأن هؤلاء الدعاة على حق وقولهم صدق فاتبعوهم تسلموا ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ هؤلاء المتطوعون أتوا لهدايتكم وتقديم النصح والخير لكم بلا مقابل ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾ إن هؤلاء الرسل يدعونكم إلى الإيمان بالذي خلقكم، وهل هذا عيب؟ إنهم لا يدعونكم لعبادة أي كان، يدعونكم لعبادة خالقكم، فهل هذه الدعوة منكرة؟ إذا لم تعبدوا الذي خلقكم فمن تعبدون إذاً؟ فالدعوة الواضحة التي لا ريب فيها هي الدعوة لعبادة الخالق والاعتراف بقدرته ووحدانيته، وأنا لا مانع عندي أن أعبد الذي خلقني بل وهذا واجبي لأن المرجع والمآب إلى الله فيجازي الناس إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم فسر لهم العبودية المطلوبة للخالق وإذا صرفتُها لغير الخالق فمن سينجيني من الله إن أرادني بضر؟ وهذا يتطلب منا التفكير السليم لنكون من المؤمنين بالله ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾ فهذه الآلهة المزعومة لا ترد عنا أذى ولا تستطيع لنا شفاعة لإنقاذنا من العذاب، إن فعلتُ هذا واتخذت آلهة من دون الله فهذا هو الخطأ الكبير ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ وهكذا كان حبيب النجار في غاية من البيان والفصاحة والبلاغ ثم أعلن أمامهم الإيمان بالله بربهم وخالقهم لعله يكون قدوتهم فيتابعونه على هذا السبيل ويكون قد أدى واجب الدعوة وفاز بالثواب الكبير لهدايتهم وإنقاذهم من الضلال، ولكن قومه أشقياء لم يؤثر فيهم النصح ووضعوا كل هذه الأقوال خلف ظهورهم، وقالوا له: إن كنت تؤمن بما تقول فاذهب إلى الجنة وحدك ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فكانوا شر خلق الله عندما أقدموا على قتل هذا الداعية، فقتلوه مستهزئين وهم يقولون بقتلنا لك ـ كما تدعي تدخل الجنة ـ فها نحن قتلناك فادخل الجنة عند زعمك، فدخل الجنة ولما رآها قال: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ وهذا القول من حبه لقومه رغم إيذائهم له وقتله، لكنه تمنى لو يعلمون مصيره لآمنوا

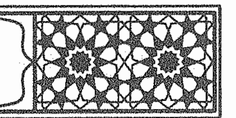
ولنالوا ما نال من الجنان، فتمنى صادقاً أن يبلغهم مصيره، ولكن هيهات لمن كذبوا الرسل وقتلوا أهل الإيمان وغلف الران قلوبهم أن يهدوا إلى الحق، بل إنهم استحقوا بفعلهم هذا نقمة الله وعذابه ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فكان هذا مصيرهم، أن سلط الله عليهم جنداً من السماء وملائكة العذاب فكانت منهم صيحة مزلزلة مجلجلة قوية صرعتهم وأنهت شرّهم ونجا الله رسله من بينهم، وعلى إثر ذلك قال الرسل والدعاة متحسرين على أهل التفكير الخاطئ الذي يجر عليهم الويلات والعذاب: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآيات من سورة يس ١٣ ـ ٣٠.

قيل: إن أنطاكية كانت من المدن التي قبلت دعوة الحواريين المرسلين من قبل عيسى ولا يعقل أن المقصود بهذه القرية أنطاكية، أقول: إن صح هذا فهناك واحد من احتمالين:

ـ إما أنها أنطاكية ولكن في غير عصر عيسى، وهؤلاء المرسلون كانوا رسلاً من الله، وأنها دمرت بسبب الجحود ثم عمرت بعد دهر من الزمان وقبلت فيما بعد رسالة عيسى بلا تردد.

ـ وإما أنها غير أنطاكية لكنها قريبة منها أو في منطقتها فأخذت اسمها وتمضي القصة كما وردت بأن هؤلاء هم رسل عيسى عليه السلام.





ط ـ الولد العاق

لا يشك إنسان في رحمة الأبوين بابنهما، وفي تقديم تربية راقية له من وجهة نظرهما وما تربيان عليه، فهنا قصة أبوين مؤمنين أحبا بشغف ابنهما وقدما له كل ما يملكان من حب وحنان وتربية قويمة أساسها الإيمان بالله، فلقناه صفات الله تعالى وحببا إليه الشريعة المنزلة من الله، فكان قرة أعينهما، ورأيا فيه الولد المثالي في ما قدما إليه من تربية وحنان وربما بالغا في التربية والتدليل فكان شغلهما الشاغل، لا يستطيعان الأكل إلا بوجوده معهما، ومن شدة المحبة لم يتركاه يخرج من البيت إلا معهما أو بصحبتهما، فكان غطاؤه عند النوم الأهداب والجفون، وحراسته في الليل سهر العيون، إن مرض لم يناما سهراً عليه وخوفاً وقلقاً، وكان ألمهما يفوق ألمه، وهم ينتظرانه أن يكبر ويكبر، ليكون الأملَ لهما بعد الله في رعايتهما في الكبر، وبتربيته على الإيمان يتقربان إلى الله لمزيد من الثواب في الآخرة، ولكن بعد أن شب عن الطوق وبدأ يخرج من البيت إلى عالم الناس والاختلاط وإلى صراع الأفكار، وإلى التفكير في كل أمر صغيراً كان أو كبيراً، وإلى محاكمة كل شيء إلى العقل وأي عقل؟ عقل سممه المغرضون فلم يعد له مصداقية في الحكم على الأشياء أو الأفكار، وأضحى منحازاً في الحكم، فشذ عن التربية الحقة، لذلك بدأت تربية الأبوين تهتز في فكره، ويقل تأثيرها على سلوكه، وتضعف قوتها في نفسه، وفي أحد الأيام خرج عن الطوع وتمرد على التربية النموذجية الإيمانية وفاجأ أبويه بكلمات لم تخطر على بالهما في يوم من الأيام، أو

تصدر من ولدهما الغالي المدلل ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ كلمة ثقيلة فيها التضجر منهما ومن تربيتهما له وعطفهما عليه، وقد خالف بانقلابه على أبويه كل أدب ولياقة وتوصية ربانية بالأبوين ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولما استفسرا منه عن سبب هذا التأفف والثورة النفسية قال: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ كانا قد لقناه الإيمان والبعث والنشور بعد الموت، فجاء من زعزع هذا الاعتقاد في قلبه، فانقلب على أبويه وعد ذلك خداعاً منهما له وفكراً مضللاً، فكان غضبه على أبويه، وثورته العارمة في أعماق نفسه، فيقول: هل رأيتم من يخرج من القبور بعد الموت، فهذه قبور من بادوا قبلي، على حالها وأنا إن مت فسأبقى مثلهم وأتحول إلى عظام بالية وتراب، لقد ضعف إيمانه الغيبي وعطل تفكيره في رؤية ما يحدث في الكون أمامه ليرشده إلى قدرة الله في الإماتة والإحياء والبعث والنشور،خلق الإنسان من نطفة وتكوينه في الرحم ثم نفخ الروح فيه، الحياة في الأرض المجدبة حين ينزل عليها المطر فتنبت وتخضر وتثمر، فأبواه كانا على حق في تلقينه الإيمان وهما يعلمان الحقيقة لذلك كانا يخافان عليه عاقبة أمره ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ منظر معبر ولد ثائر على العقيدة والقيم وأبوان يعرفان أنهما على حق فيدعوان الله أن يهديه ويعيد إليه الثقة بالله ثم بهما، ويدعوان الله ألا يوغل في هذا النكران فيخرج بذلك عن الملة وتكون هنا الخسارة الجسيمة وفقدانه للأبد حيث يختلف الطريق، فهما مؤمنان وطريقهما إلى الجنة، وهو إن أصر على كفره فطريقه إلى النار، فهل يلتقيان؟ ولعله لم يستمع لهما فهو متمرد يعد والديه متخلفين وهو مع الشباب الناهض المتقدم، ولكن حنان الأبوين وإشفاقهما عليه كي لا يضيع يطلبان منه بصوت واحد مرتفع ليفيق من حلمه القاتل ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ استغفر الله، الله تواب رحيم، لا تنطق بكلمات الكفر، تب إلى الله وأنت قوي صحيح فلا تثريب عليك يغفر الله لك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في يوم الحساب ومجازاة المحسن إحساناً بالجنة والمسيء إساءة بالنار، ولكن المسكين المنقلب على والديه الثائر على القيم والمعتقد السليم يقول بعد أن تلوث فكره وعشش النكران في لبه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا

أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول لأبويه: هذه أكاذيب لا أعتقدها وهي من اختراع الأولين الذين يخدعون الناس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ الآيات من سورة الأحقاف: ١٧ ـ ١٨.

وهكذا قضى هذا المتمرد عاقاً جحوداً، لم تنفع فيه التربية.



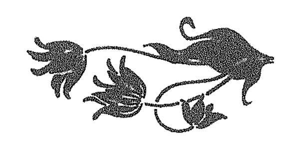
قصة عزير

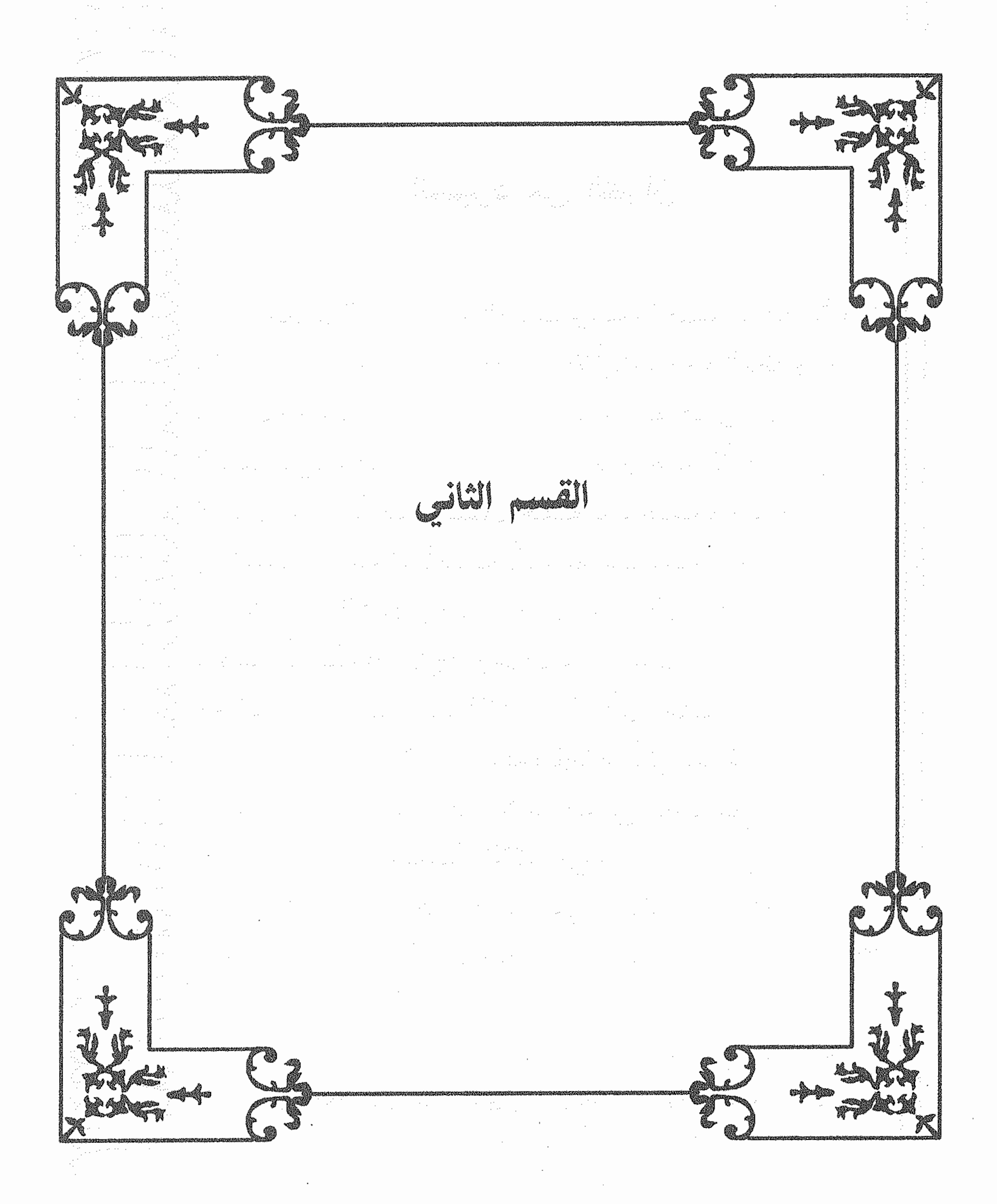
وردت قصة عزير في سورة البقرة، فمن هو عزير؟ ورد أنه ينسب إلى هارون بن عمران، وذكر أنه كان مع سبي بخت نصر وهو صغير وهم الذين نزلوا ببابل، واختلف في نبوته، فقد ورد أنه أوتي الحكمة، وقيل كان نبياً نبئ بعد الأربعين، وقيل لما خرب بختنصر القدس خرج إلى البراري وابتعد وصار مع الوحش وربما يعنون بهذا أنه سكن البر بعيداً عن الناس واتخذ زراعة، وهذا أدعى وأفضل من قصة السبي، فقد أتى على حمار له ومعه سلة تين وسلة عنب وقصعة وخبز يابس فمر عند الظهيرة بقرية خربة فنزل في ظل جدار وأخرج العنب فعصر منه في القصعة وثرد فيه الخبز، وانتظر كي يصبح الخبز طرياً، ثم نظر إلى القرية الخربة - وهي بيت المقدس - فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، وقد سجلت هذه الحادثة في سورة البقرة ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وبعد هذه السنوات المائة كانت الأخبار قد وصلت إلى ملك بابل بأن بلد القدس قد خربت ولم يبق فيها من بني إسرائيل أحد، فنادى منادي الملك في أسارى بني إسرائيل أنه من أراد العودة إلى القدس فليعد، وهكذا خرج الناس بالألوف وعادوا إلى بيت المقدس يعمرونه ويجددون بناءه، فعاد أجمل مما كان ودبت الحياة فيه من جديد، وفي هذه الأثناء كان قد تم لعزير وهو ميت مائة سنة، فأحياه الله ورأى المدينة عامرة فتعجب أشد العجب، ثم جاءه ملك فسأله ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ﴾؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوۡمٍۖ﴾ وكانت روحه قد قبضت ظهراً وأحياه الله عصراً، لذلك قال: يوماً أو بعض يوم، وهنا قال الملك له: ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ لتمام المعجزة فقد رأى التين كما تركه في السلة طازجاً كأنما قطفه قبل ساعة، ثم نظر إلى الشراب فرآه كما تركه فيه الخبز لم يتبلل جيداً فما زال فيه اليبس، وكان لما رأى قلبه يخفق لهذه المعجزة، مائة عام، يا إلهي كم مات من الناس وكم ولد منهم؟ وطعامي وشرابي لم يتغيرا، أما مر من هذا المكان أحد ليرى قصعتي وطعامي، ولكن أين حماري؟ قال هذا بعد أن تذكر تماماً حاله وهو جالس يعد طعامه وشرابه، فأشار الملَك إلى عظام بالية لحيوان ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ انظر إلى هذه العظام البالية هي ما تبقى من حمارك، لكن انتبه هذه الآية من الله لكي تكون أنت معجزة هذا العصر، فقال: كيف؟ فكان الجواب سترى ما ينتظرك ولكن انظر أولاً إلى هذه العظام ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ فرأى عجباً وقدرة فائقة حيث اجتمعت العظام وتشكل الهيكل العظمي ثم امتدت الأوردة والشرايين ثم كسيت لحماً وجلداً فوقها ثم نفخت فيه الروح فقام يجري ويهرول وينهق، إنه حماره الذي يعرفه كما كان معه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لم يكن من قبل شاكاً بل كان متسائلاً، وهو مؤمن بقدرة الله تعالى، ولكن كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ وهكذا رسخ الإيمان عنده فوق ما كان وعاد إلى قريته بعد هذه المدة، وهنا ستبدأ دلائل المعجزة، عاد إلى القرية ليراها اختلفت وتغير معظم معالمها، لكنه وجد بيته ووجد فيه جاريته وقد بلغت مائة وعشرين سنة، فقال لها: هذا منزل عزير؟ قالت: نعم، وبكت وقالت: ما أرى أحداً يذكر عزيراً غيرك! فقال: أنا عزير، فقالت: إن عزيراً كان مجاب الدعوة، فادع الله لي بالعافية، فدعا الله لها فرد عليها بصرها وقامت تمشي قوية نشيطة، فلما رأته ـ فقد بعث على هيئته يوم مات ابن أربعين سنة ـ عرفته، وكان لعزير ولد عمره مائة وثلاث عشرة سنة، ولهذا الابن أولاد شيوخ، فذهبت الجارية إليهم وأخبرتهم خبره، فجاؤوا، فلما رأوه

عرفه ابنه بشامة كانت في ظهره، وشاع خبره في قومه بين مصدق ومكذب، فقالوا: لقد أُخبرنا أن عزيراً كان أحفظ الناس للتوراة وقد أحرق بختنصر التوراة وما من أحد يحفظها هنا كاملة، فإن أعدت كتابتها لنا صدقناك، فقام فتطهر واغتسل وصام وناجى ربه أن يلهمه التوراة ويعيدها كما كانت إلى صدره، فظهر له ملك بصورة رجل معه إناء فيه ماء فقال له: اشرب، فشرب فتمثلت التوراة في صدره كاملة، فكتبها لهم بحدودها وحلالها وحرامها، فأحبوه حباً شديداً، وأصلح لهم شأنهم، وكان من العجب العجاب أن ابنه أكبر منه وكذلك أحفاده، فكانوا في مجلسه شيوخاً بلحى بيضاء وهو أشب منهم بلحية سوداء ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ ولما توفي اختلف المتأخرون من بني إسرائيل فيه، فقالوا: عزير ابن الله، وقالوا: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، أما عزير فقد حفظها وكتبها وعدوا هذا خارقاً وقالوا: عزير ابن الله، وقد ضلوا بهذا القول وكفروا ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

ورد أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل وكانت فترته بعد داود وسليمان وقبل زكريا.



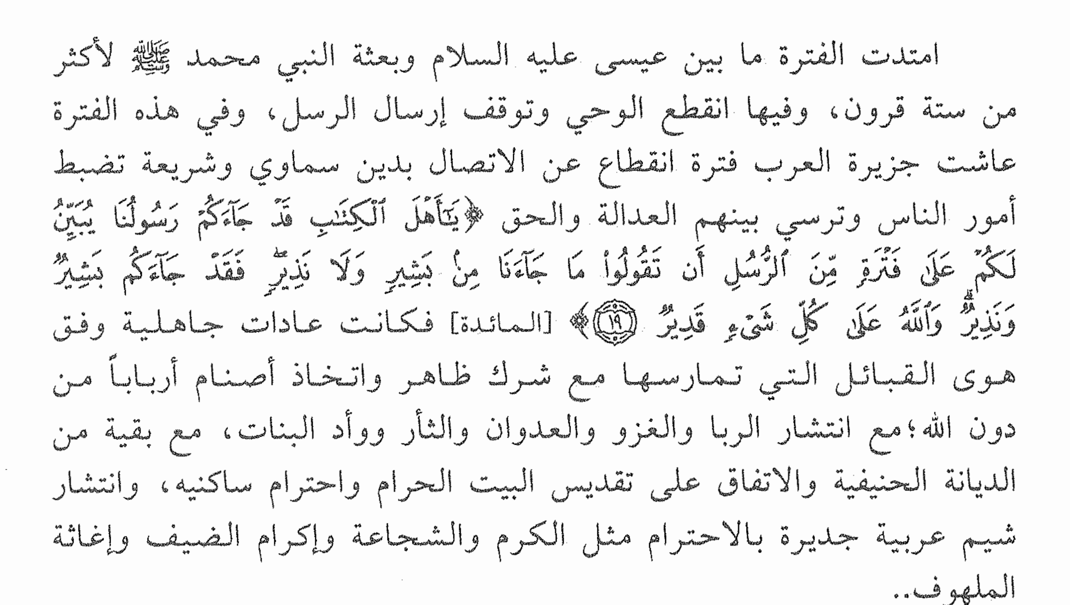


القسم الثاني

السيرة من القرآن

القرآن الكريم ربيع القلوب وشفاء الصدور، فيه الأحكام وفيه إقرار التوحيد، وفيه قصص الأنبياء، وفيه العظة والعبرة، من فهمه حق الفهم وأخذ بما فيه فقد هُدي إلى الصراط المستقيم، وعرف نفسه ومَن هو فوق هذه الأرض وفي هذا الكون، وإذا عرف الإنسان حقيقته وحجمه وعرف خالقه وأسماءه وصفاته تصرَّف تصرُّف العبد بالنسبة للخالق، وعرف بما لا يقبل الشك واللبس قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وعرف ما المطلوب من العبد تجاه الخالق، والقرآن خاتم الكتب نزل على خاتم الأنبياء ليكون منهاج حياة إلى أن تقوم الساعة، فإذا ما ذَكر السابقين من الأنبياء والأمم فقد أتى على أهم الأحداث في عصر كل نبي، وكان لسيرة موسى فيه النصيبُ الأكبر في الذكر إذا ما قيس بما ذكره عن بقية الأنبياء، ولكن هذا لا يعني أن ذكر النبي ﷺ داخل في هذه الإحصائية، فالقرآن كتاب الله الذي أنزله على النبي ﷺ فلا تكاد تخلو سورة إلا وفيها ذكر للنبي ﷺ، صحيح إنه لم يذكر النبي بالاسم إلا في أربعة مواضع والخامس باسم أحمد، لكنّ ذكره أكثر من أن يحصى، وقد نوّه عنه بكاف الخطاب وهاء الغيبة والضمائر المستترة مع ذكر ما عاصره من الأحداث، وسوف نستقصي السيرة النبوية من النص القرآني لتكون سيرة نبوية خالية من الخلل والمبالغات واختراق الإسرائيليات.

الحالة في الجاهلية



امتدت الفترة ما بين عيسى عليه السلام وبعثة النبي محمد ﷺ لأكثر من ستة قرون، وفيها انقطع الوحي وتوقف إرسال الرسل، وفي هذه الفترة عاشت جزيرة العرب فترة انقطاع عن الاتصال بدين سماوي وشريعة تضبط أمور الناس وترسي بينهم العدالة والحق ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة] فكانت عادات جاهلية وفق هوى القبائل التي تمارسها مع شرك ظاهر واتخاذ أصنام أرباباً من دون الله؛ مع انتشار الربا والغزو والعدوان والثأر ووأد البنات، مع بقية من الديانة الحنيفية والاتفاق على تقديس البيت الحرام واحترام ساكنيه، وانتشار شيم عربية جديرة بالاحترام مثل الكرم والشجاعة وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف..

وقد ورد في القرآن الكريم ما يكشف كثيراً من مما كان يحدث في تلك الفترة، فمن الناحية العقدية ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية]، وعن تأليه الأصنام عيرهم الله تعالى بسخافة عقولهم ومرض تفكيرها لأنهم اتخذوا من الحجارة آلهة يعبدونها وهم يظنون أنها تنفعهم، فقدموا لها كل احترام وتقديس ونسوا الله خالقهم وأن بيده النفع والضر ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ [النجم] كما عاب بعض عاداتهم الموغلة في الخطأ والظلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة] كما عيرهم بردة فعلهم وحالتهم النفسية وما كانوا عليه عندما تولد لهم مولودة ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل].

هذه هي الحالة العامة في جزيرة العرب من حيث العقيدة والعادات الجاهلية، وقد سمي الناس فيها **بأهل الفترة** لخلوها من نبي مبلغ أو داعية يدعو وفق منهج سماوي، وفي الحديث الذي أخرجه أحمد عن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: «**أربعة يوم القيامة، رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، قال: فيأخذ مواثيقهم ليطعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً**» أربعة أصناف من الناس يعذرون ومنهم أهل الفترة، حيث يؤخذ عليهم العهد والميثاق بأن يطيعوا الله بما يأمرهم به، فعندما يأمرهم بدخول النار يخافون وربما امتنعوا وهذا عصيان للأمر ونقض للعهد، ولو أطاعوا لكانت النار برداً وسلاماً وهذا امتحان لهم، ينجح من ينجح فيه ويسقط من يسقط. وقيل عن أهل الفترة يعرض عليهم الإسلام في حالة تشابه أمثالهم فمن يؤمن فقد فاز ومن يعرض فقد خسر.

❋ ❋ ❋

ولادة خير البشر

هذه هي الحالة قبل بعثة النبي ﷺ، فقد ولد ﷺ في هذه البيئة وكان مولده في **مكة المكرمة عام الفيل**، وهو العام الذي غزا فيه أبرهة الحبشي

أرض الحرم ليهدم الكعبة فأذاقه الله الذل والخزي فأفنى معظم جيشه بما في ذلك الفيل، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل] وقد ورد أن مولد النبي ﷺ كان في الثاني عشر من ربيع الأول، وقد روت أمه آمنة أنها لما حملت به رأت أنه خرج منها نور أضاء أمامها قصور بصرى من أرض الشام.

مات والد محمد ﷺ وهو لا يزال حملاً في بطن أمه، فلما ولدته أمه كان يتيم الأب، لذلك أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام فتعال فانظر إليه، فحضر فنظر إليه ودخل حبه في قلبه فأخذه إلى الكعبة ودخل جوفها فدعا الله له وشكره على ما وهب تعويضاً عن عبدالله ثم التمس له من يرضعه، وكان من عادة أهل مكة أن يرسلوا أولادهم إلى البادية لتقوية أجسامهم وإرضاعهم من نساء البادية فيعود الطفل بعد سنة أو سنتين وقد اشتد عوده، وهكذا جرى هذا الأمر مع النبي ﷺ فأخذته حليمة السعدية وهي تنسب إلى هوازن وأرضعته سنتين، فقوي عوده وفاق بالصحة أقرانه، وقد كان حال حليمة أقرب إلى الفقر فأغناها الله وظهرت بركته عليها وعلى قومها وديرتها، لذلك لما انتهت السنتان وحانت مدة إعادته إلى والدته أخذته إلى مكة ثم رجت آمنة أن تبقيه عندها سنتين أخريين لأنها تخشى عليه وباء مكة فوافقت آمنة وعادت حليمة به إلى ديارها ثانية وهي ترجو بركته، وفي أحد الأيام عاد أخوه من الرضاعة فزعاً فقال لحليمة: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه ـ يحركانه ـ وأبوه يسمع، فخرجت هي وزوجها نحوه فوجداه قائماً منتقعاً وجهه، فقالت حليمة فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، قالت فرجعنا إلى خبائنا، فقال لها أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت آمنة: ما أقدمك به يا ظئر ـ مرضعة ـ وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك، فقالت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي

علي، وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك، فلم تدعها حتى أخبرتها ما جرى له، فقالت: أتخوفتِ عليه الشيطان؟ قالت: نعم، قالت: كلا! والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبنيّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟ قالت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل كان أخف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يده بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدة.

ويروي ابن إسحاق في السيرة أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «**نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام واسترضعت في بني سعد ابن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه**» قال: «ثم قال أحدهما لصاحبه: **زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها**» وأما دعوة إبراهيم فعنى بها قوله عندما أتم بناء الكعبة مع إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] وأما بشارة عيسى، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وفي عملية شرح الصدر وتنقيته، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الانشراح] فهذه التنقية لقلب النبي ﷺ وتصفيته من العلقة المؤذية منذ الصغر هي بمثابة إعداد وتهيئة جسمية له وتقوية لجريان دمه وصفاء فكره وذكاء عقله.

وقد روي أن إيوان كسرى قد اهتز اهتزازاً عنيفاً يوم ولادته ﷺ، قال مخزوم بن هانئ: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان ـ كبير الكهنة المجوس ـ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك، ثم أخبر رجال دولته وقص عليهم الخبر، فقال الموبذان وأنا قد رأيت هذه الليلة رؤيا فقصها عليهم، ثم فسر حلم كل منهما، بقرب سقوط دولة فارس بعد أن يحكم منهم أربعة عشر ملكاً وملكة، وتحقق هذا في خلافة عثمان رضي الله عنه بعد أربع وثمانين سنة تقريباً حيث قتل آخر ملوكهم يزدجرد.

وعاد محمد ﷺ إلى أمه فأتمت رعايته وتربيته تحت كفالة جده، وعاش في هذه الفترة معززاً مكرماً فقد كان جده يحبه ويحله في الصدارة معه، قال ابن إسحاق: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه إلى أن يخرج إليه، فلا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان محمد ﷺ يأتي وهو غلام جفر ـ ناضج ـ حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. وقد ذكّر الله نبيه بما أفاء عليه من النعم في مرحلة اليتم ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [سورة الضحى] وفي هذه الفترة صحب أمه في زيارة أخواله من بني عدي بن النجار في يثرب ـ المدينة المنورة ـ وفي طريق العودة توفيت والدته في الأبواء مكان بين مكة ويثرب وعمره ست سنوات، فأصبح يتيم الأبوين، وبعد عامين توفي جده عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب، وهو أخ شقيق لوالده، وكان صاحب عيال ولا يعد من الأثرياء، لذلك أراد النبي ﷺ ـ بما أوتي من فهم وذكاء

لماح ـ أن يخفف عن عمه عبء إعالته فعمل في رعي الأغنام لأهل مكة، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما من نبي إلا وقد رعى الغنم**، قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: **وأنا**» وفي رواية رعاها على قراريط لأهل مكة، أي بأجر، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة تعلق قلبه بعمه ولم يرد مفارقته خصوصاً عندما أراد الذهاب إلى الشام بتجارة له؛ وفيها سيغيب طويلاً لذلك أخذه معه ليبقى تحت نظره، وكانت تجارتهم غالباً تنتهي عند بصرى الشام، وهناك كان على الطريق عند بصرى صومعة قديمة ينزل بها الرهبان، وكان فيها الراهب بحيرا فقد لاحظه من الشرفة وغمامة تظله من بين الركب، ثم جلس تحت شجرة فمالت إليه أغصانها، وقرر أن يجمع القوم على وليمة ليكون قريباً من الفتى، فقام يلحظه، ويتوسم فيه أمراً حتى إذا تفرق القوم قال بحيرا: أسألك باللات والعزى ـ وقد عرف أن هذين آلهة القوم ـ إلا صدقتني فيما أنا سائلك عنه، فقال محمد ﷺ: لا تسألني باللات والعزى شيئاً فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، فقال بحيرا: **فبالله** إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن حاله ونومه وهيئته وأحلامه ورأى خاتم النبوة بين كتفيه فعزز من اعتقاده بأنه النبي الخاتم المنتظر ثم أوصى عمه أبا طالب بأن يعود به إلى بلده ويحفظه من غدر يهود.



إرهاصات تلك الفترة

حفظ الله محمداً في صغره وليداً ورضيعاً ثم فتى يافعاً، وروي أن النبي ﷺ قال: «**لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي**»، وقد وردت هذه الحادثة في

صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله قال: «لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة فقال عباس للنبي ﷺ: «**اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: إزاري إزاري فشد عليه إزاره**» وفي رواية أخرى: «**فجعله على منكبيه فسقط مغشياً عليه، فما رئي بعد ذلك عرياناً**» وعنى ببناء الكعبة هنا ترميمها وكان النبي ﷺ في هذه الفترة فتى يافعاً، أما بناء الكعبة بعد نقضها بالكلية فكان النبي ﷺ في سن الخامسة والثلاثين عندما حل لقريش النزاع حول وضع الحجر الأسود.

ومما ذكر عن حفظ الله له في صباه أنه اشتاق يوماً إلى أن يسمر كما يسمر الفتيان في مكة، فقال: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عزَّ وجلَّ برسالته، فإني قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان ابن فلان تزوج بفلانة بنت فلان، فجلست أنظر إليهم، فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس، قال: فجئت صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت ما صنعت شيئاً، ثم أخبرته الخبر، قال: ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: أفعل، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة، فجلست أنظر فضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس ـ حر ـ فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عزَّ وجلَّ برسالته**».

❊ ❊ ❊

مرحلة الشباب

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام خمس عشرة سنة أو أكثر بقليل هاجت

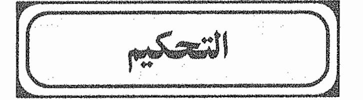
حرب الفجار بين قريش ومن ساندها من كنانة وبين قيس عيلان، وسميت بهذا الاسم لاستحلالهم القتال في الشهر الحرام وروي أن أعمام النبي ﷺ قد أخرجوه معهم ليشهد القتال، فقال: «**كنت أنبل على أعمامي**» أي: أجمع لهم نبل عدوهم الذي يرميه عليهم.

وشب عليه الصلاة والسلام على السجايا الحسنة والأخلاق الحميدة والصدق والأمانة في تعامله مع الناس، وعلمت بهذه الخصال خديجة بنت خويلد وكانت امرأة تاجرة ترسل الناس في تجارة لها وتجعل لهم نسبة من الربح، فعزمت على أن ترسل محمداً في تجارتها إلى الشام، فبعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل منها هذا العرض وخرج في تجارة لها ومعه غلامها ميسرة ليساعده ويقوم على خدمته، وانطلق في تجارتها إلى الشام، ويروي ميسرة أن النبي ﷺ جلس تحت ظل شجرة قريباً من دير أحد الرهبان، فلما رآه الراهب نادى ميسرة واستعلم منه عن هذا الجالس تحتها، فأخبره أنه من قريش من أهل الحرم، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

كما حدث ميسرة عما رآه من النبي ﷺ خلال هذه الرحلة فقال: كان إذا اشتد الحر في الهاجرة يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، وقد كانت هذه الرحلة موفقة عادت بأرباح وافرة على خديجة، وقد وصلت هذه الأخبار عن النبي إلى خديجة من ميسرة، فرغبت فيه زوجاً طيباً أميناً مباركاً، قيل: إن خديجة قالت له: يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها، قال ابن هشام: كانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو قدر عليه، وقد روي في قصة زواجه من خديجة غير هذا، فعن نفيسة بنت علية قالت: أرسلتني خديجة خفية إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت له: يا محمد، ما يمنعك من أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به، قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف

والكفاية ألا تجيب؟ قال: فمن؟ قلت خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قلت: علي وأنا أفعل، فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه عليه الصلاة والسلام أن ائت ساعة كذا وكذا، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فحضر ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوجوه وكان الذي تولى زواجه عمه أبو طالب ومعه حمزة، وحضر الخطبة من طرف خديجة ورقة بن نوفل، وكان زواجاً مباركاً رزق منه النبي ﷺ الذرية من بنين وبنات غير أن البنين ومنهم القاسم وكان يكنى به والطاهر ماتا طفلين قبل البعثة وعاشت بناته الأربع وشهدن الإسلام وهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين، وقد عيره كفار قريش بأنه لا ولد ذكر له وأنه أبتر فنزلت فيهم سورة الكوثر ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

***



التحكيم

عزمت قريش على إعادة بناء الكعبة ورفع بنيانها فقد كان بنيانها غير سامق مع عطب في أخشاب السقف، قال ابن الأثير في الكامل: «كان سبب هدمهم إياها أنها كانت رضيمة ـ حجارة مصفوفة ـ فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها» وكان البحر قد ألقى بسفينة إلى شاطئ جدة لتاجر رومي فتحطمت، فقوت من عزيمة قريش على استعمال أخشابها في البناء، كما ذكر أن أفعى ضخمة كانت تخرج من بئر الكعبة فتتسلق جدار الكعبة، وكانت إذا اقترب منها أحد كشت وفغرت فاها فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، ولما عزمت قريش على بناء الكعبة وجمعوا المال لأجل ذلك؛ زالت العقبات سريعاً فقد أتى طائر كبير فاختطف الأفعى وذهب بها فاطمأنت قريش إلى أن عملها في البناء ميسر، ثم هابوا هدمها ونقضها، وقام أبو وهب بن عمرو المخزومي فتناول حجراً فوثب من يده فقال: لا تدخلوا فيها إلا مالاً حلالاً طيباً. ويروى هذا عن الوليد بن المغيرة، ثم بدأ نقضها وهو

يقول: اللَّهم لم تُرَع، اللَّهم لا نريد إلا خيراً، ثم هدم ناحية الركن، وتربص الناس به تلك الليلة ليروا إن أصابه شيء وإلا أقدموا على إتمام الأمر، فقام في الصباح دون أن يمسه أذى فأقدم الناس على هدمها إلى أن وصلوا إلى الأساس وهو حجارة خضر كأنها أسنة آخذ بعضها ببعض، ويروى أن رجلاً وضع عتلة بين حجرين في هذا الأساس وأراد اقتلاع أحدهما انتقضت مكة بأسرها واهتزت فوقفوا عند هذا الأساس وشرعوا في البناء، ولما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا في من له الشرف بوضعه، فكل يدعي أحقية هذا الشرف، وكادت تحدث حرب بين الأطراف وينقلب فرح التجديد إلى حزن مأساوي وإراقة للدماء، وهنا اقترح أحد هؤلاء الزعماء ـ أبو أمية بن المغيرة ـ تحكيم أول داخل من باب المسجد، فوافقوا، فكان الداخل محمد ﷺ وهو في ذلك الوقت ابن خمس وثلاثين سنة، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال: هلم لي ثوباً، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه، وهكذا وأد الفتنة بهذا الحل العبقري وهذا من بشائر الخير الذي يصيب قومه بفضل الله ثم ببركة نبيه محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] وبعد هذه الفترة وحتى سن الأربعين حبب إلى النبي ﷺ الخلوة في غار حراء وكان يمضي فيه الليالي ذوات العدد، لقد هيأ الله له الزوجة الصالحة خديجة ذات الثراء التي تمده بالحنان والمال، وتصبر على خلوته، وهي له محبة وودودة وكانت تعد له الزاد الذي يكفيه الأيام، وإذا تأخر خرجت بنفسها تتفقده وتزوده بالطعام والشراب إلى أن يرجع من خلوته، فكانت امرأة ذلك الموقف التي لا تتأفف ولا تشكو مما يفعل، فهي تعتقد أنه الرجل المناسب الودود وأن ما يفعله هو لأمر قد أعده الله له، وأنه يختلف عن أقرانه وعن بقية الرجال، ففيه شيء مميز عنهم، وأن القدر لا بد سيظهره على جليته في يوم من الأيام لتتبين صدق فراستها فيه؛ إضافة لما لاحظته عليه من صدق الحديث وطيب المعشر، وحبه للناس والفقراء، ومساعدة الضعفاء،

والبر بأهله وعمه الذي رباه، حيث لاحظ كثرة عياله وضيق ذات يده فاتفق مع عمه العباس أن يعيل النبي ﷺ علياً ويضمه إليه، ويعيل العباس جعفراً، وكان هذا من نعمة الله على علي الذي شهد بدء الدعوة فكان أول الفتيان إيماناً، وكذلك رفع مكانة غلامه زيد الذي أهدته له خديجة ليخدمه وما كان منه يوم علم أبواه أنه في مكة، فكان لزيد بن حارثة قصة، قال ابن هشام في السيرة: «قدم حكيم بن حزام من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة وصيف ـ حسن الشكل ـ فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ، فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيداً، فأخذته فرآه رسول الله ﷺ عندها فاستوهبه منها فوهبته له، **فأعتقه وتبناه** وذلك قبل أن يوحى إليه، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً وبكى عليه حين فقده ـ وعلم أنه بمكة ـ فقدم عليه وهو عند رسول الله ﷺ ـ وطلب فداءه بالمال ـ فقال رسول الله ﷺ لزيد: «**إن شئت فأقم عندي وإن شئت فانطلق مع أبيك**» فقال: بل أقيم عندك، فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله وأسلم وصلى معه».

❊ ❊ ❊

الرؤيا الصادقة

لقد بدأت علامات قرب التكليف بالنبوة تقترب وتظهر بوضوح أكثر، كل ذلك لأجل إعداد النبي ﷺ لهذا الأمر كي لا تأتيه النبوة فجأة، فكانت الدلالات تشير إلى اقتراب موعد التكليف، فما كان يراه في الحلم يتحقق كأنما كان يراه رؤيا العين، وهذا ما سمي بالرؤيا الصادقة، فقد حدثت عائشة رضي الله عنها «أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ـ من النبوة ـ الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت وحبب إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، وكان من العلامات الأولى تسليم الحجر والشجر عليه حين يكون بعيداً عن البيوت والناس، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا

رسول الله، فيلتفت فلا يرى إلا الشجر والحجارة، ومكث على هذا فترة إلى أن أتاه التكليف بالنبوة، ويروي عامر بن ربيعة أن زيد بن عمرو بن نفيل قال: إنا لننتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك حياة ورأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك، قلت: هلم، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، ولا تفارق عينه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه ويكرهون ما جاء به، ويهاجر إلى يثرب فيظهر بها أمره، فإياك أن تنخدع عنه، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون: لم يبق نبي غيره، قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد وأقرأته السلام فرد عليه رسول الله صلى الله وسلم وترحم عليه وقال: **قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً.**

❁ ❁ ❁

في غار حراء

روي عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يجاور ـ يعتكف ـ في غار حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية وهذا مما بقي عندهم من دين إبراهيم وإسماعيل، والتحنّث: التطهر من الآثام والخروج منها، وقيل: أبدلت الفاء ثاء وأصله التحنف من الحنيفية، وعلى أي كان سواء التحنف أم التحنث فإن تفعّل تفيد الخروج عن الشيء والانسلاخ منه، فتلك عادة اتخذها المتدينون من قريش، فإن النبي ﷺ في جملة الأمر كان يحب الخلوة سواء أورثها من قريش أم كانت من تلقاء نفسه، فكان مكانه المفضل لهذه الخلوة في غار حراء بعيداً من وسط مكة فيمضي فيه الليالي ذوات العدد وربما أمضى شهراً، ثم يعود

إلى بيته وكانت خديجة رضي الله عنها تتفقده بين فترة وأخرى خصوصاً إذا طال مكثه وتحضر له الطعام والشراب وتجلس عنده قليلاً ثم تتركه في تحنثه وتأملاته، وكانت في هذا الأمر نعم العون فقد كفته المؤونة ورعاية الأولاد وتسيير شؤون البيت في غيابه وهي المدربة على ذلك والحكيمة في مثل هذه الأمور، فكانت له الزوجة الصالحة التي سكن إليها فعوّضته عن حنان الأم وعطف الأب، وفي ليلة الاثنين لثماني عشرة خلت من رمضان ـ وقيل ليلة أربع وعشرين، كما قيل ليلة سبع عشرة ـ كانت بداية التكليف بالنص القرآني ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ جاءه الوحي وهو في غار حراء، فقال له: **اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ** ـ بمعنى لا أحسن القراءة ـ **قال: فأخذني فغطني** ـ بمعنى ضمني بقوة، ويروى: **غتني** بمعنى خنقني ـ **حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فرجع بها محمد ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها وهو يقول: **زملوني.. زملوني**، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة بما حصل له وقال: **لقد خشيت على نفسي**، لكن خديجة العاقلة الرزينة التي تعرف من هو محمد حقيقة المعرفة لم تكن خائفة مما حصل، بل قالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل ـ العاجز ـ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل وهو شيخ كبير هزل جسمه وضعف بصره ـ وكان قد تنصر في الجاهلية ـ كما كان عالماً بالتوراة والإنجيل، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال له ورقة: سبّوح سبّوح، هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: **أو مخرجي هم؟ فقال:** نعم، لم يأت أحد

بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرنك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفي رواية ابن هشام أن خديجة أخبرت ورقة بخبر محمد ﷺ، فقال لها: والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، ثم إن ورقة التقى النبي ﷺ وهو يطوف حول الكعبة فقال ورقة: يا بن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، وفي نهاية اللقاء قبل ورقة رأس النبي ﷺ، وسئل النبي ﷺ يوماً عن ورقة فقال: «**قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض**» وفي رواية أخرى: «**أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس**» وسئل عن زيد بن عمرو بن نفيل، فقال: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**» وسئل عن أبي طالب، فقال: «**أخرجته من غمرة من جهنم إلى ضحضاح منها**» وسئل عن خديجة لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن، فقال: «**أبصرتها على نهر الجنة في بيت من قصب ـ فضة ـ لا نصب فيه ولا صخب**» وبعد حادثة الغار فتر الوحي فحزن رسول الله ﷺ وضاق صدره وكان في شوق لعودته وبالرغم من خوفه أول الأمر إلا أن هناك شيئاً ما في داخله يدفعه للشوق إليه، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، زملوني، فأنزل الله سورة المدثر** ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ وقد ورد أنها أول ما نزل من القرآن، والصحيح أنها أول ما نزلت من القرآن بعد فترة الوحي، وورد أن خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ـ وتعني به جبريل؟ قال: **نعم**، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يأتيه، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: **يا خديجة هذا جبريل قد جاءني**، فقالت: نعم، فقم يا بن عم فاجلس على فخذي اليسرى فقام فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: **نعم**، قالت:

فتحول فاقعد على فخذي اليمنى، فتحول فجلس على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسرت، فألقت خمارها ورسول الله ﷺ في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، فقالت: يا بن عم اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك وما هو بشيطان.

❁ ❁ ❁

بداية التبليغ

وبعد فترة الوحي ومرحلة تثبيت الفؤاد للنبي ﷺ نزلت سورة المدثر وفيها الأمر بالدعوة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ ثم أمره بالصلاة وكانت على طريقة إبراهيم عليه السلام ركعتان ركعتان في الصباح والمساء، وروي أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ وكان الأمر بتطهير الثياب ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ لأن الصلاة لا تصح إلا بالطهارة، طهارة الثوب والبدن، والبعد عن الأصنام وهجرها وهجر كل ما يوصل إليها ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ وقد كان عليه الصلاة والسلام يكرهها منذ الصغر وهذا الأمر تأكيد على نبذها وتعليم لنا أيضاً بكرهها وعدم محبتها أبد الآبدين، وبعد هذا قام يدعو من يتوسم فيه الخير فكانت خديجة أول من آمن به وصدقه، قال ابن هشام في السيرة: وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، وكانت أول من صلى معه، فقد رجع إليها وأخبرها بتعليم جبريل له الصلاة، فعلمها خديجة رحمها الله تعالى ورضي عنها.

وتبع خديجة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأكرمه الله بالإيمان حيث كان يعيش في كنف النبي ﷺ وكان عمره عشر سنين وبذا يكون أول من آمن من الأولاد، فقد كان ذا عقل نير متفتح وفي فترة مكثه عند النبي ﷺ رأى محمداً الإنسان العطوف الرحيم الكريم الصادق الأمين فأحبه وتعلق قلبه به، لذلك ما إن أظهر النبي ﷺ دعوته حتى لبى وآمن، قال ابن إسحاق: كان إذا حضرت الصلاة خرج النبي ﷺ إلى شعاب مكة وخرج معه علي رضي الله عنه مستخفياً من أبيه وأعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، ولما رآه أبوه يصلي سأله عن هذا الدين الذي عليه، فقال علي: يا أبت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته، فقال أبو طالب: إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه،وأسلم من الفتيان بعد علي زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان أول من أسلم من الموالي، وكان أول الرجال إيماناً أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم عنه** ـ تأخر عنه ـ **حين ذكرته له وما تردد فيه**» فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً إلى قومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش ـ أي عالم بالنسب ـ وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لتجارته وعلمه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام كل من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وأبو وقاص اسمه مالك فيذكر أحياناً باسم سعد بن مالك، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم حين استجابوا له، فأسلموا وصلوا، ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح ثم أبو سلمة وهو عبدالله بن عبد الأسد، وذكر الواقدي إسلام أبي ذر وكان رابعاً أو خامساً، وكذلك عمرو بن عبسة السلمي، وأسلم خالد بن سعيد بن العاص وأسلمت زوجته أمينة بنت خلف من خزاعة، وكان ممن أسلم الأرقم بن أبي الأرقم، وسعيد بن زيد، وعبدالله بن قرط، وزوجته فاطمة بنت الخطاب.

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس، وكان المسلمون إذا أرادوا الصلاة خرجوا إلى الشعاب فصلوا هناك، وحدث أن كان نفر منهم يصلون وهم سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعمار بن ياسر، وعبدالله بن مسعود في أحد الشعاب بمكة فطلع عليهم نفر من المشركين منهم: الأخنس بن شريق وأبو سفيان بن حرب وعدد غيرهم، فسبوا المسلمين وعابوهم وتضاربوا، فحمل سعد بن أبي وقاص لحي ـ فك ـ بعير وضرب به أحد المشركين فشجه ثم تحاجز القوم وكان أول دم أريق في الإسلام.

❊ ❊ ❊

الجهر بالدعوة

استمرت الدعوة السرية واللقاء الفردي بمن يتوسم به الخير مدة ثلاث سنين، بعدها أمر الله نبيه بالجهر بالدعوة بقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر]، والصدع بالدعوة معناه الجهر بها وتبليغ أمر الله علانية، لذلك نهض النبي ﷺ لهذا الأمر بعد أن كفاه الله العتاة من قريش المستهزئين بدين الله وكانوا مسموعي الكلمة في قومهم، وهم: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي وعدي بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث وغيرهم، فكيف كفاه الله شر هؤلاء؟ وهل أخذهم أخذة واحدة؟ لنعرض حال كل واحد من هؤلاء:

ـ **أبو لهب** عم النبي ﷺ وهو من أشد المعارضين للنبي ودعوته، وقف ضده بكل قوة وكان الأجدر به مناصرته لكنه فعل ما لم يفعله قريب بقريبه، وضيق عليه فأمر ابنيه بتطليق بنتي رسول الله ﷺ ـ رقية وأم كلثوم ـ ليضيق عليه وليشغله ببنتيه، وكان معارضاً عندما دعا عشيرته وهو القائل له: تباً لك سائر يومك ألهذا دعوتنا؟ فنزلت فيه سورة المسد وبزوجه التي كانت تؤذي النبي ﷺ برمي القمامة والشوك في طريقه، وكان جاره، لذلك كان

النبي ﷺ يقول: أي جوار هذا يا بني عبد المطلب! وكان يسير خلفه في الموسم بمنى فكلما دعا قبيلة أو شخصاً قال: يا بني فلان إنما يدعوكم لكي تسلخوا اللات والعزى فلا تطيعوه ولا تسمعوا له، إنه مجنون، وهكذا كان دأبه محاربة الدعوة، وفي غزوة بدر أرسل من ينوب عنه في قتال المسلمين، ولما وردت هزيمة قريش أصيب بالهذيان ومرض بمرض العدسة فمات.

ـ **الوليد بن المغيرة** من بني مخزوم، وكنيته أبو عبد شمس، وهو العِدل، لأنه كان عدل قريش كلها، فقريش كانت تشترك في كسوة البيت، وكان وحده يكسو البيت، وقد تكلمنا عنه بإفاضة، أما سبب موته فقد كان رجل من خزاعة يريش نبلاً فوطئ على أحدها فخدشته وتسببت في موته، كان ذلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر مات وعمره فوق الخامسة والتسعين.

ـ **النضر بن الحارث** بن علقمة، يكنى أبا قائد، وكان من أشد قريش تكذيباً للنبي ﷺ وأذيته وأذية أصحابه، كان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، وسمع بذكر النبي ﷺ وقرب مبعثه، فقال: إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم فنزلت: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر] لكنه خالف ما كان أقسم عليه فكان يقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين، أسره المقداد في غزوة بدر، وأمر رسول الله ﷺ أن تضرب عنقه فضرب عنقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ـ **الأسود بن عبد يغوث** من بني زهرة، وهو ابن خال النبي ﷺ، كان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى، وكان يقول للنبي ﷺ: أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد! فخرج يوماً من أهله فأصابه السموم فاسود وجهه فلما عاد إليهم لم يعرفوه وأغلقوا الباب دونه، فرجع متحيراً حتى مات عطشاً، وقيل: إن جبريل أومأ إلى السماء فأصابته الأكلة فامتلأ قيحاً فمات.

ـ **الحارث بن قيس** بن عدي السهمي كان أحد المستهزئين الذين

يؤذون رسول الله ﷺ، وهو ابن الغيطلة ـ اسم أمه ـ وكان يأخذ حجراً يعبده، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني، وكان يقول: قد غرّ محمد أصحابَه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، وفيه نزلت ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ [الفرقان] وقيل في موته: أنه أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب الماء حتى مات، وروي: أخذته الذبحة، وقيل: امتلأ رأسه قيحاً فمات.

ـ **أمية بن خلف** كان من رؤوس الكفر يؤذي المسلمين وله في إيذاء بلال أيام مشهودة من التعذيب والتنكيل، روي أن عقبة بن أبي معيط صنع طعاماً ودعا إليه النبي ﷺ، فقال له النبي: لا أحضر حتى تشهد أن لا إله إلا الله، ففعل، فقام معه، فقال له أمية: أقلت كذا وكذا؟ قال: إنما قلته لطعمنا ـ ويعني الاستهزاء ـ فنزلت ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفرقان]، شارك أمية بن خلف مع قومه في غزوة بدر، وكان أحد رؤوس الكفر الذين قتلوا فيها، قتله بلال وخبيب.

ـ **أبي بن خلف** أخو أمية وهو أكثر عنفاً وحنقاً على الإسلام والمسلمين وكان شديد الإيذاء لمن أسلم، أتى يوماً إلى النبي ﷺ ومعه عظم فخذ ففته في يده وقال: زعمت أن ربك يحيي هذا العظم، قال: نعم، فنزلت ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ بلغت به الجرأة في غزوة أحد أن هاجم النبي ﷺ وهو يقول لا نجوت إن نجا، فقال النبي ﷺ لأصحابه ابتعدوا وأخذ حربة فطعنه بها في ترقوته فكانت كالنار تحرقه وحمله قومه فمات في الطريق.

ـ **العاص بن وائل** السهمي هو والد عمرو بن العاص، كان ممن يؤذي النبي ﷺ، وهو من المستهزئين بالإسلام، وهو القائل عندما مات القاسم ابن النبي ﷺ: إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله سورة الكوثر وقال فيه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ركب حماراً فلما صار في شعب

من شعاب مكة ربض به الحمار فلدغ في رجله فانتفخت حتى صارت كعنق البعير، فمات منها بعد هجرة النبي ﷺ وعمره خمس وثمانون سنة.

ـ **أبو جهل بن هشام** المخزومي اسمه عمرو وكان من أشد كفار قريش حقداً وعداوة للنبي ﷺ ولدعوته، وله مواقف في الأذى كثيرة، كان يؤذي النبي والمسلمين ويحرض أهل مكة على استئصال المسلمين، وقد كناه النبي ﷺ بأبي جهل فنُسي اسمه وعرف بها، شجع قومه على حرب المسلمين في بدر وقادها ضد المسلمين لكنه كان أحد قتلاها، قتله ابنا عفراء وأجهز عليه عبدالله بن مسعود، كان طاغية جباراً.

ـ **عقبة بن أبي معيط** يكنى أبا الوليد، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ، كان يرمي الأقذار في طريق النبي ﷺ وعلى باب داره، ورمى فوق رأسه وهو يصلي مرة سلاة شاة، فأسرعت فاطمة فأزالتها، وعمد مرة إلى مكتل وضع فيه عذرة وجعله على باب النبي ﷺ، فبصر به طليب بن عمير وهو ابن عمة النبي، فأخذ المكتل منه وضرب به رأسه وشد أذنيه، فشكاه عقبة إلى أمه وقال لها: قد صار ابنك ينصر محمداً، فقالت: ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد.

أسر عقبة بن أبي معيط في غزوة بدر، فأعطاه عاصم بن ثابت الأنصاري ليقتله، فقال: من للصبية يا محمد؟ قال: النار، ضرب عنقه عاصم في وادي الصفراء وصلب وهو أول مصلوب صلبه المسلمون لقاء جرائمه.

ـ **الأسود بن المطلب** بن أسد كنيته أبو زمعة، كان من المستهزئين، وكان إذا مر النبي ﷺ بالقوم يتغامز بالنبي مع أصحابه ويقولون استهزاء: قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر ويصفرون به ويصفقون، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى ويثكل ولده، فجلس في ظل شجرة فضرب الله بورقها وشوكها عينيه حتى عمي، فشغل بما أصابه عن رسول الله ﷺ، قتل ابنه في بدر كما قتل اثنان من أحفاده، مات بعد غزوة بدر.

هؤلاء مجموعة من الطغاة الذين عاندوا الدعوة وجدوا في الأذى عاقبهم الله وأزالهم من طريق الدعوة، وفي الآخرة عقابهم أشد وأنكى.

ولما صدع النبي ﷺ بأمر الله وبادأ قومه بالإسلام، فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه إلا بعض الرد، فلما ذكر آلهتهم وعابها أجمعوا على خلافه إلا من عصمهم الله بالإسلام وهم قليل مستخفون، غير أن عمه أبا طالب وقف إلى جانبه بقوة وصد عنه عادية قريش فلم تصل إليه بأذى يحبطه أو يوقف دعوته، وجاءه الأمر أيضاً بإنذار عشيرته الأقربين ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء]، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وقف النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال: أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾»، وفي رواية مسلم عن أبي هريرة، قال: «لما نزلت هذه السورة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص، فقال: **يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**».

ومن هذا الاجتماع تكون الدعوة قد خرجت إلى حيز العلن وبدأ الصراع الفعلي مع المعارضين من قريش وهم القوة الكبيرة الطاغية، لذلك

بدؤوا خطة لا رحمة فيها ولا مهادنة، وهي تنطوي على الوحشية والقسوة والتنكيل بكل وسيلة رادعة وبقلوب لا تشفق ولا ترحم، وكان يتزعم هؤلاء القساة أبو جهل وأمية بن خلف وابن أبي معيط وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وآخرون غيرهم يغذيهم الحقد والمصالح والحفاظ على الزعامة خوف الانتقال إلى غيرهم، لكن الغريب في الأمر أن يقف مع هؤلاء الطغاة أبو لهب عم النبي ﷺ، بينما أخذ أبو طالب الجانب الآخر وهو الوقوف مع محمد ﷺ مهما كلف الأمر من تحمل ومشقة وصراع مع الطغاة، وكان لأبي طالب نصيب من الهيبة والاحترام عند قومه خصوصاً وأنه على دينهم ومعتقدهم، ولو أسلم لفقد هذه الميزة ولكان الاعتداء عليه من السهولة بمكان فما هو إلا فرد ـ مهما بلغ من القوة ـ ضعيف أمام الكثرة الطاغية من قريش، لكن بثباته على معتقده معهم ظل يتمتع بالحصانة والاحترام، لذلك وَسّطوه في أكثر من مرة ليكلم ابن أخيه كي يغير موقفه ويقلع عن دعوته، تارة بالتهديد وتارة بالإغراء الدنيوي، قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء ـ لا يرضيهم ـ أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم؛ مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري العاص بن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل الحكم بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرى ـ استفحل ـ الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها وتذامروا فيه ـ أغرى بعضهم بعضاً في إيذائه ـ وحض بعضهم بعضاً عليه.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يكلمون فيها أبا طالب ثم يقنعهم بالرد الجميل ولعل أبا طالب كان يتمتع بدبلوماسية فائقة حين أطفأ ثورة

هؤلاء العتاة وأوقف هيجانهم إلى حين، لكن كان لا بد من الاستمرار في الدعوة إنها أمر من الله محتم على نبيه وينبغي أن تؤدى الرسالة كما هي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ فإذا أرضتهم دبلوماسية أبي طالب لأجل محدود، فإن الصدع بأمر الله تكليف لا محيد عنه وفيه الدعوة إلى التوحيد وبالتالي ذم الأصنام وعبّادها أمر محتم سيصطدم لا محالة مع المشركين المقدسين لها، ولهذا أتاه القوم مرة أخرى وهم غضاب منزعجون من الحط بقيمة آلهتهم وقد رفعوا وتيرة الاحتجاج إلى حد التهديد بالعدوان وإظهار الشر، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى نكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعظم ذلك على أبي طالب ووقع بين أمرين أحلاهما مر، فهو محب لقومه ولا يريد معاداتهم ومحب لابن أخيه ويحب نصرته والوقوف إلى جانبه في تبليغ دعوته، وكان يتمنى أن لا يكون صدام بين الطرفين وتكون هناك حرية للدعوة يدخل فيها من يرغب ويبقى من أراد على دينه الوثني، ولكنّ قريشاً أرادت أن تفرض ديكتاتوريتها وتمنع أي صوت إلا صوتها، فهي وريثة التراث الجاهلي ولن تفرط فيه وستمنع كل من يحاول تغيير هذا الواقع.

وانطلق أبو طالب إلى النبي ﷺ وقد حمل معه غضبة قريش وما ألمحت إليه من الشر لعله يجد في الأمر حلاً وسطاً يرضي الطرفين، ولكن هيهات أن ينزل الحق إلى ترهات الباطل فالخطان متقاطعان، شرك ظاهر وضلال أعمى، وتوحيد يأبى الشرك أو أي شكل من أشكاله، نور وضاء يريد أن يمحو ظلمة الجهل والاعتقاد فينير أرجاء مكة والعالم أجمع فيئد الظلام وحلكته إلى أبد الآبدين فلا يمكن أن يكون بين هذين المنهجين أدنى نقاط للقاء، لذلك لما عرض أبو طالب مطالب قريش على رسول الله ﷺ، ظن النبي أن أبا طالب سيتخلى عنه أمام ضغط قريش، فوقف يخبره بحقيقة الدعوة بأنها لا تقبل المساومة ولا التخلي عن المبادئ الأساسية فقال لعمه:

«والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» ثم استعبر رسول الله ﷺ وذرفت عيناه، وغادر المكان، فقال له أبو طالب: أقبل يا بن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً، وروي أن كبار قريش منهم أبو جهل والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب استأذنوا على عبد المطلب ليكلموه في شأن محمد ﷺ، فأذن لهم، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكفّ عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه، فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ، فقال أبو طالب: يا بن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم، وقد سألوك النصف، أن تكف عن شتم آلهتهم، ويَدَعوك وآلهتك، قال: أي عم، أوَلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، فقال أبو جهل: ما هي وأبيك؟ لنعطينكها وعشراً أمثالها، قال النبي ﷺ: قولوا: لا إله إلا الله، فنفر القوم، وقالوا: سلنا غير هذه، فقال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها، فغضبوا وقاموا من عنده وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا، فسجل القرآن قولهم ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص] فهذه الآيات تبين أن تمسكهم بالأصنام لم يكن بدافع الحب الخالص لها كما يزعمون - فهم أهل مصالح - وإنما لما ملئت قلوبهم من الحسد أيضاً لأن الرسالة لم تكن فيهم، وإنما كانت من نصيب محمد ﷺ اليتيم الفقير.

وجاءت محاولة أخرى من عتبة بن ربيعة ليوقف الدعوة بطريقته الخاصة، فقد كان في نادياً لقريش، فقال لهم: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس

إلى رسول الله، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة ـ الشرف ـ في العشيرة والمكان والنسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: **«قل يا أبا الوليد أسمع»** قال: يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: **«أقد فرغت يا أبا الوليد؟»** قال: نعم، قال: **«فاستمع مني»** قال: أفعل، فقال: **«بسم الله الرحمٰن الرحيم** ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦﴾ [فصلت] فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك» فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض، نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فافعلوا ما بدا لكم.

ولقد علمت قريش بعد هذا أن أبا طالب مانع ابن أخيه ولن يتخلى عنه وأنه سيستمر في الدعوة، لذلك **كانت لهم مع أبي طالب محاولة ثالثة** وكانت من نوع آخر أنتجها عقلهم الجاهلي القاصر ـ وعقل الكافرين دوماً في تباب ـ أتوا إلى أبي طالب ومعهم الفتى عمارة بن الوليد، فقالوا له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتًى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ـ أي لو قتله أحد فديته لك لا لأبيه ـ ونصره واتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، قال أبو طالب ـ مسفهاً عقلهم وضعف تفكيرهم ـ والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذيه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً، قال: فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فرد عليه أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي، فاصنعوا ما بدا لكم.

لقد فقدت قريش كل منطق وإن كل ما يهمها هو التخلص من النبي ﷺ بأية وسيلة مهما كانت؛ خلقية أو غير خلقية منطقية أو غير منطقية فيها مؤاخذة لهم من القبائل الأخرى بأنهم خالفوا الأعراف أو موافقة، كل هذا لا يهم، منطقهم على اعوجاجه، هو القانون، وهو الحل الأمثل، وهو الذي ينبغي أن يسود.

❋ ❋ ❋

الآيات والمعجزات الباهرة لا تزيد قريشاً إلا طغياناً

صورت كثير من سور القرآن الكريم وآياته حال العتاة من قريش حين دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، فكشفت ما يختلج في نفوسهم ويعتمل في صدورهم، قال الله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم

مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]، وكان العرب أهل بلاغة وعلو كعب في العربية وأسرارها ومراميها وتأليفها وتراكيبها، فنزل القرآن بلغتهم فعرفوا هذه الميزة فيه، وأنه يأتي في الذروة لغة بلاغة وبياناً ولا يستطيع أي بليغ أن يجاريه أو أن يأتي بسورة مثله، فهذا الوليد بن المغيرة يرق قلبه عندما يسمع القرآن ويدرك علو منزلته وارتقاء بلاغته، فيأتيه أبو جهل ليحمسه ضد الإسلام لكي يرضي قومه وتبقى فيهم زعامته، فيقول أبو جهل: قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنك كاره له، قال الوليد: وماذا أقول؟ **فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته** . قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني أفكر، ثم انقلب رأساً على عقب، فقال هذا سحر، وروى ابن إسحاق أنه دعا قريشاً لأخذ موقف موحد تجاه النبي ﷺ ودعوته، فقال: إنه قد حضر الموسم ـ عكاظ ـ وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمِعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، قالوا: فأنت ما تقول؟ قال: بل أنتم قولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخَالُجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق ـ كثير الماء ـ وإن فرعه لجناة ـ كثير الثمر ـ ثم قال: وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر جاء بقول سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، ولإيغال الوليد في الكذب

وحض كفار قريش على الدعوة المضادة للإسلام وتضليلهم بدل إرشادهم لما عرف من الحق؛ فقد توعده الله بأشد العذاب في الآخرة فضلاً عن نكال الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ ذرني: بمعنى دعني وهي كلمة تهديد ووعيد بأن هذا الطاغية معرض للانتقام، ومعنى: خلقت وحيداً، أي كونته في بطن أمه وحيداً ليس معه أحد ولما كبر أعطيته مالاً كثيراً فكان من أغنى قريش مالاً، وكثّرت أولاده، فقد روي أن سبعة منهم ولدوا في مكة وخمسة في الطائف، وكلهم فتيان قومهم شجاعة وقوة ويكفي أن منهم خالد بن الوليد سيف الله والوليد بن الوليد وهشام بن الوليد وهؤلاء الثلاثة أكرمهم الله بالإسلام، ثم تابع القرآن ذكر الوليد، فبعد أن ذكّره الله بما أنعم عليه أتبع ذلك بالتهديد والله قادر على أن يسلبه هذه النعم التي لم يقدرها حق قدرها ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ وصف دقيق لما كان عليه قبل أن ينطق بالكذب والهذيان ويخالف ما استيقنه قلبه من صدق دعوة الحق وبلاغة القرآن وأنه ليس من كلام البشر، لكن إرضاء قريش والحفاظ على زعامته دفعاه للكذب والافتراء، فكان الجزاء من الله مؤلماً لأنه لم يكذب عن جهل وضعف في التفكير، وإنما عن سبق تعمد وإصرار، فبعد اللعن والطرد من رحمة الله ومشاركته إبليس في هذا الأمر سينقلب في الآخرة إلى أشد العذاب ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ مصير مؤلم ونار حامية أعدت لهذا الطاغية الكذاب الذي كان سيد قومه فهوى للحضيض واستحق نار الله الموقدة، ولما بلغه ما نزل فيه من القرآن وجم لعلمه بصدق القرآن، لكنه بدل أن يتراجع عن غيه ويعترف بخطأ رأيه وخطأ ما اتهم به القرآن بأنه من أقوال السحرة، فيكون بتراجعه قدوة في قول الحق ونصاعة الرأي، لكنه برغم ذلك ظل متمسكاً بكذبه مصراً على موقفه، ثم لما سمع أبو جهل بأن عدد خزنة جهنم تسعة عشر،

قال: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بهم وأنتم الدهم ـ كناية عن كثرة العدد ـ أفيعجز كل مائة رجل أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟ وقال أبو الأشد وهو من بني جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر ونمضي ندخل الجنة، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومن يقدر على الملائكة؟ فهذا العدد فتنة للذين كفروا فاستقلوه وراح تفكيرهم يوهمهم أنهم قادرون على قتالهم والتخلص منهم، وبالمقابل فإن هذا العدد موافق لما ورد في كتب أهل الكتاب، لذلك أردف معقباً ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ ولتماديه في العناد وأنه كان صاحب فتنة للناس لأنهم يصدرون عن رأيه، فقد تكرر ذكره في سورة «ن» مع ذكر صفاته بحيث يعرف بلا أدنى شك بأنه المقصود في هذا التهديد ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾، ولا يمنع أن يشترك آخرون في بعض هذه الصفات فيشملهم الوعيد والتهديد أمثال الحكم بن أبي العاص والأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق، لكن يبقى الموسوم الأول بها هو الوليد بن المغيرة زعيم العتاة والمتجبرين، وبعد أن لف هذا الضلّيل عقولهم وحرفها عن الحقيقة تمادى كفار قريش في طلباتهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع علية من أشراف قريش بعد غروب الشمس عند الكعبة، فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بدء، وكان حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة،

وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً ـ تابعاً من الجن ـ تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**» قالوا يا محمد؛ فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك،فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيما يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل، فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم**» ثم قالوا: فإن لم تفعل هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث لنا ملَكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغي فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم: «**ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**» قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال: «**ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك**» ثم

اتهموه بأن الذي يعلمه هذا هو رجل باليمامة يدعى الرحمٰن، وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: وتفعلوا؟ قالوا: نعم، قال فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن يكفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة، قال: «**بل الرحمة والتوبة**» وفي رواية: «إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: «**لا بل أستأني بهم**».

***

الامتحان

لم تكن دعوة النبي ﷺ خلواً من المعجزات التي تؤيد صدق دعوته وأنه موحى إليه من ربه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكانت الآيات المعجزة وكان الامتحان المظفر المعجز، لقد فكرت قريش ملياً في دعوة النبي ﷺ ورأت أن تلجأ إلى يهود يثرب لكي يعودوا بالخبر اليقين عن النبي؛ ومعرفة ما إذا كان صادقاً في دعواه أو مدّع للنبوة، فبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، فقابلا أحبار اليهود وقصا خبر النبي عليهم، فقال الأحبار: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد حدث لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبوءة، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فعادا إلى قومهما بهذا الامتحان، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فجاؤوا النبي ﷺ، وسألوه ما أملاه عليهم اليهود، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أخبركم غداً بما سألتم**» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث له في ذلك وحياً، ولا

يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحزن رسول الله ﷺ لمكث الوحي هذه المدة وشق عليه ما يتكلم به كفار قريش، ثم جاء جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها أجوبة سؤالين مما سألوه عنه، وهم الفتية الذين فروا بدينهم من الملك الطاغية وتواروا في الكهف وناموا فيه ثلاثمائة سنة ميلادية ثم أفاقوا بعد هذه المدة ليجدوا أن بلدهم تغير من الوثنية إلى التوحيد ثم ماتوا الميتة الحقيقية، وأن الرجل الذي طاف الأرض هو ذو القرنين، وفي سورة الإسراء جواب السؤال عن الروح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

***

انشقاق القمر

وسأل زعماء قريش النبي ﷺ أن يريهم آية واضحة ومعجزة بينة تدل على صدق نبوته وتأييد الله له، فدعا ربه أن يريهم آية فيها إعجاز كبير فكان انشقاق القمر، حيث شقه الله نصفين، هكذا شاهده أهل مكة، فكان فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، وفي الصحيحين أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما، وقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**» وفي رواية لابن عباس أن عدداً من زعماء قريش منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن وائل وغيرهم، قالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، فقال لهم النبي ﷺ: «**إن فعلت تؤمنوا؟**» قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمر نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان ـ وهذا بالطبع وفق النظر وليس فوق أبي قبيس على الحقيقة فعندما يغيب القمر أو الشمس وفي جهة الغروب بحر يرى الرائي أنهما يغيبان في البحر ـ والرسول ﷺ ينادي يا أبا سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن الأرقم، اشهدوا، وكان موقف قريش أن هذا

سحر، وروي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: رأيت القمر منشقاً شقتين مرتين، مرة بمكة قبل أن يخرج النبي ﷺ: شقة على أبي قبيس، وشقة على السويداء، ولهذا الحدث نزلت سورة القمر، قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ ومن هذه الآيات يتبين أن هذه الآية والمعجزة الكبيرة لم تغير من عنادهم وموقفهم من الدعوة شيئاً، بل رددوا تهمهم السابقة بأن هذا سحر مستمر، لذلك لما رأوا انشقاق القمر قالوا: سحرنا محمد، فقال بعضهم: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فاسألوا السفار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به، قال فسئل السفار ـ وقدموا من كل جهة ـ قالوا: رأينا، وقد ذكر فيما بعد أن مناطق أخرى شهدت انشقاق القمر لأن المدة ـ حسب الروايات ـ استمرت حتى غياب القمر، وأرخ كثير من البلاد تواريخهم بليلة انشقاق القمر، وذكر أنه في بعض بلاد الهند أرخوا على بناء بني تلك الليلة بليلة انشقاق القمر.

❊ ❊ ❊

مواقف مشهودة لعدد من الذين دخلوا في الإسلام

شد الله تعالى أزر نبيه الكريم ﷺ بعدد من المسلمين من أولي البأس والشدة والصبر والتمسك بالدين وضرب المثل في التضحية وبذل النفس في سبيل الله ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وقد أفسحوا ببذلهم وتضحيتهم للنور لأن ينتشر وينطلق ليضيء ظلام الأرض الدامس الذي خيم دهراً عليها، فكانوا قدوة لمن بعدهم إيماناً وحباً وبذلاً.

فهذا **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه، بعد أن كان أول الرجال إسلاماً، ساهم في نشر الدعوة بشكل فعال فأسلم بدعوته عثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي

وقاص، وتروي عائشة رضي الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «**يا أبا بكر إنا قليل**» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد؛ كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً وَوُطئ أبو بكر وضُرب ضرباً شديداً ونال منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم ـ عشيرة أبي بكر ـ يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملوا أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجع بنو تيم إلى المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم ـ أسمعوه سيئاً لا يعجبه لأنه أول ما تكلم به ما فعل رسول الله ـ وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه ـ أم الخير ـ أنظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو الله أن ينتقم منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ،

فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام فأسلمت.

ومع هذا الصمود لأبي بكر إلا أن للإنسان قوة تحمل لا تقوى على شدة الإيذاء، لذلك طلب أبو بكر من النبي ﷺ أن يسمح له بالهجرة إلى الحبشة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث، فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي، قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم، ارجع فإنك في جواري، فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض أحد له إلا بخير، قال: فكفوا عنه، وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح فكان يصلي فيه وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى قالت فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته، قال فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا: يا ابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء، فمشى ابن الدغنة إليه فقال: يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت، قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله، قال: فاردد علي جواري، قال: قد رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري فشأنكم بصاحبكم، فجاء سفيه من سفهاء قريش فحثا على رأس أبي بكر التراب، فمر به الوليد بن المغيرة وقيل العاص بن وائل، فقال أبو بكر: ألا ترى ما يفعل هذا السفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك.

إسلام حمزة بن عبد المطلب

حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، عم النبي ﷺ، وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، ولد قبل النبي ﷺ بسنتين وقيل بأربع سنوات، كان محارباً قوياً مقداماً، ورامياً ماهراً، لذلك كثيراً ما كان يخرج للصيد، وكان سبب إسلامه أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، وكانت مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل وما فعله، وانصرف أبو جهل وجلس في ناد لقريش عند الكعبة، وفي هذه الأثناء عاد حمزة من الصيد متوشحاً قوسه،وكان من عادته إذا عاد من قنص أن يطوف بالكعبة، ثم يمر بنوادي قريش في طريقه إلى بيته فيسلم عليهم ويقف ليتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، فلما مر بمولاة عبدالله بن جدعان قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده ههنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد، فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى ولم يقف على أحد ـ معداً لأبي جهل أن يوقع به ـ فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتم محمداً؟ وأنا على دينه أقول ما يقول، فرُدّ ذلك علي إن استطعت، فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه وعلى متابعة رسول الله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

ـ وأما **عبدالله بن مسعود** فقد كان من الجرأة بمكان بالرغم من ضعف جسمه وصغر حجمه، فقد كان شجاعاً وجريئاً قل نظيره، وفي أحد الأيام تدارس عدد من الصحابة ـ وهم في دار الأرقم ـ أمر قريش وما تفعله

بالمسلمين من إيذاء وتنكيل، فقال بعضهم لبعض: ما سمعت قريش القرآن يُجهر لها به، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك إنما نريد من له عشيرة يمنعونه، قال: إن الله سيمنعني، فغدا عليهم في الضحى حتى أتى المقام وقريش في أنديتها، ثم رفع صوته وقرأ سورة الرحمٰن، فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم اليوم، ولئن شئتم لأغادينهم، قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

***

إسلام عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب الرجل الجريء الممتلئ حيوية وحماسة ذو العقل الراجح المتفكر والمتدبر، هو من آل عدي، لم يكن في بداية انطلاقة الدعوة الإسلامية من المتحمسين لها بل لم يكن يريد أن يعيرها اهتمامه وتفكيره من حيث التعرف عليها والالتقاء مع النبي ﷺ والسماع منه أو الإصغاء إلى قول الحق، وإنما كان مع قومه في نبذها والتعرض لأفرادها الضعفاء بالإيذاء، لقد زعم كفار قريش أنها دعوة باطلة، وصاحبها ساحر أو شاعر أو كذاب، فأخذ هذا منهم على غير اطلاع ودراية بالأمر، بل لم يكلف نفسه عناء الالتقاء مع من سبقه في الإسلام ليقف على ما تدعو إليه هذه الدعوة، لقد صورت أم عبدالله بنت أبي خيثمة زوج عامر بن ربيعة شدة عمر قبل إسلامه، فقالت: إنا لنرحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر بن الخطاب وهو على شركه حتى وقف علي، وكنا نلقى منه البلاء أذًى وشدّةً، فقال: أتنطلقون يا أم عبدالله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجاً، فقال: صحبكم الله، قالت: ورأيت له رقة وحزناً، فلما عاد عامر أخبرته وقلت له: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا! قال: أطمعت في

إسلامه؟ قلت: نعم، فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب، لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين، ولكن إرادة الله في هدايته وسوقه للتعرف على الدعوة كانت أقوى من نفثات شياطينه وإغواءات قومه، فصاحب العقل المفكر والمتدبر لا ينبغي له الإصغاء إلى الأقاويل وما يشاع عن هذا الأمر من هنا وهناك، وإنما عليه أخذ الخبر من منبعه وبالتالي محاكمته بعقله وإصدار الحكم عليه، هذا الذي كان ينقص عمر، وقد ساقه الله إلى قدره الذي فيه عزه في الدنيا والآخرة، وكان سبب إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت زوج سعيد بن زيد، وقد أسلمت هي وزوجها سعيد، وكانا يخفيان إسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يأتي إلى سعيد وزوجه يقرئهما القرآن، وفي أحد الأيام خرج عمر متوشحاً سيفه وهو في هياج وغضب فلقيه نعيم بن النحام ـ وهو من قوم عمر ـ فقال: إلى أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً الذي فرق أمر قريش وعاب دينها فأقتله ـ وكان النبي ﷺ يقيم مع من أسلم في دار الأرقم قرب الصفا ـ فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهلي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما، فرجع عمر إليهما وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذها ـ وقد سمع عمر شيئاً من قراءة خباب ـ فلما دخل، قال: ما هذه الهينمة؟ قالا: ما سمعت شيئاً، قال: بلى، قد أخبرت أنكما تابعتما محمداً، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت أخته لتكفه عنه فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته: قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وقال لها: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون فيها الآن حتى أنظر ما جاء به محمد، قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها، قالت له ـ وقد طمعت في إسلامه ـ إنك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون، فقام فاغتسل، فأعطته الصحيفة وقرأها ـ وكان كاتباً ـ وفيها طه، فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

فلما سمع خباب خرج إليه وقال: يا عمر إني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللّهم أيد الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام، فالله الله يا عمر! فقال عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فدله خباب، فأخذ سيفه وجاء إلى النبي ﷺ وهو في دار الأرقم بين أصحابه، فضرب عليهم الباب، فقام رجل فنظر من شق الباب، فرآه متوشحاً سيفه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال حمزة: ائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن أراد شراً قتلناه بسيفه.

فأذن له، فنهض إليه النبي ﷺ، فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال: ما جاء بك؟ ما أراك تنتهي حتى يُنزل الله عليك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف من في البيت أن عمر أسلم، فلما أسلم قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل: جميل بن معمر، فجاءه فأخبره بإسلامه، فمشى إلى المسجد وعمر وراءه وصرخ: يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، فيقول عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت، فقاموا، فلم يزل يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس وأعيا، فقعد وهم على رأسه، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فلو كنا ثلاثمائة نفر تركناها لكم أو تركتموها لنا، يعني مكة، فبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ عليه حلة فقال: ما شأنكم: قالوا: صبأ عمر، قال: فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، وكان الرجل العاص بن وائل السهمي. وروي أنه لما أسلم عمر نزل جبريل فقال: يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.

قال عمر: لما أسلمت أتيت أبا جهل فضربت عليه بابه فخرج إلي وقال: مرحباً يابن أخي، ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدقت ما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.

- إسلام **عمرو بن عبسة السلمي**، يذكر هنا لسابقته إلى الإسلام، ففي

الصحيحين من حديث أبي أمامة عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة، وهو حينئذ مستخف، فقلت ما أنت؟ قال أنا نبي، فقلت وما النبي؟ قال رسول الله، قلت الله أرسلك؟ قال: نعم، قلت: بم أرسلك؟ قال: بأن تعبد الله وحده لا شريك له وتكسر الأصنام وتوصل الأرحام، قلت: نِعْم ما أرسلك به، فمن تبعك على هذا؟ قال: حر وعبد ـ يعني أبو بكر وبلال ـ فكان عمرو يقول: لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام، قال: فأسلمت، قلت فأتبعك يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن الحق بقومك فإذا أخبرت أني قد خرجت فاتبعني، وهذه رواية عمرو نفسه فعندما قال: ربع الإسلام فهذا بحسب علمه بأنه لم يسلم إلا بلال وأبو بكر، ومن المعلوم أن هناك عدداً من الصحابة قد أسلموا قبل بلال ولكن السر في أن الدعوة كانت سرية ولا يفصح في ذلك الوقت عن الأتباع فقد كان أقرباؤهم لا يعلمون بإسلامهم فكيف بأهل البادية؟

❋ ❋ ❋

ـ إسلام خالد بن سعيد بن العاص

روى أنه رأى في الحلم أنه وقف على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله به أعلم، ورأى كأن آت أتاه يدفعه فيها، فأتى رسول الله ﷺ فأخذ بحقويه ـ من جانبي الخاصرة من الخلف ـ كي لا يقع فيها، ففزع من نومه فقال أحلف بالله أن هذه لرؤيا حق، فلقي أبا بكر فذكر له ذلك، فقال أبو بكر: أريد بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها ـ النار ـ وأبوك واقع فيها، فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجياد، فقال يا رسول الله يا محمد إلى ما تدعو؟ قال: **«أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا يبصر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لا يعبده»** قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

سر رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه، فأتي به، فأنبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه، وقال: والله لأمنعنك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ، فكان يكرمه ويكون معه.

***

- إسلام أبي ذر

ورد في البخاري عن ابن عباس قال: لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ، قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق حتى قدمه وسمع من كلامه، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شنة فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل اضطجع فرآه علي فعرف أنه غريب فلما رآه تبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به علي فقال: أما آن للرجل يُعلم منزله فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث فعاد على مثل ذلك فأقام معه فقال: ألا تحدثني بالذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، قال: فإنه حق وأنه رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، وإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: **«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»** فقال: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن

محمداً رسول الله، ثم قام فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه، وفي رواية أحمد فقال رسول الله ﷺ: **«إني قد وجهت إلى أرض ذات نخل ولا أحسبها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك لعل الله ينفعهم بك ويأجرك فيهم؟»** قال: فانطلقت حتى أتيت أخي أنيساً، فقال لي: ما صنعت؟ قلت له: صنعت أني أسلمت وصدقت، قال: فما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت، ثم أتينا أمنا فقالت: ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت، فتحملنا حتى أتينا قومنا غفار، فأسلم بعضهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يؤمهم خفاف بن إيما بن رخصة الغفاري وكان سيدهم يومئذ، وقال بقيتهم: إذا قدم رسول الله ﷺ أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ فأسلم بقيتهم، وجاءت أسلم فقالوا يا رسول الله إخواننا نسلم على الذي أسلموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: **«غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»**.

❋ ❋ ❋

تعذيب الضعفاء

قال الطبري: ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا عن دين الله مَنْ تبعه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء، وقد صمد عدد من الضعفاء والعبيد على مواقفهم فلم يرتدوا رغم قساوة التعذيب والتنكيل ومنهم ياسر وعمار وسمية وبلال الحبشي، ومنهم من صمد رغم ضعفه مثل عبدالله بن مسعود، ويروى أن أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم

أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه ـ مالكيه ـ فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد، وسأل سعيد بن جبير عبدالله بن عباس أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرر الذي به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله، فيقول: نعم، افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم، وكان من هؤلاء الذين لم يحتملوا التعذيب عمار بن ياسر، فنطق بكلمة الكفر مضطراً وقلبه مطمئن بالإيمان، فنزل قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل] وفي الحديث الذي صححه الحاكم عن محمد بن عمار عن أبيه قال: «أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فتركوه، فلما أتى النبي ﷺ، قال: **«ما وراءك؟** قال: شر، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: **كيف تجد قلبك؟** قال: مطمئناً بالإيمان، قال: **«إن عادوا فعد»** وفي الصحيحين أن خباب بن الأرت قال: «أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: **«قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عزَّ وجلَّ»** وفي رواية **«والذئب على غنمه»** وفي رواية أخرى **«ولكنكم تستعجلون»**.

❋ ❋ ❋

محنة أسرة عمار

روى ابن إسحاق أن بني مخزوم كانوا يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه سمية ـ فقد أسلم هؤلاء جميعاً واتبعوا الحق الذي جاء به النبي ﷺ ـ إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء ـ الرمل الملتهب من حرارة الشمس ـ مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: «**صبراً آل ياسر موعدكم الجنة**» وعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة**» فأما أمه فتأبى إلا الإسلام فيقتلونها، وذكر الإمام أحمد أن سمية أم عمار كانت أول شهيدة في الإسلام، طعنها أبو جهل بحربة في قلبها ـ وقيل في قبلها ـ وذكر ابن الأثير أن عماراً وأباه من عنس وهم بطن من مراد، أسلم هو وأبوه وأمه، وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم، فكانوا يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم على حر الرمضاء، فمر بهم النبي ﷺ، فقال: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**» فمات ياسر تحت التعذيب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها بحربة في قبلها فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وشددوا العذاب على عمار، وقالوا: لن نتركك حتى تسب النبي ـ ﷺ ـ وتقول في اللات والعزى خيراً، ففعل، فلما أعطاهم ما طلبوا تركوه ـ وتمام الخبر أعلاه ـ..

بلال بن رباح الحبشي، كان أبوه من سبي الحبشة، وأمه حمامة سبية أيضاً، وهو من مولدي السراة وكنيته أبو عبدالله، فصار بلال لأمية بن خلف، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فكان وهو يعذَّب يقول: أحدٌ أحد، فرآه أبو بكر يعذب فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ فقال: أنت أفسدته فأبعدته، فقال أبو بكر: عندي غلام سواه على دينك أسود أجلد من

هذا أعطيكه به، قال: قبلت، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعتقه.

خباب بن الأرت، كان أبوه سوادياً من كسكر، فسباه قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة فباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعي، وخباب تميمي، وكان في الإسلام سابقاً ـ قيل: سادس ستة ـ أي قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرّضْف ـ الحجارة المحماة ـ ولووا رأسه، فلم يجبهم إلى شيء مما أرادوه منه.

صهيب بن سنان الرومي، ولم يكن رومياً، وإنما نسب إليهم لأنهم سَبَوْه وباعوه، وقيل: لأنه كان أحمر اللون، وهو من النمر بن قاسط، كناه رسول الله ﷺ بأبي يحيى قبل أن يولد له، وكان ممن يعذب في الله، فعُذّب عذاباً شديداً، ولما أراد الهجرة منعته قريش، فافتدى نفسه منهم بماله أجمع فتركوه يهاجر.

عامر بن فهيرة، هو مولى الطفيل بن عبدالله الأزدي، وكان الطفيل أخاً لعائشة لأمها أم رومان، أسلم قديماً قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم، وكان من المستضعفين يعذب في الله، فلم يرجع عن دينه، فاشتراه أبو بكر واعتقه، فكان يرعى غنماً له، وكان يروح بغنم أبي بكر إلى النبي ﷺ وإلى أبي بكر لما كانا في الغار ـ غار ثور ـ وهاجر معهما إلى المدينة يخدمهما.

أبو فُكَيهة، واسمه أفلح، وقيل: يسار، وكان عبداً لصفوان بن أمية، أسلم مع بلال، فأخذه أمية بن خلف وربط في رجله حبلاً وأمر به فجروه ثم ألقوه على الرمضاء، ومر به جُعَل ـ حشرة تشبه الخنفساء ـ فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك ورب هذا، فخنقه خنقاً شديداً، ومعه أخوه أبي بن خلف يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه، وقيل: عذبه بنو عبد الدار

فكانوا يضعون على صدره صخرة حتى دلع لسانه، وثبت فلم يرجع عن دينه، وهاجر ومات قبل بدر.

لبيبة، جارية بني مؤمل من بني عدي، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وكان عمر يعذبها حتى تفتن عن دينها ثم يدعها، وكان يقول لها: إنني لم أدَعْكِ إلا سآمة، فتقول كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم، فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

زنيرة، جارية لبني عدي، وقيل كانت لبني مخزوم، وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت، فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك هذا، فقالت: وما يدري اللات والعزى من يعبدها؟ ولكن هذا أمر من السماء وربي قادر على رد بصري، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

النهدية وابنتها، مولاة لبني نهد، فصارت لامرأة من بني النجار، فأسلمت، وكانت مولاتها تعذبها وتقول: والله لا أقلعت عنك أو يبتاعك بعض أصحاب محمد، فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

أم عُبيس، وهي أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فابتاعها أبو بكر، فأعتقها.

أقول ولهذا أثنى الله تعالى على أبي بكر ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

❋ ❋ ❋

الهجرة إلى الحبشة

اشتد الأذى على أصحاب النبي ﷺ وبات أغلبهم في وضع صعب التحمل من شدة الأذى والبلاء؛ خصوصاً الضعفاء منهم الذين ليس لهم قبيلة قوية تمنعهم، وقد أشفق النبي ﷺ لحالهم، فقال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان أول من خرج من المسلمين: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبدالرحمٰن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن رهم، وسهيل بن بيضاء، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم، ويروي أنس بن مالك أن خبر عثمان وزوجه قد أبطأ على رسول الله ﷺ، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته، قال: «على أي حال رأيتهما؟» قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: «**صحبهما الله إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام**» وهذه هي الهجرة الأولى إلى الحبشة وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان خروجهم في رجب سنة خمس من البعثة، ساروا من مكة إلى ساحل البحر عند الشعيبة فوجدوا سفينة أقلتهم إلى الحبشة بنصف دينار، وكان عليهم عثمان بن مظعون.

❋ ❋ ❋

الهجرة الثانية إلى الحبشة

سمع من خرج في المرة الأولى بإسلام قريش، بعد أن قرأ عليهم النبي ﷺ سورة النجم ـ وسيذكر لاحقاً الخبر مفصلاً ـ فعاد أغلبهم، لكنهم وجدوا قريشاً أكثر شراسة وهيجاناً مما كانت عليه، فعاد منهم من عاد وتبعهم كثيرون بعد أن اطمأنوا إلى أنهم سيأمنون على دينهم وعيشهم في الحبشة، وتتابع عدد المهاجرين حتى وصل إلى ثلاثة وثمانين رجلاً وأربع وعشرين امرأة، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب، وقد أحسن النجاشي جوارهم فمكثوا آمنين على دينهم وأنفسهم.

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً ـ الجلود ـ كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، فأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى ـ لجأ ـ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى الملك،

فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي ثم قال: الله، إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإذا كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا ـ وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي تكلم جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبدالله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قالت فعدد أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاءنا به من الله،

فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما.

قالت فلما خرجوا من عنده، قال عمرو: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل خضراءهم، فقال عبدالله ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، فقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم ـ آمنون ـ بأرضي، من سبكم غرم، قالها ثلاثاً، ما أحب أن لي دبراً ـ جبلاً ـ من ذهب، ثم التفت إلى عمرو وعبدالله، وقال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي

ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، قالت: وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

ثم قالت: وإنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك، تخوّفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، وسار النجاشي إليه وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يأتينا بالخبر، فقال الزبير بن العوام: أنا، فقالوا: فأنت ـ وكان أحدث القوم سناً ـ فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول: أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه.

❋ ❋ ❋

الإسراء والمعراج

حدث في السنة العاشرة من البعثة النبوية ـ أي قبل الهجرة بثلاث سنين ـ وقيل قبل الهجرة بسنة، وكان الرسول ﷺ نائماً في الحجر ـ حجر إسماعيل وهو جزء من الكعبة قصرت أموال قريش حين جددت البناء فلم تستطع عمارته وضمه للكعبة ـ وقيل كان نائماً في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، ويروي ابن إسحاق عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل، فهمزني بقدمه ـ حركني ليوقظني ـ فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثانية، فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة، فهمزني بقدمه**

فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه؛ يضع يده في منتهى طرْفه ـ كناية عن السرعة ـ فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته» وفي رواية: «**لما دنوت منه لأركبه شَمِس فوضع جبريل يده على معرفته ـ مكان غرّته ـ ثم قال: يا براق ألا تستحي مما تصنع! فوالله يا براق ما ركبك عبد قبل محمد أكرم على الله منه، قال: فاستحى حتى ارفض عرقاً ثم قرَّ حتى ركبته**» ثم مضى رسول الله ﷺ ومعه جبريل عليه السلام، حتى انتهى به إلى بيت المقدس ـ المسجد الأقصى ـ فأُتيَ بإناءين أحدهما فيه خمر والآخر فيه لبن، فأخذ النبي ﷺ إناء اللبن وشربه، فقيل له: أصبت الفطرة، أما إنك لو شربت إناء الخمر لَغَوَت أمّتُك بعدك، فقال جبريل: انزل فَصَلِّ، فنزل فصلى، فقال له: هذه طيبة وإليها المهاجَر، ثم سار فقال: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال: هذا طور سيناء حيث كلم الله موسى، ثم سار، فقال: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال: هذا بيت لحم حيث ولد عيسى، ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فلما انتهيا إلى باب المقدس، قال: «أنزلني جبريل وربط البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء، فلما دخلت المسجد إذا أنا بالأنبياء حوالَيَّ ـ وقيل ـ بأرواح الأنبياء الذين بعثهم الله قبلي، فسلموا علي، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: إخوانك من الأنبياء، زعمت قريش أن لله شريكاً، وزعمت النصارى أن لله ولداً، سل هؤلاء الأنبياء هل كان لله عزّ وجل شريك أو ولد فلذلك قول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فأقروا بالوحدانية لله عزَّ وجلَّ، ثم جمعهم جبريل وقدمني فصليت بهم ركعتين ـ وفي رواية: حتى انتهى إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء فأمهم رسول الله ﷺ فصلى بهم ـ قال عليه الصلاة والسلام: «**ثم انطلق بي جبريل إلى الصخرة فصعد بي عليها فإذا معراج إلى السماء لا ينظر الناظرون إلى شيء أحسن منه، ومنه تعرج الملائكة، أصله في صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء، فاحتملني جبريل ووضعني على جناحه وصعد بي إلى السماء الدنيا**

فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، ففتح، فدخلنا فإذا أنا برجل تام الخلقة عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى، فقلت: من هذا؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم، والباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا نظر إلى من بداخلها من ذريته ضحك، والباب الذي عن يساره باب جهنم، إذا نظر من بداخلها من ذريته بكى وحزن، ثم صعد إلى السماء الثانية، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، وقيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: حياه الله، مرحباً به ونعم المجيء، ففتح لنا، فدخلنا فإذا بشابين، فقلت: يا جبريل من هذان؟ فقال: هذان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا أنا برجل قد فضَل بالحسن، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا أنا برجل، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس رفعه الله مكاناً عليّاً، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا رجل جالس وحوله قوم يقصّ عليهم، قلت: من هذا؟ قال: هذا هارون والذين حوله بنو إسرائيل، ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا أنا برجل جالس فجاوزناه، فبكى الرجل، فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى، قلت: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله من آدم، وهذا الرجل من

بني آدم قد خلفني وراءه»، وفي رواية: «فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي» وفي هذا اللقاء مع موسى قيل فيه كثير وكلها فيها غرابة لا تتناسب مع شفقة موسى على محمد ﷺ وأمته حين نصحه بتقليل عدد الصلوات المفروضة لتجد الدعوة القبول من الأتباع لأنه عانى مع بني إسرائيل من تذمرهم من ثقل التكاليف، «قال: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا رجل أشمط جالس على كرسي على باب الجنة وحوله قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس وقوم في ألوانهم شيء، فقام الذين في ألوانهم شيء فاغتسلوا في نهر وخرجوا وقد صارت وجوههم مثل وجوه أصحابهم، فقلت: من هذا؟ قال: أبوك إبراهيم، وهؤلاء البيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم، وإذا إبراهيم مستند إلى بيت، فقال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه، قال: فأخذني جبريل فانتهينا إلى سدرة المنتهى وإذا نَبِقُها مثل قلال هَجَر، يخرج من أصلها أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فأما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، قال: وغشيها من نور الله ما غشيها، وغشيها الملائكة كأنهم جراد من ذهب من خشية الله، فقال جبريل: تقدم يا محمد، فتقدمت وجبريل معي إلى حجاب، فأخذ بي ملك وتخلف عني جبريل، فقلت: إلى أين؟ فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾ [الصافات] وهذا منتهى الخلائق، قال عليه الصلاة والسلام: «فلم أزل كذلك حتى وصلتُ إلى العرش فاتضع كل شيء عند العرش وكَلَّ لساني من هيبة الرحمٰن، ثم أنطق الله لساني، فقلت: التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله «قال: وفرض الله علي وعلى أمتي في كل يوم وليلة خمسين صلاة، ورجعت إلى جبريل فأخذ بيدي وأدخلني الجنة فرأيت القصور من الدر والياقوت والزبرجد، ورأيت نهراً يخرج من أصله ماء أشد بياضاً من

اللبن وأحلى من العسل، يجري على رضراض من الدر والياقوت والمسك، فقال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، ثم عرض علي النار، فنظرتُ إلى أغلالها وسلاسلها وحيّاتها وعقاربها وما فيها من العذاب، ثم أخرجني فانحدرنا حتى أتينا موسى، فقال: ماذا فرض عليك ربك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: فإني قد بلوت بني إسرائيل قبلك وعالجتهم أشد المعالجة على أقل من هذا فلم يفعلوا، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فرجعت إلى ربي وسألته، فخفف عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع واسأله التخفيف، فرجعت فخفف عني عشراً، فلم أزل بين ربي وموسى حتى جعلها خمساً، فقال: ارجع فاسأله التخفيف، فقلت: إني قد استحيت من ربي وما أنا براجع، فنوديت: إني قد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة والخمس بخمسين، وقد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي».

❋ ❋ ❋

* صور مما شاهده النبي ﷺ في رحلة المعراج

قال عليه الصلاة والسلام: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج، ولم أر شيئاً قط أحسن منه وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر، فأصعدني صاحبي - جبريل - فيه، حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له: إسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك» قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وفي صورة أخرى، قال عليه الصلاة والسلام: «تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً، يقول خيراً ويدعو به، حتى لقيني ملك من الملائكة، فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل ما دعوا به، إلا أنه لم يضحك، ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت من

غيره، فقلت لجبريل: يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت منهم؟ قال: فقال لي جبريل: أما إنه لو كان ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك، هذا مالك خازن النار»، فقال رسول الله ﷺ: «فقلت لجبريل وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ألا تأمره أن يريني النار، فقال: بلى، يا مالك أر محمداً النار، قال: فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذنّ ما أرى، قال: فقلت لجبريل: يا جبريل مره فليردها إلى مكانها، قال: فأمره، فقال لها: اخبي، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه، فما شبهتُ رجوعها إلا وقوع الظل، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها».

وفي صورة أخرى، رواية أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويسر بها، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أفّ، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث، قال: قلت من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم.

وفي صورة أخرى، قال عليه الصلاة والسلام: «ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل في أيديهم قطع من نار كالأفهار ـ الفهر الحجر الكبير ـ يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً».

وفي صورة أخرى، ثم قال: «ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة ـ التي عطشت ـ حين يعرضون على النار يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك، قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

وفي صورة أخرى، قال: «**ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب، قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن**».

وفي صورة أخرى، قال: «**ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم**»، وفي الحديث: «**اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فأكل حرائبهم - أموالهم - واطلع على عوراتهم**».

قال عليه الصلاة والسلام: ثم انحدرت أنا وجبريل إلى مضجعي، وكان كل ذلك في ليلة واحدة، فلما رجع إلى مكة علم أن الناس لا يصدقونه، فقعد في المسجد مغموماً، فمر به أبو جهل، فقال كالمستهزئ: هل استفدت الليلة شيئاً؟ قال: **نعم، أسري بي الليلة إلى بيت المقدس**، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ فقال: نعم، فخاف أن يخبر بذلك عن النبي - ﷺ - فيجحده، فقال: أتخبر قومك بذلك؟ فقال: نعم، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلموا فأقبلوا، فحدثهم النبي ﷺ، فمن مصدق ومكذب ومصفق وواضع يده على رأسه، وارتد بعض الناس ممن كان آمن به وصدقه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، قالوا: إن صاحبك يزعم كذا وكذا! فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فسمي أبو بكر الصديق من يومئذ.

قالوا فانعت لنا المسجد الأقصى، قال: فذهبت أنعت حتى التبس علي، قال: فجيء بالمسجد الأقصى وإني أنظر إليه، فجعلت أنعته، قالوا فأخبرنا عن عيرنا، قال: قد مررت على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، فأخذت قدحاً من ماء فشربته، فسلوهم عن ذلك، ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان فرأيت راكباً وقعوداً بذي مرّ فنفر بكرهما مني فسقط فلان فانكسرت يده، فسلوهما، قال: ومررت بعيركم

بالتنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم من طلوع الشمس، فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينظرون طلوع الشمس ليكذبوه إذ قال قائل: هذه الشمس قد طلعت، فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها جمل أورق كما قال، فلم يفلحوا، وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين.

وفي رواية ابن إسحاق، أن أبا بكر قال للنبي ﷺ: يا نبي الله فصفه لي، فوصفه له، فكان كلما وصف منه شيئاً يقول: أشهد أنك رسول الله، وهنا قال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أنت يا أبا بكر الصديق**» وورد أن النبي ﷺ وصف لأصحابه الأنبياءَ الذين التقاهم في السموات، فقال: «**أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه، وأما موسى فرجل آدم طويل ضَرْبٌ جعد أقنى كأنه من رجال شَنوءَة، وأما عيسى ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سَبْط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس ـ حمّام ـ تخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي**» كما ورد في سيرة ابن إسحاق أن الإسراء كان رؤيا، والرواية عن عائشة تقول: ما فُقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسري بروحه، ورواية عن معاوية بن أبي سفيان كان يقول: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة، معتمدين في ذلك على الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] والصحيح أن الإسراء كان بشخصه وجسمه، ولو كان رؤيا لما جادلت قريش في ذلك ولما قالت صِفْهُ لنا، ولما استغربت فالرؤى والأحلام تطرق كل إنسان وتذهب به مذاهب شتى فليس لها حدود تقف عندها ولا يستغرب إنسان على إنسان لوْ قال له: اخترقت السمٰوات السبع ونزلت إلى الأرضين السبع وحملت الشمس بيدي اليمنى والقمر بيدي اليسرى، ولكن الاستغراب جاء لأنه حدثهم عن أمر وقع له باليقظة وبالبدن وانطلق مسافراً على البراق إلى بيت المقدس ذهاباً وإياباً مع العروج إلى السماء ولقيا الأنبياء، فهنا تكمن المعجزة وهنا يكمن التأييد من رب العالمين لحبيبه، ليخفف عنه من عناد قريش وموقفهم المعادي للدعوة وأن الله القادر على كل شيء هو الحافظ للدعوة ولنبيه محمد ﷺ وأن قدرته لا تحدها حدود، هي مطلقة ولو شاء

لهداهم أجمعين ولكن ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وأن هذه الرحلة هي لتقوية صمود النبي ﷺ وللترويح عما هو فيه من صد المشركين وإيذائهم لضعفاء المسلمين وقد كان يأمل من قريش التصديق والإقبال على الإسلام ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء] لقد خلد الله جلت قدرته هذه الرحلة في سورة الإسراء مع الإشارة الظاهرة إلى الربط بين بيت المقدس والمسجد الحرام ربطاً وشائجياً لا تنفك عراه، من حيث رسالة التوحيد وقداسة المكان، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ وتبين هذه الآية أن حادثة الإسراء كانت بالجسد والروح ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وضوح ما بعده وضوح تكريماً له وإظهاراً لآيات الله الخارقة وأنه ﷺ يعتمد في دعوته على قوي عزيز، ثم جاءت سورة النجم فأتمت ما حدث في تلك الليلة وكان تصعيداً في الإعجاز، فإذا كان الإسراء سفراً سريعاً على ظهر البراق، وله نظير في سفر سليمان بالريح وهذا لم يخرج عن دائرة الأرض فهو طيران سطحي، أما المعراج فهو الخروج من دائرة الأرض - وفي المفهوم الحديث من قوة جاذبيتها - والارتقاء إلى ما فوق السماء السابعة عند سدرة المنتهى، وهناك فرض الله عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، لأهميتها وعلو ثوابها عما سواها من الفرائض، فهي مفروضة على كل المسلمين بلا إعفاء، على الغني والفقير، على المسافر والمقيم، على الصحيح والمريض - بخلاف الفرائض العملية الأخرى، فالزكاة فرض على من ملك النصاب فقط، والحج على من ملك الزاد والراحلة - نفقات الحج تقدر حسب الشخص وبعد المكان - والصوم فرض على الصحيح السليم ويعفى منه المريض - ولنستعرض آيات المعراج من سورة النجم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قَسَمٌ رباني بالنجم وهو يهوي متعقباً الشياطين الذين يسترقون السمع، وفيه تمهيد إلى أن شيئاً قد يحدث في السماء، أو حدثاً مهماً ستشهده السماء وهو يحتاج إلى حراسة مشددة، تردع الشياطين من الجوبان في السماء وتلزمهم أماكنهم من الجزر المهجورة البعيدة؛ بعيداً عن الحدث المهم وهو العروج بالنبي ﷺ إلى السمٰوات السبع، وأن هذه الرحلة المباركة فيها تقوية لصمود النبي ﷺ، ورفع للروح المعنوية له، وأنه برعاية رب قادر، وحماية عزيز قوي، فلا يضره موقف قريش المعاند للدعوة، فهم أضعف من ينالوه بالأذى الذي يوقف دعوته، أو بالتصدي لضيائها الذي لا تحده حدود، وكان بعد القسم تزكية من الله له بأنه على هدى ورشد، وأن الله معه هاديه ومسدد خطواته، وتأتي التزكية الثانية الداعمة له دعماً قوياً يشد من صبره وثباته، بأنه لا ينطق عن هوى نفسه، وأن ما أتى به من القرآن هو وحي من الله أظهره على لسانه يبشر به المتقين وينذر به المعاندين الضالين المعارضين لانتشار هذا النور، إنه الناطق بالحق الموحى به إليه عن طريق الملك جبريل، فبلغ ما أمره الله به أن يبلغه للناس، فكان بلاغه الحق وعين الصدق، وقوة الدعوة تعتمد دائماً على قوة مرسلها، فهي قوية لأنها دعوة الله وهو الركن الشديد، لذلك كان أمره للأنبياء أن يأخذوا بها بقوة ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ ولموسى ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ والنبي ﷺ ليس بدعاً من الرسل، لذلك ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وهو جبريل عن الله عزَّ وجلَّ، والمتعلم يكسب غالباً أشياء من صفات المعلم ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ وهذا المعلم تام الخلق والتكوين والصحة والسلامة من الآفات، ومن تكن له هذه الصفات فهو بالطبع شديد قوي، فاستوى جبريل على هذه الهيئة القوية عندما انتصب في الأفق على صورته الملائكية ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: أتى النبي ﷺ ليصحبه في رحلة المعراج ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ فدنا من النبي ﷺ حتى لم يكن بينه وبينه سوى مسافة

قوس أو قوسين، والمثل «قاب قوسين أو أدنى» تستعمله العرب لشدة قرب المسافة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ ويبقى الكلام عن جبريل عليه السلام، الذي يتلقى التبليغ من الله، ولم تذكر السورة تفاصيل الموحى به اختصاراً لأن مجمل سردها سيظهر من خلال تتابع نزول الآيات حتى اكتمال الشريعة المنزلة على النبي ﷺ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ لقد كانت ليلة المعراج حقيقة واقعة شهدها النبي ﷺ بجسمه وعقله وجوارحه، يذكرها كما رآها، فقد عقلها بقلبه وفؤاده ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ فما حدث في ليلة الإسراء والمعراج كان حقاً وصدقاً، فلا تجادلوه في صدق ما رأى ولا تنكروا عليه ما روى، فإذا كان عقلكم لا يصدق ما حدث فلأنه قاصر لم يدرك حقيقة المعجزات التي تدعم الأنبياء وتؤيد صدق دعواهم لأنها صادرة عن الخالق العظيم الذي لا يعجزه شيء في السمٰوات ولا في الأرض، فالمعجزة ينبغي أن تكون خارقة للعادة لأنها تظهر قوة الخالق العظيم ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ ولمزيد من تأكيد الحدث فقد رآه مرة أخرى على صورته الملكية وهذه المرة أعطى علامة الموضع الذي رآه فيه وهو عند سدرة المنتهى، شجرة السدرة وعندها ينتهي علم المخلوق من الملائكة ولا يعلمون ما وراءها ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ فالجنة أقامها الله تعالى عند هذا المستوى، وما وراء ذلك هو لله وفي علم الله وحده بمعنى أنه لا يكشف للمخلوقين كل شيء فمستوى علمهم ووصولهم إلى جنة المأوى، وروي قراءة ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ أي: أوى إليه وستره، والأول أقوى لأنه مع السياق انسجاماً ومعنًى ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ هي شجرة كما سبق ولكن ما الذي يغشى هذه السدرة ويأوي إليها؟ لك أن تتصور من يغشاها لأن الخالق العظيم جعل في قوله ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ إبهام من يغشى لإعطاء الخيال حقه من التصور بما شاء أن يتصور ولن يخرج عن الحقيقة في كل ما يتصور، لذلك أطلق المفسرون العنان لخيالهم، فقالوا: جراد من ذهب، أفواج من الملائكة، رفرف أخضر، رفرف من طيور، واستعمال الفعل المضارع دليل الاستمراية في هذا الغشيان، فليست واقعةَ حالٍ مضت وإنما صورة مستمرة دائبة

الغشيان ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ ولم تكن الرؤية خيالات أو تهيؤات تصورها عقله أو شطح بها خياله، وإنما كان البصر سليماً حين رأى ما رأى دون مجاوزة أو مبالغة في الرؤية أو انشغال بتنقيله هنا وهناك وإنما كان مركزاً بصره إلى ما طلب منه أن يراه ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ رأى العزة والقوة لله ورأى عظيم ملك الله وقدرته العظيمة حين اطلع على بعض خلقه في السموات، وعلى سدرة المنتهى الشجرة العظيمة.

وحول من قال: إن الإسراء كان بالروح، قال ابن كثير: ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع، فإنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهذا توفيق بين الروايتين على من أخذ بقول عائشة: «أن جسده ﷺ ما فقد، وإنما كان الإسراء بروحه» وقول معاوية «كانت رؤيا من الله صادقة». وعائشة رضي الله عنها لم تكن قد تزوجت منه، ومعاوية لم يكن قد أسلم فالإسراء بالروح والجسد.

❋ ❋ ❋

إبطال قصة الغرانيق

ورد عند بعض المفسرين في سورة النجم، بأن النبي ﷺ قرأ على المشركين سورة النجم، فوصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وكان قد تمنى في نفسه أن لا ينزل بقريش تقريع يهيجهم، فكان يأمل المهادنة ليتجنب أذاهم وشدتهم على المسلمين الضعفاء، فلهذا الذي وقع في نفسه ظهرت منه عبارات دخلت في القرآن الكريم «**تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجى**» وورد «**وإنهن لهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى**» وورد «**وإن شفاعتها لترتجى وإنها لمع الغرانيق العلى**» ففرح المشركون بذلك وقالوا: ذكر محمد آلهتنا بخير، فلما وصل إلى السجدة سجد وسجد معه المسلمون وسجد المشركون لأنهم

قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وروى الطبري في تاريخه: فلما انتهى إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدّث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه «**تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى**» فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له ـ والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطأ ولا وهْم ولا زلل ـ فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد، إلا الوليد بن المغيرة، فإنه كان شيخاً كبيراً، فلم يستطع السجود فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها، ثم تفرق الناس في المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم» وسمع بهذا الخبر المهاجرون من المسلمين في الحبشة فقالوا: أسلمت قريش، فعادوا إلى مكة ووجدوا الأمر على خلاف ما اعتقدوا لقد زادت قريش من إيذائها للمسلمين، فما الذي حدث؟

روي أنه جاءه جبريل، فقال للنبي ﷺ: «**اقرأ علي ما جئتُ به، فقرأ: أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى**، فقال: ما أتيتك بهذا، وقلتَ ما لم أقل لك، هذا من الشيطان، فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كثيراً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ـ وكان به رحيماً ـ يعزيه ويخفّض عليه الأمر، ويخبره أنه لم يكن قبله نبي ولا رسول تمنّى كما تمنّى ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته، أي فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج] فأذهب الله عزّ وجل عن نبيه الحزن وآمنه من الذي كان يخاف ونسخ الله ـ محا وأبطل ـ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم بأنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى، فأتبع ذكر اللات والعزى بالآيات المحكمة التي تضعها في منزلتها المنحطة ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم]، وقال قتادة كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نعس فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لترتجى وإنها لمع الغرانيق العلا» فحفظها المشركون واجترأ الشيطان أن النبي ﷺ قد قرأها فذلت بها ألسنتهم، وعلى هذا الخبر تكون القصة مغايرة عما ذكر، وقيل: بأن معنى الغرانيق: الملائكة، والملائكة شفاعتها ترتجى، ويرد على هذا القول، بقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فعلى هذا يبطل تفسيرها بالملائكة، وقيل بأن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهواً ونسياناً وهما مجوّزان على الأنبياء، لكن يرد هذا القول: بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز.

➢ ما قيل عن قصة الغرانيق:

قال ابن كثير في البداية: وذكروا قصة الغرانيق وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لا يضعها على مواضعها، وقال في تفسيره: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

وقال الشوكاني في تفسيره بعد بحث وتنقيب: ولم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وقوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ

﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ وقوله ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون، وقال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى بإسناد غير متصل عن النبي ﷺ، فعلى هذا فالمرويات في هذا الشأن واهية لافتقادها للسند المتصل، وقال البيهقي: هذه قصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم تكلم بأن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وقال ابن خزيمة إن هذه القصة من وضع الزنادقة، وقال القاضي عياض: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً.

فعلى أي معنى نحمل الآية الكريمة التي قيل بأنها نزلت بهذا الشأن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إلى آخر ما نزل.

قالوا: تمنى بمعنى حدّث، ومعنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في حديثه، روي هذا عن ابن عباس، فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ، أي: لا يهولنك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

وفي الظلال لسيد قطب، يرفض هذه القصة المختلقة من أعداء المسلمين، وقد تابع كافة الكتب التي أوردتها فانتهى إلى القول: وقد رفضتُ منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعاً، فهي فضلاً عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الذكر من العبث والتحريف، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفياً قاطعاً، إذ إنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين في هذه الآلهة وأساطيرهم حولها، فلا مجال لإدخال هاتين العبارتين في سياق السورة بحال، حتى على قول من قال: إن الشيطان ألقى بهما في أسماع المشركين دون المسلمين، فهؤلاء المشركون كانوا عرباً يتذوقون لغتهم، وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدها ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ...﴾ إلى آخر الآيات، حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول ﷺ لأن الكلام لا يستقيم، وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات التي تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين، لغير هذا السبب إذاً سجد المشركون، ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة.

وخلاصة القول أن سيد قطب يرجع سجود المشركين مع المسلمين إلى قوة التأثير القرآني وعلو بلاغته وجرسه وهو يأخذ بألباب قريش لأنه نزل بلغتهم الراقية ففهموه وانساقوا إليه بلا شعور من تذكر معاندتهم ومعارضتهم للدعوة، يختم كلامه ويقول: ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد ﷺ فأقرب ما يحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لا يملكون أنفسهم إزاءها وأن يؤخذوا بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين.. بلا غرانيق ولا غيرها من روايات المفترين.

وتصديقاً لكلام السيد قطب، فقد روى ابن كثير في البداية عن الزهري، قال: حُدّثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر رجعوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون .. وهكذا أيضاً في الليلة الثالثة، من هذا نجد أن القرآن جذبهم ببيانه وعذوبة جرسه ونظم كلماته فأصاخوا إليه سمعهم وتشوقوا للعود كل ليلة حتى زجروا أنفسهم بأن لا يعودوا، ولكن رغم يقينهم بصدق الدعوة وأن القرآن ليس من صنع البشر فلماذا أحجموا عن قبول الدعوة؟ ولماذا عملوا على معاداتها؟ قال أبو جهل لشريق عند ما استوضحه عما سمع: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا

فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه. إنه الحسد وعادات أهل الجاهلية في الاستعلاء والتباهي.

❊ ❊ ❊

حصار النبي ﷺ وبني هاشم في الشعب

لما فشا الإسلام في مكة وانضم إليه فتيان من قريش عرفوا بالشدة والجرأة أمثال حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وأن محاولتهم مع النجاشي في إعادة المسلمين من الحبشة قد باءت بالفشل وأن المهاجرين قد وجدوا داراً اطمأنوا بها على دينهم وحرية عبادتهم؛ تواطأت قريش فيما بينها على تشديد النكال بالمسلمين، فقرروا عزل المسلمين في مكة ومقاطعتهم اقتصادياً وتجويعهم ووضعهم أمام خيارين لا ثالث لهما إما الموت جوعاً وإما الردة وترك الدين، فكان من أهم بنود الاتفاق:

- أن لا يُنكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يَنكحوا إليهم.
- أن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً.

ولكي يوثقوا ما تعاهدوا عليه كتبوا الاتفاقية في صحيفة وأودعوها جوف الكعبة، وأخذوا على أنفسهم جميعاً الالتزام بنص الاتفاق وعدم خرقه مهما وصل إليه الأمر من شدة، ولما علم بذلك بنو هاشم وبنو المطلب انحاز الجميع إلى أبي طالب تضامناً وتحدياً لعتاة قريش، إلا أبا لهب فإنه أبا الانحياز إلى عشيرته ووافق طغاة قريش على موقفهم، وانتقل المسلمون ومن والاهم إلى شعب لأبي طالب، وهناك صمدوا على ضنك العيش وشدته إلا ما كان يأتيهم خفية تحت جنح الليل من طعام، فقد ورد أن هشام بن عمرو بن الحارث كان يأتي بالبعير وقد حمله طعاماً إلى أول الشعب فينزع خطامه ثم يضربه على مؤخرته ليتجه إلى داخل الشعب فيأخذه المحاصَرون ويتوزعونه فيما بينهم، ثم يوقر جملاً آخر بالقمح ويفعل كما

فعل سابقاً، ومع ذلك تبقى المعاناة وتشتد وطأة الحصار وصعوبة تحمله، واستمرت الحالة قرابة السنتين وقد تضوروا جوعاً حتى اضطر كثير منهم إلى أكل ورق الشجر والعشب ليسدوا جوعتهم، وهنا رأى عدد من أصحاب المروءة أن هذه المقاطعة جائرة، وكان منهم هشام بن عمرو، فقد كلم صديقه زهير بن أبي أمية في هذا الشأن، فاستجاب له ثم سعى إلى ضم آخرين لهم وزنهم وجرأتهم أمثال: المطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، فاتفق هؤلاء على الاجتماع سراً في الليل ونسقوا فيما بينهم لكي يخرجوا بموقف موحد، وفي الصباح قام زهير بن أمية وطاف بالبيت سبعاً ثم وقف وقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، قال أبو جهل: والله لا تشق، قال: زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو مثل ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قد قضي بليل، فقد أحس بأن هذا التنسيق لم يكن مصادفة وإنما عن تدبير بين هؤلاء وربما ظن أن الأمر قد يتعدى هؤلاء فخشي أن يخرج هذا الأمر عن سيطرته فسارع إلى قبول العرض بإنهاء المقاطعة وتمزيق الصحيفة، ولما دخل زهير بن أبي أمية إلى الكعبة لتمزيق الصحيفة وجد أن الأرضة قد أكلت الصحيفة إلا ما كان منها «باسمك اللّهم» عبارة ورثتها قريش من الحنيفية كانت تصدر بها كتبها، وهكذا انتهت المقاطعة وسري عن بني هاشم والمطلب ما أرهقهم، ويروى أن النبي ﷺ قال لأبي طالب: **«يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان»** فقال أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، وانطلق أبو طالب إلى الكعبة فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا من قطيعتنا وانزلوا عنها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم قد رضينا، فتعاقدوا على

ذلك، ثم نظروا في الصحيفة فكانت كما قال رسول الله ﷺ، فما زادهم إلا طغياناً، وهنا قام الخمسة الذين ذكرناهم آنفاً فعملوا على نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة، ويروى أن سبب المقاطعة هي أن قريشاً أجمعوا أن يقتلوا النبي ﷺ فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أرادوا قتله، فلما رأت قريش وقوف عشيرته معه كتبوا بينهم الصحيفة.

❊ ❊ ❊

وفاة أبي طالب

قال عليه الصلاة والسلام: «**ما نالت مني قريش ما أكرهه حتى مات أبو طالب**» من هذا يتبين مدى وقوف أبي طالب إلى جانب النبي ﷺ، فكان يعينه ويقف معه بقوة ضد إيذاء قريش.

كانت وفاة أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين، هكذا ذكر ابن إسحاق، وبفقده خسر النبي ﷺ عضداً ونصيراً، وتجرأ كفار قريش على إيذائه، فقد نشر أحد سفهاء قريش التراب على رأسه وهو ساجد، ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي، فلما رآها رسول الله ﷺ وجلة خائفة مما حدث أشفق عليها وطمأنها بكلماته «**لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك**» كما روي أن بعض الأشقياء كان يطرح في برمته ـ القدر ـ الأذى ليلوث طعامه فكان يخرجه على عود ثم يقول: «**يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟** ثم يلقيه في الطريق، ويروي ابن إسحاق: أنه لما اشتد وجع أبى طالب قالت قريش بعضها لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا، فمشوا لأبي طالب وكلموه، فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا ودينا ولندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال:

يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال عليه الصلاة والسلام: **يا عم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»** فقال أبو جهل: وأبيك وعشر كلمات، قال: «**تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه**» فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب، لقد صورت سورة «ص» هذا الموقف خير تصوير ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هو بمعطيكم شيئاً مما تريدون ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص]، فاتفقوا على التمسك بدين آبائهم حتى يحكم الله بينهم وبينه، ثم تفرقوا، فقال أبو طالب: والله يا بن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً، فطمع رسول الله ﷺ بإسلام عمه، فقال: «**أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة**» فقال أبو طالب: يا بن أخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها، وقبل أن يلفظ أنفاسه رآه العباس يحرك شفتيه فأصغى إليه، فقال للنبي ﷺ: يا بن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «**لم أسمع**» ويستدل الشيعة بقول العباس بأن أبا طالب مات مسلماً، وفي رواية ابن المسيب: أن النبي ﷺ دخل على أبي طالب في مرض وفاته وعنده أبو جهل فقال: «**أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فحزن النبي ﷺ ثم قال: «**لأستغفر لك ما لم أنه عنك**» لكن نزل من القرآن بهذا الشأن ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١١٣﴾ [التوبة].

وفي صحيح مسلم أن العباس قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل**» وعن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ ذكر عنده عمه، فقال: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**» وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب منتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه**».

❋ ❋ ❋

وفاة خديجة

روي أن خديجة رضي الله عنها قد توفيت قبل أن تفرض الصلاة وهذا على قول من قال: بأن حصار الشعب كان قبل الإسراء والمعراج، فهناك رواية أن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة وأن وفاة خديجة رضي الله عنها كان قبل الهجرة بثلاث سنين، قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الابتلاء، يسكن إليها، ويهلك عمه أبو طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وفي رواية الزهري، أن خديجة توفيت بمكة قبل خروج رسول الله صلى الله إلى المدينة وقبل أن تفرض الصلاة، وقال ابن إسحاق: ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد، وقال البيهقي: بلغني أن خديجة توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام، وقال الواقدي: إن خديجة وأبي طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة.

وقد سمي العام الذي ماتت به خديجة ومات فيه أبو طالب بعام الحزن، حيث توالى الحزن على النبي ﷺ بتوالي موتهما، وقد نالت خديجة رضا الله تعالى لموقفها المؤيد والمساند للنبي ﷺ في دعوته وهي كما مر أول من أسلم، وعن أبي هريرة ـ كما ورد في الصحيحين ـ قال: **أتى جبريل إلى**

رسول الله ﷺ، فقال: **يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فأقرئها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**» والقصب: الفضة، وقد كان النبي ﷺ يذكرها كثيراً ويثني عليها، كما كان يكرم صديقاتها إكراماً لها، فهي إلى جانب وقوفها معه ودعمه وسبقها في الإسلام وسعة عقلها وحسن تفكيرها وتدبيرها، فهي أم أولاده فلم يرزق الأولاد إلا منها ومن جاريته أم إبراهيم مارية فلم يعش إلا بناتها؛ زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما قالت له عائشة: لقد أبدلك الله خيراً منها، قال: «**ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس، وآستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء**» وفي الحديث: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث؛ مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» فلماذا هؤلاء النسوة؟ قالوا: والقدر المشترك بين النسوة الثلاث، هي أن كلاً منهن قد كفلت نبياً مرسلاً وأحسنت الصحبة في كفالتها وصدقته، فآسيا ربت موسى أحسن تربية وحمته وصدقته حين بعث، ومريم ربت عيسى وجهدت في حمايته وتنقلت من مكان إلى آخر طلباً لإخفائه عن أعين البغاة الذين يريدون قتله ولما أرسل إليه آمنت به وصدقته، وكذلك خديجة، فقد كفته هم المال فأنفقت على بيتها بسخاء، وتفرغ هو للدعوة وآمنت بدعوته وساندته برأيها ومشورتها.



الدعوة في الطائف

بعد وفاة أبي طالب، رأى النبي ﷺ أن ينقل دعوته إلى الطائف لعله يجد أنصاراً له يؤمنون بما جاء به بعيداً عن تأثير كفار قريش وتهديدهم لمن آمن بالإيذاء والتعذيب والمقاطعة، فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، وروي أنه خرج إليهم وحيداً، وقيل كان معه

زيد بن حارثة، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة؛ عبد ياليل، ومسعود، وحبيب أولاد عمر بن عمير بن عوف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم وكلمهم ودعاهم إلى الله، وأنه قصدهم لنصرته والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ـ كناية عن تكذيبه ـ وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «**إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي**»، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ ما حدث في الطائف قريشاً فيزيدوا من ممانعتهم وإيذائهم، لأنه طلب مناصرة ثقيف عليهم، فلم يفعلوا بل زادوا أن حرضوا عليه سفهاءهم وعبيدهم فسبّوه ورموه بالحجارة حتى ألجؤوه إلى حائط ـ بستان ـ لعتبة وشيبة ابنا ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة ـ دالية العنب ـ فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه من بعيد ويريان ما يلقى من السفهاء، جلس يستريح مما لاقاه وقلبه مشفق على أمته لأن الجهل قد عشش في قلوبهم فأعماهم فهم لا يعلمون، فكيف يقنعهم ويدخل الإيمان إلى قلوبهم، لذلك شكا ضعفه إلى الله بهذه المناجاة المؤثرة: «**اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك**» فلما رأى ابنا ربيعة ما حصل للنبي ﷺ تحركت فيهما الرحم وقالا لخادمهما عداس خذ قطف العنب هذا وضعه في هذا الطبق وأطعمه إلى ذلك الجالس تحت الحبلة، فحمل عداس العنب وأتى به النبي ﷺ ووضعه بين يديه وقال له:

كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «**بسم الله**»، ثم أكل، فقال عداس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «**من أي البلاد أنت وما دينك؟**» قال: أنا من أهل نينوى أدين بالنصرانية، فقال رسول الله ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**»، فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي**» فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، وهذا على مرآى من ابني ربيعة، فقال أحدهما للآخر، أما غلامك فقد أفسده عليك، وهم يجهلون أن الدين واحد عندما يسلم من التحريف، فلما عاد عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وذكر أن أهل الطائف وقفوا صفين على طريقه، فلما قفل عائداً إلى مكة جعلوا لا يرفع رجليه إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه، فخلص منهم وهما يسيلان دماً، فعمد إلى ظل نخلة وهو مكروب ليستريح تحتها، وفي صحيح مسلم، أن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «**ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة ـ في الطائف ـ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد قد بعثني الله إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك ربك لتأمرني بأمرك ما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟**» فقال رسول الله ﷺ: «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**» ولما أصر أهل الطائف على الكفر الذي أتبعوه بإيذاء

النبي ﷺ عوض الله نبيه بإسلام قوم آخرين، فلما بات بنخلة وصلى العشاء الآخرة في ذلك الموضع مر نفر من الجن وكانوا تسعة فسمعوا قراءة القرآن، فوقفوا يستمعون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف] وقد ورد أن الجن استمعوا للنبي ﷺ أكثر من مرة، مرة هنا في موضع نخلة، ومرة في طرف مكة عند محبس الجن وكان معه ابن مسعود فخط له دائرة وقال له لا تخرج منها ثم تقدم إلى الجن فجلس معهم وقرأ عليهم القرآن وعلمهم ثم انطلقوا إلى قومهم منذرين، وورد أنهم كانوا من بلدة نصيبين. وفي سورة الجن ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن].

وأراد النبي ﷺ دخول مكة لكنه خشي من سطوة قريش وأنها تكون قد علمت بما حصل في الطائف فيشتد إيذاؤها، لذلك بعث في طلب المطعم بن عدي وأن يدخل في جواره فكان له ذلك، فأجاره المطعم وخرج بالسلاح مع بنيه الستة أو السبعة ودخلوا المسجد وقال للنبي ﷺ طف بالكعبة، وخرج أبو سفيان ورأى هذا المنظر فقال للمطعم: أمتابع أم مجير؟ قال: بل مجير، قال: إذاً لا تغفر، وظل المطعم وأبناؤه في وضعية الحماية إلى أن انتهى النبي ﷺ من طوافه فلما انصرف انصرفوا معه، وفي رواية أن أبا جهل هو الذي قال للمطعم: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير، قال: قد أجرنا من أجرتَ، وهذا القول هو الأرجح لأن أبا جهل هو زعيم المعارضة، وأبو سفيان لم يعل صوته إلا بعد مقتل الزعماء الكبار في غزوة بدر، فانتقل من الصف الثاني إلى الصف الأول، وبعد أيام مر النبي ﷺ بنادي قريش في طريقه إلى البيت للطواف به، فقال أبو جهل بلغة الهازئ: هذا نبيكم يا بني عبد مناف، فرد عليه عتبة: وما ينكر أن يكون منا نبي وملك؟ فعاد إليهم رسول الله ﷺ فقال: «**أما أنت يا عتبة فما حميت لله وإنما لنفسك، وأما أنت يا أبا**

جهل فو الله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر قريش فو الله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون»، فكان الأمر كما قال.

ولقد ألان لهم النبي ﷺ القول في مواقف كثيرة طمعاً في إسلامهم، وكان كثير الاهتمام بأمرهم ليتجنب عداوتهم وليكسبهم مؤيدين للدعوة، فهم أهله وعشيرته، لكن الله تعالى عاتبه لهذا الموقف، ففي قصة الأعمى عبدالله ابن أم مكتوم مَثَلٌ لما قدمنا، قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس]، وفي سورة الكهف ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف] وفي سورة الأنعام ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام] وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه» وقد كانت حالتهم بعد كل البراهين ببطلان عقيدتهم الوثنية؛ التكذيب والهزء والسخرية من النبي ﷺ ودعوته ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ۝٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء].

❊ ❊ ❊

الدعوة أيام الحج وعرض النبي ﷺ نفسه على القبائل

وروي أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه في المواسم على القبائل، والمواسم يقصد بها أيام الحج وأسواق العرب الموسمية التي تقام قريباً من مكة، ففي الحديث الذي صححه ابن حبان أن ربيعة بن عباد قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وعند أحمد عن جابر قال: «كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: «**هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي**» فأتاه رجل من همدان فأجابه، ثم خشي ألا يتبعه قومه فجاء إليه فقال: آتي قومي فأخبرهم ثم آتيك من العام المقبل، قال نعم، فانطلق الرجل وقد جاء الأنصار في رجب، وفي منى يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، وتقدم أبو بكر وكان نسّابة فقال: من القوم؟ فقالوا: من ربيعة، فقال: من أي ربيعة أنتم؟ قالوا:من ذهل، وكان معهم لقاء لم يثمر، كما روي أنه التقى بوفد لبني شيبان، فكان جوابهم بأنهم يمنعون رسول الله ﷺ من العرب ولا يستطيعون أن يمنعوه من الفرس، فكان جواب النبي ﷺ: «**إنه لا يقوم بهذا الدين إلا من يحوطه من كافة جوانبه**» وذكر ابن الأثير أسماء عدد من القبائل التقاهم رسول الله ﷺ وهم: كندة ممثلة بسيدها مليح، فأبوا قبول دعوته وحمايته، وعرض الدعوة على قبيلة كلب فلم يقبلوا ما عرض عليهم، وأتى بني حنيفة فكان ردهم عليه أقبح رد، وأتى بني عامر فقال رجل منهم: أرأيت إن نحن تابعناك فأظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء**»، فقال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، ولما رجعت بنو عامر إلى ديارهم وأخبروا شيخهم خبر النبي ﷺ ونسبه، وضع يده على رأسه ثم قال: «**يا بني عامر هل من تلاف؟ والذي نفسي بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط وإنها لحق، فأين**

كان رأيكم عنه؟» ويروى أن بيحرة بن فراس وجد قومه قد أذنوا لرسول الله ﷺ أن ينزل عندهم، فقال: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق - عكاظ - يرجع بشيء أشد من شيء ترجعون به بدءاً ثم لتنابذوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد به، أتعمدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئس الرأي رأيتم، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: قم فالحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك، فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها فغمز بيحرة شاكلتها - خاصرتها - فقمصت برسول الله ﷺ فألقته، وعند بني عامر يومئذ ضباعة ابنة عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر ولا عامر لي، أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم؟ فقام ثلاثة من بني عمها إلى بيحرة واثنان وقفوا معه فجلدوا ببيحرة وأعوانه الأرض وعلوهم لطماً وضرباً، فقال رسول الله ﷺ: **«اللّهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء»** فآمن فيما بعد الذين ناصروه وبقي على الكفر الذين ناصروا بيحرة، وهكذا ضيع بنو عامر شرف السبق لمناصرة الدعوة، فكان الشرف للأوس والخزرج أنصار رسول الله ﷺ. وروى ابن إسحاق: أن رجلاً وضيئاً أحول له غديرتان وعليه حلة عدنية كان يتبع رسول الله ﷺ في منى، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه، فكان هذا الرجل أبا لهب، فهل يوجد أفجر من هذا العم تحت أديم الشمس؟

❋ ❋ ❋

بيعة العقبة الأولى

تحقيقاً لأداء البلاغ المبين، فإن صد القبائل للنبي ﷺ لم يثنه عن التبليغ، وكان واثقاً أن الله تعالى سينصر دينه ويعلي كلمته، ولكن لا بد من

العمل والسعي وبذل الوسع وأقصى الجهد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ فسنة الله في الحياة السعي والعمل، واللقاء مع الناس وإيصال الدعوة لهم ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ وبينما النبي ﷺ عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وكان بعض قبائل اليهود يقيمون في يثرب، وسكان المدينة من الأوس والخزرج أهل أوثان، فكان إذا حصل خلاف أو اقتتال بين اليهود والعرب يقول اليهود: إن نبياً يبعث قريباً نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود، فقال أولئك النفر بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تتوعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه وقالوا له: إن بين قومنا شراً وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا، وكانوا سبعة نفر من الخزرج على رأسهم أسعد بن زرارة، فلما عادوا إلى يثرب ذكروا لهم النبي ﷺ ودعوهم إلى الإسلام وما هو إلا قليل وقت حتى فشا فيهم، حتى إذا جاء العام القادم وافى الموسم من أهل يثرب اثنا عشر رجلاً، فالتقى بهم رسول الله ﷺ عند العقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوه بيعة النساء ـ ليس فيها التزام بالقتال ضد المشركين، قال عبادة بن الصامت: **بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء غفر وإن شاء عذّب**، وفي رواية: «**وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عزَّ وجلَّ: إن شاء عذب وإن شاء غفر**» وعند منصرفهم إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، فنزل مصعب بيثرب على أسعد بن زرارة، وبدأ مصعب مهمته على أحسن وجه، لكن سعد بن معاذ زعيم الأوس أزعجه ما كان يقوم به مصعب، فأرسل أسيد بن الحضير لكي يخرجهما من حيه وأسعد بن زرارة ابن خالة سعد بن معاذ، فحمل أسيد حربته وانطلق إلى مصعب بن عمير، فلما قرب قال أسعد لمصعب: هذا سيد قومه فاصدق الله فيه، فلما جاء، قال: ما جاء بكما إلينا تسفهان

ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره، قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فعرف في وجهه الرضا والقبول، فبعد أن انتهى قال أسيد: ما أحسن هذا وأجلّه، كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ فقالا: تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم تصلي ركعتين، ففعل وتعلم كيفية الصلاة فصلى ركعتين، وأخذ حربته وانطلق إلى نادي قومه، فلما رآه سعد بن معاذ قال: أحلف لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به، فقال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، والله ما رأيت بهما بأس، وافتعل أمراً لكي يذهب سعد إلى مصعب ليسمع منه، فذهب، وكلماه فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن، فأسلم وتطهر وصلى ركعتين، ثم ذهب إلى نادي قومه، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم أو مسلمة، وواصل مصعب عمله بالدعوة وأعداد الداخلين في الإسلام تزداد وكان معه ابن أم مكتوم يساعده في نشر الدعوة، كما ورد في صحيح البخاري.

❊ ❊ ❊

بيعة العقبة الثانية

لما كثرت أعداد المسلمين في يثرب خرجت مجموعة كبيرة من حجاج يثرب مسلمين ومشركين إلى مكة، واتفق المسلمون منهم على المسير إلى النبي ﷺ مستخفين لا يشعر بهم أحد، وكان هذا في الموسم التالي للبيعة الأولى، وواعدوا النبي ﷺ عند العقبة ثاني أيام التشريق، فلما كان الليل تسللوا إلى القبة سراً وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين هما: نسيبة بنت كعب المازنية وأسماء أم عمرو بنت عدي ـ وذكر ابن حجر أنهم ثلاثة وسبعون

رجلاً وامرأتان ـ وحضر رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس، حيث أحب أن يستوثق منهم لابن أخيه، لذلك كان أول المتكلمين، فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث علمتم في عز ومنعة وإنه أبى إلا الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه، فأنتم وذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة، فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ورغب في الإسلام، قال: «**تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، ثم أخذ البراء بن معرور بيده وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعْنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب.

وقال ابن التّيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن أظهرك الله عزَّ وجلَّ أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم**»، ثم قال: أخرجوا إلي اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وقال لهم رسول الله ﷺ: «**أنتم كفلاء قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم**» قالوا: نعم، ثم قال العباس بن عبادة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله، قال: «**الجنة**»، قالوا: ابسط يدك، فبايعوه.

وقد فسر كلام العباس بن عبادة بأحد احتمالين:

ـ من أجل أن يوثق العهد للرسول ﷺ وأن يتحمل المبايعون كل صعب من أجل الإسلام والدفاع عن رسول الله ﷺ.

ـ من أجل إطالة المدة قبل البيعة ليتسنى حضور عبدالله بن أبي بن سلول، فقد كان مع الحجاج ولكن لم يعلموه بهذا الاجتماع الخاص بالمسلمين.

فكان أول من بايع النبي ﷺ أسعد بن زرارة وقيل البراء بن معرور، وقيل ابن التيهان، ثم بايع البقية، وروي أن الشيطان قد طار صوابه لما تمت البيعة فصاح بأعلى صوته في منى: يا أهل الجباجب ـ المنازل ـ هل لكم في مذمم ـ كان أهل الكفر يلقبون به النبي ﷺ ـ والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال النبي ﷺ: «**ارفضوا إلى رحالكم**»، فقال العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال: «**لم نؤمر بذلك**»، فرجعوا.

فلما أصبحوا جاءهم عدد من كبار قريش، فقالوا: قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من أحياء العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينهم الحرب منكم، فحلف من هناك ـ من مشركي أهل يثرب الذين لم يحضروا البيعة وكانوا الأكثر، يزيدون عن خمسمائة ـ أنه ما كان من هذا الأمر شيء وما علمناه، وصدقوا فهم لم يعلموا فعلاً، والمسلمون ينظر بعضهم إلى بعض وهم سكوت، قال كعب بن مالك: وقام القوم ـ وفد قريش ـ وفيهم الحارث بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، فقلت كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي وقال: والله لتنتعلنهما، قال أبو جابر: مه أحفظت ـ أغضبت ـ والله الفتى فاردد عليه نعليه، قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، والله لئن صدق الفأل لأسلبنه، وعاد الوفد إلى يثرب، وعلمت قريش بعد ذلك أن عدداً من أهل يثرب أسلموا فتأكدت شكوكهم فاشتدوا على

المسلمين إيذاء واضطهاداً، وحاولوا إدراك أهل يثرب إلا أنهم كانوا قد غادروا مكة، وروي أنهم أدركوا سعد بن عبادة، وأفلت منهم المنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً، فقيدوا سعداً وعادوا به إلى مكة وهم يضربونه ويركلونه حتى أوجعوه، وقال سعد: فطلع رجل وضيء توسم فيه الخير لعله يفعل شيئاً في إنقاذه وإذا به يفاجئه في لطمة موجعة شديدة، فقال: ما في القوم خير، ثم اقترب من بين القوم رجل منهم وهمس في أذنه: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد، فقال: بلى: والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم والحارث بن أمية، قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما، ففعل، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج يضرب بالأبطح وإنه ليهتف باسمكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً، قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق، والله إن كان ليجير تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده، فانطلقا فخلصا سعداً وأطلقاه، وأن الذي لطم سعداً كان سهيل بن عمرو، قال: وتتبعت قريش الخبر فعلمت ما دار بين النبي ﷺ وأهل يثرب فجن جنونهم وفقدوا إنسانيتهم في تصعيد التعذيب والإيذاء، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة إلى المدينة سراً، وكان أول من هاجر أبو سلمة بن عبد الأشهل المخزومي، بعد بيعة العقبة الأولى.

❋ ❋ ❋

مهاجرون لهم قصة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ـ وهو يومئذ بمكة ـ للمسلمين: «**قد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين**» فهاجر من هاجر قِبَل المدينة حين ذكر رسول الله ﷺ ذلك، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**».

❋ ❋ ❋

أبو سلمة وزوجه أم سلمة

ذكر ابن إسحاق أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت قصة أبي سلمة وهجرته إلى المدينة، فقالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيراً ثم حملني عليه وجعل معي ابني سلمة ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رآه رجال من بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، عند ذلك غضب بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، وقالوا: والله عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق أبو سلمة إلى المدينة، وهكذا تفرقت الأسرة الصغيرة، الزوجة عند قومها والولد عند قوم أبيه والزوج هاجر إلى المدينة، قالت: فكنت أخرج كل يوم فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي فرأى ما بي فرحمني، فقال: ألا تخرجون من هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، فقالوا لي: الحقي إن شئت، قالت: فرد بنو عبد الأسد عن ذلك ابني فارتحلت على بعيري، فلما بلغت التنعيم لقيني عثمان بن أبي طلحة، فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قالت: ما معي أحد إلا الله وبني هذا، فقال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت من العرب قط رجلاً أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت أخذ بعيري فحط عنه ثم قيده في الشجر ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم استأخر عني وقال اركبي فإذا ركبت واستويت أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي، فمازال يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة نازلاً فيها.

❋ ❋ ❋

عمر بن الخطاب وعياش بن ربيعة

حدّث عبدالله بن عمر عن أبيه قال: لما أردت الهجرة إلى المدينة؛ اتعدنا أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص، التناضب من إضاءة بني غفار فوق سرف، وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحبس هشام وفتن فافتتن - أي طاوعهم على ترك الإسلام - فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش - وهو ابن عمهما وأخوهما لأمهما - حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقال له عمر: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فو الله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، لكنه صمم على بر أمه والذهاب معهما وقال: لي مال أعود به، قال عمر: أعطيك نصف مالي ولا تذهب معهما، فأبى، فقال له عمر: إن لي ناقة نجيبة ذلول فخذها والزم ظهرها، فإن رابك منهما ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، فلما كان معهما ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه، قال عياش: بلى، فأناخ راحلته وأناخا ليتحول عليها، فلما استويا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطاً ثم دخلا به مكة ففتناه فافتتن، قال عمر فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنزل الله ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر] قال عمر: كتبتها وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعّد فيها وأصوّب ولا أفهمها حتى قلت: اللّهم فَهِّمنيها

فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

وأورد ابن إسحاق، أن الوليد بن الوليد بن المغيرة قام بعملية جريئة في مكة لإنقاذهما من قبضة قريش، قال ابن هشام: حدثني من أثق به، أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «**من لي بعياش بن ربيعة وهشام بن العاصي؟**» فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة فقدمها مستخفياً، فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين، تعنيهما، فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسوّر عليهما ثم أخذ مروة ـ حجر ـ فوضعها تحت قيديهما فضربهما بالسيف فقطعهما، ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدميت إصبعه، فقال: «**هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟**».

وورد أن عمر بن الخطاب هاجر جهراً حيث حمل سيفه وتنكب قوسه وأمسك بخطام ناقته ووقف أمام الملأ في قريش وقال: من أراد أن تثكله أمه وأن يتيتم أولاده وأن ترمل زوجه فليتبعني وراء هذا الوادي، وخرج من بينهم فلم يتبعه أحد.

❋ ❋ ❋



الهجرة

ورد أن النبي ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ قال ابن كثير: أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء، أن يجعل له مما هو فيه فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، فأذن الله له في الهجرة إلى المدينة حيث الأنصار والأحباب، فصارت له داراً وقراراً وأهلها له أنصاراً.

ويذكر أحمد بن حنبل رواية عن ابن عباس قوله: كان رسول الله ﷺ بمكة فأمره الله تعالى بالهجرة وأنزل عليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية.

قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً**» فيطمع أبو بكر أن يكونه.

قال: فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع على حربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة ـ وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه، قال ابن عباس: وقد سمي اليوم الذي اجتمعوا فيه لهذا الأمر «يوم الزحمة» فوقف في طريقهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ غريب، فقالوا من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش، عتبة وشيبة وأبو سفيان وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحارث بن عامر والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف، وغير هؤلاء، وتكلموا في شأنه وماذا يفعلون به، قيل: احبسوه وكبلوه بالحديد إلى أن يقضي نحبه، قال الشيخ النجدي: ليس هذا برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم، ما هذا لكم برأي، ثم قالوا: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فلا نبالي والله أين

ذهب، فقال الشيخ النجدي: ليس هذا برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا، فقال أبو جهل: إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل ـ الدية ـ فعقلناه لهم، فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي ولا أرى غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل رسول الله ﷺ وقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: «**نم على فراشي وتسجى ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه**»، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]، فلما اجتمعوا على بابه وفيهم أبو جهل، قال يحدثهم ـ وهو واثق بأن نهاية محمد قد دنت ـ إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن لم تفعلوه كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها، وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «**نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم**» وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس].

وكان رسول الله ﷺ قد أتى في الهاجرة ـ عند الظهر ـ دار أبي بكر الصديق فقال له: «**إن الله تعالى قد أذن لي بالخروج والهجرة**» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال «**الصحبة**» قالت عائشة: ـ وكانت هي وأختها أسماء قد شهدتا هذا الموقف ـ فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، وقال أبو بكر: هاتان راحلتان كنت قد أعددتهما لهذا الغرض، فقال رسول الله ﷺ: «**بالثمن، ما ينبغي لنبي أن يركب ناقة ليست له**» ولكن لماذا أتى رسول الله ﷺ في هذا الوقت ليخبره بنبأ الإذن بالهجرة وأنه رفيقه؟ النبي ﷺ يعلمنا الأخذ بالأسباب، من أجل أن يضع أبو بكر ترتيبات الهجرة بدقة وحذر، ثم عاد النبي ﷺ إلى داره، وعمل أبو بكر على وضع خطة محكمة حيث الاتجاه إلى غار ثور والإقامة فيه ثلاث ليال، والتزود بالطعام والشراب والأخبار، وقد وضع أبو بكر لهذا الأمر خطته وسنرى نجاح تلك الخطة وقيام كل شخص مكلف بعمله خير قيام.

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ على الخروج أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار في جبل ثور وهو جبل بأسفل مكة ـ جهة الجنوب منها ومكان الهجرة المدينة وهي جهة الشمال وهذا للتمويه وإبعاد الطلب عن هذه المنطقة ـ ودخل أبو بكر الغار يتلمس صخوره ويكتشف بنفسه خلوه من وحش كاسر أو أفعى قاتلة، ثم دخل رسول الله ﷺ وباتا ليلتهما فيه، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبدالله أن يأتيهما بالأخبار وما يقوله الناس وزعماء قريش مساء بعد رقود الناس، وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يعود بها ليلاً ويريحها قريباً من الغار، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام ليلاً، وفي الصباح الباكر يعود عامر بن فهيرة بالأغنام فيزيل كل أثر لأقدام أسماء وعبدالله، ومكث رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر في الغار ثلاثة أيام، وقد جعلت قريش مائة

ناقة جائزة لمن يرده عليهم، وسارت الخطة بتمامها وقد سلم الله نبيه ﷺ وصدّيقه من بطش قريش.

***

أيام الغار

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وذكر ابن كثير: أن المشركين لما أصبحوا دخلوا بيت رسول الله ﷺ فكان علي في الفراش، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فخرجوا واقتفوا أثره حتى وصلوا إلى الجبل فصعدوه، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسولَه ﷺ، وورد أن حمامتين عششتا على بابه، ويروى عن أبي مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك، يذكرون أن النبي ﷺ ليلة الغار، أمر الله شجرة فخرجت في وجه النبي ﷺ تستره، وأن الله بعث العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ﷺ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت والشجرة، وورد أنه لما أقبل فتيان قريش من كل بطن منهم رجل، معهم عصيهم وقسيهم وهراواتهم، قال لهم الدليل: انظروا في الغار، فسبقهم الدليل حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قدر خمسين ذراعاً، فإذا الحمامتان ترجعان، فرجع، فقالوا ماردك أن تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد.

وعن أنس بن مالك أن أبا بكر حدثه، قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في

الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثنا؟**» وهذا معناه أنهم رقوا أعلى الغار فانكشف لهم جزء من الغار، وورد أن النبي ﷺ طمأن الصديق لما رآه في غاية القلق عليه، فقد قال أبو بكر: أما والله ما على نفسي أئل ـ أتوجع ـ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له النبي ﷺ: «**يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا**» وقال له لما كانوا بباب الغار: «**لو جاؤوا من ههنا لذهبنا من هنا**» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه، وهذا من وضع أهل السير، إلا أنه ليس بمستبعد على الله أن يخلق هذا، ولكن ليس علينا أن نتخيل بغير دليل ما يعدّه الله لنجاة نبيه.

كما يروى أن أبا بكر ليلة انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار كان يمشي بين يديه ساعة ومن خلفه ساعة، فسأله فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك وأذكر الرصد فأمشي أمامك، فقال: **لو كان شيء أحببت أن تقتل دوني؟** قال: أي والذي بعثك بالحق.

وبعد هدوء الطلب حضر عبدالله بن أرقط ـ وقيل أريقط ـ وهو الذي استأجراه دليلاً إلى يثرب حيث سيسير بهما عبر طريق لا تتوقعه قريش، وأحضرت أسماء زاد الطريق وأرادت تعليقه بالرحل فلم تجد ما تربطه به فأخذت نطاقها الذي يشد ثوبها فشقته نصفين ربطت ثوبها بأحدهما وربطت الزاد بالآخر فلقبت بذات النطاقين.

وقدم أبو بكر الراحلة للنبي ﷺ وقال: اركب يا رسول الله فداك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أركب بعيراً ليس لي**، فقال أبو بكر: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: «**لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها به**» قال أبو بكر: كذا وكذا، وذكر ابن إسحاق أنه ابتاع الراحلتين بثمانمائة درهم.

❊ ❊ ❊

الطريق إلى يثرب

وقبل الانطلاق إلى المدينة وقف النبي ﷺ على الحزورة ينظر إلى مكة فقال: «**علمت أنك خير أرض الله وأحب الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**» وأخذ عبدالله بن أرقط بالركب طريق الساحل وقد ذكر أصحاب السير الطريق بمنازله ومواضعه فكان كالآتي: خرجوا من أسفل مكة ويعنون بذلك الجهة الجنوبية منها ثم توجهوا إلى الساحل أسفل من عُسْفان ثم أمَجَ ومنها إلى قُدَيد، ثم الخرّار، ثنية المَرَة ثم لِقْفَا، ثم مَدْلَجَة لِقْف ثم مَدْلَجَة مِجَاج ثم مَرْجِحَ مجاج ثم مرجح من ذي الغُضْوَينِ ثم من ذي كَشْرَ ثم الجُداجِد ثم الأجرد ثم ذا سَلَم ثم مَدْلَجَة تِعْهِنَ ثم على العبابيد ثم الفاجة ثم هبط العَرْج ثم سلك ثنية العائر على يمين ركوبة ثم بطن رئم ثم إلى قباء ونزل على بني عمرو بن عوف وكان ذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى وكانت الشمس تعتدل.

❋ ❋ ❋

أحداث في الطريق إلى يثرب

يروى عن سراقة بن مالك أنه قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ـ والمعروف عند العرب أن دية القتيل مائة ناقة ـ وقد منى سراقة نفسه بهذه الجائزة فقد كان أحد شياطين الصحراء ومن ذوي البأس والشدة قال: وبينما هو جالس في نادي قومه من بني مدلج إذ أقبل رجل منهم فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا من قصدت، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، قال: ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت منزلي وقلت لجاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها حتى

حضوري، ثم أخذت رمحي وخرجت من طرف البيت فأتيت فرسي ولحقت بالركب حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فأخرجت الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام فجعل فرسي يقرب بي حتى سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها فأهويت، ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تُخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، ثم استقسم بالأزلام فخرج الذي يكره وهنا شعر بضعفه وأن هناك قوة عليا تحميهما لذلك لجأ إلى المهادنة، فناداهما بالأمان فوقفوا قال: فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسه أن أمر محمد ﷺ سيظهر، فأخبره أن قريشاً وضعت مالاً لمن يقبض عليهما، ثم عرض عليهم الزاد فلم يأخذوا منه شيئاً وقالا: اخف عنا، ثم سأل النبي ﷺ أن يكتب له كتاب أمان فكتب له عامر بن فهيرة في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ، وورد أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسى الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وقيل: الذي كساهما طلحة بن عبيد الله وقيل: عثمان، لما ورد أن طلحة وعثمان هاجرا فيمن هاجر إلى المدينة ثم توجها إلى الشام في تجارة وكانت عودتهما يوم هاجر النبي ﷺ.

وأخبر أبو بكر البراء بن عازب عن مسير رسول الله ﷺ، قال: أخذ علينا بالرصد، فخرجنا ليلاً فأحثثنا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة، ثم رُفعت لنا صخرة فأتيناها ولها شيء من ظل، قال: ففرشت لرسول الله ﷺ فروة معي، ثم اضطجع عليها النبي ﷺ، فانطلقت أنفض ماحوله، فإذا أنا براع قد أقبل في غنمه يريد الصخرة مثل الذي أردناه، فسألته لمن أنت يا غلام؟ فقال: أنا لفلان، فقلت له: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، فقلت له: هل أنت حالب؟ قال: نعم، فأخذ شاة من غنمه، فقلت له: انفض الضرع، قال: فحلب كثبة من لبن ومعي إداوة من ماء عليها خرقة قد روّأتها لرسول الله ﷺ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، ثم أتيت

رسول الله ﷺ فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت، ثم ارتحلنا والطلب في إثرنا.

وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه ما يردهم إلا حر الظهيرة.

❋ ❋ ❋

علي يؤدي الأمانات

أمر النبي ﷺ علياً بأن ينام في فراشه، وغطاه ببردته الخضراء وطمأنه بأنهم لن يصلوا إليه بأذى، وكان غرض استبقاء علي لأمرين، الأول: للتمويه، فيظن المحاصرون للدار أن النبي ﷺ لا يزال في فراشه نائماً، فلا ينتبهون إلى خروجه وتتاح له الفرصة ليصل إلى مخبئه في الغار، والثاني: لرد الودائع والأمانات لأصحابها، فإن كثيراً من أهل مكة مسلمهم وغير مسلمهم يأتمنون النبي ﷺ على أموالهم، لذلك استبقى علياً وأعطاه الأمانات وأسماء أصحابها، ولم يتعرض علي للأذى من كفار مكة لأنهم يبحثون عن النبي ﷺ حيث صعقوا وذهلوا حين لم يجدوه، وقد ظنوه في قبضتهم فجن جنونهم وراحوا يبحثون عنه في كل مكان، وأدى علي الأمانات لأهلها وبعد ثلاثة أيام لحق بالنبي ﷺ إلى المدينة.

❋ ❋ ❋

أسماء بنت أبي بكر

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا أين أبوك يا بنة أبي بكر؟ فقالت: لا أدري والله أين أبي، فرفع أبو جهل يده فلطمها على خدها فأسقط قرطها من أذنها ثم انصرفوا، وقالت:

لقد احتمل أبي كل ماله وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فجاء أبوه أبو قحافة فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت كلا يا أبه إنه قد ترك خيراً كثيراً، فأخذت أحجاراً ووضعتها في كوة كان أبو بكر يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً ـ وكان نظر أبي قحافة ضعيفاً ـ ثم وضع يده عليها فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ، قالت لا والله ما ترك لنا شيئاً وإنما أردت أن أسكّن الشيخ.

❊ ❊ ❊

خبر أم معبد

وفي الطريق مر الركب على خيمة أم معبد ونزلوا عندها ـ رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق، وعامر بن فهيرة والدليل عبدالله بن أرقط ـ واسم أم معبد عاتكة بنت خلف، وأرادوا منها القرى، فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل ـ لم تلد وليس فيها حليب ـ فدعا رسول الله ﷺ ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده ودعا الله وحلب في العس حتى أرغى، وقال: «**اشربي يا أم معبد**» فقالت: اشرب فأنت أحق به، فرده عليها فشربت، ثم دعا بحائل أخرى ففعل مثل ذلك بها فشربه، ثم دعا بحائل أخرى ففعل مثل ذلك فسقى دليله وسقى أبا بكر وعامر بن فهيرة، وفي رواية، فلما نزلا بخيمة أم معبد، قالت: إني أرى وجوهاً حساناً وإن الحي أقوى على كرامتكم مني، فلما أمسوا عندها بعثت مع ابن لها صغير بشفرة وشاة، فقال رسول الله ﷺ: «**أُردد الشفرة وهات لنا فرقاً**» ـ قدحاً ـ فأرسلت إليه أن لا لبن فيها ولا ولد، قال: «**هات لنا فرقاً**» فجاءت بفرق فضرب ظهرها فاجترت ودرت فحلب وملأ القدح فشرب وسقى أبا بكر ثم حلب فبعث فيه إلى أم معبد.

وعند البيهقي: أن رسول الله ﷺ وصحبه مروا بخيمتي أم معبد، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي، فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك،

وقالت لو عندنا شيء ما أعوزكم القِرى، وإذا القوم مرملون مسنتون ـ أي كانت سنتهم ممحلة وقد بلغوا منها الجهد ـ فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كسر خيمتها، فقال: «**ما هذه الشاة يا أم معبد؟** قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: «**فهل بها من لبن؟** قالت: هي أجهد من ذلك، قال: **أتأذنين لي أن أحلبها؟** قالت: إن كان بها حليب فاحلبها، فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ومسح ضرعها ثم دعا بإناء لها يربض الرهط ـ يكفي الجماعة ـ فحلب فيه ثجاً حتى ملأه فسقاها وسقى أصحابه حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال: «**ساقي القوم آخرهم**» ثم حلب فيه ثانية وتركه لها ثم ارتحل، فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً هزلى لا نقي ـ لا مخ في العظام ـ بهن مخهن قليل فلما رأى اللبن عجب، وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوبة في البيت والشاة حائل؟ فكلمته عن رجل مبارك مر بهذا المكان وكان من أمره كيت وكيت، فقال: صفيه لي، فو الله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب.

وروي أنها كانت تسمي رسول الله ﷺ بالمبارك، وقد بارك الله بغنمها فكثرت حتى جلبت جلباً إلى المدينة فمر أبو بكر فرأى ابنها فعرفه فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك فقامت إليه فقالت: يا عبدالله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، قالت: فأدخلني عليه، فأدخلها فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها، وفي رواية: وأهدت إلى رسول الله ﷺ شيئاً من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: وأسلمت.

❊ ❊ ❊

على أبواب المدينة

قال في السيرة: وفي اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت فكان أول من رأى ـ ركبه ـ رجل من اليهود فصرخ بأعلى

صوته يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء، فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك.

قال أنس بن مالك: إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، قال: حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، فكمنا في بعض خراب المدينة ثم بعثا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو، أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به، يقول أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض فلم أر يومين شبيهاً بهما.

وفي الصحيحين عن أبي بكر قال: خرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد ـ يرددون هاتين العبارتين ـ فلما أصبح انطلق وذهب حيث أُمر.

وروي: أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة جعل النساء والصبيان يقولون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده ثم خرج يوم الجمعة، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك، وقد ذكر الرواة عدد الأيام ما بين أربع عشرة ليلة إلى ثماني عشرة إلى اثنتين وعشرين، فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف

فصلاها في المسجد الذي ببطن الوادي ـ وادي رانوناء ـ فكان أول جمعة صلاها بالمدينة، وذكر أنه قال فيها: «**الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلةٍ من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة وقرب من الأجل ...**».

وقد مدح الله تعالى مسجد قباء، المسجد الذي أسس على التقوى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ وروي في الصحيح أن النبي ﷺ أتى الأنصار في مسجد قباء فقال: «**إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟**» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وفي رواية أخرى قالوا: كنا نتبع الحجارة بالماء، فقال: «**هو ذاك فعليكموه**» وقد ورد أن «**الصلاة في مسجد قباء كعمرة**» في الأجر وورد أن الذي حدد اتجاه قبلته جبريل عليه السلام، فلما خرج من قباء تجاه المدينة؛ أتاه رجال من بني سالم فقالوا: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، فقال: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» يعني ناقته ـ فانطلقت حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه بنو بياضة وقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه رجال منهم، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والمنعة، قال: **خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» فخلوا سبيلها فانطلقت حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» فخلوا سبيلها حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار ـ وهم أخواله ـ اعترضه رجال من بني النجار، فقالوا: يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» فخلوا سبيلها فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في مربد

لغلامين يتيمين - وهو مكان باب المسجد النبوي فيما بعد - من بني مالك ابن النجار، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكان في حجر معاذ بن عفراء، وروي أنهما كانا في حجر أسعد بن زرارة.

وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف فمشوا حول ناقته، لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة محبة لمقدم رسول الله ﷺ، كل يريد أن يقودها، فكان يقول: «**دعوها فإنها مأمورة فإنما أنزل حيث أنزلني الله**» قال ابن إسحاق: لما بركت الناقة برسول الله ﷺ لم ينزل عنها حتى وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن يزيد رحله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً، فأمر رسول الله ﷺ أن يبنى، ونزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون من المهاجرين والأنصار.

عن أنس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما دخلنا جاء الأنصار برجالها ونسائها، فقالوا: إلينا يا رسول الله، فقال: «**دعوا الناقة فإنها مأمورة**» فبركت على باب أبي أيوب فخرجت جوارٍ من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقال: « **أتحبونني؟** فقالوا: أي والله يا رسول الله، فقال: «**وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم**» حديث خرجه الحاكم في مستدركه، وفي رواية أخرى عن أنس قال: مر النبي ﷺ بحي من بني النجار وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن: وذكر البيت السابق، فقال رسول الله ﷺ: «**يعلم الله أن قلبي يحبكم**» رواه ابن ماجه،

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت قال من عرس - فقام النبي ﷺ فقال: «**اللَّهم أنتم من أحب الناس إلي**» قالها ثلاثاً.

وهكذا وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً سالماً وقد استقبل فيها بالحب والحفاوة والتكريم كل يريده وكل يدعوه للإقامة عنده في العز والمنعة؛ يبذلون دونه الأرواح والدماء، لقد آمن هؤلاء الأنصار إيماناً راسخاً قوياً كرسوخ الجبال أو أشد، في فترة زمنية قليلة، فأين هؤلاء من كفار مكة بلد النبي ﷺ ومسقط رأسه الذين جفوه وآذوه وآذوا أصحابه ثم تآمروا عليه وبيتوا قتله، مكث بينهم ثلاث عشرة سنة يعظهم ويقرأ عليهم القرآن وينبئهم بالمغيبات عن طريق الوحي، ورغم هذا فهم معاندون مجادلون مقاطعون، لقد نزل معظم القرآن بمكة وسمعوا أغلبه فأخذ عليهم - بما فيه من سر البلاغة والفصاحة - لبهم ولكن قلوبهم ظلت كالصخر الأصم لا ينفع معه نصح ولا تذكير ولا تخويف، لقد نزل بمكة ست وثمانون سورة من أصل مائة وأربع عشرة سورة هي سور القرآن الكريم، فيها التوحيد والوعد والوعيد؛ والبشارة والنذارة والتخويف؛ وذكر غابر الأمم وما مر بهم وما لاقى أهل الجحود والصدود؛ والمتكبرون أمثال فرعون ونمروذ وقوم نوح وقوم عاد وصالح، فغلف الران قلوبهم إلا نخبة منهم عرفوا الحق فاتبعوه، وتحملوا أذى قومهم فهاجروا إلى الحبشة اتقاء شرهم، ثم تركوا الديار خائفين وجلين في هجرة إلى إخوانهم الأنصار بالمدينة فجعل الله لهم بهم سنداً وناصراً، فأبدلهم الله دار هجرة فيها الخير والاطمئنان إلى أداء العبادة ريثما يفتح الله بينهم وبين قومهم بالحق، والله خير الفاتحين.

❋ ❋ ❋

النبي ﷺ في المدينة

استقر النبي ﷺ بادئ الأمر في دار أبي أيوب حيث بركت الناقة عند بابه، ويذكر أبو أيوب الأيام التي سعد فيها بضيافة النبي ﷺ، فيقول: لما

نزل رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «**يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت**» فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن، ثم يقول أبو أيوب: فلقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب ننشف الماء بقطيفة ما لنا لحاف غيرها تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه، وقال: كنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا رد علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً ـ أو ثوماً ـ فرده رسول الله ﷺ فلم أر ليده فيه أثراً، قال: فجئته فزعاً فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال: «**إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي فأما أنتم فكلوه**» قال: فأكلناه ولم نضع له تلك الشجرة بعد، وفي رواية أن النبي ﷺ قبل مبادلة أبي أيوب فانتقل إلى أعلى البيت ونزل أبو أيوب إلى أسفله، فلما صنع له طعاماً فيه الثوم ولم يأكل منه النبي ﷺ فزع أبو أيوب وصعد إليه، فقال: أحرام؟ فقال: «**لا ولكني أكرهه**» قال أبو أيوب: فإني أكره ما تكره، وكان النبي ﷺ يأتيه الملك، وهذه رواية مسلم، وروي عن زيد بن ثابت أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن، وقلت لرسول الله ﷺ: أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال: «**بارك الله فيك**» ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد ولحم، وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ عدد ممن يحملون الطعام يتناوبون كل يقدم ما عنده، وكان مقامه في دار أبي أيوب سبعة أشهر إلى أن أنهى بناء مسجده ومساكنه، وقد بعث ـ وهو في دار أبي أيوب ـ مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم لكي يجيئا بفاطمة وأم كلثوم وزوجه سودة وأسامة بن زيد، فقدما بهم وجاء أيضاً معهما أم أيمن امرأة زيد بن حارثة وعيال أبي بكر وفيهم عائشة، وقد نال أبو أيوب شرف مقام

النبي ﷺ في داره التي اختارها الله لنبيه مع كونها صغيرة وأن كثيراً من أصحاب الدور الكبيرة ـ كما مر ـ عرضوا على النبي ﷺ النزول في العدد والعدة والمنعة، وقد ورد في الحديث النبوي الذي أخرجه البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير**» فقال سعد بن عبادة: ما أرى النبي ﷺ إلا قد فضل علينا، فقيل: قد فضلكم على كثير، وفي رواية مسلم أن سعد بن عبادة أدرك رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً؟ قال: «**أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الأخيار**» وقد ثبت لجميع من أسلم من الأنصار الشرف والرفعة والخيرية بقوله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

❊ ❊ ❊

بناء المسجد النبوي

بركت ناقة رسول الله ﷺ في المربد أمام بيت أبي أيوب، فسأل عن المربد لكي يشتريه ويتخذه مسجداً، فقال معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، وورد أن النبي ﷺ لم يقبل إلا بالثمن وورد أن أبا بكر دفع نيابة عن النبي ﷺ لهما عشرة دنانير وقيل أكثر فاتخذه مسجداً، فأمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد، ونزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب إلى أن انتهى بناء المسجد وبناء مساكنه عليه الصلاة والسلام، وقد عمل النبي ﷺ مع أصحابه في البناء ليرغب المسلمين في العمل وهكذا جدّ المهاجرون والأنصار في البناء حتى قال قائلهم:

لـئـن قـعـدنـا والـنـبـي يـعـمـل لَـذَاك مـنـا الـعـمـل الـمـضـلـل

وارتجز المسلمون أيضاً:

لا عـيـش إلا عـيـش الآخـرة اللّهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وكان النبي ﷺ يردد معهم هذا الرجز، وقد نشط المسلمون في إنجاز هذا العمل المهم مهاجرين وأنصاراً، وورد أن عمار بن ياسر كان يعمل بجد في الحفر ونقل اللبِن فدخل على النبي ﷺ وقال: يا رسول الله قتلوني يحملون علي ما لا يحملون، فنفض رسول الله ﷺ التراب عن رأسه وكان رجلاً جعداً وهو يقول له: «**ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية**» وورد أن علي بن أبي طالب ارتجز:

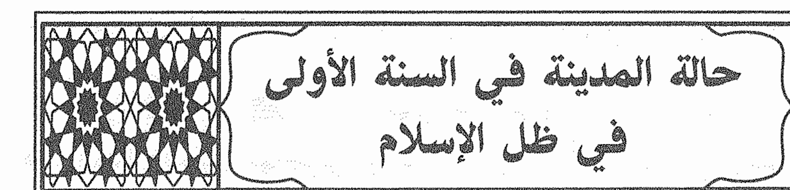
لا يستوي من يعمر المساجد يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يُرى عن الغبار حائداً

وتم بناء المسجد بعد جهود متضافرة وكان طوله مائة ذراع في مائة ذراع، لبابه عضادتان وجدرانه من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وسقفه من الخوص وسعف النخل، وهو يمنع أشعة الشمس صيفاً لكنه يَكِفُ عند هطول المطر في الشتاء، وكان النبي ﷺ يقول: «**ابنوه عريشاً كعريش موسى**» وبجانبه الشرقي حجرات رسول الله ﷺ، ولم يكن في المسجد منبر للخطبة وإنما كان النبي ﷺ إذا خطب أسند ظهره إلى جذع نخلة عند مصلاه في الحائط، والصلاة فيه تعادل ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وبعد أقل من سنتين زيد في طول المسجد.

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بني له فيها مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام أهل الحي من الأنصار، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، وبقي أفراد معدودون من الأوس أقاموا على شركهم.

❋ ❋ ❋



حالة المدينة في السنة الأولى في ظل الإسلام

أول خطبة للنبي ﷺ في المدينة

ورد أن أول خطبة كانت للنبي ﷺ في المدينة قال فيها: «أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليَدَعنَّ غنمه ليس لها راعٍ ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم».

وفي خطبة أخرى ـ وقيل هي الأولى ـ: «إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي، قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد،

والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن يُنكث عهده، والسلام عليكم» هذه روايات السيرة ويحتاج الأمر إلى تدقيق أكثر ونقاش أوفى فيما ورد.

❋ ❋ ❋

بناؤه ﷺ بعائشة

ورد أن العقد على عائشة رضي الله عنها كان في مكة قبل الهجرة بثلاث سنين وكان عمرها ست سنين وقيل سبع، وبعد الهجرة بثمانية أشهر حين بلغت التاسعة من العمر أو تجاوزتها بأشهر بنى بها ﷺ، وكان ذلك في شهر شوال، فمن المعلوم الذي اشتهر أن النبي ﷺ وصل المدينة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول وبنى بها في شوال من السنة نفسها، وتروي عائشة فتقول: خلالٌ فيَّ تسع لم تكن في أحد من النساء إلا ما آتى الله مريم بنت عمران، والله ما أقول هذا فخراً على أحد من صواحبي، قالت: نزل الملك بصورتي ـ ورد أن جبريل عليه السلام نزل بصورة عائشة على قطعة من حرير أراها رسول الله ﷺ ـ وتزوّجني رسول الله ﷺ لسبع سنين، وأهديت إليه لتسع سنين، وتزوجني بكراً لم يشركه فيَّ أحد من الناس، ونزل فيَّ آية من القرآن كادت الأمة أن تهلك ـ آية التيمم ـ ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري، وقبض في بيتي.

وكانت تقول: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال وكانت تستحب أن يُبنى بالنساء في شوال.

❋ ❋ ❋

حُمّى المدينة

تختلف منطقة المدينة المنورة عن منطقة مكة المكرمة من حيث المناخ وطبيعة الأرض ففي المدينة سهول وجبال وحرات ـ صخور بركانية تدل على أنها كانت منطقة براكين ناشطة ـ ومزارع نخيل وخضراوات، ومكة بلد جبلي شعاب جبالها كثيرة لذلك قيل في المثل: «أهل مكة أدرى بشعابها» وليس فيها زراعة تذكر وهي ذات مياه قليلة إلا ما كان فيها من بئر زمزم وموارد مياه أخرى خارج مكة تزود مكة بالماء، فطبيعة أرض المدينة الزراعية الرطبة تختلف عن طبيعة مكة الصحراوية الجافة، ولذا كانت المدينة بالنسبة لأهل مكة منطقة رطبة موبوءة لا تناسب عيشهم وإقامتهم الدائمة بينما نجد أن أهل المدينة قد تأقلموا مع هذه البيئة وعاشوا فيها دون عناء، فعندما وصل المهاجرون إلى المدينة بدت فيهم الأمراض، فقد وعك أبو بكر وبلال، قالت عائشة: دخلت عليهما فقلت: يا أبه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ فكان أبو بكر يقول إذا أخذته الحمى:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وبلال يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

ثم قالت: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «**اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة**» وقالت: قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، وكان بطحان ـ وادي ـ يجري نجلاً أي ماء آجناً، والآجن: القليل الملوث، وفي رواية أنها لما رأت حالة أبي بكر وبلال وكذلك عامر بن فهيرة، أخبرت رسول الله ﷺ وقالت إنهم من شدة الحمى يهذون، فنظر إلى السماء ودعا للمدينة: «**اللّهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، اللّهم بارك**

لنا في صاعها وفي مدها وانقل وباءها إلى مهيعة» و مهيعة: الجحفة، وأخرج البخاري أن النبي ﷺ قال: «**رأيت كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة ـ الجحفة ـ أولتها أن وباء المدينة قد نقل إلى مهيعة**» وكان عرب الجاهلية يعرفون وباء يثرب وأنه منهك للقوة، لذلك قالوا فيما بينهم بعد صلح الحديبية: يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، لذلك أمر النبي ﷺ أصحابه أثناء أداء عمرة القضاء أن يرملوا في الأشواط الثلاثة لترى قريش قوتهم وصحة أبدانهم وهذا يغير نظرتهم في المسلمين ويغيظهم.

❊ ❊ ❊

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

أصبح المسلمون في المدينة قسمين:

أ ـ **المهاجرون**، وهم المسلمون الأوائل من أهل مكة الذين هاجروا من مكة إلى المدينة نتيجة اضطهاد المشركين لهم وتركوا ديارهم وأموالهم، ولا يمنع أن يكون قد هاجر معهم عدد ممن أسلم من غير أهل مكة.

ب ـ **الأنصار**؛ وهم أهل المدينة من الخزرج والأوس الذين أسلموا وبايعوا النبي ﷺ في العقبة على الإيواء والنصرة لإخوانهم المسلمين المهاجرين.

وقد آخى النبي ﷺ فيما بينهم من أجل تقوية الصف الداخلي وإيجاد مأوى لائق للمهاجرين بحيث يضم كل أنصاري إلى بيته رجلاً أو أسرة من المهاجرين بقوله: «**تآخوا في الله أخوين أخوين**» وتمت العملية بروح الأخوة والمحبة التي فاقت كل تصور، قال السهيلي: **آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض**، ولقد رفع القرآن الكريم من قيمة هذه المؤاخاة إلى حد التوارث بين المتآخيين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال] يقول ابن كثير في تفسيره: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال] وبعد الاستقرار وانطلاق المهاجرين إلى العمل والجهاد عاد التوارث حسب القرابة مع بقاء الأخوة والمحبة بين المسلمين ورباطهم بها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ﴾ [النساء: ٣٣] ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزل ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ قال: نسختها ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ والروايات تعددت في كتب السنة وكلها عن ابن عباس، وأخرج ابن سعد والحاكم وصححه عن الزبير ابن العوام قال: أنزل الله فينا خاصة معشر قريش ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾ وذلك أنا معشر قريش قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم فآخونا، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلاناً، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق، قال الزبير: وآخيت أنا كعب بن مالك ووارثونا ووارثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار فرجعنا إلى مواريثنا» ويعني بها: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

❋ ❋ ❋

المؤاخاة بين الأوس والخزرج

قبيلتان رئيستان في المدينة سكنتا يثرب بعد خراب سد مأرب باليمن، فهما يمانيتان، لكن وقع بينهما خصام وحروب أذكاه اليهود، فقد حالف كل من هاتين القبيلتين قبيلة من اليهود، وكان عدد أفراد الخزرج يزيد على عدد أفراد الأوس، وغالباً ما كانت الدائرة على الأوس في القتال، لكن في يوم بعاث كانت الغلبة للأوس وهزمت الخزرج، ثم جاء الإسلام وتحاجز الفريقان فقد آخى الإسلام بينهما واندثرت لفترة تلك الإحن والعداوات، غير أن اليهود الذين يعيشون على فرقة الآخرين واختلافهم منطلقين من مَثَلِهِمْ الذي يعملون على تنفيذه بدقة متناهية «فَرّقْ تَسُدْ» لم يرق لهم هذا التآخي، وورد أن شاس بن قيس ـ وهو من كبار اليهود وهو شيخ طعن في السن وكان عظيم الكفر وشديد العداوة والحسد للمسلمين ـ مر على نفر من الأوس والخزرج من أصحاب النبي ﷺ وقد جمعهم مجلس واحد يتحدثون فيه، وقد سادت الأخوة والألفة بينهم، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كانوا عليه في الجاهلية من العداوة والاقتتال، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إلى مجلسهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، ففعل، ثم هاج الشر بينهم، فتواثب رجلان من الحيين على الركب ـ أوس بن قيظي من الأوس ـ و ـ جبار بن صخر من الخزرج ـ وقالا بعد أخذٍ وَرَدٍّ بغضب: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان ونادوا السلاح .. السلاح، وكان الموعد الحرة الظاهرة، واجتمع فريق الأوس وفريق الخزرج، وقبل الالتحام بلغ ما حدث النبي ﷺ فخرج إليهم ومعه جمع من المهاجرين ووقف بين الصفين وقال: **«يا معشر المسلمين الله... الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً»**،

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم لهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله كيد عدوهم وباء بالخسران المبين، ونزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

* * *

موادعة اليهود

اليهود في الجزيرة العربية قوم وافدون؛ ليسوا من أهلها الأصليين، إنما كان مجيئهم من جراء اضطهاد الرومان لهم بعد العدوانية التي أظهروها ضد النصارى؛ الدين الجديد الذي أتى به عيسى عليه السلام، وأورد بعضهم أن لجوءهم إلى الجزيرة العربية كان من جراء عدوان بختنصر عليهم وتهجيرهم من فلسطين فانحاز جزء منهم إلى أرض العرب بينما خرج الأكثرية في هجرة قسرية إلى بابل وزعم أنهم نزلوا المدينة قبل مجيء الأوس والخزرج الذين نزحوا بعد خراب سد مأرب من اليمن، لكن واقع الحال على أرض المدينة على غير هذا الزعم لأن الأرض الخصبة والزراعية كانت بأيدي الأوس والخزرج، وأن اليهود كانوا يعيشون في حصون تحميهم لإحساسهم بأنهم غرباء دخلاء على المنطقة، فبنوا الحصون لحماية أنفسهم ثم تسللوا إلى المجتمع وهم يحملون سياسة فرق تسد والمال للسيطرة عن طريق الإقراض والربا، ثم انتقوا أماكن سكناهم بعناية في المدينة وخيبر ووادي القرى، وأمام وجودهم في المجتمع المدني وتداخلهم مع قبائله

بأحلاف واتفاقات، وهم فوق كل هذا أصحاب ديانة سماوية، فكان لا بد من الاعتراف بهم كطيف مؤثر من أطياف المجتمع المدني، فاستدعى النبي ﷺ زعماءهم وكلمهم في كتابة عهد بينه وبينهم على العيش المشترك، والعمل سوياً لبناء المجتمع المدني على أساس من التعاون والحفاظ على المدينة والدفاع عنها ضد الأعداء، ونبذ الخلاف مع تمتعهم بحرية العبادة، وقد ذكر أصحاب السير نص العهد الذي ينظم هذه العلاقة، قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.. ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا تحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه**

الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محارَبين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم.. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى محمد رسول الله ﷺ» (ربعتهم: حالهم وشأنهم وعادتهم - يتعاقلون: يتعاونون في دفع الدية - عانيهم: أسيرهم - دسيعة: عطية - يبئ: يمنع ويكف - اعتبط: القتل في غير ما هو حق - القود: القصاص من القاتل - لا يوتغ: لا يهلك إلا نفسه - محدثاً: مرتكباً جناية القتل) وهكذا كانت هذه الموادعة مع اليهود قانوناً ملزماً فصل ما لهم وما عليهم، وقد التزم بها المسلمون وعمل اليهود كعادتهم على الالتفاف عليها كما سنرى في سبب قتال بني قينقاع ثم بني النضير ثم بني قريظة.

❊ ❊ ❊

قصة إسلام عبدالله بن سلام

كان عبدالله بن سلام حبراً عالماً واسمه الحصين بن سلام، وبعد إسلامه سماه رسول الله ﷺ عبدالله، قال يروي قصة إسلامه: سمعت برسول الله ﷺ، عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف - نترقب - له فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس

نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحرث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرتُ، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت، فقلت لها: أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به، فقالت: أي ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: نعم، قالت: فذاك إذاً، قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت ـ كذب وافتراء ـ وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني، فأدخله رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم: «أي رجل الحصين ابن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم ابن سلام وقال لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحرث فحسن إسلامها.



الأذان

واجهت المسلمين بعد إتمام بناء المسجد النبوي مشكلة في طريقة التبليغ التي تجمعهم للصلاة في وقت واحد؛ لكل وقت من الأوقات الخمسة، وكانوا يجتمعون وفق التوقيت بلا إعلام مما يجعل مجيئهم متفاوتاً وفق اجتهاد كل واحد منهم، وطرحت المشكلة على المسلمين فقال قائل:

نستخدم البوق كما يفعل اليهود، والنبي ﷺ لا يحب موافقة أهل الكتاب في مثل هذه الأمور الدينية التي تحتاج للمفارقة وخصوصية الدين الإسلامي في إقامة شعائره وتميزها عن الآخرين، وإشعار المسلم بشخصيته المتفردة؛ خصوصاً وأن أهل الكتاب قد انحرفوا عن نهج شريعتهم باجتهادات وأهواء لم يعد من المسلم به أنها من الدين الذي جاء به أنبياؤهم، فتقليدهم معناه الاعتراف بما أحدثوه وابتدعوه من جهة؛ وإلى جر المسلمين إلى الانحراف وفتح بابه في هذا الدين الفتي من جهة أخرى، وحتى يسلم أمر المسلمين ينبغي لهم التفرد والتميز وإتاحة الفرصة للمواهب وحث الفكر للعبقرية الإسلامية في الإبداع وعدم تعطيل الفكر في التقليد وأخذ الفكر الجاهز من غيرنا، وفي هذا إنقاص ودعوة للخمول، لذلك لم يقر النبي ﷺ من أتى في هذا الموضوع بفكرة مسبوقة كالبوق والناقوس وإشعال النار، وتركهم يفكرون بما هو أسمى من ذلك لأن هذا الأمر سيكون شعاراً أبدياً للمسلمين إلى قيام الساعة، وفي ليلة ساجية هادئة أجلي من سمائها الشياطين ورفرفت فيها الملائكة فملأت دروبها وبسطت فوق الأرض أجنحتها؛ رأى عبدالله بن زيد بن ثعلبة من الخزرج النداء، فأتى مبكراً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبدالله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: ندعوا به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ، قال له: «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك**» فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: «**فللّه الحمد ـ على ذلك ـ وورد أن**

عمر بن الخطاب كان يريد أن يشتري خشبتين للناقوس فرأى في المنام لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة، فذهب عمر ليخبر النبي ﷺ بما رأى وكان قد سبقه الوحي فما راع عمر إلا وبلال يؤذن، فقال له النبي ﷺ: «قد سبقك بذلك الوحي».

❊ ❊ ❊

السرايا

عوداً على بيعة العقبة وما قاله بعد البيعة العباس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: **«لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»** فإلى ذلك الوقت كان الصبر على الأذى هو كل ما يستطيعه المسلم، وكان شعار المرحلة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعدم الرد على الطغاة إلا بالصبر وعدم المواجهة، ومرَّ من قبل كيف ضُرب أبو بكر وكذلك عمر وأبو ذر وعبدالله بن مسعود، وصبر بلال وآل ياسر على الأذى، وأن النبي ﷺ كان يتألم عندما يراهم يعذبون فلا يزيد على تقوية عزائمهم بالصبر **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»** لكن لما غيرت قريش سياستها من عملية الإيذاء والتنكيل؛ أو المقاطعة إلى سياسة القتل والاجتثاث، وظهر هذا فيما خططت له في دار الندوة من قتل النبي ﷺ، كان لا بد من ردة فعل للمسلمين مناسبة لهذا الإجراء صوناً للنفس من الإفناء، وللدين من المحو والزوال، وبالمقابل سيادة الكفر وطغيانه وعودة الأرض إلى حالك الظلام، وحكمة الله تقضي بإضاءتها بالمؤمنين، فأنزل الله الإذن بالقتال في ظرف تحسنت فيه أحوال المسلمين، ووضعوا أقدامهم على أرضية صلبة؛ في دار غير دار قريش التي كانت تسيطر عليها، فكانت أرضهم المدينة، وأعوانهم الأنصار الذين بايعوا على النصرة والجهاد، وفي هذه الحالة لم يكن المسلمون مطوقين أو محاصرين أو خاضعين للعدو من حيث سيطرة المتنفذين على القرار سياسياً واقتصادياً، وأصبح الوضع الجديد مدينة أمام مدينة، وقوة أمام

قوة، والمسافة بين الفريقين بعيدة تحتاج عند نية القتال إلى الإعداد والمسير، وفي هذه الحالة يتأهب الفريق الآخر للمقاومة واتخاذ ما يلزم للحرب كما حصل في بدر وأحد والخندق، وقد استفاد العباسيون فيما بعد من هذا التكتيك فكونوا الأتباع بعيداً عن مركز السلطة الأموية في دمشق.

قال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ - قبل بيعة العقبة - لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم]، ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم]، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف]، فهذه الآيات وأمثالها كانت تعليمات المرحلة المكية مدة ثلاث عشرة سنة من بدء الدعوة من الصبر والتحمل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوا بعضهم عن دينهم ونفوا عدداً منهم من بلادهم، فهم بين منفي عن وطنه، أو مفتون في دينه، أو معذب في أيديهم.. فلما عتت قريش على الله عزَّ وجلَّ وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة - دخولهم في الإسلام - وكذبوا نبيه ﷺ وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدّق نبيه واعتصم بدينه، أذِنَ الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية نزلت في إذنه له في الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال لمن عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج] والتمكين في الأرض يفسح المجال

للاستقرار فيها وإقامة شرع الله وفق المطلوب فلا يكدر صفوه كافر حاقد ولا منافق مندس، فينتظم أداء الصلوات في المساجد وتجمع الزكاة وتوزع على مستحقيها، ويؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلا يسمع إلا صوت الحق ونداء الحق، ويجد المسلم في جو التمكين الظفر في تطبيق الشريعة وأعواناً على الحق وأنصاراً.

❋ ❋ ❋

الإعداد النفسي والجسمي للمواجهة العسكرية

لم يكن نهاية المطاف بالنسبة للمسلمين أن يهاجروا إلى المدينة ويستقروا فيها، وإنما عليهم واجب الدعوة وتبليغ الرسالة للناس كافة وهذا يتطلب العمل الجاد وإزالة العقبات من طريقهم، فالقوم في الجزيرة العربية أهل أوثان، وقد تعمقت هذه العقيدة في القلوب وأصبح من الصعب إزالتها إلا بالدعوة التي تصحبها قوة، وكانت العقبة الكبرى قريش؛ فإذا ما دخلت في الإسلام فإن الأمر بعد ذلك سيكون أقل صعوبة في دخول بقية العرب، ومن بعدها ينطلق الإسلام إلى العالمية، وقد أعد النبي ﷺ طلائع المواجهة باختيار دقيق لإرسالهم في مهمات مواجهة مع العدو لاكتساب الخبرة والجرأة على المواجهة واستعمال السلاح، وكانت أولى الطلائع:

❋ ❋ ❋

ـ غزوة الأبواء (ودان)

هي أول غزوة خرج فيها رسول الله ﷺ يريد قريشاً وبني ضمرة فوادعته بنو ضمرة، وكان الذي وادعه مخشي بن عمرو الضمري ـ وورد مجدي ـ وكان سيدهم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق حرباً، وكان خروجه في صفر أي بعد سنة تقريباً من استقراره بالمدينة، فأقام في الأبواء قريباً من شهر أي إلى أن دخل شهر ربيع الأول، والأبواء قرية تقع

جنوبي المدينة قريباً من ينبع وبها قبر آمنة أم النبي ﷺ، وقد استعمل النبي ﷺ على المدينة سعد بن عبادة، وأما ودان فمكان قرب الأبواء بينهما ستة أميال فهي على هذا غزوة واحدة باسم ودان أو الأبواء.

❊ ❊ ❊

ـ سرية عبيدة بن الحرث

أول راية عقدها النبي ﷺ لعبيدة بن الحارث ثم أرسله في ستين أو ثمانين مقاتلاً من المهاجرين فقط إلى بطن رابغ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، وهي بناحية الجحفة فلقي جمعاً عظيماً من قريش ولم يكن بينهم قتال، لكن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي في الإسلام، وانضم إلى المسلمين في تلك الواقعة المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان وكانا مسلمين فخرجا مع الكفار وقد أضمرا اللحاق بالمسلمين عندما تسنح لهما فرصة الهرب من إسار قريش.

❊ ❊ ❊

ـ سرية حمزة بن عبد المطلب

وفيها عقد الراية لحمزة بن عبد المطلب وأرسله في ثلاثين مقاتلاً من المهاجرين إلى سِيف البحر ـ ساحل البحر ـ من ناحية العيص عند ذي المروة ليرصدوا طريق تجارة قريش إلى الشام والتقوا بركب لقريش عليهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب وكاد ينشب القتال، لكن مجدي بن عمرو حجز بين الفريقين، فانصرفوا ولم يقع بينهم قتال.

قال الواقدي: سرية حمزة في رمضان أي بعد سبعة أشهر من الهجرة وسرية عبيدة في شوال أي بعدها بشهر وعلى هذا يكون أول لواء عقده رسول الله ﷺ هو لحمزة. وأهل السير قالوا الأول أثبت، والله أعلم.

ـ غزوة بواط

خرج النبي ﷺ في شهر ربيع الأول من السنة الثانية يريد قريشاً، واستعمل السائب بن عثمان بن مظعون، وسار النبي ﷺ حتى بلغ بواط وهو جبل على أربعة برد من المدينة قريباً من ينبع، وكان في مائتي مقاتل ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص، وكان المقصد التعرض لتجارة قريش العائدة من الشام يقودها أمية بن خلف ومعه مائة رجل وألف وخمسمائة بعير، ولبث النبي ﷺ في بواط بقية شهر ربيع الثاني وبعضاً من جمادى الأولى، ولم يلق فيها أحداً، فعاد إلى المدينة.

❋ ❋ ❋

ـ غزوة العشيرة

قصد فيها رسول الله ﷺ ـ كسابقتها ـ قطع الطريق على تجارة قريش، فاستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، ثم انطلق بالمجاهدين إلى منطقة العُشَيرة، ماراً على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخبار، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن زهر، يقال لها: ذات الساق، فصلى عندها ـ فبني مسجد هناك ـ وصُنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه، فموضع أثافي القدر موجودة هناك، واستُقي له من ماء به يقال له: المُشْتَرب، ثم ارتحل رسول الله ﷺ فترك الخلائق ـ الآبار الجافة ـ بيسار وسلك شُعبة يقال لها: شعبة عبدالله وهبط يَلْيَل، ثم نزل مجتمع الضبوعة واستقى من بئرها، ثم فَرْشَ مَلَل، ثم صخيرات اليمام، ثم العشيرة من بطن ينبع، فأقام بها شهر جمادى الأولى وليالي من جمادى الثانية، وفي هذه الغزوة وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق عدواً.

وقد ورد في هذه الغزوة أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب وهو أحد أفراد هذه الغزوة: «**ما لك يا أبا تراب**» لما رأى عليه أثر التراب، ويروي علي رضي الله عنه أنه كان مع عمار بن ياسر وقد رأيا أنفاراً من بني

مذحج وهم يعملون في الحقل، فقال علي: يا أبا اليقظان هل لك أن نأتي هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون؟ قال: إن شئت، فأتيا ونظرا في عملهم ساعة ثم ضرب الله عليهما النوم فناما وما شعرا إلا برسول الله ﷺ يوقظهما، وورد أنه قال لهما أيضاً: «**ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين**» قلنا بلى يا رسول الله، قال: «**أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه** ـ ووضع يده على قرنه ـ **حتى يبل منها هذه**» وأخذ بلحية علي.

وقد ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ أطلق لقب «أبا تراب» على علي في غير هذه الواقعة وذلك لما خرج من بيته بعد خلاف مع فاطمة رضي الله عنها ونام في المسجد فذهب إليه رسول الله ﷺ فأيقظه وقد رأى على جنبه أثر التراب فقال له: «**قم يا أبا تراب**» وهذا أثبت إلا إذا تعدد الموقف.

❊ ❊ ❊

ـ سرية سعد بن أبي وقاص

سرية صغيرة أرسلها رسول الله ﷺ بقيادة سعد بن أبي وقاص في ثمانية أفراد من المهاجرين كانت وجهتها إلى الخرّار، فمكث مدة لكنه لم يواجه ما يمكن أن يتعرض له لقريش فعاد.

❊ ❊ ❊

ـ غزوة سفوان

بعد عودة النبي ﷺ من غزوة العشيرة مكث في المدينة أياماً دون العشرة وإذا بكرز بن جابر الفهري يغير على سرح المدينة ـ مكان ترعى فيه الإبل والمواشي والأغنام ـ وهو مكان ببطن وادي العقيق، فجاء الصريخ إلى المدينة فخرج رسول الله ﷺ في طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة،

فبلغ وادي سفوان قرب بدر ولم يدرك كرزاً، وهي غزوة بدر الأولى، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فأقام بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان.

❊ ❊ ❊

ـ سرية عبدالله بن جحش

وبعد عودته ﷺ من سفوان بعث عبدالله بن جحش في سرية ومعه ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، وأن لا يستكره من أصحابه أحداً على المسير معه بعد أن يعرفوا الهدف المقصود، وهم: أبو حذيفة بن ربيعة، وعكاشة بن محصن، وعتبة بن غزوان، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله، وخالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء، فلما ساربهم مسيرة يومين نظر في الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارهم» ثم أخبر أصحابه بوجهتهم وخيرهم كما أوصاه رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: أما أنا فسأمضي لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معهم أصحابه لم يتخلف منهم أحد، حتى إذا كان بمنطقة بحران أضل سعد وعتبة بعيراً لهما كانا يتناوبان ركوبه، فتخلفا عليه وهم في طلبه، ومضى عبدالله حتى نزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً ـ جلود ـ وتجارة من تجارة قريش وكان فيها عمرو بن الحضرمي، فنزلوا قريباً منهم، فتقدم إليهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا عُمّار لا بأس عليكم منهم، وتشاور عبدالله مع رهطه فيهم، وقالوا: إذا تأخرنا سيدخلون الحرم غداً ويمتنعون منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام وقرروا مهاجمة القافلة والاستيلاء عليها فرمى واقد بن عبدالله عمرو الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، وأفلت منهم نوفل بن عبدالله، وقدم عبدالله بن جحش وأصحابه إلى المدينة ومعهم الأسيران والغنائم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»

وأبى أن يأخذ من الغنيمة شيئاً، وخاف عبدالله ومجموعته الهلكة لهذه المخالفة، وعنفهم إخوانهم المسلمون لما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، ورد المسلمون في مكة أن الذي حدث كان في شعبان، وفرح اليهود بما حدث، وأنزل الله تعالى قرآناً بهذه الحادثة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧] والمعنى أنكم إذا قتلتم الكفار في الشهر الحرام فهم فعلوا أفظع من ذلك، لقد أخرجوكم من المسجد الحرام وصدوكم عن الإيمان وأكرهوكم على الكفر وآذوكم وعذبوكم وفتنوكم عن دينكم والفتنة هذه أشد من القتل، وهم يدّعون للشهر حرمته ففعلهم يكذب دعواهم، لقد خالفوا كل الأعراف والحرمات ولا يزالون حتى الآن يعدون لقتالكم وإطفاء نور الإيمان في قلوبكم ولو استطاعوا لنفذوا فيكم كل قبيح من القتل والصد والتنكيل.

وقبل النبي ﷺ أخذ الخمس من الغنيمة وفادى الأسيرين، حيث بعثت قريش بالفداء، وانتظر النبي ﷺ فلم يقبل الفداء حتى عاد كل من سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، فقبض الفداء، هذا وقد أسلم أحد الأسيرين وهو الحكم بن كيسان، وعاد الآخر وهو عثمان بن عبدالله ومات مشركاً فيما بعد، وكانت هذه الغزوة باكورة الغزوات التي كان فيها من الكفار قتل وأسر وغنيمة.



القبلة والتحول عن بيت المقدس

توحيداً لقلوب المؤمنين واتجاههم أقام الله لهم قبلة يتجهون إليها وهي ـ منذ عهد إبراهيم ـ الكعبة التي بناها بأمر الله، ثم أضحت بيت المقدس في

عهد أنبياء بني إسرائيل، واتجه النصارى في قبلتهم إلى المشرق، وكان النبي ﷺ في مكة يجمع في صلاته بين الاتجاه إلى الكعبة وبيت المقدس حيث كان يصلي ما بين الركن اليماني والحجر الأسود، ولما هاجر إلى المدينة لم يعد بالإمكان جمع القبلتين معاً فاتجه إلى بيت المقدس وهو في شوق إلى الكعبة والاتجاه إليها في صلاته وهي أدعى إلى جمع العرب حيث لها المكانة والتقديس وهم في جاهليتهم، وقد بين الله تعالى حالة هذا الشوق عند نبيه ﷺ، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة]، فكان الأمر بتحويل القبلة في شعبان من السنة الثانية للهجرة أي بعد ثمانية عشر شهراً من مقدم النبي ﷺ إلى المدينة.

❋ ❋ ❋

غزوة بدر

بعد الاستعداد النفسي والتحرك بمجموعات صغيرة للصدام مع قريش من أجل كسر حاجز الرهبة من قريش، خلال سنة تقريباً من جولات السرايا في محيط المدينة وقريباً من مكة بينما لم يكن لقريش ردة فعل تذكر، وبهذا الإعداد جاء دور التصدي الأكبر لتحطيم جبروت قريش وما اقترفته بحق المنلمين، فقد علم النبي ﷺ بقدوم قافلة لقريش من الشام بقيادة أبي سفيان وهي محملة بالبضائع وفيها جل تجارة قريش، فندب المسلمين للخروج معه للأستيلاء على هذه القافلة، فقال: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**» فخرج معه جمع من المسلمين، وكان خروج النبي ﷺ من المدينة في رمضان لثمان ليال خلون منه، واستعمل فترة غيابه أبا لبابة بن المنذر على المدينة وعبدالله بن أم مكتوم على الصلاة، وأعطى اللواء لمصعب بن عمير، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ، وكان عدد جيش النبي ﷺ ٣١٧ رجلاً ومعهم سبعون جملاً، وكانوا يتعاقبون على

الجمل الواحد؛ الاثنين والثلاثة والأربعة، يركب أحدهم ويسير بقية الرفقة إلى أن يأتي الدور للثاني وهكذا، وكان معهما فرسان إحداهما للمقداد بن عمرو والثانية لمرثد الغنوي وقيل للزبير بن العوام.

كان المقصد بدر حيث المكان الذي تمر منه القافلة العائدة من الشام، حتى إذا كان قريباً منها عند بئر الروحاء أرسل بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء وهما من جهينة ليتحسسا له خبر القافلة، ثم تقدم نحو وادي ذفران، وهناك أتاه الخبر بأن قريشاً جمعت له جيشاً لحربه واستنقاذ القافلة، ووصل بسبس وعدي بدراً واستقيا من بئرها، وهناك سمعا الخبر بوصول القافلة بعد يوم أو يومين من جاريتين كانتا تنتظران القافلة، فركبا ناقتيهما وعادا ليخبرا رسول الله ﷺ.

كان قائد القافلة أبو سفيان وكان شديد الحذر منذ أن دخل الحجاز يقدم رجالاً للاستطلاع وتنصّت الأخبار، وكلما مر بمكان يسأل، ويروى أن رسول الله ﷺ أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ليتحسسا له خبر العير فنزلا عند كشْد الجهني وهو مقيم بالنخبار وراء ذي المروة على الساحل فمكثا عنده في خِباء حتى مرت القافلة ونظرا إليها من مكان مرتفع، وأرسل أبو سفيان إليه يسأله: يا كشد هل رأيت أحداً من عيون محمد؟ فأجابهم: وأنى عيون محمد بالنخبار ـ اسم هذا المكان ـ منكراً أن يكون رأى أحداً، لذلك لم يكن أبو سفيان غافلاً فكان حدسه قوياً كأنما يتوقع مفاجأة أو داهية تصيبه، فما كان يتوقف بالقافلة إلا قليلاً ثم يواصل سيره متبعاً الليل بالنهار، وقبل أن يرد بدراً تقدم يسأل فقدم على مجدي بن عمرو في بدر يسأله، فقال: يا مجدي، هل أحسستَ أحداً؟ تعلم والله ما بمكة من قرشي ولا قرشية له نش ـ نصف أوقية فضة ـ فصاعداً إلا وقد بعث به معنا، ولئن كتمتنا شأن عدونا لا يصالحك رجل من قريش ما بل بحر صوفة، فقال مجدي: والله ما رأيت أحداً أُنكره ولا بينك وبين يثرب من عدو، ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا وما كنت لأخفيه عليك إلا أني رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان فأناخا به ثم استقيا بأسقيتهما وانصرفا،

فجاء أبو سفيان مكان الراحلتين فوجد بعراً من أثرهما فقبضه وفركه فإذا فيه نوى تمر ـ وكان أهل المدينة يطعمون الإبل من نوى التمر ـ فقال: هذه والله علائف يثرب، هذه عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلا قريباً، فضرب وجه بعيره وقاد القافلة باتجاه الساحل وأخذ طريق العدوة القصوى، ومع ذلك أرسل ضمضم إلى مكة سريعاً ليستنفر أهلها لنجدته، وخرج ضمضم حتى وصل مكة وصرخ صرخات ثلاث وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث، وكان قد جدع أنف بعيره وحول رحله وشق قميصه وذلك ليعلمهم هول الحدث.

وبتدبير أبي سفيان واحترازه أفلت من الكمين وخرج بالقافلة سالماً فلما اطمأن إلى أنه خرج من دائرة الخطر أرسل إلى قريش يخبرهم بذلك ويطلب منهم العودة، غير أن أبا جهل المحب للانتقام والشر أصر على متابعة الطريق وقتال المسلمين، وقد واتته الفرصة باجتماع هذا الجيش الذي هب لنجدة أمواله وقد ملأه الغيظ من محمد وصحبه، فأراد أبو جهل أن يستغل هذه الحماسة ويضرب ضربته الانتقامية؛ فلم يستمع لنداء العودة والكف عن الحرب، ومضى قدماً في شره، لكن بعض الناس رجعوا عنه كبني زهرة وبني عدي.

علم النبي ﷺ بحشد قريش وقدومها لحربه، فجمع أصحابه وأطلعهم على عزم قريش وشاورهم في العودة إلى المدينة أو اللقاء والتصدي لقريش، فقام أبو بكر فتكلم فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ومما قال: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك فاتهب لذلك أهبته وأعدّ لذلك عدته، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى (**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون**) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ لعله اليوم منطقة القنفذة ـ لسرنا معك، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له

بخير، ثم قال: **أشيروا علي أيها الناس**، وهو يريد الأنصار لأن كل الذين كانوا من تكلموا من المهاجرين، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا إذا هوجمت المدينة، فقام سعد بن معاذ: أنا أجيب عن الأنصار كأنك يا رسول الله تريدنا، قال: **أجل**، قال: إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كل ما جئت به حق، وأعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وصِلْ من شئت واقطع من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك.

بعد الحماسة التي ظهرت من أصحاب النبي ﷺ وتوقهم لجهاد العدو والرغبة الصادقة في الجهاد والاستعداد النفسي للمواجهة، قال لهم رسول الله ﷺ: «**سيروا على بركة الله، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين** ـ العير وسلبها أو النصر على قريش ـ **والله لكأني أنظر مصارع القوم**» وقد أراهم المكان الذي سيصرع كل واحد ممن سماهم، وهنا أيقن الصحابة أن الحرب واقعة وأن العير قد نجت.

❋ ❋ ❋

في ساحة المعركة

ونزل رسول الله ﷺ وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وبعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس ليتحسسوا الماء، وقال: أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي الظريب ـ وهو تل صغير ـ فاندفعوا إلى ذلك المكان فوجدوا روايا لقريش ومعها السقاؤون، فأخذوها وأمسكوا بعدد منهم وفر الباقون، وأفلت أحد السقائين واسمه عجير فنادى قريشاً بأن أصحاب محمد قد أخذوا أسقيتكم، فماج معسكر الكفر وكرهوا ما جاء به، وبات المشركون في وجل أن يدهمهم المسلمون ليلاً فتعاهد قسم منهم أن يتحارسوا ريثما يطلع الصباح،

وقدم الفتيان الأربعة الذين أرسلهم النبي ﷺ إلى الماء ومعهم الأسقية التي غنموها والسقاة وأخذوا يستجوبونهم فتكلموا بأنهم أتباع جيش قريش، فقالوا أنتم تكذبون أنتم سقاة أبي سفيان، أين هو وأين القافلة، وضربوهم حتى أقروا أنهم من سقاة أبي سفيان وذلك تحت الضرب، وكان النبي ﷺ يصلي، فلما انتهى، قال لهم: «**إن صدقوكم ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم**» فقالوا: يخبروننا يا رسول الله أن قريشاً قد جاءت، قال رسول الله ﷺ: «**صدقوكم، خرجت قريش تمنع عيرها وخافوكم عليها**» ثم أقبل رسول الله ﷺ على السقاة، فقال: «**أين قريش ؟** قالوا: خلف هذا الكثيب الذي ترى، قال: «**كم هي؟** قالوا: كثير، قال: «**كم عددها؟**، قالوا: لا ندري، قال: «**كم ينحرون؟** قالوا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، قال: «**القوم ما بين الألف والتسعمائة**، ثم قال لهم: **من خرج من مكة؟** قالوا لم يبق أحد به طعم إلا خرج، فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه وقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**» ثم قال: «**أشيروا علي في المنزل**» فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: **بل هو الرأي والحرب والمكيدة**، قال الحباب: فإن هذا ليس بمنزل، انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم، فإني عالم بها وبقلبها، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه وماؤه كثير لا ينزح، ثم نبني عليها حوضاً ونقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل، ونغوّر ما سواها من القلب. فقال رسول الله ﷺ: **يا حباب أشرت بالرأي**، وتم ما أشار به الحباب، وأرسل الله مطراً خفيفاً لبّد به الأرض، وأصاب المسلمين تلك الليلة النعاس، وناموا ليلتهم، ثم إنهم بنوا للرسول ﷺ عريشاً، وأسفر الفجر وصلى المسلمون ثم صفوا واستعدوا للقاء، وقد رتبهم رسول الله ﷺ على نظام بديع ورايته مع مصعب بن عمير وكان ظهره إلى الشمس ووجوه قريش إليها، وهبت رياح النصر والرسول ﷺ يدعو الله ويذكره ويطلب منه النصر على الأعداء، وقال: «**اللَّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللَّهم نصرك الذي وعدتني اللَّهم أحنهم ـ أمتهم ـ الغداة**».

المبارزة

قبل القتال أرادت قريش أن تعرف قوة النبي ﷺ فأرسلت عمير بن وهب فطاف بمعسكر النبي ﷺ واستقل عددهم فخاف أن يكون لهم كمين فشرّق وغرّب فلم ير شيئاً فأخبر قريش بعددهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً، لكنه قال: يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضح - الإبل التي تسحب الماء من البئر - يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة إلا سيوفهم ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي، والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منا رجلاً فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خير في العيش بعد ذلك، فارتؤوا رأيكم.

ثم أرسلوا أبا أسامة الجشمي، ففعل مثل الأول، ورأى أن القوم مستعدون للموت، وقام بعد ذلك صاحب الجمل الأحمر وهو عتبة بن ربيعة ونادى بالناس من قريش: يا قوم أطيعوني ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، واعصبوا هذا الأمر برأسي، واجعلوا جبنها بي، فإن منهم رجالاً قرابتهم قريبة، ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينهم شحناء وأضغاناً، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم مع أني لا آمن أن تكون الدائرة عليكم وأنتم لا تطلبون إلا دم هذا الرجل والعير التي أصاب، وأنا أحتمل ذلك وهو علي يا قوم .. لا تردوا نصيحتي ولا تسفهوا رأيي، فانبرى له أبو جهل يسفه رأيه ويتهمه بالجبن وأنه يكره أن يُقتل أو يُقتل ابنه الذي هو مع المسلمين - وابنه هو أبو حذيفة -.

وأصر القوم على القتال لأن أبا جهل يريد ذلك ويعدُّ نفسه سيدهم ولم يدر أنه يسعى إلى حتفه، ثم تصاف الفريقان وأصبح القتال وشيكاً، وجاء الأمر من النبي ﷺ - وهو في العريش يدعو ربه - **لا تقاتلوا حتى أُوذنكم وإن كثبوكم** - اقتربوا منكم - **فارموهم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم** - يختلطوا بكم - فقال أبو بكر: يا رسول الله قد دنا القوم وقد نالوا منا، فاستيقظ رسول الله ﷺ، وقد أراه الله إياهم في منامه وهم قليل وهو يدعو الله أن ينصره، ولما تقاربوا أكثر خرج من بين المشركين الأسود بن

عبد الأسد وأقسم أن يشرب من الحوض وأن يهدمه فاستقبله حمزة فضربه فأطار قدمه فزحف حتى وقع في الحوض وشرب منه ثم أجهز حمزة عليه وقتله، وهنا خرج عتبة وشيبة والوليد بن عتبة من بين صف المشركين لكي يرى أبو جهل بطولتهم وطلبوا المبارزة، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، قال عتبة أخرجوا لنا أكفاءنا، فأمر رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، وبدأت المبارزة فقَتل حمزةُ عتبةَ وقتَلَ عليٌّ الوليدَ واختلف كل من عبيدة وشيبة ضربتين أصاب كل منهم الآخر ثم أجهز حمزة وعلي على شيبة واحتملا عبيدة جريحاً حيث توفي فيما بعد، وكان بعد هذا الالتحام، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**» وصبر المسلمون في القتال والتزموا بما عاهدُوا الله ورسوله عليه، وأمد الله المسلمين بالملائكة فثبّتوا الذين آمنوا وانجلت المعركة عن نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة منكرة للمشركين، فقُتِل منهم سبعون وأُسر سبعون، وكان معظم قتلى المشركين من رؤوس الضلال وعلى رأسهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وزمعة بن الأسود، ونوفل بن خويلد، واستشهد من المسلمين أربعة عشر.

❊ ❊ ❊

غزوة بدر في القرآن الكريم

أولى معارك الإسلام الخالدة التي وضعت حداً لغطرسة قريش ورفعت من معنويات المسلمين حيث شفت صدورهم مما فعلت بهم قريش من إيذاء وتنكيل وقهر وصد عن سبيل الله، لقد خرجت قريش بعديدها وخيلها وخيلائها وفي نيتها استئصال المسلمين والقضاء على الإسلام وكان هذا ظاهراً في تصريحات أبي جهل وأضرابه، وكانت قريش تتيه على المسلمين بمالها وجبروتها وسلطانها وعلاقاتها مع القبائل، وتؤثر بهذا على بقية العرب فيهابون منها الدخول في الإسلام، وبعضهم كان ينتظر ما تسفر عنه الحالة

بين قريش والمسلمين، فكانت غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها يعد قاصمة الظهر لقريش، وفيه اهتزاز لمكانتها أمام العرب وسقوطها بشكل مهين، كما أدى هذا الانتصار إلى بروز المسلمين كقوة لها وزنها في المنطقة وتستوجب من الآخرين النظر في هذا الدين وما أحدثه من قوة في نفوس أتباعه وتغيير نمط حياتهم إلى الرقي الفكري والعمل وفق قانون الحق والعدل الإلهي.

لقد استأثرت هذه الغزوة بصدر سورة الأنفال حتى لقد ذكرتها بشيء من التفصيل وذلك للأهمية البالغة لهذه الغزوة، وللرد مستقبلاً على من يقلل من شأن هذه الغزوة على اعتبار عدد الحشد من الفريقين وعدد القتلى إذا ما قيست بالمعارك التاريخية الكبيرة، ولو علم هؤلاء أن قيمة المعارك ليست بضخامتها وكثرة حشودها، وإنما بما تحدثه من أثر في تغيير مجرى التاريخ وبما يكون لها من نتائج على المدى البعيد، فالمعارك التي تسقط دولاً أو تبرز دولاً هي المعارك المهمة في التاريخ، أما التي ليست لها نتائج مهمة فإنها تتلاشى مهما عظمت أو كثر حشدها، ونحن المسلمين لنا آلاف المعارك عبر التاريخ ولكن البارز منها الذي أحدث تغييراً في مجرى التاريخ معدود، مثل: اليرموك فتحت باب تقويض دولة الروم في الشام، والقادسية قوضت الدولة الفارسية ووادي لكة والزلاقة وحطين وعين جالوت ..

قال الله تعالى بعد ذكر الأنفال وصفات المؤمنين: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال] القرآن كتاب الله وهو الحق ولا ينطق إلا بالحق، لقد قدمتُ خبر الغزوة كما وردت في السيرة، والقرآن هنا يدخل إلى أغوار القلوب فيظهر ما خفي منها عن عين الناظر وأذن السامع، أظهر القرآن أن فريقاً من المؤمنين كان كارهاً للخروج ولقاء العدو خصوصاً بعد أن فاتت العير وكانت سهلة المنال لقلة عدد حراسها والمدافعين عنها، وأصبحت المعركة مع جيش يفوقهم عدداً وعدة والآيات تفسر نفسها بنفسها ولا يخفى

الحال على من تلاها بتمعن ليدرك حالة المسلمين النفسية وما انتابهم من وجل عندما أصبحوا أمام الأمر الواقع وهو القتال الذي لا بد منه، وكلمة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ أي: في القتال، وقد وعدكم الله الظفر بإحدى الطائفتين، العير وحيازتها، أو الظفر في قتال قريش، ولكن كانت قلوبكم مع الأسهل والأكثر مالاً، مع الفوز بالعير، وقد روى أبو أيوب أن النبي ﷺ بعد أن رغبهم في الغنيمة من العير التي عادت من الشام بقيادة أبي سفيان ونفروا معه، ساروا أكثر من يومين، تبين للنبي ﷺ أن العير قد فاتتهم وأن قريشاً قد خرجت لقتال المسلمين، أمرهم النبي ﷺ أن يتعادّوا، فقالوا: ثلاثمائة وثلاثة عشر، فقال: «**فسر بذلك وحمد الله**» وقال: «**عدة أصحاب طالوت**، فقال: «**ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟** فقلنا: يا رسول الله لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم قال: «**ما ترون في قتال القوم؟** فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد ـ على ما ذكر في السيرة ـ معنى هذا أنهم كرهوا القتال أولاً، ثم قال الله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ وهذه صورة لاستغاثة النبي ﷺ بربه وقوله «**اللّهم إني أنشدك وعدك**» فاستجاب الله لنبيه فأمده بالملائكة، وضرب عليهم النعاس ليستريحوا من العناء، والله حارسهم ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ۝١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١٣﴾ فالله سبحانه وتعالى هيّأ لهم أسباب النصر من مدد الملائكة ولن يُهزم جيش معه الملائكة، وقد أنزل عليهم المطر بمقدار تحقيق الفائدة منه ـ التطهر به من أثر الاحتلام الذي أصاب بعضهم بعد النوم، وبه ذهاب ما بثه الشيطان لما أصابهم، وبهذا أصبحوا ذاكرين الله ومتصلين به، مع تثبيت التراب تحت أقدامهم بهذا الماء ـ وبث الله الرعب في قلوب

المشركين، وأمر الملائكة بتنفيذ أمور مهمة في مساعدة المسلمين، منها: أن يثبتوا الذين آمنوا وأن يساعدوا في ضرب المشركين فوق الأعناق وعلى الأصابع لكي لا تقوى على حمل السلاح، وفي شهود الملائكة بدر، قال ابن عباس رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**» وعن أنس قال: «كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة من قتلى الناس بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل رسم النار» وفي سورة «آل عمران» وفي معرض المن على المسلمين بنصرهم في بدر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران] وعوداً إلى سورة «الأنفال»، فبعد بيان حال المسلمين النفسية وتقويتها بدعم الملائكة، يخاطبهم عزَّ وجلَّ بالثبات عند لقاء العدو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ ثم يصف الله تعالى حال العير قافلة أبي سفيان وكيف حُجبت عن المسلمين لأن الله تعالى أراد أن تكون حرباً يذل الله فيها قريشاً ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ فكانوا قريباً من بعض، جيش النبي ﷺ وقافلة أبي سفيان، ولكن الله تعالى لم يرد أن يتم هذا اللقاء، لقد فصل بينهم جبل فحجب بعضهم عن بعض وسلمت القافلة، وكان الامتحان للمسلمين بالمواجهة الحربية وشدة البأس لأن أمامهم حياة جهادية طويلة يجب أن يكونوا في

تمام الاستعداد لها لأنهم الصفوة المختارة من الذين صمدوا مع الرسول ﷺ بمكة وهم المهاجرون والأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ في مدينتهم وتعهدوا له بالنصرة والمضي معه لتبليغ الدعوة، فهيأ الله أسباب هذه المعركة ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ ففي هذه الرؤية للنبي ﷺ تشجيع له على الإقدام فقد هون له من شأن قريش، ويبقى الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين لكي يبث فيهم الإقدام على المعركة، فكان هذا الأمر عندما صف الفريقان للنزال ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال] وهكذا عندما نظر المسلمون إلى جيش قريش لم يرعهم كثرتهم لأن الله تعالى أراهم قلة عددهم، وكذلك عندما نظرت قريش إلى المسلمين رأتهم قلة مقارنة بجيشهم، وهكذا كانت الحرب ونصر الله فيها عباده نصراً مؤزراً.

❋ ❋ ❋

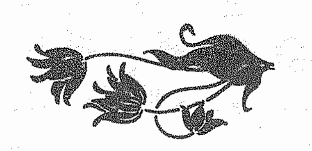
تعليمات قرآنية للمسلمين

وبعد أن عرف المسلمون فضل الله عليهم بالنصر على المشركين أرادهم أن يعوا هذا الدرس جيداً وأن يكونوا في كافة معاركهم مثال المؤمن الطائع الملتزم بأمر الله وأمر رسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هذا هو الأمر الرباني للمسلمين، الطاعة لله ورسوله وعدم الخصام والمنازعة التي تفشل الوحدة والتضامن والألفة وإذا حل الجدال والخصام في أمة أذهب الله بأسها وهيبتها وأضعف قوتها، ثم عقب بعد هذا التوجيه بأن لا يكونوا مثل قريش ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال] فيها بيان حال قريش التي تمثل

الغطرسة والكبر والتعالي بما حشدت من قوة، فقد قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً.

وقد بين الله تعالى في كتابه إصغاء قريش للشيطان الذي زين لهم الباطل فوقر عندهم أنه الحق، وشجعهم على المضي في ضلالهم وأنهم يملكون قوة لا يمكن أن تهزم ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ لقد رأى حشد الملائكة فصغر وضعف أمامهم فتخلى عن أتباعه وأعلن هزيمته، وهذه صورة تحدث في كل زمان ومكان بالنسبة لأتباع الشيطان الذين ابتعدوا عن الحق وأصغوا لوساوس الشيطان، فإن أعمالهم العدائية لا تلبث أن تتهاوى أمام أنصار الحق وجنود الإيمان.

وأطل النفاق للمرة الأولى وسلاحهم التثبيط والنقد، وهم دائبون في التجريح، فإنْ صبرَ المسلمون على الأذى يقولون: لماذا لا يقاتلون، وإن قاتلوا أعداءهم يقولون: ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، فالعدد غير متكافئ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ فمن كان إيمانه بالله قوياً ومتوكلاً عليه حق التوكل بأنْ لا ناصر إلا هو مع الأخذ بالأسباب، فإنه يكون قد استند إلى عظيم قادر عزيز لا يخذل من توكل عليه.



مواقف من خلال غزوة بدر

ـ لماذا لم يخرج عدد أكبر لغزوة بدر؟

كانت الدعوة من أجل التصدي لقافلة أبي سفيان، وظن كثير من المسلمين أن الأمر لا يعدو أن يكون مشابهاً لما سبقه من الخروج للتصدي لتجارة قريش ولم يكن الأمر ملزماً ـ كما صار فيما سيتلو من غزوات وأن التخلف عنها لغير عذر سيعد المتخلف من المنافقين ـ لذلك نجد هذا التبرير في قول سعد بن معاذ عندما تكلم باسم الأنصار، فبعد أن تكلم في المضي مع النبي ﷺ لما أمره الله وأنهم بايعوه على المنشط والمكره وقتال من شاء ومسالمة من شاء، قال: إنا قد خلّفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حباً لك منهم ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية ولو ظنوا يا رسول الله أنك ملاق عدواً ما تخلفوا، ولكن ظنوا أنها العير، وقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وقال أسيد بن الحضير عندما استقبل رسول الله ﷺ بعد عودته من غزوة بدر: يا رسول الله الحمد لله الذي ظفّرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكني ظننت أنها العير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت»، وقال عبدالله بن أنيس: حيث لحق بالمسلمين فلقي رسول الله بتربان ـ مكان

ـ وكان رسول الله ﷺ عائداً ـ يا رسول الله، الحمد لله على سلامتك وما ظفّرك، كنت يا رسول الله ليالي خرجت موروداً ـ مصاب بالحمى ـ فلم يفارقني حتى كان بالأمس فأقبلت إليك، فقال رسول الله ﷺ: «**آجرك الله**».

❋ ❋ ❋

ما حدث للأعرابي؟

لما كان النبي ﷺ بعرق الظبية وهم في طريقهم إلى بدر لقوا رجلاً من الأعراب، فسألوه عن القافلة فلم يجدوا عنده خبراً، فقالوا له: سلم على رسول الله، قال: أو فيكم رسول الله؟ قالوا: نعم: فسلم عليه ثم قال: إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه، قال له سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله وأقبلْ علي فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول الله ﷺ: «**مه أفحشت على الرجل**» ثم أعرض عن سلامة.

هذا الخبر فيه دروس عظيمة للمسلمين، منها: أنه ينبغي في وقت الجد البعد عن المزاح وأن المزاح لا ينبغي أن يكون مسفاً لهذه الدرجة بحيث يتهم هذا الأعرابي بإتيان الناقة حتى أسكته النبي ﷺ بقوله: «**مه أفحشت على الرجل**»، وأنه أساء التصرف أيضاً حيث تولى هو الإجابة والأعرابي كان يسأل النبي ﷺ، والنبي قد تعود مثل هذه الأسئلة وكان يجيب عليها بحكمته المعروفة، فكان خطأ سلامة من عدة وجوه، وكان عليه أن يدرك الموقف ويقدر الظرف الذي هم فيه حق التقدير، فالمعركة وشيكة وفيها تزهق الأرواح والموقف يتطلب الجد والالتجاء إلى الله والتقرب بالعمل الصالح لا الهذر واللغو والكلام القبيح، وكذلك الإصغاء إلى القادة وعدم التدخل والإجابة عنهم، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه، فإذا كان النبي ﷺ قد أعطى الحرية لأتباعه فليس معنى هذا أن تكون مطلقة، وإنما تقف عند حد لا يمكن تجاوزه، فكان الأولى أن يجيب على سؤال الأعرابي النبي ﷺ، ثم إن سلامة أخطأ ثانية ولم يأبه لما فعل مع

الأعرابي، فلما استُقبل رسولُ الله ﷺ في المدينة وهنأه الصحب بهذا الانتصار رد سلامة على الناس بقوله: ما الذي تهنئونا به؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائزَ صلعاً، فتبسم النبي ﷺ، وقال: «**يا بن أخي، أولئك الملأ لو رأيتَهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم**»، فقال سلمة: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، إنك يا رسول الله لم تزل مني معرضاً منذ كنا بالروحاء في بدأتنا، فقال رسول الله ﷺ: «**أمّا ما قلت للأعرابي «وقعت على ناقتك فهي حبلى منك» ففحشت وقلت ما لا علم لك به، وأمّا ما قلت في القوم، فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهّدُها**» فاعتذر إلى النبي ﷺ، فقبل منه معذرته، فكان من علية أصحاب النبي ﷺ. فيما بعد.

إن التقليل من قوة الخصم في المعركة واحتقارها هو تقليل من قوة المنتصر عليه، فإذا كان الخصم ضعيفاً فما قيمة المنتصر عليه؟ لقد نسي سلمة أن الله تعالى قد أيد نبيه تأييداً مطلقاً في هذه الغزوة وأمده بالملائكة وقذف الرعب في قلوب المشركين، وبهذا يكون ربنا قد سلمهم للمسلمين لقمة سائغة ما عليهم إلا أن يمضغوها، وإلا كيف هزمت هذه القلة في العدد والعدة هذا الجمع المستعد بهذه النتيجة؟ ثم يأتي سلامة فيقول للناس ما لقينا إلا عجائز صلعاً ونسي جبروت أبي جهل ومن كان معه، ونسي أن النبي ﷺ كان يدعو ويتضرع إلى الله أن ينصر هذه الفئة المؤمنة وأنه كان يقول: «**إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض**» وذلك لما يَعْرف من سطوة قريش.

❊ ❊ ❊

السقاة وضربهم لاستجوابهم

أرسل النبي ﷺ عدداً من الصحابة ليأتوه بخبر قريش، فوجدوا على بئر الروحاء سقاة لقريش فأخذوا الأسقية وأمسكوا بعدد منهم وأتوا بهم إلى النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يصلي، فأخذوا يسألونهم عن القافلة وهم يجيبون

أنهم مع جيش لقريش، فلم يصدقوهم وأخذوا يضربونهم إلى أن قالوا لهم ما يرضيهم أنهم مع أبي سفيان، فلما انتهى النبي ﷺ من صلاته قال لهم: «**إذا صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم**».

هذه الحادثة تبين أن الذين تولوا الاستجواب لم يكونوا على دراية به، وكانوا متأثرين بفكرة الاستيلاء على القافلة وفي ذهنهم أنه لا يوجد حدث غيرها، ولذلك كان اتجاههم في الاستجواب وفق مفهوم لا محيد عنه، يريدونهم الإقرار به، على الرغم من أن الأمر الذي طرأ أخطر من أمر القافلة إلا أنهم لم يلتفتوا إليه ومر على أذانهم دون أن يعيروه سمعهم، وكانوا سيفوتون أمراً مهماً لولا أن تداركه رسول الله ﷺ، ويفيد هذا أن على من يستجوب أن يعرف طبيعة المستجوَبين وإن كان لهم غرض في إخفاء المعلومات، فهؤلاء سقاة سذج ليسوا أصحاب مصلحة أجراء على سجيتهم فقالوا ما عندهم بعفوية، وكذلك لا ينبغي استعمال العنف في الاستجواب بل ابتداع أمور في التحقيق توصل إلى المعلومة من الخصوم، وهذا يتوقف على ذكاء المستجوِب.

❁ ❁ ❁

التورية على الأعداء

لقي النبي ﷺ رجلاً قريباً من بدر فقال له مَنْ الرجل؟ فقال الرجل بلى من أنتم؟ فقال الرسول ﷺ: «**فأخبرنا ونخبرك**»، قال: أنا سفيان الضمري ثم قال: فسلوا ما شئتم، فقال رسول الله ﷺ: «**أخبرنا عن قريش**»، قال الضمري: بلغني أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من مكة، فإن كان الذي أخبرني صادقاً فإنهم بجانب هذا الوادي، قال رسول الله ﷺ: «**فأخبرنا عن محمد وأصحابه**»، قال: خبرتُ أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صادقاً فهم بجانب هذا الوادي، قال الضمري: فمن أنتم؟ قال النبي ﷺ: «**نحن من ماء**» وأشار بيده جهة العراق، ثم انصرف.

النبي ﷺ لم يقل إلا صدقاً والإنسان مخلوق من ماء، وقد أخذ منه الأخبار التي يريدها ولم يعطه شيئاً.

❋ ❋ ❋

الحذر وإخفاء الأثر

ورد أن النبي ﷺ أرسل بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء عيناً لكي يكتشفا خبر أبي سفيان، ووصلا إلى ماء في بدر فأناخا ثم سمعا جاريتين تخبر إحداهما الأخرى عن قرب وصول قافلة أبي سفيان غداً أو بعد غد ومجدي الجهني على الماء فقال لها: صدقت، فعادا ليخبرا رسول الله ﷺ بالخبر، وأتى أبو سفيان بعد ذلك إلى المكان مستطلعاً وسأل مجدي الجهني إن كان رأى أحداً من أصحاب محمد، فأجاب بالنفي لكنه قال قد أناخ رجلان هناك، فذهب أبي سفيان وأمسك بعر الناقتين وفركها فرأى فيها نوى وهو علف أهل يثرب للإبل، فعلم أن محمداً وأصحابه قرب هذا المكان، فأسرع وغير طريقه.

في هذا الخبر يدل على غفلة من قبل بسبس وعدي، نعم لقد نجحا في أمر وأخفقا في الآخر، نجحا في معرفة خبر القافلة لكن أغفلا إزالة أثرهما أو أثر بعر ناقتيهما ولم يعيرا لهذا الأمر أهمية،وعليهما أن يعلما أنه مثلما كانا عيناً للمسلمين فإن العدو له عيون أيضاً وعليه فالعدو استفاد من هذا الأثر فائدة كبرى فغير الطريق ونجا بالقافلة.

❋ ❋ ❋

النزاع الخفي في جيش قريش

من خلال متابعة الأحداث نجد أن هناك نزاعاً بين زعماء قريش، فأبو جهل الذي يقود الناس لم يحظ بالإجماع وإنما قادهم بالتسلط والتخويف،

وكان النزاع ظاهراً بين أبي جهل وعتبة بن ربيعة مما دفع الأخير إلى طلب المبارزة هو وأخوه وابنه فراراً من الانضواء تحت قيادة أبي جهل، وقد أثر هذا الخلاف على سير المعركة والتنسيق بين زعماء قريش، إضافة إلى أن خروجهم كان بطراً ورياء، فكان الخزي والهزيمة نصيبهم.

❋ ❋ ❋

النبي ﷺ يطلب من المقاتلين عدم التعرض لأشخاص سماهم

كان هذا الطلب لفتة كريمة من النبي ﷺ، فبعض هؤلاء الأشخاص لم يشاركوا في إيذاء المسلمين بل كانوا يكرهون ما يفعله القساة من زعماء قريش، فأبو البختري بن هشام كان أحد الذين سعوا لتمزيق صحيفة المقاطعة، وعمه العباس أخرج مكرهاً، وهو مع المسلمين قلباً وقالباً، لكن خرج من بين المسلمين من اعترض على أمر رسول الله وهو من المهاجرين «أبو حذيفة بن عتبة» فقال: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف، وهذا موقف ندم عليه أبو حذيفة وربما كان خفق قلبه مع أبيه وأخيه متمنياً لهما الإسلام وكانا مع عمه شيبة من أوائل صرعى بدر في المبارزة التي جرت عند بدء المعركة، وعندما نقل قتلى المشركين وألقوا في القليب وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب فنظر رسول الله ﷺ إلى ابنه أبي حذيفة فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «**يا أبا حذيفة لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟** فقال: لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك.

❋ ❋ ❋

عودة الرسول ﷺ إلى المدينة

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة فاستقبل خير استقبال وكان معه الأسرى، وكان هناك رأي في قتلهم لكن النبي ﷺ مال إلى مفاداتهم ووزعهم بين أصحابه وقال: «**استوصوا بالأسرى خيراً**» وقد ورد أن النبي ﷺ استشار أصحابه بشأنهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس**»، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد فقال مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال]، فكان الوحي مؤيداً رأي عمر، وفيه عتاب للنبي ﷺ، ولولا أن الله قد كتب أنه سيُحل المفاداة لكان مس مَنْ قَبِل العفو عن الأسرى بالعذاب، وأنه لا يعذب على الاجتهاد فيما لم يرد به نص، وبعد هذا العتاب الشديد أحل الله ما فعلوه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال]، وفي سورة «القتال» ـ محمد ـ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ [٤].

❋ ❋ ❋

قتل عدد من الأسرى كانوا ممن آذى المسلمين

في منطقة الصفراء وفي طريق العودة إلى المدينة حتى إذا كانوا بعرق الظبية أمر النبي ﷺ أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط، فجعل عقبة يقول:

يا ويلي، علام أقتل يا معشر قريش من بين مَنْ هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعداوتك لله ورسوله»، وأراد أن يرقق قلب النبي ﷺ، فقال: من للصبية؟ فقال النبي ﷺ: **النار**، ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه، وقال: «**بئس الرجل كنتَ والله ما علمتُ كافراً بالله وبرسوله وبكتابه مؤذياً لنبيه، فأحمدُ الله الذي هو قتلك وأقر عيني منك**، ثم قال النبي ﷺ: **أتدرون ما فعل هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننتُ أن عينيّ ستندران** ـ تخرجان ـ **وجاء مرة أخرى بسلاة شاة** ـ ما يخرج منها بعد الولادة ـ **فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي**» ولما نزلوا شعب الصفراء أمر بضرب عنق النضر بن الحرث، ضرب عنقه علي بن أبي طالب، وكان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفراً وعناداً وبغياً وحسداً وهجاء للإسلام وأهله، وقد رثته أخته قتيلة:

هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنئي كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
والنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

وقد روي أن النبي ﷺ لما سمع هذه الأبيات رق لها وقال: «**لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه**».

❋ ❋ ❋

نماذج من الأسرى الذين فدوا أنفسهم

كان من بين الأسرى أبو عزيز بن عمير وهو أخو مصعب لأبيه وأمه، مر به مصعب وهو موثق عند الأنصار، فقال مصعب لأبي اليسر الذي أسره: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز:

يا أخي هذه وصايتك بي، وقد فادته أمه بأربعة آلاف درهم وهو أغلى فداء فدي به قرشي، وكان من بين الأسرى أبو وداعة بن ضبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه**» وكان أبو سفيان قد طلب التأني في فداء الأسرى كي لا يغالي المسلمون في الفداء، لكن ابن أبي وداعة تسلل إلى المدينة ودفع أربعة آلاف درهم فداء أبيه، وقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمر، وكان خطيباً يؤذي المسلمين بخطابه، فقال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ دعني أنزع ثنيتيه فلا يقوم عليك خطيباً، فقال رسول الله ﷺ: **إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه**» وقد قام خطيباً فيما بعد عندما توفي النبي ﷺ فخطب الناس وثبتهم على الدين الحنيف، وأما أبو سفيان فقد قتل ابنه حنظلة وأسر ابنه عمرو، وقال لا أفديه وأجمع علي دم ومال، فليمسكوا به ما بدا لهم، لكنه وجد مخرجاً حيث صادف أن سعد بن النعمان من الأنصار كان في مكة يؤدي العمرة فأخذه أبو سفيان رهينة مقابل ابنه مخالفاً أعراف العرب ففاداه المسلمون بابنه، وكان في الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي ﷺ، وكان نعم الزوج لها وهو ابن خالتها وكانت قريش قد طلبت منه مفارقة زوجته وتطليقها فأبى ـ بينما نجد عمه أبو لهب قد أمر ابنه عتبة أن يطلق رقية بنت النبي ﷺ فطلقها بحجة أن يشغلوا محمداً بنفسه ـ وهنا بعثت زينب بمال وفيه قلادة كانت خديجة قد أهدتها لابنتها بمناسبة زواجها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**» قالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها مالها وأخذ عليه رسول الله ﷺ أن يخلي سبيل زينب لتأتي إلى المدينة، وفادى العباس عم النبي ﷺ نفسه وابني أخويه عقيلاً ونوفلاً بمائة أوقية ذهباً، وهناك أسرى منَّ النبي ﷺ عليهم دون فداء ومنهم أبو عزة فقال: تعرف أني فقير لا مال لي وعندي بنات، فمنَّ عليه مشترطاً ألا يشارك في القتال مرة أخرى، وروي أنه شارك في أحد ثم قبض عليه وقتل لمخالفته الشرط وقال له النبي ﷺ قولته المشهورة «**كي لا تمسح عارضيك في مكة وتقول: خدعت محمداً مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**» وكان من بين

أسرى بدر وهب بن عمير وأبوه عمير بن وهب من شياطين قريش وممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة، فجلس مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصابهم في بدر يذكرون أصحاب القليب وأنه لا خير في العيش بعدهم، فقال لصفوان لولا دين عليّ وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لي فيهم علة، ابني أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان وقال له: عليّ دينك أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال عمير: فاكتم على شأني وشأنك، قال: سأفعل، وأمر عمير بشحذ سيفه مع سقايته السم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ بباب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر وهو الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: «**فأدخله عليّ**»، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها وقال لمن معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا ثم قال: أنعم صباحاً ـ وهذا سلام الجاهلية ـ فقال رسول الله ﷺ: «**قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**»، قال أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «**فما بال السيف في عنقك؟**»، قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئاً، قال: «**اصدقني ما الذي جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك، قال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله**

حائل بينك وبين ذلك»، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «**فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره»**، ثم قال: يا رسول الله كنت جاهداً في إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، وكان صفوان يأمل في أن ينجح عمير في مهمته ويمني نفسه والآخرين بحدوث شيء عظيم يقوض الإسلام، لكنه فوجئ بإسلام عمير، فأقسم ألا يكلمه ولا ينفعه، ثم قام عمير يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه عدد لا بأس به.

ومن النبي ﷺ على عدد من الأسرى دون فداء وعلى آخرين يعرفون القراءة والكتابة بتعليم المسلمين القراءة والكتابة، وهذه لفتة مهمة لقيمة المتعلم والاستفادة منه.

❋ ❋ ❋

وقع الغزوة على قريش

أما في جانب قريش فقد كانت هناك مناحات فلم يخلو بيت من مصاب في قتيل أو أسير، ولما رأى أبو سفيان ما تضج به مكة من النواح والعويل أصدر أمره بمنعه كي لا يبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم ولا ترسلوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب ـ لا يغالي ـ عليكم محمد وأصحابه في الفداء، وأقسم ألا يمس طيباً أو امرأة حتى يثأر من المسلمين، وكان الأسود بن المطلب وهو أعمى، قد أصيب له من ولده ثلاثة، زمعة وعقيل والحرث بن زمعة، وكان يحب أن يبكي على بنيه، وبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل فقال لغلام له: انظر هل أحل النحيب، هل بكت

قريش قتلاها لعلي أبكي على أبي حكيمة ـ زمعة ـ فإن جوفي قد احترق، فاستطلع له الغلام الأمر ثم عاد ليخبره أن المرأة كانت تنوح على بعير أضلته، وكان هذا تمويه منها لكي تبكي قتلاها فلا تحاسب، فعرف منها هذا، وقال:

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود

وكان أول من قدم بالخبر إلى مكة الحيسمان بن عبدالله الخزاعي، فقالوا ما وراءك؟ قال: قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم ـ أبو جهل ـ وأمية بن خلف وزمعة وأبو البختري، وجعل يعدد الكبار فظنوه يهذي، فقال صفوان بن أمية وكان جالساً في الحجر، اسألوه عني، فقالوا: وما فعل صفوان؟ قال ها هو ذاك جالساً في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا، ويروي أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، قال كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاصي بن هشام، وكذلك كانوا يصنعون لا يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً، فلما جاء الخبر عن مصاب قريش في بدر ـ وكنت في حجرة زمزم أنحت أقداحي وعندي أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاء من الخبر ـ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة، فقال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم، فقال له أبو لهب: هلم إلي فعندك لعمري الخبر، فجلس والناس يستمعون، فقال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق ـ تبقي ـ شيئاً ولا يقوم لها شيء، فقال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فوثبت إليه فاحتملني فضرب بي

الأرض ثم برك على صدري يضربني، قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود فأخذته وضربت به رأس أبي لهب فشجته شجة منكرة، وقالت استضعفته أن غاب سيده فقام مولياً ذليلاً، فما عاش بعدها إلا سبع ليال حيث ابتلي بداء العدسة وهي قرحة كالطاعون فقتلته.

❋ ❋ ❋

خروج زينب إلى المدينة

نفذ ختن رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع الوعد بإطلاق زينب لكي تهاجر إلى المدينة، وقد استعدت للهجرة وتجهزت لها، فأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال لهما: كونا ببطن يأجج - على بعد ثمانية أميال من مكة - حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها، فخرجا وذلك بعد بدر بشهر أو أكثر قليلاً، وقد أحست هند بنت عتبة بأن زينب تعد العدة للحاق بأبيها في المدينة، فقالت لها: يا بنت محمد ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك، فقالت زينب: ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عمي، لا تفعلي إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك فلا تضطني - تستحي - مني فإنه لا يدخل بين النساء خلاف الرجال، قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها، فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك، ثم أتمت تجهيز ما يلزمها وقدم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً يقود البعير وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود فروعها بالرمح وهي في هودجها، وكانت حاملاً فلما ريعت طرحت ما في بطنها وبرك كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتراجعوا عنه، وأتى أبو سفيان في جلة من قريش، فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصِب، خرجت بالمرأة

على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا أخرجت ابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة وما لنا في ذلك من ثؤرة - طلب ثأر - ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سراً وألحقها بأبيها، وكان هذا حكمة من أبي سفيان، ففعل ذلك، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً وسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ، وبقيت زينب في كنف أبيها وهي على ذمة زوجها لم تطلق منه، وخرج أبو العاص ابن الربيع في تجارة للشام بمال له ولقريش وفي العودة تعرض له المسلمون واستولوا على تجارته لكنه هرب منهم ولجأ إلى زينب، وعند صلاة الفجر بعد أن كبّر النبي ﷺ وكبّر الناس أطلت زينب من مصلى النساء وقالت: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، وبعد أن سلم رسول الله ﷺ قال: «**أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟** قالوا: نعم، قال: **أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم**» ثم انصرف ودخل على ابنته وقال لها: «**أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصنّ إليك فإنك لا تحلين له**» كان هذا بسبب اختلاف الدين، فالإسلام فرق بينهما، ثم بعث في طلب الذين أصابوا قافلته، وخيرهم بين ردها له وذلك لمكانته عند رسول الله أو أخذها على أنها فيء لهم، فردوها ما نقص منها شيء، وانطلق إلى مكة فأدى للناس حقهم وعاد وقال لهم هل بقي لكم عندي شيء؟ قالوا: لا فقد وجدناك كريماً، ثم قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا مخافتي أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل مالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج حتى لحق بالنبي ﷺ فرد عليه زينب على النكاح الأول وكان مدة الانفصال قريباً من ست سنوات.

❋ ❋ ❋

مقتل عصماء بنت مروان

كانت زوجة ليزيد بن زيد الخطمي وكانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعيب الإسلام وتحرض على النبي ﷺ قولاً وشعراً، ولما سمع عمير بن عدي الخطمي ما قالته من الشعر قال: لله علي نذر لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنها، وكان رسول الله ﷺ ببدر، فلما رجع من بدر جاءها عمير في جوف الليل فدخل بيتها ثم غرس في صدرها سيفه وهي نائمة، وعاد إلى بيته ثم حضر صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلى عمير بعد انقضاء الصلاة، فقال له: **أقتلت بنت مروان؟** قال: نعم بأبي أنت يا رسول الله، وخشي عمير أن يكون افتأت على النبي ﷺ بقتلها، فقال: هل عليّ في ذلك شيء يا رسول الله؟ قال: «**لا ينتطح فيها عنزان**» أي لن يطلب أحد بثأرها، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي**» فلما رجع عمير من عند رسول الله ﷺ إلى دياره وجد بنيها في جماعة يدفنونها، فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ فقال: نعم، فو الذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم فيومئذ ظهر الإسلام في بني خطمة ولم يعد فيهم من يستخف بالإسلام، وكان قتلها لخمس بقين من رمضان.

❊ ❊ ❊

مقتل أبي عَفَك

رجل مُلئ قلبه حقداً على الإسلام بالرغم من أنه جاوز مائة وعشرين سنة من العمر لكنه كان شديد الأذى وهو من بني عمرو بن عوف، وكان يحرّض على عداوة النبي ﷺ، وعندما عاد النبي ﷺ من بدر ظافراً حسده على ما أفاء الله عليه بهذا النصر، فقال شعراً فيه هجاء وسخرية، فقال سالم بن عمير من بني النجار: لله عليّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت

دونه، فترصده ليجد غرة له فينقض عليه، حتى إذا كانت ليلة صائفة نام فيها أبو عفك بالفناء، فأقبل سالم بن عمير فوضع السيف في كبده، وصاح أبو عفك وهرب سالم، لكنه فارق الحياة فأخذه أصحابه ودفنوه، فكان ذلك في شوال من السنة الثانية للهجرة.

❋ ❋ ❋

غزوة بني سليم بالكدر

بعد سبع ليال من وصوله ﷺ إلى المدينة، خرج في غزوة إلى بئر الكُدْر يريد بني سليم وغطفان، فلما أتاه وجد الحي خلواً فمكث ثلاث ليال لم يلق حرباً، ثم استاق النعم وفيهم غلام اسمه يسار، ولما صلوا الصبح إذا يسار يصلي معهم، وأمرهم النبي ﷺ أن يقسموا الغنائم قبل دخولهم المدينة ففعلوا وجعلوا يساراً في الخمس فأعتقه النبي ﷺ وعاد إلى المدينة وأقام فيها بقية شوال وذي القعدة.

❋ ❋ ❋

غزوة السويق

بعد هزيمة قريش في بدر نذر أبو سفيان ألا يمس النساء حتى يغزو محمداً، فأعد حملة خفيفة من مائتي رجل ليبر بقسمه، وانطلق سراً إلى المدينة، وترك رجاله عند جبل ثيب، وانطلق هو ليلاً حتى أتى حيي بن أخطب اليهودي وطرق بابه فلم يفتح له، ثم أتى دار سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير، فاستأذن عليه فأذن له وقراه ـ ضيفه ـ وأخبره خبر الناس في المدينة، ثم عاد أبو سفيان فأحضر عدداً من رجاله وهاجموا طرفاً من المدينة واحرقوا نخلاً وقتلوا رجلين ثم انصرفوا ووصل الصريخ إلى النبي ﷺ فأعد حملة مطاردة وخرج في طلب أبي سفيان حتى بلغ قرقرة الكدر، وفاتهم أبو سفيان هرباً وكان قد تخفف من أحماله ورمى ما معه من

السويق ـ دقيق القمح أو الشعير المحمص ـ وقد غنمه المسلمون ولهذا سميت بغزوة السويق، وكانت في ذي الحجة من السنة الثانية.

❊ ❊ ❊

غزوة ذي أمَر

غزا فيها منطقة نجد يريد غطفان، كان ذلك بعد عودته من غزوة السويق كان ذلك في بداية السنة الثالثة من الهجرة، فقد سمع بجموع لغطفان فبادرهم قبل تمام الاستعداد، فهربوا نحو رؤوس الجبال، وأقام النبي ﷺ بذي أمر حتى ربيع الأول ثم رجع إلى المدينة ولم يكن في هذه الغزوة قتال، لكن الواقدي زاد في هذه الغزوة: أن ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر ليغيروا على أطراف المدينة يقودهم دعثور بن الحارث بن المحارب، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ومعهم بعض الأفراس، ولما اقترب منهم رأوا رجلاً يقال له جبار بن ثعلبة، فقالوا: أين تريد؟ قال: أريد يثرب، قالوا: وما حاجتك؟ قال: أردت أن أرتاد لنفسي وأنظر، قالوا هل مررت بجمع أو بلغك خبر لقومك؟ قال: لا، إلا أنه قد بلغني أن دعثور بن الحارث في أناس من قومه عُزل، فأدخلوه على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم، ثم سار معهم يدلهم على مكان دعثور، وكان قد ارتقى بقومه رؤوس الجبال، وغيبوا فيها أنعامهم ونساءهم وأطفالهم، فعسكر المسلمون في ذي أمر مقابل القوم، وهطلت أمطار غزيرة، ثم إن النبي ﷺ ابتعد عن أصحابه وخلع ملابسه التي أصابها المطر يجففها وهو مضطجع تحت شجرة وقد علق عليها سيفه، ودعثور يراقب من الأعلى فرأى أن هذه فرصته لقتل النبي ﷺ فتسلل حتى وقف فوق رأسه شاهراً سيفه، فقال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: الله ولكزه جبريل عليه السلام في صدره فسقط سيفه، فأخذه النبي ﷺ وقال له: «**من يمنعك مني اليوم**»، قال: لا أحد، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أكثّر عليك جمعاً أبداً، فرد إليه النبي ﷺ سيفه،

وعاد إلى قومه وكانوا ينظرون فقالوا: «**ما منعك من قتله؟**» قال: نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري فوقعت، فعرفت أنه ملك فأسلمت، ودعا قومه إلى الإسلام، ونزلت فيه هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة] وذكر غير هذا في سبب نزول هذه الآية كما ذكر اسم الأعرابي بأنه غورث بن الحارث لا دعثور.

❋ ❋ ❋

غزوة الفُرُع من بُحران

خرج النبي ﷺ يريد جمعاً لبني سليم ومعه ثلاثمائة رجل من أصحابه حتى بلغ بحران وهي ناحية الفرع، فأقام بها حتى جمادى الأولى ولم يلق فيها عدواً، ثم عاد إلى المدينة.

هذه الحملات الصغيرة لكي تبقي المسلمين على أهبة الاستعداد وتكون بمثابة حماية للمدينة من أن تهاجم على حين غرة كما في غزوة السويق.

❋ ❋ ❋

غزوة بني قينقاع

بنو قينقاع قبيلة يهودية سكنت المدينة وعملت في مجال الصناعة اليدوية وصياغة الذهب والفضة ولهم سوق يقصدهم الناس لتأمين حاجتهم من الأدوات أو المصاغ، وحدث أن جمعهم النبي ﷺ في سوقهم وقال لهم: «**يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**»

قالوا: يا محمد إنك تُرى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس» وهذا التحدي استوجب رد من الله عليهم فيه تبكيت لهم وخزي لهم وهزيمة إن حاربهم المسلمون ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] وكان يجب عليكم أيها اليهود أن تعتبروا بما حل بالمشركين في بدر رغم كثرة عددهم فإنهم هزموا شر هزيمة، وورد أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك أن امرأة من البادية مسلمة قدمت بجلب لها ـ من إنتاج البادية من سمن وأقط ـ فباعته في السوق ثم جلست إلى صائغ تريد أن تشتري شيئاً من المصاغ، فجعل اليهود يراودونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها فضحكوا لذلك فصاحت مستنجدة لما حصل لها من الإهانة والسخرية بها فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فاجتمع اليهود على المسلم فقتلوه، وهكذا وقعت الفتنة، وتجهز المسلمون لعقاب اليهود على جريمتهم، فحاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه وقد قذف الله في قلوبهم الرعب، فشدوا وثاق المقاتلين، فأتى رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بن سلول فقال: يا محمد أحسن في موالي ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه، فأدخل ابن سلول يده في جيب درع رسول الله ﷺ واسمها ذات الفضول، فقال رسول الله ﷺ: «**أرسلني**»، وبدا الغضب في وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**ويحك أرسلني**»، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: **هم لك**، وفي رواية: **خلوا سبيلهم لعنه الله ولعنهم**.

قال ابن إسحاق: استعمل الرسول ﷺ بشير بن عبد المنذر في حصار

بني قينقاع الذي دام خمسة عشر يوماً، فأجلاهم عن المدينة واستلم ما في حصونهم من ذخائر ومتاع وترك لهم الذرية والنساء وإبلاً تحملهم، وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام ليستعدوا للرحيل، وجلوا إلى أذرعات بالشام وقد خرج عبادة بن الصامت في إثرهم ليتأكد من جلائهم.

هذا وقد ظهرت مواقف إيمانية من عبادة بن الصامت سجلت له، فكان له حلف مع بني قينقاع مثل الذي كان لابن سلول لكنه لم يقف موقفه بل تبرأ منهم ومن فعالهم، فذهب إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، وقد ذكر الله الموقفين في كتابه العزيز ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة] تأكيد وتشديد على وحدة الجماعة بأن يكون المسلم معهم فلا ينحرف أو يميل إلى غيرهم، وأن حزب الله هو الغالب والمنتصر وأن العدو الكافر هو المنهزم، كما أن هذه الآيات تحمل النكير على من يتولى غير المسلمين ويعتقد في هذه الموالاة الفوز والنصرة والحماية من صروف الدهر ـ كما قال رأس المنافقين: إني امرؤ أخشى الدوائر ـ وَعَدَّ القرآن الكريم هذه الموالاة ردة.

❊ ❊ ❊

قتل كعب بن الأشرف

في ربيع الأول بعد سنتين من الهجرة، وكان كعب بن الأشرف ممن يحرض على قتال المسلمين، ويؤذيهم بأشعاره شتماً وهجاء للنبي ﷺ وأصحابه وتشبيباً بالنساء، فاستفحل شره، وكان يظن أنه آمن في حصنه لا يطاله أحد، قال الواقدي: قدم النبي ﷺ المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام، فيهم أهل الحلقة والحصون، ومنهم حلفاء للحيين جميعاً الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ استصلاحهم كلهم وموادعتهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشركاً، فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذى شديداً، فأمر الله عزَّ وجلَّ نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران] وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة] وتمادى كعب في غيه ولم يردعه وازع من خلق أو عهد وزاد ذلك عندما رأى أسرى المشركين مقرنين بالقيود، فبدأ يظهر عداوته للمسلمين وينعى قتلى بدر من المشركين، ثم إنه خرج إلى مكة يواسي المشركين بشعره ويحضهم على قتال المسلمين ليكون معهم، ونزل بمكة عند أبي وداعة السهمي، فلما هجا المسلمين وبكى قتلى بدر، تصدى له حسان بن ثابت وهجاه وهجا من آواه من قريش، فقالت زوجة وداعة: ما لنا ولهذا اليهودي أخرجه من بيننا ألا ترى شعر حسان؟ فأخرج ونبذ من مكة خوفاً من هجاء حسان لمن يؤويه، وعاد إلى المدينة، ولما علم بعودته رسول الله ﷺ قال: «**اللّهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار**»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**من لي بابن الأشرف، فقد آذاني؟**» فقال محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، أنا أقتله،

قال: «**فافعل**»، ثم مكث أياماً لا يأكل، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: **تركتَ الطعام والشراب!**» فقال ابن مسلمة: يا رسول الله قلتُ لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أم لا؟ قال رسول الله ﷺ: «**عليك الجهد**»، شاوِرْ سعد بن معاذ في أمره، فاجتمع محمد بن مسلمة ونفر من الأوس منهم عباد بن بشر وأبو نائلة سلكان بن سلامة والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر، فقالوا: يا رسول الله، نحن نقتله، فأْذنْ لنا فلنقل ـ في ذم المسلمين ونبيهم ـ فإنه لا بد لنا منه، قال: «**قولوا**»، فخرج أبو نائلة إليه، فلما رآه كعب أنكر شأنه وكاد يذعر، وخاف أن يكون وراءه كمين، فقال أبو نائلة: حدثت لنا حاجة إليك، قال، وهو في نادي قومه وجماعتهم: أدنُ إلي فخبرني بحاجتك، وهو متغير اللون مرعوب ـ فكان محمد بن مسلمة وأبو نائلة أخويه من الرضاعة ـ فتحدثا ساعة وتناشدا الأشعار، وانبسط كعب وهو يقول بين ذلك حاجتك! وأبو نائلة يناشده الشعر، فقال كعب: حاجتك، لعلك أن تحب أن يقوم مَن عندنا؟ فلما سمع القوم قاموا، قال أبو نائلة: إني كرهت أن يسمع القوم ذَرْوَ ـ طرفه ـ كلامنا فيظنون، كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، وحاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وتقطعت السبل عنا حتى جهدت الأنفس وضاع العيال، أخذنا بالصدقة ولا نجد ما نأكل، فقال كعب: قد والله كنت أحدثك بهذا يا بن سلامة أن الأمر سيصير إليه، فقال أبو نائلة: ومعي رجال من أصحابي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً أو تمراً وتحسن في ذلك إلينا، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة، قال كعب: أما إن رفافي تقصف تمراً من عجوة تغيب فيها الضرس، أما والله ما كنت أحبُّ يا أبا نائلة أن أرى هذه الخصاصة بك وإن كنت من أكرم الناس علي، أنت أخي نازعتك الثدي، قال أبو نائلة: اكتم عنا ما حدثتك من ذكر محمد، قال كعب: لا أذكر منه حرفاً، ثم قال: يا أبا نائلة، اصدقني ذات نفسك، ما الذي تريدونه في أمره؟ قال: خذلانه والتنحي عنه، قال: سررتني يا أبا نائلة، فماذا ترهنونني، أبناءكم ونساءكم؟ فقال: لقد أردت أن تفضحنا وتظهر أمرنا، ولكنا نرهنك من الحلقة ما ترضى به، قال كعب: إن في الحلقة لوفاء ـ وقد أراد رهن

السلاح لكيلا يشك في أمرهم إذا دخلوا ومعهم السلاح ـ فخرج أبو نائلة من عنده على ميعاد، فأتى أصحابه فأجمعوا أن يأتوه إذا أمسى لميعاده، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه وقال لهم: «**امضوا على بركة الله وعونه**» وصلوا العشاء معه ثم مشى معهم حتى البقيع وكانت ليلة مقمرة منتصف ربيع الأول، فأتوه فناداه أبو نائلة وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس، فقالت عروسه إلى أين؟ قال: ميعاد إنما أخي أبو نائلة، ثم نزل فاستقبلهم، وتكلموا قليلاً ثم تمشوا حتى حانت فرصة منه فضربوه بأسيافهم ثم أجهز عليه محمد بن مسلمة بخنجر كان معه فسقط مضرجاً بدمه وكان قد صاح صيحة أيقظت يهود فأشعلوا نيران حصونهم وخلص المسلمون من بينهم حتى انتهوا إلى البقيع وبشروا رسول الله ﷺ بقتله، وفي صباح تلك الليلة قال رسول الله ﷺ: «**من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه**»، فخاف كبارهم أن يبيّتوا كما بُيّت ابن الأشرف فلم يتكلم أحد منهم فيه.

وفي رواية أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ حين أصبحوا فقالوا: قد طُرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف**»، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتبوا بينه وبينهم كتاباً تحت العَذْق في دار رملة بنت الحارث.

ملاحظات:

ـ من خلال سرد الحدث نجد أن ابن الأشرف كان لا يزال مصراً على العداء للإسلام ونبي المسلمين وأنه سر لكلام أبي نائلة عندما قال له: ما الذي تريدونه في أمره؟ قال أبو نائلة: خذلانه والتنحي عنه، قال: سررتني يا أبا نائلة، ولم يصدر عنه خلال الحديث ندم، وكان في ظنه تكوين مجموعة من المنافقين لذلك واعدهم أن يجتمعوا ليلاً، وقد بين النبي ﷺ لجماعة اليهود ـ الذين أتوا يشتكون لمقتله ـ أن فيكم من هو على شاكلته من العداوة للإسلام ولكنه مضمرها وغير مظهرها، ولا هو يحشد ضد

المسلمين أو يذكي علناً نار العداء، أو يهجو بالشعر حرائرنا فإنا لم نتعرض له، لكن من فعل فعله وعادانا جهاراً فسيلقى المصير نفسه.

ـ تبدو من هذه الواقعة أخلاق اليهود وخصالهم الدنيئة بشكل جلي، فبالرغم من أنهم سيتعاونون معه ضد النبي ﷺ فقد طلب منهم ثمن الطعام وأن يرهنوا لقاء الثمن أبناءهم ونساءهم.

ـ الحذر والحيطة والمبيت في أطم ـ حصن ـ للإحساس بالذنب لنقضه العهد ولو لم ينقض العهد لعاش آمناً ولما تعرض له أحد.

ـ رغم أن الصحابة قد ترخصوا من النبي ﷺ بالقول فيه إلا أنهم استعملوا التعريض، كان قدوم هذا الرجل علينا، هو فهمها أنه يعنون محمداً لكن تصلح أن تقال لأي رجل قدم عليهم.

ـ أطلع المنفذون للمهمة القيادة على آخر المستجدات وطلبوا التوجيه والتسديد.

ـ التصفية لأحد رموز الكفر الخطر تحتاج إلى قرار من القيادة التي تدرك أبعاد هذا العمل ونتائجه وتعد له،وبقتله هكذا جنبت الطرفين حرباً تزهق.فيها كثير الأرواح.

:ـ كتابة وثيقة تفاهم فيها التزام بحدود معينة ـ هي بلغة اليوم ـ فيها خط أحمر لا ينبغي تجاوزه، ينظم العلاقة بين سكان المدينة من المسلمين واليهود.

❋ ❋ ❋

سرية القَرَدة

قادها زيد بن حارثة، والقردة قريبة من ذات عرق التي هي ميقات أهل العراق، وسبب هذه السرية أن صفوان بن أمية أراد أن يخرج في تجارة كعادته إلى الشام ولكن شكا من محمد ﷺ وأصحابه الذين قطعوا عليهم

طريق التجارة إلى الشام من كل مسالكه البرية والساحلية، وقال صفوان نحن أهل تجارة وإذا قعدنا عنها أكلنا رؤوس أموالنا فلا بد من العمل، ثم أرشدوه إلى فرات بن حيان العجلي، فهو خبير في طرق نجد شرقي المدينة، فتجهز صفوان وبعث معه كثير من رجال قريش أموالهم للتجارة وانطلق في طريق مغاير بعيد عن سلطة المسلمين، ووصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ، فأرسل زيد بن حارثة على رأس مائة راكب وفي منطقة القردة تم اعتراض القافلة وتم الاستيلاء عليها ونجا معظم رجالها ووقع في الأسر الدليل مع آخرين وعرض عليه الإسلام ليخلص من القتل فأسلم وأخلي سبيله، كانت في جمادى الآخرة سنة ثلاث للهجرة.

من هذه السرية يتبين لنا مدى الحصار الذي أثر على تجارة قريش حيث ضاقت ذرعاً بهذا الحصار الذي كاد يخنقها ويشل تجارتها فليس لها من سبيل إلا الإذعان للإيمان أو الموت فقراً أو الحرب التي جربتها في بدر، ومع ذلك فقد لجأت لخيار الحرب لتبرهن أنها ما زالت قوية ولم يؤثر على قوتها ما نالها في غزوة بدر.

❃ ❃ ❃

غزوة أحد

اتفقت قريش على إعداد جيش للثأر من المسلمين وقد خصصوا لهذه الحملة ما حصلوه من أرباح من التجارة التي سلمت مع أبي سفيان وكانت تفوق الخمسين ألف دينار وقد أنزل الله فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال] ولم يكتفوا بأن تخرج قريش في هذه المعركة بل أرادوا أن يجمعوا معهم العرب، فأرسلوا أربعة منهم ليستميلوا إليهم قبائل العرب وهم: عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعري، وأبو عزة الجمحي، وكان أبو عزة قد عاهد النبي ﷺ ألا

يظاهر عليه عدواً أبداً ولا يأتي ما من شأنه الكيد للمسلمين، فالتزم بعهده ومازال به صفوان بن أمية يكلمه ويغريه حتى نقض عهده وانطلق معهم يحشدون القبائل لحرب المسلمين.

كانت الغزوة، يوم السبت في السابع من شهر شوال في السنة الثالثة هجرية، وقد اجتمع لقريش ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم أبو سفيان ومعهم الظعن ـ النساء ـ لكي لا يفروا، ومعهم قادة ميدانيين أمثال خالد بن الوليد قائد الفرسان، وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل.

وصلت أخبار الحملة إلى النبي ﷺ، وذكر أن عمه العباس أرسل له رسالة مع هجان ذكر له فيها أن عدد الجيش ثلاثة آلاف، منهم سبعمائة دارع؛ معهم مائتا فرس وخمسة آلاف جمل وكثير من السلاح، وهنا جمع النبي ﷺ أصحابه للتشاور في أمر هذه الحملة من قريش، كما سارع إلى بث العيون والكشافة لينقلوا له خبر تحركهم، وانقسم رأي الصحابة إلى قسمين، قسم يود الخروج من المدينة للقاء العدو، وهذا رأي الشباب منهم خصوصاً الذين لم يحضروا غزوة بدر، وقسم أراد التحصن بالمدينة وقتالهم في طرقاتها وأزقتها مما يربك جيش قريش، ومالت كفة الرأي الأول فدخل النبي ﷺ بيته ثم لبس درعه وأظهرها، وورد أنه لبس في أحد درعين وتقلد سيفه وشد وسطه بحزام من جلد وقبل المعركة لبس المغفر وفوقه البيضة ـ الخوذة ـ وطلب الخروج للقاء العدو، ولما قيل له: نأخذ برأي من رأى التحصن بالمدينة ـ وكان النبي ﷺ يميل إلى هذا ـ وذلك لرؤيا رآها أنه في درع حصينة، لكنه قال: «**ما كان لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، انظروا إلى ما أمرتكم به فالزموه وامضوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم**» وذلك لحسم الخلاف والتوجه بقوة إلى أرض المعركة التي حدثت عند جبل أحد.

وعوداً على تحرك المشركين، فقد كان خوفهم أن يبلغ خبرهم إلى المسلمين فيتحصنوا بمدينتهم وبالتالي يصعب قتالهم، وهذا ما قاله أبو سفيان: أحلف بالله أنهم جاؤوا محمداً فخبروه بمسيرنا وحذروه وأخبروه

بعددنا، فهم الآن يلزمون صياصيهم، فما أرانا نصيب منهم شيئاً، فقال صفوان: إن لم يصحروا ـ يقاتلونا في الصحراء ـ لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال يجتبرونها أبداً.

وتقدموا نحو أطراف المدينة وعاثوا الفساد في مزارعها، وعندئذ طلب الصحابة من النبي ﷺ الخروج للقاء العدو، واجتمع له ألف مقاتل وخطب النبي ﷺ الجمعة فيهم ثم خرجوا للقاء العدو وفي الطريق انسحب ثلث الجيش مع المنافق عبدالله بن سلول وقالوا: رأينا التحصن بالمدينة ونحن ناصروه في مدينتنا وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأي فأبى إلا طواعية الغلمان، وانطلق النبي ﷺ بمن تبقى معه وهم سبعمائة مقاتل، وفي صباح السبت صف النبي جيشه في مواجهة العدو ووضع على تل ـ عينين ـ مشرف على أرض المعركة خمسين من الرماة وعليهم عبدالله بن جبير وأوصاهم ألا يبرحوا مكانهم، قال: «**ولو رأيتم الطير تتخطفنا**» وروي: «**فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، اللّٰهم إني أشهدك عليهم**» وعقد ثلاثة ألوية واحد للأوس والآخر للخزرج والثالث للمهاجرين، وصلوا في موقعهم المغرب ثم العشاء وكان قائد حرسهم ـ كي لا يبيتون على حين غرة ـ محمد بن مسلمة في خمسين من الحرس، وعند الفجر أذن بلال وصلوا الفجر، وصف النبي ﷺ أصحابه على خير نظام، وأوصاهم بالجهاد والصبر عليه.

كما صف المشركون وأوصى أبو سفيان قومه بالحفاظ على اللواء لأنهم إنما غلبوا يوم انكفأ اللواء، وانضم إلى المشركين أبو عامر الراهب في خمسين من أتباعه من المنافقين، ويقال هو الذي أنشب القتال وكان قد حفر حفراً موهها ليسقط فيها المسلمون، واشتغل نساء المشركين بتشجيع المشركين على القتال وهن يضربن بالدفوف والطبول ويذكرن المشركين بالثأر لقتلى بدر، وكن يتقدمن الصفوف حتى إذا نشبت المعركة تأخرن.

❊ ❊ ❊

سير المعركة

لما تكاملت الصفوف من الطرفين، أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم فلا حاجة بنا إلى قتالكم، فردوا عليه بما يكره، وخرج طلحة بن عثمان حامل لواء المشركين، وقال: يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجله سيفي إلى الجنة أو يعجلني سيفه إلى النار؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب وضرب ساقيه لأنه كان يلبس درعاً تغطي أعلاه فقطع رجله فسقط وانكشفت عورته، فناشده الله والرحم فتركه ولم يجهز عليه، فكبّر رسول الله ﷺ، ثم قال لعلي: «**ما منعك أن تجهز عليه؟**» قال: ناشدني الله والرحم فاستحييت منه، وكان بيد رسول الله ﷺ سيف، فقال: **من يأخذه بحقه؟** فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، ثم قام أبو دجانة فقال: وما حقه؟ قال: «**أن تضرب به العدو حتى تثخن**، وفي رواية **حتى ينثني**، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة شجاعاً وكان إذا قاتل أعلم بعصابة حمراء، فعصب رأسه ومشى بين الصفين يتبختر، فقال رسول الله ﷺ: «**إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**» فجعل يقاتل ويجندل الرجال، حتى انتهى إلى نسوة في سفح جبل معهن دفوف وينشدن تشجيعاً للمشركين:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

ورأى امرأة تحرض حملة الراية:

إيها بني عبد الدار ... إيها حماة الديار
ضرباً بكل بتار

فرفع أبو دجانة السيف ليضربها، ثم كف إكراماً لسيف رسول الله ﷺ أن يقتل به امرأة، وكانت المرأة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، واقتتل

الفريقان قتالاً شديداً، فالمشركون يقاتلون أخذاً بالثأر وهم موتورون قد صمموا على النصر، والمسلمون يقاتلون بعزيمة وثبات وفي مخيلتهم أن يجددوا نصرهم في بدر، وبرز من من مقاتلي المسلمين حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأبو دجانة والزبير، فألحق المسلمون في الجولة الأولى هزيمة منكرة بالمشركين وقتلوا حامل اللواء فسقط على الأرض تدوسه الأقدام وأقبلت عمرة بنت علقمة فحملته واجتمع المشركون حوله وحمله صؤاب فقتله علي، وكان النبي ﷺ كلما رأى تجمعاً للمشركين أشار إلى علي فيحمل عليهم ويفرق جمعهم، ودخل المسلمون معسكر قريش وانكشف الكفار عنه، فأقبل المسلمون يريدون نهبه، فلما نظر الرماة إلى المعسكر حين انكشف وظنوا أنها هزيمة المشركين وأن النصر للمسلمين؛ خافوا أن تفوتهم الغنيمة فتركوا موقعهم على الجبل واتجهوا للغنائم، لكن عبدالله بن جبير قائد الرماة ذكرهم بقول رسول الله ﷺ بأن لا يفارقوا الجبل، فأطاع قسم وعصى القسم الأكبر، وحانت التفاتة من قائد فرسان المشركين خالد بن الوليد فهاجم الرماة ـ وقد فعل من قبل مراراً فصدوه ـ وقتل من صمد منهم ثم هاجم المسلمين من الخلف لأنهم انكشفوا للعدو واختلط الحابل بالنابل ودارت الدائرة على المسلمين، وكان وحشي قد ترصد في هذه الفوضى لحمزة الذي كان يفلق الهامات بسيفه، قال وحشي: والله إني لأنظر إلى حمزة يهذ الناس بسيفه هذّا، ما يلقى شيئاً يمر به إلا قتله، وقتل سباع بن عبد العزى، قال: فجلست له خلف صخرة حتى إذا أصبح في مرماي هززت حربتي وقذفتها نحوه فجاءت في ثُنّته ـ أسفل بطنه ـ حتى خرجت من بين رجليه، وحاول حمزة السير تجاه وحشي ليقتله لكنه لم يتمالك أن سقط، وعادت هند بنت عتبة لما علمت بمقتله إلى حمزة وفي غفلة من الناس مثلت به، وكان ممن قاتل حنظلة بن أبي عامر، فقد استطاع أن يوقع أبا سفيان وأن يعلو صدره وقبل أن يجهز عليه، استنجد أبو سفيان بابن شَعوب فضرب حنظلة فقتله، وكان حنظلة حديث عرس فلما سمع النداء للجهاد خرج مسرعاً ولم يغتسل من جنابته، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لتغسله الملائكة**» فلقب بالغسيل.

وأما هند وصواحباتها من نسوة قريش فقد جدعن الأنوف وقطعن الآذان وجعلن منها قلائد وأقراط، ومثلن بالقتلى، ولما رأى المسلمون ما حل بقتلاهم، وخصوصاً بحمزة نذر النبي ﷺ أن يمثل بقتلى المشركين، لكنه تراجع عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

❋ ❋ ❋

ما وقع للنبي ﷺ

وكان قد تعاهد أربعة من رؤوس الكفر على قتل رسول الله ﷺ، وهم: عتبة بن أبي وقاص، وَأُبَيّ بن خلف، وابن قمئة الليثي وعبدالله بن حميد الأسدي، فأما عتبة فقد رماه بأحجار فكسر رباعيته وشق شفته، وأما ابن قميئة فقد ضربه بالسيف فجاء في المغفر فدخلت إحدى حلقاته في وجنة النبي ﷺ وكانت هذه أخطر إصابة حيث سقط منها على ركبتيه فأصيبتا بجروح، وأما أُبَيّ بن خلف فشد عليه بحربة وهو على فرسه ويقول: لا نجوتُ إن نجا، فأخذ النبي ﷺ حربة من الحارث بن الصمة، وقيل من الزبير كان قربه وطلب ممن حوله من الصحابة أن يدَعوه له ثم انتفض انتفاضة تطايرنا له تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، فرماه النبي ﷺ بالحربة فأتت في عنقه فتدهده من فوق حصانه مراراً وهو يصيح من الألم وقال له أصحابه لاخوف عليك إنه خدش، فقال: لقد توعدني محمد وهو في مكة عندما قلت له: إني أعلف العود ـ اسم فرسه ـ فرقاً من الذرة أقتلك عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**» فو الله لو بصق علي لقتلني، ثم مات فيما بعد في وادي رابغ وقيل بسَرَف، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يقتل نبياً أو يقتله نبي**» وورد أيضاً: «**اشتد غضب الله على من قتله رسول الله بيده في سبيل الله**»

وكان عدد من الصحابة قد أحاطوا برسول الله ﷺ يمنعونه، منهم: أبو دجانة فقد جعل ظهره عرضة لنبال المشركين وهو مكب على رسول الله ﷺ يقيه منها، وتلقى طلحة بن عبيد الله ضربة بالسيف بيده كانت موجهة نحو رسول الله ﷺ، وجلس أمامه سعد بن أبي وقاص يرمي المشركين والنبي ﷺ يقول له وهو يناوله النبال: «**ارم سعد فداك أبي وأمي**» وفقد قتادة بن النعمان عينه فأتى بها رسول الله ﷺ فردها له وكانت أحسن عينيه نظراً، وقاتل مصعب بن عمير قتال الأبطال وصمد وفي يده اللواء، وتكاثر عليه المشركون فقتل وفي جسده أكثر من ثمانين طعنة، وكان ابن قميئة هو الذي ضربه أولاً وكان يظن أنه قتل النبي لذلك أشاع هذا الخبر، فحمل اللواء علي بن أبي طالب، وقتل عاصم بن ثابت ابني طلحة مسافع وكلاب، رمى كلاً منهما بسهم، فحملا إلى أمهما سلافة، فنذرت إن أمكنها الله منه أن تشرب بجمجمته الخمر، وأراد عبد الرحمٰن بن أبي بكر وكان مشركاً أن يبارز فخرج إليه أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ: «**شم سيفك وأمتعنا بك**» وقد اهتز إيمان بعض المقاتلين لِما نزل بهم، فقد سمع أنس بن النضر بعض المسلمين يقول: لو نكلم ابن سلول ليأخذ لنا من القوم أماناً وذلك بعد أن أشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل، فعنفهم وقال: إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم، وقال: اللّٰهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم قاتل حتى قتل، وروى أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، فشق عليه ذلك وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ولئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ليرين الله ما أصنع، فلما كانت الوقعة في أحد استقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنة أجده دون أحد، فقاتلهم حتى قتل فَوُجِد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، فما عرفته أخته إلا من بنانه.

ثم إن كعب بن مالك أبصر النبي ﷺ فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله حيّ لم يقتل، فأشار إليه النبي ﷺ أن

أنصت، وهنا نهض المسلمون نحو الشعب وصعدوا الجبل، وصعد أبو سفيان وجمع من المشركين الجبل فرآهم النبي ﷺ فقال: «**ما ينبغي لهؤلاء أن يعلونا**»، فقاتلهم عمر وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوهم، وأراد النبي ﷺ أن يعلوا الصخرة فلم يستطع وكان عليه درعان فسارع طلحة بن عبيدالله فجلس تحته ثم رفعه، ونزع أبو عبيدة حلقة الحديد من وجنة النبي ﷺ بأسنانه فسقط له سنان، وجاء علي بماء لكي يرقأ جرح رسول الله في وجنته فلم يرقأ واستمر النزف فأتت فاطمة وحرقت حصيراً وكبست الجرح برمادها فتوقف النزيف

❋ ❋ ❋

قريش تكتفي بما تحقق لها في أحد

جمعت قريش جيشها وأوقفت القتال مكتفية بما حققته من نصر مع خشيتها من أن يأتي مدد من المدينة فيقلب الموازين، على أن تعيد الكرة ثانية فيما بعد فتجهز على المسلمين واكتفت الآن في رد اعتبارها وكسر الخوف الذي كان قد سيطر عليهم بعد غزوة بدر، فوقف أبو سفيان أسفل الجبل والمسلمون في أعلاه، قال: أفي القوم محمد؟ كررها ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «**لا تجيبوه**»، أفي القوم ابن أبي قحافة؟ كررها ثلاثاً، أفي القوم ابن الخطاب؟ كررها ثلاثاً، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فقال عمر: كذبت أي عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك، فقال: اعل هبل، اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا له: الله أعلى وأجل**»، فقال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا له الله مولانا ولا مولى لكم**»، فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللَّهم لا، وإنه ليسمع كلامك، فقال: أنت أصدق من ابن قميئة، ثم قال: هذا بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون في قتلاكم مَثْلاً، والله ما رضيت ولا سخطت ولا نهيت ولا أمرت، علماً بأن الحليس بن زبّان رأى أبا سفيان وهو يضرب شدق حمزة بزج الرمح ويقول

له: ذق عقق، فقال الحليس يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون، فقال أبو سفيان: اكتمها عني فإنها زلة.

ثم انسحب أبو سفيان، وهو يقول: إن موعدكم العام المقبل، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**تابع القوم فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يقصدون مكة، وإن ركبوا الخيل فسيقصدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم**»، فسار علي في إثرهم فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل.

❊ ❊ ❊

مشاهد من المعركة

ـ كانت أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ تسقي الماء، فرماها ابن العرقة بسهم فأصاب ذيلها ـ طرف ثوبها ـ فضحك، فدفع النبي ﷺ سهماً إلى سعد بن أبي وقاص وقال: ارمه، فرماه فأصابه، فضحك النبي ﷺ وقال: «**استقاد ـ اقتص من خصمها ـ لها سعد، أجاب الله دعوتك وسدد رميتك**».

ـ أمر رسول الله ﷺ رجلاً أن ينظر في القتلى، فوجد بين القتلى سعد بن الربيع وبه رمق، فقال: أبلغ رسول الله مني السلام وقل له جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومي السلام وقل لهم لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ أذى وفيكم عين تطرف، ثم مات.

ـ وجد حمزة ببطن الوادي وقد بقر بطنه عن كبده ومثّل به، فحين رآه النبي ﷺ قال: «**لولا أن تحزن صفية ـ أخت حمزة ـ أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم**»، وقال المسلمون: لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل] فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى

عن المثلة، وأُخبرت صفية بما حصل لحمزة فأقبلت لتراه فقال النبي ﷺ لولدها الزبير ليردها كي لا تراه وهو على هذه الحالة، فأعلمها الزبير بذلك فقالت: لأحتسبن ولأصبرن، فما أرضانا بما كان، فلما علم النبي ﷺ بما قالت، أذن لها برؤيته ـ علم رباطة جأشها وقوة إيمانها ـ فأتت ودعت له واسترجعت، ثم أمر النبي ﷺ بدفنه.

ـ وكان في المسلمين رجل اسمه قزمان، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**إنه من أهل النار**» فخرج يوم أحد ولحق بالمسلمين في أحد وحمل قوسه وتقلد سيفه ثم قاتل قتالاً شديداً وقتل ثمانية أو تسعة من قريش، وجرح فحمل إلى بيته، وقيل له: أبشر قزمان، فقال: بم أبشر، وأنا ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ثم اشتد عليه جرحه، فأخذ سهماً فقطع عروقه فنزف فمات، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال: «**أشهد أني رسول الله**».

ـ وفي المقابل ذكر رجل يدعى الأصيرم واسمه عمرو بن ثابت، فقد كان منكراً على قومه أن دخلوا في الإسلام، ويوم أحد بدا له فأسلم والتحق بالمسلمين وقاتل قتال الأبطال، وقد وجد بين القتلى في الرمق الأخير، فقالوا هذا الأصيرم، فقالوا ما جاء بك أحدبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ثم أخذت سيفي وغدوت فقاتلت حتى أصابني ما أصابني، فلم يلبث أن مات، فذكر خبره لرسول الله ﷺ، فقال: «**هو من أهل الجنة**».

ـ مخيريق اليهودي، جمع اليهود وقال لهم: تعلمون أن نصرة محمد عليكم حق، فقالوا: إن اليوم السبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه وعدته وقال: إن قتلت فمالي لمحمد يصنع به ما يشاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: مخيريق خير يهود.

ـ قتل في هذه الغزوة اليمان أبو حذيفة، وكان النبي ﷺ قد رفعه في الحصن هو وثابت بن قيس مع النساء لكبر السن، وعند احتدام المعركة قال اليمان لثابت، ما ننتظر أفلا نأخذ أسيافنا فنلحق برسول الله ﷺ فنقاتل لعل الله يرزقنا الشهادة، ففعلا ودخلا بين المقاتلين والمعركة محتدمة، فقتل

المشركون ثابت، كما أن المسلمين لم يميزوا اليمان وظنوه مع المشركين فضربوه بسيوفهم، وفي اللحظة الأخيرة اكتشفه ولده حذيفة فصاح أبي.. أبي! فقالوا ما عرفناه، فقال: يغفر الله لكم، وأراد النبي ﷺ أن يعطي ولده الدية، لكن حذيفة تصدق بها.

ـ شرع المسلمون بدفن قتلاهم، فأمر النبي ﷺ أن يدفنوا حيث صرعوا، وكان يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأن يقدم إلى القبلة أكثرهم قرآناً، وصلى عليهم، فكان كلما أُتي بشهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما، وقيل كان يجمع تسعة من الشهداء وحمزة عاشرهم فيصلي عليهم، ودفن ابن الجموح وعبدالله بن حرام في قبر واحد، كانا متصافيين في الدنيا.

ـ في أثناء منصرفه ﷺ من أحد لقيته حمنة بنت جحش، فنعى لها أخاها عبدالله، فاسترجعت له ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ ثم نعى لها خالها حمزة فاستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فولولت وصاحت، فقال: «**إن زوج المرأة منها لبمكان**» ومر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنواح، فذرفت عيناه فبكى، قال: «**لكن حمزة لا بواكي له**» فرجع سعد بن معاذ إلى دار بني عبد الأشهل فأمر نساءهم أن يذهبن فيبكين على حمزة.

ـ ومر رسول الله ﷺ بامرأة من الأنصار قد أصيب أبوها وزوجها، وقيل: ابناها، وهي السميراء بنت قيس، فلما نُعيا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه، فلما نظرت إليه قالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جَلَل ـ أي هينة ـ.

ـ أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع ـ جماعات متفرقة بعد أن دارت عليهم الدائرة ـ قد سُقط في أيديهم فجعل يصيح: يا معشر الأنصار إليّ ! إليّ أنا ثابت بن الدحداحة، إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت، فقاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت لهم

كتيبة خشناء، فيها كبارهم، خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ـ كلهم أسلموا فيما بعد ـ فقاتلهم ابن الدحداحة حتى أنفذ خالد الرمح في صدره وقتل من كان معه من الأنصار، وهؤلاء آخر من قتل في هذه المعركة.

ـ قال ضرار بن الخطاب يذكر معركة أحد: فلما خرجنا إلى أحد وأنا أقول: إن أقاموا في صياصيهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم، نقيم أياماً ثم ننصرف، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم ـ لتفوق عددنا وعدتنا ـ فقُضي لهم فخرجوا، فوالله ما أقمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولين، فقلت في نفسي: هذه أشد من وقعة بدر، وجعلت أقول لخالد بن الوليد: كرّ على القوم، فيقول لي: وترى وجهاً نكر فيه؟ حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرماة خالياً، فقلت أبا سليمان انظر وراءك فعطف عنان فرسه، فكرّ وكررنا معه، فانتهينا إلى الجبل فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نفيراً فأصبناهم ثم دخلنا العسكر والقوم غارون ينتهبون العسكر فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا في كل وجه.

ـ أقبل وهب بن قابوس المزني ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة، بغنم إلى المدينة فوجداها خلواً فسألا: أين الناس؟ قالوا خرج رسول الله ﷺ لقتال قريش، فلحقا بالجيش، ووصلا والدائرة على قريش والمسلمون في معسكرهم ينتهبون وهم على ذلك إذ طلعت عليهم خيل المشركين، فقاتلا، ثم انفرقت فرقة من خيل المشركين، فقال النبي ﷺ: **من لهذه الفرقة؟** فقال وهب بن قابوس المزني: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم حتى انصرفوا ثم رجع، فانفرقت فرقة أخرى، فقال رسول الله ﷺ: **من لهذه الكتيبة؟** فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع، ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «**من يقوم لهؤلاء؟**» فقال المزني: أنا يا رسول، فقال: **قم وأبشر بالجنة**، فقام مسروراً وهو يقول: والله لا أُقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون، حتى خرج من أقصاهم، ورسول الله ﷺ يقول: **اللَّهم ارحمه**،

ويرجع فيهم فما زال كذلك وهم محدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به عشرون طعنة برمح كلها في مقتل، وقد مثل المشركون به، ثم قاتل ابن أخيه مثل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يتمنى ميتة كالمزني.

ـ شاركت النسوة في نقل المياه، وكان منهن عائشة بنت أبي بكر وفاطمة بنت محمد وأم سليم بنت ملحان، وأم عمارة نسيبة بنت كعب، أما أم عمارة فقد تحولت إلى مقاتِلَةٍ شجاعة لما رأت ما حل بالمسلمين، قالت: فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إلي، فقد أصابها ابن قميئة بضربة سيف على عاتقها كان له أثر بليغ، علماً بأنها ضربته عدة ضربات فلم تؤثر فيه فقد كان عليه درعان، وكان ابنها قد أصيب حيث ضربه مشرك في عضده فنزف ولم يرقأ، فقال النبي ﷺ له: «**اعصب جرحك**»، فأقبلت أم عمارة ومعها عصائب فعصبته، ثم قالت قم فضارب، فنظر إليها النبي ﷺ وقال: **ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟** ثم أقبل ضارب ابنها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**هذا ضارب ابنك**»، فضربت ساقه فبرك ثم أقبلت عليه مع ابنها وعلوه بالسلاح حتى أجهزوا عليه.

ـ واستشهد عمرو بن الجموح وكان أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسود يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا: إن الله عذرك، فأتى رسول الله ﷺ وقال: إنهم يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك**» وقال لبنيه «**ما عليكم أن تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة**» فخرج فقتل رضي الله عنه.

ـ قتل من المسلمين سبعون، ومن المشركين اثنان وعشرون.

❋ ❋ ❋

القرآن يسجل غزوة أحد

سجل القرآن الكريم غزوة أحد وما دار فيها من أحداث وغاص في أعماق النفوس فكانت المرآة الحقيقية لما حدث، حيث البعد عن إضافات الرواة ورؤيتهم من زاوية نظرتهم الخاصة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران] بيان المصافة قبل بدء المعركة وتوزيع النبي ﷺ لقواته وفق تكتيك حربي معين ما بين ميمنة وميسرة وقلب، وقادة الفرق وحملة الألوية، ومعنى تبوء: أي تري كل فئة منهم مكانهم الذي سيقفون فيه قبل بدء القتال، وقد أكد النبي ﷺ على مكان الرماة الخمسين بقيادة عبدالله بن جبير بقوله: «**انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم، الزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم**» وأما الطائفتان المذكورتان، فقد قال جابر بن عبدالله: فينا نزلت نحن بنو حارثة وهم الأوس، وبنو سلمة وهم الخزرج، وكان الخلاف بعد أن انسحب عبد بن أبي بن سلول من دخول المعركة بثلث الجيش، وكان الخلاف في الرجوع أو الإقدام وعدم مجاراة المنافقين فيما فعلوا، فتولوا الله حباً في الدفاع عن دينه فكان الله وليهما، وأما في أحد فلم تقاتل الملائكة وكان المدد مشروطاً بالصبر والتقوى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران] فعن ابن عباس قال: «كانت سيما الملائكة في يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها بين ظهورهم، وفي يوم حنين عمائم حمراء، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر» وكان حضورهم في الغزوات عدداً ومدداً لا يضربون، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس، أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه حتى سال الدم، فقال: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟** فأنزل الله ﴿لَيْسَ

لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ ثم كانت بعد ذلك آيات فيها استطراد وتنبيه وتعليم ثم عودة إلى موضوع غزوة أحد ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران] فيه تقوية لعزيمة المسلمين وطمأنة لهم بأنهم الأعلون مهما حصل لهم وأن هذه النكسة كانت درساً لأخذ العبرة لمزيد من الإيمان والتماسك والالتزام بتعليمات القيادة، ومع ذلك فلا تظنوا أن الإيذاء والجراحات قد أصابتكم وحدكم وأن عدوكم لم يصب بأذى، وأنه خرج سليماً من المعركة، فلقد أصيب هو أيضاً ومسه قرح مثلكم تماماً، والأمر دول مرة لكم ومرة عليكم ولكن دون استئصال لأن الله أراد لهذا الدين أن ينتشر وأنتم من اختارهم الله لنصرة نبيه ونصرة الإسلام، واعلموا أن ما حصل لكم في أحد هو اختبار وتمحيص لصبركم وليتبين المؤمن الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله ممن جاء للدنيا أو المغنم، لأن دخول الجنة له شروطه واختباره ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُوا۟ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ فالله تعالى هو العالم بمن سيدخل الجنة ولكن هذا الاختبار لكي يرى منكم المجاهدة ويشهد ملائكته عليكم، وأما الذين تمنوا لقاء العدو لأنه فاتهم في بدر فها قد أتاكم في أحد ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ فتمني القتال أمر ليس سهلاً وإنما يحتاج إلى مصابرة وقوة تحمل وثبات، فالموت ورؤيا الدماء تسيل والرؤوس تتطاير لا يكفيه التمني وإنما المعايشة في ساحة القتال والصبر على الجراح، فالذين تمنوا لقاء العدو وكانوا يظنون الأمر سهلاً هاهم عندما قامت الحرب علتهم رهبة وعرفوا شدة البأس في ساحات القتال وأنها تتطلب القوة والصبر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» ثم عاتب الله تعالى من كان قد سمع دعوى الكفار بأن النبي ﷺ قتل، فأسقط في يده ورمى سلاحه وجلس ينتظر الموت لأن الدنيا في نظره قد انتهت وهذا

الشعور أمر محبط واستسلام مهين فالدنيا قائمة والحياة مستمرة إلى وقت معلوم ومجاهدة الكفار لا تنقطع فإن غيب الموت قائداً فليس هذا نهاية الدنيا فليستلم من بعده قائد آخر وإلا فإن الكفر يستشري ويقوى، وما أحسن من قال: قاتلوا وموتوا على ما مات عليه نبيكم أمثال أنس بن النضر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ ثم ضرب الله مثلاً بمن سبق من الأنبياء الذين قاتلوا الأعداء فكانوا مثال الصبر والتحمل والثبات في ساحات القتال ولم يوهن قوتهم ما أصابهم فيها ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران] ثم أعطانا الله السلاح القوي الذي يجعلنا نتفوق فيه على أعدائنا ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ الاعتماد على الله فهو الناصر لعباده، وهو الذي يقذف الرعب في قلوب المشركين ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ سلاحان قويان للمؤمن يدّرع بهما؛ الاعتماد على الله ثم ما يقذف الله من الرعب في قلوب المشركين، ولقد قال عليه الصلاة والسلام **نصرت بالرعب مسيرة شهر**، ثم عاد السياق القرآني إلى المعركة ليوقفنا على مشاهد من المعركة ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ في بداية المعركة عندما أقدمتم بقلوب مفعمة بالإيمان خالية من حب الدنيا نصركم الله عليهم فكانت بداية المعركة لكم وأراكم في عدوكم ما تحبون من النصر حتى ولوا الأدبار ومنحوكم ظهورهم، ولما ملتم إلى الدنيا والغنائم وتسابقتم عليها تُركتم إلى قصدكم وهوى أنفسكم، فانقلب أمركم وأعمل العدو فيكم سيفه، ألم يأمر نبيكم الرماة بالمحافظة على الموقع وعدم تركه مهما حصل؟ ثم إذا بهم لما رأوا الغنائم يتركون موقعهم

من أجل حطام الدنيا، ونازعوا قائدهم ابن جبير عندما ذكرهم بأمر رسول الله ﷺ فلم يستمعوا إلى تذكيره، فكان منكم من يريد الآخرة وآخرون أرادوا الدنيا فاضطربت القلوب واختلفت في المقصد فانعكس هذا على الأداء وسير المعركة، ثم كشف الله تعالى من أمرهم أكثر فقال معاتباً لهم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ فقد صعدوا الجبل منهزمين لا يلتفتون إلى شيء وبقيت القلة القليلة مع رسول الله ﷺ وقد ناداهم أن هلموا إلي عباد الله، وكما حدث في بدر من الرأفة بالمسلمين فغشيهم النعاس، فقد خفف الله عنهم في أحد فغشاهم النعاس أيضاً ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران] وقد روي أن النعاس في الصلاة من الشيطان وفي القتال من الله تعالى، يزيل به همّ المسلم، وقد روي عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه يسقط وآخذه، وفي رواية أخرى له: غشينا النعاس في مصافنا يوم أحد، فجعل السيف يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه، وفي رواية أخرى له: قال: فرفعت رأسي أنظر وما منهم أحد إلا يميل تحت جحفته من النعاس، وأما الطائفة الأخرى من الذين أهمتهم أنفسهم فهم المنافقون، ليس لهم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأخذلهم للحق، وأهل شك وريب في الله، لكأن الإسلام لم يدخل في قلوبهم وهم مقيمون على معتقد الجاهلية وقد اعتقدوا أن الإسلام سينتهي من الوجود ولم يكن عندهم يقين بانتصار الإسلام وانتشاره ليبلغ مشارق الأرض ومغاربها، ويخفون الشك في الإسلام عن رسول الله ﷺ ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ هكذا سمع

الزبير قول معتب بن قشير، ورد الله تعالى على قولهم ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ لقد كانت غزوة أحد درساً بليغاً محّص الله فيه أهل الحق من أهل الزيغ وكشف فيه عن خبيئات المنافقين وأن هؤلاء لا يعتد بهم عند الجد وفي حومة القتال ولا يؤمن جانبهم حتى ولو كانوا مع المسلمين في الظاهر فهم عنصر مثبط منهزم يفلون من معنويات المقاتلين.

ثم يأتي العتاب الشديد للمنهزمين وأن الشيطان قد أغواهم، فالذي يرتكب مخالفة شرعية يصبح حليف الشيطان وواقعاً تحت تأثيره وإغوائه وهذا من زلل الشيطان للإنسان ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لكن كما يروى كان هناك مجموعة من المتولين الهاربين يوم الزحف من خيار الصحابة وهم بعيدون عن النفاق، فكان ذلك بحقهم زلة، وعن عبدالرحمٰن بن عوف أنهم ثلاثة، واحد من المهاجرين واثنان من الأنصار: عثمان بن عفان وخارجة بن زيد، ورافع بن المعلى، ولسابقتهم وفضلهم تاب الله عليهم، ثم أعقب ذلك تنبيهات عامة للمسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران] تعليم للمسلمين بأن لا يدخلوا في قاموسهم واعتقادهم كلمة «لو» لأنها كما ورد تفتح عمل الشيطان، فإن الأمر كله مقدر من الله ومكتوب فلا تغير الحروب والغزوات مما قد كتبه الله وقدره، وإن من تكتب له الشهادة في هذه الغزوات التي هي ضد الكفر ولحماية الدعوة الإسلامية فإنه يكون قد فاز ونال رحمة الله ورضوانه وأسكنه الله فسيح جناته، ثم يظهر المولى تعالى بعضاً من صفات الرسول ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ ثم أخبر تعالى بأنه إن نصر عبده أو عبيده فلن يهزمهم أحد مهما أوتي من القوة ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا نافية للجنس، أي لا أحد يغلبكم أبداً إن كان الله معكم وأراد نصركم، وبالمقابل ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾ وعلى المؤمنين أن يثقوا بنصر الله لهم ما داموا على الحق يقاتلون أعداء الله مخلصين له النية ومتوكلين عليه، فهم لن يخذلوا أبداً، وأما الانكسارات التي يتعرض لها المسلمون فهي نتيجة أخطاء في الفكر وأخطاء مماثلة لما كانت عليه حالة المسلمين في أحد، فإذا تجنب المسلمون هذه الأخطاء فالله ناصرهم على أعدائهم ولن يغلبهم أحد أبدا، وقد فهم عمر هذا وأفهمه للفاتحين: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله» لقد وازن المسلمون بين ما كان في غزوة بدر وما جرى لهم في أحد فحزنوا على ما أصابهم، وبكوا قتلاهم، فكان العتاب الرقيق الذي يجبر كسرهم ويقوي عزيمتهم ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥﴾ فقد قتلَ المسلمون في بدر سبعين وأسروا سبعين، وقتل منهم في أحد سبعون، فقد أصابوا من قريش ضعف ما أصابت قريش منهم فضلاً عن أكثر من عشرين قتيلاً من قريش في أحد ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران] بيان أن الذي أصابهم في أحد من القتل والجراح كان بعلم الله، وبقضائه وقدره ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالله عالم بهم ولكن ليريهم أنفسهم إذا خالفوا حتى يمروا بهذه التجربة الأليمة فلا يعودوا لمثلها في اللقاءات القادمة، وكذلك ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ فالله عالم بهم وإظهار ما تواطؤوا عليه من باب الاطلاع على نواياهم وكشف كيدهم أمام المسلمين، حيث قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟﴾ فكان جوابهم ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

﴿لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ فكانوا يتذرعون بالحجج الواهية، أو تعالوا دافعوا عن أنفسكم فهذا الجيش قاصد المدينة ليقتل أهلها بلا تفريق بين مسلم أو منافق، فكان الجواب نفسه ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ بذلك عُرفوا بنواياهم السيئة وأنهم كانوا ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ فكلامهم في الظاهر شيء وما أخفوا في باطنهم ضد الإسلام شيء آخر، فهم يعملون ضد الإسلام فلا تصدقوا أقوالهم الظاهرة لأنها كذب وغطاء لما في نفوسهم من حقد ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ وكانوا يرددون عبارة ابن سلول ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ لأن رأيه كان قتالهم داخل المدينة، لكن المتخاذل يصطنع الأعذار، حتى ولو كانوا مع رأيه في قتال الكفار داخل المدينة لخذّل المسلمين أيضاً بأعذار أخرى، إن المسلم المطيع يكون مع الجماعة حتى ولو قررت خلاف رأيه فكيف وقد قرر رسول الله ﷺ الخروج؟ فعليه الالتزام، ويروى أنه لما انخزل عن المسلمين بثلث الجيش، وقال: أطاعهم وعصاني - يعني النبي - والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا؟ فرجع بمن تبعه من أهل النفاق، ولحق به عبدالله بن عمرو بن حرام، فقال له: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولما لم يسمعوا منه وأبوا إلا الانصراف، قال لهم: أبعدكم الله أعداء الله وأعداء رسوله فسيغني الله عنكم، ثم أتت البشارة من الله تعالى للشهداء وما سيلاقون في آخرتهم من سعادة ونعيم وأنهم وإن ماتوا في الدنيا فإنهم أحياء في الآخرة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ ورد أن هذه الآية نزلت في حمزة وأصحابه من شهداء أحد، وورد أن رسول الله ﷺ قال: «**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما**

صنع الله لنا» وفي لفظ «قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم» فأنزل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

***

غزوة حمراء الأسد

تعد هذه الغزوة متممة لغزوة أحد، وقد ذكرت في القرآن مباشرة عقيب ذكر غزوة أحد، وذلك أن أبا سفيان بعد أن انسحب بجيشه وقال: يوم بيوم بدر والحرب سجال وتوعد المسلمين بحرب في العام القادم، مضى باتجاه مكة، لكن كان في الجيش من لم يعجبه هذا الانسحاب، فتشاوروا في العودة إلى المدينة وغزوها، وعلم النبي ﷺ بما عزمت عليه قريش، فورد أن أبا سفيان قابل في الطريق ركباً من عبد القيس فقال لهم: بلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه لنستأصلهم، فمر الركب برسول الله ﷺ فأخبروه، فقال رسول الله ﷺ والمسلمون معه ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فندب المقاتلين الذين كانوا معه في أحد بالتحرك إلى حمراء الأسد مكان تجمع قريش، ولم يستثن الجرحى من الخروج، ولبى الجميع نداء رسول الله ﷺ فانطلقوا نحو حمراء الأسد، وقد امتدح الله هؤلاء المؤمنين فقال ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، وهناك رواية جيدة، أن النبي خرج إلى حمراء الأسد وهي على بعد سبعة أميال من المدينة، فلقيه معبد الخزاعي وهو يومذاك مشرك ـ وخزاعة مسلمها وكافرها هواهم مع النبي ﷺ ـ فقال لرسول الله ﷺ: لقد عز علينا ما أصابك، ثم خرج فلقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد

أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ ليستأصلوا المسلمين، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله، قد جمع من تخلف عنه وندموا على ما صنعوا وما ترحل حتى ترى نواصي الخيل، قال أبو سفيان: فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصلهم، قال: إني أنهاك عن هذا، فثنى ذلك أبو سفيان ومن معه وعاد، وهكذا غيّر أبو سفيان رأيه وخشي الهزيمة ومضى في طريقه إلى مكة، وعاد المسلمون إلى المدينة وقد حازوا ثواب هذه الغزوة دون أن يلقوا قتالاً أو يمسهم سوء.

وورد أن صفوان بن أمية قال: يا قوم لا تفعلوا، فإن القوم قد حزنوا، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن أن تكون الدولة عليكم، قال رسول الله ﷺ: «**أرشدهم صفوان وما كان برشيد، والذي نفسي بيده لقد سُوّمتْ لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب**» فانصرف القوم سراعاً.

ـ ورد أن النبي ﷺ ظفر بأبي عزة وكان ـ كما مر ـ عفا عنه بعد أسره ببدر على ألا يظاهر على المسلمين، ولما قدم ليقتل قال: يا محمد امنن علي، فقال له: المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وقُدّم فضربت عنقه.

ـ وتخلف معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وهو الذي جدع أنف حمزة في أحد، تخلف ليتجسس على المسلمين، ولما رأى أن أمره اكتشف لجأ إلى قريبه عثمان وقال له: أجرني، فأجاره عثمان وخرج ليبلغ النبي ﷺ عنه، لكنه فوجئ أن النبي أمر أصحابه أن يخرجوه من دار عثمان، فأتوا به فتشفع به عثمان وقال: أمهلوه ثلاثة أيام فإذا انقضت فدونكم به، فخرج ولحق بقريش لكنه ضل الطريق ولما خرج المسلمون إلى حمراء الأسد وجدوه في اليوم الرابع فأتوا به فضربت عنقه.

❋ ❋ ❋

غزوة الرجيع

في صفر من السنة الرابعة، وكان سببها قدوم وفد من عضل والقارة ـ قبيلتان ـ إلى النبي ﷺ، فقالوا: إن فينا إسلاماً، فابعث لنا نفراً يفقهونا في الدين ويقرئونا القرآن، فبعث معهم سبعة نفر وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، وقيل مرثد بن أبي مرثد، والباقون هم: خالد بن أبي البكير وعبدالله بن طارق البلوي وأخوه لأمه معتّب بن عبيد، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنّة، فلما كانوا بالهدأة عند ماء الرجيع وهو لهذيل غدروا بهم واستصرخوا عليهم حيّاً من هذيل يقال لهمْ بنو لحيان ـ وكان بنو لحيان قد اتفقوا مع عضل والقارة وجعلوا لهم مالاً على أن يذهبوا لمحمد ويطلبوا منه نفراً يفقههم في الدين فيأخذوا بثأر سفيان بن خالد الهذلي فيقتلوا قاتله الذي قتله في أحد ويأخذوا من تبقى ليبيعوهمْ لأهل مكة ـ فطلع عليهم مائة رجل، فلجأ المسلمون إلى جبل، فأعطوهم العهد أن لا يقتلوهم، فقال عاصم: والله لا أنزل على عهد كافر، اللّهم خبر نبيك عنا، وقاتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير فاستشهدوا، ونزل الآخرون على العهد، فغدروا بهم وقيدوهم، فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر فقاتلهم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وقاتلهم معتب فقتلوه، وحملوا الآخرين؛ خبيب بن عدي، وابن الدثنة، وأخذوهما وباعوهما في مكة، فاشترى خبيب بنو الحارث بن نوفل ليقتلوه بالحارث لأن خبيباً قتله في أحد، وحملوه إلى التنعيم ليصلبوه فطلب منهم أن يصلي ركعتين، وقال: لولا أن تقولوا خشيت من الموت لأطلت، وهو أول من سن الركعتين عند القتل، ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
ولست بمبد للعدو تضرعاً ... وتخشعاً إني إلى الله مرجعي
وذلك في جنب الله وإن يشأ ... يبارِكْ على أوصال شلو ممزَّع

ثم قال: **اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً،** ثم صلبوه، وقد روي فترة حجزه أنه كان يستحدّ ـ يحلق ـ قبل أن يصلب وبيده

حديدة ـ شفرة حادة ـ ثم اقترب منه طفل وهو ابن المرأة التي كان محجوزاً عندها واسمها ماويّة، فلما رأت طفلها ارتاعت، فقال لها: أتخشين أن أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا، ولو كان غيره لأخذه رهينة لا يفلته حتى يخلوا سبيله، فقالت بعد أن أسلمت: ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله لقد اطلعت عليه من صير ـ شق ـ الباب وإنه لفي الحديد، لقد رأيته وما بمكة ثمرة وإن في يده لقطفاً من عنب يأكله، ما كان إلا رزقاً رزقه الله خبيباً، وكان يتهجد بالقرآن، وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال: لقد حضرت دعوته ولقد رأيتني وإن أبا سفيان ليضجعني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب، وذكر عدد ممن حضروا خبيباً أنهم فرقوا من دعوته فما بين جاث على الأرض يوارى بالشجر خشية أن تصيبهم، وقد عيّن عمر بن الخطاب سعيد بن عامر والياً على حمص فكانت تأتيه نوبة من الغشية فشكاه أهل حمص إلى عمر فاستدعاه فلما سأله عن هذه الغشية، قال لقد شهدت قتل خبيب، فكلما ذكرته وأنا في مجلس إلا غشي عليّ، فعذره عمر.

وأما ابن الدَّثنّة، فإن صفوان بعث به إلى التنعيم ليقتل وأوكل نسطاس بقتله فقال له نسطاس: أنشدك الله: أتحب محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: ما أحب أنّ محمداً الآن مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتله نسطاس، وأما عاصم فقد حمى الله جثمانه بالدّبْر ـ وقيل النحل ـ نهاراً فلدغت كل من اقترب منه واحتمله السيل ليلاً لئلا تشرب سلافة بنت سعد برأسه الخمر كما نذرت.

وقد حزن المسلمون لما أصاب وفدهم ولما غرر بهذا الرهط حتى استدرجوهم إلى مصارعهم، **فأرسل النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري** مع رجل من الأنصار إلى مكة لقتل أبي سفيان، فخرج عمرو والأنصاري على بعير له، وكان برجل الأنصاري علة فكان عمرو يحمله حتى وصل إلى بطن يأجج، عقل بعيره في الشعب وقال للأنصاري: انطلق بنا إلى أبي سفيان لنقتله، فإن خشيت شيئاً فالحق بالبعير فاركبه والحق برسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فدخل مكة ومعه خنجر، فقال صاحبه: هل لنا أن نطوف بالبيت

ونصلي ركعتين؟ فقال عمرو: إن أهل مكة يجلسون بأفنيتهم ـ بمعنى خارج الغرف فيرون من يأتي ـ لكن شوق الأنصاري إلى الكعبة جعل عمرو يستجيب لرغبته، فطافا وصليا فلما خرجا مرا بمجلس لقريش، فعرفه بعضهم فصرخ: هذا عمرو الضمري ما جاء إلا لشر ـ وكان عمرو فاتكاً خطراً ـ فثار أهل مكة إليهم، فقال عمرو لصاحبه النجاء، هذا الذي كنت أحذر، أما أبو سفيان فليس إليه سبيل ـ بعد انكشاف أمرهما ـ فانج بنفسك، فخرجا والطلب في إثرهما، فصعدا جبلاً وكان عمرو خبير بشعاب مكة، فاختبأا في غار فإذا بعثمان بن مالك التيمي بفرس له، فقام على باب الغار، فخرج إليه عمرو فطعنه بالخنجر، فصاح صيحة أسمع منها أهل مكة، فأقبلوا إليه فوجدوه وبه رمق فقال طعنني عمرو الضمري ومات ولم يخبرهم عن موضعه، وانشغلوا بمقتل عثمان التيمي عن ملاحقة عمرو، ومكث في الغار يومين ثم خرج إلى التنعيم فوجد خبيب مصلوباً، وفك قيوده فاحتمله مسافة لكن الموكلون بحراسته تبعوه فألقى خبيباً وهرب، فأما الأنصاري فانطلق نحو شعب يأجج فأخذ الراحلة ولحق بالمدينة، وعاد عمرو فمر بضجنان ودخل غاراً، فأتى راعي غنم من بني الدئل، فدخل الغار، وبعد حديث بينهما تبين كفر الراعي حيث تغنى بشعر فيه: ولست بمسلم ما دمت حيّاً ولست أدين دين المسلمينا

فلما نام الراعي قام إليه عمرو فذبحه، وفي الطريق تعرف إلى رجلين بعثتهما قريش للتجسس على المسلمين، فرمى عمرو أحدهما بسهم وأسر الأخر فقاده أسيراً إلى المدينة، وأخبر النبي ﷺ بما جرى له في رحلته فضحك حتى بدت نواجذه، ودعا له بخير.

❋ ❋ ❋

خبر بئر معونة

كان في صفر من السنة الرابعة، وذلك أن أبا براء بن عامر ملاعب الأسنة قدم المدينة وأهدى للنبي ﷺ هدية فلم يقبلها، وقال: «**يا أبا براء لا**

أقبل هدية مشرك»، ثم عرض عليه الإسلام فلم يبعد ولم يسلم، وقال: إن أمرك هذا لحسن، فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «**أخشى عليهم أهل نجد**»، فقال أبو براء: أنا لهم جار.

فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً، وروي: أربعين، فيهم المنذر بن عمرو الأنصاري، والحارث بن الصمة وحرام بن ملحان، وعامر بن فهيرة.

وانطلق الركب حتى بلغوا بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، فنزلوها وبعثوا حرام بن ملحان ومعه كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب وقتل ابن ملحان الذي قال الله أكبر فزت ورب الكعبة ـ وورد أنه دعاهم إلى الإسلام وقال لهم: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله ﷺ إليكم فآمنوا بالله ورسوله، فخرج رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، وروي أيضاً فأومؤوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه ـ ثم استصرخ ابن الطفيل بني عامر ليقاتلوا المسلمين فلم يجيبوه وقالوا هؤلاء في جوار أبي براء، فاستصرخ بني سليم، وهم عُصية ورعل وذكوان، فأجابوه وخرجوا حتى أحاطوا بالمسلمين فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ما عدا كعب بن زيد الأنصاري فإنهم تركوه وبه رمق من حياة، وكان قريباً من القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار، فرأيا الطير تحوم فوق مكان المعركة فعرفا أن خطباً ما هناك فانطلقا ليكتشفا الأمر، فإذا المسلمون صرعى والخيل واقفة، فقال عمرو: نلحق برسول الله ﷺ ونخبره خبرهم، فقال الأنصاري: لا أرغب بنفسي عن موطن فيه المنذر بن عمرو، ثم تقدم فقاتل القوم حتى قتل وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، ثم أطلقه عامر بن الطفيل لأنه من معد، وروي أنه جزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه، وعاد عمرو بن أمية فلقي في الطريق رجلين من بني عامر فقتلهما يريد الثأر من بني عامر لما فعلوه بالمسلمين، ولكنه أخطأ لأن الرجلين معهما كتاب أمان من رسول الله ﷺ وهو لا يدري، فبلغ الرسول ﷺ خبر المسلمين وما حصل

لهم عند بئر معونة من الغدر، كما ذكر خبر الرجلين، فقال عليه الصلاة والسلام: «**هذا عمل أبي براء**» ـ أي كنت لهذا كارهاً متخوفاً ـ وأما الرجلان فقد أخطأتَ في قتلهما وقال: **لأدينهما** ـ أدفع ديتهما ـ **للأمان الذي أعطاهما**»، ثم إن ربيعة بن أبي براء هاجم عامر بن الطفيل فطعنه فخر عن فرسه، وكانت الطعنة في فخذه، فقال دمي لعمي أي جعل الحكم في دمه لعمه أبي براء، وروي أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهم اكفني عامراً**» وقد حزن أبو براء لما فعله عامر بالمسلمين.

وورد عند البخاري عن أنس بن مالك أن رِعْلاً وذكوان وعُصيّة وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القرّاء في زمانهم، كانوا يحتطبون في النهار ويصلون بالليل، حتى إذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ النبي ﷺ فقنت شهراً يدعو في الصبح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس: فقرأنا قرآناً ثم إن ذلك رُفع ـ أي نسخ ـ «بلّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا»، وروي عن أنس أيضاً قال: «بعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القرّاء، فعرض لهم حيان بن سليم و رعل وذكوان عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فقتلوهم، فدعا النبي ﷺ شهراً في صلاة الغداة وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت» وسأل رجل أنساً عن القنوت: أبعد الركوع أو عند الفراغ من القراءة؟ قال: لا، بل عند الفراغ من القراءة.

❋ ❋ ❋

غزوة بني النضير

وفيها خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى بني النضير لكي يستعينهم على دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية

لما في ذلك من الاتفاق على العون في مثل هذه الأمور في كتاب الموادعة، وقيل للحلف الذي كان بين بني عامر ـ والقتيلان منهما ـ وبين بني النضير، فقالت بنو النضير للنبي ﷺ: نعم نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض وتآمروا على قتله، وكان قد جلس مع أصحابه تحت جدار لهم، فقالوا من يصعد هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فنهاهم عن ذلك سلام بن مشكم وقال: هو يعلم، فلم يقبلوا منه، وصعد عمرو بن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى النبي ﷺ يخبره بما عزموا عليه، فقام وقال لأصحابه: **لا تبرحوا حتى آتيكم**، ورجع إلى المدينة، فلما أبطأ قام أصحابه في طلبه ليعرفوا سبب تأخره، فأخبرهم الخبر وأمر المسلمين بحربهم، ونزل بهم جيش المسلمين فحاصرهم، فتحصنوا منه في صياصيهم فقطع النخل وأحرقه، وقالوا: إنك تنهى عن الفساد في الأرض فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ وقد تولى الله الجواب كما سيأتي في القرآن، وبعث إليهم عبدالله بن أبي بن سلول وجماعة من المنافقين أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، فأجابهم إلى ذلك، وقد استغرق الحصار خمسة عشر يوماً، فخرجوا إلى خيبر ومنهم كنانة بن الربيع وحيي بن أخطب، وخرج قسم آخر إلى الشام، وقد نقلوا متاعهم واحتملوا معهم حتى أبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، وأسلم منهم يامين بن عمير، وأبو سعيد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

ونزل في هذه الغزوة قرآناً يكشف خبيئات نفوسهم ومدى جبنهم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن

يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر] ثم يذكر لجوء المسلمين إلى قطع نخلهم أو تحريقه وذلك ليعلموا أنه لم يعد لهم مقام في هذه الديار، ويعفي المسلمين من تبعة قطع النخل ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ ثم يذكر نعمة الله على رسوله والمسلمين من الفيء الذي حصل من هذه الغزوة دون قتلى أو سفك دماء ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾﴾ [الحشر] وبعد ذلك يذكر حالة المنافقين الذين أرادوا أن يثبتوا اليهود ويشدوا من عزيمتهم على المقاومة وكأن ابن سلول لم يكفه ما فعل بنو قينقاع وكيف وقف معهم ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وهكذا أفشل الله تعالى خطط المنافقين في إيجاد حليف لهم يتخذونه دريئة للاعتداء على المسلمين ويعملون هم من ورائه خفية، فقذف في قلوب اليهود الرعب ليجرد المنافقين من حليفهم، لذلك أتبع هذا التوهين لليهود بذكر ما يعتمل في صدور المنافقين واليهود تجاه المسلمين: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر] ثم وصفهم بالجبن وعدم المقدرة على المواجهة ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر]، وهكذا جلت بنو النضير بعد بني قينقاع، وبقيت بنو قريظة ولعلها أخذت العبرة من سابقتيها.

***

غزوة ذات الرقاع

أقام النبي ﷺ في المدينة بعد بني النضير شهري ربيع ثم غزا نجداً

يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى جبل هناك فيه سواد وبياض وحمرة، فلقي هنالك المشركين ولم يكن فيها قتال، وخاف الناس بعضهم بعضاً، وفيها نزلت صلاة الخوف فصلاها النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء] وفي هذه الغزوة جاء رجل من محارب إلى النبي ﷺ، فطلب منه أن ينظر إلى سيفه فأعطاه السيف، فلما أخذه وهزه قال: يا محمد أما تخافني؟ قال: «لا»، قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: «لا، يمنعني الله منك»، فرد السيف إليه، وفي الغزوة حدث أن قال النبي ﷺ: «من يحرسنا هذه الليلة»، فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فأخذ الأنصاري النوبة الأولى ونام المهاجري، فقام الأنصاري يصلي فأتى أحد المشركين فسدد له سهماً فجاء فيه فانتزعه الأنصاري وتابع صلاته ثم سدد له سهماً ثانياً فجاء فيه فانتزعه أيضاً وتابع صلاته، ثم سدد سهماً ثالثاً ثم ركع وسجد وأيقظ صاحبه وأعلمه، فوثب المهاجري فلما رآهما المشرك هرب وقال المهاجري ألا أيقظتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، ولولا خوفي أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها ـ أي أقطع الصلاة ـ.



غزوة بدر الثانية

وسميت بغزوة السويق، كانت في شعبان من السنة الرابعة، وكان أبو سفيان قد وعد في أحد بشن حرب في العام القابل، وحتى يكون المسلمون

هم المبادرون انطلق النبي ﷺ حتى بدر ونزل فيها، وخرج أبو سفيان بأهل مكة حتى بلغ مر الظهران وقيل عسفان، ثم بدا له أن يرجع فرجع إلى مكة، فسماهم أهل مكة جيش السويق، أي خرجوا فشربوا وأكلوا من السويق وعادوا.

❋ ❋ ❋

غزوة الخندق

وسميت الأحزاب لاشتراك عدد من القبائل في هذه الغزوة مع قريش، وسببها أن نفراً من يهود من بني النضير منهم: عبدالله بن سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع وغيرهم حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فقدم هؤلاء إلى مكة وحرضوهم على حرب المسلمين واستئصالهم وقالوا لهم: نكون معكم حتى نستأصله، فأجابوهم إلى ذلك ثم أتوا على غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أن قريشاً معهم على ذلك، فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف في مرة، ومسعر بن رخيلة في أشجع.

فلما سمع رسول الله ﷺ أمر بحفر الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي، وعمل الجميع في حفر الخندق بما فيهم رسول الله ﷺ، فقد قسموا المسافة بين الصحابة عشرة عشرة ولكل عشرة أربعون ذراعاً، وجدّ الجميع في الحفر وتنافسوا في العمل، ما عدا المنافقين الذين اصطنعوا الأعذار وتسللوا هرباً من العمل، وخرجت على مجموعة سلمان صخرة مروة كسرت معاولهم وما استطاعوا معالجتها ولا المحيد عنها، فشكوا أمرها إلى النبي ﷺ، فهبط إليها وأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة فانصدعت وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة - اللابة: جبل صغير بركاني - فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون، ثم الثانية كذلك والثالثة، فانصدعت تماماً وخرج من الخندق وقد بشرهم ببشارات مفرحة، ففي البرقة الأولى أضاءت

قصور الحيرة وبشرهم بفتحها وفي الثانية أضاءت قصور الشام وبشرهم بفتحها، وفي الثالثة أضاءت قصور صنعاء وبشرهم بفتحها، وقد حصل كل ذلك فيما بعد، غير أن المنافقين كانوا يشككون في هذا ويثبطون عزيمة المسلمين بكلام فيه الشك والريبة، غير أن المسلمين واثقون من تحقق ما أخبرهم به رسولهم ﷺ.

❋ ❋ ❋

قدوم قريش وحرج موقف المسلمين

أقبلت قريش وأحلافها في عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان، وقد فوجئت قريش بالخندق الذي وقف حائلاً بينهم وبين الهجوم على المدينة حيث رابط المسلمون في ثلاثة آلاف مقاتل وراء الخندق وظهرهم إلى جبل سلع، كما رفع النساء والأطفال إلى الآطام، وسعى حيي بن أخطب الذي أجلي مع بني النضير لدى بني قريظة للدخول في حلف قريش للقضاء على المسلمين يحركه حقده وإخراجه من الديار وهو يُمَنِّي نفسه بالعودة، وفي قرارة نفسه يعلم أنه مذنب عادى نبياً، لقد روت ابنته صفية بعد أن أسلمت وأصبحت زوجة النبي ﷺ: أنه ذهب إلى قباء يوم نزلها رسول الله ﷺ هو وأخوه ياسر، ثم عادا، فقال ياسر لحيي أهو رسول الله كما ورد في التوراة؟ قال حيي: نعم، قال: ما موقفنا منه؟ قال: عداوته ما حيينا، فإذا كان موقفه منذ البداية يتسم بالعداوة فهل كان يرجى منه خيراً؟ إنه عدو خطر، لذلك ذهب يؤلب على المسلمين زعيم بني قريظة كعب بن أسد الذي عاهد النبي ﷺ على الموادعة والمسالمة وعدم المشاركة في أي عمل ضد المسلمين، ولذلك أمن المسلمون من جهته فلم يحصنوها أو ينشروا فيها قوات لصد أي هجوم من تلك الجهة، لكن حيي أراد أن يضم كعباً لحلف قريش وينقض ما كان قد تعهد به للمسلمين، قال حيي: جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش وقادتها وسادتها، وغطفان بقادتها، وقد عاهدوني أنهم لا يبرحون حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، قال كعب: جئتني بذل الدهر

وبجهام قد هَرَاق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حيي دعني وأغلق حصنه وقال له: إنك رجل مشؤوم، لقد عاهدت محمداً ولم أر منه إلا الوفاء، لكن حيي لم يزل به حتى حمله على الغدر بالنبي ﷺ، وقال له حيي: إن عادت قريش دون أن تقضي على المسلمين فسأدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما يصيبك، وتأزم الموقف أمام المسلمين واكتمل عليهم طوق الحصار، لكن الله كان بالمرصاد للأعداء فلم يترك نبيه لهؤلاء الأعداء العتاة.

❋ ❋ ❋

أهم أحداث المعركة

- حاول عدد من فرسان قريش اجتياز الخندق، فاختاروا مكاناً ليس بالعريض واقتحموا الخندق، وهم: عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن وهب، ونوفل بن عبدالله، وضرار بن الخطاب، وجالت خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب مع نفر من المسلمين وأخذوا عليهم الثغرة، ثم دعا عمرو بن ود إلى الإسلام فأبى، ثم دعاه إلى المبارزة، فقال: والله ما أحب أن أقتلك، فقال علي: ولكني أحب أن أقتلك، ودارت بينهما مبارزة عنيفة فقتله علي وولى الباقون منهزمين، وسقط نوفل بن عبدالله في الخندق بفرسه فانهال عليه المسلمون بالحجارة حتى صار يصيح ألا قتلة غير هذه، فنزل إليه علي فأجهز عليه، وبلغت حصيلة قتلى المشركين خمسة.

- رُمي سعد بن معاذ بسهم فجاء في كاحله، رماه المشرك ابن العَرِقة، قال: خذها وأنا ابن العرِقة، فقال النبي ﷺ: «**عَرّق الله وجهه في النار**»، وقال سعد: اللّهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أقاتلهم من قوم آذوا نبيك وكذبوه، اللّهم وإن كنتَ وضعت الحرب بيننا فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، فانقطع الدم.

ـ أراد النبي ﷺ أن يفكك تحالف قريش، فأرسل إلى قائدي غطفان عيينة بن حصن و الحارث بن عوف أن يرجعا عن المدينة مقابل أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، وعلم السعدان؛ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: يا رسول الله؛ شيء تحب أن تصنعه أم شيء أمرك الله به أو شيء تصنعه لنا؟ قال: **بل لكم، رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم**، فقال سعد بن معاذ: قد كنا نحن وهم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قِرًى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا !ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فترك ذلك رسول الله ﷺ.

ـ ظهر على الساحة نُعيّم بن مسعود، فقد أعلن إسلامه وأراد أن يعمل شيئاً للمسلمين فهو حركي نشط وجريء، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**»، وأعمل الرجل فكره فأتى بشيء عظيم، ذهب إلى يهود بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، فقالوا: لست عندنا بمتهم، قال: قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمداً، قالوا: أشرت بالرأي والنصح، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أن قريظة ندموا وقد أرسلوا إلى محمد: هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم أن نعم، فإن طلبت منكم قريظة رُهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: أنتم أهلي وعشيرتي، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم غدر يهود.

ـ وأرسل أبو سفيان وغطفان عكرمة بن أبي جهل ليقول لليهود إن مقامهم قد طال فهلم إلى أن نقاتل محمداً ونحسم المعركة، فقالوا: إن غداً السبت ولا نعمل فيه شيئاً ولن نقاتل معكم حتى تعطونا من رجالكم رهناً فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتخلوا بيننا وبين محمد فلا طاقة لنا به، فلما عاد صفوان ومن معه إلى أبي سفيان وأخبرهم طلب اليهود، قالوا: لقد صدق نعيم بن مسعود، فأرسلوا: والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فقالت يهود: إن الذي ذكر نعيم لحق، وخذل الله بينهم ودخلهم الشك والوهن تجاه بعضهم بعضاً.

❋ ❋ ❋

النصر الحاسم

وعد الله نبيه بالنصر ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ كانت غزوة الخندق اختباراً للمسلمين وابتلاء، وهي أشد عليهم من أحد، فالكفار في عشرة آلاف مقاتل وهم على أبواب المدينة لا يفصل بينهم وبينها سوى الخندق، وفي الوقت نفسه فإن المسلمين استعدوا للمواجهة وبذلوا أقصى ما عندهم لقتال العدو متخذين الأسباب غير متقاعسين ولا متواكلين، حفروا الخندق وبذلوا لذلك طاقة جبارة في حفره وهو عمل شاق ومجهد في وقت كان فيه المال بين أيديهم قليل، فصبروا على الجوع والتعب لقاء مرضاة الله، ثم رابطوا على الخندق يمنعون قريشاً من اقتحامه والجو بارد والأكسية واهية حتى دخل البرد عظامهم، وزاد أن مد المنافقون رؤوسهم بلا خوف وهم يثيرون الإشاعات المغرضة المثبطة وكأنهم أيقنوا إلى أن الهزيمة نازلة بالمسلمين لا محالة، فتارة يقولون: إن بيوتنا عورة، وتارة يبثون الخيبة والرعب في النفوس بقلة العدد وكثرة المشركين، والله تعالى مطلع على عباده الذين لجؤوا إليه بالدعاء والرجاء، وعلى نبيه الذي نادى ربه شاكياً باكياً يطلب عونه ونصره الذي وعده، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فبعث الله ريحاً في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تزمجر وتصفر

فقلبت القدور وأطفأت النيران وقطعت الحبال ومزقت الخيام، وفي هذه الأثناء، أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ليلاً ليأتيه بخبرهم وأوصاه ألا يحدث شيئاً حتى يعود بالخبر، وورد عن حذيفة قال: «استقبلنا ـ بمعنى استعرضنا ـ رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى مر علي وما علي جنّة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني وأنا جاث على ركبتي فقال: **من هذا؟** فقلت: حذيفة، قال: **حذيفة!** فتقاصرتُ إلى الأرض، فقلت بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، قال: «**قم، فقمت، فقال: إنه كان في القوم خبر، فأتني بخبر القوم، قال: وأنا من أشد القوم فزعاً وأشدهم قرّاً، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته**» قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرّ في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد منه شيئاً، فلما وليت قال: «**يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني**» فخرج وهو يرتجف من البرد فعبر إليهم واندس بينهم، فقام أبو سفيان وقال: يا معشر قريش لينظر الرجل أمر جليسه ـ وكأنه أحسن بخبرته القيادية أن غريباً قد اندس بينهم ـ ولكن هذا لم يفت على حذيفة الذكي، فسرعان ما أمسك بيد من كان قربه وقال له: من أنت؟ قال: أنا فلان، فبدا بهذا التصرف وكأنه هو من القوم، فقال أبو سفيان: لقد هلك الخف والحافر وأخلفتنا قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى بعيره وهو معقول فجلس عليه وضربه فقام على ثلاثة قوائم ـ وهذا من الفزع حيث لم يحل عقاله قبل أن يركبه ـ قال حذيفة ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا أحدث شيئاً لقتلت أبا سفيان مستغلاً هذه الفوضى، فرجعت إلى النبي ﷺ لأخبره، وكان قائماً يصلي في مرط ـ كساء اتقاء البرد ـ فأدخلني بينْ رجليه وطرح علي طرف المرط فلما سلم خبرته، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فعادوا إلى ديارهم، وقال رسول الله ﷺ: **الآن نغزوهم ولا يغزوننا**، ومن بعد الخندق كانت المبادرة للمسلمين إلى أن فتحت مكة.

❋ ❋ ❋

القرآن الكريم يصور هذا الحدث

سميت السورة بسورة الأحزاب وذلك لأهمية هذه الغزوة وشدتها على المسلمين، صحيح أن الله تعالى جنب المسلمين خطر المواجهة وأن عدد القتلى من الطرفين لا يذكر نسبة إلى أعداد الجيشين ... قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب] بدأ بالنتيجة لأن فيها بيان النعمة لكي يطمئن المسلمون إلى التأييد الإلهي القوي لعباده المؤمنين وإنقاذهم من المحنة التي روعت القلوب، ثم عاد ليبدأ الخبر منذ بدايته ليصور حال المسلمين تجاه هذا الغزو ويسمى هذا في البلاغة: اللف والنشر ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾، وكان لكثرة جيش العدو أنه استطاع أن يملأ الساحة والمكان من جميع اتجاهاته، وكان لهذا العدد والحشد الكبير تأثير على معنويات المسلمين فوصلوا إلى حالة شديدة من الخوف والرعب، زاغت الأبصار، وكادت القلوب أن تنخلع لتصل إلى الحناجر وهذه صفة من يبلغ به الخوف مبلغه، وقد اهتزت ثقتكم بالله، وعملتْ بكم الظنون بربكم عملها، وهذا ابتلاء من الله وهِزّة عنيفة وتمحيص بالغ، فلا يصمد أمام هذا الموقف إلا قوي الإيمان، راسخ العقيدة، ويهوي ويسقط الهزيل الضعيف الذي يعبدالله على حرف ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج] وتستمر سورة الأحزاب بإلقاء الضوء على الغزوة في الجانب الإسلامي وما استجد في مجتمعهم من أمور، فقد برز المنافقون على السطح على غير عادتهم في التخفي ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢﴾ وهكذا رفع المنافقون أصواتهم بالتشكيك بموعود الله بنصر المؤمنين، ثم يرتفع التصعيد والهلع في النفوس وكله بما يقوم به المنافقون من التهويل والتخويف وبث الكذب هنا وهناك

ليشتتوا قوى المسلمين ويضعفوا من تماسكهم ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ فاصطناع الأزمات - بأن بيوتهم قد انكشفت للأعداء وهي غير محمية بالمقاتلين - هدفه الفرار من المواجهة وتثبيط الهمم من أجل الفشل وإهدار القوة، والقعود عن الجهاد وتقوية الخصوم، ويُروى عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ فما استأذن أحد منهم إلا أذن له ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ولو طُوّقت المدينة بالعدو من جميع جوانبها لما ردهم عن السعي في الفتنة وتثبيط الناس عن الجهاد شيء؛ بل لأسرعوا فيها من تلقاء وحي شياطينهم لأنهم منافقون مبغضون للإسلام ونبي الإسلام، وكان عليهم أن يكفوا عن هذا العمل الدنيء عند تعرض المدينة للحصار وأن يعملوا بإخلاص مع المسلمين لكي يدفعوا عنها الخطر، فكم من أناس كان بينهم الخلاف شديداً ثم لما تعرضت مصالح الجميع للخطر اتحدوا وقاتلوا العدو صوناً لمصالحهم، لكن هؤلاء المنافقين فارقوا المنطق والتعقل وأظهروا العداوة، فاجتمع على المسلمين ثلاثة أعداء: قريش وأحلافها، واليهود، والمنافقون ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ وذلك لما رأوا نصر المسلمين في بدر وما نالوه من الكرامة والمديح، فقالوا: لئن شهدنا قتالاً لنقاتلن، فما ثبتوا على قولهم ولا حافظوا على عهدهم» وتتوالى الآيات في تعريتهم وإخبار المسلمين عن مكرهم ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

بيان حال المنافقين ومعهم اليهود وهم يطلبون من الأنصار أن ينضموا إليهم ويفارقوا رسول الله ﷺ، علماً بأنهم في حال النزال والقتال جبناء يخشون الموت وإذا شاركوا في القتال فهو من باب السمعة والرياء والدس وتثبيط العزائم بين المقاتلين، ففي حال الخوف والنزال يكفيك أن تنظر في وجوههم لترى أعينهم كيف تدور كالمغشي عليهم من الموت، وهذه صورة من يكون في النزع الأخير، فإذا زال عنهم الخطر انتفضوا كأنهم الشجعان الذين لا يرهبون من الموت وتكلموا منتقصين غيرهم، لقد أوتوا من زلق اللسان وتدبيج عبارات الكذب ما يظن بهم السامع أنهم أهل بأس وفصاحة وبيان، ولكن أفئدتهم هواء وهم مثال البخل والشح وهذا من صفات المنافقين وعديمي الإيمان الذين يؤثرون المال وجمعه على البذل والإنفاق في سبيل الله، وقيل: هم عند القتال مع المسلمين أجبن قوم وأخوفهم من الموت وعند توزيع الغنائم هم أسبق الناس للمطالبة بها مع شح وعدم تسامح فهم يطالبون بالقير والقطمير، ومن جبنهم وشدة خوفهم اختبؤوا في البيوت فلم يعلموا بانسحاب الأحزاب، وكانوا يودون لو كانوا بعيدين عن ساحة الحرب في مكان ما عند البدو كيلا يشهدوا الحرب أو يعايشوها، ومن هناك يسألون عن أنباء القتال ومن المنتصر من مأمنهم، وعند ذلك سيباركون المنتصر سواء أكان المسلمون هم الفائزون أو قريش.

صورة واضحة وناطقة تبدي حقيقة المنافقين، ولكن الله جلت قدرته وقى المسلمين شر مكرهم فكانت هزيمة الأحزاب هزيمة للمنافقين أيضاً ولليهود الذين نقضوا العهد، فما كاد المسلمون أن يتنفسوا الصعداء حتى أتى جبريل وهو لا يزال في لباس الحرب معلناً أنه لم يضع السلاح وأشار إلى بني قريظة، فأعلن النبي ﷺ أنْ: «**لا يصلينّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة، وهكذا تسابق المقاتلون أفراداً وجماعات ليحدقوا ببني قريظة**

❋ ❋ ❋

غزوة بني قريظة في ذي القعدة
وصدراً من ذي الحجة سنة خمس من الهجرة

كان انسحاب الأحزاب مساء، وفي الصباح عاد الرسول ﷺ إلى المدينة، ووضع المسلمون السلاح، وأمر بخيمة ضربت في المسجد ليمرّض فيها سعد بن معاذ وذلك ليكون قريباً من النبي ﷺ ليزوره ويكون تحت نظره، فلسعد مكانة خاصة عند النبي ﷺ لمواقفه الجهادية ومحبته للإسلام ونبي المسلمين، ولما صلى النبي ﷺ الظهر أتاه جبريل وقال له: أقد وضعت السلاح؟ قال: «نعم»، قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، وقدّم علياً إليهم برايته وتلاحق الناس، ونزل رسول الله ﷺ، وأتاه رجال بعد العشاء الأخير فصلوا العصر بها، فما عابهم.

وحاصر بني قريظة لنقضهم العهد، واستمر في حصارهم قريباً من شهر ـ قيل ٢٥ يوماً ـ فلما اشتد عليهم الحصار، أرسلوا إلى النبي ﷺ أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ـ أنصاري من الأوس ـ نستشيره، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال وبكى النساء والأطفال، فرق لهم، فقالوا: ننزل على حكم رسول الله، فقال: نعم، وأشار إلى حلقه ـ يعني الذبح ـ قال أبو لبابة فما زالت قدماي حتى عرفت أني خنت الله ورسوله، فقال: والله لا أقمت بمكان عصيت الله فيه فانطلق إلى المسجد وربط نفسه بسارية وقال: لا أبرح حتى يتوب الله علي.

ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقال الأوس: يا رسول الله افعل في موالينا مثل ما فعلت في موالي الخزرج ـ يعني بني قينقاع ـ فقال عليه الصلاة والسلام: **«ألا ترضون بحكم سعد بن معاذ؟»** قالوا: بلى، فأتاه قومه فاحتملوه على حمار ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك، فلما كثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعلم كثير منهم أنه يقتلهم، فلما انتهى سعد إلى

رسول الله ﷺ، قال: قوموا إلى سيدكم، أو قال: خيركم، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا: يا أبا عمرو! أحسن إلى مواليك فقد رد رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليك، فقال سعد: عليكم عهد الله وميثاقه إن الحكم فيهم إلي؟ قالوا: نعم، فالتفت إلى الناحية الأخرى التي فيها رسول الله ﷺ وغض بصره عن رسول الله ﷺ هيبة وإجلالاً وقال: وعلى من هاهنا العهد أيضاً؟ فقالوا: نعم، وقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال سعد: فإنني أحكم أن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية والنساء وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة - أي سموات - فاستنزلوا من دورهم وحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار**»، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فحفر بها خنادق ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم فيها، وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن أسد سيدهم، وكانوا ستمائة أو سبعمائة بالغ، وقال حيي بن أخطب عندما قدم للقتل وهو ينظر إلى النبي ﷺ: والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكن من يخذل الله يخذل، وقال للناس: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم ضربت عنقه، وورد قتلت منهم امرأة واحدة لأنها قتلت أرفة بنت عارضة، وأسلم من يهود: ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، وقسمت أموال بني قريظة على المسلمين، واصطفى رسول الله ﷺ ريحانة بنت عمرو وكانت قد أسلمت فأراد أن يتزوجها، فقالت: اتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك، فكان لها ذلك، ثم عاد سعد بن معاذ إلى الخيمة وهناك انبجس الدم ومات رضي الله عنه، قالت عائشة: سمعت بكاء أبي بكر وعمر وأنا في حجرتي، واما النبي ﷺ فكان لا يبكي على أحد، كان إذا اشتد وجده حزنه - أخذ بلحيته.

قتل من المسلمين في غزوة بني قريظة ثلاثة، وقتلت امرأة واحدة من اليهود قصاصاً لأنها ألقت رحًى على خلاد بن سويد.

وفي غزوة الأحزاب قتل ستة من المسلمين وأربعة من الكفار.

❋ ❋ ❋

دروس مستفادة من غزوة الخندق

ـ الامتحان الصعب، ونجاح المخلصين فيه، فلم يرهبهم الحشد الكبير.

ـ العمل المشترك في حفر الخندق، وهذا يبين تصميم المسلمين على قتال العدو.

ـ الطاعة في تنفيذ المهام والالتزام بالأوامر.

ـ الصبر على الشدائد.

ـ انكشاف أمر المنافقين.

ـ غدر اليهود وعدم التزامهم بالمواثيق والعهود.

ـ المدد الإلهي بالملائكة والريح.

ـ الحرب خدعة، فقد بذل المسلمون ما وسعهم لتخذيل العدو.

ـ غزوة الخندق أضعفت قريشاً وبرهنت أن النصر لا يكون بكثرة الحشد، وأيقن قسم منهم بعدم القدرة على هزيمة المسلمين وأن الحق بجانب المسلمين.

ـ بث العيون والاستطلاع للتعرف على تحركات العدو ونواياه.

ـ سرعة التحرك ضد اليهود وعدم تمكينهم من الاستعداد.

ـ قلب المنافق وهواه مع خصوم المسلمين، وقلب المؤمن وهواه مع المؤمنين، وهذا مقارنة بين ما فعله ابن سلول وما فعله سعد بن معاذ.

ـ العقاب على قدر الجرم.

❋ ❋ ❋

غزوة ذي قرد

في السنة السادسة للهجرة، وكان سببها أن عيينة بن حصن الفزاري قد أغار على إبل للنبي ﷺ، فاستاقها، وأول من نذر بهم سلمة بن الأكوع، وقيل حدثت بعد صلح الحديبية، قال سلمة: أقبلنا مع النبي ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ بظَهْر مع رباح غلامه، وخرجتُ معه بفرس طلحة بن عبيد الله، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمٰن بن عيينة بن حصن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاستاقه أجمع وقتل راعيه، قلت: يا رباح؛ خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة وأخبر النبي ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، ثم استقبلت الأكمة فناديت ثلاثة أصوات: **يا صباحاه!** ثم خرجت في أثر القوم أرميهم بالنبل وأرتجز وأقول: خذها:

وأنـــا ابـــن الأكـــوع والـــيـــوم يـــوم الـــرضـــع

قال سلمة: فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا خرج إلى فارس قعدت في أصل شجرة فرميته فعقرت به، وإذا دخلوا في مضايق الجبل رميتهم بالحجارة من فوقهم، فما زلت كذلك حتى ما تركت من ظهر أخذوه لرسول الله ﷺ بعيراً إلا جعلته وراء ظهري وخلوا بيني وبينه وألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً وثلاثين بردة يتخففون بها، لا يلقون شيئاً إلا جعلت عليه أمارة ـ علامة ـ حتى يعرفه أصحاب رسول الله ﷺ، وانتهوا إلى مضيق به عيينة بن حصن، فقعدوا للطعام ضحوة، وكان ظهر عليهم سلمة، فقال عيينة: من هذا؟ قالوا: لقينا منه البرح ـ الشدة ـ وقد استنقذ كل ما بأيدينا، ثم ظهرت بدايات فرسان رسول الله ﷺ، فحضر الأخرم الأسدي واسمه محرز بن نضلة على فرسه، وطلب منه سلمة التريث وألا يغامر وحده بإنشاب المعركة، لكنه أصر على قتال الغزاة فقاتل عبد الرحمٰن بن عيينة فقتل فرسه لكن ابن عيينة تمكن من قتله وأخذ فرسه، ثم حضر أبو قتادة فلحق بعبد الرحمٰن وقاتله فطعنه، فانطلقوا هاربين، ثم نزلوا على ماء يقال

له: ذو قَرَد ليشربوا منه وهم عطاش، فلما رأوا سلمة غادروه ولم يتمكنوا من شرب قطرة منه، ثم رمى أحدهم بسهم فقتله، ثم ترك القوم فرسين فجاء بهما وعاد إلى رسول الله ﷺ فكان نازلاً على الماء بقرد وقد نحروا جملاً وجلس بلال يشوي لهم اللحم، فقال سلمة: لو انتخبت مائة رجل نتابع القوم، فضحك عليه الصلاة والسلام وقال: «**إنهم ليقرون بأرض غطفان**»، وبات المسلمون ليلتهم، وعند الصباح قال رسول الله ﷺ: «**خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالنا سلمة بن الأكوع**»، فأعطاه رسول الله ﷺ سهم الفارس وسهم الراجل، وفي هذه الغزوة لما جاء الصريخ بشأن غارة غطفان «يا خيل الله اركبي».

❋ ❋ ❋

غزوة بني المصطلق

كانت في شعبان سنة ست للهجرة، فقد وصلت الأخبار للنبي ﷺ أن بني المصطلق تجمعوا بقيادة الحارث بن أبي ضرار، فلما سمع بهم خرج بجيشه ليقاتلهم، فلقيهم على ماء المريسيع عند قُديد، فاقتتلوا، فانهزم بنو المصطلق تاركين وراءهم عدداً من القتلى والمصابين، وغنم المسلمون أموالاً وسبايا كثيرة، فقسمها بين أصحابه وفيهم جويرية بنت الحارث، فوقعت في سهم ـ من نصيب ـ ثابت بن قيس، فكاتبته على مبلغ من المال فأتت النبي ﷺ تستعين به على سداد مكاتبتها، فقال لها: «**هل في خير من ذلك؟**» قالت: وما هو؟ قال: «**أقضي مكاتبتك وأتزوجك**»، قالت: نعم يا رسول الله، ففعل، وسمع الناس الخبر فقالوا: أصهار رسول الله، فأعتقوا أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها.

❋ ❋ ❋

أحداث في هذه الغزوة

- قتل من المسلمين هشام بن صبابة، قتله خطأ رجل من الأنصار من الخزرج وهو يظنه من العدو.

- حدث خلاف على الماء والناس يستقون بين جهجاه خادم عمر بن الخطاب وهو من غفار، وبين وسنان الجهني حليف الخزرج، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم - غلام حديث السن - فقال: أقد فعلوها ! كاثرونا في بلادنا! أما والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ثم قال لمن حضره من قومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم، ونقلها زيد إلى النبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله مر عبّاد بن بشر فليقتله، فقال النبي ﷺ: «**كيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»، ولكن أذن بالرحيل، فارتحل الناس، في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فقال أسيد بن حضير: يا رسول الله رحت في ساعة لم تكن تروح فيها، فقال: «**أو ما بلغك ما قال عبدالله بن أبي؟**» قال: وماذا قال؟ قال: «**زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**»، قال أسيد: فأنت والله تخرجه إن شئت فإنك العزيز وهو الذليل، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد من الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً، وأتى ابن سلول إلى النبي ﷺ وحلف: أنني ما قلتُ هذا ولا تكلمتُ به، فقال الجالسون: لعل الغلام أخطأ في النقل ولاموه، فأنزل الله ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾
سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ
حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾
يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون] فلما نزلت بعث رسول الله إلى زيد بن أرقم فقال: «**إن الله قد أنزل عذرك وصدقك**» وفي رواية أنه لما حلف ابن سلول أنه ما قال الذي نقل عنه كذّب الناسُ زيد بن أرقم، فنام مهتماً، قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خفقتُ برأسي من الهم إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرني أن لي الخلد بها في الدنيا، فلحقني أبو بكر وقال ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قلت: ما قال شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي، فقال: أبشر، وكذلك فعل عمر، وجاء ولده عبدالله بن أبي ـ وهو مسلم نقي تقي ـ بأبيه إلى رسول الله ﷺ وهو يقول له والله لا تنفلت حتى تقرَّ أنك الذليل ورسول الله العزيز، ففعل، وروي، أنه قال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ولئن شئت آتيك برأسه لأتيتك فإني أكره أن أرى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**» فكان بعد ذلك إذا أحدث أمراً عاتبه قومه وعنفوه وتوعدوه، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «**كيف ترى ذلك يا عمر**؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت له آنُف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: أمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

ـ حضر مقيس بن صبابة إلى المدينة على أنه مسلم وطالب بدية أخيه هشام الذي قتل خطأ، فأعطاه النبي ﷺ دية أخيه، ثم أقام فترة في المدينة فعدا على قاتل أخيه فقتله ثم هرب إلى مكة مرتداً.

ـ **وفي غزوة بني المصطلق كان حديث الإفك**، وفيه أن النبي ﷺ لما

رجع من غزوة بني المصطلق ونادوا بالرحيل وكانت عائشة في صحبته، خرجت ليلاً لقضاء حاجتها ثم عادت وتجهزت للرحيل وقبل أن تركب الهودج فقدت عقدها في المكان الذي كانت فيه، فأسرعت إلى ذلك المكان تبحث عنه فلما وجدته عادت فإذا بالناس قد رحلوا وظن الموكل بالهودج أنها داخله وقاد مع الناس، فلما حصل ما حصل مكثت في مكانها وتلفعت بمرطها تنتظر أن يطلبوها عندما يفتقدونها، وكان صفوان بن المعطل مكلف بمسح المكان وتفقده، فرآها فقدم بعيره بعد أن استرجع وقال اركبي فركبت، فساق بها إلى أن أدرك الجيش، ولما رآه المنافقون أشاعوا الفاحشة وأولوا هذا التأخير إلى الوقوع بها وبصفوان، وتصاعد الكلام حتى وصل إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر، وحدث أن توعكت عائشة وألم بها المرض وارتفعت درجة حرارتها، وشعرت بجفوة من رسول الله ﷺ، فكانت أمها تمرضها وإذا دخل عليها رسول الله ﷺ سأل أمها كيف تيكم لا يزيد على ذلك، فلما رأت هذه الجفوة ـ وهي لا تزال لم تسمع بما رماها به المنافقون ومن ضعف إيمانه وشك في بيت النبوة ـ طلبت من الرسول ﷺ أن تمرض في بيت أمها فأذن لها، وما نقهت من مرضها إلا بعد أكثر من عشرين ليلة، ثم تسرب لها الخبر، عن طريق أم مسطح، فقد خرجت معها ليلاً لقضاء حاجتها، فعثرت أم مسطح بمرطها، فقالت: تعس مسطح، فقالت عائشة: لعمر الله بئس ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتها بما يدور في المدينة، فعادت إلى منزلها وهي تبكي، وقالت لأمها: تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ فهدأت أمها مما أصابها وقالت لها: أي بنية خفّضي عليك فوالله قل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثّر الناس عليها، ولما مضت هذه المدة والناس في أخذ ورد كلما خفت الكلام حركه المنافقون، فخطب رسول الله ﷺ وقال: **«أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهن غير الحق، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً وما دخل بيتاً من بيوتي إلا معي ـ يقصد به صفوان بن المعطل** ـ وكان الذي يحرك الفتنة ابن سلول مع مسطح

وحمنة بنت جحش أخت زينب من باب كيد الضرائر وهي تنتصر لأختها دون رضا زينب بهذا، وتحرك المخلصون من الصحابة، فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله إن كانوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك، فقال سعد بن عبادة: والله ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، وكاد الشر يقع، ثم دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فقال خيراً، وأما علي فقال: النساء كثير وسل الخادم تصدقك، فدعا بريرة فقال: اصدقيني القول فقالت: خيراً وما أعيب عليها إلا أنها كانت تنام عن عجينها فيأتي الداجن فيأكله، فهي على هذا غاية في الطيبة والعفاف، ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فإن كنتِ قارفت سوءاً فتوبي إلى الله**، فقالت لأبويها ألا تجيبانه؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيب! فاستعبرت ثم قالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله لئن أقررت ـ والله يعلم إني بريئة ـ لتصدقني ولئن أنكرت لا تصدّقني، ولكني أقول كما قال أبو يوسف ـ نسيت اسمه وهو يعقوب ـ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ولهذا الموقف الرهيب الذي خيم على بيت النبوة وعلى بيت أبي بكر، وإنه والله لساعة شديدة، ولمصيبة وقعها على النفس أليم فكان لا بد من تدخل الوحي ليزيل هذه الغمة بالنبأ اليقين، فما برح رسول الله ﷺ مكانه حتى أتاه الوحي، وإن أبا بكر لفي فرق كبير خشية أن يصدق كلامُ الناس، فلما سري عن رسول الله ﷺ وإنه ليتحدر عنه مثل الجمان، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: «**أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك**» فقلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وذكر لهم ما أنزل الله فيّ من القرآن، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم، وأنزل الله في ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا

جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ
عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ
هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾
[النور] وبهذه الآيات الكريمة برّأ الله بيت النبوة مما أراد المنافقون أن يرموه به وخرج المسلمون وهم أكثر قوة وإيماناً.

***

وصايا مستخلصة من هذه الآيات

إن أهمية الوصايا تكمن في أهمية سبب النزول، إن هذا الحدث الذي اهتزت له المدينة والذي يتعلق مباشرة ببيت النبوة قد وجه الأنظار إلى أمر خطير إذا استشرى في المجتمع دمره وشل قواه، وبانتشاره يصبح المسلمون غرضاً سهلاً لأعدائهم، وكما ركز الدين الإسلامي على طهر المجتمع وعفافه وأن اختراقه من هذا الجانب مذل ومهين ومخالف لتعاليم الدين القويمة، فإن حمايته أيضاً تستوجب إحاطته بسياج قوي كيلا يخترق، فإذا ما تآمر قوم على تشويه سمعة أحد المسلمين أو إحدى المسلمات وأشاعوا ما أرادوا من تهم ثم تُرك هذا الأمر بلا ضوابط فإن البناء الإسلامي سينهار، ولذلك كانت الحماية على قدر عِظم النتيجة، فجاءت هذه الآيات لتوقظ عقول المسلمين ولتضع حداً لمثل هذه التهم.

ـ سمى الله هذه الحادثة بالإفك، وهو قمة الكذب والفرية مع الظلم وأسوأ أنواع الكذب الذي ينتج عنه تدمير المجتمعات.

ـ ذُكر الذين أشاعوه بأنهم عصبة تكتلوا من أجل الكيد للمسلمين وهم المنافقون، ومع ذلك فلا تحسبوا أيها المسلمون أن في إشاعته قد انتصر الشر، وإنما في ذلك خير من أجل أن تعرفوا مكائد الأعداء ولكي تتنبهوا

لها كما أن هذه التهمة قد نزل بها تشريع يعرفكم على كيفية التعامل مع مثل هذه التهم ضمن ضوابط ربانية.

ـ توعد أصحابَ الإفك بالعذاب كلاً على حسب خوضه فيها، ورأس الفتنة الذي تولى إشاعتها سيناله قسط من العذاب الأليم.

ـ تنبيه المسلمين إلى كيفية التعامل مع هذه الإشاعات والتهم، وعدم الانسياق وراءها كأنها حقيقية، وعليكم أيها المسلمون دائماً أن تظنوا بأنفسكم وبإخوانكم جميعاً الخير، وهو المقدم، لأن جانب الخير عند المسلم هو الأصل، والانحراف هو النادر، ولا ينبغي تقديم النادر على الأغلب الأعم، فإذا ما ظهر في المجتمع مثل هذه التهم لأي مسلم ـ والمسلمون جسد واحد ـ عليهم أن يقولوا هذه فرية وتهمة، فلا يخوضوا فيها، وكما يقال اليوم: **المتهم بريء حتى تثبت إدانته.**

ـ ثم أتت القواعد التي تدين المتهم أو تبرّئه، وأن مثل هذه الأمور الخطيرة ـ التي لها أثرها الخطير على سلامة المجتمع الإسلامي ـ لا تثبت إلا بأربعة شهود يشهدون على أنهم رأوا وقوع الزنا بين فلان وفلانة رؤية واضحة لا لبس فيها، فالتهمة بلا شهود تعد باطلة وأصحابها كاذبون مفترون مؤاخذون على أقوالهم.

ـ الأمر الذي تكلم به الناس عظيم خطره وإن من رحمة الله وفضله على المسلمين أن رحمهم فلم يُنزل بهذا الشأن غضبه وعذابه عليهم وربما لأنها المرة الأولى التي يمرون فيها بهذه التجربة فلم تكن لديهم خبرة في التعامل معها كما ينبغي فأخطؤوا.

ـ بيان انتقال الإشاعة من لسان إلى لسان دون التثبت من صدق المصدر ومعرفته، وهذا الأمر خطير لأنه يسهّل غرض المغرضين، فلو كانت مثل هذه التهمة مؤكدة لما ينبغي إذاعتها فكيف بها وهي باطلة؟ فالأولى عدم نقل مثل هذه الأخبار، فلو أن كل واحد من المجتمع قد تكتم عليها ودفنها عنده لما وصلت إلى غيره، فلا تكونوا سبب نقل ما ليس لكم به علم أو تأكد من صحته فبهذا تشاركون في الإثم المترتب على هذه التهمة.

ـ وكان عليكم أيها المسلمون عندما سمعتم بهذه الفرية التي تتهم زوج نبيكم ومثلكم الأعلى النقي الطاهر وقد عرفتموه بذلك، أن تقولوا: **سبحانك هذا بهتان عظيم**.

ـ وبعد هذه التجربة العملية التي مررتم بها إياكم أن تعودوا لتصديق الإشاعات والتهم الكاذبة التي تقضي على وحدة المسلمين وتماسكهم، فهذا درس بليغ عليكم الاستفادة منه، والعاقل من تحنكه التجارب.

ـ وقد وردت في ثلاث آيات متتاليات عبارات ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ و﴿عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ و﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فلهذا دلالته على الحدث والأهمية التي وصلت إلى منتهاها في فرية الإفك فكانت تستحق العقاب العظيم لأن جرمها عند الله عظيم ولأنها بهتان عظيم.

وبعد بيان تبرئة عائشة رضي الله عنها وبيان الموقف الذي كان يجب أن يكون عليه المسلمون، هدأ الخطاب قليلاً لأنه أصبح يقعد لبناء خلق المسلم والتزامه بالأخوة الإسلامية وأن المسلم يصون عرض إخوانه ويمنع أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بل ويغضب أشد الغضب إذا رأى منكراً أو فاحشة قد انتشرت في مجتمعه أو بين إخوانه المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور]، وكان أبو بكر يُنعم على مسطح ويساعده مادياً، ولما خاض في حديث الإفك أقسم أبو بكر أن يقطع عنه المساعدة لأنه لا يستحقها، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور] فتراجع أبو بكر رضي الله عنه عن قراره وقال: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي، وأعاد إلى مسطح نفقته، ثم جاء التهديد القوي والقانون الرباني الذي سنه الله تعالى ليردع أولئك

المفترين الذين يرمون المحصنات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣)﴾ وهناك لا يستطيعون الإنكار مهما أقسموا كما فعل ابن سلول ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ (٢٥)﴾ ثم وضع الله مكانة الخبيثين والخبيثات وأنهم مناسبون بعضهم لبعض لصفات الخسة والوضاعة، ورفع الله تعالى مكانة المؤمنين والمؤمنات بأن بعضهم لبعض لصفات السمو الروحي والطهر والعفاف ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٢٦)﴾ [النور].

❊ ❊ ❊

صلح الحديبية

في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة قصد رسول الله ﷺ مكة معتمراً ومعه ألف وأربعمائة وقيل أكثر من أصحابه من المهاجرين والأنصار يريدون أداء العمرة ولا يقصدون حرباً، وساق النبي ﷺ معه الهدي وكان سبعين بدنة وذلك ليعلم الناس أنه إنما جاء معتمراً لا محارباً، ولقي النبي ﷺ عندما بلغ عسفان بسر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش علمت بمسيرك فاجتمعوا بذي طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وقد قدموا خالد بن الوليد بفرسان يقودهم إلى كراع الغميم، فلما بلّغه بسرٌ ما فعلت قريش، قال: «**يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ! ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين، والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة**» كلام فيه شفقة وحنين إلى قومه وأهله وعشيرته يرجو لهم الهداية ووفرة السلامة، ولكن عندما يتعارض فكرهم وجهدهم مع رسالة الله فلا خيار له في المجابهة وقمع من يصد عن سبيل الله، واستمر في مسيرته ولكن مع تغيير الطريق إلى مكة لكي يتجاوز

جيش خالد فلا يصطدم معه، وسلك ثنية مُرار ثم هبط الحديبية، وهناك بركت ناقته، فقال الناس: خلأت ـ امتنعت عن السير ـ القصواء فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم قال للناس**: «**انزلوا**، فقالوا: ما بالوادي من ماء، فأخذ سهماً من كنانته فأعطاه أحد أصحابه «ناجية بن عمير» فنزل في قليب من تلك القلُب فغرزه في جوفه، فجاش الماء بالري حتى ضرب الناس عنه بعطن ـ فاض ـ ثم أتاهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وقال للنبي ﷺ: لقد تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي على مياه الحديبية ـ يقصد الآبار ذات المياه ـ وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نأت لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن شاءت قريش ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، وإن أبو فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي** ـ صفحة العنق وتستعمل مرادفة لكلمة أُقتَل ـ فعاد بديل بن ورقاء إلى قريش فأعلمهم ما قاله النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود الثقفي، فقال: هذا الرجل عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فأتاه، فقال: يا محمد جمعت أوشاب الناس ـ أخلاطهم ـ ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم، إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل ـ النوق بأطفالها ـ قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله أنك لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وايم الله لكأني بهؤلاء قد تكشفوا عنك غداً، ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ـ على عادة الكبار في ذلك الوقت ـ والمغيرة بن شعبة في الحديد يحرس رسول الله ﷺ ويقرع يد عروة وهو يقول له: اكفف يدك قبل أن لا تصل إليك، فقال عروة: من هذا؟ قال النبي ﷺ: «**هذا ابن أخيك المغيرة**»، فقال: أي غدر !وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟ وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك وهرب فتهايج الحيان، فقام عروة ودفع دية المقتولين، وطال الكلام مع عروة، ولكنه لاحظ أن أصحاب النبي يحبونه حباً جماً لم يشهد مثله من قبل، فكان إذا توضأ تهافت الصحابة على ماء وضوئه كل يأخذ بكفه فيمسح بها جسمه

حتى النخامة لا تقع إلا في يد أحدهم ليتبرك بها، يأمرهم فيطيعون، وما يحد أحدهم النظر إليه تعظيماً، فرجع عروة إلى قريش وقال أي قوم ! قد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي فوالله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً، وقص عليهم ما رأى، ثم قام رجل من كنانة اسمه الحليس بن علقمة وهو سيد الأحابيش فقال: دعوني آتيه، فلما رآه النبي ﷺ قال: **هذا من قوم يعظمون البدن، فابعثوا الهدي في وجهه،** فلما رأى الهدي رجع إلى قريش ولم يصل إلى النبي ﷺ، فقال لقريش: يا قوم قد رأيت ما لا يحل صده، الهدي في قلائده، فقالوا: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك، فقال: والله ما على هذا حالفناكم أن تصدوا عن البيت من جاء معظماً له، والذي نفسي بيده لتخلنّ بين محمد وبين البيت أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا: مه! كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا، ثم أتى بعده مكرز بن عمرو ليكلم النبي ﷺ، فلما رآه النبي ﷺ قال: **هذا رجل فاجر**، ثم أتى بعده سهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: **سهل أمركم**، وكان مجيئه بعد أن أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ليخبرهم سبب قدومه وأنه يريد أداء العمرة والعودة وكان اختيار عثمان لمنعة قومه فلا يجرؤون على إيذائه، وقد أجاره أبان بن سعيد بن العاص وبلغهم الرسالة، فقالوا إن شئت فطف بالبيت، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبي ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ النبي ﷺ أنه قتل، فقال: **لا نبرح المكان حتى نناجز القوم**، فدعا إلى البيعة، فبايعوه تحت شجرة سمرة ولم يتخلف عنه أحد سوى الجد بن قيس وقد ذكر اسمه مع المنافقين، وقد سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان لأن الله تعالى رضي عنهم جميعاً، وجاء سهيل بن عمرو وحدثت مباحثات بينه وبين النبي ﷺ وطالت وكان مفوضاً من قريش بتوقيع عهد أو صلح بشروط حددتها له قريش، وبعد الاتفاق على شروط الصلح دعا النبي ﷺ علياً ليكتب الصلح، فقال رسول الله ﷺ: **اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم**، فقال سهيل لا نعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللّهم، فكتبها، ثم قال: **اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو**، فقال سهيل: لو نعلم

أنك رسول الله لم نقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، وكان علي قد كتبها، فقال رسول الله ﷺ لعلي **امح رسول الله**، فقال علي: لا أمحوك أبداً، فأخذه رسول الله ﷺ وقال **ضع يدي عليها فوضعها فمسحها بريقه**، وقال: **اكتب محمد بن عبدالله**، وذكر أنه قال لعلي لتبلين بمثلها وكان ذلك في التحكيم، ثم اصطلحا على إيقاف الحرب عشر سنين، وأن يعودوا أدراجهم ويعتمروا في العام القادم ليس معهم سوى سلاح الراكب والسيف في القرب ولا يزيدوا على ثلاثة أيام، أن من جاء من قريش مسلماً يرد إلى قريش، ومن جاء من المسلمين إلى قريش ـ مرتداً ـ لا يُرد إليهم، ومن أحب أن يدخل في حلف مع قريش فله ذلك ومن أراد أن يدخل في حلف مع المسلمين فله ذلك، فدخلت قبيلة بكر في حلف قريش، ودخلت قبيلة خزاعة في حلف مع المسلمين، وشهد على الصلح جماعة من المسلمين، منهم: أبو بكر وعمر وعبدالرحمٰن بن عوف وغيرهم كما شهد جماعة من المشركين، وورد خبر الحديبية عند البخاري وأحمد والترمذي.

❊ ❊ ❊

صدى الصلح عند المسلمين

ـ أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنه رأى رؤيا أنه اعتمر، فما شكوا بأنه معتمر هذا العام، ولما سمعوا بهذه الشروط اضطربوا وتكلموا وكادوا أن يشككوا بما حصل.

ـ قبل التوقيع وبعد الاتفاق جاء أبو جندل مسلماً فقام سهيل بن عمر وأمسك به وقال لقد تم الاتفاق بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، وهو ابن سهيل بن عمرو، فقال عليه الصلاة والسلام: «**صدقت**»، وأخذه ليرده إلى قريش، فصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين أُردّ إلى المشركين ليفتنوني عن ديني، فقال النبي ﷺ: «**احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً و مخرجاً إنا قد أعطينا القوم عهودنا على ذلك فلا نغدر بهم**».

ـ طلب النبي ﷺ من أصحابه أن ينحروا هديهم ويحلقوا، فتقاعسوا ليس عصياناً وإنما على أمل أن يحدث أمر ما فيؤدون عمرتهم، فدخل على أم سلمة فشكا لها تقاعسهم، فأشارت بأن ينحر النبي ﷺ هديه ويحلق ليقطع الشك باليقين، ففعل فقام الصحابة ونحروا هديهم.

ـ وفاء الصحابة لنبيهم فبايعوه على الموت تحت الشجرة، كما أن عثمان أبى أن يطوف بالبيت رغم شوقه إلى ذلك إلا بعد أن يطوف به رسول الله ﷺ.

ـ بعد عودة المسلمين إلى المدينة أتى أبو بصير مسلماً فقال له رسول الله ﷺ: «**قد علمتَ أنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً ولا يصلح الغدر في ديننا**»، وسلمه إلى مبعوثي قريش، لكنه في الطريق قتل أحدهما وهرب الآخر إلى المدينة، وأخبر رسول الله ﷺ بما فعله أبو بصير، وعاد أبو بصير وقال: يا رسول الله قد وفت ذمتك وأنجاني الله منهما، فقال النبي ﷺ: **ويل أمه مسعر حرب لو كان له رجال**، وعرف من هذا أن النبي ﷺ سيرده، فخرج فنزل بناحية ذي المروة على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشام، وكون فيما بعد عصابة تزايد عددها فقطعت طريق التجارة على قريش، فهم ليسوا تحت رعاية المسلمين حتى يكفوهم، لذلك لم يكن لقريش بد من أن يطلبوا من النبي ﷺ أن يضمهم إليه ليسلموا من شرهم، وهكذا تنازلوا عن هذا الشرط، وهو رد من أتى من قريش مسلماً.

ـ هاجر في فترة الصلح نساء مسلمات، فلم يردهن النبي ﷺ لأن المرأة لم يشملها نص الرد، فهو خاص بالرجال، ونزل في ذلك قرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة] كما فارق عدد من المسلمين نساء لهم بقين على الشرك في مكة.

ـ ظن بعض المسلمين أن هذا الصلح ليس في مصلحة المسلمين،

فتبين عكس ذلك حتى سمي الصلح فتح الفتوح، وذلك للأمور التالية:

ـ بث النبي ﷺ عدداً من السرايا، منها: سرية عكاشة بن محصن إلى العمق، وسرية محمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة، وسرية أبي عبيدة إلى ذي القصة، وسرية زيد بن حارثة إلى الجموم، ثم إلى العيص، وإلى الطرّف وإلى حسمى، وإلى وادي القرى، وسرية عبدالرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل وسرية علي بن أبي طالب إلى فدك، وسرية أبي بكر ومعه سلمة بن الأكوع، وقد نفله أبو بكر امرأة من أجمل العرب، فلقيه النبي ﷺ في سوق المدينة فقال له: **لله أبوك يا سلمة هب لي المرأة**، فقال سلمة: والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً، ثم وهبها إلى النبي ﷺ فأرسلها إلى مكة وفادى بها أسارى من المسلمين.

ـ تفرغ النبي ﷺ لغزوة خيبر ليجتث تآمر اليهود الذين تجمعوا فيها ممن خرج من المدينة.

ـ تفرغ النبي ﷺ لإرسال الرسل والكتب لدعوة الفرس والروم ومتنصرة العرب إلى الإسلام.

ـ تفرغ النبي ﷺ لحرب الروم وإرسال المقاتلين إلى مؤتة.

ـ دخل في الإسلام أعداد كبيرة من العرب فزاد عدد المسلمين.

❊ ❊ ❊

ما نزل فيها من القرآن

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح] رأى النبي ﷺ عام الحديبية رؤيا أسعدته ورؤيا الأنبياء حق، بأنه وأصحابه دخلوا المسجد الحرام آمنين فأدوا العمرة وكانوا ما بين محلق ومقصر كما بشرهم بالفتح، لكن لما صدوا عن المسجد الحرام وعقدوا صلح الحديبية وأن عمرتهم قد تأجلت إلى قابل،

شق عليهم، فقال المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فقال النبي ﷺ: **لم أقل هذا العام**، ثم أخبر القرآن الكريم عن مجريات الصلح بدءاً من البيعة، فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح] ولكن البيعة تحت الشجرة كانت من قلوب حملت الوفاء والإخلاص لذلك مدحهم الله ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح]، وبعد البيعة استعد النبي ﷺ لقتالهم ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ وقد حاول القرشيون أن يختبروا قوة المسلمين فطافت خيلهم بمعسكر المسلمين، فوقع ثمانون منهم في الأسر وفر الباقي، وأخذ الأسرى إلى الرسول ﷺ فعفا عنهم وأطلق سراحهم ليبرهن لهم أنه إنما أتى للعمرة لا للقتال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح] ثم بين أن المعتدين هم الذين يصدون الناس عن المسجد الحرام حيث قَدِمَ المسلمون لأداء العمرة وكان هديهم معهم مقلّداً ومحبوساً ينتظر أن يُهدى في الحرم وينحر في مكانه المخصص ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح] لقد بين الله تعالى أن هذا الكف كان بسبب وجود مسلمين ومسلمات في مكة وقد يتأذون من القتال ويصيبهم الأذى أو القتل وأنتم لا تعرفونهم لأنهم يكتمون إسلامهم عن أهل مكة خشية الإيذاء، ولو تميزوا عن الكفار بعلامة معينة لسلطكم الله عندئذ على الكفار قتلاً وأسراً، ثم بين سبحانه وتعالى نفسية قريش وصلفهم في عدم السماح للمسلمين بالعمرة وتلقي ذلك من قبل رسول الله ﷺ بالصبر والسعي للصلح ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح].

ـ وفي الصحيحين وغيرهما عن سهل بن حنيف قال: «فلقد رأيتنا يوم الحديبية، يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: **يا بن الخطاب إني رسول الله ولم يضيعني الله أبداً**، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: يا بن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها، قال: يا رسول الله أفتح هو؟ قال: **نعم**» ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ يعني صلح الحديبية، فهو الفتح المبين وقد ظهرت نتائجه لاحقاً وتبينها الصحابة جلية بكثرة الداخلين في الإسلام وبالخيرات التي أقبلت.

❊ ❊ ❊

دعوة الملوك إلى الإسلام

تفرغ النبي ﷺ بعد صلح الحديبية إلى الدعوة في الآفاق وإلى مراسلة ملوك الفرس والروم والقبط، فأرسل لهم الكتب التي تدعوهم إلى الإسلام.

ـ **أرسل** حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، فقبل كتاب النبي ﷺ وأهدى إليه مارية القبطية وأختها ومعهما خادم وحمار واسمه يعفور.

ـ **أرسل** شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما قرأه قال: أنا ثائر إليه ثم قتل شجاع بن وهب.

ـ **وأرسل** دحية الكلبي إلى قيصر «هرقل» فاستشار صاحب رومية فقال له: إنه النبي الذي كنا ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقه، فجمع أهل الدين عنده وعرض عليهم الأمر وأنه يريد الدخول في الإسلام فنخروا عليه نخرة واحدة وهددوه في ملكه فصرف النظر، وقيل أرسل بطلب رجل من العرب فأتوا بأبي سفيان وكان في تجارة بالشام فأحضروه وسأله هرقل عن النبي الذي ظهر عندهم وعن صفاته وأخلاقه حتى وقر في قلبه ـ بعد أجوبة أبي سفيان ـ أنه النبي المنتظر، لكنه قال لدحية: إن صاحبك نبي مرسل ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته، وروي أيضاً أن هرقل أرسله إلى الأسقف الأعظم ضغاطر وعرض عليه كتاب النبي ﷺ فصدقه، ثم جمع الروم في الكنيسة وقال: يا معشر الروم قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فوثبوا عليه فقتلوه.

ـ **وأرسل** عبدالله بن حذافة إلى كسرى، فأعطاه كسرى فمزقه، وكاد يقتل عبدالله، فدعا عليه رسول الله ﷺ بأن يمزق الله ملكه، وأرسل كسرى إلى عامله باذان في اليمن أن يرسل رجلين جلدين فليأتيا بمحمد، وقدما المدينة، فأخبرهما رسول الله ﷺ أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، وبعث معهما إلى باذان يدعوه إلى الإسلام ويقره على اليمن فأسلم باذان.

ـ **وأرسل** عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فلما سلمه الكتاب آمن وعز المسلمون في الحبشة وكانوا لا يزالون في الحبشة مع جعفر في أمان، وحدث أن ارتد عبيدالله بن جحش فانفصلت عنه زوجته رملة بنت أبي سفيان فطلب النبي ﷺ من النجاشي أن يزوجه رملة ففعل وأصدقها أربعمائة دينار فلما سمع أبو سفيان بهذا الزواج قال: ذاك الفحل لا يقدع أنفه، وعاد المسلمون بعد ذلك من الحبشة في السنة السابعة عام فتح خيبر.

ـ **وأرسل** العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين ـ الأحساء ـ من قبل الفرس، فلما قرأ الخطاب أسلم وأسلم عرب تلك

المنطقة، ومن كان فيها من الفرس أو اليهود أو النصارى فترك لهم حرية الاختيار بين الإسلام أو الجزية.

- **وأرسل سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي ملك اليمامة** - وكان نصرانياً - فلما قرأ الكتاب أرسل وفداً إلى رسول الله ﷺ يقولون له: إن أشركته في هذا الأمر من بعدك أسلم وسار إليك ونصرك، وإلا فسيقصدك لحربك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا ولا كرامة، اللّهم اكفنيه**»، فمات بعد قليل.

نموذج من خطاب النبي للملوك: **بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإني أدعوك بدعاء الله، وإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر** ﴿مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] لقد تفرغ النبي ﷺ للدعوة العالمية بعد صلح الحديبية منفذاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] وأي رحمة بهؤلاء العالمين أفضل من أن يدعوهم إلى الإسلام وينقذهم من ضلال الكفر وعذاب جهنم الأبدي ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

❊ ❊ ❊

غزوة خيبر

أصبحت خيبر مصدر خطر على المسلمين، ومكان تجمع لليهود والمنافقين للتآمر على المسلمين وتهييج الخصوم لشن الحروب عليهم، ومر سابقاً أن غزوة الخندق كانت بتحريض من يهود خيبر ومن الفاسق الكبير العميل للروم «أبو عامر الراهب» فكان لا بد من اجتثاث المتآمرين في

خيبر، فخرج النبي ﷺ إلى خيبر في ألف وأربعمائة مقاتل ومعهم مائتا فارس، ونزل عند الرجيع بجيشه ليقطع طريق التقاء اليهود مع أحلافهم من غطفان، كما يُشعر بهذا غطفان بأن أي مدد منهم لليهود سيعرض ديارهم للغزو بسبب فقدان المقاتلين عندهم، ولذلك ضمن بهذا الموقع تحييد غطفان والانفراد بيهود خيبر، ثم زحف الجيش نحو حصون خيبر ليلاً وعند الصباح خرج أهالي خيبر من حصونهم للعمل في المزارع وكانت المفاجأة، فعادوا أدراجهم وهم يصيحون محمد والخميس أي والجيش، فقال النبي ﷺ: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم (فساء صباح المنذَرين)** ثم حصرهم وضيق عليهم فأخذهم حصناً حصناً ومالاً مالاً، فكان أول حصن فتحه المسلمون حصن ناعم، ثم القموص وهو لبني أبي الحقيق وفيهم الربيع بن أبي الحقيق، وكان فيه سبايا منهم صفية بنت حيي زوجة الربيع فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، ثم حصن الصعب وكان أكثرها طعاماً ثم حصن الوطيح والسُّلالم وهو آخرها.

❊ ❊ ❊

أحداث في غزوة خيبر

ـ كان عامر بن الأكوع ذا صوت حسن في الحداء، فقال له النبي ﷺ: «**احدُ لنا**» فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا
وثبتِ الأقدام إن لاقينا

فقال له رسول الله ﷺ: «**رحمك الله!**» فقال له عمر: هلا أمتعتنا به يا رسول الله ! وكان إذا قالها لرجل قتل، فلما نازلوا خيبر، بارز عامر بن

الأكوع مرحب، وكان قد بدأ يلاعب سيفه فارتد عليه فجرحه جرحاً بليغاً، فمات منه، فقال الناس قتل نفسه، فأتى سلمة النبيَّ ﷺ فأخبره بما قالوا، فقال: «**كذبوا بل له أجره مرتين**».

ـ كان من عادة النبي ﷺ إذا قدم على قرية يريد أن يفتحها يقول: «**اللَّهم رب السمٰوات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله**».

ـ الإحسان لا يضيع مع المسلمين، فقد مَنَّ الزبير بن باطا اليهودي على ثابت بن قيس يوم بعاث فأطلقه، فأراد أن يكافئه على معروفه القديم وقد نزل بهم ما نزل من الحصار والإجلاء، فأتاه ثابت فقال له: أتعرفني، فقال ابن باطا: وهل يجهل مثلي مثلك، قال: أريد أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: كان للزبير بن باطا عندي يد أريد أن أجزيه بها فهبه لي، فوهبه له، فأتاه فقال له: إن النبي ﷺ قد وهب دمك لي فهو لك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فاستوهب ثابت من رسول الله ﷺ أهله وولده فوهبهم له، فمن عليه بالجميع، ثم بدأ ابن باطا يتذكر فلاناً وفلاناً وكلهم قتلوا، فقال: فوالله ما في العيش بعدهم خير وطلب من ثابت بما له عنده من يد أن يقتله ويلحقه بالقوم فقتله.

ـ وبعد مقتل عامر بن الأكوع اشتط مرحب في صلفه وطلب آخرين للمبارزة، فبرز له علي بن أبي طالب، فخرج إليه والنبي ﷺ يقول: «**اللَّهم أعنه عليه**»، فقتله، ثم خرج أخوه ياسر فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله.

ـ أخذت النبي ﷺ الشقيقة، فمكث يومين لا يخرج، وفي أثناء ذلك أخذ الراية أبو بكر فقاتل نهاره فلم يفتح الله على يديه، ثم أخذها عمر فلم يفتح الله على يديه، فخرج النبي ﷺ في اليوم الثالث فقال: «**لأعطين الراية رجلاً يحب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه**»، فتشوف لها الناس، ثم دعا علياً وكان قد أصابه الرمد فتفل في عينيه فبرئ ثم أعطاه الراية ففتح الله على

يديه، وقتل مرحب ثم تقدم نحو الحصن، قال أبو رافع، فخرج إليه أهل الحصن فقاتلهم وسقطت الترس من يده فتناول باباً كان عند الحصن وترس به فقاتلهم حتى غلبهم وفتح الحصن.

ـ لما فتحت خيبر مر بلال على قتلى من اليهود وكان معه صفية بنت حيي وامرأة أخرى فلما رأت تلك المرأة القتلى صرخت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فقال النبي ﷺ لبلال: **أنُزِعت منك الرحمة جئت بهما على قتلاهما**، ثم اصطفى لنفسه صفية وأبعد الأخرى وقال: «**إنها شيطانة لصراخها**»، وكانت صفية قد رأت حلماً أن قمراً وقع في حجرها فقصت رؤياها على زوجها، فلطمها على وجهها وقال ما أراك إلا تتمنين محمداً، وقد اخضرت عينها من اللطمة، فما هو إلا زمن يسير قد مضى ثم تحققت رؤيا صفية، فقد أسلمت وانضمت إلى زوجات النبي القانتات العابدات.

ـ لما أيقن ساكنو حصني الوطيح والسلالم بالهلكة وقذف الله في قلوبهم الرعب سألوا النبي ﷺ أن يسلموه ما بأيديهم ويحقن دماءهم ويسيرهم فقبل منهم ذلك، وكذلك فعل جيرانهم أهل قرية فدك، ثم إنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يبقوا في خيبر على النصف مما تخرج الأرض **فقبل ذلك على أن يخرجهم منها متى شاء**، ومثل ذلك فعل أهل فدك، فكانت خيبر فيئاً للمسلمين وفدك فيئاً خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يجلب عليهم بخيل ولا ركاب، واستقر الأمر على هذه الحال.

ـ أهدت امرأة سلام بن مشكم اليهودية واسمها زينب بنت الحارث شاة مصلية ـ مشوية ـ للنبي ﷺ، فلما تناول الذراع وأخذ منها مضغة لم يسغها وقال: «**إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة**»، وأكل منها معه بشر بن البراء فأثر السم فيه ومات، فاستدعى النبي ﷺ زينب وقال لها: «**ما حملك على ذلك؟** قالت: بلغتَ من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكاً استرحنا منه، فتجاوز عنها، وقيل استقاد منها لموت بشر بسبب السم، وورد أنه ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «**هذا الأوان**

وجدت **انقطاع أبهري من أكلة خيبر»** فجمع الله له الشهادة مع كرامة النبوة.

ـ وفي هذه الغزوة حرمت لحوم الحمر الأهلية فكفئت القدور التي كانت تطبخ فيها، كما مُنع وطء الحبالى من السبايا حتى يضعن، وأن لا توطأ السبية إلا بعد أن يُستبرأ رحمها بحيضة، ونودي بتحريم نكاح المتعة.

ـ نهى النبي ﷺ عن الغلول ـ أخذ شيء من الغنائم قبل قسمتها ـ فقد أصيب أحد المسلمين بسهم قاتل، فقال الصحابة: هنيئاً له الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر لم يصبها المقاسم لتشتمل عليه ناراً**» وورد أن اسمه مدعم، وورد أن رجلاً من أشجع توفي يوم خيبر فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**صلوا على صاحبكم**» فتغيرت وجوه الناس من ذلك، فقال: «**إن صاحبكم غل في سبيل الله**» قالوا: ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود ما يساوي درهمين.

ـ وفي هذه السنة ـ أي يوم فتح خيبر ـ عاد مسلمو الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب، ولاقوا رسول الله ﷺ إلى بخيبر، ووافق قدومهم قدوم أبي موسى الأشعري مع الأشعريين، ولما رأى النبي ﷺ جعفراً قبل بين عينيه والتزمه وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**».

ـ وذكر أن عدد من استشهد في خيبر من المسلمين كان عشرين مقاتلاً.

❋❋❋

ما نزل من القرآن

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح] هؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية خوفاً من قريش يريدون أن يشاركوا في غزوة خيبر، فهي خاصة لأهل الحديبية، لذلك منعهم من المشاركة في غزوة خيبر، ثم قال

تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح] أي عجل لكم غنيمة خيبر لكي تعلموا مدى بركة صلح الحديبية وما أفاء الله عليكم بعده من المغانم والبقية تأتي، فالصلح إذاً كان لصالح المسلمين من وجوه كثيرة دعوية ومالية وانطلاقة قوة أعادت للمسلمين هيبتهم واحترامهم وبالتالي فقد توافد الناس لكسب ودّهم والدخول معهم في الإسلام، وقد مرّ معنا قبل الصلح مدى التآمر عليهم والغدر بهم للتقرب إلى قريش، كما في الرجيع وبئر معونة.

❊ ❊ ❊

غزوة وادي القرى

بعد خيبر انطلق رسول الله ﷺ إلى وادي القرى وفيه اليهود، فلما وصل جهز أصحابه للقتال، وأعطى الراية إلى سعد بن عبادة، وراية إلى سهل بن حنيف وراية أخرى إلى عباد بن بشر، ثم أرسل إليهم ودعاهم إلى الإسلام وأنهم بذلك يحرزون أموالهم وأنفسهم وحسابهم على الله، لكنهم أرادوا القتال، فبرز رجل منهم يطلب المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فبرز له علي فقتله، إلى أن قتل منهم أحد عشر رجلاً وكان بعد مقتل كل واحد منهم يدعوهم مجدداً إلى الإسلام، وكانت تحضر الصلاة فيصلي رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام، ثم أمسى، وفي الصباح باكرهم بالحرب، فلم ترتفع الشمس إلا قيد رمح حتى أعطى اليهود ما بأيديهم وأخذت بلادهم عنوة وغنم المسلمون أموالهم وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً، وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، فقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والنخيل في أيدي اليهود على ما عامل عليه أهل خيبر، وأما أهل تيماء فقبلوا بالجزية وحازوا أموالهم دون قتال، واستمر الوضع قائماً حتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنفذ فيهم قول رسول الله ﷺ «**لا يجتمع في جزيرة العرب دينان**» فخرجوا إلى الشام.

خبر الحجاج بن علاط

كان له أموال عند قريش، فاستأذن النبي ﷺ في جمعها فأذن له، قال الحجاج فائذن لي أن أتكلم ـ يتكلم كلاماً ضد المسلمين ـ فأذن له، فحضر إلى مكة ولم تعلم قريش بإسلامه، فسألوه إن كان يعرف شيئاً عن أخبار محمد، فأخبرهم أنه قاتل يهود في خيبر وأنه هزم وقتل كثير من أصحابه وأسروا وأسر معهم، وأن الحجاج أتى ليجمع ماله لعله يشتري أسرى من المسلمين، ففرحوا وجمعوا له ماله على وجه السرعة، وسرت الأفراح في كل بيت في مكة على أمل أن يأتيهم من الأخبار المزيد، ثم إن العباس علم بما قاله الحجاج، فأقبل إليه وسأله مستوضحاً الخبر، فأسر له بالحقيقة وبانتصار المسلمين، وقال: اكتم عني الخبر ثلاثة أيام خوف الطلب ثم قل ما بدا لك، فلما انقضت الأيام الثلاثة لبس حلة جديدة وطاف حول الكعبة، فلما رآه زعماء قريش قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد ـ أي تجلّدَ ولم يظهر حزنه ـ قال: كلا والله لقد افتتح محمد خيبر وأخذ ابنة ملكهم وأموالهم وأخبرهم خبر الحجاج، فدخلهم الغم وانمحى أثر الفرح من الوجوه، وهذا يظهر أنهم بالرغم من الصلح إلا أن القلوب حاقدة.

❊ ❊ ❊

عمرة القضاء

بعد انقضاء سنة على صلح الحديبية قدم المسلمون مكة معتمرين عمرة القضاء، وساق النبي ﷺ الهدي ـ سبعين بدنة ـ وقد أشاعت قريش أن المسلمين في شدة وجهد ومرض، فلما دخلوا مهللين ملبين وهم في غاية القوة، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يطّبعوا أثناء الطواف وذلك بكشف الكتف الأيمن إظهاراً للقوة، وقال: «**رحم الله امرأ أراهم من نفسه القوة**» وكان منظراً تاريخياً كبيراً لألف وأربعمائة صحابي يطوفون ويهللون والنبي ﷺ أمامهم على ناقته وقد أخذ بخطامها عبدالله بن رواحة وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا ربّ إني مؤمن بقيله أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله

فأقام النبي ﷺ بمكة ثلاثاً حسب الاتفاق، وتزوج بميمونة بنت الحارث، ودعاهم إلى حضور طعامه فأبوا وقالوا ليرحل عنا، فخرج وبنى بميمونة في سَرِف ـ موضع ـ وعاد إلى المدينة فأمضى بقية ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول ثم بعث بحملة مؤتة.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وذلك بعد عودة النبي ﷺ من عمرة القضاء، وهكذا تبين لهؤلاء الشبان بعد المراس والخبرة أن الإسلام دين الحق، فأتوا مسلمين خرج كل واحد منهم ولا يدري بالآخر فجمعهم الطريق إلى المدينة فأسلموا وأكرمهم رسول الله ﷺ وعرف لهم قدرهم ومكانتهم.

❋ ❋ ❋

غزوة ذات السلاسل

وهي أول غزوة يقودها عمرو بن العاص بعد إسلامه، حيث انطلق بجيشه إلى أرض بلي وعذرة يدعوهم إلى الإسلام، فلما كان على ماء السلاسل خاف العدو وقلة رجاله، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فأمده بأبي عبيدة ومعه عدد من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة: «**لا تختلفا**» فلما قدم أبو عبيدة قال عمرو أنت مدد لي فأنا أميرك، قال: لقد أوصاني رسول الله ﷺ وقال: «**لا تختلفا**» فإن عصيتني أطعتك، ثم صلى عمرو بالناس، وانطلق في غزوته إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي بعُمان، فآمنا وصدقا، وأخذ عمرو الجزية من المجوس.

❋ ❋ ❋

غزوة الخبط

بقيادة أبي عبيدة ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وزودهم النبي ﷺ بجراب من تمر، فكان أبو عبيدة يعطي القبضة ولما كاد أن ينفد أعطى التمرة الواحدة فكان الصحابة يمصونها مصاً ويشربون عليها الماء ثم اضطروا إلى أكل ورق الشجر ومن هنا سميت غزوة الخبط لخبطهم الشجر بالعصي لتلقي أوراقها، ولما أصبح المسلمون في حالة يرثى لها من الإجهاد ذبح لهم قيس بن سعد بن عبادة في كل يوم جزوراً فبلغت تسعة إلى أن نهاه أبو عبيدة للحاجة إلى الظهر، ثم ألقى لهم البحر حوتاً كبيراً لم يروا مثله فأكلوا.

❊ ❊ ❊

غزوة مؤته

كانت الغزوة رداً على الحارث بن أبي شمر الغساني الذي قتل حامل الرسالة، فتجهز المسلمون للغزوة فاجتمع ثلاثة آلاف مقاتل وجعل عليهم زيد بن حارثة وأوصى إن أصيب زيد فالقائد جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة، وشيع المسلمون في المدينة الجيش بالدعاء لهم بالنصر، وانطلق الجيش حتى وصل إلى معان من أرض الأردن ثم تقدم حتى قرية مؤته وهناك علم بحشد الروم بقيادة ملكهم هرقل الذي كان لا يزال في القدس فقدم أمامه مائة ألف مقاتل وانضم للروم مائة ألف من العرب المتنصرة من الغسانيين، وتردد المسلمون في لقاء هذا الجيش الضخم، ثم شجعهم عبدالله بن رواحة على الإقدام فقاتلوهم بصبر وثبات وصمدوا لهم عدة أيام فاستشهد زيد بن حارثة ثم جعفر ثم عبدالله بن رواحة، فاستلم القيادة خالد بن الوليد الذي قاتل بقية يومه حتى المساء، ثم انسحب تحت جنح الليل من المعركة بحيلة حربية أنقذ فيها المسلمين من الهزيمة وأن يركب العدو أكتافهم وهم منسحبون، وعلم النبي ﷺ بالوحي ما

حل بجيش مؤتة فأخبر أصحابه خبرهم وأنهم استشهدوا ورفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب، ثم قال: «**واستلم الراية سيف من سيوف الله**» ومن ذلك الوقت أصبح لقب خالد بن الوليد سيف الله، ولما عاد المسلمون إلى المدينة استقبلهم الناس بعدم الغبطة وقالوا لهم يا فُرّار، لكن النبي ﷺ قال: «**ليسوا بالفرّار ولكنهم الكرار إن شاء الله وأنا فئتهم**» أي منحاز لهم، استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلاً، ولم يذكر عدد قتلى الروم وأتباعهم، لكن ذكر أن تسعة أسياف اندقت في يد خالد ولم تثبت بيده إلا صمصامة قاتل بها، وهذا يدل على عنف المعركة وشدتها وأن قتلى الروم كانوا كثيراً.

❋ ❋ ❋

فتح مكة

خالف القرشيون بنود صلح الحديبية، فقد استغلوا العداوة القائمة بين حلفائهم من بكر وبين خزاعة حلفاء النبي ﷺ، وأتتهم الفرصة ليستغلوها في إشعال الحرب، فقد سمع رجل من خزاعة رجلاً من بكر ينشد شعراً في هجاء النبي ﷺ فضربه فشجه، فهاج الشر، فغزّت قريش الخلاف وحرضوا بني بكر على مهاجمة قبيلة خزاعة وأمدوهم بالمال والسلاح والرجال الذين قاتلوا معهم متخفين، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وقتلوا من خزاعة عدداً كبيراً في مكان يسمى «الوتير» ودخلت خزاعة الحرم فقاتلوها في الحرم منتهكين حرمته، فجاء شيخ خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة ولقي النبي ﷺ وشكا له ما صنعته بكر بدعم من قريش وألقى أمامه قصيدة مؤثرة، منها:

لاهم إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا ... هم بيتونا بالوتير هجدا
فقتّلونا ركعاً وسجدا

فقال النبي ﷺ: «**قد نصرت يا عمرو بن سالم**»، وكان بين خزاعة وعبد المطلب حلف، فلهذا ذكّر عمرو النبي ﷺ بهذا الحلف، ثم أتى بديل بن ورقاء مع وفد من خزاعة فأخبروا النبي ﷺ غدر بكر بهم، فوعدهم النصرة ثم عادوا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كأني بأبي سفيان قد جاء ليجدد العهد خوفاً ويزيد في المدة**» وكان كما قال عليه الصلاة والسلام، وقد رأى في الطريق بديل بن ورقاء وهو عائد من المدينة فتأكد أنه شكا قريشاً للنبي ﷺ، ووصل أبو سفيان إلى المدينة فنزل بادئ الأمر عند ابنته رملة وأراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ فسحبته من تحته، فقال لها: أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت: إنه فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فتعجب من أمر ابنته، وقال لها: لقد أصابك بعدي شر، ثم أتى رسول الله ﷺ فكلمه وأراد زيادة المدة فلم يرد عليه شيئاً فعرف أن خبر عدوانهم على خزاعة قد بلغه وعليه أن يجد من يساعده على هذا الأمر فإن قريشاً ليست في وضع يمكنها من تحمل حروب جديدة، فأتى أبا بكر فكلمه ليشفع له عند رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكان جوابه أشد وأنكى، ثم أتى علياً وعنده فاطمة والحسن غلام، فكلمه في ذلك، فقال: لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة: يا بنت محمد هل لكِ أن تأمري ابنك هذا أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس وما أحد يجير على رسول الله، فالتفت إلى وقال، أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال علي: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك، ففعل وعاد إلى مكة.

بدأ النبي ﷺ يستعد لغزو مكة، وقال: «**اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**»، لكن حاطب بن أبي بلتعة أرسل كتاباً إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ، وأتى الخبر من السماء بشأن حاطب وأن الخطاب مع امرأة من مزينة، فأرسل النبي ﷺ علياً والزبير ليحضرا الخطاب من المرأة، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**»، فانطلقنا تعادى بنا

خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة - إلى ناس من المشركين - يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟** قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه قد صدقكم**» فقال عمر: دعني أضرب عنقه فإنه نافق، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» ونزل في حق حاطب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة] آية محكمة بليغة وصفت حال الكفار وما اقترفوه ضد المسلمين وضد نبيهم من الإخراج من مكة، ثم خطاب المسلمين بعدم موالاتهم وتقديم المعلومات لهم أو أي شيء يفيدهم ويقويهم علينا، وهذا في حق المحاربين للمسلمين أما غير المحاربين والذين يودون التعامل مع المسلمين في التجارة وغيرها فلهم حكم غير هذا ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٨].

❋ ❋ ❋

الخروج إلى مكة

بعد أن تجهز الجيش الذي بلغ عشرة آلاف مقاتل انطلق النبي ﷺ إلى مكة بعد مضي ثمانية أيام من رمضان وقيل عشرة أيام سنة ثمان للهجرة،

وكان الناس صياماً، فعند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكُديد ـ ماء بين عسفان وقديد ـ أفطر وأفطروا».

ـ انضم إلى الجيش الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالسقيا وقيل في ذي الحليفة، وكان قد خرج من مكة مهاجراً، فقال له رسول الله ﷺ: «**أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء**»، فأمره أن يرسل متاعه إلى المدينة ويعود معه ليشهد الفتح، وقد أصبح الجيش لما اقترب من مكة اثني عشر ألفاً.

ـ ولقيه في الطريق أبو سفيان بن الحارث ـ وهو ابن عمه ـ وعبدالله بن أمية، وهو ابن عمته وأخو أم سلمة، بثنية العقاب، فالتمسوا الدخول على رسول الله ﷺ، وشفعت لهم أم سلمة وقالت ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وكان شاعراً، وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال (**قال: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك**) فقال أبو سفيان وكان معه ابنه صخر: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فرق لهما رسول الله ﷺ وقبلهما، فأدخلهما إليه فأسلما، وقيل: إن علي بن أبي طالب قال لأبي سفيان: إيت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له: ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فأتاه فقالها، فقال له رسول الله ﷺ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١ ـ ٩٢] فأسلما وقربهما، فأنشده أبو سفيان معتذراً عما مضى:

لعمرك إني يوم أحمل راية   لتغلب خيلُ اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله   فهذا أواني حين أُهدى وأهتدي
وهاد هداني غيرَ نفسي ونالني   مع الله من طَرّدْتُ كل مُطَرّدِ

فضرب النبي ﷺ صدره وقال: «**أنت من طردتني كل مطرد**».

ـ انتهى رسول الله ﷺ إلى مر الظهران، فأقام فيه، وراح الصحابة يجنون الكباث، وهو ثمر الأراك، قال عليه الصلاة والسلام: «**عليكم بالأسود منه فإنه أطيب**» وفيها أن أنس بن مالك ومجموعة معه طردوا أرنباً بمر الظهران فأمسكها أنس وذبحها أبو طلحة فشووها وبعثوا إلى رسول الله ﷺ بوركها وفخذيها فقبلها.

ـ داخل الشك أبو سفيان فلم يكد ينام ليله فخرج في تلك الليلة ومعه بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام مترقبين، فإذا بنيران كثيرة على البعد، فرابهم الأمر، وقال بديل: هذه خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل، وركب العباس بغلة رسول الله ﷺ مبتعداً قليلاً عن العسكر لعله يجد من يخبر قريشاً فيأتونه مستأمنين قبل أن يدخلها عليهم عنوة فتكون ذلة قريش مدى الدهر، وبينما هو في هذه الحالة إذا به يسمع حديث بديل مع أبي سفيان، فعرف صوته فقال: أبا حنظلة؟ فرد أبو سفيان: أبو الفضل! قال: نعم، قال: ما لك فدى لك أبي وأمي ـ وكان صاحبه ـ قال العباس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس، فقال أبو سفيان: وا صباح قريش، فما الحيلة؟ قال: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، فركب وعاد صاحباه، قال العباس: فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررت بعمر، فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة، قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد، ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله ﷺ وركض العباس البغلة فسبقه، ونزل العباس ودخل على رسول الله ﷺ ودخل عمر وقال: هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد

فدعني أضرب عنقه، قال العباس: إني قد أجرته، ولما أكثر عمر قال العباس: مهلاً يا عمر فوالله لو كان من رجال بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال عمر: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما ذاك إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «**اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به**، فبات عنده وفي الصباح أتى به إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «**ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله**؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: **ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله**؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن في النفس فيها شيء حتى الآن، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم ثم قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**»، ثم قال النبي ﷺ للعباس: «**احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها**» ومر الجيش، المهاجرون والأنصار والقبائل الأخرى، فكان يقول: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول: سليم، فيجيبه ما لي ولسليم، ثم تمر قبيلة أخرى، فيقول من هؤلاء؟ فيقول العباس: مزينة، فيقول ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل ما تمر قبيلة إلا سأل عنها، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قِبَلٍ ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذاً، قال العباس: قلت النجاء إلى قومك، فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار

أبي سفيان فهو آمن، فقامت زوجه هند فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم، فقال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم أو المسجد، وكان النبي ﷺ رحيماً بالناس وبأهل مكة فلما ذكر له قول سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فيه الحرمة، فقال رسول الله ﷺ: «**كذب سعد بل هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة**» ونزع منه الراية وأعطاها ابنه قيساً وقيل أعطاها لعلي.

ـ دخل عليه الصلاة والسلام مكة من أعلاها من كداء وعلى رأسه المغفر وقد طأطأ رأسه وهو على راحلته تواضعاً لله حتى إن لحيته لتمس الرحل، وتحت المغفر عمامة سوداء من غير إحرام، وكان لواؤه أبيض ورايته سوداء تسمى العقاب، وروي أنه لما دخل مكة وهو على ناقته كان يقرأ سورة الفتح ويرجع ـ يرفع صوته ـ وقد رأى رسول الله ﷺ نساء قريش تعترض الخيل ويلطمن وجوهها، فتبسم رسول الله ﷺ وسأل أبا بكر فقال: «**كيف قال حسان؟**»، فأنشده:

عدمتُ بنيتي إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مسرجات ... يلطّمهن بالخمر النساء

ولقي خالد بن الوليد مقاومة من بعض فرسان قريش الذين أبوا الاختباء لينالوا الأمان وهم بالخندمة منهم عكرمة وصفوان وسهيل بن عمرو فقاتلهم خالد وقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، وقتل من المسلمين اثنان وكان دخوله من أسفل مكة، وهذه أول مرة أمّرَ فيها خالد بن الوليد.

ـ أهدر النبي ﷺ دماء بعض من كانوا يؤذون المسلمين ونبي المسلمين وذكر أنهم كانوا ثمانية رجال وأربع نسوة، فأصدر أمره بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة، منهم كعب بن زهير وعبدالله بن أبي السرح وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وعبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة وعبدالله بن

الزبعري، ومنهم وحشي قاتل حمزة، والنساء: هند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن عبد المطلب، وقينتا ـ مغنيتا ـ عبدالله بن خطل.

❁ ❁ ❁

العفو العام والعفو الخاص

وقف النبي ﷺ أمام باب الكعبة واجتمع الناس حوله من أهل مكة يستمعون ما يقول، ثم قال: لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مأثرة أو مال يُدّعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فعفا عنهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وتأخر بعض منهم يتأملون ويفكرون ثم أعلنوا إسلامهم وغدت مكة مسلمة خالية من المشركين، ثم طاف عليه الصلاة والسلام بالكعبة سبعاً وأزال ما فيها من أصنام وأوثان وكان بيده قضيب من حديد حطم به هذه الأصنام وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، ودخل الكعبة فرأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت، وحانت صلاة الظهر فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فصعد ظهر الكعبة وأذن، وصلى المسلمون الظهر يؤمهم رسول الله ﷺ في مكان كان قد حظر عليهم سنين طويلة، ثم جلس على الصفا للبيعة وعمر بن الخطاب تحته، فكان يبايع الناس على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وأما بيعة النساء، فقد أتاه وفد منهن وهند بنت عتبة معهن متنكرة وطلبن المبايعة، فقال: تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصينني في معروف ثم قال لعمر بايعهن واستغفر لهن الله، وكان النبي ﷺ لا يصافح النساء ولا يمسهن.

ـ بالرغم من تنكر هند فقد كانت تجيب النبي ﷺ على كل شرط من شروط البيعة، فعندما قال: «**لا تشركن بالله شيئاً**»، قالت: إنك والله تأخذ

علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه، ولما قال: «ولا تسرقن»، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، فقال أبو سفيان: أما ما مضى فأنت في حل منه، فقال رسول الله ﷺ: «أهند؟» قالت: أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك، ولما قال: «ولا تزنين»، **قالت: وهل تزني الحرة.**

- لم يقتل من الرجال المهدرة دماؤهم إلا عبدالله بن خطل قتله سعيد بن حريث ومقيس بن صبابة فعلم بمكان اختفائه نميلة الكناني فأتاه وقتله، وهذان كانا قد أسلما وارتدا بعد غدر فكل واحد منهما قتل مسلماً غدراً، أما البقية فكانوا على النحو التالي:

- برز كعب بن زهير أمام النبي ﷺ بعد أن كان متخفياً فأعلن إسلامه وأنشده قصيدة بانت سعاد فعفا عنه وخلع عليه بردته.

- وشفع عثمان بن عفان لعبدالله بن أبي السرح وأتى به إلى رسول الله ﷺ فأعلن إسلامه وأسلم وهو قائد معركة ذات الصواري فيما بعد.

- وهرب صفوان بن أمية باتجاه البحر إلى جدة فشفع له عمير بن وهب الجمحي وقال سيد قومي قد هرب من مكة فآمنه فأمنه وأرسل مع عمير عمامته السوداء ليتأكد من الأمان، فلما حضر قال للنبي ﷺ: **«اجعلني** بالخيار شهرين، قال: أنت فيه أربعة أشهر، ثم أسلم.

- وأما عكرمة فقد هرب باتجاه اليمن، فأتت امرأته أم حكيم النبي ﷺ فاستأمنت له، فخرجت في إثره ومعها غلامها الرومي، فراودها عن نفسها في الطريق فأطعمته ومنته حتى إذا بلغت حياً من أحياء العرب استصرخت عليه الناس فأوثقوه ثم قتله عكرمة بعد ذلك، وقيل: فقتلوه، وتابعت الطريق إلى زوجها فأدركته وهو يريد ركوب البحر، فقالت: جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وقد آمنك، فرجع، وقدم إلى النبي ﷺ فأسلم وقال: استغفر لي يا رسول الله، فاستغفر له وسر بإسلامه.

- وأما ابن الزبعري، فقد هرب، وبعد فترة عاد وأسلم واعتذر عما سلف منه وسخر شعره في مدح النبي ﷺ، فعفا عنه:

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور

ـ وأما وحشي فقد هرب إلى الطائف، ثم قدم في وفد أهل الطائف الذين أسلموا فأسلم وشهد شهادة الحق، وقال له النبي ﷺ: «**أخبرني كيف قتلت حمزة**»، فأخبره ثم قال له غيب وجهك عني، كي لا يذّكره بمقتل حمزة فيغضب عليه، قتل فيما بعد مسيلمة الكذاب، وسكن الشام بعد الفتح.

ـ ومن النساء قتلت سارة مولاة عمر فقد أسلمت ثم عادت فارتدت، قتلها علي.

ـ والمغنيتان اللتان كانتا عند ابن خطل وتغنيان بهجاء النبي فألقي القبض على إحداهما وهي قريبة وقتلت، وفرت الأخرى ثم تنكرت وأتت رسول الله ﷺ فأسلمت.

❋ ❋ ❋

نوادر من الفتح

ـ كان حِماس بن قيس يعد سلاحه وهو من مشركي قريش ليقاتل به المسلمين، فقالت له زوجته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقالت: ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، وكان مع من قابل خالد بن الوليد حيث ألحق بفرسان قريش هزيمة منكرة وفر حِماس كما فر غيره، وعاد يختبئ في البيت وقال لامرأته: أغلقي علي بابي، فقالت له: فأين ما كنت تقول: فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقي باللوم أدنى كلمة

ـ أمر النبي ﷺ أن يُخرج من الكعبة الأصنام والصور، فوجد صورة لإبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، فقال: «**قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط**» وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ حين دخل البيت وجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال: «**أما هم فقد سمعوا الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة هذا إبراهيم مصوّراً فما باله يستقسم؟**».

ـ لما أذن بلال فوق الكعبة اغتاظ عدد من زعماء قريش وتكلموا فيما بينهم كلاماً لا يليق يدل على أنهم لا يزالون في جاهليتهم، قال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأَخْبَرَتْ عني هذه الحصا، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**قد علمت الذي قلتم**» ثم ذكر لهم ذلك، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

ـ حدّث أبو سفيان مرة نفسه وقال لو جمعت لمحمد جمعاً ـ أي لحربه ـ فضرب الرسول ﷺ بين كتفيه وقال له: «**إذاً يخزيك الله**» فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه، فقال: ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة.

ـ بين النبي ﷺ خصائص مكة كيلا يكون افتتاحه لها ذريعة من بعده لمن أراد أن يقاتل فيها، قال: «**إن الله حرم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لا تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلل لي إلا ساعة من الدهر لا ينفر صيدها ولا يعضد شوكها ولا يختلى خلاؤها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد**» فقال العباس إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لا بد منه للقيون ـ الحدادين ـ وقيل للدفن والبيوت، فقال: «**إلا الإذخر فإنه حلال**».

ـ كان والد أبي بكر قحافة مع ابنته وطلب منها أن تصعد به على جبل أبي قبيس لتصف له تحرك جيش المسلمين، وكان ضعيف البصر، فلما أشرفا من علٍ، قال: أي بنية ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً، قال:

أي بنية ذلك الوازع، الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها، قالت: والله قد انتشر السواد، فقال: قد والله إذاً دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي، فانحطت به فتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته، وفي عنق ابنته قلادة من ورق ـ فضة ـ فيلقاها رجل من الجيش فيقتطعه من عنقها، وبعد أن استقر المسلمون أتى أبو بكر بأبيه إلى رسول الله ﷺ ليسلم، فقال رسول الله ﷺ: «**هلا تركت الشيخ في مكانه فكنت أنا آتيه فيه؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك، فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ثم مسح صدره ثم قال: أسلم فأسلم، وكان رأسه أبيض كالثغامة فقال رسول الله ﷺ: «**غيروا هذا من شعره**»، وفي رواية وجنبوه السواد، ناشد أبو بكر من أخذ قلادة أخته فليردها، فلم يجبه أحد، فقال: أي أخية احتسبي طوقك فو الله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل، أقول حدث هذا في أفضل جيش، فكيف بها فيما بعد وفي أيامنا؟ وربما **تأول** الذي أخذها أنه أخذها من حربي.

ـ ولما استقر النبي ﷺ بمكة بعد الفتح قال أسامة بن زيد: أين تنزل غداً يا رسول الله؟ فقال: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع**» ثم قال: «**لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر**» وأخرج البخاري أن النبي ﷺ قال: «**منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله، الخيفُ حيث تقاسموا على الكفر**».

والظاهر أن عقيل بن أبي طالب قد باع دور بني هاشم بعد أن هاجروا.

ـ قالت أم هانئ بنت أبي طالب: إنه في يوم الفتح فر إليها رجلان من بني مخزوم فاستجارا بي فأجرتهما، قالت: فدخل علي فقال أقتلهما، فلما قال ذلك أسرعت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآني رحب بي وقال: «**ما جاء بك يا أم هانئ؟**» قلت: يا نبي الله، كنت أمّنت رجلين من أحمائي فأراد علي قتلهما، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»، وكان ذلك وقت الضحى ثم اغتسل وصلى الضحى ثماني ركعات، وقيل هذه صلاة الفتح.

ـ وأعاد لعثمان بن طلحة مفتاح الكعبة وقال: «**اليوم يوم بر ووفاء**» وكان قد طلب منه علي أن يجمع لهم السقاية والحجابة، فأبى وهي حتى

اليوم لآل شيبة، فقال: «**خذوها خالدة تالدة** «ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء].

ـ لما استقر رسول الله ﷺ في مكة بعد الفتح قام على الصفا يدعو، قالت الأنصار: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم فيها؟ فلما فرغ من دعائه قال: «**ماذا قلتم؟** قالوا لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال: «**معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم**» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلناه إلا الضن بالله ورسوله، قال: «**إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم**».

❋ ❋ ❋

غزوة خالد بن الوليد بني جذيمة

بعث النبي ﷺ عدداً من السرايا بعد الفتح للدعوة إلى الإسلام، فقد أصبح الطريق ميسراً وزالت عنه العقبات، كانت قريش العقبة الكبرى، فأرسل خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعياً وليس مقاتلاً، ونزل خالد على ماء لهم اسمه الغميصاء، فأخذ بنو جذيمة السلاح وتأهبوا، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فوضعوا السلاح، فأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل منهم من قتل، واتهم خالد بتنفيذ ثأر قديم فيهم حيث قتل بنو جذيمة عم خالد واسمه الفاكه بن المغيرة، فلما وصل الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «**اللّٰهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» ثم أرسل علي بن أبي طالب ودفع الدية إلى أولياء القتلى، فأعطاهم ووفاهم وزاد حتى رضوا وبقي مع علي بقية من مال فقال لهم: هل بقي شيء لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله، وقال خالد لما أبطأ إسلام بني جذيمة قال عبدالله بن حذافة أمرك النبي ﷺ أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام.

❋ ❋ ❋

أحكام فقهية من قلب في مكة

ـ قصر الصلاة، أقام النبي ﷺ في مكة بقية رمضان يقصر الصلاة ويفطر والمدة ثمان عشرة ليلة وروي تسع عشرة ليلة وقيل خمس عشرة ليلة، وكان يقول: «**يا أهل البلد صلوا أربعاً فإنا سفر**».

ـ قضية عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص قبل موته بأن ابن وليدة زمعة هو ابن عتبة وعليه أن يستعيده من وليدة زمعة، فأقبل سعد وعبد بن زمعة يختصمان في الولد أيهما أحق به، فذكر سعد وصية أخيه، وقال عبد بن زمعة: هذا أخي ابن زمعة ولد على فراشه، فنظر رسول الله ﷺ إلى الغلام فإذا هو أشبه بعتبة، لكن النبي ﷺ قرر قاعدة لهذا الأمر «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**» فقال لعبد زمعة: هو لك هو أخوك يا عبد بن زمعة، وقال لزوجته سودة: «**احتجبي منه**» لشبهه بعتبة.

ـ قضية المتعة، ورد أن المتعة حرمت يوم فتح خيبر، لكن ورد في صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخل ثم لم يخرج حتى نهى عنها، وفي رواية فقال: «**ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة**» وفي مسند أحمد أن ذلك كان في حجة الوداع، وفي صحيح مسلم عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: رخص لنا رسول الله ﷺ عام أوطاس في متعة النساء ثلاثاً ثم نهانا عنه، قال البيهقي: عام أوطاس هو عام الفتح، وقيل: أبيحت مرتين وحرمت مرتين، والأثبت أنها حرمت عام خيبر، وربما أشكل على رواة الحديث متعة العمرة ـ وهي المقصودة ـ مع متعة النساء عام فتح مكة. والله أعلم، لكنها الآن محرمة لا إشكال في الأمر.

ـ قضية العقد وسرقته، سرقت امرأة عقداً زمن الفتح والنبي ﷺ في مكة، ففزع قومها من القصاص، فكلموا أسامة بن زيد ليشفع لها في عدم إقامة الحد ففعل أسامة وكلم رسول الله ﷺ، فتلون وجهه وقال: «**أتكلمني في حد من حدود الله؟**» فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان

العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» فأمر بتلك المرأة فقطعت يدها.

***

غزوة هوازن «حنين»

لما سمعت هوازن بانتصار النبي ﷺ على قريش ودخوله مكة لم يعجبها هذا الخبر وقرر زعيمها مالك بن عوف النصري من هوازن ثقيف أن يجمع الجموع من قبائله وأحلافه ليلقى رسول الله ﷺ ويقطع عليه فرحة النصر، فاجتمع له عدد كبير من المقاتلين زادوا على عشرين ألفاً.

علم النبي ﷺ بما عزمت عليه هوازن، فجمع جيش الفتح وعدده عشرة آلاف مقاتل ثم انضم إليهم ألفان ممن أسلموا بعد الفتح من قريش فأصبح العدد اثني عشر ألفاً، وقال النبي ﷺ: «**لا يهزم اثنا عشر ألفاً من قلة**» وأهم ما قام به:

ـ بلغه أن عند صفوان سلاحاً ودروعاً، فأرسل إليه فلما حضر قال: «**أعرنا سلاحك نلق فيه عدونا**»، فقال صفوان: أغصباً؟ قال: «**بل عارية مضمونة نؤديها إليك**»، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع مع ما يتبعها من السلاح.

ـ استعمل على مكة يحفظها ويدير شؤونها عتَاب بن أسِيد.

قصد النبي ﷺ القوم في جبال ثقيف وتدافع الجيش بحماسة منقطعة النظير فلم يبلغوا في يوم من الأيام السالفة هذا العدد من الحشد، فتراخت عندهم اليقظة والحذر من عدوهم، وبينما هم منحدرون من أحد الشعاب إذا بالهجوم المباغت لجيش هوازن في مكان يسمى «حنين» وكان مالك قد رصد تحرك المسلمين من رؤوس الجبال حتى إذا دخلوا أحد الأودية في

عماية الصبح أطبقوا على المسلمين من كل فج من شعاب الوادي، فكانت المباغتة مؤلمة غير متوقعة ارتد فيها المسلمون على أعقابهم لا يلوون على شيء وصمد لهم رسول الله ﷺ ومعه قلة من أصحابه منهم: أبو بكر وعمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن، وكان في العدو رجل على جمل أحمر يحمل راية يطعن ويتقدم ووراء قومه، فتقدم إليه علي فطعنه وأرداه، وأمر النبي ﷺ العباس وكان جهير الصوت أن ينادي: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة ـ الذين بايعوه على الموت في الحديبية ـ فبلغهم الصوت فقالوا: لبيك لبيك وانعطفوا نحو الصوت فكان منهم من لم يستطع ثني بعيره على العودة فينزل بسلاحه ويترك بعيره حتى اجتمع إليه قريب من المائة، فشدوا على القوم وجالدوهم فكانت معركة حامية قال فيها النبي ﷺ: «**الآن حمي الوطيس**» حكمة لم يسبق إليها من قبل، ثم برز وأعلن عن نفسه وهو يقاتل: «**أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب**» فتقدم وهو راكب بغلته «دلدل» فلما رأى قوة الدفع من الخصوم قال: «**البدي دلدل**» كي لا تتراجع فألصقت بطنها بالأرض، فأخذ حفنة من تراب فرمى بها في وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**» فما أحد إلا شكا من عينيه، فكانت الهزيمة فما رجع الناس ـ الذين انهزموا عند الصدمة الأولى ـ إلا والأسارى في الحبال عند رسول الله ﷺ، وقتل من هوازن ومن معها نيف وسبعون رجلاً، ومن المسلمين أربعة، وكانت راية الأحلاف ـ المشركين ـ مع قارب بن الأسود، فلما رأى الهزيمة أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه فلم يقتل من أحلاف هوازن سوى رجلين.

مشاهد من المعركة

ـ ورد أن الله تعالى أعان المسلمين وأيدهم بجنود من عنده، فأرسل من السماء سحابة سوداء فإذا فيها نمل أسود انبث بين المشركين فكانت الهزيمة.

ـ أدرك ربيعة السلمي جملاً عليه دريد بن الصمة وكان كبير السن، فأناخ ربيعة بعيره فقال دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ فانتسب له ربيعة، ثم ضربه بالسيف فلم يفعل به شيئاً، فقال دريد: بئس ما سلحتك به أمك، خذ سيفي فاضرب به واخفض عن الدماغ وارفع عن العظام، هكذا كنت أقتل الرجال، ثم قال له: إذا أتيت أمك فقل لها إنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم قد منعت فيه نساءك، فقتله، ثم أتى أمه وقص عليها الخبر فقالت: والله لقد أعتق أمهات لك ثلاث، وكان دريد ذا رأي في الحرب وفنونها لكنه لم يُستشر من قبل مالك بن عوف الذي كان شاباً متحمساً، ويروى أن مالك جمع الناس بأوطاس للحرب ومعهم أموالهم ونساءهم، فقال دريد: بأي واد أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل لا حزن ضَرِسٌ ولا سهل دهس ـ أي أرض مناسبة ليس فيها صخر وحجارة وليست طينية زلقة تعيق الخيل ـ ثم قال: مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاة وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس المال والأهل، قال يا مالك: إن هذا يوم له ما بعده، ما حملك على ما صنعت؟ قال: سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله، قال دريد: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، فقال: ما فعلت مالك وكلاب؟ قالوا لم يشهدها منهم أحد، قال: غاب الجد والحد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، وددت لو أنكم فعلتم ما فعلا، ثم قال: يا مالك ارفع من معك إلى عُليا بلادهم ثم الق الصباة ـ عنى بهم المسلمين ـ على الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك كنت قد أحرزت مالك وأهلك، قال مالك: والله لا أفعل ذلك إن كنت قد كبرت، والله لتطيعنّني يا معشر هوازن أو لأتكئن على سيفي حتى يخرج من ظهري، فكره أن يكون لدريد فيها ذكر.

ـ لما كانت الصدمة الأولى لقبيلة هوازن وتراجع المسلمون وهرب بعضهم لا يلوي على شيء، أطل الشامتون برؤوسهم وأفصحوا عما في ضمائرهم، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال كلدة بن

الحنبل وهو أخو صفوان بن أمية لأمه: الآن بطل سحر محمد، فقال صفوان: اسكت فض الله فاك، والله لئن يربني - يرأسني - رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبوه قتل بأحد، قال: فأردت به لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك، ثم قال: فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: «**يا شيب أدن مني، ثم قال: اللَّهم أذهب عنه الشيطان**» قال فرفعت إليه بصري فإذا هو من أحب الناس إلي، فقال: «**يا شيب قاتل الكفار**».

- مر الرسول ﷺ بامرأة مقتولة، فقال: «**من قتلها؟**» قالوا: خالد بن الوليد، فقال لبعض من معه: أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً - أجيراً -.

- عن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال فسرنا معه حتى حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة يعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً، قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، قال: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم**».

- تجمع بعض المشركين من هوازن الهاربين من المعركة بأوطاس وهي قريبة من حنين فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري عمّ أبي موسى، فقاتلهم ثم رمي بسهم فقتل وأخذ الراية أبو موسى الأشعري ففتح الله على يديه وهزم المشركين وعاد محملاً بالغنائم، وروي بتفصيل أكثر في البداية، أن أبا عامر الأشعري لقي يوم أوطاس عشرة إخوة فبارز الأول بعد أن دعاه إلى الإسلام فأبى فقال أبو عامر: اللَّهم إني أشهدك عليه فقتله، ثم جاءه الثاني فقال ما قال للأول فبارزه فقتله إلى أن قتل تسعة، فجاء العاشر فلما قال أبو عامر اللَّهم إني أشهدك عليه، قال: اللَّهم لا تشهد

علي فكف عنه أبو عامر ثم أسلم فحسن إسلامه، ثم تابع القتال فرمي بسهمين فأصاب أحدهما القلب والآخر ركبته فقتل.

❊ ❊ ❊

القرآن يذكر غزوة حنين

خلدت آيات من القرآن الكريم غزوة حنين وأظهرت ما كان عند بعض المسلمين من خلل فجاءت للعظة والعبرة ولتكون درساً للمسلمين في قادم أيامهم وحروبهم مع أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة] آيتان كشفتا ما حصل في غزوة حنين من الإعجاب بالكثرة التي ظهرت عند الصدمة مع العدو أنها لا تجدي في المعركة لأن الهزيمة كانت كبيرة، فالأرض بسعتها ضاقت على المسلمين وهم يبحثون عن الملاذ من العدو، لكن الله ناصر نبيه ومن معه من المؤمنين فكان الدرس الأول لإثبات عدم نفع الكثرة إن أصاب النفوس الغرور والاعتداد بها، فالنصر من عند الله أولاً وأخيراً والحشد والقوة ثانياً وهو أخذ بالأسباب تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والحمد لله أن الامتحان هذا مر سريعاً فالنبي ﷺ أمر بمناداة المخلصين من أصحابه فلبوا سريعاً وشكلوا القوة الضاربة الصامدة التي لا تبتغي إلا رضا الله ورضا رسوله فكان جزاء الإخلاص؛ السكينة ورباطة الجأش وعدم الاضطراب والخوف في مثل هذه المواقف ثم المعونة والمدد ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة التي حفت بالمسلمين ومنعت عدوهم من إيذائهم وهذا ما تظهره نتائج المعركة شهيد أو شهيدان لمعركة حامية لم يشهد المسلمون من قبلها مثلها وأكثر من سبعين قتيلاً من العدو.

غزوة الطائف

ارتد المنهزمون بقيادة مالك بن عوف إلى الطائف فدخلوها مسرعين تاركين كثيراً من الغنائم والأموال والنساء والذرية وفروا يطلبون النجاة بأنفسهم لا يلوون على شيء، وكانت الطائف حصنهم المنيع الذي أووا إليه ليضمدوا جراحهم، وتبعهم المسلمون وحاصروا الطائف، وكان هناك تراشق بالنبال، ودام الحصار أكثر من نصف شهر ولم يكتب الله لها أن تفتح في هذا الحصار فأمر النبي ﷺ بفك الحصار، وكان قد أعلن بأن أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً، وهكذا هربت أعداد منهم فحررهم المسلمون وأسلموا وعاد هذا على أهل الطائف بالخسارة لأن هؤلاء كانوا يعملون في المزارع، ولما عاد عليه الصلاة والسلام عن حصارهم قال رجل: يا رسول الله ادع على ثقيف، فقال: «**اللّهم اهد ثقيفاً وأت بهم**» وقتل من المسلمين اثنا عشر رجلاً منهم عبدالله بن أبي بكر رماه أبو محجن الثقفي بسهم قاتل قبل أن يسلم أبو محجن.

برزت أمور أثناء الحصار، منها:

ـ الوحي يخبر بعدم فتح الطائف، أخبر النبي ﷺ أبا بكر فقال: «**إني رأيت أنه أهديت لي قعبة ـ قدح ـ مملوءة زبداً، فنقرها ديك فأهرق ما فيها**» ظن قال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يا رسول الله يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا لا أرى ذلك**» فلما علم عمر بن الخطاب بذلك قال: يا رسول الله أنؤذن بالرحيل؟ قال: «**نعم**»، فأذن عمر بالرحيل، فثقل على الناس ذلك، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فجعل الناس يضجون لهذا الأمر، فقال رسول الله ﷺ: «**اغدوا على القتال**»، فغدوا، فأصابهم جراح، فقال: «**إنا قافلون غداً إن شاء الله**»، فأعجبهم، وأخذوا بالرحيل، فضحك النبي ﷺ، وقال سفيان: فتبسم» وفي رواية أنه لم يؤذن له بفتح الطائف، ولعل ذلك رحمة بأهل الطائف كي يأتوه فيما بعد مسلمين.

ـ طلب خولة بنت حكيم وهي امرأة عثمان بن مظعون من النبي ﷺ أن تأخذ حلي بادية بنت غيلان أو الفارعة بنت الخزاعي ـ وكانتا من أجمل نساء الطائف ـ إن فتح الله عليك الطائف، فقال لها رسول الله ﷺ: «**وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف يا خولة؟**

ـ ما قاله عيينة بن حصن، لما بدأ المسلمون بالرحيل عن الطائف، نادى سعد بن عبيد الثقفي: ألا إن الحي مقيم ـ عنا به رحيل المسلمين وانتصار ثقيف ـ فقال عيينة بن حصن: مجدة كرام ـ يمتدح ثقيفاً ـ فسمعه عمرو بن العاص فقال له: قاتلك الله، تمدح قوماً مشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟ فقال عيينة: إني والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفاً، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف فأطؤها لعلها تلد لي رجلاً فإن ثقيفاً قوم مباركون ـ وفي رواية قوم مناكير ـ.

ـ ما قاله المخنث هيث عن بادية، عن أم سلمة قالت: دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعته يقول لعبدالله بن أبي أمية: يا عبدالله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان ـ واسمها بادية ـ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال النبي ﷺ: «**لا يدخلن هؤلاء عليكن**» والمخنث هذا اسمه هيث، وفي رواية «**إنك دققت كثيراً**» أي أمعنت النظر إليها، فكان الحرص من النبي ﷺ أن لا يدخل هؤلاء على النساء كيلا ينقلوا أخبارهن إلى خارج البيوت فتصان أسرار البيت.

ـ الشيماء، بعد هزيمة هوازن وما كان معهم من بني سليم، وأمر النبي ﷺ الفرسان ألا يفلت منهم بجاد وكان من بني سعد، وكان بجاد قد مثل برجل مسلم فقطعه عضواً عضواً ثم أحرقه، وعرف بجاد جرمه وأنه مطلوب فهرب وتخفى لكن خيل المسلمين أدركته وأخذته وأخذوا معه الشيماء وهي أخت النبي ﷺ من الرضاعة، وقالت الشيماء: إني والله أخت صاحبكم، فلم يصدقوها وأرهقوها بالسير إلى أن أتوا بها إلى النبي ﷺ، فقالت: يا محمد إني أختك، فقال النبي ﷺ: «**وما علامة**

ذلك؟» قالت: عضضتني وأنا متوركتك بوادي السرر، وقد نازعتك الثدي، وتذكر رسول الله ﷺ ما روته له فقام وبسط لها رداءه ثم قال: «**اجلسي عليه**» ورحب بها ودمعت عيناه وسألها عن حالها وعن أمه وأبيه من الرضاعة فأخبرته بموتهما في الزمان ثم قال: «**إن أحببت فأقيمي عندنا مكرمة وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك**»، قالت: أرجع إلى قومي وأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ عطية مجزية وعادت إلى قومها.

***

قسمة غنائم حنين

أخر النبي ﷺ قسمة الغنائم بعد غزوة حنين، فأرسلها إلى الجعرانة وجعل عليها بديل بن ورقاء الخزاعي، وبعد الانسحاب من الطائف عاد النبي ﷺ وهو يأمل أن يأتيه وفد هوازن مسلمين لذلك أخّر قسمة الغنائم كي لا تتفرق بين الناس ويصعب جمعها، وهوازن قبيلة عربية أصيلة لا يرضى لها المهانة، فإذا كانت قد أخطأت بالجمع لحرب المسلمين فإن النبي ﷺ أرحم بها من نفسها وقادتها، فقد أرسله الله هادياً ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] فهو عليه الصلاة والسلام رحمة مهداة، وعندما وصل النبي ﷺ إلى الجعرانة جاءه وفد هوازن وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا ما لم يخف، فامنن علينا منّ الله عليك، وقام زهير بن صرد من بني سعد بن بكر - وهم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ - فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك، ولو أنا أرضعنا الحارث بن شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عطفه، وأنت خير المكفولين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**معي من ترون - الجيش الذي من حقه الغنائم - وأحب الحديث إلى الله أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما**

المال، وقد كنت استأنيت بكم أي صبّرهم أكثر من عشرين يوماً»، فقالوا: نختار السبي، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيّب ذلك فليفعل**»، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس قد طيّبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن ـ بهذا القول الجماعي معاً لا يتبين الذين وافقوا من الذين لم يوافقوا وهذه لفتة كريمة كي لا تختلط الأمور ـ فقال: فارجعوا حتى يرفع لنا عرفاؤكم أمركم ـ بالاسم كل يعبر عن رأيه موافق أو غير موافق**» ـ فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا» وهكذا رد النبي ﷺ السبي إلى هوازن، وورد في روايات تاريخية أن الأقرع بن حابس قال: ما كان لي ولبني تميم فلا، وقال مثله عيينة بن حصن: ما كان لي ولبني فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: ما كان لي ولبني سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لله ولرسوله، فقال: وهنتموني، ثم قال رسول الله ﷺ: «**من تمسك بحقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه، فردوا على هوازن أبناءهم ونساءهم**»، ثم سأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف، فقيل له: إنه بالطائف، فقال: «**أخبروه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير**»، فأخبر مالك بذلك فخرج من الطائف سراً ولحق برسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل حول الطائف، ثم ركب رسول الله ﷺ وتبعه الناس يقولون يا رسول الله اقسم علينا فيئنا حتى ألصقوه بشجرة فاختُطِف رداؤه، فقال: «**ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً**»، ثم رفع وبرة من سنام بعيره، وقال: «**ليس لي من فيئكم ولا هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم**».

❋ ❋ ❋

كيف سارت عملية التوزيع؟

ـ أعطى المؤلفة قلوبهم وكانوا من أشراف الناس يتألفهم على الإسلام، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام والعلاء بن جارية الثقفي، والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل واحد من هؤلاء مائة بعير.

ـ وأعطى آخرين دون المائة منهم العباس بن مرداس فسخط فقال شعراً:

وما كان حصن ولا حابس   يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرىء منهما   ومن تضع اليوم لا يرفع

ثم أعطاه حتى رضي.

ـ وقال رجل من الصحابة: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وتركت جعيل بن سراقة، فقال رسول الله ﷺ: **والذي نفسي بيده لجعيل خير من طلاع الأرض رجالاً كلهم مثل عيينة والأقرع ولكني تألفتهما ووكلت جعيلاً إلى إسلامه.**

ـ وظهر نفاق آخرين ولم يخف هذا بل نطق به لسانهم، ومنهم ذو الخويصرة التميمي، حيث قال لرسول الله ﷺ: إنك لم تعدل اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «**ومن يعدل إذا لم أعدل؟**» فقال عمر بن الخطاب: ألا نقتله؟ فقال: «**دعوه ستكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية**».

ـ أعطى النبي ﷺ من هذه الغنائم لأناس من قريش ومن قبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئاً، فوجدوا في أنفسهم وخافوا أن يكونوا قد فعلوا ما يستحقون الحرمان وهم عماد الجيش الذي ناداهم النبي ﷺ يوم تفرق عنه الناس عند الصدمة الأولى، فقال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، فأتى سعد بن عبادة وأخبر النبي ﷺ، فقال له: فأين أنت يا سعد؟ قال: أنا من قومي، قال: «فاجمع قومك لي» فجمعهم فأتاهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما

حديث بلغني عنكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وفقراء فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟ قالوا: بماذا نجيب؟ فقال: «**والله لوشئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكَذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللَّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. وفي رواية «الأنصار شعار ـ الثوب الذي يلبس أولاً ـ والناس دثار ـ الثوب الذي فوق الأول ـ **إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**».

ـ اعتمر رسول الله ﷺ من الجعرانة، ثم جعل على مكة عتاب بن أسيد ومعه معاذ بن جبل ليفقه الناس وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة.

* * *

غزوة تبوك

بعد عودة النبي ﷺ من مكة في ذي الحجة، مكث حتى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة ثم أمر بالاستعداد وأن يتجهز الناس إلى تبوك، وقد أعلن عن مقصده في هذه الغزوة دون تمويه كما كان يفعل في السابق فلم يعد يخشى العيون وانتقال الخبر وربما كان الإعلان من أجل أصحابه ليعرفوا أنها غزوة بعيدة الشقة تحتاج إلى أخذ ما يمكن أخذه من زاد وماء وأدوات فضلاً عن معرفتهم بالعدو ليكونوا على درجة كبيرة من الاستعداد، فقد بلغه أن الروم بقيادة هرقل ومتنصرة العرب قد عزموا على غزو المسلمين، ثم دعا إلى البذل لتأمين ما يلزم من إبل وخيل وسلاح، وكان الجو حاراً فزاد من مشقة هذه الغزوة على الناس إضافة إلى أن السنة كانت

مجدبة أجهدت الناس، فاجتمع فيها الحر والجدب وبعد الطريق وقوة الخصم، وكان الناس يميلون إلى الفيء والظلال مع بدء استهلال الثمر مما جعل في النفوس مكابدة للخروج، ومع ذلك فهي تعليم للمسلمين للنفير في أي وقت في الحر والقر وفي المنشط والمكره فالصراع مع العدو لا ينحصر في وقت محدد ولا في مكان معين والاستعداد مطلوب على مدار السنة ومتى دعت الحاجة إليه، لذلك سمي الجيش الذي اجتمع لهذه الغزوة **جيش العسرة**، ومع اجتماع هذه المشقات صمم رسول الله ﷺ على التصدي للعدو وأن يبادرهم قبل أن يبادروه، وأن لا تطأ أقدامهم جزيرة العرب.

***

مراحل الاستعداد

ـ أعلن المنافقون صراحة عن تهربهم من هذه الغزوة بأعذار واهية، فقال الرسول ﷺ للجّد بن قيس ـ وهو من المنافقين المتخفين ـ: «**هل لك في جلاد بني الأصفر؟**» فقال الجد: والله لقد عرف قومي حبي للنساء وأخشى أن لا أصبر على نساء بني الأصفر، فإن رأيت أن تأذن لي ولا تفتني، فأذن له، وقالت طائفة منهم: لا تنفروا في الحر.

ـ بعث النبي ﷺ في القبائل من يستنفرهم ويحضهم على الجهاد في سبيل الله ويرغبهم فيه، فبعث في كل قبيلة رجلاً منها، وبعث أيضاً إلى مكة والساحل من تهامة.

ـ برزت خلالُ المسلمين الصادقين فتقدم للبذل أبو بكر وأتى بجميع ماله، فقال له النبي ﷺ: «**ماذا أبقيت لأهلك؟**» قال الله ورسوله، وجاء عمر بنصف ماله، وتصدق عثمان بثلاثمائة بعير محملة وألف دينار، وقال النبي ﷺ فيه: «**ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا**» وتصدق عبد الرحمٰن بن عوف بمائة ألف درهم وكذلك الزبير بن العوام، والعباس عم النبي ﷺ وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وعاصم بن عدي.

وتصدق فقراء المسلمين كل حسب طاقته كيلا يفوتهم ثواب الإنفاق بالصاع والصاعين من التمر أو الشعير، وكان قد بسط رداء في المسجد لجمع الصدقات، وجلس قريباً منه المنافقون يرقبون ويثبطون الهمم، وكان أبو عقيل فقيراً فاشتغل في سقاية النخيل وأخذ درهمين أجراً، فأمسك درهماً لقوته وتصدق بالآخر، فقال المنفقون إن الله لغني عن درهم هذا، وقالوا عن مال عبد الرحمٰن بن عوف لأنه كثير إن التصدق بمثل هذا المال رياء، فلم يعجبهم القليل ولا الكثير ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ ولم يغب النساء عن هذا الموقف من البذل، فقالت أم سنان الأسلمية: لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة فيه مسك ـ أسورة ـ ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات ـ أسورة للرِجْل ـ مما يبعث به النساء يُعِن به المسلمين في جهازهم.

ـ ظهرت طبقة فقيرة تحب الجهاد ولكن لم يكن معهم ما ينفقون أو عدة حرب يشاركون فيها، فأتوا رسول الله ﷺ فما كان عنده من ظهر ـ جمل ـ فدفعه إليهم حتى إذا نفد ما عنده قال لهم ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] وعن أبي موسى الأشعري قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «**والله لا أحملكم على شيء**»، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزيناً من منع النبي ﷺ ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجَد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبدالله بن قيس، فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيته قال: **خذ هذين القرينين ـ لستة أبعرة** ابتاعهن حينئذ من سعد ـ فانطلق بهن إلى أصحابك فقل: إن الله، أو قال: إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

ـ وجاء الأعراب يعتذرون، وهم الذين يحضرون عند المغنم، وقد ظنوا أن الغزوة لن يكون فيها مكاسب لأنها ضد الروم والروم بنظرهم لا

يقهرون فاعتذروا إلى رسول الله ﷺ فقبل منهم، لكن الله المطلع على خفايا القلوب لم يعذرهم.

ـ ظهر رجال من أهل السابقة في الإسلام بمظهر التقاعس وأغرتهم الظلال، فلم يتجهزوا كالناس أو يعتذروا كالآخرين، وكانوا أربعة، كعب بن مالك الأنصاري الشاعر، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، لكن أبا خيثمة أحس بخطئه بعد أيام من تحرك الجيش، وقال: رسول الله ﷺ في الحر والريح وأبو خيثمة في الظل والماء البارد مقيم، ما هذا بالنصف، فأعد زاده وماءه وخرج في إثر الجيش، فأدركه في تبوك، فقال أناس من الجيش: يا رسول الله: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**» فقالوا هو والله، وكان للثلاثة الآخرين قصة.

❊ ❊ ❊

مسيرة الجيش إلى تبوك

ـ بالرغم من تخلف كبار المنافقين مثل الجد بن قيس وعبدالله بن أبي بن سلول الذي ضرب له مخيماً عند ثنية الوداع وجمع حوله المنافقين ومن معهم من اليهود إلا أنه فعل مثلما فعل بأحد عاد بهؤلاء ولم يشارك في هذه الغزوة وكأن غرضه أن يري الناس ما يستطيع أن يجمع من الرجال لأمر ما في نفسه، ثم أخذ يقول: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل له به، يحسب أن قتال بني الأصفر اللعب؟، ومع ذلك فإن المنافقين بثوا أنصارهم بين الجيش كي لا يفوتهم شيء من تحرك المسلمين، وكانت لهم في طريق العودة خطة تآمرية رهيبة للنيل من رسول الله ﷺ.

ـ استخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة أخا بني غفار، فأرجف المنافقون بعلي وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه، فلما سمع علي ما قاله المنافقون أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو

بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: «**كذبوا، ولكني إنما خلفتك لما ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»، فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ في سفره، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ بأنه خلف في المدينة رجلاً قوياً كي لا يقوم المنافقون بأي عمل عدائي في غياب النبي ﷺ.

- انطلق الجيش بعد أن اكتمل استعداده إلى تبوك، وقال رسول الله ﷺ: «**لا يخرج معنا إلا مقو** - أي ذو دابة قوية - وذلك لبعد السفر، وقال: **استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً مازال منتعلاً**، ثم دفع النبي ﷺ اللواء الكبير إلى أبي بكر الصديق، ودفع رايته إلى الزبير وراية الأوس إلى أسيد بن الحضير ولواء الخزرج إلى أبي دجانة، وقيل للحباب بن المنذر، ثم تحرك الجيش وكان يفوق ثلاثين ألفاً منهم عشرة آلاف فارس، وأتى عبد عليه السلاح فقال: للنبي ﷺ أقاتل معك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **وما أنت؟** قال: مملوك لامرأة من بني ضمرة سيئة الملكة، قال رسول الله ﷺ: **ارجع إلى سيدتك، لا تقتل معي فتدخل النار**، وهذا بيان لنا لكي نرتب الأمور على الأولويات، ففي حق العبد فإن الأولوية للسيد ولا يخرج للجهاد إلا بإذنه، لكن لو دهم العدو بلده فله أن يقاتل دون إذن سيده للخطر المحدق، وسئل زيد بن ثابت عن حركة الجيش فقال: كانت مقدمة الجيش ترحل عندما تميل الشمس وتتبعها الفرق فرقة فرقة، وأما الساقة - مؤخرة الجيش - فكان لا يأتيها الدور إلا مساء، فالحمد لله الذي جمع للنبي ﷺ مثل هذا الجيش اللجب.

- مضى الجيش بقية اليوم والليل فصبحوا بذي خشب، فنزل النبي ﷺ تحت الدومة، وكان دليله إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعي، وكان يجمع الظهر مع العصر يؤخر الظهر ويقدم العصر وكان يتفيأ الظلال في النهار للحر الشديد ثم يمضي عصراً، وكان مصلاه في كل يوم ينزله معروفاً فأحصوها فكانت ستة عشر موضعاً حتى تبوك ثم أقيم فيها مساجد تذكر الناس بهذه الغزوة، وكان بين الحين والحين يذكر الناس

لرسول الله ﷺ بأن فلاناً تخلف، فيجيبهم: إن كان فيه خير يأتي الله به وإن كان لا خير فيه فلا حاجة لنا به، وكان أبو ذر قد تخلف بسبب بعير له هزيل، فقال: أعلفه ثم ألحق برسول الله ﷺ، وبعد ثلاثة أيام تحسن بعيره فحمل عليه متاعه وانطلق يتبع الجيش، فوصل إلى ذي المروة فعجز بعيره فتركه وحمل متاعه وواصل سيره يومين في الحر حتى جهد من العطش، فأدرك الجيش، وقد رآه الناس من بعيد فقالوا: يا رسول الله، هذا رجل يمشي وحده في الطريق، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كن أبا ذر**»، فلما اقترب، قالوا: يا رسول الله هو أبو ذر، فقام رسول الله ﷺ حتى دنوت منه، فقال: «**مرحباً بأبي ذر، يمشي وحده ويموت وحده، ويبعث وحده**»، فقال: «**ما خلّفك يا أبا ذر؟**» فأخبره خبر البعير قال: «**إن كنت لمن أعز أهلي علي تخلفاً ـ وهذا عتاب رقيق ـ لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتني**»، ثم سقوه.

ـ قال أبو ذر الغفاري: غزوت مع رسول الله ﷺ تبوكَ قال: فسرتُ ذات ليلة معه ونحن بالأخضر ـ قريباً من تبوك ـ وأُلقي علي النعاس فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله ﷺ فيفزّعني دنوها منه خشية أن أصيب رجله في الغرز فطفقت أحوز راحلتي حتى غلبتني عيناي في بعض الطريق ونحن في بعض الليل، فزاحمتْ راحلتي راحلته ورجله في الغرز فما استيقظت إلا بقوله: حَسِّ ـ تألماً ـ فقلت يا رسول الله استغفر لي، فقال لي: «سر»، فجعل يسألني عمن تخلف من بني غفار فأخبره بهم، وهو يسألني ما فعل النفر الحمر الطوال النطانيط؟ ـ مديد القامة ـ فحدثته بتخلفهم، قال: «**فما فعل النفر السود القصار الجعاد الحلس ـ أسود مائل للحمرة** ـ فقلت: والله يا رسول الله ما أعرف هؤلاء، قال: «**بل الذين هم بشبكة شدخ** ـ فتذكرتهم فلم أذكرهم، ثم ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا وكانوا ينزلون بشبكة شدخ لهم نعم كثيرة، فقلت يا رسول الله: أولئك رهط من أسلم حلفاء لنا، فقال: «**ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله رجلاً نشيطاً في سبيل الله ممن يخرج معنا فيكون له مثل أجر الخارج**». وهذا دليل أنه أخبر بالوحي عن هؤلاء.

ـ قال عليه الصلاة والسلام: «**من أحيا خفاً أو كراعاً بمهلكة من الأرض فهو له**» وسبب ذلك أن صاحب جمل أعجف قد تركه صاحبه في الفلاة لأنه لم يعد يقوى على المسير، فوجده رجل آخر فأخذه فأطعمه في منزله أياماً فقوي الجمل ثم استعمله، فرآه الأول فقال: هذا جملي، فاختصما إلى النبي ﷺ.

ـ في هذه الغزوة ظهر تفضيل النبي ﷺ لحفظة القرآن، فكان معياراً مهماً فيه التشجيع على الحفظ، فقد دفع راية بني مالك بن النجار إلى عمارة بن حزم، فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت فأعطاه الراية، فقال عمارة: يا رسول الله لعلك وجدت علي، قال: **لا والله ولكن قدّموا القرآن، وكان أكثر أخذاً للقرآن منك، والقرآن يقدّم وإن كان عبداً أسود مجدعاً**، وأمر في الأوس والخزرج أن يحمل رايتهم أكثرُهم أخذاً للقرآن، فكان معاذ بن جبل يحمل رايةَ بني سَلِمة.

ـ صلى النبي ﷺ يوماً بأصحابه في سفره وعليه جبة من صوف وقد أخذ بعنان فرسه ـ مقود فرسه ـ وهو يصلي، فبال الفرس فأصاب الجبة فلم يغسله وقال: «**لا بأس بأبوالها ولعابها وعرقها**» وهذا تعليم لمن لم يجد مربطاً وكانت فرسه سلسة القياد أن يمسك بعنانها وهو يصلي.

ـ رغم ضخامة جيش المسلمين وضآلة عدد المنافقين فإنهم عملوا للكيد للمسلمين بشتى الطرق وكان لهم في كل مجلس فتنة، فقال أحدهم: تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأني بكم غداً مقرنين في الحبال، وذلك لتخويف المسلمين، وقال وديعة بن ثابت: ما لي أرى قرّاءنا هؤلاء أوعبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء؟ فقال الجلّاس بن سويد: ـ وكان زوج أم عمير، وعمير كان يتيماً في حجره وكان معهم أثناء هذا الحديث ـ هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ـ باستهزاء ـ ثم قال: والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير، والله لوددت أني أُقاضى على أن يُضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا ننفلت أن ينزل فينا القرآن بمقالتكم، لكن عمير ـ رغم أنه تربى في حجره كان مخلصاً ـ رد عليه وقال: فأنت شر من الحمار ورسول الله ﷺ هو الصادق وأنت الكاذب،

فنادى رسول الله ﷺ عماراً وقال: «**أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا**» فذهب إليهم عمار فقال لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة: إنما كنا نخوض ونلعب، فلم يلتفت إليه رسول الله ﷺ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة] وأما الجلاس فجاء إلى النبي ﷺ وحلف أنه لم يقل من ذلك شيئاً، فأنزل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة] وروي أن عمير قال للجلاس: والله يا جلاس قد كنت أحب الناس إلي وأحسنهم عندي أثراً، وأعزهم علي أن يدخل عليه شيء نكرهه، والله لقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتُها لأهلكن وإحداهما أهون علي من الأخرى فأخبر النبي ﷺ بما قاله الجلاس، وروي أنه تاب وحسنت توبته ولم يمنع خيراً كان يدفعه لعمير.

- تعليم الصحابة خرص النخل - تقدير كمية ثمره وهو على الشجر - وكان عبدالله بن رواحة يجيد هذا وهو الذي كان يخرص نخل خيبر ليأخذ النصف وفق الاتفاق، وقد استشهد في مؤته - مر جيش المسلمين بوادي القرى، ومروا على حديقة لامرأة، فقال رسول الله ﷺ: «**اخرصوها**، فخرصوها وخرصها النبي ﷺ عشرة أوسق وكذلك كان خرص الصحابة، فقال النبي ﷺ للمرأة: **احفظي هذا وأعلمينا ما خرج منها حتى نرجع إليك**، وفي العودة أعلمتهم أنها بلغت عشرة أوسق.

- المرور على الحجر - مدائن صالح - قال: فلما أمسينا بالحِجر قال: «**إنها ستهب الليلة ريح شديدة، فلا يقومن أحد منكم إلا مع صاحبه، ومن كان له بعير فليوثق عقاله**» فهاجت ريح شديدة ولم يقم أحد إلا مع صاحبه إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره، فأما الأول فخنق على مذهبه - أصابه مس - وأما الثاني فاحتملته الريح وألقته على جبل طيئ، ولما ذكر للنبي ﷺ ما حصل للرجلين، دعا

للأول فشفي، وأما الثاني فقد أحضره ناس من طيئ إلى المدينة فيما بعد. وهذا من دلائل نبوته ﷺ الكثيرة خصوصاً في هذه الغزوة، لعل فيها غسلٌ للران الذي غلف قلوب المنافقين المرافقين في هذه الغزوة.

ـ قال أبو هريرة: لما مررنا بالحجر استقى الناس من بئرها وعجنوا، فنادى منادي رسول الله: لا تشربوا من مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين فاعلفوه الإبل، قال سهيل بن سعد: فلما عجنت ذهبت أطلب حطباً، فلما سمع الناس المنادي جعلوا يهرقون ما في أسقيتهم، وقالوا قد عجنا، قال: «أعلفوه الإبل، قال سهيل: فأخذت ما عجنت فعلفت نضوين ـ بعيرين هزيلين ـ فكانا أضعف ركابنا، وتحول الناس إلى بئر صالح وجعلوا يغسلون أسقيتهم ويملؤونها حتى ارتووا، وفيها قال لهم النبي ﷺ: «**لا تسألوا نبيكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم آية فكانت الناقة ترد عليهم من هذا الفلج تسقيهم من لبنها يوم وردها ما شربت، فعقروها فأوعدوا ثلاثة أيام وكان وعد الله غيرَ مكذوب فأخذتهم الصيحة فلم يبق منهم أحد تحت أديم السماء إلا هلك، إلا رجل في الحرم، منعه الحرم من عذاب الله**» قالوا: ومن هو؟ قال رسول الله ﷺ: **أبو رغال، أبو ثقيف**، قالوا فما له بناحية مكة؟ قال: إن صالحاً بعثه مصدقاً، فانتهى إلى رجل معه مائة شاة شصص ـ قليلة اللبن ـ ومعه شاة والد ومعه صبي ماتت أمه بالأمس، فقال: إن رسول الله أرسلني إليك، فقال: مرحباً برسول الله وأهلاً، خذ، قال: فأخذ الشاة اللبون، فقال: إنما هي أم هذا الغلام بعد أمه، خذ مكانها عشراً، قال: لا، قال: عشرين، قال: لا، قال: خمسين، قال: لا، قال: خذها كلها إلا هذه الشاة، قال: لا، قال: إن كنت تحب اللبن فأنا أحبه، فنثر كنانته ثم قال: اللَّهم تشهد، ثم فوّق له بسهمٌ فقتله، فقال: لا يسبق بهذا الخبر إلى نبي الله أول مني، فجاء صالحاً فأخبره الخبر، فرفع صالح يديه مدّاً فقال: اللَّهم العن أبا رغال، ثلاثاً، وهنا قال: **لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم فيصيبكم ما أصابهم**» قال أبو سعيد الخدري: رأيت رجلاً جاء النبي ﷺ بخاتم وجده في الحجر في بيوت المعذبين، فأعرض عنه واستتر بيده أن ينظر إليه، وقال: ألقه فألقاه

فما أدري أين وقع حتى الساعة، وهذا الموقف ليعلَمَ المسلمون مدى السخط على هؤلاء المعذبين.

ـ وكان للمنافقين في كل موقف خبر، فبعد أن ارتحل الناس من موقعهم في الحجر ساروا حتى الصباح، ثم أرادوا الماء فلم يجدوه وقل الماء في أيديهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فاستقبل القبلة فدعا ـ ولم يكن في السماء سحاباً ـ فما برح رسول الله ﷺ حتى ائتلف السحاب في السماء من كل ناحية، فما رام مقامه حتى سحّت علينا السماء بالرواء، قال الراوي: فكأني أسمع تكبير رسول الله ﷺ في المطر، ثم كشف الله السماء عنا من ساعتها وإنِ الأرضُ إلا غدر تناخس ـ يصب بعضها في بعض ـ فاستقى الناس وارتووا عن آخرهم وأسمع رسول الله ﷺ يقول: «**أشهد أني رسول الله**»، قال الراوي: فقلت لرجل من المنافقين ويحك أبعد هذا شيء؟ فقال: سحابة مارة. أقول: وهل كان الناس يعرفون المنافقين؟ ذكروا أن كل عشيرة تعرف من فيها من المنافقين وكانوا ينصحونهم بترك النفاق، ولو صدر الأمر بقتلهم لاجتثوهم، ولكن النبي ﷺ لم يأمر بذلك منعاً للفوضى واتهام الناس بعضهم بعضاً بالنفاق، وهي تهمة سهلة يمكن إلصاقها بالآخرين وقد يعمد المنافقون أنفسهم إلى إلصاق هذه التهمة بالصالحين.

ـ وفي المرحلة الأخيرة قبل وصول تبوك فقد النبي ﷺ ناقته القصواء، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ عمارة بن حزم عقبي بدري، وكان في رحله زيد بن اللّصَيت أحد بني قينقاع وقد أسلم، لكن فيه خبث اليهود وغشهم، وكان مظاهراً لأهل النفاق، فقال: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال النبي ﷺ: «**إن منافقاً يقول: إن محمداً يزعم أنه نبي وأنه يخبركم خبر السماء ولا يدري أين ناقته، وإني لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها وهي في الوادي في شعب كذا وكذا، حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوا بها**»، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: العجب من شيء حدثنا عنه رسول الله ﷺ إنها عن مقالة قائل أخبره الله عنه قال كذا وكذا، فقال رجل سمع مقالة بن اللصيت، زيد والله قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا، فأقبل عمارة على

زيد يجؤه في عنقه ويقول: والله إن في رحلي لداهية وما أدري اخرج يا عدو الله من رحلي، فقال زيد بن اللصيت: لكأني لم أسلم إلا اليوم قد كنت شاكاً بمحمد وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة وأشهد أنه رسول الله، وقد وكله الصحابة لإيمانه والله أعلم به.

ـ يقول المغيرة بن شعبه: كنا بين تبوك والحجر، فذهب رسول الله ﷺ لحاجته ـ وكان إذا ذهب أبعد ـ فتبعته بماء بعد الفجر، فأسفر الناس بصلاتهم حتى خافوا الشمس، فقدّموا عبد الرحمٰن بن عوف فصلى بهم، فحملتُ إلى النبي ﷺ إداوة فيها ماء فلما فرغ صببتُ عليه فغسل وجهه ثم أراد أن يغسل ذراعيه فضاق كُمُّ الجبة ـ وعليه جبة رومية ـ فأخرج يديه من تحت الجبة فغسلهما ومسح خُفّيه، وانتهينا إلى عبد الرحمٰن بن عوف وقد ركع بالناس فسبح الناس بعبد الرحمٰن بن عوف حين رأوا رسول الله ﷺ حتى كادوا أن يفتتنوا، فجعل عبد الرحمٰن يريد أن ينكص وراءه، فأشار إليه النبي ﷺ أن اثبت، فصلى رسول الله ﷺ خلف عبد الرحمٰن ركعة، فلما سلم عبد الرحمٰن تواثب الناس وقام رسول الله ﷺ يقضي الركعة الباقية ثم سلم بعد فراغه منها، ثم قال: «**أحسنتم إنه لم يُتوفّ نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته**» وهذا منتهى التواضع من النبي ﷺ، فلم يقل لهم تسرعتم وكان يمكن انتظاري فأنا قريب، فقد نعت عبد الرحمٰن بن عوف بالصالح، كما يعد هذا التصرف من الصحابة تصرفاً حسناً حيث لم ينتظروا حتى طلوع الشمس فأقاموا الصلاة ـ حرصاً ـ في وقتها.

ـ وتنازع أجير ليعلى بن منبه مع رجل من المعسكر فعض الرجل يد الأجير عضة قوية فما كان من الأجير إلا أن نزع يده من فم الرجل فسقطت ثنيته، فأمسك بالأجير وجاء يشكوه إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**يعمد أحدكم فيعض أخاه كما يعض الفحل**» فأبطل ما أصاب من ثنيته ولم يتقد منه.

ـ لا يزال عدد من الأفراد لا يلتزمون بالتعاليم وهذا أمر مضر بمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، والإسلام دين النظام والالتزام، خطب النبي ﷺ بجموع الجيش وأعلمهم أنهم غداً إن شاء الله سيقدمون على عين ماء بتبوك وقت الضحى، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي، وكان

المسلمون في أشد الحاجة إلى الماء، فسبق إليها رجلان، والعين مثل الزلال تبض بشيء من ماء ـ ماء قليل ـ فسألهما: «**هل مسستما من مائها؟**» فقالا: نعم، وفي فعلهما هلاك للجيش، ثم جمع له من مائها قليلاً قليلاً في شن ثم غسل فيه وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجاءت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثم قال النبي ﷺ: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً**»، وفي رواية ابن إسحاق أن هذا كان في طريق العودة، وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ـ قليل ـ ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له «المشقق» فقال رسول الله ﷺ: «**من سبقنا إلى هذا الماء فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه**» فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئاً، فقال: «**من سبقنا إلى هذا الماء؟**» فقيل له: فلان وفلان، فقال: «**أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتيه**»؟ ثم لعنهم ودعا عليهم والأول أشهر، ورواية لعنهم لأنه علم بنفاقهم وأنهم أرادوا الأذى والعصيان.

ـ قصة ذي البجادين وهو فتى من مزينة واسمه عبد العزى نشأ يتيماً لا مال له، كفله عمه وكان ذا مال وعمل عنده فأيسر وأصبح عنده، فلما قدم النبي ﷺ إلى المدينة تاقت نفسه إلى الإسلام ولكن لا يقدر على اتخاذ خطوة نحو تحقيق ما تاقت إليه نفسه بسبب تعنت عمه ومعاداته للدعوة ولنبي الدعوة، فلما عاد النبي ﷺ من مكة بعد فتحها قال ذو البجادين لعمه: يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمداً، فائذن لي في الإسلام، فقال: والله لئن اتبعت محمداً لا أترك بيدك شيئاً أعطيتكه إلا نزعته منك حتى ثوبيك، فقال ذو البجادين: وأنا والله متبع محمداً ومسلم وتارك عبادة الحجر والوثن، وهذا ما بيدي فخذه، فأخذ كل ما أعطاه حتى جرده من إزاره، فأتى أمه فقطعت بجاداً لها باثنين فائتزر بواحد وارتدى بالآخر ثم أقبل إلى المدينة ـ وكان يقيم قريباً من المدينة عند جبل ورقان ـ فاضطجع في المسجد وقت السحر، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح، وكان يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح، فنظر إليه فأنكره ـ لم يره من قبل ـ فقال: «**من أنت؟**» فانتسب له، فقال: «**أنت عبدالله ذو البجادين**»، فكان اختيار الاسم له بدل عبد العزى، مع

لقب جميل» ذو البجادين، والبجاد الكساء الغليظ مثل البساط لكنه للضرورة جعله كالثوب ليستتر به، ثم قال له رسول الله ﷺ: «**انزل مني قريباً**»، فكان يكون في أضيافه ويعلمه القرآن حتى قرأ قرآناً كثيراً، والناس يتجهزون إلى تبوك، وكان رجلاً صيّتاً، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة، فقال عمر: يا رسول الله ألا تسمع إلى هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة؟ فقال النبي ﷺ: «**دعه يا عمر، فإنه قد خرج مهاجراً إلى الله ورسوله**»، فلما خرجوا إلى تبوك، قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، قال: «**أبلغني لحاء سمرة ـ قشرة من جذع شجرة السمر ـ**» فأبلغه لحاء سمرة، فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال: «**اللَّهم إني أحرم دمه على الكفار**»، فقال: يا رسول الله ليس أردت هذا، قال النبي ﷺ: «**إنك إذا خرجت غازياً في سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، ووقصتك دابتك ـ رفستك برجلها ـ فأنت شهيد لا تبال بأية كان**»، فلما نزلوا تبوكَ فأقاموا بها أياماً توفي عبدالله ذو البجادين فكان بلال بن الحارث يقول: حضرتُ رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفاً بها، وإذا رسول الله ﷺ في القبر، وإذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يدليانه إلى النبي ﷺ وهو يقول: «**أدنيا إلي أخاكما**»، فلما هيأه لشقه قال: اللَّهم إني قد أمسيت عنه راضياً فارض عنه، قال عبدالله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب هذا اللحد.

ـ قال رافع بن خديج: أقمنا بتبوك مدة فأرملنا ـ نفد ـ من الزاد وقرمنا ـ اشتهينا ـ إلى اللحم ونحن لا نجده، فجئتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن اللحم هاهنا وقد سألت أهل البلد عن الصيد فذكروا لي صيداً قريباً ـ فأشاروا إلى ناحية المغرب ـ فأذهب فأصيد في نفر من أصحابي؟ قال: رسول الله ﷺ: «**إن ذهبت فاذهب في عدة من أصحابك، وكونوا على خيل، فإنكم تتفرقون من العسكر**»، قال: فانطلقتُ في عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة ـ وكان صاحب طرد بالرمح وكنت رامياً ـ فطلبنا الصيد فأدركنا صيداً فقتل أبو قتادة خمسة أحمرة ـ حمار الوحش ـ بالرمح على فرسه، ورميت قريباً من عشرين ظبياً وأخذ أصحابنا الظبي والظبيين والثلاثة

والأربعة، وأخذنا نعامة طردناها على خيلنا، ثم رجعنا إلى العسكر فجئناهم عشاء ورسول الله ﷺ يسأل عنا: جاؤوا بعد؟ فجئنا إليه وألقينا الصيد بين يديه، فقال: «**فرقوه في أصحابكم**»، قلتُ: يا رسول الله أنت مر به رجلاً، فأمر رافع بن خديج، قال: فجعلت أعطي القبيلة الحمار والظبي، حتى كان لرسول الله ﷺ ظبي واحد مذبوح فأمر به فطبخ فلما نضج دعا به ـ وعنده أضيافه ـ فأكلوا ونهانا بعد أن نعود وقال: لا آمن، أو قال: أخاف عليكم.

ـ في فترة إقامة الجيش في تبوك قل الزاد فطلب بعض الأصحاب أن ينحروا ركائبهم ـ الإبل ـ فأذن لهم، فلقيهم عمر بن الخطاب وهم على نحرها فأمرهم أن يمسكوا ثم دخل على رسول الله ﷺ، فقال: أذنت للناس في نحر حمولتهم يأكلونها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**شكوا إلي ما بلغ منهم الجوع فأذنت لهم، ينحر الرفقة البعير والبعيرين، ويتعاقبون فيما فضل من ظهرهم وهم قافلون إلى أهليهم**»، فقال عمر: يا رسول الله، فإن يكن للناس فضل من ظهرهم يكن خيراً، فالظهر اليوم رقاق ـ ضعيف ـ ولكن ادع بفضل أزوادهم ثم اجمعها فادع الله فيها بالبركة كما فعلت في منصرفنا من الحديبية يوم أرملنا، فإن الله يستجيب لك، فنادى منادي رسول الله ﷺ: من كان عنده فضل من زاد فليأت به، وأمر بالأنطاع ـ سفرة تمد ليكون فوقها الطعام ـ فبسطت، فجعل الرجل يأتي بالمد من الدقيق والسويق والتمر ثلاثة أفراق ـ الفرق يساوي بالصاع ثلاثة وبالرطل ستة عشر ـ ثم قام وتوضأ وصلى ركعتين ثم دعا الله عزَّ وجلَّ أن يبارك فيه، ثم نادى منادي رسول الله ﷺ أن هلموا إلى الطعام، خذوا منه حاجتكم، وأقبل الناس، فجعل كل من جاء بوعاء ملأه، فقال بعضهم: لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز وقبضة من تمر، لقد رأيت الأنطاع تفيض وجئت بجرابين فملأت إحداهما سويقاً والآخر خبزاً وأخذت في ثوبي دقيقاً ما كفانا إلى المدينة، فجعل الناس يتزودون الزاد حتى نهلوا عن آخرهم، فجعل رسول الله ﷺ يقول وهو واقف: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني عبده ورسوله، وأشهد أنه لا يقولها أحد من حقيقة قلبه إلا وقاه الله حر النار**».

ـ وفي تبوك أتى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسولَ الله ﷺ،

وأعطاه الجزية، وأتاه كذلك أهل جرباء وأهل أذرح وأعطوا الجزية على شروط أهل أيلة، وكتب رسول الله ﷺ لكل منهم كتابَ أمان، وأهدوه وأهداهم وعادوا إلى ديارهم بأمان، وقد حققت هذه الغزوة أهدافها وأصبح الشمال تابعاً للمسلمين، وباء الروم في خوف فلم يكن لهم حضور كما توعدوا.

ـ وبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانياً، فقال رسول الله ﷺ لخالد: **«إنك ستجده يصيد البقر»** فخرج خالد حتى إذا كان قريباً من حصنه بمرأى العين كمَنَ له وكانت الليلة مقمرة، وكان أكيدر في حصنه مع زوجته فأتت البقر واقتربت من الحصن حتى صارت تحك بقرونها باب الحصن، فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان، وطردوا البقر لصيده، فلما ابتعدوا قليلاً عن الحصن طاردتهم خيل المسلمين، فقتل حسان وأسر أكيدر ومن معه، وكان على أكيدر قباء من ديباج موشى بالذهب فأخذه خالد وبعث به إلى رسول الله ﷺ، فبدأ الصحابة يلمسونه ويعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: **«أتعجبون من هذا فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»** ثم قدم خالد بأكيدر فحقن النبي ﷺ دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله، وكان مقام رسول الله ﷺ بتبوك تسع عشرة ليلة لم يجاوزها، ثم عاد إلى المدينة.

❋ ❋ ❋

طريق العودة

ـ إن أشد ما واجه جيش العسرة هو الحاجة إلى الماء وقد وقع لهم مرات كثيرة، وفي كل مرة يلجؤون إلى رسول الله ويشكون له حاجتهم إلى الماء، وكان يطلب ممن معه ماء أن يحضره لكي يتوضأ منه ويقرأ عليه ويصلي لله يسأله الغوث، فتأتي السماء مدرارا أو يفور الماء من بين أصابعه

أو من البئر، وفي العودة إلى المدينة وقع الناس في أزمة ماء، فأمر النبي ﷺ أسيد بن الحضير أن يلتمس الماء فانطلق يبحث عنه وهو مابين الحجر وتبوك، فإذا به يجد راوية من ماء مع امرأة من بلي ـ اسم قبيلة ـ وخبرها خبر رسول الله ﷺ، فقالت: هذا الماء فانطلق به إلى رسول الله، فلما جاء أسيد بالماء دعا فيه رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: «**هلموا أسقيتكم**»، فلم يبق معهم سقاء إلا ملؤوه، دعا بركابهم وخيولهم فسقوها حتى نهلت، وقيل: طلب أن يصب الماء الذي أحضره أسيد في قعب كبير من عساس أهل البادية وقد توضأ فيه وغسل وجهه الشريف ويديه ورجليه ثم صلى ركعتين ثم رفع يديه مداً ثم انصرف وإن القعب ليفور، فقال رسول الله ﷺ: «**زوّدوا**»، فاتسع الماء وانبسط حتى يصف عليه المائة والمائتين، فارتوى الناس جميعاً وإن الماء ليفور.

ـ ومن أخطر ما واجه النبي ﷺ في طريق العودة تآمر عدد من المنافقين للإيقاع به عند اجتيازه العقبة، فلما بلغ رسول الله تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأُخبر رسول الله ﷺ خبرَهم، فقال للناس: «**اسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع**» فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله ﷺ العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها وأمر حذيفة بن اليمان يسوق من خلفه فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه فغضب وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع إليهم حذيفة فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن في يده، وظن القوم أن رسول الله ﷺ قد أُطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فساق به، فلما خرج رسول الله ﷺ من العقبة نزل الناس، فقال النبي ﷺ: «**يا حذيفة هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟**» قال: يا رسول الله، عرفت راحلة فلان وفلان، وكان القوم ملثمين فلم أبصرهم في ظلمة الليل. وكانوا قد أنفروا بالنبي ﷺ فسقط بعض متاع رحله، فجمعها الصحابة حتى لم يفقد منه شيء، فلما أصبح أسيد بن الحضير كلم النبي ﷺ في شأن المنافقين وأن كل عشيرة مستعدة لقتل من فيها من المنافقين، وقال: حتى متى نداهنهم

وقد صاروا في القلة والذلة وضرب الإسلام بجرانه فما يستبقى من هؤلاء؟ فكان جواب النبي ﷺ لأسيد: **إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه**، فقال: يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب، فقال رسول الله ﷺ: **أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟** قال: بلى ولا شهادة لهم، قال: **أليس يظهرون أني رسول الله، فإني قد نهيت عن قتل أولئك.**

ـ وكان أصحاب العقبة الذين دبروا المكر برسول الله ﷺ ثلاثة عشر شخصاً ولما قال حذيفة لم أعرف أحداً منهم لأنهم ملثمون وفي عماية الليل، أخبره رسول الله ﷺ بأسمائهم، فقد ورد أن رسول الله ﷺ نزل عن راحلته، فأوحى الله إليه وراحلته باركة، فقامت راحلته تجر زمامها فلقيها حذيفة بن اليمان فأخذ بزمامها فاقتادها حين رأى رسول الله ﷺ جالساً فأناخها ثم جلس عندها حتى قام النبي ﷺ فأتاه فقال: «**من هذا؟**» قال: أنا حذيفة، فقال النبي ﷺ: «**فإني مسر إليك أمراً فلا تذكرنّه، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان وفلان**»، ذكر عدداً من المنافقين، ولم يخبر رسول الله ﷺ أحداً غير حذيفة، فكان عمر بن الخطاب في ولايته إذا مات أحد ممن يظن أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة للصلاة عليه فإن استجاب علم أنه ليس منهم وإن امتنع عرف أنه منهم.

ـ مسجد الضرار، لقد بلغ من أمر المنافقين أنهم عملوا على بناء مسجد لهم ليتمكنوا من الاجتماع فيه ويحيكوا منه المؤامرات وليكون مركزاً للتجسس تحت مسمى المسجد، فأتى هؤلاء المنافقون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وذلك ليكسبوا مشروعية إقامته، وكان النبي ﷺ وقتها يتجهز لتبوك، فقال لهم: «**إنا على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه**»، فلما عاد إلى المدينة واقترب منها نزل **بذي أوان** ـ مكان التجمع السابق ـ أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني عوف، ومالك بن عدي ـ أو أخاه عاصم بن عدي ـ فقال: «**انطلقا إلى المسجد الظالم أهله**

فاهدماه وحرقاه»، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم، فقال: لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه، فتفرق المنافقون عنه.

وقد روى الواقدي وعدد من أهل السير أن الذي أشار على المنافقين ببناء مسجد الضرار هو **أبو عامر الراهب** الملقب بالفاسق لكي يجتمع بأعوانه سراً، فقد كان هواه مع الروم ويسعى إلى طلب نصرتهم وبسط نفوذهم على الحجاز، وكان يمهد لهذا الأمر، لكن رب العالمين ـ ناصر المسلمين ـ كان مطلعاً على نواياهم فنزلت الآيات تفضحهم وتكشف أسرارهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة] مقارنة بين مسجد قباء الذي أسس على التقوى وبين مسجد الضرار الذي أسس على النفاق والأذى، فالأول صلَّى فيه النبيّ ﷺ ورغَّب في الصلاة فيه فقال: «**الصلاة في مسجد قباء كعمرة**».

❊ ❊ ❊

ما نزل من القرآن في غزوة تبوك

لقد نزل في شأن غزوة تبوك آيات كثيرة منذ بدء التحضير للغزوة وحتى الإذن بتحريق مسجد الضرار وقد امتدت أبعد من ذلك في ذكر الثلاثة الذين تخلفوا دون عذر، ولنستعرض هذه الآيات لنستجلي ما رمَت إليه، فلما أعلن النبي ﷺ النفير وحدد وجهتهم إلى تبوك تثاقل بعض المسلمين لظرف الحر وإمحال السنة وشدتها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة] ثم ركز القرآن الكريم على أمر النفير ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة] فهذا الأمر شامل لمن كانت عدته الحربية خفيفة أو ثقيلة فعليه أن ينفر للجهاد ولا عذر له بالتخلف، ثم كشف حال من يخرج في الغزوة القريبة التي لا مشقة تذكر فيها مع وفير نفعها المادي، لكن لما علموا بُعد السفر تقاعسوا عن التجهز والمشاركة في الجهاد ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يهلكون أنفسهم بالحلف كذباً، وقد عنى بذلك المنافقين، وجاء المعتذرون يبدون للنبي ﷺ أعذارهم الواهية، فكان كل من أتاه واعتذر أذن له بالتخلف ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فكان للنبي ﷺ ظاهرهم، كما أن الذي يخرج مكرهاً لا نفع فيه ويكون مثبطاً لا منشطاً، وبعد هذا أعلم الله تعالى نبيه بصفات من يستأذن وما تنطوي عليه نفوسهم ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فهم على النقيض من الطائفة المؤمنة، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون، فالإيمان لا يزال غير متمكن من قلوبهم لأنها في ارتجاف وشك؛ صنعته بوهمها وبوحي من شيطانها، وإلا فما الذي يمنعهم من الإيمان الحق وهم يشاهدون المعجزات بأم أعينهم؟ لقد كشف الوحي كذب أعذارهم وأنها تَهَرّبٌ من الجهاد لما في قلوبهم من الزيغ والشك، فالذي يعتذر بحق لأمر طارئ مانع هو الذي يكون قد تجهز للحرب وعقد النية على الخروج وبدت عليه آثار هذا التجهز، ثم إن حدث له أمر يستدعي عدم خروجه جاء ليستأذن ولو كان مخلصاً لأعطى جهازه لمن لا يجد جهازاً ليحل محله

وينال ثواب المشاركة ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ألم يخرج مع النبي ﷺ عدد من المنافقين فماذا كانت النتيجة؟ التآمر وبث الفرقة ومحاولتهم قتل الرسول ﷺ عند العقبة، فلو خرجوا جميعاً لكان خطرهم أكبر وهذه إرادة الله ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ثم يخاطب القرآن النبي ﷺ مخبراً إياه حقيقة المنافقين من يوم أن قدم المدينة مهاجراً ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لقد دخلوا في الإسلام كرهاً بعد أن رأوا النصر وأن أمر الله ظاهر رغم كل ما فعلوه من معوقات وكانت خطتهم العمل على تقويض الإسلام من داخله بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر، ثم ذكر قصة أحد كبرائهم الذي اعتذر عن المشاركة بالغزوة وهو الجد بن قيس ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ثم أجمل عموم ما يضمرون بهذه الآية ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ هذه هي صفات العدو الحقيقية، لا يتمنون الخير للمسلمين علماً بأنهم معهم بالمخالطة والادعاء، ومع ذلك يتمنون هلاكهم وهزيمتهم، وهذه الصفة صفة النفاق دخيلة على الأخلاق العربية، فكفار قريش حاربوا وقاتلوا النبي ﷺ وجهاً لوجه ولما أن هُدوا إلى الإيمان أخلصوا، ألم يفرح بعضهم بهزيمة المسلمين عند الصدمة الأولى مع هوازن، ولكن صفوان بن أمية ـ وكان لا يزال على كفره مع أخذ وقت للتفكير الجدي بالإسلام ـ لم يشاطر من تفوه بالفرح، وإنما قال: لئن يربّني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من ثقيف، فكان في قلبه مع المسلمين، ولذلك لم يُعرف النفاق إلا في المدينة حيث تسرب من اليهود إلى النفوس الضعيفة، فكان رد النبي ﷺ بما علّمه الله على ما في نفوس المنافقين ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وقد أخبرهم القرآن الكريم أنهم مطرودون من رحمة الله وأن نفقاتهم لو أرادوا أن ينفقوها

في سبيل الله فإنها لن تقبل منهم لعدم تحقق شرط القبول وهو الإيمان بالله حقاً وصدقاً ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾ كما أن الإسلام لما قلاهم من دائرة قبول ما ينفقون لتحقق كفرهم، فقد طلب من النبي ﷺ ألا يستحسن أموالهم وما هم فيه من النعم التي يرفلون بها وهي زائلة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾، ثم أظهر القرآن الكريم ما كان في نفوس المنافقين تجاه جمع الصدقات ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ ثم أظهر القرآن الكريم ما يدور من حديث بين المنافقين حول رسول الله ﷺ ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾ فكان إيذاء النبي ﷺ من المنافقين أنهم اتهموه بأنه يسمع كل كلمة تقال له، ولكن الله دافع عنه بأنه يسمع الحق وكلام الصدق من أصحابه المخلصين فهو أذن خير وهو رحمة للذين آمنوا، ومع ذلك عندما يكشف الوحي أمرهم فيما قالوه يهرعون إلى رسول الله ﷺ للحلف كذباً بأنهم لم يقولوا شيئاً ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ وكل هذا رغم علمهم بأن كذبهم سوف يظهر ويُفتضح بالوحي ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾ ولما كُشف أمرهم في تبوك وعوتبوا على ما قالوا لم يكن لهم سبيل إلى الإنكار إلا أن قالوا كان كلامنا من باب اللغو واللعب لا على حقيقة ما نعتقد، ألم يعلموا أن زلات اللسان تخرج خبيئات القلوب وما أضمر فيها؟ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ ولقد أصبحت صحيفة المنافقين سوداء فكان مصيرهم في

الآخرة هم والكفار سواء في نار جهنم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ ثم جملهم ثانية مع الكفار في الذكر وأمر بجهادهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ ورغم هذا النكير عليهم إلا أنه فتح لهم باب التوبة إنقاذاً لأنفسهم من النار والخلود فيها ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا﴾ [٧٤] وتبقى حكايتهم مع الغمز ولمز المتصدقين، فلم تعجبهم دنانير عبدالرحمٰن بن عوف أو ما تصدق به أبو بكر وعمر وعثمان فاتهموهم بالرياء ولم يعجبهم درهم أبي عقيل فقالوا إن الله لغني عن درهم هذا، فكان الوحي لهم بالمرصاد ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ ولشنيع فعلهم وضررهم بالمسلمين منع الله نبيه أن يستغفر لهم ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ كما فضح أمرهم في التخلف عن المشاركة في غزوة تبوك بتقديم الحجج الواهية وأنهم استطاعوا بكذبهم أخذ الإذن بالتخلف، فكان كل واحد منهم يروي للآخر ما قدم من عذر لينال الإذن بالتخلف، ثم يقهقهون ويضحكون بأنهم أهل مكر وخداع ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فالخداع مكشوف فهم لم يغيبوا عن نظر الله طرفة عين، وبما أن هذا الفعل قد صدر عنهم فقد سقطوا في مستنقع كذبهم وانكشف خبثهم فلم يعودوا يصلحون للمشاركة مرة أخرى مع المسلمين في غزواتهم ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ولم

يكن قعودهم مبرر بسبب الفقر أو المرض أو العجز؛ بل كان عندهم المال والصحة ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ وألو الطول: أصحاب الغنى والمال، ولقد استمر خداعهم فلم ينفع معهم الصفح أو المعاملة الحسنة، فقد ورد عند البخاري أنه لما مات ابن أبي جاء ابنه عبدالله وسأل رسول الله ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما خيرني الله**»، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وسأزيد على السبعين - وفي رواية: لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت - قال إنه منافق، فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ولما عرّى القرآن المنافقين - حتى لم يعد أمرهم خافياً على أحد وأصبحت أعمالهم مكشوفة لكل إنسان - التفت القرآن إلى صنف آخر من الذين يحضرون للغنيمة الباردة التي لا تحتاج إلى مجازفة أو مشقة، أما الغزوة التي فيها مخاطرة ومشقة فهم أبعد الناس عن المشاركة فيها ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ فقد أبدوا أعذاراً في التخلف واهية ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فهؤلاء أيضاً كانوا تحت المراقبة الربانية التي رصدت حركاتهم وأعمالهم وأعذارهم فلم يخف منها شيء وكيف يخفى على الله الذي له ملك السموات والأرض من أمرهم شيء؟ وهو السميع البصير المحيط علمه بكل صغيرة وكبيرة ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة] ثم يقرر القرآن الكريم قاعدة وصفية تعطي الصورة الحقيقية للأعراب ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ وهذا مجرب عنهم في عصر النبي ﷺ وفي العصور التي تلته حتى يومنا هذا وهذه الصفة تلازمهم طالما أنهم بادون فإن أقاموا و تحضروا زالت عنهم هذه الصفة وانقلبوا أذكياء أتقياء أهل جهاد وقتال وصمود واستبسال ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة]، ثم عاد القرآن ليذكر الأعراب الذين داخلهم النفاق وهم الفئة التي تحالفت مع اليهود فورثوا منهم هذه الخصلة الذميمة التي أبعدتهم عن رضا الله بل أهلتهم لتلقي العذاب الأليم المضاعف ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهناك فئة ثالثة ممن تخلفوا واستأذنوا رسول الله ﷺ ولا عذر لهم لكنهم ندموا وتابوا وعادوا لحظيرة المسلمين ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وعسى فعل للرجاء فإذا ما وردت في القرآن على هذا النحو تفيد تحقق التوبة وحصولها، وعلامة قبول توبتهم قبول صدقتهم، والطلب من النبي ﷺ أن يستغفر لهم، ويدعو لهم بالخير لتسكن نفوسهم من الخوف والقلق لقاء شعورهم بالذنب الخطير الذي اقترفوه، وهول النار التي تنتظرهم في ما لو استمروا على ذنبهم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ ثم ذكر الله تعالى الفئة الكبيرة التي جاهدت بإخلاص وقدمت النفس والمال في سبيل الله، وهي الفئة المرضي عنها والتي تظهر مشرقة السنا في كل زمان ومكان؛ تحمل الدين بقوة وإخلاص ولا تتردد في تلبية دعوة الجهاد في حر أو قر أو شدة أو لأواء، تُقبل راضية - غنيها وفقيرها - فقد باعت نفسها لله فهي ملتزمة بعقدها وبيعها تنتظر موعودها

بشوق وإقبال لا تردد فيه ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ فكان ثوابهم كبيراً وجزاؤهم الجنة خالدين فيها أبداً، ثم عاد القرآن فذكرهم أيضاً بتخصيص أكثر ليُدخل عليهم البشر والسرور ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ فالمسلم أيضاً يحب الإطراء من الله تعالى ورسوله فيزداد إيماناً وإكثاراً من عمل الخير.

لقد استغرقت غزوة تبوك آيات كثيرة من سورة التوبة، فإذا ما اتجهت الآيات إلى التوجيه العام عادت من جديد إلى ذكر أحداث غزوة تبوك، لذلك كانت الشواهد القرآنية التي ذكرت ليست متتابعة وهذا ما تظهره أرقام الآيات، كما أنها امتدحت المسلمين المخلصين بأساليب عدة كلما دعت الحاجة إلى ذكرهم؛ لكي يبقوا في الصورة المشرقة حاضرين فلا يغيبون عن ذهن القارئ، ولعل الختام كان في الجائزة العظيمة التي وهبها الله تعالى للنبي ﷺ وللمسلمين معه ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة].

❊ ❊ ❊

ما قصة الثلاثة الذين خلّفوا؟

ورد أنهم تخلفوا عن المشاركة في غزوة تبوك بغير عذر أبدوه، فكان تخلفهم تهاوناً وكسلاً وعدم إعطائهم الأمر الجد المطلوب لذلك، كان العقاب قاسياً، ودرساً للعبرة استفاد منه المسلمون للتعامل مع مثل هذه الحالة والوقوف بحزم تجاهها كيلا تتكرر، وهم: **كعب بن مالك**،

ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكان أشهر هؤلاء الثلاثة كعب بن مالك الشاعر المعروف، ولقد قص ما حصل معه بالتفصيل لذلك فإن قصته خير شارح للآيات السابقة.

قال كعب: لما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي ـ ساوره القلق وبدأ يخرج ما في نفسه ويستشير من يثق به ـ فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخط رسول الله ﷺ غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، حتى ربما ذكرته للخادم رجاء أن يأتيني شيء أستريح إليه، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق فأجمعت أن أصدقه وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وقيل: إن رسول الله ﷺ لما نزل **بذي أوان** خرج عامة المنافقين الذين كانوا تخلفوا عنه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تكلموا أحداً منهم تخلف عنا ولا تجالسوه حتى آذن لكم، فلم يكلموهم**» فلما قدم المدينة جاءه المعذِّرون يحلفون له، وأعرض عنهم، وأعرض المؤمنون عنهم حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه وعمه، فجعلوا يأتون النبي ﷺ يعتذرون إليه بالحمى والأسقام فيرحمهم رسول الله ﷺ فيقبل منهم علانيتهم وأيمانهم، وحلفوا بالله على ما يقولون، فيصدقهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله عزَّ وجلَّ، قال كعب: فجئت النبي ﷺ وهو جالس في المسجد فسلمت عليه، فلما سلمت عليه تبسمَ تبسم المغضب ثم قال لي: «**تعال**، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلّفك**؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟ فقلت: يا رسول الله، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كاذباً لترضى عني ليوشكن الله عزَّ وجلَّ أن يسخط علي، ولئن حدثتك اليوم حديثاً صادقاً تجد ـ تغضب ـ علي فيه إني لأرجو

عقبى الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد صدقت، فقم حتى يقضي الله عزَّ وجلَّ فيك**» فقمت وقام معي رجال من بني سلمة، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا وقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله مازالوا بي يلومونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي، فلقيت معاذ بن جبل وأبا قتادة فقالا لي: لا تطع أصحابك وأقم على الصدق، فإن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً إن شاء الله، فأما هؤلاء المعذِّرون فإن يكونوا صادقين فسيرضى الله عنهم ويعلم نبيه، وإن كانوا على غير ذلك يذمهم الله أقبح الذم ويكذّب حديثهم، فقلت لهم: هل لقي هذا غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فذكروا رجلين صالحين فيهما أسوة وقدوة، ونهى الرسول ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة، قال: فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي، والأرض فما هي الأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا فقعدا في بيتيهما وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم وكنت أشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد حتى آتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلّم فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال، علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فعدت فنشدته الثالثة فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، فوثبت فتسورت الجدار ثم غدوت إلى السوق فبينما أنا أمشي بالسوق فإذا نَبَطيٌّ من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالسوق يسأل عني يقول: من يدلني على

كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له، فدفع إلي كتاباً من الحارث بن أبي شمر ملك غسان ـ أو قال من جبلة بن الأيهم ـ في سَرَقة من حرير فإذا في كتابه: أما بعد فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال كعب: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجال من أهل الشرك، فذهبت إلى تنور فسجرته بها وأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين؛ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: بل اعتزلها فلا تقربها، وكان ـ الأمر بهذا إلى الثلاثة ـ قال: فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض، وأما هلال بن أمية فكان رجلاً صالحاً فبكى حتى إن كان ليرى أنه هالك من البكاء وامتنع من الطعام فإن كان يواصل اليومين والثلاثة من الصوم ما يذوق طعاماً إلا أن يشرب الشربة من الماء أو من اللبن ويصلي الليل ويجلس في بيته لا يخرج لأن أحداً لا يكلمه حتى إن كان الولدان ليهجرونه لطاعة رسول الله ﷺ، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، وأنا أرفق به من غيري فإن رأيت أن تدعني أن أخدمه فعلت، قال: «**نعم، ولكن لا تدعيه يصل إليك**، فقالت: يا رسول الله! ما به من حركة إلي، والله ما زال يبكي منذ يوم كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، وإن لحيته لتقطر دموعاً بالليل والنهار، ولقد ظهر البياض على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره، قال كعب: قال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها، ما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ في ذلك إذا استأذنته وأنا رجل شاب، فوالله لا أستأذنه، ثم لبثنا بعد ذلك عشر ليال وكملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التي ذكر الله عزَّ وجلَّ وقد ضاقت عليّ الأرض بما رحبت وضاقت علي نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع فكنت فيها، إذ سمعت صارخاً أوفى على سلع يقول بأعلى

صوته: يا كعب بن مالك، أبشر! قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الصبح.

فكانت أم سلمة تقول: قال لي رسول الله ﷺ من الليل: «**يا أم سلمة، قد نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه**»، فقلت: يا رسول الله ألا أرسلتُ إليهم فأبشرهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يمنعونك النوم آخر الليل، ولكن لا يُرون حتى يصبحوا**»، فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخبر الناس بما تاب الله على هؤلاء النفر« وسر الصحابة للخبر فنشروه ووصل أسرع من البرق لأصحابه فخروا لله سجداً وغمرتهم حالة من البكاء شديدة، قال كعب: بشرني حمزة بن عمرو، فلما سمعت صوته نزعت ثوبيَّ فكسوتهما إياه لبشارته ـ والله ما أملك يومئذ غيرهما ـ ثم استعرت ثوبين من أبي قتادة فلبستهما ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يهنئونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله فحياني وهنأني، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي ووجهه يبرق من السرور: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**، قال كعب: أمن عندك يا رسول الله، أو من عند الله عزَّ وجلَّ؟ فقال: «**من عند الله عزَّ وجلَّ**» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ يستنير حتى كأن وجهه فلقة القمر، قال كعب: فلما جلست بين يدي رسول الله ﷺ، قلت يا رسول الله: إن من توبتي إلى الله وإلى رسوله أن أنخلع من مالي إلى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك مالك هو خير لك**، فقال: إني ممسك بسهمي الذي بخيبر، قال رسول الله ﷺ: «**لا**»، قلت: النصف، قال: «**لا**»، قلت: فالثلث، قال: **نعم**، وقال كعب: يا رسول الله! إن الله عزَّ وجلَّ نجاني بالصدق وإن توبتي إلى الله ألا أحدّث إلا صدقاً ما حييت.

قال الواقدي: وقدم رسول الله ﷺ المدينة في رمضان سنة تسع، فقال: «**الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجر وحسنة ومَن بعدنا شركاؤنا فيه**»، فتعجبت عائشة وقالت: يا رسول الله أصابكم السفر وشدته ومَنْ بَعْدَكم شركاؤكم فيه؟ عَنَتْ بذلك المتخلفين كيف يشاركونكم في

الأجر، فقال رسول الله ﷺ: **إن بالمدينة لأقواماً ما سِرْنا من مسير ولا هبطنا وادياً إلا كانوا معنا حبسهم المرض، أوليس الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾** [التوبة] **فنحن غزاتهم وهم قعَدَتُنا، والذي نفسي بيده لدعاؤهم أنفذ في عدونا من سلاحنا**».

قال: وجعل المسلمون يبيعون سلاحهم ويقولون: قد انقطع الجهاد، فجعل القوي منهم يشتريها لفضل قوته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم عن ذلك وقال: «**لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال**».

يتبين من قصص القرآن التي خصت السيرة النبوية وتعرضت لأغلب الغزوات الكبيرة بالذكر أن الجهاد في الإسلام عمل مطلوبٌ تَأْدِيتُه من كل المسلمين وهذا ما لاحظناه أخيراً في غزوة تبوك فكان التركيز على المشاركين والمعتذرين مع التشنيع على من اعتذر بأعذار واهية ولم يشارك، ثم كان التشديد والنكير على الثلاثة الذين تخلفوا دون إبداء العذر وكيف عانوا من المقاطعة على مدى خمسين يوماً كانت من أشق الأيام عليهم، ولولا صبرهم وإخلاصهم لدينهم لهلكوا وكان مصيرهم إلى النار.

إن هذا التشديد على مبدأ الجهاد والالتزام به ومؤاخذة كل من يتخلف عنه يبين لنا مدى الأهمية للجهاد في حياة المسلمين؛ وأن التخلي عنه يعد كبيرة من الكبائر لا تغتفر، وتركه يورث الأمة ذلاً وضعفاً وتسلطاً عليهم من أمم الكفر لا ينتهي، لكن علينا أن نعرف أن هذا الجهاد لا يكون إلا بإمرة ولي الأمر أو من يعينه وليُّ الأمر، وهو الذي يقرر الجهاد والعدوَ الذي ينبغي أن نجاهده، وإذا احتُلّت ديارُ الإسلام وفُقد ولي الأمر أو لم يعد قادراً على تحمل المسؤولية اتخذ أهلُ الحل والعقد ولياً للمسلمين وعملوا برأيٍ موحد لتحرير بلدهم، وقد منع النبي ﷺ التحرش بالعدو لإشعال حرب دون إذن ـ فلم يسمح لأبي بصير ولا لأبي جندل من تنفيذ رغبتهما في اللجوء إلى المسلمين بعد توقيع صلح الحديبية لأن هذا سيشعل حرباً

مع قريش ـ ألم يأمر نعيم بن مسعود بأن يأتيه بخبر القوم ولكن دون أن يحدث شيئاً آخر؟ وقال نعيم: لولا ذلك لقتلت أبا سفيان، وكان القائد يتلقى منه ﷺ تعليمات محددة فإذا ما خالفها عزله بلا إبطاء، ولقد تحقق للمسلمين بعد هذه الغزوات والتضحيات توحيد الجزيرة العربية وجعلها تنضوي تحت لواء الإسلام، والحق يقال: فقد تم ذلك بأقل الخسائر البشرية بالنسبة للطرفين، فهناك غزوات كان الحشد فيها كبيراً ولكن قل فيها القتلى من الطرفين كغزوة الخندق وتبوك، ولو جمع عدد القتلى في كل المعارك من الفريقين لما وصل إلى الألف مهما بالغنا في إحصاء الأعداد، وهذا أقل من القليل على مدى تسع سنوات من الجهاد وتجييش الجيوش، وهذا ينفي ما زعمه الأعداء من أن الإسلام قام بحد السيف، ولو ترك الإسلام يمارس دعوته بحرية وبلا تعرض للدعاة بالأذى والقتل لما أريقت قطرة دم واحدة.

كانت الدعوة في مكة سلمية على مدى ثلاث عشرة سنة تحمّل المسلمون فيها الصبر على الأذى والاضطهاد، ولكن لما طمع العدو بالمسلمين وتمادى في الإيذاء من غير أن يجد ما يردعه؛ أذن الله للمسلمين برد الأذى والدفاع عن النفس ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

إن من يتهم المسلمين بأنهم نشروا الإسلام بقوة السيف هو خاطئ ومجانب للحقيقة وهو جاهل بسيرة النبي ﷺ وطريقة نشره الدعوة، لقد قدمتُ غزواته وسراياه بالتفصيل، والمنصف يستنتج بعد قراءتها أنها كانت للدفاع عن النفس، وها هي الأسباب والدوافع:

ـ غزوة بدر، دوافعها استرداد حقوق المسلمين من قريش التي أخرجتهم من ديارهم وصادرت أموالهم، ألم يمنعوا صهيب الرومي من الهجرة؟ ولما أعطاهم ماله تركوه، فخرج المهاجرون من مكة فقراء تركوا

دورهم ومتاعهم فيها، وقد تحمل الأنصار عبء إسكانهم ومشاركتهم العيش إلى أن فتح الله عليهم، لذلك كان التصدي لتجارة قريش هو السبيل لاسترداد المال وتأديب قريش.

- **غزوة بني قينقاع**، تطاول اليهود على المسلمين بالاعتداء على العرض في سوق بني قينقاع فكان لا بد من تأديب المعتدين، وقد اكتفى المسلمون بإخراجهم من المدينة وهي في الأصل ليست بلادهم.

- **غزوة بني النضير**، خان اليهود العهد والاتفاق على التعاون في دفع الديات والدفاع عن المدينة، وبدل الالتزام والوفاء خططوا لإلقاء صخرة فوق النبي ﷺ لقتله، فبماذا سيقابل هؤلاء على إجرامهم؟

- **غزوة أحد**، كان المعتدي والمهاجم والحاشد للجيش هي قريش.

- **غزوة الخندق**، أيضاً أرادت منها قريش اجتثاث المسلمين وإفنائهم.

- **فتح مكة**، كان بسبب نقض كفار مكة الصلح الذي التزم به المسلمون إلى أقصى حد، ونعلم أن الصلح كان بسبب منع المسلمين من أداء العمرة وهي عامة لكافة قاصدي المسجد الحرام، ثم كان نقض الصلح من قريش، فكان الرد بتحرير مكة من قبضتهم.

- **غزوة خيبر**، كانت لتأديب اليهود وكفهم عن التآمر على المسلمين، فكانوا سبب تجييش الأحزاب ضد المسلمين، ومن الخطر تركهم يتآمرون.

- **غزوة حنين**، كانت للتصدي لحشد هوازن الكبير ضد المسلمين، وكان في نيتهم إبادة ماحقة للمسلمين، فجمعوا كامل قوتهم ورموا بها المسلمين.

- **غزوة مؤتة**، لتأديب من أهان المسلمين وقتل حامل رسالتهم السلمية.

- **غزوة تبوك**، كانت للتصدي لحشود الروم الذين قرروا غزو

المسلمين وهدم المدينة المنورة، وكان ذلك بتحريض من أبي عامر الراهب، فلما كف الروم وألغوا فكرة الغزو كف المسلمون أيضاً.

ـ **بقية السرايا والغزوات**، كانت كلها لردع معتد أو لتفويت الفرصة على قبيلة لغزو المدينة، ورأينا أن كثيراً من القبائل قللوا من شأن المسلمين في بداية قدومهم إلى المدينة ولم يراعوا فيهم عهداً ولا ذمة، فاستضعفوهم وعدّوهم كسباً مباحاً يستخدمون للنيل منهم كافة الأساليب الخادعة، كما حصل لأصحاب الرجيع وبئر معونة، واستباحة إبل المسلمين في سرح المدينة، وكان لا بد لهؤلاء من الردع لإيقاف العدوان وإلا فسيكررون الغدر مرات ومرات، ومع ذلك لم يكن الردع إلا للتأديب لكي يرعوي هؤلاء ويقروا بأن الإسلام جاء لهدايتهم وغرس الخير في نفوسهم وإرشادهم إلى درب الفلاح، وهكذا كان هدي المسلمين ودأبهم وسيرتهم مع الأمم الأخرى، فأحبهم الناس وأقبلوا على الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجاً، فانتشر الإسلام في ظل توفير الأمن والسلام للأمم الأخرى، فكان انتشار الإسلام شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى سعد به الجميع، مَن أسلم ومن دفع الجزية، لينعم كل هؤلاء بالأمن والحماية والسلام، ولما تغير عند المسلمين هدفُ الفتح ومالوا إلى الدنيا تغيرت أحوالهم وأحوال الأمم التي كانت تتخذهم مثلاً وقدوة، فانتقلت قيادة العالم إلى غيرهم، وحين يعودون إلى المنهل العذب تعود لهم السيادة.



عام الوفود

لن نتكلم كثيراً عن عام الوفود فهو عام سلام واستقبال للوفود التي جاءت إلى المدينة مسلمة بعد أن توقف القتال وتوقفت الحملات وعرفت القبائل العربية قيمة الإسلام وأنه دين الله الهادي لإصلاح المجتمع ونقله من الحياة القبلية إلى حياة الدولة والنظام والبناء والتقدم والرقي والأخوة المبنية

على المحبة والإيثار، ولما فهم مجتمع الجزيرة هذا القصد أتوا مبايعين، وأحضر كلٌّ وفد معه نخبة من شعراء القبيلة وفصحائها ومفكريها ليظهروا بالمظهر اللائق بهم أمام النبي ﷺ وأصحابه، فكان لا بد أيضاً للنبي ﷺ أن يُخرج لهم من أصحابه من امتاز بالفصاحة والنبوغ في الخطب والشعر وقوة البيان، حتى إنه قال لما سمع من الطرفين ما يروق من الفصاحة والبيان: «**إن من البيان لسحراً ومن الشعر لحكمة**» كما اعترفت الوفود بقوة حجة المسلمين وما بلغوه من البيان والخطابة والشعر لأن الإسلام قد صقلهم وقوى من حججهم ومنطقهم فقالوا: والله لخطيبهم أقوى من خطيبنا ولشاعرهم أشعر من شاعرنا، فكان عام الوفود عام الثقافة والبيان، فقد أدلى كل بدلوه وكانت الحصيلة تفوّق المسلمين ودخول القبائل في دين الله أفواجاً، ومن هذه القبائل:

ـ **وفد بني تميم**، ورد في صحيح البخاري أن وفداً من بني تميم أتى النبي ﷺ فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: يا رسول الله، قد بشرتنا فأعطنا، فرئي ذلك في وجهه، فجاء نفر من اليمن، فقال: اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلناها «والبشرى كما ورد فيما بعد هي إخبارهم عن بدء الخلق إلى أن يدخل أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقول فيهم» هم أشد أمتي على الدجال، وكانت فيهم سبية ـ مملوكة ـ عند عائشة، فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقة قوم أو قومي» وكان سبب مجيء الوفد أن الأقرع بن حابس سبى منهم بعض الرجال والنساء والأولاد فأتوا ليستردوهم، وقد كان بينهم وبين المسلمين خطب متبادلة وأشعار، وكان خطيب المسلمين ثابت بن قيس وشاعرهم حسان بن ثابت، وكان شاعرهم الزبرقان بن بدر وخطيبهم عطارد، فلما انتهوا من الخطابة والشعر، قالوا: إن الرجل لمؤتى ـ يقصدون النبي ﷺ بأنه مؤيد ـ خطيبهم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا، ثم أسلموا.

ـ **وفد ثقيف**، قبل قدوم وفد ثقيف، قدم عروة بن مسعود الثقفي

إلى النبي ﷺ ـ وقيل لقيه في الطريق عند منصرفه من الطائف ـ فأسلم وسأل النبي ﷺ أن يأذن له بالعودة إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، فقال له: «**إنهم قاتلوك**»، فقال عروة: أنا أَحَبُّ إليهم من أبكارهم، راجياً أن يوافقوه لمنزلته عندهم، فلما رجع إلى الطائف صعد عليّة له وأشرف منها على قومه وأظهر لهم الإسلام ودعاهم إليه، فرموه بالنَّبل، فأصابه سهم فقتله، فقيل له قبل أن يلفظ روحه: ما ترى في دمك ـ أي من تتهم ـ فقال: كرامةٌ أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي، ليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ فادفنوني معهم، فلما مات دفنوه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «**إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه**».

ولم تطل مدة قدوم وفد ثقيف بعد حادثة عروة، فقد وجدوا أن القبائل حولهم قد أسلمت وأصبحوا غرضاً لغاراتهم والتعرض لهم، وكان من أشد الناس عليهم مالك بن عوف حليفهم بالأمس، فقدم وفدهم إلى النبي ﷺ في المدينة وفيهم: عبد ياليل، والحكم بن عمرو بن وهب، وشرحبيل بن غيلان، وغير هؤلاء، فأنزلهم رسول الله ﷺ في قبة في المسجد، فكان خالد بن سعيد يمشي بينهم وبين النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يرسل إليهم بالطعام فلا يأكلون منه حتى يطعم منه خالد إلى أن أسلموا، وقد كانت لهم شروط لم تقبل منهم إلى أن تخلوا عنها، ومنها: ترك الطاغية ـ الصنم ـ فلا يهدم إلا بعد ثلاث سنين، فنزلوا إلى أقل ثم إلى شهر فأبى عليهم إلا هدمها، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، فقال: «**لا خير في دين لا صلاة فيه**» ثم أرسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب فهدما الصنم، وبكاه النساء والأولاد وتوقعوا انتقامه من هادميه، لكن لم يحدث شيء وأيقنوا باطله وفشا الإسلام بينهم.

ـ **وفد طيء**، في شهر ربيع الثاني من سنة تسع للهجرة، أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة علي بن أبي طالب فهدم صنم الفلس وغنم وأسر بنتاً لحاتم الطائي اسمها سفانة، وتفرق القوم وهرب أخوها عدي بن حاتم إلى الشام، وكان على الصنم سيفان أهداهما الحارث بن أبي شمر للصنم فعلقا

عليه فعاد بما غنم إلى المدينة، ويروي عدي بن حاتم قصة إسلامه وقومه، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا أختي وناساً فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فقالت أختي: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي من الله عليك، فقال: «**ومن وافدك؟**» قالت: عدي بن حاتم، قال: «**الذي فر من الله ورسوله!**» فمنَّ عليها، وإلى جانبه علي بن أبي طالب واقف، فقال لها: سليه حملاناً، فسألته، فأمر لها به وكساها وأعطاها نفقة، وقال لها لا تعجلي في الذهاب حتى تجدي رفقة، ثم خرجت حتى أتت أخاها عدي بالشام، وأخذت تلومه على تركها وهربه بأهله دونها، ثم قالت له: أرى أن تلحق بمحمد سريعاً فإن كان نبياً كان للسابق فضله، وإن كان ملكاً كنت في عز وأنت أنت، قال: فقدمت المدينة ودخلت على رسول الله ﷺ وعرفته نفسي، فانطلق بي إلى بيته، وفي الطريق استوقفته امرأة ضعيفة فوقف لها طويلاً فكلمته في حاجتها، فقلت: ما هذا بملك، ثم دخلت بيته فأجلسني على وسادة وجلس على الأرض، فقلت في نفسي: ما هذا ملك، فقال لي: «يا عدي إنك تأخذ المرباع وهو لا يحل في دينك، ولعلك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا، والله ليفيضن المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ووالله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله، ووالله لتسمعن بالقصور البيض من بابل وقد فتحت ـ شارك في فتحها مع سعد بن أبي وقاص ـ قال: ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله، ووالله لتكونن الثالثة، فأسلم وأسلم قومه وكان من المجاهدين، وقدم من طيء وفد فيهم زيد الخيل وهو سيدهم، فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال فيه رسول الله ﷺ: «**ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل**»، ثم سماه زيد الخير، وأقطع له فيد وأرضين معها، فلما رجع أصابته الحمى بقرية من نجد فمات بها.

ـ **وفد عبد القيس**، أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ، فقالوا يا رسول الله إن هذا الحي من ربيعة، وقد حال بيننا وبينك كفار مضر فلسنا نخلص إليك إلا في شهر

حرام، فمرنا بأشياء نأخذ بها وندعو إليها من وراءنا، قال: «**آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله ـ شهادة أن لا إله إلا الله، وعقد واحدة ـ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**، وزاد في رواية ـ **وصوم رمضان ـ وأن تؤدوا لله خمس ما غنمتم، وأنهاكم عن الدباء والنقير والحنتم والمزفت**» التمر أو الزبيب ينتبذ في هذه الآنية، فالنقير تجويف في أصل النخلة ـ جذعها ـ يسكب فيها الماء مع التمر أو الزبيب حتى يتخمر، وكذلك البقية، الدباء: القرع، والحنتم إناء يصنع من طين وشعر ودم، والمزفت إناء يطلى بالزفت ـ القار ـ كلها آنية للتخمير.

وكان فيهم الجارود وكان نصرانياً فأسلم، وبعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي مع وفد عبد القيس عاملاً على الصدقات، وكانت من أهم الصدقات التي ترد إلى المسلمين في المدينة فيستفيد منها الفقراء ومن وعدهم النبي ﷺ بالعطاء.

ـ **وفد بني حنيفة**، أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: **ما عندك يا ثمامة؟** فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد، قال: **ما عندك يا ثمامة؟** فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟** فقال: عندي ما قلت لك، فقال: **أطلقوا ثمامة**، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح أحب البلاد إلي، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم بمكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، لا والله لا يأتيكم من

اليمامة حبة حنطة حتى يأذن بها النبي ﷺ» ثم جاء الوفد الذي فيه مسيلمة الكذاب، وقد ورد أنه لم يلتق النبي ﷺ بل كان في رحال قومه فلما أسلموا أهداهم هدايا فقالوا إن في رحلنا مسيلمة فأرسل معهم بهديته، ثم ذكر عن مسيلمة أنه كتب إلى رسول الله ﷺ يذكر أنه شريكه في النبوة، وأرسل الكتاب مع رسولين، فسألهما رسول الله ﷺ عنه، فصدقاه، فقال لهما: **لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما**، وكان في كتاب مسيلمة الآتي: من مسيلمة إلى محمد رسول الله أما بعد فإني قد أُشركت معك في الأمر وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**» ثم كان إعلان ردته بعد مرض النبي ﷺ الذي مات فيه.

ـ **قدوم الأشعريين وأهل اليمن**، وقدم إلى رسول الله ﷺ كتب ملوك حمير مقرين بالإسلام مع رسلهم، منهم: الحارث بن عبد كُلال والنعمان، قَيْل ذي رُعين وهمدان، وأرسل إليه زُرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم وكتب إليهم رسول الله ﷺ يأمرهم بما عليهم في الإسلام وينهاهم عما حُرّم عليهم، وقدم أيضاً وفد بهراء فنزلوا عند المقداد بن عمرو، وقدم وفد بني البكّاء وقدم وفد بني فزارة، فيهم خارجة بن حصن، وقدم وفد ثعلبة بن منقذ، وقدم وفد سعد بن بكر، وكان وافدهم ضُمام بن ثعلبة، فسأل رسول الله ﷺ عن شرائع الإسلام وأسلم، فلما رجع إلى قومه قال رسول الله ﷺ: «**لئن صدق ليدخلن الجنة**»، فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، فقالوا: اتق البرص والجذام والجنون، فقال: ويحكم إنهما لا يضران ولا ينفعان، وإن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً وقد استنقذكم به مما كنتم فيه وأظهر إسلامه، فما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل مشرك ولا امرأة مشركة، فأسلم جميع قومه، فما سمع بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

ـ **وقدم جرير بن عبدالله البجلي في رمضان مسلماً**، فبعثه النبي ﷺ إلى ذي الخَلَصة فهدمها، وكان من حجر أبيض بتَبالة، وهو صنم بَجيلة وخثعم وأزد السراة، فلما أتى خبر هدمه إلى رسول الله ﷺ سجد لله شكراً.

ـ **وفد نجران**، أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً، فإن أجابوه أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلهم، فخرج إليهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه وأسلموا، وعاد خالد ومعه وفد منهم، فقدموا إلى رسول الله ﷺ، ولما عادوا إلى ديارهم أرسل معهم عمرو بن حزم يعلمهم شرائع الإسلام ويجمع صدقاتهم، أما نصارى نجران فإنهم أرسلوا العاقب والسيد في نفر إلى رسول الله ﷺ، ولما سمعوا منه توقفوا ولم يسلموا وأصروا على التمسك بدينهم ثم طلبوا مباهلته بشأن عيسى عليه السلام ـ والمباهلة: التضرع في الدعاء ليكون الحق مع أحد الفريقين مع قول اللّهم العن الكاذب ـ ثم قال كبيرهم: قد عرفتم نبوته وما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، وأتوا رسول الله ﷺ فوجدوه وقد استعد للمباهلة ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي، وقال لهم إذا دعوت فأمنوا، فامتنع وفد نجران عن المباهلة وأخذوا برأي صاحبهم، فوادعوا النبي ﷺ على دفع جزية معلومة وانصرفوا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران].

فأهدى رسول ﷺ هدايا لهذه الوفود وأهدوا له أيضاً، فطابت النفوس وبدأت مرحلة التعليم لكي يتفقه المسلمون في أمور دينهم، ونشط أصحاب النبي ﷺ الذين أخذوا عنه العلم وحفظوا القرآن، فانتشروا بين القبائل معلمين ومفقهين، كما خرج بعضهم لجمع الزكاة يفقهون الناس بأحكامها، فنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ

﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ سورة النصر.

❋ ❋ ❋

زلزال في اليمن

كان عامل الفرس في اليمن باذان فأسلم وأسلم معه أناس من أهل اليمن ثم بعثوا وفودهم إلى النبي ﷺ بالمدينة ليبايعوا ويتفقهوا في الدين، فكان منهم:

- وفد سلامان وهم سبعة نفر يرأسهم حبيب السلاماني.

- وفد غبشان وقد أتوا في رمضان.

- وفد عامر في رمضان أيضاً.

- وفد الأزد، يرأسهم صُرَد بن عبدالله.

- وفد جُرَش - بلجرشي اليوم - من رجلين ليتعرفا على النبي ﷺ ودعوته.

- وفد مراد مع فروة بن مسك المرادي، وكانت هناك وقعة بين همدان ومراد كانت الغلبة فيها لهمدان وأصيبت مراد وسميت الموقعة «يوم الرَّزْم» فقال رسول الله ﷺ لفروة: **«هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم؟»** فقال: يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي ولم يسؤه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إن ذلك لا يزيد قومك في الإسلام إلا خيراً»** فاستعمله على مراد وزبيد ومذحج وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص فكان على الصدقات.

- وفد زبيد مع عمرو بن معدي كرب.

- وفد كندة مع الأشعث بن قيس، وكانوا ستين راكباً، فقال الأشعث: نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار، فقال النبي ﷺ: **«نحن بنو**

النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا»، بمعنى عدم الانتساب إلى الأم.

- وفد محارب.

- وفد عبس.

- وفد الرهاويين.

- وفد خولان.

- وفد بني عامر بن صعصعة، وكان قد اتفق عامر بن الطفيل مع أربد بن قيس على قتل النبي ﷺ عندما يلتقونه، على أن يشغله عامر بالحديث ويهوي إليه أربد بالسيف فلم يتمكنا، فقال عامر لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً متهدداً النبي ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللّهم اكفني عامراً**»، فلما خرجا قال عامر لماذا لم تقتله؟ قال أربد: كلما هممت بضربه كنت أنت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك، وقد استجاب بهما دعاء النبي ﷺ، فأصيب عامر بالطاعون ومات في بيت امرأة سلولية، وأرسل الله على أربد صاعقة فأحرقته.

وبعد هذا الإقبال من قبائل اليمن على الإسلام وعودة كل قبيلة ومعهما صحابي لتعليمهم أمور دينهم؛ خرج عليهم من اليمن **الأسود العنسي** واسمه عيهلة بن كعب العنسي وينتسب إلى مذحج، وعاث في اليمن الفساد، وكان **باذان** قد توفي فخلفه ابنه شهر فتصدى للأسود لكنه قتل في المعركة وتبعت كثير من القبائل الأسود خوفاً ورهبة، كما أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص كانا قد غادرا اليمن قبل ظهور الأسود، وكان في اليمن عدد من عمال النبي ﷺ مثل: معاذ بن جبل وعمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وعامر بن شهر وأبي موسى الأشعري ويعلى بن أمية وزياد بن لبيد وعكاشة بن ثور والمهاجر وغير هؤلاء، فاضطربت أحوالهم ولم يعرفوا كيف يتصرفون إزاء هذا الخطر وكانت ردة هؤلاء أول ردة في الإسلام، وتمكن الخبيث العنسي من زمام الأمور وكان يستعمل السحر ويأتي ببعض الأعاجيب حتى خافه الناس فأحنوا رؤوسهم لهذه العاصفة ريثما

يعود لهم رأيهم، ثم جاءتهم كتب النبي ﷺ تأمرهم بالتجمع ومراسلة من بقي على الإسلام في اليمن ليكونوا صفاً واحداً، فتحرك المسلمون وأعادوا تجميع قواهم وكان هذا بمثابة الفرج الذي كان ينتظره كثير من المسلمين الذين تخفوا من الخطر ولم يكن بينهم رابط، فلما وطدوا الصلات ونظموا أنفسهم وراسلوا أتباعهم في القصر أحكموا خططهم وضربوا ضربتهم القاتلة للأسود فكانت نهايته حيث اغتيل في قصره، بعد حوالي خمسة شهور من قيامه، وعادت حياة الإسلام إلى اليمن، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ من السماء قبل أن تصل رسل اليمن بالبشارة إليه، فتلقاهم أبو بكر فبشروه وهو خليفة المسلمين.

❋ ❋ ❋

التشريع للحياة وتنظيمها

كانت فترة المدينة المنورة فترة تشريع وتأصيل للحياة، فالأحكام عامة شاملة لكل مناحي الحياة لكي تقوم دولة الإسلام على قانون ونظام محكم متقن، ولقد رعى الله هذه الدولة وشملها بقانونه الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكي يحكم المسلمون وفق ما علمهم ربُّهم العالم بما يصلح الناس فوق هذه الأرض ويناسب حياتهم وتعاملهم، وبهذا يمتاز المسلمون عن غيرهم بهذه الرعاية، وشتان بين قانون السماء وقانون الأرض، فقانون الأرض الذي شرّعه البشر لا يخلو من الأهواء والنقص وقصر النظر، آني محدود غير شامل يحتاج للتبديل والتعديل، فكم تهرب من أحكامه المحتالون والتفوا عليه؛ فلم يطلهم حكمه لما فيه من النقص فعاثوا باسمه في الأرض الفساد وتقلبوا وتقلب معهم قانونهم، فنسخوا منه أو زادوا عليه وفق ما يحلو لهم فأحلوا فيه وفق هواهم ما يرونه نافعاً وحرموا فيه كذلك، ثم عادوا فأحلوا ما حرموا وحرموا ما أحلوا، وهكذا أصبح القانون في أيدي المشرعين من البشر لعبة تتقلب حسب الهوى والمصلحة الفردية أو الإقليمية الضيقة، فكانت معاييرهم مزدوجة وفق

الهوى، ولم يشهد الثبات وتحقيق العدالة إلا قانون السماء الذي لم يميز بين أبيض وأسود أو عرق وعرق أو قومية وقومية، مع مرونة في معايشة التطور على مدى الزمن ضمن ثوابته التي تبقى بسموها مصدر الفقه وتوليد الأحكام لكل حادث أو مستجد، فكانت الأحكام الإسلامية شاملة على مستوى الفرد والجماعة، كتشريع العبادات والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج واللباس والحجاب والحرام والحلال من المأكل والملبس ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾ [المائدة] وقال تعالى في الزينة والآداب الإسلامية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف] إلى جانب تنظيم العلاقة في الأسرة بين أفرادها وما لهم وما عليهم، وتنظيم العلاقة الزوجية ليستقر البيت، وتنوعت الأحكام بين الحلال والحرام والمكروه والمندوب والمستحب والمباح، وعلى مستوى الجماعة كان التشريع المنظم للعلاقة بين الناس وبين الراعي والرعية والتأكيد على حقوق الفرد ضمن الجماعة وعلى حقوق الجماعة بالنسبة للأفراد وعلى صون الملكية الخاصة والملكية الجماعية، كما سن العقوبات الرادعة والزاجرة لسلامة المجتمع وأهله، كالقصاص من الجاني في حالة القتل أو السرقة أو الزنا ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة] ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾ [المائدة] ومقت الإسلام الزنا ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور] وهذا العقاب لغير المحصن أو المحصنة، وفي الحديث الشريف «**لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة**» ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة] واتخذ عقاباً رادعاً للمفسدين في الأرض ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة] ولما أتم الله التشريع أعلمنا بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة].

***

حجة الوداع

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد بدأ الحج منذ أذن إبراهيم عليه السلام بأمر من الله تعالى يدعو الناس إلى الحج ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] غير أن الحج قد دخله ـ بعد زوال الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل ـ كثير من الانحرافات والعادات الجاهلية، فبقي من الحج اسمه، واخترع الحمس من أهل مكة لهم أعمالاً متميزة عن غيرهم كالوقوف بمزدلفة لا بعرفات لأن مزدلفة داخل الحرم وعرفات خارجه فكانوا يقولون: نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته، وخالفهم فيها النبي ﷺ قبل الإسلام في ذلك متبعاً الحنيفية، ثم أكد الإسلام على وقوف الجميع بعرفات ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة]، وكان للنساء ملابس خاصة بهم للطواف فإذا لم يجدن هذه الملابس طفن عراة وهذا منتهى الخروج عن شريعة الحج التي فرضها الله، ولما فتح

النبي ﷺ مكة في رمضان سنة ثمان للهجرة عاد إلى المدينة في ذي القعدة ولم يحج هذا العام، وفي العام التالي كلف النبي ﷺ أبا بكر بأن يحج بالناس وأرسل في إثره علي بن أبي طالب لينادي بسورة «براءة» ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة]، وتسمى الآية الخامسة آية السيف، ونادى بها علي رضي الله عنه، وسمعها كل من حضر الموسم، كما نادى ألا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وذلك تمهيد لحج النبي ﷺ في العام القادم، فكان لا بد من إبعاد المشركين عن المسجد الحرام لكي يتبين الناس الحج المشروع فلا تختلط عادات الجاهلية مع التشريع الإسلامي، وبما أن الحج عبادة عملية تحتاج إلى المعرفة والإتقان فإن حج النبي ﷺ سيكون البيان العملي لهذه العبادة لذلك لما حج في العام القادم ـ حجة الوداع ـ كان يقول للناس: «**خذوا عني مناسككم**» وهكذا جاء العام العاشر وتجهز النبي ﷺ للحج وحج معه أكثر من مائة ألف، فشرع بالحج من الميقات في **ذي الحليفة** حيث أحرم من هناك وحدد مواقيت الإحرام للجهات الأخرى فكانت **الجحفة** للقادمين من جهة البحر **ويلملم** ميقات أهل اليمن **وذات عرق** ميقات أهل العراق، **وقرن المنازل** ميقات أهل نجد مع إمكانية المحاذاة لمن قدم من طريق بين ميقاتين، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ «وقت لأهل المدينة **ذا الحليفة** ولأهل الشام **الجحفة** ـ وزاد الترمذي ومصر ـ ولأهل نجد **قرن المنازل** ولأهل اليمن **يلملم**، هن لهن ولكل آت أتى عليهن من غيرهم ممن أراد الحج والعمرة،

فممن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ حتى أهل مكة من مكة» وعلم النبي ﷺ الناس الإحرام والإهلال بالحج مفرداً أو متمتعاً أو قارناً، وما يلزم كل نوع من الهدي، وبعد الوصول إلى مكة، علمهم أعمال الحج من طواف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة ثم مروراً بمنى والنفرة إلى عرفات فجر التاسع من ذي الحجة والوقوف بعرفة والصلاة فيها والخطبة والنفرة بعد الغروب إلى مزدلفة والمبيت فيها ثم العودة إلى منى ورمي الجمار والحلق أو التقصير ونحر الهدي ثم طواف الإفاضة والمبيت بمنى أيام التشريق لرمي الجمار ثم طواف الوداع، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧] لقد كانت هذه الحجة درساً عملياً للمسلمين أخذوا مناسكهم كاملة عن النبي ﷺ بنظام معين وترتيب لا خلل فيه وعلى المسلمين مراعاته خصوصاً في الأعمال التي لا يصح الحج إلا بها كالوقوف بعرفات وطواف الإفاضة والسعي، وهناك مجال للاجتهاد يستنبط من فعل النبي ﷺ حيث سئل النبي ﷺ من قبل أشخاص قالوا: نحرت قبل أن أحلق، قال: «**افعل ولا حرج**»، ومن قال: نحرت قبل أن أرمي، قال: «**افعل ولا حرج**»، ثم يؤخذ من فعله في نزوله في الأبطح وعدم مزاحمة دور مكة وفي مبيته بمنى وعدم إقامته بمكة أمور لعلها تفيد في التخفيف عن المسلمين في هذه الأيام التي ازداد فيها عدد الحجاج بشكل ملحوظ مما أدى إلى وقوع اختناقات وحوادث زحام مؤسفة تحتاج إلى حلول تيسيرية لا تخرج عن إطار الشرع وأحكام الحج.

قد يقول قائل لماذا الحج بهذه الطريقة وتجشم التعب وصرف المال؟

فالجواب أن الله تعالى أراد أن يكون له بيت عزة في الأرض له قدسيته واحترامه يضبط به وحدة التوجه واجتماع أمة الإسلام فلا تذهب قلوبهم شتى، وهذا المكان أعلى الله شأنه وجعل أرضه حرماً تصان فيه الحياة للإنسان والحيوان والنبات ـ مع استثناء الفواسق الخمس ـ وهذه الخصوصية للحرم تؤكد على المسلمين إجلالها ووضعها في المكانة الأسمى وتعميق حبها لأن الله خالقنا أحبها وطهرها واختار إقامة بيته فيها وما علينا

إلا أن نحب من أحب الله ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة] فهي أحب البقاع إليه سبحانه، ولكن هذا الحب منا ليس حب عبادة وإشراك شيء مع الخالق، وإنما حب احترام ومزيد عبادة لله فيها، لما للعبادات فيها من مضاعفة الحسنات، وحب اقتداء ودفاع عنها فيما لو قصدها مغير كافر وحاقد، والحج نقلة بين الغيبي والحسي، فإذا كان الإيمان بالله تعالى غيبياً فقد أرانا الله تعالى من دلائل قدرته في هذه الدنيا نعمه المحسوسة وقربنا إليه بما أحب واختار من بقاع، فإذا طفنا بالبيت فلله ولأمر الله وإذا سعينا ووقفنا بعرفات فكذلك، وقوف ارتقاء بالنفس والتخلص من أدران المادة وتعلقها بالخالق المبدع في هذه الأرض القدسية التي يشعر فيها المرء بروحانية فريدة ورهافة نفس تشف صفاء فريداً من عوالق الكدرة وشوائب الآثام ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] فالحج فرض على المستطيع والاستطاعة تعني المقدرة المالية والبدنية ويدخل فيها أيضاً أمن الطريق، فإذا توفر المال فعلى المسلم أن يبادر إلى أداء الحج، وأما صحة البدن فإن السقيم والعاجز وذا العاهة بإمكانهم إذا كانوا أغنياء توكيل من يحج عنهم، لقد قدس الله زمن موسى عليه السلام وادي طوى، وبيت المقدس في زمن داود وما بعده، وقد سبق كل هؤلاء المسجد الحرام والكعبة فيه، وهذا التقديس فيه فوائد قد لا يدركها كثير من الناس، ففائدتها للمسلمين تعبدية في أداء الصلوات وفي أداء الحج والعمرة، وبالنسبة لغير المسلمين لبقية العالم إن من الخير للأرض أن يكون فيها لله مكاناً مقدساً جعله من أفضل البقاع وبهذا يكون للأرض أماناً من الغضب الرباني المزلزل، فإذا كانت تشهد إنذارات هنا وهناك فإنها على وجه العموم آمنة لهذه البقع المقدسة فيها، والحظ الأفر لساكني هذه الأماكن.

وإذا استعرضنا العبادات العملية نخلص إلى الآتي:

ـ الصلاة عبادة يشترك فيها كل المسلمين ذكوراً وإناثاً، الغني منهم والفقير والسليم والمريض، ولا يعفى منها أحد إلا بعذر حدده الشرع وهو المرأة الحائض أو النفساء و المجنون و فاقد الوعي إذا لم يفق، ويمكن القول: إن الصلاة عبادة تطلب من جميع المسلمين بلا استثناء لذلك كانت من الأهمية بمكان، فمن ضيعها كان لما سواها أضيع، فكل المسلمين قادرون على أدائها.

ـ الزكاة عبادة مالية اختص بأدائها الأغنياء الذين يملكون نصابها وهي تؤخذ من الأغنياء لتُرد على الفقراء.

ـ الصوم عبادة بدنية في شهر رمضان، وتعني الامتناع عن الطعام والشراب والجماع في نهار رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويعفى المريض والمسافر والحائض والنفساء وفاقد العقل والوعي، لكن على هؤلاء القضاء إذا زال العذر، وهذه العبادة يشترك فيها كل الناس ما عدا المريض مرضاً لا يرجى برؤه والمجنون وفاقد الوعي إذا لم يفيقا.

ـ الحج عبادة بدنية مالية تفرض على المسلم المستطيع مرة في العمر، ولها فوائد كثيرة تجعل المسلم حركياً نشيطاً، يسافر سفر طاعة فلا يركن في مكانه دون أن يتحرك ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وفي أداء الحج يجتمع المسلم بإخوانه من أقطار شتى يتعارفون ويتدارسون قضايا أمتهم وما يحتاجون إليه من عون ورأي ومشورة، فنعمت السياحة الحج، فيه تُشد الرحال إلى المسجد الحرام وبإمكانهم المتابعة لزيارة المسجد النبوي والمسجد الأقصى ليتحقق لهم ثواب زيارة المساجد الثلاثة وفق حديث «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى**» وفي هذه الانطلاقة يعتاد المسلم السفر وبذل الجهد والتعرف على القبلة المعظمة التي يتجه إليها في الصلاة فيستذكر الخلف خطوات السلف كما يتعرف على معالم الدولة الإسلامية الأولى فينشد إلى عالم العزة والتفوق الحضاري الباهر، ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ

ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] وبعد حج النبي ﷺ حجة الوداع في العام العاشر الهجري ونزلت عليه آخر آية تخبر باكتمال التشريع الإسلامي ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وعاش النبي ﷺ بعد حجة الوداع ثلاثة أشهر ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة فجزاه الله خيراً عن أمة الإسلام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

بقي قبل أن أختم القصص القرآني أن أجيب عن أمرين:

الأول: هل هناك سبع أرضين؟

الثاني: هل في هذه الأرضين حياة؟

الجواب الأول: نعم هناك سبع أرضين وذلك بنص القرآن الكريم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق] ولكن أين هي؟ قول للمفسرين بأنها الكواكب السيارة: الأرض والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، وكانت هذه الكواكب هي التي يعرفها الفلكيون القدماء وهي التي يعرفها العرب لإمكانية رؤيتها بالعين دون واسطة، والقرآن الكريم نوع في الخطاب، فتارة جعله سهلاً في متناول مدارك الناس جميعاً، وتارة أعلى شأن الخطاب فلا يدرك المعنى إلا كبار العلماء وتارة توسط في الخطاب فيدركه المتعلمون ويغيب فهمه عن الأدنى معرفة وثقافة، وتارة اختص الله نفسه بعلم فكان من باب التحدي للعقول وحثها على بذل الجهد للاجتهاد وهذا قليل كما في حروف بدايات السور «﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ - ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ . . .» وذكر الله ذلك في سورة آل عمران ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] وفسر علماء آخرون الأرضين السبعة بطبقات الأرض «القشرة الأرضية الخارجية والسيما والسيال إلى أن يصلوا إلى النواة، فهي مطبقة بعضها فوق بعض كما هي السمٰوات طبقاً لقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ ولكن هذا الاحتمال بعيد،

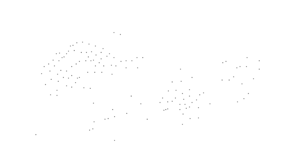
فالرأي الأول أكثر قبولاً، وأما ما ورد في الآية السابقة ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فهذا يعود إلى السمٰوات ما بين سماء وسماء، وبينهن وبين الأرض لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] فلم يكن الأمر إلا للأرض وليس للأرضين، أما أن يكون قد عنى بالأرضين السبع الكواكب السيارة فهذا أقرب إلى فهم العرب الذين عرفوا أنها توائم الأرض من حيث تلقي ضوء الشمس وعكسه كالمرآة وذلك بسبب ما يرونه من الخسوف والكسوف والاختلاف البين عن الشمس وأشعتها، وإذا ملنا مع هذه الفكرة يبقى السؤال، هل من أحياء على هذه الكواكب أو في غيرها من هذا الكون الفسيح؟ ذكر الشوكاني صاحب تفسير «الفتح القدير» قال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه، ونقل عن ابن عباس قوله: «سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى» قال البيهقي هذا إسناده صحيح وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً. وهناك أحاديث واهية ومنكرة فيها خلط كثير حول هذا الأمر، وسأبرهن من القرآن الكريم بما يفيد أن الحياة هي على الأرض التي نعيش فوقها فقط، قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] فتسبيح من في السمٰوات معروف لأن فيها الملائكة كما في حديث المعراج وأحاديث كثيرة وكذلك سكنى عدد من الأنبياء في هذه السمٰوات مع الملائكة، أما الأرض فذكرها الله بالإفراد لعدم وجود أحياء في بقية الأرضين الأخرى ولو كان فيها أحد مما ورد في حديث ابن عباس ـ وهو لم يقله بالطبع وإنما دسوا اسمه كذباً كما تُفترى أحاديث باطلة عن النبي ﷺ ـ ونلاحظ أن كلمة مَن وهي اسم موصول للعاقل أنه قصد باستعمالها العقلاء من ملائكة وإنس، ولو كانت ما لشملت كل مخلوق عاقل وغير عاقل، كما ورد في آيات أخرى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر] لكن في هذه الآية استعملت من لقصد العاقل، فلما خص العقلاء بالتسبيح وهم ملائكة السموات، والإنسان على هذه الأرض، أتى على ذكر بقية المخلوقات في تتمة الآية ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وذلك لإعلامنا أن الحياة

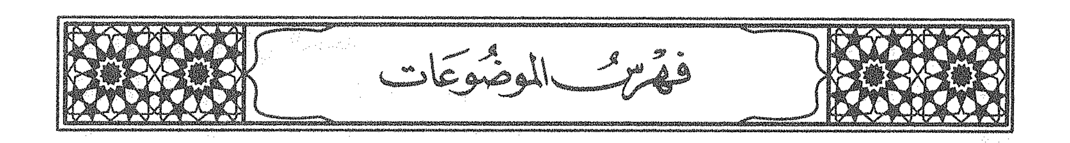
على أرض واحدة من الأرضين السبعة وحتى لا يظن ظان أنه لا يسبح الله إلا العاقل فقط أتبعها بأن كل شيء يسبحه، وكذلك في سورة يونس ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [٦٦] فعندما أراد العقلاء جمع السمٰوات لوجود الملائكة وأفرد الأرض لوجود الإنسان عليها فقط ولو كان الإنسان موجوداً في بقية الأرضين لقال: (من في السمٰوات ومن في الأرضين) **هذا هو الدليل الأول**، أما الدليل الثاني ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت] وهنا ذكر الله تعالى الأرض بالإفراد وأنه خلق جبالها وما فيها من أرض ونبات وحيوان وإنسان في أربعة أيام وخلق السمٰوات السبع وما فيها في يومين، فلماذا قدر للأرض هذه الزيادة في خلقها عن السمٰوات السبع، ذلك ليشعرنا أن الأرض فيها من الخلق الكثير المتغير والمتبدل الذي يفوق خلق السموات، فالأرض حالة متغيرة باستمرار على مدى اللحظة والثانية فيها موت وحياة وولادة لكل كائناتها فأخذت الوقت الأطول من السمٰوات التي لا يوجد فيها مثل هذه المتغيرات، فالملائكة أحياء لا يموتون ولا يتوالدون أو يتكاثرون، طعامهم وشرابهم التهليل والتسبيح، فالمتغيرات في السمٰوات ليست كالمتغيرات على الأرض، أحياء كثيرة متنوعة وأعمال تحصى على الناس، فيها الخير وفيها الشر، وحركة حياة لجميع الكائنات لا تهدأ، فالإنسان الواحد على سبيل المثال له سجل في كل حركاته وسكناته ولا يطوى إلا بنازلة الموت به، وقس على ذلك البشر وما على الأرض من أحياء دقيقة وجليلة، كلها أعطاها الله قوانينها التي تحيا بها مع قيوميةٍ لله عليها فلا تأخذه في متابعتها سنة ولا نوم إحاطة تامة بكل شيء، ولو كان في الأجرام السماوية الأخرى أحياء كما هو على الأرض لاحتاجت مدة خلق كل واحدة منها كما احتاجت الأرض ولكن هذا العلوي كله بما فيه مع سماواته السبع قدر الله خلقه في يومين، فحركته الحياتية وتغيراتها لا

تتشابه مع مداومة متغيرات الأرض، فالملائكة وهم أحياء السماء لا يموتون إلا بعد موت الخليقة كافة فلا يبقى إلا الواحد الأحد الذي يقول: «لمن الملك اليوم؟ فلا يجيب أحد ويجيب المولى نفسه فيقول لله الواحد القهار» فتقسيم خلق السمٰوات والأرض على ما قدره الله ـ وهذا ما أخبر به الله ولو شاء بقدرته لكانت كلها موجودة بكلمة كن ـ تعني إعطاء الأرض زمناً أكثر بمرتين من زمن خلق السمٰوات السبع، كما أن الأيام المقصودة لا يعلم طول مدتها بحسب أيامنا إلا الله تعالى، ولكن هذه إشارات ربانية يفهمها من وفقه الله لفهمها ليعمل عقله، وإذا قيل: إن لم يكن على بقية الأرضين حياة مشابهة لأرضنا فما الحكمة من خلقها؟ فالجواب أن الحكمة قائمة لأن بين الكون كله رابط من نوع ما، وما توازن الأرض ودقة دورانها إلا بوجود علاقة بين مكونات الكون كلها بعضها مع بعض وإن كنا لم نصل بعد لهذا التحديد.

وعليه فما يثار في هذه الأيام من وجود مخلوقات وحياة في أماكن في الكون كله خيال ولن يصدقه الواقع، وإن من الفتنة وتغيير الحقائق عن غير علم أن تكثر الأفلام عن مخلوقات الكون الآدمية وأن هناك من هو أرقى من إنسان الأرض ويعمل على غزونا والوصول إلينا وتدمير حضارتنا، فالإنسان على هذه الأرض هو المستخلف لا سواه وهو كما نشاهد من الحياة بإمكانه أن يكون عنصر خير وبناء أو عنصر شر وهدم وتخريب.







فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

